عبدالله القصيمي ..
وجهة نظر أخرى !!

. ترجمته
. سبب إلحاده
. كتبه الإسلامية
. ردود العلماء والكتّاب عليه

سليمان بن صالح الخراشي

روافد

عبدالله القصيمي ..

وجهة نظر أخرى!

سليمان بن صالح الخراشي

روافد للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان – بيروت - خلوي / ٠٠٩٦١٣٢٢٦٥١٢٦

الطبعة الأولي ١٤٢٩ ـ ٢٠٠٨

البريد الالكتروني : rawafed@libnan.cc-STConline

عبدالله القصيمي ..

وجهة نظر أخرى!

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

لم يكن عبدالله القصيمي أول مسلم مُلحد يصرح بإلحاده، ففي تاريخ المسلمين عدد من أمثاله، وصل الحال ببعضهم أن عارض القرآن بكلامه السقيم (١)، ولذا تكرر الحديث عن هذا الصنف من المنقلبين في آيات عديدة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد: ٢٥]، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١].

ومنها تهديدهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١١].

---

(١) كابن الراوندي الملحد: أحمد بن يحيى بن إسحاق (ت ٢٩٨هـ)، قال عنه الحافظ ابن حجر: «صنف كتبًا كثيرة يطعن فيها على الإسلام»، ونقل عن ابن النديم صاحب الفهرست أن ابن الراوندي «كان في أول أمره حسَن الأمر، جميل المذهب، ثم انسلخ من ذلك كله». (لسان الميزان ١/ ٦٩٥-٦٩٦).

لكن الملفت في تجربة القصيمي عند من احتفى به أنه ذو سابقة علمية سلفية، وسابقة دفاعية عن الإسلام الصحيح، أمام المناوئين والمبتدعين، وهذا ما أعطى تجربته فرادة وإثارة واستغراباً، وبعضهم قد اتخذ منها مغمزاً في أهل السنة ومنهجهم، وفات هؤلاء أخبار المرتدين بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فهل هذا يقدح في الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وفي منهجهم؟!

يضاف إلى ذلك أن «تمرد» القصيمي الطاغي في كتاباته الأخيرة جذب عقول فريق ممن تستهويهم مغامرات التمرد والتعدي على الحدود، ولو كانت حدود الدين وأحكامه، ولهذا لا عجب أن يُخبر ناشر كتبه الأخيرة عن تهافت الشباب عليها.

لقد أحدث إلحاد القصيمي ضجة واستغراباً في حينه، فتوالت عليه الردود وأصبح حديث أهل العلم والفكر في منتدياتهم وصحفهم، ثم خفتت تلك الضجة حيناً من الدهر، بعد أن اختار وجهته بإصرار وعناد، غير آبه بالناصحين المحذرين.

ثم جاء من يبعثها في السنوات الأخيرة بمناسبة وفاته، ولسبب آخر مهم؛ هو أنه ينتمي للمملكة العربية السعودية، فحالته مستغربٌ وقوعها في هذه البلاد (بلاد الحرمين) التي ازداد تسليط الضوء عليها بعد أحداث

الخليج ـ تقريباً ـ فأصبحت محط أنظار كثيرين، مختلفين في نظرتهم ومشربهم، ومن هنا جاء الاهتمام بهذه الشخصية الفريدة.

ومن تلك الجهود الباعثة لفكر القصيمي، وكتبه، إفراد موقع «إيلاف» الإلكتروني ملفاً عنه، صيغ بعبارات احتفالية تمجيدية، ومثل ذلك إفراد صحيفة «عكاظ» حلقات عديدة للحديث عنه وعن أحواله وكتبه وأقوال المعجبين به المنافحين عنه [(١)]، مع خلط ذلك بقليل من شهادات المخالفين له؛ ومن أهم هذه الشهادات، شهادة الشيخ محمد بن عثمان القاضي، والشيخ الأديب عبدالله بن إدريس، وابن الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة ـ رحمه الله ـ، وقد أجادوا جميعاً في كبح جماح المحتفين به، بما ذكروه من حقائق تبين انحرافه وضحالة أفكاره. وإليك هذه الشهادات لأهميتها:

يقول الشيخ ابن إدريس: «عاش القصيمي في القاهرة وظل على جنسيته السعودية طيلة بقائه في مصر، وظلت حكومة المملكة العربية السعودية تصرف له راتباً شهرياً بصفته سعودياً مدة حياته..

يعد في النصف الأول من عمره تقريباً من العلماء السلفيين الذين أثروا

---

(١) بلغت (٣٩) حلقة، انتهت في تاريخ ١١/ ١/ ١٤٢٤هـ، من إعداد الكاتب هاشم الجحدلي، وسيتم توثيق ما يُنقل منها فيما يأتي ـ إن شاء الله ـ بحسب رقم الحلقة.

المكتبة العربية الإسلامية بكتبهم القيمة، فقد دافع عن الاتجاه السلفي دفاعاً قوياً تمثل في عدد من كتبه؛ نحو «البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدِجوية» وكتاب «الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم» رداً على كتاب محسن الأمين العاملي «كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب..»(١) وله كتب قيمة في هذا الاتجاه خلال فترة حياته السلفية.

لكنه بدأ يأتي بما لا يتفق مع توجهه السالف بدءاً بكتابه «هذه هي الأغلال» ثم بكتابه «العالم ليس عقلاً» وما بعد هذين الكتابين أشد وأنكى؛ مثل «هذا الكون ما ضميره»، «العرب ظاهرة صوتية»... الخ.

لقيته أكثر من مرة في السفارة السعودية في القاهرة وطلب مني زيارته في منزله بروضة المنيل للمشاركة في جلسته الأسبوعية، والحقيقة أنني كنت أتهرب من المشاركة في جلسته تلك؛ لما وقر في ذهني عنه بأنه لم يعد يسير وفق الاتجاه الإسلامي، بل تغير تغيراً كبيراً في فكره وآرائه وثوابته الإسلامية من النقيض إلى النقيض، وهذا ما لا أطيق الانسجام معه».

---

(١) الصواب أن كتاب «الفصل الحاسم» ردٌ على المتصوفة من شيوخ الأزهر؛ كالدجوي والمراغي ـ كما يأتي ـ أما الرد على الرافضي محسن الأمين فهو كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية».

وقال الشيخ محمد بن عثمان القاضي بعد أن تحدث عن حياته: «وطلب مواجهة شيخنا ابن سعدي في بيروت، واشترط شيخنا عليه الرجوع إلى سابق عهده، فامتنع، وكان من تلامذة الشيخ ابن بشر وسماحة الشيخ محمد بالرياض، وكان ابن بشر متفرساً منه في أسئلته الانحراف ... وكنت أنصحه طامعاً في رجوعه، ومن عام ١٣٨٨هـ انقطعتُ عنه، ولا أدري عن خاتمته»[(١)].

وقال الأستاذ عبدالرزاق ابن الشيخ محمد حمزة: «كتب الأستاذ هاشم الجحدلي في صحيفة عكاظ[(٢)] الصادرة يوم الخميس الموافق ٥/ ٢/ ١٤٢٣هـ، مستشهداً بما كتبه عبدالله القصيمي في بعض كتبه، ووصفه بالمفكر الكبير، ولابد أن القراء الأعزاء يودون معرفة معلومات أكثر عنه، ولذا فقد اخترت العنوان الذي اختاره شيخنا الكبير أبوعبدالرحمن الظاهري للحوار الذي دار بينه وبين عبدالله القصيمي في القاهرة قبل سنوات قليلة من وفاة القصيمي وقد نشره في الكتاب الذي نشرته مؤسسة تهامة أيام أن كانت تنشر، وقد اخترت هذا العنوان لأنه يتضمن حواراً جرى بيني وبين من جرى الحوار بينه وبين شيخنا ابن عقيل، فأقول وبالله التوفيق:

---

(١) ملف جريدة عكاظ، الحلقة الثانية.

(٢) المصدر السابق، الحلقة العشرون.

في أواخر الخمسة الأولى من العام ست وستين بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكنت في السنوات الأخيرة من المرحلة الابتدائية رأيت أبي الشيخ المرحوم محمد عبدالرزاق حمزة الإمام المساعد لخطيب وإمام الحرم المكي الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح وكنا في فصل الصيف بالطائف، رأيت والدي منكباً على الكتابة، وكان من عادته يرحمه الله أن يكون منكباً على القراءة، وكان يطلب مني أن نصحح سوياً بعض الكتب بأن أقرأ عليه وهو يقابلني على نسخة أخرى، مما يحرمني من ممارسة حقي في الإجازة (تفكير طفولي)، بعد ذلك عرفت أن الوالد يرد على كاتب انحرف بعد أن كانت له صولات وجولات في الدفاع عن ديننا الإسلامي الحنيف، وبخاصة مذهب أهل السنة والجماعة من السلفيين، ولما يمضي وقت طويل حتى ظهرت ثمار هذا الانكباب، إذ ظهر إلى الوجود كتاب سماه الوالد اسماً طويلاً على عادة العلماء الأقدمين هو: (الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال على ما فيه من زيغ وكفر وضلال بالعقل والنقل)[1]، ويقع الكتاب في أكثر من مائة وثمانين صفحة من الحجم الكبير غير المقدمة الإضافية التي كتبها عميد أساتذة الصيدلة بمصر: الأستاذ: محمد أحمد الغمراوي، مؤلف

(١) سيأتي وصفٌ وبيانٌ لمحتواه ـ إن شاء الله ـ.

كتاب «النقد التحليلي» الذي يرد فيه على الدكتور طه حسين في كتابه «الشعر الجاهلي» وكتاب «في سنن الله الكونية»، وهذه المقدمة بلغت صفحاتها ثمانية وثلاثين صفحة، وهذا العالم الجليل الغمراوي هو أول عميد لكلية الصيدلة بجامعة الملك سعود بالرياض، وقد جاء في مقدمة مقدمته قوله:

«وبعد: فهذا كتاب في الرد على كتاب هذه هي الأغلال، كتبه أخي في الله الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة المدرس بالحرم المكي الشريف، تأييداً وتتميماً للرسالة المقنعة الممتعة التي كتبها علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن السعدي في نقد نفس الكتاب، والتي سماها «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»[1]، ثم يقول الأستاذ الغمراوي: «وقد أقنعتني جميعاً بتفاهة الكتاب وسخفه فصدتني عن قراءته فضلا عن الاهتمام بنقده، رغم رجاء أحد تلامذتي وزملائي إياي أن أنقده؛ لأنه كما قال:

كتاب سوء يحارب الإسلام بكل وسيلة ومن كل سبيل، لكن الموقف تغير حين طلب إليّ أخي وصديقي الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة أن أعلق على كتابه، وأن أقدم له إن أمكن، وحين أرسل إليّ مع كتابه رسالة الشيخ السعدي هدية من نبيل جدة ووجيهها الشيخ محمد نصيف، قرأت رسالة

(١) سيأتي وصفٌ وبيانٌ لمحتواها ـ إن شاء الله ـ.

الشيخ السعدي ثم قرأت كتاب الشيخ حمزة؛ فإذا بي أمام أمور فظيعة منسوبة إلى صاحب الأغلال، ونصوص شنيعة منقولة عن كتابه، لم يذهب بي الخيال يوماً إلى أن مثلها يمكن أن يصدر عن مسلمٍ كان له يوماً في الإسلام قدم، ولم أجد بداً حين قرأت الكتابين من أن أقرأ كتاب الأغلال من أوله إلى آخره؛ لأعرف حقيقته من غير واسطة إن كنت كاتباً مقدمة للرد عليه. قرأته فإذا الأمر أفظع حتى مما يبدو من خلال الكتابين».

أما الشيخ سيد قطب فقد كتب في مجلة السوادي الأسبوعية يوم الاثنين ١٧/ ١١/ ١٣٦٥هـ كلمة ضافية [(١)] أضافها الوالد في كتابه، وتقع في ست صفحات، يقول فيها: «للكتاب وصاحبه معي قصة ما كنت لأفشيها للناس لولا أنها تكررت مع غيري، فلم تعد سراً، أهدى إليّ الرجل كتابه ومضت فترة لم أكن قد فرغت فيها لقراءته، ثم تفضل فزارني مع صديق كريم عزيز أحمل له في نفسي وداً مكيناً، وسر لي الصديق، ثم أعلن أنه وافد إلي في مهمة، أن حرية الفكر في خطر، فهذا الرجل قد عنت له أفكار جريئة فأودعها كتابه، وخصومه من الرجعيين والنفعيين يدسون له، وأنه على وشك أن يستدعي لمحاكمته وربما لشنقه، وأن علي ككاتب يقدر رسالة الفكر

(١) ستأتي بتمامها في ردود سيد قطب على كتاب «هذي هي الأغلال» ـ إن شاء الله ـ.

أن أشارك في الذود عن حرية الفكر الموشكة على الاختناق، ولم يكن بد من أن أتحمس في أول الأمر، فعزيز على صاحب فكر وقلم أن يسمع ويرى خنق حرية الفكر ولا يتحمس أو يثور، ووعدت أن أفعل في حدود ما أستطيع، وجلس الرجل وأخذنا بأطراف الحديث ـ في داري ـ وشيئاً فشيئاً بدأت أشم رائحة في الحديث، رائحة ليست نظيفة» ثم يستطرد سيد عن انطباعه السيء عن صاحب الأغلال ويقول: «وطال الحديث وأنا بعد هذا كله لا أزال معتزماً أن أقرأ الكتاب فإن وجدت فيه حرية رأي حقيقية وفكرة ناضجة قوية دافعت عن الرجل، ولو خالفته في فكرته كل المخالفة، ثم عدت إلى الكتاب، وهنا تحول شعوري إلى اشمئزاز عميق، هذا رجل منافق يريد أن يطعن الطعنة في صميم الدين خاصة، ثم يتوارى ويتحصن في الدين، ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتي بشيء (دون كيشوت) جديد يطعن في الهواء، ثم هذا الرجل يسرق أفكار غيره بالنص، وينكر أن يكون قد قرأ شيئاً عن هذه الأفكار، ثم وهو الأهم هذا رجل مريب».

ثم يقول: «هذا رجل تنقصه الجرأة على أن يقول ما يريد أن يقول، وإذن فلا حرية فكر ولا خطر على حرية الفكر، إنما هي دعوة خبيثة ملتوية ضد التدين وبخاصة الإسلام، وضد الروح الخلقية في النفس والضمير».

ثم يقول: «هذا رجل لا يخاف عليه من اعتقال ولا شنق ولا سواهما، إنه رجل يعرف طريقه جداً فلا داعي للخوف الشديد».

وقد صدق حدس الشيخ سيد قطب، لقد عاش القصيمي بعد هذا الكتاب قرابة نصف قرن، ولم يُقَدَّم إلى مشنقة أو مقصلة، ويختتم سيد مقالته بقوله: «لقد كنت على استعداد أن أدافع عن الرأي المخالف لو وجدت شيئاً ذا قيمة، ولو وجدت إيماناً حقيقياً بفكرة، ثم لو لم أشم هنا وهناك رائحة شيء ما، شيء غير نظيف».

أما المرحوم الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح إمام وخطيب الحرم المكي الشريف وقتئذ فقد جادت قريحته بثلاث قصائد عصماء يهجو فيها هذا الضال، وقد بلغت أبيات هذه القصائد الثلاث سبعة وسبعين بيتاً، وهي موجودة في كتابه المسمى «حياة القلوب»[(١)] نجتزئ منها هذه الأبيات:

مدحتك يـا أخـا الأغـلال قـبلاً ... بما ألفت (من سِـفر الـصراع)[(٢)]
فأمـا الآن فاسـمع مـن قـوافي ... هجائـك مهلكـاتٍ كالأفـاعي
تـساور مارقـاً يـدعو لكفـر ... تـردى في الثـرى بعـد ارتفـاع
عـزوتَ إلى الـشرائع كـل نقـص ... ومنك الـنقص في كـل المـساعي
وقلـت (الـدين أخـر تابعيـه) ... وهـذا قـولُ أحمـقَ لا يراعـي

ثم يقول:

(١) ستأتي بتمامها ـ إن شاء الله ـ.

(٢) يعني: كتاب القصيمي «الصراع بين الإسلام والوثنية» كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ.

فقل لي يا أخا الأغلال واصدق ... أكذب منك أم قِصَر اطلاع؟
جنونٌ منك أن تدعو لكفر ... وتؤثره بمنزور المتاع
تبيع الدين بالدنيا غرورا ... لتُشهر بين أوباش رعاع

وفي نفس الفترة ألف الشيخ عبدالله بن يابس كتابه في الرد على أغلال القصيمي، وسماه اسماً مختصراً هو: «الرد القويم على ملحد القصيم»[(١)] ويقع الكتاب في أربعمائة وثلاثة وأربعين صفحة من الحجم الكبير، وطبع في مطبعة الإمام بالقاهرة، وقد كتب الشيخ ابن يابس تحت العنوان بعض الجمل أقتبس منها ما يأتي:

«أيها المسلمون إن مؤلف الأغلال القصيمي الذي يسكن في أرضكم ويشرب من مائكم، ويأكل من أرزاقكم، يمدح أعداءكم اليهود، ويفضلهم عليكم، ويحرف آيات القرآن النازلة في ذمهم، والمخبرة بهوائهم، ويُفضل توراتهم على لباب الإسلام .. وحينئذ فيجب عليكم جهادهم غضباً لدينكم ووطنكم وجنسكم، وجاهدوا من يؤيدهم أو يناصرهم، هذا عدا ما فيه من مدح للملحدين الأولين منهم والآخرين، وما فيه من طعن على الشريعة وأصولها وفروعها».

---

(١) سيأتي وصفه وبيان محتواه ـ إن شاء الله ـ.

وقد استهل الشيخ ابن يابس كتابه بقصيدة بلغت أكثر من عشرين بيتاً عنونها بهذا العنوان «إلى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حفظه الله وأصلح بطانته»، نجتزئ منها هذه الأبيات:

يـا أيهـا الملـك الحـامي حقيقتـه ... ومن تحاشى عن الأدناس في حسبه
أما علمت بأن الخلق قـد عرفـوا ... أن القصيمي يُعدي الناس من جربه
فلستُ أدري وكل المخلصين معي ... مـاذا يؤمَّـل مـن ذي الذمـة الخربـة
من بعد ما ظهـرت سـود جرائمـه ... وأن نصر خصوم الـدين مـن أربـه

وبعد هذه القصيدة جاءت قصيدة أخرى عدد أبياتها ثلاثون بيتاً نقتطف منها:

من عذيري من القصيمي الصعيدي ... ثالـب الـدين طـاعن التوحيـدِ
مـــادح الكفـــر في جميـــع قـــواه ... نـاصر للفسـوق خـدن الجحـودِ

وبعد قيام الثورة في مصر عام ١٩٥٢م أخرجته الحكومة منها فذهب إلى بيروت وعاش فيها فترة من الزمن، لكن جنوده في مصر رفعوا على الحكومة المصرية قضية أمام مجلس الدولة وكسبوها فعاد إلى القاهرة.

وقد وجدت بين أوراق والدي خطاباً مؤرخاً في ٢١/١٠/١٩٥٦م من المرحوم الشيخ علي الطنطاوي، وكان وقتها رئيساً لمحاكمة التمييز في سوريا، يقول فيه: أخذت مقالكم في الرد على الملحد الخبيث القصيمي

ـ قصف الله عمره وأراح المسلمين منه ـ ثم يقول: «لا سيما وأنا أكره هذا الخبيث القصيمي كما أكره الملعون الآخر خالد محمد خالد، وأكره كل من يشتري الشهرة بالكفر، ويتقرب إلى المجددين التقدميين بما يبعده عن الله».

كان هذا عندما ألف الأستاذ خالد محمد خالد كتابه «من هنا نبدأ» والذي رد عليه الشيخ محمد الغزالي بكتابه المسمى: «من هنا نعلم» والحمد لله أن الشيخ خالد عاد عما جاء في كتابه من هنا نبدأ وأخرج كتبا كثيرة أوضح فيها هذه العودة،[1] وفي أوائل عام ١٣٧٦هـ ابتعثتني وزارة المعارف إلى مصر للدراسة العليا، فبقيت فيها عامين ونصفاً حصلت بعدها على دبلومين في الدراسات العليا؛ أحدهما في الدراسات الإسلامية والآخر في الدراسات الأدبية واللغوية، وفي هذه الفترة اجتمعت بالقصيمي لأول مرة في حياتي، وفي أول اجتماع سألته: ما هذا الذي ورد في كتابك هذي هي الأغلال؟ فقال: إني أبرأ مما في هذا الكتاب، فحمدت الله أن الرجل تاب وأناب وعاد إلى الإسلام، لكنه لم يدعني في فرحتي بل قال: لم تسألني لماذا أبرأ مما فيه؟ فقلت له: لخروجك فيه عن الصواب.

---

(١) الكاتب المصري الشهير، صاحب كتاب «رجال حول الرسول» صلى الله عليه وسلم، تراجع عن فكره العَلماني الداعي إلى فصل الدين عن الدولة، إلى فكر منحرف آخر، هو الجمع بين الصوفية والديمقراطية!، لي رسالة في كشف حاله، منشورة بمكتبة موقع الألوكة الإلكتروني، وللأخ إحسان اللحجي رسالة بعنوان «تدفق السيول لدك ضلالات خالد محمد خالد في كتابه: رجال حول الرسول»، دار الآثار بصنعاء.

فقال: لا وإنما أبرأ مما فيه لأنه رجعي!!، لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا لا بد أن يكون الرجل قد أوغل في الضلال، ثم وعلى طريقته في التحرش قال لي: ما الذي لم يعجبك في هذا الكتاب ؟ فقلت له: أشياء كثيرة منها موضوع القضاء والقدر، فسألني: وبماذا تؤمن في هذه القضية؟

فقلت له: كذا وكذا، فنظر إلي وقال: أهذا رأيك أم رأي والدك؟ فقلت له: بل هذا هو الرأي الذي علمنيه والدي (يرحمه الله) وقلت له: لماذا تهاجم ديننا وهو أكمل دين جاءنا عن طريق أكرم نبي؟ وهنا التفت إلي مغتاظاً وقال قبحه الله: ما أخر العرب إلا .. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: ٥] فقلت له: ماذا كان العرب من قبل .. حتى يؤخرهم؟ فقال: ما العرب إلا بصقة في تاريخ الإنسانية، فقلت له: أنا لا أرى أنهم بصقة، ولو رأيت ذلك لغرقت فيها، انزعج انزعاجاً شديداً، فهو مغرور جداً، ولم أناقشه بعد ذلك لعدم وجود نقاط اتفاق بيننا (١).

(١) وقد فعل القصيمي مع الأستاذ إبراهيم الحسون مثل هذا الفعل التحرشي البذيء، وقد ذكر هذا في كتابه «خواطر وذكريات»، (٣/ ٢٤٦-٢٥٠). وملخصه أن القصيمي استفزه بقوله: إن لبنان أفضل من الجنة!! مما جعل الحسون ـ بعد نقاشٍ غير مجدٍ مع الملحد، ينزل من السيارة غاضباً من جرأة القصيمي.

غادرت مصر وأنا أحمل أسوأ الذكريات عن هذا الرجل الذي أضله الله على علم، وتذكرت الآيتين الكريمتين اللتين استشهد بهما كل من رد عليه من العلماء الأفاضل، والواردة في سورة الأعراف: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

أهذا القصيمي الذي ألف كتاباً من جزءين وسماه «الصراع بين الإسلام والوثنية»، ودافع فيه دفاعاً كبيراً عن الإسلام؟ أهذا هو الذي ألف لنا كتاباً أسماه: «شيوخ الأزهر» يدافع فيه عن مذهب أهل السلف؟ أهذا هو الذي ألف كتاباً أسماه: «مشكلات الأحاديث النبوية» دافع فيه عن السنة النبوية؟ سكت هذا الضال سنين عديدة ثم خرج علينا بكتب منها: «كبرياء التاريخ في مأزق»، «هذا الكون ما ضميره»، «صراع الثيران في السياسة الدولية»، «العالم ليس عقلاً»، «العرب ظاهرة صوتية»، ويبدو أنه الأوحد في هذه الظاهرة، كما قال عنه المرحوم سيد قطب: إنه دونكيشوت[1] جديد».

---

(١) اسم رواية للكاتب الأسباني سرفانتس (ت ١٦١٦م)، تحكي قصة رجل مجنون، يعتقد أنه =

وفي الحوار المطول الذي دار بين الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل وبين القصيمي جاءت هذه الفقرات: «ورأيتك وسمعتك ليلة ٢١/ ٩/ ١٣٩٢هـ بجاردن سيتي لا تصدر في نقاشك عن منهج منطقي، ولو كان لمنطقك أصول لكان نقاشها أيسر وأهون، كما رأيتك وسمعتك تروغ في موضوع النقاش وتضيّع الحقيقة بالنكتة والسخرية .. وقلت لك: لولا عناية الله لمدّت البحار فغرق العالم، أو زادت حرارة الشمس فانصهرت الأرض، وقلتَ أنت في سذاجة: أين العناية في الكون ونحن نرى في الناس بؤساء وسعداء، فلماذا لا يكون الناس كلهم سعداء؟

وهذه هي نغمتك الممجوجة إذا زحمك البرهان لذت بعقدة القدر .. ولما تحدث القصيمي في السياسة استربت منه، وأكاد أزعم بأنه صهيوني مجند».

ثم يقول الشيخ أبوعبدالرحمن مثل ما قاله قبل ذلك بربع قرن الشيخ سيد قطب: «وجزمنا على أن القصيمي سطا على آراء غيره، أقرب دليل لنا عليه، أن كتب القصيمي لا نرى فيها ثبتاً بالمراجع لا في الحواشي ولا في سرد خاص، فليتوقَ أي متسرع اتهامنا بالحيف أو الادعاء».

بطل؛ فيخوض حروباً وهمية مع طواحين الهواء التي يظنها فرساناً متأهبين لقتاله.

وليس كما يقولون أول القصيدة كفر، بل كفر من أولها إلى آخرها، فلقد أخرج لنا كتاباً ضخماً تبلغ صفحاته أكثر من سبعمائة صفحة من الحجم الكبير والخط الصغير، وقد رأيت هذا الكتاب الذي يحمل عنواناً قبيحاً عند أحد أساتذتي، والعنوان هو: «الكون يحاكم الإله»، طلبت من أستاذي أن يعيرني هذا الكتاب لأقرأه، وكنا في شهر رمضان المبارك من أكثر من عشر سنوات، فقال لي: لن تستطيع قراءته، ولما رجوته وألححت في الرجاء أعطانيه، وبدأت بقراءة الإهداء ويا لهول ما قرأت ، هذا هو عبدالله القصيمي الذي وصفه الأستاذ هاشم الجحدلي بالمفكر الكبير، وكان الأجدر به أن يقول (الملحد الكبير أو الملحد ...)، والذي لم يهده تفكيره الكبير إلى ما اهتدى إليه ذلك الأعرابي البسيط عندما قال: إن البعرة تدل على البعير.

وأخيراً أقول ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ورحم الله كل من مات على دين الإسلام»[١] .

ويقول عبدالرزاق حمزة ـ أيضاً ـ

«إن إهداء الكتاب إلى الشيطان لأنه رمز العزة والأنفة والشموخ إذ أنه لم يطع أمر الله ويسجد لبشر من طين، تمالكت نفسي ونسيت القول المعروف:

---

(١) ملف جريدة عكاظ، الحلقة (٢٨).

الكتاب يُقرأ من عنوانه، أخذت أقرأ صفحة من هنا وأخرى من هناك؛ فوجدت الكتاب على ضخامته كله سباب وإنكار وتهكم وتهجم وسخرية من رب الناس، وكان بودي أن أنقل بعض فقرات منه ولكن خوفي من أن أصيب القارئ العزيز بما أصبتُ به من غثيان ورغبة في التقيؤ، أعدت الكتاب لصاحبه في الليلة التالية وأنا لم أقرأ عُشْره، سألني أستاذي قائلاً: ما شاء الله استطعت أن تقرأه بهذه السرعة؟ فقلت له: لم أقرأ ولا حتى عُشْره، فقال لي: ألم أقل لك إنك لن تستطيع عليه صبرا!

وقد كتب رئيس نادي الرياض الأدبي السابق الأستاذ عبدالله بن إدريس في صحيفة الجزيرة الصادرة يوم الثلاثاء الموافق ١٧/ ٢/ ١٤٢٣هـ عن حوار دار بينه وبين القصيمي في بيروت عندما طرده الرئيس جمال عبدالناصر من مصر، والحقيقة أن هذه الطردة كانت في أوائل الخمسينات الميلادية وليس الستينات كما ذكر الأستاذ ابن إدريس، إلا إذا كان الطرد مرتين.

فيقول: لكنه بدأ يأتي بما لا يتفق مع توجه السلف بدءاً بكتابه «هذه هي الأغلال»، ثم بكتابه «العالم ليس عقلاً»، وبين هذين الكتابين أشد وأنكى مثل «هذا الكون ما ضميره؟»، «العرب ظاهرة صوتية»، «الكون يحاكم الإله» الخ.

زارني بعد ذلك بمفرده، فوجدتها فرصة سانحة لأعرف منه حقيقة

موقفه المبدئي والفكري مشافهة، خاصة بعد أن قرأت القسم الأول من كتابه بعنوان: دفاع عن إيماني، كما قرأت القسم الثاني أو الثوب المفصل على ذلك الرئيس العربي المعروف دون أن يسميه، سألني: هل قرأت شيئاً من الكتاب؟ وماذا تقول عنه؟ قلت: إني قرأت منه كذا وكذا، لكن قبل أن أتطرق إليه أحب أن أشركك معي في الإجابة على سؤال وجهه إلي ابني عبدالعزيز ذي السنوات الخمس ذات يوم ونحن نسير معاً في الشارع وهو ممسك بيدي قائلاً بعد حديث في البيت حول الجنة والنار: يبه وين الجنة فيه؟ قلت: لا أدري، الله أعلم تكون في الأرض أو في السماء[1]، قال: إذا صارت في السماء وشلون (كيف) ناصلها؟ فما جوابك يا أبا علي (يعني القصيمي) على هذا السؤال؟ فقال أبوعلي: قل له هذا حكي وخرافات .. إلا إذا كنت يا أبا عبدالعزيز تؤمن بمثل هذه الخرافة! فقل له: إن الذي خلق السماء ورفعها يقدر يرفعنا إليها.

قلت: دعني إذن أسألك .. قسم من كتابك ـ دفاع عن إيماني ـ وما هو

---

(١) الجنة فوق السماوات السبع، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة؛ لتواتر أدلته من الكتاب والسنة. كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى{١٣} عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى{١٤} عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾، وسدرة المنتهى فوق السماء. ومن الأحاديث: حديث الإسراء والمعراج، وغير ذلك. وانظر: «حادي الأرواح» لابن القيم ـ رحمه الله ـ (الباب ١٣: في مكان الجنة).

إيمانك الذي تدافع عنه؟ فرد أبوعلي: يا أخي دع عنك هذا السؤال للعوام والمتخلفين أما أنت وكل أديب ومفكر حر، فقد تجاوزتكم هذه المرحلة، قلت: أرجو أن لا تدغدغ عواطفنا بمثل هذه الأوصاف أريد جواباً صريحاً على السؤال؟ وبعد تردد قليل أطلقها صاعقة مصعقة: إيماني أني لا أؤمن بالله!!

قلت: دعني أسألك هذا السؤال الأخير: من هو صانع هذا الكون ومبدعه؟ قال أبوعلي: الطبيعة ! قلت: سبحان الله! ومن الذي خلق الطبيعة؟! إذ لا يمكن عقلاً أن يخلق الشيء نفسه، فلابد لكل موجود من موجد، ولكل مخلوق من خالق؟ قال أبوعلي: أوه يا عبدالله أدخلتنا في جدل لا ينتهي!

عند الباب وأنا أودعه قال: للحديث بقية، قلت: بل: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف: ٧٨].

وكان الأستاذ الأديب عبدالله بن إدريس قال في بداية مقاله المشار إليه آنفاً بأن عبدالله بن علي القصيمي من منطقة القصيم في نجد، وإن كان البعض ينكر قصيميته وينسبه إلى صعيد مصر أصلاً، عاش القصيمي في القاهرة وظل على جنسيته السعودية طيلة بقائه في مصر ـ حتى مات ودفن فيها ـ وظلت حكومة المملكة العربية السعودية تصرف له راتباً شهرياً بصفته سعودياً مدة حياته.

أما أنا فأضيف بأن أحد الإخوة الذين أثق في كلامهم وكان يعمل في السفارة السعودية بالقاهرة أخبرني بأن القصيمي لما مرض جاءته طائرة خاصة نقلته إلى لندن للعلاج.

وقد عاد الأستاذ عبدالله بن إدريس في مقاله المنشور في صحيفة الجزيرة الصادرة في ٢٤/ ٢/ ١٤٢٣هـ فذكر لنا بعضاً من العلماء الذين ردوا على القصيمي ، وقد أورد الأستاذ ابن إدريس رأيين:

أحدهما: يحبذ عدم نشر شيء عن القصيمي؛ لأن في ذلك ما يلفت الناس إلى كتبه فيقرأوها.

وأما الرأي الآخر فيرى ضرورة الكتابة عنه ليعرف الناس حقيقته ولئلا ينخدعوا فيه، وخاصة أن بعض الناس يتحدثون عنه، وأنا مع الرأي الثاني.

هذا هو عبدالله القصيمي الذي وصفه الأستاذ هاشم الجحدلي بالمفكر الكبير، وكان الأجدر به أن يقول (الملحد الكبير) والذي لم يهده تفكيره الكبير إلى ما اهتدى إليه ذلك الأعرابي البسيط عندما قال: إن البعرة تدل على البعير.

وأخيراً أقول: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ورحم الله كل من مات على دين الإسلام»

انتهى كلام الأستاذ عبدالرزاق حمزة[١].

قلت: وقد أوضح الشيخ تقي الدين الهلالي ـ رحمه الله ـ[2] من كان يقف خلف القصيمي وكتابه السيء «هذه هي الأغلال» حسبما ذكره الشيخ مسعود الندوي ـ رحمه الله ـ[3] قائلاً: «يقول الأستاذ الهلالي: إن أصل الكتاب من تأليف إسماعيل مظهر[4]، والقصيمي ساعد فقط في تحريف وتأويل الآيات القرآنية والأحاديث».

وقال عن الكتاب في موضع آخر[5]: «تضمنت المجلة[6] خبراً مهماً آخر وهو أن جلالة الملك عبدالعزيز بن سعود قرر أخيراً وقف المنحة الشهرية التي كانت تُصرف للقصيمي، مؤلف كتاب «هذه هي الأغلال»،

---

(١) ملف عكاظ، الحلقة الثلاثون.

(٢) ستأتي ترجمته عند رده على القصيمي ـ إن شاء الله ـ.

(٣) في كتابه الشهير: «شهور في ديار العرب»، ص١٢٨.

(٤) أحد ملاحدة الكتاب في مصر، توفي عام (١٣٨١هـ)، أصدر مجلة «العصور» لنشر أفكاره، ثم رأس تحرير مجلة «المقتطف»، تبنى نظرية «النشوء والارتقاء». له ترجمة في الأعلام للزركلي (١/ ٣٢٧).ولمعرفة حقيقة أفكاره بالتفصيل تُنظر رسالة: «بين الأصالة والتغريب في الاتجاهات العلمانية عند بعض المفكرين العرب المسلمين في مصر» للدكتور حسين سعد.

(٥) ص ١٥٤.

(٦) مجلة الهدي النبوي، لسان جماعة أنصار السنة في مصر، عدد رجب، سنة ١٣٦٨هـ.

وجاء في تفصيل الخبر أن علماء نجد قدموا إلى السلطان ابن سعود عريضة تتعلق بكفريات القصيمي، فأمر السلطان باستتابته، وتقرر أن يكون ذلك عن طريق تأليفه لكتاب يرفض فيه ما ورد في الكتاب المذكور، ويعلن توبته مما كان عليه، ولكن كان وراء القصيمي رأس ملاحدة مصر إسماعيل مظهر، وهكذا رفض القصيمي ما ظنه مذلة، وأخذته العزة بالإثم، وفي النهاية أوقف السلطان هذه المنحة الشهرية (٤٠ جنيهاً أي حوالي ٣٥٠ روبية) ولن يؤثر هذا بأي حال من الأحوال على القصيمي، فيمكنه أن ينال من موسكو ثمانين جنيهاً بدلاً من أربعين جنيهاً، وعلى كل حال لقد فض سلطان نجد والحجاز يده، وخلص نفسه من هذه المسئولية».

ونظراً لأن البعض ساعٍ بجد في نشر كتبه الأخيرة، التي تطاول فيها وتجرأ على الله عز وجل، ودينه، وأنبيائه، بعبارات هازئة شنيعة، ومروجٍ لها بين شباب المسلمين، ترغيباً وتحبيذاً، فقد رغبتُ المساهمة في التصدي لهذه الجهود غير المشكورة، التي تُيسر للشباب أمر الإلحاد والشكوك، وتقودهم إلى طريق الانحراف، وذلك بتبيين وجهة النظر الأخرى التي تصدت لكتابات القصيمي، وقابلتها بالحق الكاشف عما فيها من شطحات وتجاوزات، نصحاً للأمة، وتحذيراً لأبنائها أن يقعوا في شِراكها.

وطريقتي في هذا الكتاب كالآتي:

١ - قدمت عرضاً موجزاً عن حياة القصيمي، وأحواله، وتنقلاته، وإلحاده.

٢-ثم عرَّفت بكتبه «الإسلامية الأولى» مع بيان محتويات كل كتاب منها، من خلال النقل عنه، وعرض فهرسه للقراء. وكتبه على شرف مضمونها، إلا أن في غيرها من الكتب النافعة غنية عنها.

٣-ثم سردتُ ردود العلماء والفضلاء عليه، معرفاً بها وبأصحابها، ناقلاً عنها مقدماتها وفهارسها، وشيئاً من العبارات المهمة فيها.[1]

سائلاً الله ـ عز وجل ـ أنت يبارك في هذا العمل، ويجعله مبصراً بحقيقة الرجل الذي أفضى إلى ما قدم، ولم يبق منه إلا هذا الميراث الضار من الكتب التي تهافت عليها بعض المسلمين للأسف؛ جهلاً أو تهاوناً بخطورتها على دينهم؛ وأنه ينالهم نصيبهم من الإثم، جراء إعجابهم بها، أو منافحتهم عن صاحبها، والله يقول عن الضالين وآثارهم: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ [النحل: ٢٥]، ويقول: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢]، والله الهادي والموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه: سليمان بن صالح الخراشي

alkarashi1@hotmail.com

(١) وما كان منها نادراً فإني أنقله بأكمله.

ترجمة

عبدالله القصيمي

وحديثٌ عن سبب إلحاده

المولد والنشأة[(١)]:

ولد الشيخ عبدالله القصيمي في عام ١٩٠٧م تقريباً، في «خب الحلوة» الواقع إلى الغرب من مدينة بريدة النجدية في المملكة العربية السعودية.

والخبوب: جمع خب، وتعني تلك القرى القابعة داخل الرمال والمنتشرة حول مدينة بريدة.

والد عبدالله القصيمي هو الشيخ علي الصعيدي، الذي قدم من حائل واستوطن خب الحلوة، والذي عرف عنه تمسكه بالدين، والذي لم يكفه ما تلقاه من تعاليم دينية في مدينة بريدة لينتقل إلى الشارقة للاستزادة من العلوم الشرعية، وللتجارة، أما والدة الشيخ عبدالله القصيمي فهي وفقاً لرواية الدكتور فيصل بن عبدالله القصيمي: موضي الرميح، التي انفصل عنها زوجها بعد ميلاد ابنه عبدالله بأربع سنوات تقريباً؛ ليدعها وطفلها مهاجراً إلى الشارقة، ولكنها سرعان ما ارتبطت برجل آخر من عائلة مقيمة في قرية «الشقة» المجاورة لخب الحلوة.

---

(١) استقيت الترجمة من رسالة يورغن فازلا: «من أصولي إلى ملحد ـ قصة انشقاق عبدالله القصيمي»، ورسالة: «فكر عبدالله القصيمي» لأحمد السباعي، وملف جريدة عكاظ عن القصيمي، وملف موقع إيلاف الإلكتروني عنه، و«ذيل الأعلام» للأستاذ أحمد العلاونة (١٢٦/٣)، و«التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية» للأستاذ عبدالله عبدالجبار.

ويذكر الدكتور فيصل القصيمي أن لديه ثلاثة أعمام من تلك الأسرة، قدموا إلى مدينة الرياض واستوطنوها، ولا يوجد منهم أحد اليوم، ولهم أولاد وأحفاد، ويرتبط الشيخ عبدالله القصيمي بروابط أسرية مع عدد الأسر النجدية.

كما أن الشيخ علي الصعيدي قد تزوج بامرأة من الشارقة ومن عمان، وأنجب أولاداً هناك، ويذكر الدكتور فيصل القصيمي أنه على اتصال دائم بأبناء عمه في الشارقة، ويزورونه بالرياض باستمرار.

أصول أسرة القصيمي:

من المسلم به أن القصيمي ينتمي إلى أسرة الصعيدي، وهي أسرة ضاربة بعمق في نجد، ومنتشرة بين منطقتي حائل والقصيم، ولكن من أين جاءت التسمية بالصعيدي؟ يرى الأستاذ عبدالرحمن البطحي «مؤرخ مقيم في عنيزة بالقصيم»: أن أحد أجداد الأسرة كان يعمل بالعقيلات بين مصر ونجد قبل قرون، فنُسب إلى المنطقة التي كان يذهب إليها متاجراً، وهذه عادة منتشرة في العديد من المدن النجدية، ويؤيده في ذلك الأستاذ الباحث يعقوب الرشيد والمؤرخ إبراهيم المسلم.

نشأ القصيمي فيما بين «خب الحلوة» و«الشقة» في ظروف سيئة للغاية،

فإضافةً إلى فقده لحنان والديه، فقد كانت الأحوال المعيشية سيئة جداً، الأمر الذي دعاه أن يغادر قريته إلى الأبد، وهو في سن العاشرة من عمره.

درس القصيمي في الرياض على الشيخ سعد بن عتيق، وتعرف إلى وفد من الشارقة جاء لزيارة الرياض، وكانت المصادفة أن رئيس الوفد صديقٌ لوالده ويعرفه تمام المعرفة، فلاحت في أفقه بوادر أمل في لقاء أبيه، وهذا ما تم على ساحل خليج عمان.

التحق القصيمي بمدرسة الشيخ علي المحمود، ثم توفي والده عام ١٩٢٢م، أعجب به التاجر عبدالعزيز الراشد الذي أخذه معه إلى العراق والهند وسوريا، تعلم القصيمي بداية في مدرسة الشيخ أمين الشنقيطي في الزبير، ويذكر الأستاذ يعقوب الرشيد أنه التحق بالمدرسة الرحمانية بالزبير، ثم انتقل إلى الهند ومكث بها عامين تعلم في إحدى المدارس هناك اللغة العربية والأحاديث النبوية الشريفة، وأسس الشريعة الإسلامية، ثم عاد إلى العراق والتحق بالمدرسة الكاظمية، ثم انصرف عنها إلى دمشق ثم إلى القاهرة.

القصيمي في الأزهر:

في عام ١٩٢٧م التحق القصيمي بجامعة الأزهر، وعلى الرغم مما تحتله الجامعة من مكانة علمية متميزة، كونها أعلى مؤسسة دينية في العالم الإسلامي، إلا أنها خيبت آمال القصيمي، إذ كانت على خلاف ما كان

يتصوره القصيمي في فكره عن هذه الجامعة قبل التحاقه بها، وكان الأزهر يواجه آنذاك هجوماً من عدد من المفكرين المصريين، وعلى رأسهم الشيخ محمد رشيد رضا، الذي كتب عدة مرات في مجلته المنار عن الأزهر[١].

أكمل القصيمي دراسته في الأزهر، ثم اتخذ موقفاً من الخلاف الذي نشب حول الوهابية، وكان العالم الأزهري الشيخ يوسف الدِجوي قد كتب عدة مقالات يدافع فيها عن التوسل بالأولياء، ضمنها حججه تجاه ـ ما يسميه الآراء الوهابية ـ منها مقالته الشهيرة «التوسل وجهلة الوهابيين» المنشورة في مجلة «نور الإسلام» عام ١٩٣١م، لذلك أصدر القصيمي أول كتاب له وهو «البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية»، نقض فيه القصيمي حجج الشيخ الدجوي بالأدلة الشرعية.

وكان لهذا الكتاب ردة فعل عنيفة لدى علماء الأزهر، الذين قرروا فصل القصيمي من الأزهر، وكان ذلك عام ١٩٣١م، لذلك شن القصيمي هجومه على علماء الأزهر من خلال كتبه التالية لكتابه السابق؛ وهي: «شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام»، و«الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم»،

(١) سبب ذلك تبني الأزهر لعقيدة الأشاعرة، وللتصوف.

ووقف الشيخ رشيد رضا إلى جانب القصيمي من خلال مراجعته لكتاب «البروق» في مجلته المنار، وقال: «إن القصيمي اكتسح العلماء بمعرفته الواسعة وأخجلهم، هذه المعركة التي خاضها القصيمي مع علماء الأزهر أكسبته شعبية واسعة في أوساط حركات التجديد الإسلامية».

في عام ١٩٣٦م اعترفت الحكومة المصرية رسمياً بالمملكة العربية السعودية، فأصدر القصيمي كتابه الشهير «الثورة الوهابية»، وكان هدفه الدعوة إلى تأييد الدولة السعودية الفتية، وتحسين صورة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية أمام الرأي العام المصري، وقد ذكر القصيمي في كتابه أن العالم الإسلامي قد وجد في شخص «ابن سعود» رجلاً يمكن أن يساعده على استعادة المكانة التي فقدها خلال القرون الماضية، وعلى العودة إلى الأسس الحقيقية لدينه.

وكامتداد آخر للدفاع عن الحركة السلفية في نجد، رد القصيمي على كتاب الرافضي محسن الأمين العاملي المعنون بـ«كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب»، وجاء رد القصيمي صاعقاً معززاً مكانته كمجادل ومحاور من الطراز الرفيع، إذ جُمع رده في جزأين كبيرين حويا أكثر من (١٦٠٠ صفحة)، وكان عنوان الكتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية»، يقول عبدالله عبدالجبار في كتابه «التيارات الأدبية»: إن أحد علماء نجد قال:

إن القصيمي دفع مهر الجنة، ولن يضيره ما يعمل بعد ذلك، ولا نجد رأساً يطاول رأسه إلى رأس ابن تيمية!(١)

هذي هي الأغلال:

بعد ذلك انتقل القصيمي بفكره من المدافع المنافح عن السلفية، إلى طور التحرر والشك في الموروثات، وهذه المرحلة يصفها الذين تناولوا القصيمي بالدراسة والتحليل بالطور الثاني للقصيمي أو الطريق إلى الانشقاق، إذ بدأ مرحلته هذه بكتابه الشهير «هذي هي الأغلال»(٢) الذي صدر عام ١٩٤٦م، وأهداه للملك عبدالعزيز، وهو يتحدث فيه عن القيود والعوائق التي تقف ضد تقدم العالم الإسلامي، حسب رأيه، وهذا الكتاب بما حواه من آراء وأفكار، جعلت القصيمي يُصنف على أنه متمرد على السلفية، التي كان مدافعاً عنها، محباً لها.

---

(١) وقال مثله: القصيمي في إحدى رسائله لصاحبه قدري قلعجي. (انظر: الرسائل المتفجرة، لجهاد قلعجي، ص ٣٣). ولا أظن عالماً يقول هذا الكلام؛ لما فيه من التألي والجرأة على الله ـ عز وجل ـ والمبالغة في مدح كتاب القصيمي «الصراع»، وما هو إلا اختصار لكتاب شيخ الإسلام ابن تيميه ـ رحمه الله ـ «منهاج السنة» ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ.

(٢) سيأتي الحديث عنها ـ إن شاء الله ـ.

هذا الكتاب تعرض للنقد الشديد من قبل العلماء، إذ أصدر علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن سعدي كتاباً أسماه «تنزيه الدين ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»، ثم أصدر عبدالله بن يابس وهو صديق للقصيمي وصاحبه في سفره إلى القاهرة كتاباً سماه «الرد القويم على ملحد القصيم»، وتوالت المقالات والكتب التي تناولت الكتاب.[1]

في عام ١٩٥٠م انتقل القصيمي من القاهرة إلى مدينة حلوان، جنوب القاهرة.

وفي حلوان كان سكن القصيمي بجوار بعثة الطلبة اليمنيين، فتعرف إليهم، وكان يلتقي بهم في الحديقة اليابانية، وكان منهم اللواء عبدالله جزيلان، مفجر ثورة اليمن عام ١٩٦٢م، ونائب رئيس الجمهورية اليمنية سابقاً، وكذلك الأستاذ حسن السحولي، سفير اليمن في مصر، وغيرهم كثير من الذين أصبحوا من القيادات البارزة في اليمن، أثناء ذلك تلقى الإمام أحمد رسالة تفيد بتأثر هؤلاء الطلبة بفكر القصيمي، لذلك ضغط الإمام أحمد على صلاح سالم لطرد القصيمي من مصر، فاعتُقل القصيمي وزُج به في السجن، ثم نفي إلى لبنان.

---

(١) سيأتي ـ إن شاء الله ـ الحديث عنها.

تعرّف القصيمي في لبنان على الناشر اللبناني قدري قلعجي، الذي أفرد له الصفحات في مجلته «الحرية»، كما تعرّف على الأستاذ سهيل إدريس صاحب مجلة «الآداب» التي أشرعت أبوابها للقصيمي ليكتب، كما تعرف على العديد من الشخصيات الأدبية والفكرية والقيادات السياسية في بيروت، منهم: الأستاذ أنسي الحاج، والسياسي منح الصلح، والناشر رياض الريس، والكاتب طلال سلمان، والكاتب محمد بعلبك، والكاتب جورج جرداق، والكاتب زهير مارديني، والسياسي كمال جنبلاط، وغيرهم العشرات.

بعد ذلك سمحت الحكومة المصرية بعودته إلى القاهرة، فعاد واستقر فيها، وأخذ يتنقل بين القاهرة وبيروت، وبذلك يكون القصيمي قد دخل عهداً جديداً سُمي بـ«العودة إلى الحياة العامة»، وتوالت إصدارات القصيمي بعد ذلك، بدءاً من كتابه «العالم ليس عقلاً»، والتي كان يطبعها في بيروت، وأصبح للقصيمي حضوره الوهاج في الأوساط اللبنانية، بعد توالي إصداراته، وعندما ساءت الأحوال في لبنان، وبعد تعرض قدري قلعجي إلى ضغوط رهيبة، وهدد بحرق مكتبته، وجد القصيمي صعوبة في متابعة إصداراته في لبنان، فاتجه إلى باريس، فكان أول كتاب يصدره من باريس هو كتاب «العرب ظاهرة صوتية»، وبقي بعد ذلك في منزله في روضة المنيل بشارع عبدالعزيز آل سعود، يستقبل زواره وضيوفه في ندوته الأسبوعية، إلى أن توفي في يوم ٩/ ١/ ١٩٩٦م.

ببلوغرافيا لمؤلفات القصيمي

١- البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية، القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٣١م، عدد الصفحات ٢٠٣ص.

٢- شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام، القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٣١م، عدد الصفحات: ٧٦ ص.

٣- الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم، القاهرة، مطبعة التضامن الأخوي، ١٩٣٤م، عدد الصفحات: ١٨٤ص.

٤- مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها، القاهرة، المطبعة الرحمانية، ١٩٣٤م، عدد الصفحات: ٢١٠ص.

٥- نقد كتاب حياة محمد لهيكل، القاهرة، ١٩٣٥م، عدد الصفحات: ٧٠ص.

٦- الثورة الوهابية، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣٦م، عدد الصفحات: ١٩٦ص.

٧- الصراع بين الإسلام والوثنية، مجلدان (المجلد الأول، المطبعة السلفية، عدد الصفحات: ٧١٥ص، والمجلد الثاني، مطبعة السعادة، عدد الصفحات: ٨٩٥ص)، ١٩٣٧-١٩٣٩م.

٨- كيف ذل المسلمون، القاهرة، مطبعة أنصار السنة المحمدية، ١٩٤٠، عدد الصفحات: ١٤٣ص.

٩- هذي هي الأغلال، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٤٦م، عدد الصفحات: ٣٢٩ص.

١٠- العالم ليس عقلاً (المجلد الأول، بيروت، مطبعة دار الغد، ١٩٦٣م، عدد الصفحات: ٥٧٠ص، المجلد الثاني ٣ أجزاء بأسماء: عاشق لعار التاريخ، وعدد صفحاته: ٢٦٢ص، وصحراء بلا أبعاد، وعدد صفحاته ٤٢٣ص، وأيها العقل من رآك، وعدد صفحاته: ٤٧٧ص، وجميعها طبعت في بيروت، مطبعة دار الغد، ١٩٦٧م).

١١- كبرياء التاريخ في مأزق، بيروت، مطبعة الإخوان معتوق، ١٩٦٦م، عدد الصفحات: ٥٦٠ص.

١٢- هذا الكون ما ضميره، بيروت، مطبعة الإخوان معتوق، ١٩٦٦م، عدد الصفحات: ٥٦٠ص.

١٣- أيها العار إن المجد لك، بيروت، ١٩٧١م، عدد الصفحات: ٦٠٠ص.

١٤- فرعون يكتب سفر الخروج، بيروت، ١٩٧١م، عدد الصفحات: ٦٦٣ص.

١٥- الإنسان يعصي.. لهذا يصنع الحضارة، بيروت، ١٩٧٢م، عدد الصفحات: ٤٣١ص.

١٦- العرب ظاهرة صوتية، باريس، مطبعة مونتمارير، ١٩٧٧م، عدد الصفحات: ٧٩٩ص.

١٧- الكون يحاكم الإله، باريس، ١٩٨١م، عدد الصفحات ٧١٩ص.

١٨- يا كلّ العالم لماذا أتيت؟ باريس، مطبعة تيب، ١٩٨٦م، عدد الصفحات: ٦٠٠ص.

سبب إلحاده

قال الشيخ عايض بن سعد الدوسري ـ حفظه الله ـ متحدثاً عن تحول القصيمي المفاجيء: «وقد اختلف الناس كثيراً حول السبب الحقيقي وراء هذا التحول الذي حصل لطالب علم متميز، كان يرجى له أن يكون من العلماء والمفكرين الكبار، وربما تساءل البعض فقال:

هل كان السبب الحقيقي وراء تحوله هو غروره؟

هل كان تحوله مفاجئاً؟ أم كان عملية انتقال بطيئة وبشكل تدرجي، ولم يظهر منها إلا نتائجها المتأخرة، والتي أعلن عنها صاحبها في كتابه «هذه هي الأغلال»؟

هل عاش عبدالله القصيمي فترة شكوك عميقة حول الأسئلة الوجودية الأساس، وكان يكتم تلك الشكوك، ويدفعها وتدفعه حتى تمكنت من قلبه، فأعلن ثورته الفكرية، وبدأ تمرده؟

وعلى هذا يكون جميع العلماء شكاكاً! ويكون القصيمي أشجعهم فقط؟!

هل كان القصيمي مقتنعاً فعلاً بالإلحاد وبطلان الأديان، أم كان موقفه

مجرد ردة فعل عكسية متمردة كانت نتيجة ضغوط نفسية متراكمة عند القصيمي؟

أسئلة كثيرة تدور حول تحول وتغير عبدالله القصيمي من طالب علم مُتدين، مناضل عن الدين، إلى منعتقٍ عنه مهاجم له ولكل ما يمت له بصلة.

ومع كثرة تلك الأسئلة والاستفسارات، كثُرت الإجابات والتفسيرات والتحليلات والتخرصات والظنون، وطُرحت العديد منها، ومن تلك التفسيرات والآراء ما يلي:

التفسير الأول:

يتمحور حول مسألة الشكوك والشبهات، ومفاده: أنه يستحيل أن ينقلب متدين متمسك بدينه إلى ملحد مرة واحدة؛ كما يستحيل أن ينتقل البندول من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار دفعة واحدة، لا بد من التدرج، ولا بد من خطوات تمهيدية، تكون إرهاصات بين يدي النتائج النهائية.

وعليه؛ فعبدالله القصيمي بدأ مخلصاً لدينه، وموقناً بعقيدته، لكنه مع الزمن بدأ يتساقط أمام سلطان الشك وبريق الريب، إثر القراءات الفلسفيّة المختلفة التي كانت الساحة الفكرية في ذلك الوقت تعُجّ بها، وظل الشك بذرة كامنة في قلبه، حتى استحكمت جذورها في شرايينه، وتمكنت فيه جيداً، فعاش مرحلة صراع عميق ومرير بين الشك والإيمان، بين ملاك

الإيمان ومارد الفكر، إلى أن انتصر مارد الشكوك على بقايا الإيمان، فأخذ المارد بفأس الشبهات يضرب شجرة الإيمان، حتى اجتثها من أصلها.

يقول أحد أصحاب وأصدقاء القصيمي في سفره ودراسته ـ هو الأستاذ عبدالله بن علي بن يابس ـ محدثاً عن عبدالله القصيمي: «كان القصيمي منذ أكثر من خمسة عشر عاماً تقريباً، يجادل في البديهيات الدينية، حتى اشتهر بكثرة جدله في الأمور الضرورية، وحتى كان يجادل بعض جلسائه في وجود نفسه، وحدثني صديق حميم من العلماء الأفاضل قال: كان القصيمي يأتي إلي منذ خمسة عشر سنة تقريباً ويصرح لي بأنه تعتريه الشكوك إذا جن الليل، فيسخن جسمه، ويطير النوم من أجفانه.

قال: وكان يجادلني في الله وفي النبي محمد ﷺ ... وكنت أجيء لزيارتكم فأجده يقرأ في صحيح مسلم مع بعض الأخوان، فترجع نفسي قائلة: لعلها وساوس وليست عقائد»(١)

فالقصيمي ـ حسب هذا التفسير ـ مع دفاعه عن الإسلام وأهله كانت تأتيه نوازع شيطانية، ووساوس، فتكدر عليه صفو الحياة وتسخن جسمه النحيل، وتطير من عينيه النوم، كل ذلك بسبب ما يجده في هذا الشك من ألم

(١) سيأتي توثيق هذا النقل وغيره من النقول التي أوردها الشيخ عايض ـ إن شاء الله ـ.

وشقاء وحسرة، تجعله لا يتلذذ بنومه، بل إن جسمه ينتفض ويسخن إثر تلك الشكوك.

التفسير الثاني:

يتمحور حول اتهام عبدالله القصيمي بأنه مُتكبر ومتغطرس، مفاده ـ كما يُقال ـ أن القصيمي لما ظهر أمره، وسطعت شمسه، وذاع صيته، اغتر بنفسه، وداخله الكبر والغرور، فكان عاقبة كبره وغروره أن خذله الله وتركه ونفسه، فآثر الخلود للدنيا، فسقط لما انقطع عنه توفيق الله!

وهذا التفسير يقدم شواهد محسوسة وقوية تدعمه، ومن ذلك ما يلي:

قول القصيمي في مقدمة كتابه (الفصل الحاسم بين الوهابين ومخالفيهم) مادحاً نفسه:

لـو أنـصفوا كنـتُ المقـدم في الأمـر ... ولم يطلبوا غيري لدى الحادث النُكر
ولم يرغبـــوا إلا إليّ إذا ابتغـــوا ... رشاداً وحزمـاً يعزبـان عـن الفكـر
ولم يـذكروا غـيري متـى ذُكـر الـذكا ... ولم يُبصروا غيري لدى غيبـة البـدر
فـما أنـا إلا الـشمسُ في غـير برجهـا ... ومـا أنـا إلا الـدُرُ في لجـج البحـر
متـى جريـت فكـل النـاس في أثـري ... وإن وقفت فما في الناس من يجـري

وقال مرة يثني على نفسه ـ بعد أن قرأ كتاباً للمتنبي وكتب على هامشه ـ:

كفـى أحمـداً أني نظـرت كتابـه ... لأن يـدعي أن الإلــه مخاطبـه!

ولــو شــامني أني قــرأت كتابــه لقــال إلــه الكــون إني وخالقــه!

وقال مرة يثني على نفسه:

ولو أن ما عندي من العلم والفـضل يُقسَم في الآفاق أغنى عن الرسل

وقد لاحظ العلماء القريبين من الشيخ عبدالله القصيمي هذا الغلو في الثناء على الذات، فنبه الشيخ عبدالعزيز بن بشر أن صاحب هذا الكلام منحرف عن الإسلام، كما عاتبه الشيخ فوزان السابق، وعاتبه ـ أيضاً ـ الشيخ عبدالعزيز بن راشد، وأخبره أن هذا كفر وضلال، وأنه بهذا البيت ينشر لنفسه سمعة خبيثة، فتراجع القصيمي وحذف هذا البيت الأخير، بعد أن انتقده الناس وعاتبوه ووبخوه.

وهذا التفسير ينطلق من الزاوية النفسية التي لعبت دوراً مهماً في تركيبة شخصية عبدالله القصيمي، فالأنا والتمحور حول الذات قضية متأصلة ومتعمقة ـ كما يُقال ـ في شخصية القصيمي، مما كان له الدور الفعّال في أي تغير أو تحول يحصل له.

وحتى لما تغير القصيمي لم يترك هذا الخاصية النفسية، بل استمر عليها بشكل أكبر، فهو يقدم كتبه الجديدة بعبارات المديح والغطرسة، ففي كتابه (هذه هي الأغلال) كتب على الغلاف الخارجي عبارة: «سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تُبصر طريق العقل»!

وداخل الكتاب قال القصيمي عن كتابه: «إن ما في هذا الكتاب من الحقائق الأبدية التي تفتقدها أمة فتهوي، وتأخذ بها أمة فتنهض، ولن يوجد مسلم يستغني عن هذه الأفكار إذا أراد حياة صحيحة»!

قلتُ: من يقرأ كتب القصيمي، خصوصاً القديمة، يلحظ بوضوح وجلاء نبرة الإعجاب بالنفس، والثناء على الذات، والتمحور حولها، ولكن السؤال: هل هذا يكفي ليكون تفسيراً كاملاً لتحوله؟ كم من المتكبرين والمتغطرسين الذين بقوا على تدينهم ولم يؤثر ذلك فيهم؟

أعتقد أن نسبة تحول القصيمي إلى هذا العامل محل نظر، نعم، قد يكون هذا الجانب النفسي له أثر، لكن يبقى عاملاً مصاحباً ضمن عوامل كثيرة.

التفسير الثالث:

يتمحور حول الشخصية المتمردة عند عبدالله القصيمي: ومفاده ـ كما يُقال ـ أن عبدالله القصيمي كانت الاندفاعية والثورة متأصلة في طبعه وفي تركيبه المزاجي، فهو من ناحية حيوية نفسانية وحتى جسدية مفعم بالتمرد والثورة والاندفاع والقوة والهيجان الشديد، أو قل: الديناميكية الدائبة. وكان قبل تغيره متمرداً ثائراً ضد أعداء الدين بشكل عنيف، يهاجم هذا، ويرد على ذاك، ويحطم ثالث، وهكذا.

اندفاع شديد وقوي، مفعم بالتولد الثوري الدائم، فعبدالله القصيمي لا يمكن أن يركن أو يسكن، فهو دائماً دائب كالآلات في عمل دائب دائم، لابد من صراع مع أي أحد، ولابد أن يفتك بشيء، بالأمس كان صراعه مع الوثنية، واليوم صراعه مع الدين.

التفسير الرابع:

يتمحور حول اتهام عبدالله القصيمي بأنه عميل للصهيونية العالمية: ومفاده: ما ذكره الشيخ إبراهيم السويح ـ وغيره ـ حيث يقول:

«لقد استغرب الناس انقلاب هذا الرجل بهذه السرعة، وانسلاخه من آيات الله التي تظاهر بنصرتها من قبل، فذهبوا يتساءلون عن الأسباب التي أحدثت هذا الانهيار الخلقي والانقلاب المفاجئ الغريب، والانسلاخ البلعامي المنكر؛ لأن هذا الرجل كان يتظاهر قبلاً بنصر السنة، وقد ألف في ذلك كتباً معروفة.. وذهبوا يعللون هذا التراجع والتقهقر تعليلات شتى بحسب ما يظهر من القرائن، فعلل كثير بأنه ارتشى من بعض الدعايات المحاربة للأديان».
فهذا التفسير يرى أن القصيمي انقلب رأساً على عقب بسبب رغبته في المال، فارتشى من أجل ذلك!

قلت: من يتأمل سيرة وحياة عبدالله القصيمي، يرى أن هذا التفسير مستبعد جداً، لأسباب كثيرة، منها:

١ - أن عبدالله القصيمي لم يكن من الحريصين على جمع واكتناز الأموال، ولم تكن ذمته تشترى بالمال، ولو كان كذلك، لما فوت فرصاً كثيرة عُرضت عليه مبالغ طائلة من جهات عديدة، رفضها كلها خوفا أن تؤثر في قناعاته، وقد بلغني من أحد الرموز الذين يعرفون عبدالله القصيمي جيداً، أنه قال: القصيمي لا يمكن أن يُشترى.

٢- أن القصيمي ـ كما ثبت لديّ ـ لم يكن يأخذ مالاً على كتبه ومقالاته، بل كان يتبرع بها على من يحتاج من أصدقائه وأصحابه.

٣- أن القصيمي كان يناصر دولة فتية، وغنية بالبترول، وتحوله من الدفاع عنها وعن دينها يفقده الكثير من الدعم، بل والمنصب الذي كان يُرجى له لو لم يتغير. ثم إن صفة البرغماتية هي أبعد ما تكون عن شخصية القصيمي، وأخيراً يقال: ماذا جنى من الأموال نتيجة إلحاده؟! ألم يُشرد ويُطرد؟ ألم يهم على وجهه من بلد إلى بلد؟ ألم يمت منفياً وحيداً؟!

يقول الشيخ ابن عقيل الظاهري: «كان ـ القصيمي ـ مخلصاً في إلحاده أول الأمر لشبه عرضت له، وقد لاقى من ذلك مضايقة ومطاردة». انتهى كلام الشيخ عايض الدوسري.[1]

(١) من مقال له على شبكة الإنترنت، موقع «صيد الفوائد»، وقد وعد ـ وفقه الله ـ بكتاب =

قلت: ولعل التفسير الثاني أقرب الأسباب لانتكاسة القصيمي ؛ لأن من يقرأ كتبه الإسلامية لن تخفاه عبارات المديح والاطراء التي يكيلها لنفسه ولمؤلفاته! مما جعل توفيق الله وحفظه يُفارقه، والنية إذا فسدت فسد بها العمل، ومن لم يكن علمه خالصاً لله؛ فإنه يخونه حتماً في أوقات الامتحان والفتن، ـ نسأل الله الثبات على دينه إلى أن نلقاه ـ.

يضاف إلى ذلك أن القصيمي كثيرُ التذمر والاعتراض على القدر في أشعاره؛ لظنه أن الآخرين لم يُنزلوه المنزلة التي يستحقها! في مقابل احتفائهم بأناس لا يساوونه علماً وعقلاً، وإن فاقوه نسباً أو جاهاً؟

هذا ما يقال عن سبب انتكاسته، وكل ذلك يعود إلى فقدان «الإخلاص» في أعمال الرجل، مما حرمه عون الله وتثبيته، والله يقول: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[إبراهيم: ٢٧].

وصدق القائل:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأكثر ما يجني عليه اجتهادُه

موسع عن القصيمي، يرى النور قريباً ـ إن شاء الله ـ.

كتب

القصيمي الإسلامية

الكتاب الأول: «البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية»

وهو رده الأول على الشيخ الأزهري يوسف الدِجوي، في مسألة «التوسل» و «الاستغاثة» بغير الله؛ كما سيتبين من خلال عرض فهرسه.

قال القصيمي في مقدمته:

صمتنا فخال الصمت عجزاً ولكنه

لقد ذل من كنا له الخصم والحربا ... وعز الذي كنا له السّلم والحبا
ولاقى الذي يبغيه من طاع أمرنا ... ولاقى الذي قد رده الويل والكربا
وخاف الذي نقليه من ظل شخصه ... ولم يخش من نهوى الأراقم والغُلبا
وسار على حد الحسام ولئُنا ... وفي النار لم يخش الحرارة والشَّذبا
ونال بذكرانا الصديقُ مراده ... وأجلى به عنه المخاوف والخطبا
وفل به حد الزمان وغربه ... ورد به الضرغام - إن صال - والذئبا
وطال السموات الأولى نحن عضدهم ... وما ضل غيباً من نكون له قلبا
وجاب امرؤ كنا له الرّجل ما نأى ... وجاب بها - لم يَتْعب - الشرق والغربا
وماتت بأرياح تمر بأرضنا ... عدانا، إذا مرت بآنافهم هبَّا
وزلزل أرض الظالمين وسقفهم ... بأنفاسنا واستاقت النفس واللبّا

* * * *

لحقنـــا وإنـــا نـــائمون عـــداتنا
وقد بـالغوا حـذراً وقـد أمعنـوا خبًّا

وصِـدْنا نمـور العـالمين وأسـدهم
بلفـظ، ولم نـشرع قنـاة ولا عـضبا

لنـا شـرف الـدنيا تليـداً وطارفـاً
وعلياؤها، فاستنطقوا الـدهر والكتبا

فلـو تنسب العليـاء للنـاس نفسها
لما وجـدت أصـلاً سـوانا ولا مَرْبى

فمنـا اسـتفاد الخلـق كـل فـضيلة
أرينـاهم صـنع الـصنائع والرَّبـا

ومنـا دروا قـود القنابـل في الـوغى
ومنـا دروا فلـق الجمـاجم والـضربا

ومنـا دروا أطـر الكمـيّ وأسـره
وإطعامـه نـسراً وإدخالـه تربـا

ومنـا دروا سـلب الملـوك عروشـهم
بأيـد أبـت أن تمـسك المـال والنهبا

ومنـا دروا كيـف التـسابق للـردى
بأفئـدة لا تحمـل الـذل والرعبـا

سـننا لأهـل الأرض كـل كريمـة
وفـضل وعلمنـاهم الفـرض والنـدبا

* * * *

فمـن مبلـغ عـني عـدوّاً رسـالة
ممـلأة زجـراً مثقلـة عتبـا

عـدواً أرتـه الـنفس حقـاً ضـلاله
وكِذب المنى صدقاً وصدق المنى كـذبا

رمتـه بـأرض نبتهـا الأسـد والظبـا
تضيّف من قد جاءها الفـرس والـشطبا

تراقب مـن قـد جـاء رقبـة عاشـق
كما راقب المـصبوب حبـاً بـه صـبا

معـوّدة أن لا يمـر بأرضـها
عدو فينجو ـ فـضَّل المشي أو خبّـا

تُقتّـل مـن قـد جـاء عفـواً بزأرهـا
إذا زأرت ضـل المـذاهب وانكبـا

وإن كـشرت أنيابهـا ضـاع رشـده
وخر على الأذقان مـستخبلاً خلبـا

صمتنا، فخال الصمت عجـزاً ولكنـة
غفرنا، فظـن الغفـر مـن غيـه رهبـا

ضحكنا، فخال الضحك مدحاً لحاله ... نظرنا، فظن العين تنظره حبا
ألم يدر أن الموت يأتيه صامتاً ... وأن بنات الدهر تمهله غضبى؟
وأن ابتسام السُحب قبل بلائه ... وينظره الضرغام إن قارب الوثبا
فيا آملاً منا بلوغ مؤمل ... بقيت بلا شيء وساءت لك العقبى
فلو قُدت أطراف النجوم بخطمها ... لما نلت ما ترجوه من عندنا غصبا
فما أنت والأيام، لم تقض سؤلها ... ولا بعضه منا، خداعاً ولا حربا
وما أمنا ـ يا فائل الرأي غالب ... ليقضي منا القصد قبلك إن نأبى
فكيف بمن لو أنني لحت واقفاً ... هوى ساجداً من خشيتي وقضى النحبا
ومن لو رآني لم ينم من مهابتي ... وخيلني من ذعره الأكل والشربا
ومن لو جرى ذكري وبيني وبينه ... مسيرة عام قائماً لانكفَّ رُعبا

* *

صبرت طويلاً كي تفيء عن العمى ... وتشرب كأس الذل من خوفنا عبا
فكنت كحال الجرح يزداد قيحه ... إذا ما سها عنه الطبيب وما طبا
فلما رأيتُ الأمر صعباً مآله ... وما ينفع الغفران إلا الفتى الضربا
وأن ازدياد الغفر يغفر شأننا ... ويدري موات الذهن في غفرنا غلبا

* *

خُلقت على الأحداث جلداً مغامراً ... فما أرهب الآفات، كلا ولا الصعبا
فلو أبصرت عيني المنون مجسداً ... لصافحته لم أونس الخوف والرجبا
تمر بأذني القاتلات كأنني ... سمعت ـ لصبري ـ ناعباً رجَّع النعبا
فلا مفزع أخشى، ولا هائل ثنى ... ولا نشبٌ أرضي، ولا رشأ أصبى
سواء كسبت المال أو عشت معدماً ... إذا ما كسبت الحمد والمنصب الرحبا

فأضحيت خلو القلب من كل مأرب ... سوى مأرب العليا أضحى له الأربا
أتيت مهيباً كالحسام معظما ... ونبراس ظلماء يضيء وما يخبى
به رفقتي يهدون إن ضل هديهم ... ويسرون إن ضلوا الأهلّة والشهبا
بعزم كعزم الشمس في وجه سيرها ... فلا هول يثني ما أهاب وما أربى
وحدس بسر النفس، والقلب بائح ... فما سهمه نابٍ، ولا زنده مخبى
إذا قلتُ قولاً أمّن الدهر واستحى ... وهاب مقالي أن ينازعه الدربا
وأسمع من الأغرار حمقاً وضلة ... فأهجره هوناً وأتركه رغبا
فيوهم ميت النفس أني حمدته ... وأني له هاوٍ وأني به مُصبى
وما بي سوى كبرى عليه وعزتي ... وفي الكبر والهجران ما لم يكن ذنبا
لئن كنتُ في نفسي زهواً ومُعْجباً ... فبعض الذي فيها يملئني عُجْبا!

عبدالله بن علي القصيمي

فهرس كتاب «البروق النجدية»

العنوان الصفحة

البروق النجدية

في

اكتساح الظلمات الدجوية

تأليف

عبدالله بن علي النجدي القصيمي

ياطالب الميت ما قد ظلت تطلبه	وسائل الميت دفع الامر ترهبه
لوكان ذا قدرة ما كان مرتهنا	في الترب للدود يبليه ويركبه

مطبعة المنار بمصر

سنة ١٣٥٠ هـ

١٩٣١ م

صورة لغلاف كتاب «البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية»

الكتاب الثاني: «شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام»

قال القصيمي في مقدمته:

إذا أرضيتُ ربي لا أبالي ... إذا أسخطت كل العالمينا
وكيف أخاف أخوف من حبارى ... رأت صقراً وقد دست العرينا
إذا أنزلت بأسي في قبيل ... فويل للأبين وللبنينا
أغرّ مخاصمي صغري وهزلي ... كأن المجد في عد السنينا
وهزلي لا أبالك من شعوري ... وجسم الحر لا يأتي سمينا
ومن أغبى وأغبن من عظيم ... تعرض سخطتي فغدا مهينا؟
ومن هاج الهزبر فليس بدعا ... إذا يلقى بهبجته المنونا
فخلوا خادمي (الرغفان) حربي ... فإني لن أخيم ولن أهونا
وعندي (كالبروق) إذا أبيتم ... قبول الحق فاستبقوا عيونا

عبدالله القصيمي

تنبيه للقراء

إن المراد من تسمية الكتاب أن ما ينشره الشيخ يوسف الدجوي في مجلة الأزهر الرسمية من شرعية البدع التي هي زيادة في الدين، وما نشره الشيخ مصطفى الحمامي في مصنفه الجديد في ذلك وأجازه، وأمضاه له عشرات من علماء الأزهر، وسكوت الآخرين عن الرد على المجلة والكتاب يوهم قراءهما أن علماء الأزهر متفقون على ذلك، وليس الأمر كذلك، فقد بلغني أن بعض الذين وضعوا أسماءهم وأختامهم على كتاب الحمامي أجازوه بالوصف ولم يقرؤه.

فأنا أصرح بأن شيوخ الأزهر الذين أوجه إليهم انتقادي في هذه الرسالة هم الجامدون على البدع الفاشية، والطعن في متبعي السلف وأنصار السنة، وأشهرهم الشيخ يوسف الدجوي، والشيخ مصطفى الحمامي، الذين ما فتئوا يسعون لتفريق المسلمين، ولإيذاء جماعة الموحدين، خدمة لأغراض معلومة ليست شريفة ولا محمودة، في هذه الساعات الحرجة، والأوقات العصيبة، التي حاجة المسلمين فيها إلى الاتفاق أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

وأعتذر عن إطلاقي كلمة شيوخ الأزهر أو علماء الأزهر في بعض مواضع النقد بأنه من إطلاق العام وإرادة الخاص.

وإنني أعلم أن في الأزهر علماء فضلاء محققين، ويؤثرون الحق على ما

سواه، ويمقتون البدع والمحدثات، ويمقتون من دعا إليها، ويودون جمع كلمة المسلمين والرجوع بهم إلى ما كان عليه سلفهم الصالح، وإن لبعض علماء الأزهر عليَّ أيادي علمية وأدبية خاصة وعامة، ولكن ذلك لا يمنعني من أن أصدع بالحق، وأجاهر برأيي ومذهبي، وأقدم على نصرة ما أراه حقاً.

أجل، إن ذلك لا يمنعني ولا يجوز أن يكون مانعي، ونحن والحمد لله في مصر تحترم حكومته الحرية في كل شيء: الحرية في الأديان والآراء في المذاهب والعقائد، الحرية في السياسة والعلم والرأي، الحرية في الأحزاب السياسية والطوائف الدينية، فأرى من الواجب عليّ الانتفاع بهذه الحرية، وقد فعلت.

فهرس كتاب «شيوخ الأزهر..»



شيوخ الأزهر
والزيادة في الإسلام

١٢٥٩٧١

تأليف
عبدالله بن علي النجدي القصيمي

13900

إذا أرضيت ربي لا أبالي — اذا اسخطت كل العالمينا
وكيف اخاف أخوف من حبارى — رأت صقرا وقد دست العرينا
إذا انزلت بأسي في قبيل — فويل للأبين وللبنينا
أغرّ مخاصمي صفري وهزلي؟ — كأن المجد في عد السنينا
وهزلي لا أبالك من شعوري — وجسم الحر لا يأتي سمينا
ومن أغبى وأغبن من عظيم — تعرض سخطتي فغدا مهينا؟
ومن هاج الهزبر فليس بدعا — إذا يلقي ببهجته المنونا
فخلوا خادمي (الرغفان) حربي — فاني لن اخيم ولن اهونا
وعندي (كالبروق) إذا ابيتم — قبول الحق فاستبقوا عيونا

عبدالله علي النجدي القصيمي

الطبعة الاولى في مطبعة المنار بمصر في سنة ١٣٥١

صورة غلاف كتاب «شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام»

الكتاب الثالث: «الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم»

نشر القصيمي هذه القصيدة في مطلع كتابه:

لو أنصفوا كنتُ المقدم في الأمر ولم يطلبوا غيري لدى الحادث النُكر
ولم يرغبوا إلا إلـي إذا ابتغوا رشاداً وحزماً يعزبان عن الفكر
ولم يذكروا غيري متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيري لدى غيبة القدر
فما أنا إلا الشمس في غير برجها وما أنا إلا الدر في لجج البحر
بلغت بقولي ما يرام من العلا فما ضرني فقد الصوارم والسُمر
وما ضرني ألا أروح وأغتدي بأردان مجدود على سانح يفري
أسفت على علمي المضاع ومنطقي وقد أدركا ـ لو أدركا ـ غاية الفخر
أرى كل قوم يحفظون أديبهم ويجزونه بالعز والمال والشكر
خلا معشري؛ ما عندهم لأديبهم سوى الحسد المقوت والبغض والهجر
إذا قام فيهم ناشئ ذو مخايل تدل على العلياء والحسب الحر
أطاحوه غضاً قبل أن يبلغ المدى وقاموا على أعواده الخضر بالكسر
ومما شجاني أن أراهم إذا رأوا غبياً دعيّ العلم والدين والشعر
تولوه بالألطاف والعطف والرضا وذلوا له ذل الحوادث للدهر
فكم عز فيهم من جهول مبلد وكم ذل منهم من عليم ومن حبر
لقد ضقت ذرعاً بالبيان فإنني رأيت بياني ناقصاً عندهم قدري
ورغبني في الجهل أني رأيتنا يسود لدينا كل من لم يكن يدري
نوائب دهر تترك الحر حائراً وليس بمظلوم لديه سوى الحر

يـرى الجاهـل المـأفون فيـه منعمـاً ... له الفلـك المسعود يجـري بمـا يجـري
لـه النـاس والـدنيا جميعـاً خـوادم ... فهـذا لـه عبـد، وهـذا لـه مطـري
يـزاد نعيمـاً كلمـا زاد جـوْرُه ... ويكـبر شـأناً كلمـا زاد مـن كفـر
أطاعـت لـه الأيـام حتـى لـو أنـه ... تأبى طلوع الشمس ما طلعت تجـري
متى شـئتَ أن تلقـى جهـولاً مرأسـا ... وجـدت كـثيراً ذا جـلال وذا يـسر
وإن شئتَ حراً راضي العيش لم تجـد ... ولكنـه بـين المهانـة والعسـر
أعلـل نفـسي بالأكاذيـب والمنـى ... وقد ينفع الكـذّاب في سـاعة الـشر
فلـولا رجـائي والرجـاء مخـادعي ... لعذت بـشر لا يـضيق بـه صـدري
تـذوقت أنـواع الـبلاء فلـم أجـد ... بلاء كمثـل الظلـم والـذل والقـسر
وما غاظني مثـل امـرئ ذي فهاهـة ... يـسود علينـا بالقـضاء وبـالوفر
إذا ما سألت الدهر حقي يقول لـي ... تنح، فما للحـر حـق لـدى الـدهر
وإن قلت سالمني على الجو قال لـي ... غلطت فما سالمت مذ كنت من حر
وإن قلت فيم يكسب الجاه والغنـى؟ ... يقل لي بنكـران الفـضائل والحجـر
تـشكٍ إلى مـا منـه أشـكو ومفـزع ... إلى ظالمي؛ كيف الخلاص من الأمـر؟
إذا ما نظرت الناس والرزق بيـنهم ... تيقنت أن العقل ضرب مـن الفقـر

عبدالله بن علي النجدي القصيمي

قال القصيمي في مقدمة كتابه:

«قال بعض الحكماء: لا يزال الناس بخير ما قالوا للمخطئ: أخطأت، وللمصيب: أصبت، وكان أكثر ما دفعني إلى هذا النقد القارص هو تهجمهم على خلاصة المسلمين اليوم، ورميهم إياهم بالعظائم وتهييج المسلمين عليهم لمآرب لا تخفى على ناقد.

وليعلموا أننا لا نجادلهم إلا ببعض عقولنا، فما جادلنا أحداً منذ تعاطينا الجدل بكل عقولنا إلا أناساً معدودين ليسوا منهم، وليغض القارئ عما قد يجد في أثناء الكتاب من ضعف في المأخذ أو العبارة.

فإن الكمال المحض للرحمن وحده، وقد حال بيني وبين إتقانه إتقاناً أرضاه رضواناً مطلقاً ـ هموم في همم لو تسلط أضعفها على من يجد لديه الضعف والكسل مكاناً لما مسك قلماً، ولما أبدى رأياً، وقديماً قالوا: الهم قيد الحواس، ولا تذهبن سيئاته إن كانت بحسناته؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات، ولا يكبرن عليك ما ترى في الكتاب من بعض الشدة، فإننا ما فعلنا ذلك إلا غضباً لله وغيرة على دينه، وما جازيناهم إلا ببعض ما بدأونا به، هذا وأنا أرجوك أيها القارئ أن تقرأ الكتاب متجرداً من الهوى والعصبية مؤثراً البرهان على المشايخ والآباء والعادات، غير ناظر إلا إلى الحق.

وقد قال أرسطو: أستاذي صديقي والحق صديقي، فإن تنازعا فالحق أولى بالصداقة، وعليك بالإنصاف فإن خلق الإنصاف من أفضل ما وهب الإنسان، وفي نور الإسلام «وقلة الإنصاف تحدث في العلم فساداً كبيراً ذلك لأن من لا يقدّر الإنصاف قدره قد يرى بعض الآراء العلمية الصحيحة قد صدرت من شخص لا يرتاح هو لأن تكون قد صدرت منه، فيقابلها بالرد والإنكار، وقد تكون له براعة بيان، فيصرفها في تشويه وجه الحق، وهو يرى أنه حق؛ فيظهر الجهل على العلم، ولو في فئة قليلة أو دائرة صغيرة».

وقالت أيضاً: «قلة الإنصاف تخذل العلم وتطمس شيئاً من معالمه، والإنصاف يؤيد العلم ويجعل موارده صافية سائغة، ولو أخذ الإنصاف حظه من نفوس جميع الباحثين عن الحقائق لقلت مسائل الخلاف في كل علم، فيكون حفظ العلوم أيسر، ومدة دراستها والرسوخ فيها أقصر».

وقالت أيضاً: «قلة الإنصاف تسقط احترامك من القلوب، والإنصاف يزيد احترامك في القلوب مكانة، ذلك لأن إنصافك للرجل يدل على صفاء سريرتك ونقائها من أن تكون قد حملت شيئاً من دنس الحسد أو حام بها الغلو في حب الذات».

هذا وأنا أتحدى المخالفين وأسألهم الإبطال لما كتبت إن كانوا قادرين عليه، بالحق لا بالتهويش والسباب.

وأنا أعاهد الله وأقسم لهم به إني راجع عن كل مسألة أروني غلطي فيها، وشاكرهم على ذلك أوفر الشكران، وأنا أدعوهم أيضاً صغيراً وكبيراً إلى المناظرة، شفاهة وكتابة إن شاءوا، في كل ما يخالفوننا فيه، وفي كل ما كتبنا نقضاً عليهم، بل إنا نجيبهم إلى كل ما دعونا إليه ما دام يرضاه البرهان، وما دام ينصر الحق والحقيقة، ولو كان علينا فيه غضاضة، فإن لم يفعلوا فليدعوا العناد وليرجعوا إلى الصواب، ويعترفوا به، فإن الرجوع إلى الصواب بعد وضوحه أشرف بالمرء من إصراره على الباطل، وأبقى لشرفه وعرضه عند الله والناس.

وفي نور الإسلام: «قال الشافعي: ما ناظرت أحداً على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه».

ولا يقولن قائل: أنا في غنى عن النظر إلى هذه الخلافيات، فليس ثمَّ غِنىً عن تصحيح عقيدته وبنائها على اليقين والصواب، والناس يحتاطون لملابسهم ومآكلهم وأدويتهم، ويذهبون فيها إلى اليقين والصحة ما وجدوا إلى ذلك مذهبا.

فكيف بالدين؟ ولو اختلف طبيبان على شيء فقال أحدهما: تناولُ هذا الدواء قاتل، وقال الآخر: نافع، لما تناوله إنسان يُشفق على نفسه.

هذا ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٣]. ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

عبدالله علي النجدي القصيمي

وختم القصيمي كتابه بهذه القصيدة:

لا تمنعنــــــك قلـــــة الرفقـــــاء ... مـــن أن ترافــق حكمــة الحكــماء
نعــم الرفيــق الحــق إن لم تلـق مــن ... تـــرضى مـــن الرفقـــاء والنظـــراء
مــا عيــب مـصباح النهــار ومــا لــه ... مـــن صـــاحب في القبـــة الخـــضراء
فابــدر إلى صــيد الحقيقــة إن بــدت ... إن الحقيقـــــة غايـــــة العقـــــلاء
إن الحقيقـــــة في الأنـــــام خفيـــــة ... يـــا طالمـــا خفيــت عـــلى العلـــماء
لا تـــترك الحــق المبــين إذا الـــورى ... لم يقبلــــوه، ومـــــنهج الـــــسعداء
إن الموفــق -إن فطنـــت- لنـــادر ... والنـــاس أكثـــرهم مـــن الـــسفهاء
لا تحـــسبن الحـــق وقفــاً لازمــاً ... حبـــساً عـــلى الأشـــياخ والقـــدماء
فلربما رشد الصغير وضل منهاج السـ ... ـــبيل أكـــــابر الكـــــبراء
فـــالحق نـــور الله يبـــصره امـــرؤ ... متجنـــب الـــشهوات والأهـــواء
هـــذي مـــصوغة صـــائغ وشّـــاء ... تـــزري بُـــدرٍ زائـــن الحـــسناء
لـو نُظمـت زهـر النجـوم وحليـت ... بالـــشمس لم تـــشرف عـــلى إيحـــائي
نثـــري شـــفاء للنفـــوس وللحجـــا ... ورديء شـــعري معجـــز الـــشعراء
لو شئت أن أهجـو الهـلال فـضحته ... والـــشمس لم تفخـــر عـــلى الظلـــماء
مـــا عيبـــه إلا ســـلامة طبعـــه ... ممـــا يـــشين؛ وعـــزة الأمـــراء
لهفـــي عـــلى أدبي المـــضيع بيـــنما ... وطنـــي وقـــومي فاقـــدو الأدبـــاء

عجباً لقوم يظمأون وبينهم النيل يجري فائضاً بالماء
ويل الأديب من الزمان وأهله إن الأديب لمطرح البأساء
ولقد قليت العلم لما أن رأيـ ـت ذويه تحت منابر الجهلاء
والفقر شين بالأديب كما الغنى شين بأهل العي والبخلاء
والفقر يسترق المبين بيانه ويصيبه بالعي والأخطاء
يا ربما أدب أضيع وحكمة وفصاحة ضاعت لدى الفقراء
وأديب قوم لو رعوه أفادهم شرف الزمان ورفعة الأنواء
إن عيب قوم يتركون بلادهم مجفوة الصفراء والبيضاء
فأنا أعيب ـ ولا أؤثم ـ أمة مجفوة العلماء والشعراء
داء بقومي لا أطيق بقاءه عز الجهول وذلة العلماء
إني لآمل في الزمان ـ وإن قسا ـ ليناً ويسراً بعد ذي الضراء
كيف القنوط من الرجاء وإنني أنمى (لنجد) منبت الكرماء
حسبي رجاء أنني أنمى له وأحل منه تلعة الفيحاء
وبنو رباه ذخيرتي ومهندي عند الهياج وشدة اللزباء
أفري بهم قلب الشدائد والنوى وأدوس عفواً هامة الجوزاء
تأبى خلائقهم ويأبى دينهم ووصية الأجداد والآباء
أن يتركون بنيهم وأديبهم جزر الخطوب ومطعم اللأواء

ما ضـيعوا ضـيفاً ولا جـاراً فكيـ ـــف يـضيعون مهـذب الأبنـاء
حاشـا لهـم أن يعـدلوا بي واحـداً مـن بعـد مـا وضـحت لهـم أنبـائي
وأعيـذهم مـن أن يعيـل أديـبهم وأديـب كـل النـاس في الـنعماء
رفـق العـذول فـما أطـوق لومـه حـسبي زمـاني لائـماً وقـضائي
عـابوا عـليّ تحـدثي وتمـدحي بأصـالتي وشـجاعتي وذكـائي
إن لم يـبح مـدح الفتـى أخلاقـه بيـضا فـأي تمـدح وثنـاء؟

عبدالله القصيمي

فهرس كتاب «الفصل الحاسم ...»

الفصل الحاسم
بين الوهابيين ومخالفيهم

عبدالله القصيمي



Arab Diffusion Company

صورة غلاف كتاب «الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم»

الكتاب الرابع: «مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها»

قال القصيمي في مقدمته:

رجعتَ ولكن لا إلى حكم حاكم وعذتَ ولكن في شدوق الأراقم
تريد من الأيام ما ليس كائناً سعادة محمود لدى المجد عالم
ولم تجمع الأيام للمرء مرة ذكاء وحظاً، فاحترق أو فقاوم

* * * *

قضى الله أن الأمر والنهي والغنى لكل بليد القلب قسمة قاسم
وأن يقدم السَباقَ كلُّ مؤخر عن المجد والعلياء عند التزاحم
وما كان هذا الداء في الناس حادثاً ولكنه في الناس من عصر آدم
شكاه الألى كانوا تولوا وبعدنا سيشكوه منهم كل أروع حازم
فإن كنتَ ترضى بارد العيش فانسلخ من العقل واستلهم نفوس البهائم
فإني رأيت الضر والعقل أصبحا قرينين من راض بهذا وناقم

* * * *

تحاول إرضاء الحسود ولم يكن ليرضيه إلا أن تُرى في الرمائم
وماذا رأى الحساد عندك غاظهم وقد أصبحتْ دنياك أبكى المآتم
حُسدتَ على الروح التي قد سئمتها وما الروح إلا الريح ذات السمائم
ولو كان حسادي يطيقون حملها لجدت بها، فعلي ببذل الدراهم

* * * *

رويدك بعض الشكو ما ثمَّ سامع ولا ثمَّ مرجوٌ لكسب المكارم

وما أنت لاق عادلاً تشتكي له ... ولا دافعاً من مرهقات المظالم
فكل بني الدنيا بغاة وجدتهم ... فهم ظالم باغ يعوذ بظالم
أضعت رجاء كنتَ جهلاً حملته ... على معشر كانوا جنود المغارم
فما سمعوا شكوى جهيراً خطابها ... ولا حذروا من ذاهبات الملاوم
ولا حفظوا وداً ولا حفظوا يداً ... جذذت بها زند العدو المصادم

* * * *

عفا الله عنهم ما شكوت وما شكا ... لك العلمُ فيهم حظوةَ المتعالم
وما أخروا حراً أغر مُقدماً ... وما قدموا غراً لوجه العظائم
وما ضيعوا الآداب والعلم والعلا ... بما استحفظوها في العيون النوائم

* * * *

أليس عجيباً أن تضيع بأمة ... وتُحفظ فيها سارحات السوائم
وأن تُمنع الماء القَراح ويرتوي ... من الأمل المعسول صُفر البراجم
شؤون بها ما في فؤادي من الضنى ... فيا ليت قلبي في صدور لوائمي
فيشكوا كما أشكوا من الغيظ والأسى ... ويعذرني فيما تكلمت لائمي

ثم قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نسألك الإيمان والطمأنينة، ونعوذ بك اللهم من الشك والحيرة، ونهدي لك أتم الحمد والثناء، ونصلي ونسلم على الرسل والأنبياء.

أما بعد: فهذا بيانٌ لأحاديث نبوية صحيحة قد أشكلت على كبار العلماء، قد أشكل بعضها طبيّاً، وبعضها فلكياً، وبعضها علمياً، وبعضها حسياً، وبعضها دينياً، فعجل فريق فكذبها وردها وتحامل على رواتها، ولم يصب في ذلك: فجرأ العامة، وأشباه العامة، على أن يكذبوا كل ما لم يحيطوا بعلمه من صحيح الأخبار.

وتكلم فيها فريق آخر كلاماً لم يسر مع الصواب والتوفيق، فزاد كلامه أهل الشك شكاً وريبة، وضل من أجلها فريق ثالث، فهوى في الشك والحيرة، فرغب عن الدين، وأوغل في الشهوات والملذات، ونحن نسأل الله السلامة من ذلك كله، كما نسأله أن يقضي لنا الرشاد والهداية فيما فعلنا، وفيما سوف نفعل.

وقد سردنا الأحاديث سرداً، حيث ما تيسرت، لم نراع في ذلك ترتيباً ولا تقديماً ولا تأخيراً، وذلك لأن كل حديث قائم بنفسه مستقل بمعناه لا ارتباط له بغيرة.

المؤلف

فهرس كتاب: «مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها»

الموضوع | الصفحة

مُشكلات الأحاديث النبويّة

وبيانها

يحتوي هذا الكتاب على الأحاديث النبوية التي استشكلتها العلوم الحديثة من طبية وجغرافية وفلكية وحسية الخ... وفيه بيانها بنفس العلوم الحديثة. وسيجد القارئ في الكتاب مثالاً حياً للدفاع عن نصوص الدين المقدس ومثالاً حياً للنقد الفلسفي العصري...

تأليف

عبدالله بن علي النجدي القصيمي

١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م



مراجعة وتحقيق:

الشيخ خليل الميس

مدير أزهر لبنان

دار القلم

ص.ب: ٣٨٧٤

بيروت - لبنان

صورة غلاف كتاب «مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها»

الكتاب الخامس: نقد كتاب حياة محمد

قال فيه القصيمي:

«هذه هي حياة محمد، وهذا هو محمد عليه السلام، مصوراً بقدر استعدادنا نحن لا بقدره هو، فما ترى في هذه الحياة من المعجزات والسمو؟! وما ترى في هذا اليتيم العربي الأمي من المعجزات والسمو؟!

حياة كلها معجزات وسمو، حياة سلسلة من العظمة والبطولة، بطولة النبوة لا بطولة الرجولة فقط!! حياة لا يستطيع أحد أن ينكر عظمتها، المؤمن بنبوتها يعظم فيها النبوة والعظمة، والكافر بنبوتها يعظم فيها البطولة والرجولة التامة، فالناس لا يختلفون في تعظيم هذه الحياة، والناس لا ينكر منهم أحد ما عليه لهذه الحياة من فضل، ومن منة.

إذن: ليكتب الكاتبون في عظمة هذه الحياة، كل يكتب على قدر استعداده وعقيدته، وعلى قدر إيمانه، وليكتب «الدكتور هيكل» إذن في هذه الحياة، ولنكتب نحن بعض أغلاط هيكل، ولننكر ما يدخل في هذه الحياة من غلط، فإن الغلط في فهم العظيم هو في الواقع غلط في العَظَمة».

ثم قال:

خاتمة: هذا بعض ما يؤخذ على كتاب هيكل من الجهة الإيجابية، وليلاحظ أننا لم نتقص الكتاب جيداً، وليلاحظ أيضاً أننا لم نؤاخذه إلا بما نراه خطيراً عظيماً، ولنا عليه مآخذ أخرى من الوجهة السلبية، ذاك أن في الكتاب قصوراً واضحاً، فالكتاب في حياة محمد كما سماه، يجب أن يحيط بالأشرف الأكبر من هذه الحياة، ويجب أن يحيط بالناحية العظمى منها، ونواحي الحياة عديدة، ولكن لنا أن نتساءل هل وفى ذلك؟ هل كتب عن أشرف نواحي حياة محمد، وعن أكثرها؟

لعلنا لو أجبنا بالإيجاب لكنا محابين للدكتور، فلقد أهمل أعظم النواحي من هذه الحياة السامية، السامية حقاً، حياة النبوة وكفى، وقصر كتابه على نواح قد لا تماثل ما أهمله خطراً وخطورة، بل إننا نرى من الظلم لحياة محمد عليه السلام أن نقول: إن هذا الكتاب يستحق هذا الاسم «حياة محمد»، وبعبارة أخرى نقول: إنه كتب عنه كسياسي محارب، ولم يكتب عنه كرسول عابد، أو نقول: إنه كتب عنه كقائد ولم يكتب عنه كإمام، أي: إنه أهمل ناحية العبادة والتعلق بالسماء، ذلك الأمر هو أبرز صفاته عليه السلام في كل أدواره ومواقفه.

ولا نشك أن من يقرأ هذا الكتاب يخرج منه على أن حياة محمد ما هي إلا حياة حربية محضة، حياة كلها الغلبة وكلها الدماء، وكلها البطش

والجبروت، ولعلك لا ترضى منا هذا القول حتى نضع يدك على حجته، فأقول: انظر إلى ما كتب عنه عليه السلام: في جميع غزواته تجده قد كتب عن انتصاراته الباهرة، وعن إذلاله لأعدائه، وعن إحكام سياسته، وتجده قد أهمل تألهه وعبادته وتعلقه بالله.

وقد كان عليه السلام لا يترك الصلاة في حرب ولا سلم ولا في حضر ولا في سفر، وقد صلى بأصحابه صلاة الخوف، وصلاة الجهاد، عدة مرات بأنواع من الهيئات، على حسب حال العدو، وعلى حسب ما تسمح به حالة القتال، وكُتّاب السيرة كلهم يذكرون ذلك، ويكثرون من ذكره، ولكن دكتورنا لم يذكر منه شيئاً مطلقاً، وكذلك أهمل صيامه وسائر عباداته في أسفاره وجهاده، وهنالك شيء آخر يدلك على قصور في الكتاب، أو على عيب في الكتاب، ذلك أنه يذكر ما يأتي به رسول الله من مهارة في الحرب، ومن سياسة حكيمة راشدة، ويعزوها إليه على أنه هدي إليها بعقله، وعلى أنه أدركها بتفكيره، ولا يعزوها، بل ولا يعزو منها شيئاً إلى وحي الله، وإلى نبأ جبريل.

وهو أيضاً يعزو انتصارات المسلمين على خصومهم إلى شجاعتهم وإلى قوتهم وإلى تفانيهم في حب الفناء، ولا يعزو شيئاً من ذلك إلى لطف الله ونصرته، أي: إنه يجعل انتصاراتهم على المخالفين هي انتصارات عادية طبيعية، ولا ريب أن هذا خلاف القرآن، وخلاف قول المسلمين كافة.

وشيء آخر في الكتاب، وذلك أنه يعتمد على الضعيف من الروايات كثيراً، مثل ذلك أنه ذكر ص٩٥ أن أول الوحي كان مناماً، وهذا القول فيه رواية ضعيفة، والروايات الصحيحة المعتد بها خلاف ذلك، ورأي المسلمين اليوم خلافه أيضاً.

وشيء آخر في قصور الكتاب، وهو أنه لم ينقل فيه شيئاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن حكمه المعجزة الباهرة، وحياة رسول الله كانت ملأى بأحاديثه، ملأى بأقواله التي دونها رجال الحديث، والتي يتغنى بها المسلمون في الشرق والغرب، وعندي أن منشأ قصور الكتاب وعيبه جاءه من جهة اعتماده على المستشرقين الذين كتبوا حياة رسول الله عليه السلام، والمستشرقون لم يحيطوا بحياته إحاطة تمكنهم من أن يكتبوا فيها كتابة تقارب الصواب، ولو أنه اعتمد على علماء المسلمين لسلم من بعض ذلك.

وقبل إلقاء القلم لا أنسى أن أقيد هنا ما يأتي:

أولاً: شكر جريدة الكوكب على نشر هذه الحقائق العلمية.

ثانياً: أنا حسنُ الظن بالدكتور، أرى أن ما وقع فيه من أغلاط لم يكن صادراً إلا عن حسن نية، وأي إنسان مبرأ من الغلط؟ ولكن من الناس المقارب ومنهم المباعد، ولهذا أعتقد أنه سوف يسره ما يواجه به من نقد بريء وسوف يستفيد منه.

ثالثاً: أرى هذا الكتاب، مع ما ذكرنا، مفيداً لأناس كثيرين، مفيداً لقوم يحسبون الإلحاد هو كل شيء في هذا العصر، مفيداً لقوم يحسبون التدين والإيمان مقصورين على العامة والجهلاء، وما حسبوا أن رجالاً مثقفين عصريين «كهيكل» يحرصون على الدين وعلى الإيمان، وكم يسرنا أن يقتدي كتابنا الأعلام، أمثال الدكتور طه حسين، والأستاذ العقاد، والأستاذ المازني، بهيكل، ولو أنهم فعلوا ذلك لآمن الناس جميعاً أو لازداد الإقبال على الدين.

رابعاً: لا ندري لماذا لم نسمع من علماء الأزهر، أولئك الذين يغضبون للوسيلة وللطواف بالأضرحة، والذين يغضبون على الوهابيين، ويكيلون لهم من السب والإيذاء ما هم به عالمون، صوت نقدٍ وإنكار على هذا الكتاب، وفيه ولا شك مما لا يرضاه هؤلاء الشيء الكثير، ألا يكون هذا دليلاً على اشتغال القوم بالدنيا عن كل شيء؟ حتى عن العقيدة وحتى عن إنكار ما ينكرون؟

أسأل الله أن يصلح حال المسلمين، وأن يبعدهم عن مواضع الفتن والفتون، وأن يجعلهم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

عبدالله علي النجدي القصيمي

فهرس كتاب «نقد كتاب حياة محمد»

العنوان صفحة



نقد كتاب حياة محمد

نشر أكثره مقالات فى
جريدة الكوكب الغراء

بقلم
عبد الله بن علي النجدي القصيمي

١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

صورة غلاف كتاب «نقد كتاب حياة محمد»

الكتاب السادس: الثورة الوهابية

قال القصيمي في مقدمته:

«حادث الدعوة النجدية السلفية التي اصطلح الناس على أن يسموها وأن يُعَرفوها بالدعوة الوهابية من الأحداث الكبريات التي اهتز لها التاريخ في الشرق الأدنى والأوسط، وقلبت أوضاع الحكم في الجزيرة كلها وزلزلت الدول التي تصاقب الجزيرة زلزلة أزعجت رجال حكوماتها، ولفتتهم إليها بعنف وروعة؛ لفتة الذعر والإكبار والإعجاب.

واضطرت الناس في المشرق والمغرب، من لهم مصالح في الجزيرة، ومن لا مصالح لهم فيها، أن يتجهوا إليها، وأن يتنطسوا تقلباتها وحركاتها، ويتتبعوا ما يقع فيها من أحداث وشؤون بعين العناية والاهتمام، وأن ينبئوا لها مختلف النبوءات، ويكتبوا عنها مختلف الكتب والمقالات، وأن يشغلوا بدرسها من جميع نواحيها دينية وسياسية، وأن يتقرب ذوو المصالح إلى زعامتها رغبة أو رهبة.

ولدت هذه الحركة الدينية السياسية في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، أي منذ قرنين على وجه التقريب في شخص الشيخ محمد بن عبدالوهاب المشهور، وهو شيخ من شيوخ نجد، وقام بنصرته وتأييده

والدفاع عنه الأمير «محمد سعود» جد العائلة السعودية الأول.

وكان العرب في ذلك العصر الذي ولدت فيه هذه الحركة في حالة من التأخر والبؤس والجهل والضعف، ليس وراءها مزيد لمستزيد، متفرقين متحاربين جاهلين مغلوبين، رجعوا متحاربين جاهلين مغلوبين، رجعوا إلى حالة من الفوضى والجهل والفقر، إن لم تكن شراً من الجاهلية الأولى قبل بعثة الرسول وإنقاذهم، فليست دونها، وقد استطابوا هم تلك الحالة المزرية وقنعوا بها، واستمرؤوا ما يجدونه فيها من الفوضى والهمجية، ولعلهم أصبحوا لا يدرون أن هنالك ما هو خير مما هم فيه، ومن أين يدرون وأسباب العلم والدراية قد تقطعت بهم؟! وقُل في سائر الأمم الإسلامية ما قلته في العرب.

فأنعشتهم هذه الدعوة وهذبتهم وابتعثتهم وجمعتهم عليها حيناً، ووضعت أمام أعينهم من مُثُل الإصلاح والتهذيب والدين والأخلاق والتعاون ما جعلهم يرغبون فيها الرغبة القوية، وما جعلهم يترامون في حجرها ويستميتون في الدفاع عنها، وقد صاروا يرون فيها المخلص الأكبر لهم من ذل الحياة الدنيا ومن عذاب الأخرى، فمثلوا أدواراً من البطولة العربية الإسلامية في ميدان الجهاد والدفاع؛ كانت حديث الناس إلى عصرنا هذا...

وأروا الناس من أمثال التقوى والاندفاع وراء الدين والفضيلة ما كانوا يقرؤونه في تاريخ المجاهدين الأولين من المسلمين.

ولقد تناولت أقلام عربية، وأخرى أفرنكية، هذه الدعوة، وما زلت تتناولها، وحاولت بإخلاص وإعجاب أن تصفها وصفاً يكون الحقيقة، وفي دور الكتب الأوروبية العامة المؤلفات العديدة عنها، منها عربية ومنها أفرنكية، ومع هذه المؤلفات وهذا الانتشار والشهرة نقول: إن أغلب المسلمين يجهلون حقيقة هذه الدعوة وتخفى عليهم مراميها، وعلى الخاصة منهم أيضاً، ولعل كثيرين من باحثي الغرب يعرفون عنها مالا يعرفه المسلمون في العالمين: العربي وغير العربي.

والحقيقة المؤلمة أن قوماً يكتبون عنها، ويحسنون الظن بها، ويريدون نصرتها، وهم لا يعرفونها معرفة تامة، فيجيء ما كتبوا خليطاً مشوهاً، وأصحاب الدعوة أنفسهم يقصرون كثيراً في إبلاغها وتعريفها إلى الناس، وإذا ما كتبوا كتبوا بأساليب عصور ولت، وحلت مكانها أساليب جديدة لا بد منها في عصرنا هذا، فالدعوة إذن في حاجة ملحة إلى درسها وبيانها للناس بياناً صحيحاً بعبارات يقرؤنها ويفهمونها.

ولقد كتبتُ محاضرة عن الدعوة وعن سير انتشارها ألقيت في أحد النوادي بالقاهرة، فاستحسن الإخوان الذي سمعوها بيان الدعوة بأسلوب

المحاضرة، وذكروا أن الدعوة في حاجة إلى مثل المحاضرة وأن الناس في حاجة كذلك.

كما ذكروا أن الدعوة إذا ما وصفت كما وصفتها المحاضرة أصبح من المرجو جداً أن يقبل المسلمون عليها إقبالاً عظيما، وأن يستفيدوا منها، وألا يكون ثمت ما يحول بينهم وبينها.

وهذا الذي ذكروه حق لا مراء فيه، فإن هذه الدعوة ليست سوى صورة قوية واضحة من صور الإسلام البريء دين الفطرة كما وصفه القرآن، وعرفه المسلمون قبل أن تجترفه الأغراض، وقبل أن تعبث به يد الفساد والدسائس الممقوتة، فالناس الذين لا يقبلون هذه الدعوة ولا ينعمون بها أحد رجلين: إما صاحب مصلحة دنيوية لا يريد أن تفوته باتباع هذه الدعوة التي تأبى ـ بصرامة ـ الدجل والاحتيال على أموال الناس على حساب الابتداع والدعاوى الكاذبة، وإما جاهل بالدعوة وبأمرها لم يوفق إلى من يصفها له وصفاً لا يعدو الحقيقة بعبارة واضحة قوية.

ويأتي بعد هذين السببين سبب ثالث قوي، وقد يتناوله السبب الأول، ذلك السبب القوي هو السياسة المغرضة التي لا تعرف حقاً ولا حرجاً في سبيل مصلحتها الذاتية، وهذا السبب الأخير له الأثر البارز في محاربة هذه الدعوة كما سوف تعرف ذلك بعد.

ولولا هذه الأمور الثلاثة، أو الأسباب الثلاثة، لما كان هنالك عائق من أن يجتمع المسلمون على هذه الدعوة وينضموا تحت رايتها، ولما وجدنا اليوم من يظن بها الظنون ومن يتجافى عنها.

ولكن الحق، ولا محالة، غالب ولو بعد حين، أو أحيان طويلة، والحقيقة وإن حبست أو طوردت أزماناً فلن تظل دائماً حبيسة طريدة، ولن تلبث أن يأتي عليها يوم تحطم فيه القيود وتتسور الجدران فلا يقف في سبيلها شيء.

وإنني في هذا البحث الموجز أضع أمام بصر القارئ فصولاً موجزة في بيان الدعوة وبيان حقيقتها، وسر قوتها، وحقيقة ما ترمي إليه في شيء من ترجمة ناصرها الأوحد[1] جلالة الملك «عبدالعزيز».

ولعلي أكون موفقاً فيما رمت، متحرياً الحق وحده، بعيداً عن الهوى والتعصب المضيع للحقيقة.

المؤلف

---

(١) الناصر الأوحد هو الله ـ عز وجل ـ.

ثم قال القصيمي:

«لا خلاف أن أنصع صفحة في تاريخ نجد تبدأ منذ مائتي عام تقريباً، أي: منذ أن دعا الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى دعوته، وبايعه الأمير محمد سعود على المؤازرة ونشر الدعوة بين الناس.

فمن ذلك الحين أصبح لنجد شأن يذكر، وتاريخ يدرس، وأصبحت تقع فيها أفعال يجدر بها التدوين والإشادة، ومن ذلك الحين اتجهت الأبصار مع القلوب تلقاء عاصمة نجد، وتلقاء زعامتها وسيادتها، واهتم الناس بذلك وأخذوا يدرسون ويكتبون عنهم، ومن ذلك الحين أخذت السياسة الخارجية تتبدل وتتطور تبعاً لتبدل سياسة نجد وتطورها، ومن ذلك الحين أخذ العالم الخارجي يفد إلى محل الملك فيها راغباً أو راهباً، خائفاً أو راجياً، مستفيداً دنيا أو ديناً، ومن ذلك الحين أصبحت حاكمة نفسها، حاكمة غيرها، وقد كانت قبل ذلك لا حاكمة ولا محكومة.

أما قبل ذلك التاريخ فقد كانت البلاد النجدية في عزلة تامة عن العالم، وكان العالم في عزلة تامة عنها، بل قد كان يجهلها كل الجهل، كما كانت تجهله كذلك أيضاً، وما كانت قبل ذلك التاريخ سوى قسم قاحل من بلاد العرب المجدبة، وما كان أهلها سوى أعراب وزراع يجهلون طرق المعيشة الصحيحة

كل الجهل، ويجهلون الدين الصحيح كذلك، وما كان العالم يحسب لهم حساباً، أو يقيم لهم وزناً».

إلى أن قال:

«والمأمول أن هذه الدعوة سوف يزداد ذيوعها وانتشارها؛ وسوف تخطو إلى الأمام سياسياً ودينياً خطوات سريعة.

أما الدين: فنرى أن المسلمين صائرون عن قريب أو بعيد إليها قابلون لها، ولا نرى أن المسلمين سيظلون متمسكين بالخزعبلات الأثيمة الهوجاء، ولن يظلوا البتة يدعون الأموات ويرون دعاءهم ديناً يثاب عليه، ولن يظلوا يأبون الرجوع إلى الله وإلى كتابه وإلى سنة رسوله.

كان يحول بين الناس وبين هذه الدعوة أهواء السياسة ولؤم السياسة، وكان يبعدهم عنها جهلهم بها وبعدها هي عنهم، أما اليوم فقد اقتربت إليهم واقتربوا هم إليها، وعرفوها معرفة علم وبرهان، أو أوشكوا أن يعرفوها معرفة علم وبرهان، والسياسة اليوم لا تستطيع أن تحول بينها وبين الناس، ولا تستطيع أن تخفيها وأن تلصق بها من التهم والأكاذيب.

وأما سياسياً فمخايل الأمر تنبيء أن مصائرها إلى الزيادة المطردة والتقدم الباهر، والعناصر التي لا بد منها لسيادة الأمة ولأخذها بأطراف المجد نجرأ أن نقول إنها قد اجتمعت لهذه الدولة اجتماعاً لا نقول إنه بشكل

يُدركه كل أحد، وإنما نقول إنها قد اجتمعت اجتماعاً يرجى جداً أن يظل يتزايد وينمو حتى يصير بشكل يدركه كل أحد، ويتفاءل له كل أحد بالبقاء والاتساع المكفول.

والأمة إذا ارتقت زعامتها وسلمت من الضعف ارتقت هي ولا بد، وزعامة هذه الدولة في غاية الرقي والنضوج، والأمة إذا ما كانت قوية الروحية والمعنوية سليمتها احتاجت فقط إلى رُبان ماهر تضع في يديه دفة السفينة فيمخر بها عباب الصعوبات والأخطار، إلى ما تشاء ويشاء من العلو والعظمة.

ودفة السفينة اليوم في يد ربان إن لم يُسَلم الناس أنه أمهر ربان فإنهم يُسَلمون أنه من أمهر «الربانين»، والشعب العربي شعب تليد السيادة وافرها، طموح إليها، ذكي الفؤاد، جيد الفكر، سريع إلى اكتساب أسباب العزة والمجد.

بل نستطيع أن نقول إنه كثير التنافس والحسد على أسباب العلو، والحسد إن ذُم في كل شيء فإنه لن يُذم هنا، بل هو من أعظم دواعي الصعود في سماوات المجد، وما كان يؤخر الشعب العربي سوى ضعف القيادة، وسوى التنافس على السيادة، ثم التفرق، وهذا هو البلاء الأحمر، وهو ميكروب الأمة العربية الخبيث، وشيطانها التليد العنيد الفاجر.

ولهذا كان القرآن عز العرب يمتن عليهم كثيراً في أن ألّف الله بين قلوبهم وجمعهم على عبده ونبيه، ويشتد جداً في ذم الفرقة ووصف أدوائها، وكان التفرق يُقرن بالكفر والخروج من الإسلام، وذلك لما كان له عند العرب من أخطار وويلات، سهلت لأعدائهم أن ينالوا منهم ما لا يستطيعون بعضه لولا الفرقة.

وهذه الأسباب ـ أسباب إضعاف العرب ـ قد زالت وقطع الله دابرها بسيف شرعه وسيف مَلك العرب وحكمته، فلن يتوقع إذن لهم سوى التقدم والسيادة المرموقة.

وها هنا ظاهرة في العرب قد لا تكون غريبة، وإن كانت في غيرهم غريبة حقاً، ذلك أن المستقرأ أن العرب لا يسودون إلا بالدين، ولا يكونون دولة قوية ناهضة إلا إذا تمسكوا بالدين، وهذا أمر مستقرأ لا يُختلف فيه ولا يكذب.

وهذه الظاهرة يُستطاع تفسيرها على ضوء الأبحاث النفسية الاجتماعية، ويستطاع بسهولة معرفة سرها، وأذكر أن «ابن خلدون» ذكر هذه الظاهرة في مقدمته، ولا أذكر ماذا قال في تفسيرها، أما تفسيرها عندي فهو: أن العرب جُبلت على الحرية المطلقة الموسعة جداً، الحرية التي لا تقبل قيداً ولا قانوناً ولا نظاماً، ولا تذعن لشيء من ذلك، وهذا الخلق راجع إلى

طبيعة بلادهم وعيشتهم البسيطة، وقلة أموالهم وشئونهم في الحياة، فهم لبعدهم عن الإذعان للقوانين والقيود، والدنيا كلها قيود وقوانين، لا يجتمعون، إذ الاجتماع قيد شديد، ولا يرضون لزعيم زعامة، ولا لسيد سيادة، ولا يبغون بحياة الحرية بأوسع معانيها بديلاً.

فلا جرم أن يتنازعوا السيادة التي تكفل لهم ذلك الأمر المحبوب لدى أنفسهم، الذي جبلوا عليه، وأعني به الحرية المطلقة المتصرفة في القريب وفي البعيد وفي كل شيء في الوجود، وإذا ما تجاذبوا حبل السيادة وأبى كل واحد منهم أن يضعه في يد خصمه أو نده، فلا جرم أن يقضوا حياتهم القصيرة كلها في الحروب والنضال، ولا جرم أن يضعفوا كلهم وأن يشغلوا عن أسباب النهوض والزعامة، فلا بد أن يكونوا غير قادرين على دفع عدوان المعتدي، ورجع حملات الغازي الطامع مكسورة مدحورة، بل لا بد أن يفتحوا له الأبواب، وأن يَدْعوه ويقدموا له البلاد هدية، وذلك للنكاية بأبناء وطنهم وأبناء أعمامهم الخصوم، أو استعانة بهم على الأقربين المنافسين، فيغزوهم الطامع إن كان فيهم مطمع، ويسعى في إضعافهم وتقليم أظفارهم إن كان يخشى منهم بأساً، ويهملهم إهمالاً باتاً إن لم يكن هذا ولا ذاك، إن لم يكن خوف ولا طمع، فيحوز السيادة من يحوزها، ويجمع أشتات المجد من يجمعها، وهم سادرون في هذه الحالة المنكرة الأليمة، فمتى يسودون ومتى يكونون أمة ودولة؟!

أما إذا قبلوا الإيمان وأشرقت شمسه في قلوبهم الصحراوية بساطة وسذاجة، وأذابت منها تلك النعرات الأثيمة، وطهرتها من تلك الأمراض العنيفة، وعَرّفتهم أن السيادة ليست ملكاً لأحد منهم لا لفلان ولا لفلان، ولا لأحد من أهل الأرض، وإنما هي لله رب العالمين، ثم لدينه وللمؤمنين به أجمعين، وأن المؤمنين بدينه تعالى سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بقدر صلاحه وطاعته لربه، وسمو أخلاقه على المعايب والنقيصات.

وأما إذا علموا أن السيادة الحقة لا توجد إلا في السماء عند رب العالمين ادخرها لمن أطاعه، وسما إليه بنفسه عن أمراض الأرض وأهواء الأرض وأدواء أهلها، وأما إذا راضهم الإيمان القوي فعلمهم النظام، وعلمهم الاجتماع، وأسباب التعاون والتعاضد والإذعان لزعيم الوحدة والجماعة: أما إذا ما كانوا كذلك: فلماذا لا يكونون أمة منظمة ذات سيادة وسلطان مهيب؟ وهم كرماء شجعان مقاديم صرحاء أولو أنوف حمية، وأولو أعنة في الخيرات سهلة، وهم أذكياء فطناء يحذقون سياسة الدولة وقيادة الجيوش؟! إنهم إذا كانوا كذلك فلا بد من سيادتهم ولا بد من علوهم على المعتدين.

والعرب إذا آمنوا بالدين وأخلصوا له وقبلوه بقوة فائقة وحرارة وصرامة، ولهذا أسباب نفسية ظاهرة؛ هي أن العرب كما قلنا يعشقون الحرية والعزة عشق هيام، والدين مبناه على الحرية والعزة، فالناس عند الله سواء،

فهم أحرار كلهم وهم أعزة، يكف اليد الظالمة من أن تمتد إلى أحد بسوء أو أذاة، وإلا فالنار وراءها وغضب المؤمنين قبل ذلك، فلماذا لا يخلصون للدين؟ ولماذا لا يفنون به ويقبلون إليه إقبال العائذ المستغيث؟!

ولقد وصل بي التفكير إلى هذه النتيجة وهي: اجمع بين العرب والدين الخالص القوي الملامس للعواطف والقلوب، ثم ارم بهم ما أردت، فإنك لن تخيب، وادفع بهم ما رهبت، فإنك لن تندم، ثم اصعد بهم إلى أسمى ما تراه وما لا تراه من المجد وخيال المجد، فإنك بالغ ذلك لاغباً ولا مقصراً.

وإلى هذه النتيجة أيضاً: إن العرب لا يسودون بغير الدين، ولا يجتمعون إلا على الدين، ولا يخضعون خضوعاً تاماً إلا لسلطانٍ مزج بالدين مزجاً تاماً».

إلى أن قال: « نظرة عامة: نلقي في هذا الفصل نظرة عامة على ما في تلك البلاد من دين ورأي وخلق، ليلم القارئ بالحالة الدينية والخلقية العامة في البلاد التي ولدت فيها هذه الدعوة، وقد كان اللائق بهذا الفصل أن يكون متقدماً وضعاً قبل بعض الفصول السابقة، ولكن العذر في هذا التأخير أنني لم أكن مفكراً في كتابة هذا الفصل حتى طبع ما طبع من فصول الكتاب.

النجديون، وأعني بهم أهل نجد وملحقاتها، كلهم مسلمون، وكلهم

راض بدينه الإسلام رضا عجيباً، لا يمر على بال أحد منهم طيف الانقلاب عنه أو التفكير في غيره، متمسكون بفروض الدين تمسكاً عجيباً، حتى إنه لا يوجد فيهم من يترك الصلاة أو الصيام أو الحج إذا استطاع إليه سبيلا لا ظاهراً ولا باطناً، بل ليس فيهم من يؤخر صلاة إلى وقت الصلاة التي بعدها البتة، بل يندر جداً من لا يؤدي الصلوات كلها في أوقاتها الأولى في المساجد جماعة.

فهم يهبون إلى أداء الصلاة في بيوت الله عندما يسمعون الأذان مبادرين تاركين ما بين أيديهم من أشغال وأعمال؛ مهما تكن الأشغال والأعمال، مسوقين في الأكثر بحادي الإيمان وخوف الله، ومن لم يكن كذلك ساقه خوف الناس ولائمة الذين يأمرون بالمعروف الصغير والكبير، ويشددون النكير على من يتهاون في أداء فرض من فروض الدين.

وهنالك في أغلب المساجد توجد هيئة متطوعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفقد الناس في الصلوات، ولا سيما صلاتا العشاء والصبح، وعند هذه الهيئة جريدة فيها أسماء رجال الحي الذين يُظن أن يصلوا في مسجدهم، يقيدون فيها أسماءهم بالإحصاء التام، وعندما ينتهون من الصلاة يقوم إنسان فيتلو أسماء رجال الحي الواحد بعد الواحد، مثل ما يكون في المدارس لتفقد التلاميذ، فإذا ما تأخر امرؤ واحد عن حضور

الصلاة حسب ما عندهم في الجريدة ذهبوا إلى منزله يسألون عن سبب تأخره عن الصلاة جماعة، فإن كان مريضاً عادوه وواسوه، وإن كان مسافراً دعوا له في الذهاب والإياب، وإن كان مقصراً نصحوه بأن لا يتأخر مرة أخرى وإلا أغلظوا له في الإنكار.

وهذا العمل في ظني فريد في بابه، وهو غاية في المحافظة على فروض الشريعة، وما نظن أناساً بلغت بهم المحافظة على أوامر الله هذا المبلغ.

وكثيرون منهم يبادرون إلى المساجد مبكرين جداً قبل حلول وقت الصلاة بساعات، وقد يصلي الواحد منهم أربعة فروض: الظهر والعصر والمغرب والعشاء، دون أن يغادر المسجد، وهم يحرصون جد الحرص على الصف الأول، ويتنافسون على الدنو من الإمام، حتى إنهم ليلة الجمعة يعدون أماكنهم في الصف الأول من أول الليل، يطرح الواحد له علامة عصاً أو مصحفاً أو شيئاً آخر، ويدعه عند النوم كذلك، فإذا ما صلى الفجر، وهم يصلون في أول الوقت، جلس في مكانه استعداداً لصلاة الجمعة، ولم يتنقل حتى يصلي صلاة الجمعة؛ إلا لحاجة لا بد منها من حاجات الإنسان، وهم يفعلون ذلك تقرباً إلى الله، وحرصاً على رضاه.

والناس هنالك على مذهب السلف الصالح، أعني: الصحابة والتابعين، في العقائد والآراء والأعمال، لا ينعمون بغير مذهب السلف الصالح عيناً، ولا

يعدلون عنه في نظرية واحدة من النظريات، أريد أنهم يذهبون مذاهب الأئمة القدامى في احترام نصوص الدين وتقديرها، وإبعادها عن التفاسير المجافية لذوق اللغة وذوق اللغويين، وعن المأثور عن السلف الصالح في تفسيرها وتأويلها، ولا يقبلون تأويلاً من تأويلات الباطنية والصوفية، ولا غيرهم من علماء الكلام الذين سلطوا التأويلات البعيدة جداً على النصوص، حتى ذهبت بقداسة القرآن والسنة من النفوس، نفوس المؤمنين بها، وحتى جرأ فريق من علماء الكلام المصابين بداء التأويل أن يقول: «إن القرآن والسنة لا يفيدان العلم ولا اليقين ولا يجوز الأخذ بهما في العقائد»! لأن الكلام عندهم كله ظني؛ لاحتماله التفاسير الكثيرة، وهذا من أخطر ما للتأويل من جناية على الوحي، وعند هؤلاء أن الله لو لم ينزل كتاباً على الناس يذكر به ما يصح من العقائد والآراء لكان أرفق بالناس وأسعد لهم، ولو لم ينزل لم يكن هنالك ضرر، لأن الحاكم عندهم على النصوص وعلى كل كلام هو العقل والرأي، أما النصوص فلا فائدة فيها البتة، وهنا يتجلى لنا غور السلف حينما اشتدوا في مؤاخذة أصحاب التأويل المجافي للمعهود من كلام العرب ومعروف الخطاب، فقد نظروا من وراء الغيب بأذهانهم الصافية إلى ما سيحدثه الذهاب مع التأويل من الآراء الباطلة والاعتداء على شرف النصوص، فأنكروا التأويل بشدة ولم يرضوا منه شيئاً.

وفي الحق أن من نظر نظرة الفيلسوف المتعمق الذي يزن الأشياء بنتائجها لم يجد بداً من إنكار التأويل والإنكار على منتحله، وآثار التأويل الوخيمة أكبر شاهد على بطلانه، وقد وجدنا بالاستقراء أن من اعتاد تأويل النصوص ذهبت قيمتها من نفسه؛ فقسا قلبه فاستهتر بالدين والعبادة.

والناس هنالك في الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، يفتي القضاة والمفتون من المذهب، ولكنهم لا يتعصبون للمذهب تعصباً أعمى؛ كما يصنع كثير من الناس، يغلون في التقليد وفي العلماء.

بل هم إذا وجدوا مستنداً شرعياً من القرآن أو من السنة لم يصدفوا عنه البتة، بل يقضون به ويدعون فقه الحنابلة جانباً مقدمين عليه حكم الله وحكم رسوله، وتحقيق الأمر أنهم إذا لم يجدوا نصاً من كتاب الله وسنة نبيه ودار الأمر بين أن يأخذوا برأيهم ورأي الإمام أحمد قدموا رأي الإمام أحمد، وقد يقدمون رأي غيره من الأئمة، لأنهم يرون الأئمة أعلم بالله وأتقى لله منهم، والأمر الذي جعلهم يميلون إلى الإمام أحمد أكثر من ميلهم إلى غيره هو علمهم بأن الإمام أحمد أوفر الأئمة معرفة بعلوم الحديث، وأكثرهم حفظاً لها، وهذه الطريقة أحسن الطرق وأكثرها عدلاً، لا يقدم المسلم على كلام الله وكلام رسوله كلاماً، فإن لم يجد من ذلك شيئاً في الموضوع قدم فهم الأئمة الصالحين على فهم نفسه ورأيه الخاص.

ولا يكون كقوم مُفرّطين ومُفرِطين، قومٍ يدَعون كلام الله وكلام رسوله جانباً لشيخ يقلدونه، وقوم يعتدّون بأنفسهم جداً حتى لا يبالون بالأئمة ولا بما يقولون، بل يسخرون منهم، والقصد في كل الأمور هو أجمل الأمور وأزكاها عند الله.

والناس هنالك يحبون العلماء ويحترمونهم ظاهراً وباطناً، لا يقدمون على العالم أحداً من الناس، وعندهم أن كلمة «شيخ» أو ابن الشيخ من أشرف الكلمات معنى وأعذبها لفظاً، وأحسب أنه لا يهتز أحد لألقاب المجد والفخر اهتزاز ابن الشيخ إذا ما قيل له يا ابن الشيخ، ويشعر عند هذا النداء في أعماق نفسه بسرور لا يشعر به أحد من حائزي ألقاب المجد والعظمة، وهذا الاحترام والحب اللذان يتمتع بهما العلماء هنالك راجعان إلى أمرين اثنين:

أحد الأمرين: حب الناس هنالك للدين وعظمته في النفوس.

والأمر الثاني: احترام العلماء هنالك أنفسهم، وزهدهم في الدنيا واستقامتهم، ونبذهم ما يخدش حرمة العلم والعلماء، فالعالم هنالك إذا ما قال سُمع ونُفّذ قوله، وتقبلته النفوس راضية مسرورة ظاهراً وباطناً، بل نستطيع أن نقول: إن الأمور تجري في تلك البلاد طبق ما يريد العلماء وما يقولون، لأنهم يتكلمون بلسان الشرع، ويقضون بقضائه.

والناس هنالك يمقتون كثرة الجدل والمراء في الدين والأبحاث،

ويتجافون عمن يرغبون في ذلك وينتحلونه، لأنهم يرون الجدل والمراء (ميكروب) النزاع، والنزاع ميكروب الخلاف، والخلاف ميكروب الفرقة والبغضاء، وهذه الأمور إذا اجتمعت لأمة قضت عليها قضاء مبرماً، وقلمت أظافر ماديتها ومعنويتها، والمراء والجدل في الغالب لا ينصران حقاً ولا يحدثان سوى الإحن.

والناس هنالك يؤمنون بالقضاء والقدر إيماناً لا يتزعزع، إيماناً له الأثر البارز المحمود في حروبهم وسلمهم، وغناهم وفقرهم، وحالاتهم كلها خيراً كانت أو شراً، وهكذا يكون الإيمان بالقضاء والقدر إذا كان إيمان عاقل، يقدمون في الحروب بشجاعة فائقة، ويلاقون الموت باسمين راضين، لأنهم يعلمون أن الله إذا كان قد كتب لهم حياة فلن تفوتهم، وإن وقفوا في جفن الردى، وإن كان قد كتب لهم موتاً فلن يفوتوه، أو يفلتوا منه، ولو كانوا محصنين في بروج مشيدة، فماذا يغني الفرار؟ وما يضر الإقدام؟

إذن ليقدم المرء في المعامع، وما قُدّر عليه أوله، فلن ينقص أو يزيد، بل وليكن ما يكون، فما علينا سوى الإقدام إلى ما يدعو إليه العدل، وما ينصر الحق على الباطل، والقضاء والقدر بيد الله، وأما السلم فيقبلونها أيضاً راضين طائعين مؤمنين بأن الله هو الذي قضاها وقدرها، ولو شاء لما كان سلم، ولما انفك الناس متحاربين خائفين في نزاع ونضال.

إذن: لنعبد الله وحده، ولنحمده على قضائه الرضي، وقدره الميسور، ولنجبه إلى ما يدعونا إليه من الحذر والحيطة، فلا نأمن مكر الله وقدره إذا ما أضعنا الفرص السانحة، ولنأخذ حذرنا من طوارق الحدثان ومفاجآت القضاء والأقدار، فالسلم لا تدوم كما أن الحرب لا تدوم، والخير والشر يتعاقبان في كفتي القضاء والقدر تعاقب الليل والنهار، فلا يغر العاقل بهذا ولا بهذا.

وأما الفقر فيصبرون عليه ويقبلونه بقلوب ملأى بالإيمان بأن ذلك قضاء الله وقدره، فلا فرار منه ولا هروب عنه إلا إلى الرضا والتسليم، والجزع لا يفيد في دفعه أو رفعه، فلا مندوحة عن الرضوان وعن التعرض لتحويله، لهذا لا توجد بينهم جريمة الانتحار، بل لا يفكرون فيها..

وأما الغني فلا يغترون به ولا بدوامه، لأنهم يعرفون أن ذلك قضاء الله المحتوم، وهو أيضاً يأخذه منهم بالقضاء إذا شاء، فليس إذن وجود الغنى دليلاً على رضا الله على الغني، وليس هو آتياً بحذق المرء وقوته وحده، بل ذلك من الله وإليه بقضائه وقدره، فغبي إذن من يغره الغنى أو غيره من أسباب النجاح الظاهر، وغبي ذلك الذي يسكره غناه اليوم ويطغيه ناسياً قضاء الله وقدره، اللذين يقسّمان على الخلائق الأرزاق قسماً عادلة.

إذن ليكن المسلم ملكاً يسمو على المادة والماديات، ويسمو على الغنى

والفقر، لا يحزنه فقر، ولا يفرحه غنى، ولا يكن كالطفل يظن أن ما يقع تحت يديه ملكه الذي لا يزول ولا ينزع.

والناس هنالك قليلو التقاضي، يقل جداً أن تذهب خصومة برجلين أو رجال إلى القضاء ودور القضاء، ومن النادر جداً أو من المفقود بتاتاً أن تلجأ امرأة إلى القاضي لتشكو زوجها، أو تشكو تقصيره في حقها، أو تطلب منه نفقة أو نحو ذلك، ولهذا فإن القاضي يجلس على منصة القضاء الساعات، بل الأيام، فلا يحضر لديه سوى المستفتين السائلين عن شؤون الدين التي يجهلونها، وأما الخصومات فلا تجد من ذلك شيئاً، وهذا أمر مشهود في البلاد كلها، وهو يرجع إلى أسباب:

يرجع إلى صرامة القضاء، وسرعته الفائقة وفق الشرع الحنيف، حتى لا يأمل الكاذب أو الخائن أو المزور أن يجد له منفذاً، أو فرصة يستطيع بها الانفلات من العدالة ووضع الحق في نصابه، وإذا ما علم الكاذب أن كذبه مفضوح فمجازى عليه؛ فلن يكذب أو يزور، ولا ريب أن التباطؤ في إصدار الأحكام واللجوء إلى تأجيل الحكم يمكنان المزور من جمع الدلائل الكاذبة على أنه بريء صادق، وأنه مظلوم، ولا معنى للتأجيل في الأكثر إلا إعطاء الباطل الفرصة ليدعي أنه حق لا باطل فيه.

وهنا ندعي أن أكثر المحامين، شرعيين وأهليين، ما هم إلا أداة الباطل والتزوير، وإفلات المجرمين من سلطان العدالة.

ويرجع أيضاً ما ذكرنا من رغبة الناس عن المحاكم إلى قناعتهم ورضاهم بما قسم الله لهم، وعلى وفرة دين القوم، وخوفهم الله رب العالمين، فكبير جداً على نفس آمنت بالله ويوم الجزاء الذي لا يفلت منه أحد أن تدعي ما ليس لها، ثم تحاول حشد الدلائل المزورة على صدق دعواها، ثم تحاول تضليل القاضي والقضاء، لجدير بمن يفعل ذلك ألا يكون آمن بالله وبيوم الدين والجزاء.

والناس هنالك راضون بعيشهم، وما هم فيه كل الرضا، مغتبطون بما وهبهم الله، بل قد يرون أنه ليس على وجه الأرض أسعد منهم ولا أطيب عيشاً وحالاً من عيشهم وحالهم، وهم يرون كل ما أصابهم من خير إنما سببه الله وجودُه تفضلاً، وما أصابهم من شر وبلاء إنما هو من أنفسهم بسبب أعمال اجترموها لا يرضاها الله، ولهذا فإنهم يفزعون عند البلاء، كالقحط والضراء، إلى التوبة والاستغفار والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة والدعوات الفازعة إلى افتراع أجواز السماوات، وعند الخير يمعنون في حمد الله وشكرانه استبقاءً لنعمه، ولا يرون رأي قوم غرهم بالله الغرور، فأفسد عليهم دينهم ودنياهم، يرون ما بهم من خير من أنفسهم، وما بهم من شر من الله.

والناس هنالك مغاوير في الحروب، يُقدمون على الموت إقدام من لا يملك حياته، من أعظم العظائم عندهم الفرار حذر الموت، ولعله لا نقيصة تعدل هذه النقيصة، نقيصة الفرار عند طوائف منهم، وقد يرون كل ذنب يستطيع المرء غسله حاشا ذنب الفرار إذا التقى الجمعان.

وكثيرون منهم، ومن هؤلاء «الإخوان»، يصورون هذا المعنى الجليل في أذهانهم حين الهجوم: الجنة أمامكم، والنار وراءكم، وبهذه المعاني الإنسانية السامية تساموا على الأقران في الحروب، ونزلوا بالأبطال بشفرات سيوفهم إلى حيث يشاؤون، فهم عندما يقرع آذانهم نفير الحرب يضع كل إنسان ما بيده ثم يضع فيها ما يستطيعه من عدة الحرب، ويؤم ميدان الصراع ذاهباً على سجيته في نظام الحرب والتلهف إلى الأعداء، وإلى ارتشاف دم كل عنيد جبار، لا يرعى لله ولا للعدل ولا للعباد حقاً ولا قانوناً.

وبعض الجمهور هنالك ينفرون من الأجانب، وقد يسيئون الظن بهم، والسبب في هذا النفور وهذا الظن، أن الدولة العثمانية لما كانت تحارب نجداً وتحكمها كانت تبعث جيوشاً وعساكر جهالاً لا دين لهم ولا نظام ولا عدل ولا رحمة ولا عفاف ولا نظافة، وكانت هذه العساكر تري النجديين ضروب الخروج على الدين والخلق والأدب، فقامت عندهم فكرة هي أن الأجانب كلهم مثل رجال الدولة العثمانية دولة الخلافة، لا يرعون فروض الدين كما يجب، وبقيت هذه الفكرة في أذهان طوائف منهم حتى يومنا هذا.

والناس هنالك يحرزون قوة معنوية فائقة، ويؤملون في معنوياتهم، إذا ما اعتمدوا على الله، أن تحطم أكبر قوة تريد منهم مالا يريدون ومالا يرتضيه العدل والنصفة، فهم لا يحسبون أنفسهم يوماً ما أقل من أن تنازل أعظم قوة ظالمة، وتناوئ أكبر جيش يريد غزوهم والاعتداء عليهم، بل إن كثيرين منهم يؤمنون إيماناً جازماً بأنه لا توجد قوة في الأرض تستطيع كسرهم وغلبهم، ولهذه القوة المعنوية فضل كبير جداً في إحرازهم النصر في الحروب التي خاضوا غمارها وصلوا نارها، وما أقل أن يُهزم جندي يخوض الحرب وكله إيمان بأنه الفائز، وبأنه ساحق ما أمامه من أعوان الظلم والعدوان.

وهذه القوة المعنوية ترتكز على ثقتهم بالله وإيمانهم به واتباعهم أوامره، واعتقادهم أنهم يدافعون عن الدين والعدالة والنظام، وينازلون الفوضى والجور والفساد، وعلى هذه المعاني السامية تقوم شجاعتهم وقوتهم المعنوية، وخليق بمن يدافع عن العدالة والنظام والمساواة بأن يمتلك القوة المعنوية التي لا تغالب، وأن يكون المتفوق المنصور على من يغزو للسلب والطمع، والمادة الجشعة المعبودة، أو للدفاع عن الفساد والاستبداد الفاجر الجبان.

وللناس هنالك فكرة فلسفية عميقة نحو الحياة الدنيا، والأخرى دار الجزاء الأوفى، ينظرون إليهما نظرة من سما بنفسه عن نفسه، وعن المادة، وعن كل مالا يكون له الخلود الأبدي والبقاء الذي لا يمسه زوال.

يعتبرون الحياة الدنيا دهليزاً وممراً للأخرى، وبعبارة أخرى: لا يرون الدنيا ولا الفلسفة في وجودها إلا أنها مزرعة الأخرى، كما يعبرون هم، أي: يرون أن الدنيا لم تخلق ولا فائدة في وجودها إلا ليُعبد الله ويُقام العدل ويُنتصر للمظلوم الضعيف من الظالم القوي، فما الدنيا مما خلقه الله ومما سيخلقه لا غرض منه إلا ليستعين به العباد على عبادة خالقهم وطاعته، وعلى محاربة الفساد والظلم، وفكرة استغلال ضعف الضعفاء لتسخيرهم وحملهم على الخسف وخطة الضيم، فما في الدنيا شيء خُلق لذاته، أو أريد لذاته، ولكن الأشياء كلها أدوات لإيجاد المعاني الإنسانية الجليلة، ولهذا فإنهم يسمون بأنفسهم عن الدنيا وعما فيها، ولا يذلون أنفسهم لشيء من ذلك، ولا يسخرونها في خدمتها، وهي ما خلقت إلا لتُسَخر في خدمة المعاني الإنسانية.

ولهذا: لستَ سامعاً من أفواههم سوى كلمات الفلاسفة العميقة في ضآلة الدنيا وقلة قيمتها في جانب الحياة الأبدية، التي لا هم فيها ولا ظلم ولا ضلال ولا فجور ولا نزاع ولا شيء من معاني الحيوانية الشرهة، ولستَ سامعاً سوى الحث على الإيمان، وعلى الاستقامة لأجل الفوز في رضا الله يوم الدين المحتوم، وسوى التحذير من أعمال الظلم والعصيان والخروج على قانون الله الذي وضع فيه عدله وحكمته البالغة؛ ليطهر بها النفوس الإنسانية

من معاني الحيوانية والأنانية، ويوقظ فيها معاني الإنسانية السامية إلى أرفع مكان من مواضع الفضيلة والأدب والخلق.

إنهم لن يصابوا بمصيبة من قتل أو موت أو ضيق أو بؤس أو فقدان محبوب إلا قابلوا تلك المصائب بكلمات في التخريج والفلسفة، فلسفة الحياة الدنيا، تسمو على الرضا وعلى آلام الحياة الدنيا، وآلام الإنسان كلها، ونستطيع أن نقول إن الناس هنالك كلهم فلاسفة وحكماء في وضع الدنيا ووضع الماديات كلها.

وهذا كله راجع إلى إيمان القوم بأن الحياة الدنيا ما هي إلا مزرعة الأخرى، وأن الأخرى هي التي يجب أن يفنى فيها الإنسان ويبذل معانيه كلها فيما يقرب من الله ومن رضاه فيها، وما الحياة الدنيا، وما هي إلا عبارة عن أيام قليلة لا يدري متى تنتهي، وهي على كل حال منتهية، أيام لا يدري أين طرفها الأسفل، مشوبة بكل معنى من معاني الألم والخوف والضلال، مهددٌ الإنسان كل لحظة بنهبها منه بأضعف سبب؟!

ما هي هذه الأيام في جانب دار الخلود التي ليس فيها شيء من آلام الإنسان، وليس فيها شيء من الضلال ولا الغرور، ولا النزاع المحتدم لأجل لقيمات يضعها المرء في جوفه لا يعرف هل يسيغها أم لا يسيغها، ولعل حتفه فيها.

والناس هنالك أيضاً عبارة عن جماعة نصبت لتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، ولتحارب الفساد والفجور والخروج على الآداب، كل واحد منهم سلطة منفذة حاكمة في طريق كل من تراوده نفسه على أن يبدو بشيء من المعاصي، أو فاجر الأدب، أو معوج الخلق، لا يرى أحد منهم، كبير أو صغير، ظلماً أو عصياناً، أو أدباً فاسداً، إلا ثار به وأزاله بالقوة والقمع والقسر، غير منتظر في ذلك إذن قاض أو حاكم أو أحد من الناس، غير منتظر إلا حكم الشرع الحنيف، وإلا سامي الأخلاق العليا.

لأجل هذا تَضْرب في طول البلاد وعرضها، فلا ترى شيئاً يندى له جبينك، أو شيئاً يأباه الخلق الرضي أو الشرع الحنيف، لا ترى شيئاً من ذلك في بلدة من تلك البلاد مهما كانت بعيدة عن يد الحكومة وعينها وسلطانها المرهوب.

وإن أنس لا أنس حادثة من هذا النوع الجليل وقعت في إحدى القرى هنالك، هذه الحادثة هي:

أن رجلاً جرؤ وسب والدته، فشكت الوالدة ذلك الابن العاق إلى أحد رجال الحي، فأمر هذا الرجل المشتكى إليه بإحضار جريد من النخل، فأحضر ووضع أمام باب المسجد، وأخبر المصلين بذلك، فلما صلوا وقضوا

الصلاة، وصلى معهم ذلك الابن الذي سب والدته، أمروا به فطرح أرضاً ونزل على بدنه جريدُ النخل من كل مكان من جسمه، حتى أشفقت عليه أمه، فوقعت عليه لتقيه الضرب.

هذه حادثة هي كالمثال لأخذ الناس هنالك المجرمين بالشدة والقمع.

وهذه نظرة عامة ألقيناها على أعمال هؤلاء الناس مصدر هذه الدعوة، أو هذه الثورة؛ تطلع القارئ الكريم على مقدار تمكن الدين والفضيلة من أنفسهم، ولعل القارئ يرى في ما سمع مثال المسلم الكامل أو المسلم الناقص، على كل حال، لعله يرى فيه مثال المسلم مهما تكن درجته، ومهما يكن نصيبه وحظه من المسلم في القرآن.

منذ سنوات طاف سائح أمريكي في بلاد أوروبا، ثم طاف في بلاد الشرق، ومنها بلاد العرب، ثم ألقى محاضرة في القاهرة عن بعض ما رأى في البلاد التي طاف بها، جاء في المحاضرة:

«لو خرج عيسى عليه السلام من جديد، ثم أراد أن يعرف أتباعه، لما وجد له أتباعاً لا في الشرق ولا في الغرب، ولو خرج موسى عليه السلام، ثم أراد أن يعرف أتباعه، لما عرف له أتباعاً في الشرق ولا في الغرب، ولو خرج محمد عليه السلام، وأراد أن يعرف أتباعه، لوجدهم في قلب بلاد العرب، في نجد».

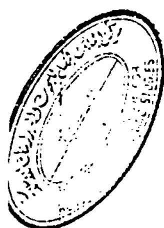
فهرس كتاب «الثورة الوهابية»

الموضوع الصفحة

الثورة الوهابية

بقلم

عبد الله علي القصيمي



« إن العقيدة الخالصة والفطرة السليمة
لاتزالان فى الحجاز وفى هضبات نجد »
(الاستاذ الزيات)

الطبعة الأولى 124546

سنة ١٣٥٤ هـ سنة ١٩٣٦ م

٦١٧

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش نمرة ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢
سجل تجارى ١٢٠١٠

صورة غلاف كتاب «الثورة الوهابية»

الكتاب السابع: «الصراع بين الإسلام والوثنية»

قال القصيمي في مقدمته:

«في سنة (٦١٠) ميلادية فصلت الأرض من السماء فصلاً تاماً وغلّقت جميع أبواب السماء دون الأرض وأهلها، وفزعت الأملاك إلى أقطار السماء، وانقطع ذلك المدد الروحي الذي كانت تعان به الأرض وأهلها على اجتياز ظلمات المادة، وفسق المادة، وكثافات المادة، سيراً إلى عالم الأرواح، ومستقر الروحانيين، فخبط الناس في ظلمات ثلاث: ظلمة العقائد، وظلمة القانون، وظلمة الأنفس.

أما العقائد: فلا يجد المتأمل فيها بصيص نور يهتدى به إلى هداية أو يخلص به من ضلالة.

أما القوانين: فلا يجد المتأمل فيها ما يعين على عدالة أو ما يخرج من ظلامة.

وأما الأنفس: فلا يجد المتأمل فيها مكاناً لعقيدة صحيحة سليمة ولا لقانون عادل إنساني رحيم.

فبظلمة العقائد استبد رجال الدين بقلوب الناس وعواطفهم، وبظلمة القانون استبد رجال السلطة الأمنية بأموال الناس وظهورهم، وبظلمة

الأنفس واتى رجالَ الدين ورجال السلطة الزمنية الاستبدادُ بأموال الناس وقلوبهم وعواطفهم وظهورهم.

فما زالت الإنسانية تتخبط في هذه الظلمات الثلاث، وتنحدر إلى الهاوية السحيقة، وتتخلى من المعاني الإنسانية شيئاً فشيئاً، ومن تراث رسالات السماء وبقايا تعاليم الأنبياء، حتى تمخضت عن أمم كان من قسوتها وفظاعتها أن تقتل بنيها شر القتلات، خيفة أن يشاركوهم في مأكلهم ومكسبهم، ومن عقلها ودينها أن تصنع بأيديها معبوديها، ومن مجدها الذي يتغنى به الرائح والغادي والطفل والشيخ، وتُنسج له برود الثناء الحذق في انتزاع الأرواح والمهارة في إيتام الأطفال وإرمال النساء وإثكال الأمهات والآباء، ومن كرمها وخلقها أن تغتصب أموال العاجزين عن الذياد عنها لتقدمها للأضياف مكرمة ونزلاً، حتى لقد صدق في تلك الأمم قول الحق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾[الأعراف: ١٧٩].

وفي ذات ليلة من عام ٦١٠ ميلادية بينما كان الكون ساكناً، صامتاً، والأشياء راكدة مصغية متوجسة كأنها تتوقع حدوث أمر عظيم، انفتحت فرجة من السماء تعلقت بها الأبصار، انبعث منها شعاع قوي وهّاج باهر فهبط على غار يقيم هنالك في جانب من جوانب قرية تقع هنالك في جانب خامل، مهجور، من جوانب أركان الأرض الخاملة المهجورة، يقيم في ذلك

الغار رجل لا كالرجال، يحمل نفساً لا كالأنفس، وقلباً لا كالقلوب، هرب بنفسه وقلبه وفطرته من أولئك الناس وعقائدهم وأعمالهم إلى السكون والدعة، وإلى الطهارة التي لا يظفر بها بين الناس في حدود القرية والمدينة، مخلياً بين روحه، وما فطرت عليه من الطهر والنبل والعظمة والتأملات السامية الحادة النافذة، واصلاً بين نفسه وربه بصلة هذا الكون، وما أودع فيه من آياته وبيناته.

فكان هذا الشعاع الهابط هو ما عُرف بعد بالإسلام، وكان هذا الغار هو ما عُرف بعد بغار حراء، وكان هذا الرجل الذي لا كالرجال، هو منقذ الإنسانية الأكبر من كبوتها، محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه القرية هي مكة المكرمة الواقعة في قلب بلاد العرب الجدباء العتيدة.

تسلل ذلك النور الموصول بالسماء العليا، من غار حراء إلى مكة متوجساً متوهجاً في صدر محمد صلى الله عليه وسلم، مشعاً من جوانب صدره، فغمر بيوت مكة وفجاجها، وسال في طرقاتها ونواديها، وتناثر على وجوه الرائحين فيها والغادين.

فانبهر الناس ودهشوا لهذا النور الوهاج الذي لم يعهدوه ولم يبصروه، ولم يسمعوا به، فوقفوا منه موقفين متباينين متخاصمين: وقف الجمهور الأكثر منه موقف الوجل الخائف، الكاره المنكر، فأوصدوا دونه أبوابهم

ونوافذهم، ثم قلوبهم ونفوسهم، وقاموا منه مقام العداء والنضال الحاد العنيف.

ووقف منه القليل النزر موقف الراضي المسرور المعجب المغتبط، ففتحوا له أبوابهم ونوافذهم، وفتحوا له قبل هذا قلوبهم ونفوسهم، وطلبوه في مكانه وسعوا إليه خفافاً وثقالاً.

فكان من هذا القليل النزر بيوتٌ عُرفت بالسبق إلى الهداية والإسلام ونصرته، وكان من هذه البيوت أبيات أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، هؤلاء الذين عرفوا فيما بعد بالخلفاء الأربعة الراشدين، وكان من هذا القليل النزر غير هؤلاء.

فقبست هذه الصدور من نور محمد صلى الله عليه وسلم، كل صدر بقدره وما أهّل له، فتعددت مصادر هذا النور الإلهي، وزاد إشعاعه واتقاده، وزاد في مكة وضوحاً وإشراقاً وتوهجاً، وهكذا ظل يتزايد إشعاعاً وإشراقاً في تلك القرية المحدودة الضيقة، حتى ضاقت به فسال منها وتناثر إلى الجارات، ثم انتقل مصدره الأول الأكبر إلى قرية عرفت فيما بعد بالمدينة المنورة، فغشاها هذا النور الوهاج الهابط، وتدفق إلى بيوتها، فقبست منه الصدور، فازداد إشعاعه وإشراقه، حتى ضاقت به تلك المدينة، ولم تعد

واسعة له، فتدفق منها إلى هاهنا، وهاهنا، إلى الشرق والغرب ثم إلى الشمال والجنوب، هازماً كل ما أمامه من الظلمات الثلاث: ظلمة القانون، وظلمة العقائد، وظلمة الأنفس، وما استطاعت ظلمة من هذه الظلمات الثلاث أن تثاقفه أو تواقفه لا طويلاً ولا قصيراً.

تكاثف هذا النور واتسع نطاقه في السماء وفي الأرض، وتفاعل تفاعلاً إلهياً، وتجسد تجسداً سماوياً، حتى صار ديناً قيماً باهراً، ذا تعاليم وقوانين، وشرائع محكمة سامية يعشقها القلب إن لم يحبها العقل، ويحبها العقل إن لم يعشقها القلب، ويدينها عشقاً من لم يدنها برهاناً، ويدينها برهاناً من لم يدنها عشقاً.

ثم صار لهذا الدين أنصار وقواد، يحملونه في إحدى اليدين، وفي الأخرى الحديد ذو البأس الشديد، ويعرضونه على الناس في هالة مفرغة من الأسياف الظماء في قلب نطاق من الأبطال الأشداء، يذودون عنه الإيذاء والاعتداء، ويخلون له الطريق إلى القلوب والعقول، وما أجمل الحق تعرضه القوة، وما أجمل القوة تنصر الحق، وما أوضح الحق متدرعاً!!

فأصبح ذا قوتين عظيمتين: قوة تعاليمه، وقوة رجاله وأنصاره، فتعاليمه قوية بالغة نهاية القوة؛ لأنها مفهومة ميسورة، لا تعقيد فيها ولا ضلال، فالعبد يتصل بربه مباشرة فيدعوه ويعيده ويرفع إليه حاجاته مباشرة

لا وسيط ولا شريك، ويخصه بكل معاني عبادته ودينه وحده، والمعرض المبعد عن ربه إذا ما أراد التوبة والرجوع إليه فما عليه إلا أن يخلص له قلبه وعمله، ويبسط إليه تعالى يد المتاب فيقبله ويغفر له ذنوبه، وإن كانت عدد ذنوب الخلق جميعاً، ولا يحتاج إلى أن يذهب إلى قسيس أو راهب أو وثن أو حجر أو قلب رجل صالح، فيذل له ويشكو إليه ليرفع أمره وتوبته إلى الله، كي يغفر له، وكي يعفو عنه، فتعاليمه ليست سوى إيقاظ الفطرة الإنسانية وتخليصها من الأخلاط والأغلاط، فالله كما خلق الخلق وحده بلا شريك ولا معين، فكذلك ليعبدوه وحده لا شريك له ولا نديد.

وأين من هذه التعاليم: الأقانيم الثلاثة: الأب، والابن، والروح القدس، شيء واحد، وحلول اللاهوت في الناسوت، والاعتراف، وبيع الجنة، والصلب، والفداء، وما في هذه من التخليط والتضليل!؟ وأين من هذا: إله المجوس، وأوثان العرب ودعاوى اليهود وتشبيههم وأقوالهم العظيمة في الله وفي أنبيائه، والأغلال والآصار التي كانت عليهم؟

وأما رجاله وقواده فكانوا أقوياء أيضاً، غاية القوة؛ لأنه علمهم ألا يخاف العبد إلا ربه وذنبه، وألا يذل إلا لمن ذل له كل شيء وخلق كل شيء، ولمن بيديه أسباب الخوف وأسباب الأمن وحده، وألا يتأخر عن الموت من طلب الحياة وأحبها.. فإن من رغب في الموت ذلت له ناصية الحياة، ومن

رغب في الحياة ذلت ناصيته هو للموت.. فكانوا يقدمون على الموت إقدام من ليست حياته ملكاً له، فأخذوا بنواصي الأكاسرة والقياصرة، وذروا التراب على جباه العظماء الطاغين، الذين طالما جرعوا الإنسان جرع الذل والهوان، وأذاقوه غصص الخسف والاستبداد..

فتهاوت العروش العتيدة الظالمة تحت أقدامهم وحوافر خيولهم، وتساقطت تحت مناسم إبلهم شرفات إيوانات طالما تساقطت تحتها رؤوس الملوك والعظماء والقواد، فطووا بأطراف سيوفهم وعصيّهم وقسيّهم ممالك وملوكاً كانت تستعصي على الدهر، ويشتكي إليها الزمان، ووضعوا كل أنف عات أشم في الرغام، وأنزلوا كل بطريق متأله من سماء الأحلام والألوهية إلى أرض الحقيقة وبساط العبودية، فكانت فترة من الزمن تجمع فيها الزمن، ورواية فصولها ثلاثة: الإيمان، والشجاعة، والعدالة.

خاتمتها: تلك السعادة التي تمتع بها الإنسان أحياناً متطاولة، طأطأ الخصوم رؤوسهم حينئذ، وعلموا أنه لا قبل لهم بمواقفة هذا الدين ولا بمثاقفة أنصاره ورجاله عن طريق الحرب والنضال المادي والعسكري، وعلموا أن منازلته علمياً برهانياً، وأنه لا يمكن من هذه السبيل أن ينتصر عليه دين من الأديان، ولا أن يواقفه حيناً من الزمان.

فماذا إذن يصنعون لإضعاف هذا الدين الهائل العظيم الذي فعل بهم

وبقومهم، وملكهم الطاغي الباغي ما فعل من الغلب والإحباط؟ وهم لا بد فاعلون شيئاً بل أشياء، فاتقون حيلة بل حيلاً، أيقدحون فيه ويحشدون عليه الشبهات والشكوك ليزعزعوا عقيدة أهله وإيمانهم به؟ كلا إن هذا أمر غير ممكن لأن هذا الدين ليس دين شكوك وشبهات؛ لأنه دين الفطرة الخالصة من الأخلاط والأغلاط، ثم إن أهله لن يدعوه للشكوك والمشككين يعبثون به، فهذا مالا يستطاع، فماذا إذن يصنعون؟ أينتحرون استشفاء مما في صدورهم من غيظ وحسد؟ كلا إن موتهم هم لا يشفي صدورهم بل موت هذا الدين، أيهربون إلى حيث لا يرون هذا الدين ولا يسعون به؟ وأين يهربون؟ أليس قد سار مسير الليل والنهار، وبلغ مبلغ الليل والنهار؟ أيدخلون فيه كما دخل الناس بإخلاص وصدق؟ كلا إن الإخلاص يملك ولا يُملك، وإن الإخلاص لشيء مع احتقاب الحسد له أمران لا يجتمعان أبداً، هذا إذن كله ليس برأي ولا عقل، فماذا إذن يفعلون؟؟

إن هاهنا حيلة واحدة لإنفاذ هذا المشروع الهدام، لا حيلة غيرها ولا حيلة أفضل منها، هذه الحيلة هي أن يدخلوا في هذا الأمر لا إيماناً وتصديقاً، ولكن نفاقاً ومكيدة؛ ليستطيعوا إفساده والعبث به من كثب، فيبتدعون فيه ويدخلون فيه الأباطيل والضلالات باسم الدين والتقوى وبحجة الاستزادة من العبادة والتقرب إلى الله؛ فيُخدع بذلك المؤمنون، ويتقبلونه بسلامة نية وطهر قصد، وتخفى عليهم الأغراض الباعثة على هذا، ويخفى عليهم ما

يضمره هؤلاء الخادعون المنافقون، فيحسب على مرّ الدهور ما ليس من الدين ديناً، بل ويُحسب ما ينابذ أصول الدين وأسسه من أصول وأسسه، والحق إذا لابسه الباطل أصبح نسيب الباطل وعز تخليص أحدهما من الآخر، والحق نزيه كريم، إذا نزل به الباطل ارتحل عنه.

وهذه حيلة من حيل أهل النفاق والدهاء المرّ، ما زال يلجأ إليها المكرَة الدهاة حتى عصرنا هذا.

وقد افتنّ الأوروبيون في هذه الحيلة والمكيدة أيما افتنان، فلا يرى الواحد منهم بأساً في أن يتظاهر بالإسلام عشرات الأعوام، ويبدي ضروباً من الزهد وطلاء الورع والتقشف؛ ليدل المسلمين على صحة إسلامه، وإيمانه باطناً وظاهراً، وقد لبس ثوب الإسلام من وراء بشرته رجل هولندي وجاور في مكة المكرمة خمسة وعشرين عاماً مُظهراً الإسلام والإيمان والزهد والورع كل هذه الأعوام صابراً مصابراً، حتى أن القمل كان يتناثر من أثوابه ومن بدنه في طرق مكة المكرمة، وفي المسجد الحرام، حتى استطاع أن يخدع المسلمين، وأن يقنعهم بأنه مسلم الباطن والظاهر، وأنه من كبار الزاهدين، وحتى استطاع أن يفقه الإسلام وأن يلم بفقه المذاهب الأربعة الفقهية، واستطاع أن يمتحن نفوس المسلمين، وأن يسبر مبلغ تدينهم وإسلامهم؛ وأن يلمس أماكن الضعف والقوة فيهم إن كانت للقوة فيهم أماكن، وحتى

تم له أن يعرف من أحوال المسلمين في أنحاء الأرض وما يشتملون عليه من آلام وآمال ما لم يعرفه المسلمون أنفسهم، وما لن يعرفوه فيما أظن.

وهذا الرجل الهولندي كان يشغل إلى وقت قريب أعظم منصب حكومي في الشؤون الإسلامية في حكومة هولندا الجاوية!

أمثال هذا الرجل كثيرون اليوم، وقبل اليوم، ومنهم من يدعي حب العرب والحرص على حقوقهم وإنصافهم؛ كي يقرّبوه ويطمئنوا بجانبه فيطلعوه على أسرارهم وعلى ذات صدورهم، ويدلوه على ثغورهم، ولهم في هذا حيل غريبة.

وهذا من شر أنواع النضال، ومن شر ما جبل عليه رجل الغرب من لؤم ونذالة ودهاء كريه مرذول، وقد كان رجل الجاهلية العمياء يتذمم من مثل هذا الدهاء، ويأنف منه، ويرى به من الصَغار ما يحمله على الرغبة والعزوف عنه، وحكومات أوروبا العاتية الجبارة البالغة من القوة المادية مالا مطمع وراءه لطامع، تلجأ إلى هذا الدهاء والنفاق، لإيقاع الدويلات الصغيرة الضعيفة في فخاخ كيدهم ومكرهم، ولسلبهم ما بقي في أيديهم من حرية وحصانة، ولكن هيهات ثم هيهات، فقد برح الخفاء، وعرف الناس هذه المكايد والمصايد، وصاروا لا يثقون بأمر من أمور أوروبا؛ لما شهدوا وعلموا من خداعها وتضليلها، والمغرور لعمر إلهك من غروه بعد اليوم.

صمم هؤلاء الأعداء الألداء للإسلام على إنفاذ هذا الأمر، وعلى التظاهر بالإسلام إرادة إفساده وإحباطه وإفساد أهله، فدخل فيه من هذا الصنف لأجل هذا الغرض رجال من اليهود، ورجال من المجوس الفرس، ورجال من غير هؤلاء وغير هؤلاء، وكل منهم يحتقب أنواعاً من الضلال والخبال، وكل منهم مصمم على إنفاذ ما همَّ به وما ادعى الإسلام لأجله، وكان من برنامجهم أيضاً اغتيال الخلفاء الذين تم على أيديهم تحطيم ممالك الظالمين، واجتياح ظلمهم وظلماتهم، وبأيدي هؤلاء الآثمة قُتل الخليفتان بلا ريب عندنا: عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وكذلك قُتل الخليفة علي، وأريد قتل معاوية وعمرو بن العاص وغير هؤلاء، وذلك أن هؤلاء ما عدا عمر، قُتل منهم من قتل، وأريد قتل من أريد بدعوى الغيرة على الدين، والخروج على الظلم والظالمين؛ لأنهم زعموا أن هؤلاء الخلفاء والأمراء كفروا، فحق قتالهم، واغتيالهم؛ انتصاراً للدين وللحق.

هذه هي دعوى القوم، ولكن الفاحص للحوادث النافذ في أحشائها، المستقريء لما أحاط بها يعلم أن هذه الآراء الغريبة في الإسلام الشاذة الباطلة إنما دخلت على جماعات المسلمين من سبيل هؤلاء الأدعياء الخونة الضُلال، ومنهم انبعثت في الجماعات الإسلامية وخُيلت رشداً وديناً، وقد أشار إلى هذا النبي الكريم إذ حذر في أخبار معلومة كثيرة من المنافق المتأول للقرآن، الواضع له في غير موضعه.

ويقرّب هذا إلينا أننا إذا ما تتبعنا تاريخ كل بدعة، ورأي شاذ في الإسلام، وجدنا مصدر ذلك من غير العرب؛ من الأمم الموتورة من الإسلام وأهل الإسلام؛ كاليهود والمجوس الفرس وكغير هؤلاء.

أما المبتدعة من العرب فهم تبع لهؤلاء، مستقون منهم أصول ما عندهم من البدع والشذوذ، مخدوعون بهم، والعربي بطبعه نزاع إلى التصديق؛ لأنه مجبول على الصدق، والصادق في نفسه ميال إلى تصديق غيره، ولا شك عندنا في أن كل الأخلاط التي أصيب بها الدين الإسلامي ترجع إلى غير العرب، ومن أشهر الفرق المبتدعة في الإسلام: الرافضة والمعتزلة والخوارج، وقد اجتمع لهذه الفرق الثلاث من أصول الابتداع والشذوذ ما لم يجتمع لغيرها من الفرق المنتسبة للإسلام، والواضعون لأصول هذه الفرق الثلاث المنافية لأصول الإسلام مباشرة يرجعون إلى أصول غير عربية، فإن الواضع لأصول مذهب التشيع والرفض هم اليهود كما سوف يجيء.

والخوارج ليسوا سوى فرقة من الشيعة خالفوا علياً وشيعته فخرجوا عليه وعليهم، وأكفروهم وأكفروه، وضلالات المعتزلة منها ما يرجع إلى هؤلاء ومنها ما يرجع إلى هؤلاء، والباقي يرجع إلى الفرس، وكذلك جميع ما أصيب به الدين الإسلامي من الآراء الفاسدة؛ كالقول بوحدة الوجود والتناسخ وإنكار صفات الله، والقول بعصمة الأئمة، والغلو فيهم وعبادة

القبور، والانقطاع إلى الأموات، وما تبع هذا من زخرفة القبور والبناء عليها، إلى غير هذا من التشبيه، والأقوال المنكرة في الله وفي صفاته وفي رسله من مستبشع الآراء.

وكان من أشهر هؤلاء الذين زعموا للناس أنهم أسلموا ليخرجوهم من الإسلام؛ رجل ماكر خبيث يهودي من يهود صنعاء؛ يقال له عبدالله بن سبأ، ويُعرف أصحابه من فرق الشيعة بالسبئية.

نبغ هذا اليهودي في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، وأظهر الإسلام والزهد والغيرة على الدين وأهل الدين، وبالغ ظاهراً في حب آل البيت النبوي وموالاتهم والعطف عليهم؛ لأنهم مظلومون، مهتضموا الحق كما زعم هذا الرجل، وكما زعم أصحابه، وكما زعمت فرق الشيعة من بعده، وراح يزعم ويدعو سراً وجهراً إلى ما يزعم أن الخليفة بعد رسول الله هو علي بن أبي طالب، ثم أولاده من بعده وراثة، ويزعم أن رسول الله قد أوصى بهذا الأمر وصاية جلية ظاهرة، عرفها الخاص والعام، ودل الناس على هذه الوصية دلالة واضحة في المجامع الحافلة العامة، وربما زعم أن شيئاً من هذه الوصية كان في القرآن يتلى.

وزعم أن الصحابة أنفسهم؛ ومنهم الخلفاء الثلاثة الراشدون ما كانوا يجهلون أمر هذه الوصية، ولا يجهلون هذا الوصي صاحب هذا الأمر الحقيق

به، ولكنهم لعداوتهم علياً وولده، ولحرصهم على الدنيا والملك والرئاسة، ثم لتمكن مرض الحسد في صدورهم كتموا هذه الوصية، وأخفوا هذا الأمر، وحاربوا هذا الوصي، واغتصبوا حقه، وما قضى به له رسول الله، وما قضى به القرآن.

ثم أخذ يزعم ثانياً ويدعو إلى زعمه أن علياً رضي الله عنه كان ملتقى الفضائل، ملتقى المعجزات؛ كما تسمي الشيعة الكرامات معجزات، وراح يملي عليه خياله من هذه الفضائل والمعجزات، مالا يقره العلم والعقل والدين، ومالا تسنده الرواية الصحيحة، وراح يبالغ في تكثير هذه الفضائل وهذه المعجزات؛ حتى طفق ينزل كثيراً من آيات الكتاب الحكيم في فضل علي ويقسرها على هذا قسراً، وراح يزعم أن هنالك آيات قرآنية نزلت في فضل علي قرأها الناس أزماناً متطاولة، قد صادرها الصحابة المنافقون ومحوها من المصاحف كتماناً لفضل هذا الفاضل الوصي، والخليفة بنص النبي.

ثم تهور وتطور في المبالغة والدعاوى حتى تفوه بالسوءة الكبرى، وأتى بالجريمة العظمى، فزعم أن الله سبحانه تنزل من علياء سمائه، فحل في علي رضي الله عنه إعظاماً لقدره؛ كما قال النصارى أن الله حل في عيسى، وزعم أنه لحلول الإله في شخصه يستحق العبادة والتأليه، ويستحق ما يستحقه

الرب في علياء سمائه، فدعا جهرة إلى عبادة علي وتأليهه والقيام له على قدم العبودية الخالصة، وأخلص في دعوته هذه وصابر عليها؛ حتى أضلَّ بها قوماً خُلقوا للضلال وللنار، فآمنوا بدعواه النكراء وصدقوه في هذه السوءة الفاضحة، وجهروا بها، وراحوا إلى الإمام علي رضي الله عنه وقالوا له: أنت الله، أنت خالقنا ورازقنا! فارتاع علي لهذه المقالة وفزع أشد الفزع، وهاله الأمر، واهتزت له جوانب قلبه وحلمه، فدعا القوم إلى التوبة والرجوع إلى العقل، فأصروا على دعواهم وأبو المتاب، فأمر بإضرام نيران عظيمة فقذفهم فيها أحياء، وقالوا وهم يحترقون فيها: الآن صح عندنا أنك أنت الله إذ لا يعذب بالنار إلا رب النار!

وإصرار هؤلاء الضُلال على دعواهم هذه على رغم تكذيب الإله في زعمهم لهم، وعلى رغم قوله لهم إنكم كاذبون في مقالتكم هذه كافرون بالله، تستحقون غضبي وغضب الله معاً، وناري في الدنيا ونار الله في الآخرة: يستوقف النظر، إذ كيف يكذب الإله إذا كانوا يظنون حقاً أنه إله، وكيف يُعذب الإله عباده إذا ما عبدوه وقاموا له بفروض الطاعة؟!

إن الجواب المعقول المقبول على هذا السؤال لعسير، ولأجل هذا أذهب إلى أن دعواهم هذه حيلة مدبرة ومكيدة يخفى مكانها على الألباب الألمعية، وأذهب إلى أن القوم ما كانوا صادقين فيما زعموا، ولكن هذا الزعم كان تضليلاً

والإصرار عليه أيضاً كان تضليلاً، والأمر كله كان ضلالاً في تضليل.

أما واضع بذور هذه الضلالة، ومتولي كبرها عبدالله بن سبأ، فطلبه علي ليوقع به أشد العذاب، ولكنه كان أحذر من الغراب، فهرب وترك له البلاد، وما كان هروبه وضعاً لأوزار هذه الفتنة المدمرة، وتسليماً بالهزيمة، بل كان هروباً بهذه الآراء ضنا عليها بالقبر والقتل، ليضل بها المسلمين ويفتن بها المفتونين وتبقى عاراً وناراً إلى يوم الدين.

تطايرت دعاوى هذا الرجل ومبتدعاته في كل جانب، ورنّ صداها في أركان المملكة الإسلامية رنيناً مراً مزعجاً، واهتزت لها قلوب ومسامع، وطربت لها قلوب ومسامع، ورددت صداها أفواه خُلقت لهذا، ورددتها أفواه أخرى وطال الترديد والترجيح حتى نفذت إلى قلوب رخوة لا تتماسك فحلتها حلول العقيدة، ثم تفاعلت حتى صارت عقيدة ثابتة تراق الدماء في سبيلها، ويعادى الأهل والصحاب غضباً لها، وصارت فيما بعد معروفة بالمذهب الشيعي والعقيدة الشيعية، وقوامها الغلو ظاهراً في علي وبنيه إلى حد التأليه والعبادة، ثم الغلو في معاداة سائر المسلمين ومنهم الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان والكرام الآخرون إلى حد المقت والإكفار والقذف العلني.. وقوامها ـ أصالة في صدور مبتدعيها ـ نسف الإسلام وتحطيم ما شيده من ملك ثابت الأساس، ثابت المبادئ والشرائع.

ثم دخل هذا المذهب الشيعي كسائر المذاهب الصحيحة والباطلة التحويرُ والتطويرُ والتكميلُ والتغييرُ وسائر ما تقضي به طبيعة الأشياء، وطبيعة العقائد والآراء، وقام بزعامته وقيادته رجال كثيرون، كل منهم يحتقب أغراضاً خاصة وآراء خاصة، وأساليب لإنفاذ هذه الآراء والأغراض خاصة، ولكل من هؤلاء الزعماء أسلوب خاص في زعامته وقيادته، وطريف يضيفه إلى هذا المذهب وهذه النحلة، وبدعة خاصة تكمل بها.

حتى خلص من هذا كله: المذهب الشيعي أو المذهب الرافضي، وصارت له فروع وأصول في أكثر المالك الإسلامية، وأصيب به الإسلام وأهله في عصور مختلفة إصابات لا تزال دماؤها تتقاطر، ولا تزال جراحاتها مفتوحة لم تلتئم في أعماق القلوب المسلمة.

وهل تُصاب قلوب المؤمنين حقاً بأشد إيجاعاً وإيلاماً من إكفار أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وخالد بن الوليد، وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وطارق بن زياد.. وأمثال هؤلاء الذين بهم لا بغيرهم تنطلق اليوم كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله من أربعمائة مليون شفة، تجلجل في أفواه السماء ومسارب الأرض والهواء، لا يستطيع رادّ أن يردها، ولا كاظم أن يكظمها، ولو كان أهل الأرض جميعاً؟

وهل تُصاب قلوب المسلمين بأشد إيجاعاً وإيلاماً من رمي هؤلاء السادة القادة بالنفاق والخيانة، حتى في كتاب الله وكلام الله كما تدعي الشيعة والرافضة أن هؤلاء الصحابة حرّفوا القرآن، وحذفوا منه أشياء نفاقاً وبغضاً وحسداً لعلي وبنيه!

وتنفرد هذه الطائفة بأمور تخصها دون سواها من طوائف الأهواء.. فمما تنفرد به أنها تمقت العرب أشد المقت، وتكرههم كراهة تكاد تكون مرضاً يأكل صدر صاحبه ويستل منه الحياة ومعاني الحياة، ومن كره القوم للعرب كرهوا كل ما أتوا به من دين ولغة وأدب، وكرهوا ملوك العرب الذين جمع الله كلمتهم بهم ورفع بهم ذكرهم وأعلى شأنهم.

ولعل من الشواهد على هذه القضية مقتهم أمثال أبي بكر، وعمر، وعثمان، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وبني أمية، وبني العباس جميعاً، فإن هؤلاء قد أعز الله بهم العرب، ورفعهم بهم أيام خلافتهم، وبعدها إلى اليوم، ولعل من الشواهد على هذه القضية أيضاً موقف أكثر الشيعة من الحكومة العربية السعودية، بعد أن رأوا بوارق نصرها ونصر العرب والإسلام بها تتألق في سماء العروبة، وبعد أن جمع الله بها قلب جزيرة العرب وفلهم تحت رايتها وراية الدين الحق، والإسلام الصحيح، بعد الشتات والضلال والفتن الهوج، فإن كثيراً من رجال الشيعة المسئولين وقفوا من هذه

الحكومة موقفاً لا يغبطون عليه؛ بحجة الغيرة على الدين وعلى آل النبي إذ هُدمت بعض القباب المقامة على بعض القبور، وإذ مُنع العامة الجهلاء من الاستغاثة بالأموات والانقطاع إلى القبور، والتقبيل لها والتمسح بها، وغير ذلك من الأمور الشاذة الخارجة عن حدود الدين والعقل.

وقد حاولوا نسف هذه الحكومة، وحاولوا إثارة العالم الإسلامي بها، وأرجفوا أيما إرجاف بعد أن دخلت جيوشها الحجاز ظافرة، وبعد أن تألق نجمها ونجم العرب بها، وملأ اسمها فم الزمان وحديثها أذن الجوزاء، واتخذت من خيوط الشمس سلماً إلى مجد السماء.

ولرجال الشيعة المسئولين محاولات في هذا معروفة مؤلمة، ومن هذه المحاولات العقيمة التي قاموا بها: ذلك الكتاب الذي قام باختلاقه وطبعه الشيخ محسن الأمين العاملي أحد كبار علماء الشيعة ومجتهديهم في جبل عامل في سوريا، وهذا الكتاب ألّف بعيد دخول العساكر السعودية الحجاز وتمزق القوات الهاشمية، واستبشار المسلمين في أطراف المعمورة بهذه النتيجة الحاسمة، وهذا الانقلاب الذي علقوا عليه سعادة الجزيرة ورفعة شأنها وحفظها من أخطار كانت توعدها وتهددها.

وكان الغرض من هذا الكتاب تغيير نفوس المسلمين وإنهاضهم لمقاومة الحكومة العربية، وإخراجها من الحجاز، والقضاء عليها وإحلال دولة

أخرى حتى ولو غير مُسْلمة محلها في الحجاز، وفي قلب الجزيرة العربية! وذلك أن هذا الكتاب مملوء بالأكاذيب الفاضحة الواضحة، وبالاعتقادات التي يندى لها جبين الحق وجبين الإسلام الصحيح، ومملوء بالحملات على الحكومة العربية وعلى سياستها ودينها، وعلى إدارتها ورجالها وزعمائها وعلمائها، أشياء صريحة بأنه لا يراد بها سوى التحريض والإرجاف، لا النقد العلمي الاعتقادي، فإن رجال الشيعة بعيدون عن هذا.

ولا تزال مجلات شيعية تلحّن هذا الكتاب تلحيناً مشجياً مبكياً، وتضرب أوتاره ضربات تبعث الأسى في أعماق الصدور المؤمنة.

وصاحب هذا الكتاب وإخوانه يزعمون أنهم ما فعلوا ذلك إلا دفاعاً عن الإسلام وغيرة على الحق وعلى القباب المهدمة.

وليت هذا هو الباعث لهم على هذا الموقف المريب المعيب، ولو أن الأمر هو هذا لقلنا لا بأس، قوم خرجوا عن سبيل الله وضلوه فيوشك أن يعرفوه فيتبعوه، ونشأوا في الباطل فأحبوه ولزموه فيوشك أن ينكروه فيهجروه، واستوحشوا من الحق فأبغضوه ونبذوه، فيوشك أن يأنسوا به فيحبوه، لكن الأمر كما ذكرنا هو مقت العرب بلا ذنب سوى نصرتهم الدين وانتصارهم على الأعداء المهاجمين.

وقد ذكر الأمير الجليل. شكيب أرسلان في كتاب «حاضر العالم الإسلامي» أنه التقى أحد رجال الشيعة المثقفين البارزين، فكان هذا الشيعي يمقت العرب أشد المقت، ويزري بهم أيما إزراء، ويغلو في علي بن أبي طالب وولده غلواً يأباه الإسلام والعقل، فعجب الأمير الجليل لأمره وسأله: كيف تجمع بين مقت العرب هذا المقت وحب علي وولده هذا الحب؟! وهل علي وولده إلا من ذروة العرب وسنامها الأشم؟!

فانقلب الشيعي ناصبياً محضاً واهتاج وأصبح خصماً لعلي وبنيه، وقال ألفاظاً في الإسلام والعرب مستكرهة!

ولو أن هؤلاء الشيعة صادقون فيما فعلوا، صادقون في أنهم ما فعلوا هذا إلا غيرة عما حسبوه حقاً وديناً لوجدوا لحملاتهم وإرجافاتهم مناديح وفسحاً في غير هذا الجو، ولوجدوا من الحكومات الأخرى ومن الملحدين المحسوبين على الإسلام والمسلمين ما يشغلون به وقتهم وعلمهم وهجاءهم ونقدهم عن السلفيين السعوديين، ولوجدوا أعراضاً خصبة المذام يصدر عنها المهاجم الذام ريان شبعان، ولكن نيات القوم وعقائدهم مدخولة.

ومما ينفردون به أنهم يكرهون المرء بمقدار ما عنده من حب الدين ومناصرته وإعزازه، وبمقدار ماله من آثار في خذلان الكفر وأهله والظلم ونصرائه، فمن كان حظه من نصرة الإسلام وتأييده ومن دحر الكفر وأجناده عظيماً، كان حظه من مقت هؤلاء وبغضائهم عظيماً، ومن كان دون

ذلك كان حظه عندهم من هذا المعنى دون ذلك.. وهذا أمر مشهور معلوم عن طائفة الشيعة الغالية.

ومن الدلائل التي لا ترد على وجود هذا المعنى فيهم أنهم يخصون أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعائشة وحفصة، وغير هؤلاء من عظماء الإسلام وأبطاله بأشد الكراهة، ويمقتونهم مقتاً لا يمقتونه أحداً من البشر، حتى إنهم ليتأولون الآيات النازلة في صناديد الكفر وأركان الشرك في هؤلاء الصحابة الأجلاء، بل ويتأولون آيات نزلت في الشيطان الرجيم في أبي بكر وعمر.

وقد قالوا في قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ ﴾ [الحشر: ١٦] نزل في أبي بكر وعمر.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾[التوبة: ١٢]، إنه نزل في طلحة والزبير.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾[البقرة: ٦٧]، إن البقرة هي السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق أحظى أزواج النبي إليه.

ونظائر هذه الروايات والأقاويل عن الشيعة سوف يأتي في كتابنا هذا نقلها من مصادرها الشيعية الثابتة عندهم وعند الناس جميعاً.

وهؤلاء لا يتنازعون في أن هؤلاء الصحابة كفروا وفسقوا وضلوا السبيل، وطوائف منهم تزعم أنهم كانوا منافقين وأنهم ما زالوا كذلك في حياة الرسول وبعد وفاته، وأن الرسول كان مخدوعاً بهم أو كان يداريهم ويتقيهم؛ لأنه عالمٌ نفاقهم وكفرهم المضمر.

ثم يجيء بعد هؤلاء الصحابة في كراهية هؤلاء أئمة السنة والحديث كالأئمة الأربعة، وكأئمة الحديث أمثال البخاري ومسلم، ومن يفضلهم أو يفضلونه، وهكذا يتسفلون في عداوتهم وينحدرون في بغضائهم، يبدأون بالخلفاء الثلاثة من الصحابة وبكبار المهاجرين، ثم بعامة الصحابة، ثم بأعاظم التابعين ثم بأعاظم الأئمة المشهورين المعروفين بنصرة السنة والعناية بجمع الحديث وتدوينه، وهكذا يظلون يهوون في عداوتهم ومقتهم من الأعلى إلى الأدنى، إلى أن يصلوا إلى جمهور أهل السنة والعامة من المسلمين.

والشيخ محمد أمين العاملي قد وضع القناع عن هذا، وقطع الظنون، وجاء بالأمر اليقين، وذلك أنه في كتابه المذكور الذي سوف ننقضه عليه راح يدافع وينافح دون جهلاء المسلمين، ودهمائهم المنقطعين إلى الأموات وإلى الأجداث متأولاً لهم أخطاءهم وألفاظهم المستكرهة الدالة على الاعتقادات الشنعاء، وراح يُشغب لهم وينضح عنهم آبياً أن تضاف إليهم ضلالة أو خطيئة، مهما فعلوا وقالوا ومهما زلوا وضلوا.

بل كل ما يقولونه من أقاويل الضلال والسوء واجب أن يتأول لهم، وأن يحمل على المجاز، ولا يصح أبداً غير هذا، هذا هو رأي هذا المجتهد الشيعي في هؤلاء الجهلاء الضلال، أما الصحابة وأما الخلفاء الراشدون أمثال أبي بكر وعمر وعثمان، فهم عند هذا الشيعي العاملي وعند الشيعة قديماً وحديثاً كفار منافقون وجماع للآثام والخطايا.

ومن لم يقل فيهم هذا القول فهو كافر منافق مثلهم، ومن أراد التأويل وإحسان الظن بما يعده الخصم لهم سيئات، فهو ضال منافق مثلهم، وهو من الضالين الهالكين، فما تأويل هذا في عالم التأويل والفهم؟

قوم يمقتون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء منهم ويمقتون من لا يمقتهم ومن يروي فضائلهم وجلائل أعمالهم من المحدثين، ثم يقومون يدفعون عن الجهلاء وعامة الناس الذين ليس لهم من الإسلام إلا أن قالوا أنهم مسلمون، حاملين كل ما يصدر عنهم من أعمال الضلال وأقواله أحسن المحامل، مخرجين لها أحسن التخريج، لا يقبلون فيهم قدحاً ولا انتقاداً، لا لشيء غير انتسابهم إلى الإسلام وغير أن ولدوا في جو يقال إنه جو إسلامي، فما تأويل هذا؟! إنه لا تأويل له غير ما ذكرناه من مقتهم الرجل بقدر ما معه من الإيمان والدين، وبقدر جهاده خصوم الدين.

وعلى هذا السبيل، وبهذه الطريقة كرهوا النجديين وعلماء النجديين، وكرهوا الحكومة العربية، وكرهوا علماء السلف والسنة مثل: ابن تيمية وابن القيم، وغضبوا للجهلاء المبتدعين، وامتدحوا هؤلاء، وذموا أولئك، ولم يقبلوا في هؤلاء قدحاً ولا في أولئك مدحاً.

ومما تنفرد به هذه الطائفة أن هواها أبداً مع خصوم الإسلام الكائدين له، المريدين به كل داهية دهياء، وما تقاتل المسلمون والمشركون أو تناضلوا أو اختلفوا إلا وكانت طائفة الشيعة الغالية إلى خصوم الإسلام، وإلا كانت معهم في الهوى وفي العمل، وفي الظاهر والباطن، بل وربما سعوا لتمكين الكفار من نواصي المسلمين، ومن جز رقابهم وافتتاح بلادهم، وهذه أشياء معلومة يحفظها التاريخ الحفيظ، ولا ينساها قد سجلها على حساب هذه الطائفة المغبونة.

وحادثة ابن العلقمي الشيعي مع هولاكو طاغية التتار محفوظة تقطر ألماً ودماً على صفحات التاريخ، وصفحات قلوب المسلمين إلى اليوم وإلى يوم الدين، فإن ابن العلقمي هذا كان شيعياً، وكان وزيراً للمستعصم آخر خلفاء بني العباس، فلما أن قدم الطاغية هولاكو لمهاجمة عاصمة الإسلام، ومقر عرش الخلافة دار السلام، سهل هذا الوزير الشيعي ابن العلقمي لجيش التتار افتتاح العاصمة ومكنه من فتحها ودخولها، وقد كاتبهم بذلك.. ثم جمع الخليفة وكبار رجال الدولة وكبار علماء المسلمين، وذهب

بهم إلى هولاكو ليقتلهم صبرا وغدراً، ومؤامرة كلها نذالة وضعة، فكان هذا، ولهذا كان جزاء ابن العلقمي من هولاكو أعدل الجزاء، فإنه قتله بعد ذلك شر القتلات بعد أن قتله لوماً وتعنيفاً.

وكذلك كان للنصير الطوسي الشيعي شر المواقف من الإسلام والمسلمين في هذه الفتنة النادرة، وقد سعى جهده لاستئصال العلماء وكبار المسلمين.

وقد ذكر علامة العراق الألوسي المرحوم محمود شكري، أن الشيعة في إيران نصبوا أقواس النصر، ورفعوا أعلام السرور والابتهاج في كل مكان من بلادهم، لما أن انتصر الروس على الدولة العثمانية في حر وبها الأخيرة.

وذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه «الفاطميون في مصر» راوياً عن الحافظ مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي أن أبا القاسم بن عبيد الله الفاطمي الشيعي أمر بلعن الأنبياء وأطلق منادياً ينادي بلعن الغار ومن لاذ بالغار وأنه كان يكاتب القرامطة الذين ابتلى بهم الإسلام والمسلمون ينصح لهم بتحريق الكعبة والمصاحف، وفي بلاد إيران الشيعية تحارب اليوم اللغة العربية وآدابها حرباً، زعم أنها لأجل السمو باللغة الفارسية.

وهذه أمور يطول عدها وتؤلم ذكراها المريرة النفوس المؤمنة.

ومما تنفرد به هذه الطائفة الغلو في علي وذريته رضي الله عنهم، فهي

تبالغ في تقديسهم مبالغة هي فوق الهوس وفوق حدود العقول، ولا نعني بهذا أنها ترفعهم فوق الناس أجمعين، وفوق أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة الآخرين، أو أنها ترفعهم على الأنبياء والمرسلين، أو أنها تضعهم فوق حدود البشرية وآفاقها، بل نعني أنها تسويهم بالله رب العالمين، بل قد ترفعهم على الله، أما من جهة التعظيم والتقديس والرغبة والرهبة فليس من شك أنها تمنحهم من ذلك كله مالا تمنحه الله، وقد قالت بالحلول وزعمت أن الله حل في علي، وأن الأئمة فيهم جزء إلهي، وأنهم لهذا يستحقون العبادة وكل ما يستحقه الله من عباده.

وقد زعم هذا أصحاب عبدالله بن سبأ وغيرهم من فرق الشيعة، وقالوا لعلي: أنت الله أنت خالقنا ورازقنا، وقد روى الإمام ابن الإمام عبدالله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة له عن الشعبي عن علقمة قال: لقد غلت هذه الشيعة في علي كما غلت النصارى في عيسى بن مريم، قال: وكان الشعبي يقول: لقد بَغَّضوا إلينا حديث علي.

وهذا حق لا ريب فيه، فإن هؤلاء إن خالفوا النصارى في شيء إنما يخالفونهم في الأسماء، أما في الحقائق فلا.. فهم قائلون في علي وبنيه قول النصارى في عيسى بن مريم سواء، مثلاً: من القول بالحلول والتقديس والمعجزات، ومن الاستغاثة به وندائه في الضراء والسراء والانقطاع إليه رغبة ورهبة، وما يدخل في هذا المعنى.

ومن شاهد مقام علي أو مقام الحسين أو غيرهما من آل البيت النبوي وغيرهم في النجف وكربلاء وغيرهما من بلاد الشيعة، وشاهد ما يأتونه من ذلك هنالك علم أن ما ذكرناه عنهم دون الحقيقة، وأن العبارة لا يمكن أن تفي بما يقع عند تلك المشاهد من هذه الطائفة، ولأجل هذا فإن هؤلاء لم يزالوا ولن يزالوا من شر الخصوم للتوحيد وأهل التوحيد المتمسكين بالكتاب والسنة وبالإسلام الصحيح المنقى من المبتدعات والأخلاط النكراء.

ومن العجيب غير العجيب أن توجد هنالك نبوءات صادقة تحدّث عن خروج هذه الطائفة وعما تُحدثه في الإسلام من الأحداث الجسام، وما كان هذا إلا لعظم خطر هذه الفرقة، ولعظم ما تأتي به من الأرزاء العظيمة في الملة والدولة، وقد عهد كثيراً أن يحدّث النبي الكريم عن الحوادث المقبلة المستقبلة، وعما سوف يصيب أمته من أشتات المصائب المادية والمعنوية الخاصة والعامة، وعما سوف يصيبها من الضعف والفرقة والشتات وفساد الدين والدولة، ولكن هذا عهدٌ بالإجماع والإبهام، أما التحديث والأنباء عن هذه الفرقة الخطيرة فقد كان بالتعيين والتصريح باسمها ووصفها، اللذين لا يختلف الناس فيهما البتة.

وذلك ما رواه الإمام ابن الإمام عبدالله بن أحمد بن حنبل في كتابه السنة بأسانيده، قال: حدثني محمد بن أبي جعفر أبو عمران الوركاني حدثنا أبو عقيل يحيى بن المتوكل عن كثير النواء عن إبراهيم بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده قال: قال علي بن أبي طالب قال رسول الله: «**يظهر في أمتي في آخر الزمان قومٌ يُسَمون الرافضة يرفضون الإسلام**»، ثم ذكر هذا الحديث بأسانيد أخرى، وذكر بعده بإسناد آخر عن علي بن أبي طالب قال: قال النبي عليه السلام: «**يا علي أنت وشيعتك في الجنة، وإن قوماً لهم نبز يقال لهم الرافضة إن أدركتهم فاقتلهم فإنهم مشركون**»، قال علي: ينتحلون حبنا أهل البيت وليسوا كذلك، وآية ذلك أنهم يشتمون أبا بكر وعمر.

وذكر هذا الحديث أيضاً الحافظ ابن قتيبة في كتاب تأويل مختلف الحديث عن عبدالله بن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطع ابن قتيبة بثبوت لفظه النبوي، وذكر القاضي عياض في آخر كتاب الشفاء أحاديث أخرى في معاني هذه الأحاديث بألفاظ أخرى، وروى أيضاً الإمام ابن الإمام عبدالله بن أحمد في كتاب السنة بسنده عن علي قال: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «**إن فيك مثلاً من عيسى بن مريم، أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به**»، قال علي: ألا وإنه يهلك في اثنان: محب مفرط يقرظني بما ليس في، ومبغض مفتر

يحمله شنآني على أن يبهتني، ورجال الشيعة يعترفون بأن علياً قال: يهلك فيَّ اثنان: غال، وقال. ولا ريب أن هذه الأحاديث إنباءات صادقة عن خروج هذه الطائفة وعما تصيب به الإسلام وأهل الإسلام من الأرزاء الكبرى، والواقع قد صدق هذه الإنباءات، وهذه الإنباءات قد صدقت الواقع، فصدق الخبر والمخبر.

وللعاقل أن يسأل ـ لو كان أمر هؤلاء القوم يدخل تحت مساءلة العقلاء ـ كيف أمكن أن يتفق لهم حب علي وذريته وموالاتهم مع مقتهم العرب جملة، ومع مقتهم أعظم رجالات الإسلام وأعظم قواده وفاتحيه الممكنين له في امتلاك الرقاب والبلاد؟ وهذا السؤال قد سأله الأمير شكيب أرسلان ذلك الشيعي المتغالي في علي وولده، وفي كره العرب ومقتهم كما تقدم، لأن من الغرابة والنكارة بمكان بعيد أن تكره العرب لأنهم عرب والمسلمين لأنهم مسلمون، ثم تذهب تغالي في حب طائفة منهم وتقديرها لأنها من العرب ولأنها من المسلمين ومن نصراء الدعوة الإسلامية، هذا أمر ظاهر الاستحالة أو أمر متناقض متدافع على الأقل.

ولكن جواب هذا السؤال أن يقال: إن زعماء هذا المذهب ومبتدعيه لم يكونوا حقاً يحبون علياً ولا بنيه، ولا يضمرون لهم ولاء ومودة، نظير عبدالله بن سبأ وإخوانه، ولكنهم لجأوا إلى هذه الحيلة وإلى هذا الحب؛ لأنهم وجدوا

مشروعهم الهدام في حاجة إلى هذا الحب الكاذب، وإلى هذه الدعوى المنافقة، وذلك أنهم وجدوا شؤون المسلمين قد انتظمت، وسياستهم قد ارتقت وأحكمت بقيادة أبي بكر وعمر وعثمان، وإن جانب المسلمين والإسلام قد عز في تلك العهود ووطئ كل جانب عزيز في الأرض، فأرادوا إثارة الناس على تلك الخلافة والخلفاء، وأرادوا بالتالي تفريق المسلمين وتمزيق كلمتهم، ثم إضعافهم وتقويض ملكهم الثابت الدعامات.

وعلموا أن علياً وبنيه من بعده هم أولى من يدعي أنهم أصحاب الحق المعلوم في الخلافة وفي قيادة المسلمين وزعامة الإسلام الحسية والمعنوية؛ لقرابتهم من النبي الكريم، ولعظم مكانتهم من الدين، والفضل والمجد، ومن قلوب المسلمين ونفوسهم، وعلموا أن هذه الدعوة لا محالة أن تجد قلوباً وآذاناً تلتهمها التهاماً، بيد أن الهدف الأقصى لهذا كله هو إثارة المسلمين بخلافتهم التي عزوا بها وسادوا وركبوا كهل المجد، ثم قتل أولئك الخلفاء بأيد مسلمة أو بأيد أخرى كافرة.

ولو أن الأمر كان بيد علي وبنيه وكانوا هم الخلفاء الذين قام عليهم أمر المسلمين وعمود الإسلام لكانت دعوى هؤلاء القوم غير دعواهم اليوم، ولسعوا بلا ريب لتأليب المسلمين ضد علي وآل بيته، ولمقتوهم كما مقتوا أبا بكر وعمر والخلفاء الآخرين، لأنه ليس المراد من هذه المناورة حب علي

وبغض أبي بكر وغيره، ولا معاداة فلان وموالاة فلان؛ ولكن المراد الذي عودي من أجله من عودي، وقدس من قدس؛ هو القضاء على هذا الدين ونسف هذا الملك الذي قام على هذا الدين بقيادة هؤلاء الخلفاء.

أولم تر كيف عادى هؤلاء المدعون حبَّ النبي وعترته دولة بني العباس وخلفاء العباسيين، كما عادوا أبا بكر وعمر وعثمان وبني أمية والخلفاء الأمويين؟! أفلم يكن بنو العباس من عترة النبي الكريم وقرابته الأقربين؟! فإنهم بنو العباس عم النبي، وعم الرجل من عترته ولا ريب، ومن أولى الناس به، ولكن هؤلاء المدعين التشيع لآل النبي وقرابته يمقتون بني العباس أمرَّ المقت، ويكفرونهم ويسبونهم السب العلني الصريح.. فلماذا هذا يا رعاك الله؟! وكيف يمقت الرجل بني عم من يتعصب لقرباه وأقربيه التعصب الأعمى الأهوج؟!

الجواب عن هذا: أن بني العباس عُودوا وعدوا من زمرة المغضوب عليهم المقوتين، لأنه تم لهم الأمر واجتمع عليهم المسلمون، وعز بهم الإسلام، وحموا بيضته وثغوره من العوادي والخصوم ما شاء الله أن يعز، وأن يحموها، ولو أن بني العباس أخفقوا ولم يتم لهم ما تم، ولم ينالوا من الخلافة ما نالوا لما عودوا وكرهوا، وهذا ما لا شك فيه.

والعجب في الأمر أن هؤلاء كانوا ينشرون الدعاية لبني العباس قبل أن تصير إليهم الخلافة، فلما أن صارت إليهم عادوهم وجعلوا الدعاية ضدهم، والدعوة لغيرهم، وذلك كله لأن الغرض هو إفساد هذا الأمر يدورون معه كيف دار، فإن قضى هذا بمعاداة النبي وعترته عادوهم ولا كرامة، وإن قضى بموالاتهم والغلو الشديد فيهم والوهم وغلوا في موالاتهم، وإن قضى بغير ذلك لم يتأخروا عنه، ولكنهم ليسوا صادقين في الولاية، وإنما هم صادقون في العداوة.

نحن لا ننكر أن في هذه الطائفة من يحبون علياً وبنيه ظاهراً وباطناً حباً متجاوزاً الحد المشروع، بل ويغلون فيهم أشد الغلو، ولكن هذا الفريق هو الفريق المقلد المخدوع السليم النية والطوية، من لا يريد سوى الحق والخير لكنه مخدوع مضل بأهواء الزعماء الدهاة الخونة، وهذا له وجه وذاك له وجه، والله العليم بما تشتمل عليه صدور الجميع.

ومن الجواب على هذا السؤال أن نقول: من المعلوم أن الفرس هم أنزع الناس إلى هذا المذهب، وأكثرهم تعلقاً واستمساكاً به، ومكانته ومكانه في قلب بلادهم، وعصبيته وعصائبه هنالك، والغلو فيه منهم يبدأ وإليهم يعود، فلماذا هذا؟ وإلام يرجع سببه؟ فإن فيه مخالفة لطبائع الأشياء في الظاهر، وإلا فلماذا كانت بلاد الفرس دون سواها شيعية محضة خالصة؟ ولماذا آثروا

التشيع على مذهب أهل السنة؟ ولماذا انتشر هذا المذهب في إيران ولم ينتشر في الحجاز وبلاد العرب والأقطار الأخرى؟ ولماذا امتاز المسلمون من الفرس بموالاة علي وأهله دون أكثر المسلمين، بل دون جمهرة العرب، بل دون بني هاشم وآل علي من أهل السنة؟

ولا ريب أن هذه أسئلة تتطلب الجواب.

والجواب عنها سهل على من ألم بأغراض ما قدمناه، ولهؤلاء نظرة تعصب جنسي في تحيزهم إلى علي وبنيه، وذلك أنهم يذكرون أن علياً كان بطبعه ومواقفه ميالاً إلى الفرس وإلى موالاتهم وصداقتهم، ويذكرون لذلك شواهد يذكر بعضها التاريخ، وإن كانت ليست في سبيل مما أرادوا:

من هذه الشواهد التي يتعلقون بها أنهم يذكرون أن علياً رضي الله عنه قد وقف موقف المدافع المناضل عن الهرمزان الفارسي حينما قتله عبيد الله بن عمر بعد أن قتل أباه عمر أبو لؤلؤة الغلام المجوسي، وقد كان عبيد الله بن عمر اتهم هذا الهرمزان بأنه كان متآمراً مع أبي لؤلؤة ممالئاً له على جريمته المنكرة، فهؤلاء يزعمون أن علياً طالب عثمان بقتل عبيد الله بن عمر قصاصاً إذ قتل الهرمزان.

ومن الشواهد عندهم على هذه القضية، أنهم يذكرون أن علياً كان

موالياً لسلمان الفارسي كل الموالاة، وأنه كان يهواه ويقول: سلمان منا وإلينا أهل البيت، وأنه كان يقول في سلمان: ما تقولون في رجل أوتي حكمة لقمان؟ إلى أشياء أخرى يتخذها هؤلاء برهاناً على أن علياً كان نزاعاً إلى الفرس، محباً لهم، مظهراً حبهم وولاءهم لتجانس تام بينه وبينهم لم يغيره أمر من تلك الأمور التي غيرت غيره.

ثم يذهبون مذهباً آخر وينظرون في هذا نظرة أكثر دخولاً في الجنسيات وهوى الجنسيات العمياء، وذلك أنهم يذكرون لآل علي مصاهرة فارسية، وأن أولاد علي يمتون بهذه المصاهرة إلى الفرس، وأنهم محسوبون من أجلها فرساً؛ لأن الدم الفارسي يجري حاراً متدفقاً في عروقهم، فمن والاهم وأحبهم فقد والى الدم الفارسي وأحبه، ومن دعا إليهم وطلب الأمر لهم فقد دعا إلى آل ساسان، وطلب الأمر لفروع أنوشروان، فالفارسي إذا ما تعصب لآل علي إنما يتعصب لقومه ولآل جرثومته، وإذا فضلهم على الصحابة وعلى سائر العرب الأولين والآخرين، وطلب انتزاع الخلافة من أبي بكر وعمر وسائر الخلفاء لوضعها في أيدي العلويين إنما يفضل قومه وبني أومته ويطلب الأمر لهم لا لسواهم.

وحقيقة هذه المصاهرة أنهم يذكرون أن الحسين بن علي بن أبي طالب قد تزوج شهربانوه ابنة يزدجرد آخر ملوك ساسان الفارسيين، وبهذه

المصاهرة أصبح العلويون فرس الدم واللحم فحق التعصب لهم والدعوة إليهم على الفارسيين، هذا سر من أسرار تشيع الفارسيين، وغلوهم الظاهر في آل علي.

ولسنا نزعم أن أمثال هذه الأسرار والمعاني يعرفها ويحيط بها الجمهور الفارسي الشيعي، وأنه يرمي إليها، كلا لا نزعم هذا وإنما نزعم أن هذه الأسرار والمعاني يعرفها الزعماء والعلماء، ويرمون إليها ويحيطون بها، أما الجماهير أما الدهماء فلا ننكر أن يكونوا مخلصين حقاً متدينين حقاً محبين لآل النبي، وللنبي وللعرب كافة، حباً خالصاً ظاهراً وباطناً، وأنهم لا يريدون سوى وجه الله الأعلى وسوى الدار الآخرة، ولكن الجماهير تبع لآراء الزعماء والقادة، على أننا نزعم أيضاً أن جماعات من العلماء الفارسيين قد يكونون طاهري القصد والنية، محبين للحق وللعرب، ولكن هذا القسم تناقص أخيراً كثيراً.

ونحن نعوذ بالله من الهوى ومن التعصب لغير الحق ووجه الحق الأعلى، ونعوذ بوجهه من أن نبغض مؤمناً لشهوة نفس أو أن نحب ظالماً باغياً لهوى باغ ظالم.

في المذهب الشيعي معتقدات في غاية الشذوذ والنكارة، وآراء لا يمكن أن تقر في قلب قرَّ فيه الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ولا يمكن أن تقر في قلب

فيه موضع للإسلام ومكان حرمة لأهل الإسلام، وسيجد القارئ من هذه المعتقدات أفانين مبثوثة في كتابنا هذا، وهذه الآراء في هيكل الإسلام والمسلمين تشبه الجرثومة المرضية النازلة في الجسم النامي الحي لا يمكن علاجه، ولا يرتجى شفاؤه، إلا بقتل تلك الجرثومة وإبعادها من الجسم، وتعقيم جوه من وبائها وضرائها، أما محاولة العلاج وارتجاء الشفاء مع ترك تلك الجرثومة والمواد المرضية ترعى في الجسم، فمحاولة عابثة ناصبة، وارتجاء لما لا يمكن أن يكون، وشفاء تحته مادة الأمراض، إن أمكن أن يكون ليس سوى وضع قناع شفاف سريع البلى والفناء، على الخطر القريب، لا يلبث أن يتكاثف ويتكاثر ثم يعود ويظهر جلياً عنيفاً حاداً.

وكذلك لا يمكن البتة التوحيد بين سائر المسلمين وبين هذه الطائفة إلا بتطهير الجو من هذه المعتقدات وإبعادها من البين، إما بإقبار الكتب التي تحمل هذه الآراء الخطيرة وتحريقها، وإما ببراءة القوم من هذه الكتب ومما فيها من تلك المعتقدات والبراءة من كاتبيها ووازريها.

وأما بغير هذا فهيهات الوحدة والصفاء التام بين المسلمين وبين هذه الطائفة، والذين يرجون هذه الوحدة وهذا الصفاء مع ثبوت هذه المعتقدات في كتب القوم ورضاهم بها وعنها إنما هم عابثون في رجائهم، وأنا لا أحسب شخصاً يؤمن بالله وباليوم الآخر يستطيع أن يصافي قوماً يكفرون أمثال أبي

بكر وعمر وعثمان وسائر قواد الإسلام وفاتحيه في جميع عصوره الأموية والعباسية وما بعد ذلك.

ولا أحسب قلباً استشعر الإيمان بالله وحمل احترام الإسلام يستطيع أن يحمل وداً وولاءً لقوم يسبون أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وطلحة والزبير وطارق بن زياد وموسى بن نصير وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، سباً علنياً، ويضيفون إليهم كبريات الجرائم، والتهم الفاضحة الواضحة، كدأب الشيعة المغبونة الغابنة.

إن امرؤًا يصافي هؤلاء لخليق بأن لا يكون من المؤمنين بالله ورسوله، وإن فرقة فيها منابذة هؤلاء لخير من وحدة فيها موالاتهم، وإن عداء فيه مغاضبتهم لخير من صداقة وسلم فيها مراضاتهم.

إنه يجب أن نكون هنا صرحاء كل الصراحة، ويجب أن نجانب الإدهان والأمور المغماة والجمجمة بالحقيقة الواحدة الخالدة، فنقول: إننا نكذب إن ادعينا مصافاة خصوم الصحابة وخلفاء المسلمين، ونضل ضلالاً مبيناً إن دعونا المسلمين إلى ذلك، وإن امرؤًا يدعي مصافاة هؤلاء أو مصادقتهم لكاذب، إما في إسلامه ودينه، وإما في دعواه هذه الصداقة والمصافاة، وإما في هذا كله.

أنت لا تستطيع أن تكون صديقاً مخلصاً لمن تعلم أنه يمقتك ويكرهك ويرميك بكل صيلم، والمؤمن المسلم لا يستطيع أن يكون صديقاً مخلصاً لخصم أبي بكر صاحب النبي الأكبر، ولخصم جميع الصحابة والخلفاء، ولمن يرميهم بالطامات المفظعات، هما اثنتان لا بد منهما، إما كره حماة الإسلام وكره الإسلام نفسه، وإما كره خصوم حماة الإسلام والبراءة لله منهم، أما أن تحب الإسلام وحماته وتحب من يكرههم، فأمر لا يكون ولا يستطاع، ومدعي هذا كاذب، ولو أراد من قلبه ونفسه ذلك لأراد تكليفهما مالا يستطيعانه، ولأراد منهما شيئاً ليس في طوقهما ولا في طبعهما حمله.

فعلى هؤلاء الذين يريدون التوحيد بين طائفة الشيعة الغالية، وبين سائر المسلمين ويسعون لذلك، أن يسعوا أولاً وقبل كل شيء، لحمل الشيعة على رفض هذه المعتقدات وتطهير كتبهم وصدورهم وألسنتهم منها، أي عليهم أن يسعوا أولاً لاستئصال الداء أولاً وجراثيمه التي هي مرعى علة الاختلاف والافتراق والنزاع والصراع، فإذا ما قضوا على هذه الجراثيم بالموت والفناء، كانت نتيجة ذلك بلا شك زوال أعراض هذه الجراثيم، التي هي الخلاف والنزاع والصراع بين الحزبين، وعلاج الداء بانتزاع جرثومته أشفى وأحجى من محاولة علاجه بالإعراض عنه ونسيانه وإغماض العينين عنه، بل هذا ليس علاجاً طبيعياً، وهو قمين بأن يزيد الداء وينمي جرثومته ومادته.

ولا ريب أيضاً أن العلاج بهذه الطريقة أيسر وأقرب من العلاج بالطريقة التي يتبعها هؤلاء المترنمون بأناشيد الوحدة وأغاني الجماعة، الوحدة والجماعة لفظان لذيذان وألذ منهما معناهما، وليس من ريب فيما لهما من الأثر النافع في الدولة والدين والأمة، ولكن الأمر كما قيل:

فإن الجرح ينفر بعد حين　　　إذا كان البناء على فساد

فإن ذلك كما تقضي طبيعة الأشياء ليس ممكناً ولا مستطاعاً، والسعي له كذلك سعي عابث ناصب، لا أجر ولا حمد.

وأنت إذا أردت أن تشيد بناءً منيعاً باقياً على العوادي وجب عليك أن تشيده على أساس ثابت قوي بعيد عن الضعف والخلل، من مادة قوية سليمة صلبة، ووجب أن تبعد عن ذلك المواد الضعيفة وما به خلل وضعف أو قبول للخلل والضعف، و إلا انهار عليك بناؤك، وخسرت نفسك وأهلك ومالك، وكل صلح بين اثنين إن لم يكن صادراً عن القلب والضمير فليس صلحاً وليس إلا كذباً وخداعاً وزوراً سميت أسماء صالحة، وليس سوى مكيدة مشتركة بين اثنين يصطلحان عليها ويوقعانها على أنها خديعة وجريمة نالت الرضا بالإجماع، أي إجماع المتخادعين.

فالصلح يجب أولاً أن يعمد إلى القلب فيغسله من غسلين العداوة،

وينتزع منه موادها وغذاءها انتزاعاً تاماً شاملاً، ثم يضع فيه حب المحبة ويسقيه بحباب الحب الإنساني الصحيح، فإذا ما كان كذلك وهذا هو ما يجب أن يكون فقد تم الصلح وتم توقيعه بوثيقة لا يمكن أن تحل ولا أن تمسها يد النكث والنقض، وإن لم توقع هذا الصلح يد وإن لم يعقد له مؤتمر وتؤلف له جمعية.

فإذا ما تقاطعت القلوب فقد قطع البلى وثائق الصلح، وإن كانت لا تزال كما وقعت جدة ووضوحاً، بل وإن كان مدادها لا يزال رطباً لم يجف، بل إذا ما كانت القلوب كذلك فقد تمد إحدى يديها للصلح ولتوقيع معاهدة الصداقة والمحبة وتمد يدها الأخرى في الساعة نفسها للقتل والضرب، ولتمزيق ما وقعته اليد الأخرى، وهذا هو البلاء الأحمر العتيد التليد الذي لا تفتأ الإنسانية الغابنة المغبونة تصرخ وتستصرخ منه.

إن الصلح لا يوقع توقيعاً ولا يطلب طلباً، وهو شيء لا يكتب بالأقلام ولا يدون في القراطيس، وكل صلح احتاج إلى هذا فليس صلحاً، ولو كان صلحاً لما احتاج إليه، ولكن الصلح يقوم بين الناس حين تزول عوارض العداوة ومواد الشرور من غير أن يطلبوه وأن يسعوا إليه، فإذا ما انتزعت أسباب العداوات والضغائن لم تبق هنالك حاجة إلى الصلح الرسمي المذيل بالأسماء الضخمة، وهم ما احتاجوا إلى هذا الصلح وما

بادروا إليه وأجمعوا عليه إلا لما يبصرونه في الأفق العام من بوارق الشر وهمام الفتن وصراخ الويلات، وإن صلحاً يوقعه بنان الظلم لا يقال مه إذا مزقته يداه، وإن صداقة تبعث عليها الحاجة لا يقال كيف إذا أفسدتها الحاجة نفسها، ووحدة تنال بالسؤال وبغير السؤال.

ولو كنتُ دولة لما عاهدت دولة، وذلك أني أعلم أن دولة من الدول لن تلتزم القيام بشروط معاهدة وقعتها بدمائها قبل أن توقعها بمدادها إلا حين تضطر إلى ذلك اضطراراً، وحين تعلم أن بقاءها وحياتها في الوفاء بتلك المعاهدة، ودولة من الدول إذا ما اضطرت إلى أمر لأنها شعرت أن بقاءها وحياتها فيه لا بد أن تأخذ به وقعته بمعاهدة أم لم توقعه، ولو عاهدتها لكنت أتقيها وأحذر شرها فوق ما كنت أتقيها وأحذرها قبل إبرام المعاهدة التي وصفت بمعاهدة الصداقة والمخالفة، ولما قدرت تلك المعاهدة إلا أنها إعلان بالعداوة وإعلام بأن الشر قد تفاقم واقترب لأخذ الحذر والحيلة.

ما هذه الحفلات التي تؤلف لإحلال الصلح والمحبة بين الدول أو الأفراد، والمعاهدات التي توقع، وتسمى بأسماء المحالفات ومبادلة المنافع والصداقات إلا مناظر سينمائية يراد بها التأثير الهاجم من طريق الخيال وحده على مواطن الضعف والوهن في الإنسان، فإضحاكه حيناً وإبكاؤه أحياناً أخرى، وخديعته قبل كل شيء على ما يملكه من معاني القوة وأسباب الحياة

الفانية، فاستلاب ماله وإضحاكه بما ينطوي على البكاء، وإفراحه بما يشتمل على الحزن المجسم، وترقيصه بما لو أبصره بعين ليست سينمائية لاستصرخ وصرخ ولأعول ولدم.

اذهب إلى السينما وانظر ما تعرضه من مناظر الحب والبغض، والحزن والسرور، والحرب والسلم، ومناظر ما شئت، واعلم قبل أن تبصر شيئاً من ذلك أنك لست أمام شيء مما تحسب وتنظر، وأن من حبسوا هذه الصور والمواقف لعلهم كانوا يبكون حينما أروك أنهم يضحكون، ولعلهم كانوا يضحكون حينما أروك أنهم يبكون، وأنهم ما تلونوا هذه الألوان الكاذبة المزرية بالإنسان إلا حرصاً على مالك، واغتصابك ما تملك لا لشيء غير هذا؟ اذهب إلى هذه السينمات واعلم هذا كله وضع خيالك وحواسك تحت سلطان عقلك، وانظر هل تستطيع بعد هذا أن تضحك مع الناس حينما يضحكون أو تطرب معهم حينما يطربون، أو تصفق حينما يصفقون، أم هل تعود إلى هذه المعارض المزرية مرة أخرى، لا ريب أنك إن فعلت هذا كله سوف تنظر إلى هؤلاء المصفقين المتضاحكين الطربين حينما يكشف الغطاء عن هذه المناظر نظرنا إلى الأطفال، وإلى ذوي الأمراض العقلية، نظر الرثاء والرحمة.

ولو أن هؤلاء المصفقين المهللين بهذه المعاهدات والمخالفات والصداقات السينمائية نظروا إليها نظرتنا الساعة إلى حقيقة السينما، وما

طويت عليه، وما قامت لأجله، لصفقوا تصفيق الحسرة، ولأهلوا بالإعوال واللوعة، ولنظروا إلى هؤلاء المعجبين المسرورين بذلك نظرتهم إلى الأطفال وإلى ذوي الأمراض العقلية، أعني نظرة الرثاء والرحمة والعطف.

لقد أخرجنا هذا الحديث المثير للأشجان الكامنة، الحاشد للذكريات المرة الشتيتة عما كنا فيه، فلنقطعه اضطراراً، ولنعد إلى ما كنا بصدده:

أما شعاعنا الهابط فقد أدركه ما أدرك الشمس من اختلاط أشعتها النيرة القوية بخيوط الليل المظلمة الضعيفة، ومن تشويهها بما يعلو طبعها النوري الناري فيما يرى الرائي بما تضعه الطبيعة والهواء على محياها الإلهي المشرق الوضاء، من تراب مظلم كثيف وقسطل أهوج بليد، ومن طفول نحو المغيب في أحشاء هذا الفضاء اللانهائي، ولكن سوف يدركه بلا ريب ما أدرك الشمس أيضاً من إشراق وصفاء وجمال واكتمال، وليس من شك عندنا أن الإسلام لم يحارب بيد هي أقوى وأمضى من يد تدس فيه الخرافات والمبتدعات المكروهة باسم الدين والتدين، وبدعوى التزيد من عبادة الله والتعديل على شرعه.

فإننا نعلم أن الإسلام دين الله الحق بحجج كثيرة معلومة حسية ومعنوية، ولكن أبين البراهين وأنطقها على أنه دين الله الحق هو أنه جاء كما جاء ونزل كما نزل أسمى ما يتصوره العقل البشري من سمو وجمال وحكمة

ومطابقة للفطر الإلهية التي لم تكدرها الأهواء والدعاوي والدعايات المدخولة، فإن العقل الفني البارع في معرفة الحق من حيث هو حق، ولأنه حق يدرك من صدق هذا الدين وصحته مالا يدركه الرجل الحسي بما يشاهده من المعجزات الكونية المادية على أنه دين الله الحق النازل من تحت سدرة المنتهى، وهذا هو السر العظيم في خلود هذا الدين، وفي معاركته الخطوب والعوادي وخروجه من بين أيديها مظفراً عزيز الجانب.. ولا ريب أن أقوى ما في الحق هو ما فيه من صفة الحق ومعنى الحق، ولكن هذا الدين الجميل البالغ الجمال القويه، لن يبقى له هذا الوصف حينما تدخله الآراء البشرية، التي مصدرها التراب والإنسان.

وليس مثله حينئذ إلا صورة فنية رائعة الصنعة والجمال جاءت وفق ما يتخيله أفرس خيال فنان سيال، بارع وضعت عرضة لكل اقتراح يلقيه من يلقيه من مريض العقل، إلى مريض القلب، إلى طفل النفس، إلى أسير الهوى والحسد، وكل من اقترح اقتراحاً في هذه الصورة الفنية أجيب اقتراحه وعدل فيها ما اقترح تعديله: ألا ترى أن هذه الصورة سوف تصبح ولا محالة من أقبح ما ينتجه الخيال وما تراه العين.

وهكذا الدين إذ ما ترك عرضة لابتداع المبتدعين ولاقتراح المقترحين لا محالة من أن يشوه وجهه وينطفئ جماله وحسنه: وهذا هو ما أصاب

الإسلام، وما فطن له خصومه الدهاة، فجدوا في حربه من هذه الناحية، وفي أخذه من وجهها.

ويقال بنحو آخر: إن الله تعالت قدرته وحكمته قد بنى شرعه أفضل بناء فجاء علاجاً لكل ما بنيت عليه النفوس من داء، وأفضل ما يوصف لها وما تحتاج إليه من دواء؛ لأنه تعالى وهو العليم بداء النفوس ودوائها قد قدر شرعه على ما جبلت عليه النفوس تقديراً محكماً، متقناً، وفصله عليها تفصيلاً تاماً، موجباً، بحيث لا يصلحها غيره، ولا تصلح هي بغيره، وبحيث لا يروضها ولا يسوسها في أمورها كلها مثل أن تأخذه جملة، كما جاء، لا زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تحوير، ولو دخله شيء من ذلك لأفسده ولأبطل حكته وما وضع من أجله.

وذلك أن الشرع الإلهي وضع كعلاج لأمراض النفوس التي جبلت عليها من شهوة وشبهة وفسوق، وكل علاج يضعه حكيم عارف بصنعته يفسد لا محالة إذا تناولته يد التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، بل ويعود ضاراً مؤذياً ولن يكون علاجاً نافعاً مجدياً إلا إذا أخذ كما وضع وركب عن طواعية ورضى.

ولو أن مريضاً أراد أنْ يتصرف وأن يجتهد فيما يركبه له طبيبه من علاج

ودواء حسب علته ومرضه، فناله بالتغيير والتحوير والزيادة أو النقصان وغير الوقت الموقوت لتعاطيه لكان خليقاً بأن يضر نفسه بل ربما قتلها ولكان خليقاً بأن يعد من السفهاء الجهلاء.

والذين يتعدون على الشريعة وعلى حدودها بالتغيير كالزيادة والنقصان، لا يقلون عن هذا المريض سفاهة وجهالة، وإفساداً لهذا العلاج السماوي الهابط به جبريل سيد الملائكة من لدن رب العالمين إلى محمد سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ليبلغه أفضل الأمم وسيدتها سابقها ولاحقها.

فالذين يتناولون هذا الدين بالتغيير والتحوير وقد نزل محكماً متقناً وأعد إعداداً حكيماً لمعالجة أدواء النفوس ومعالجة ما جبلت عليه من ضعف خلقي وشهوة وشبهة، ولدت جرثومتها يوم أن ولدت جرثومة الإنسان الأول، إنما يعملون بهذا جهلاً، وقد يكون قصداً لإفساد الدين ولإبطال الحكمة التي أنزل الله دينه لأجلها، وإبطال أثره الجميل الحميد الفعال في هذه النفوس التي هي أبداً في حاجة إلى علاج سماوي قدسي، لينتشلها من ورطات المادة ونقصان المادة الأثيمة الفاسقة، وليسمو بها فوق هذا العالم الأرضي، وما كبّل به من أنكال الضعة والهبوط، والضعف اللازم الوجود، ولتتعلق بأسبابه الموصولة بأعلى السماوات العليا لتعلو بها إلى حيث يكون مستقر هذا الدين ومهبطه الأول الأعلى.

ولهذا فإننا نحمّل الدعاة إلى الابتداع في هذا الدين أوزار ضعف أثره في النفوس، وأوزار صدوفها عنه رغبة عما مزج به من مبتدعات المبتدعين السخفاء الأغبياء.. ونعد دعاة البدع من شر خصوم الأديان وخصوم الإنسان، ونهيب بالمؤمنين إلى أن يتضافروا على تطهير الدين وتخليصه من هذه الزلات والعورات والترهات التي حملت عليه فشوهت محاسنه، أو بالأصح ألقت عليه سرادقاً كثيفاً من جفاء وغباء ووحشة، ينظر إليها بعين الحذر والريبة والزراية الأليمة والمضاضة المرة.

ونحن في كتابنا هذا نهد إن شاء الله ركناً من أركان هذا الباطل، ونهتك حجاباً من هذه الحجب التي ضربت على الدين، والتي فرضت على عقول جمهرة كبيرة من الناس.

وليس في المخلوقات كلها ما هو أعجب أمراً من الإنسان ولا ما هو أكثر جمعاً للمختلفات منه، فالإنسان أمره كله عجب، انظر إليه، فبينما ترى فريقاً منه ينازع الملائكة الطهر والسمو الروحي، والجمال المعنوي النفسي، إذا بك ترى فريقاً آخر منه ينازع الشياطين الخبث والانحطاط الروحي، والقبح المعنوي النفسي.

ثم انظر إليه، فبينما ترى فريقاً منه يسمو ويمعن في سموه حتى يتصل

بالملأ الأعلى، بل ويتجاوزه حتى يتصل بالرب الأعلى فيحظى بخطابه نجياً فيصطفيه بكلامه وبرسالاته، إذا أنت ترى فريقاً آخر منه يهوي ثم يغلو في هويه في دركات الصَغار والضعة والهوان المزري، حتى يرضى لنفسه بأن تتعبد الأحجار والأشجار والجماد الصامت الوضيع، وتتلمس حاجاتها وشفاء كلومها تحت أطباق الرغام، وبين ضرائح الرمم، وعظام الموتى، وهياكل الإنسان الفانية البالية، وحتى تشكو قضاء السماء إلى رهين الثرى، والبلى، وحتى يفزع الإنسان الحي السوي إلى الإنسان الميت يستدفع به فوادح الأقدار.

ضل الإنسان وغوى فعبد الشمس والقمر والأجرام العلوية، فقيل: أغراه بهذه الضلالة وبهذا النزول الفكري الاعتقادي ما رآه في هذه الأفلاك العلوية النيرة من الجلال والجمال، والإشراق الباهر والعظم المشهود الفتان، ثم ضل وغوى فعبد الملائكة، فقيل: أغراه بعبادتهم ما أكرمهم، الله به من طهارة وعلو، ومن اتصال به تعالى، ومن خصائص خلقية عجيبة، ثم ضل وغوى فعبد هذه الأنهار المتدفقة عن اليمين وعن الشمال فقيل: أغراه بعبادتها ما أودعها الله من المنافع للإنسان وللحيوان، ثم ضل وغوى وانحط غيه وضلاله فعبد الأحجار والأخشاب والستائر المنصوبة على هيكل مخلوق ضعيف، عاجز عن نفع نفسه وعن ضرها حيا، فلما أن قيل: ما الذي أغراه

بعبادة هذه الأخشاب والأحجار والأجداث، وما الذي أبصره هنالك حتى ضل هذا الضلال المبين؟ لم يكن الجواب سوى أن يقال: أغراه بهذا نقص الإنسان وإفلاس الإنسانية، وانحدار مداركها انحداراً يصرخ في وجه الإنسان المزهو بإنسانيته قائلاً: هاهنا ينتحر العجب الإنساني، وها هنا تنتحر الإنسانية.

عرج على قبر من تلك القبور ثم استمع حشرجة تلك الصدور بهتافات الرغبة، وإعوال الرهبة، وتسمّع تساقط الرغبات الملحة من تلك الشفاه الذابلة بحرارة الذعر، وتوهج الرجاء، وانظر إلى تلك الوجوه الذاهلة، الساهمة بنشوة الخضوع، وجلال الخشوع، وإلى تلك الدموع المتحدرة في الحس ماء من العين، وفي العقل عبادة واستسلاماً لغير الله من القلب والعقل، وإهانة كبرى للإنسانية أينما كانت، وإلى تلك الأيدي المبسوطة ظاهراً بالأمل المبسوط على تلك الستائر والأبواب والأخشاب، والعمد المبسوطة معنى إلى كرامة الإنسان ومجد العبودية الإلهية لتمزيقها شر ممزق، وإلى الشرف الإنساني الرفيع لتهبط به تحت أقدام الموتى وأشلاء الفناء، وانظر إلى تلك الوفود المختلفة المزدحمة ذات الحاجات المختلفة المزدحمة والجموع المتدافعة على تلك القباب والأبواب ذات الأنواط والحبال، وعلى تلك الأضرحة رجاء البعيد القصي، وقرة عين القريب النجي.

انظر إلى ذلك كله وتسمع ما هنالك كله ثم صب الدمع سخيناً غزيراً على كرامة الإنسان ومجده، وعلى عزة العبودية الماجدة الموحدة المراقة بلا ثمن؛ سوى الخزي والعار في الدنيا، ثم الويل والنار في الأخرى، ثم قل والخطاب للمسلم وحده: ويحك أيها المسلم ماذا دهاك؟! إن أسلافك الأماجد لم يقنعوا بهذا العالم كله مطلباً وغاية حتى عقدوا من أسيافهم وصالح أعمالهم درجات يمتطون بها ثبج الهواء، ويشقون بها حواجز المادة والطبيعة؛ ليتصلوا بغاية الغايات ونهاية كل موجود، فما أنت والرضا بالتراب؟! ولقد كان المسلم يتلو قول الله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]، فيحمل سيفه المثلم ورمحه المحطم من مسايفة الأبطال، ومقارعة الصناديد والمغاوير فيقذف نفسه في غمرات الموت، يطعن ويضرب فلا يفكر في أن ينهزم، وصدره يعي هذه الآية ومعناها العلوي السماوي، حتى لو وقف العالم كله ليصده عما أراد، وليحول بينه وبين الانتصار للحقيقة الواحدة الخالدة، فما أنت وخشية التراب؟!

ولقد كان الأعرابي يلقى محمداً صلى الله عليه وسلم فيتلو عليه قول الله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[القصص: ٨٨]، فتتضاءل المخلوقات وتتلاشى في عينه ومن نفسه؛ حتى يدركها الفناء، فيروح يضرب الباطل ويفلق هامات الضلال غير حاسب لغير الله حساباً، وغير قابل إلا لخالقه

حكماً، وغير محس لغير الحق وحده وجوداً، فيكبر هو في عين الوجود وفي نفسه حتى يتصدع له بناء الطبيعة، ويخشع له إجلالاً قانون المادة، ويجل في حساب الباطل والضلال حتى يبصرا في كل شعرة منه ألف جحفل يقاتل في سبيل الله، فما أنت والرغبة في التراب؟!

وكان المشرك الدنس يتلقى لا إله إلا الله فتتمشى فيه فتعقم جسمه ونفسه وتطهرهما من معاني الشهوة والفسوق والحيوانية النهمة، فيسمو على الشهوات وحاجات النفوس، وعلى مآرب الطبيعة وحاجات المادة، فيروح ويغدو ملكاً في أثواب إنسان، ومعنى طاهراً مقدساً في صورة مادة، فما أنت ومساءلة الأطلال الفانية؟!

وكان المسلم الأول يمر على قول الله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، فتحول بينه وبين الخلق جميعاً، وتسد عليه طريق الرغبة في العباد كافة، فتمر به مصائب الناس جميعاً، ويلقى في حياته معنى صفة الله الجبار الممحص في معناها الجلي الظاهر الكامل؛ فلا يدل مخلوقاً على مكان ألمه، ولا يكشف لغير الله عن موضع علته، ولا تسمع منه أذن مخلوقة قولة آه، ولا يسأل مخلوقاً عوناً، حتى لقد كان تسقط منه عصاه فلا يقول لأحد ناولنيه، فما أنت ودعوة الأموات والشكوى إلى الرمم والعظام النخرة؟!

ويلك أيها المسلم ماذا غرك بهذه الأنصاب والأجداث؟! أرأيت شيئاً منها خلق شيئاً منك فاستحق خضوعه وعبادته ورغبته ورهبته، أم علمت أن شيئاً منها خلق شيئاً من هذا العالم فملكه حتى طمعت فيها خلق وملك فرحت تسأله وتستوهبه إياه برغب ورهب؟ أم وجدت أن شيئاً منها امتنع على الله حتى رحت ترجو منعته؟ أو أعانه وشاركه حتى رغبت في معونته ومشاركته؟ أم وجدت هذه الأخشاب والأبواب والأموات أقرب إليك من الله وأرحم بك، وأعلم بحاجتك منه؟ أم أسرع إجابة وأوسط سلطاناً وأعظم فضلاً من رب العالمين؟ فطفقت تسألها حاجاتك يوم يسأل المؤمنون ربهم، أم علمت أن الله لا يسمع دعاءك ولا يتقبل عبادتك حتى تذل لعبيده وحتى تسألهم أن يعطوك مالا يملكه ومالا يقدر على ملكه وإعطائه سوى رب العالمين؟!

ويحك أيها المسلم رغبت عن الله فرغب الله عنك، ورغبت في غير الله فرغب من رغبت فيه في الله عنك، فلا أنت أدركت رضا الله ولا أنت أدركت رضا من رغبت في رضاه؛ فخسرت الرضوانين، وهذا هو أشد الخسران، فتخلى الله عنك بنصره وعونه إذ تخليت أنت عن استنصاره واستعانته، وتخلى عنك الخيار من عباده إذ تخليت عن إرشادهم، وسننهم، فخلا بك الأشرار من خلقه فافترسوك؛ فهلكت بين نسيان الله والخيار من عباده لك، وبين ثورة الأشرار من خلقه بك، فأصبحت من الهالكين الغابرين.

ويحك أيها المسلم؟! شرب المؤمنون صفواً، وشربت أنت كدراً، ودعوا هم رباً واحداً، ودعوت أنت ألف رب: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، ورغبوا هم في السماء ورغبت أنت في الأرض، ونادوا هم خالق الأحياء وناديت أنت أشلاء الأموات، ورفعوا أبصارهم إلى السماء ونكست طرفك وخفقت برأسك أنت إلى الثرى؛ وأين الثرى من السماء، وأين عابد الأموات من عابد المحيي المميت الذي لا يموت؟ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

أولم يبلغك أيها المسلم مصارع المشركين الأولين وكيف فعل الله بمن عدلوا به غيره من الأوثان والصالحين والأنبياء؟ ألم يأخذ الله أولئك المشركين كلهم إلى الهلاك، ثم إلى النار سوقاً بكلمة لا إله إلا الله، إذ تواصوا بإبائها قائلين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

أما وجدت في كتاب الله مثلات الأولين والآخرين، وأمثال الهدى والضلال المبين؟ ويلك لقد انقطعت الرسالات واحتبست السماءُ الكتب فلا رسالة بعد رسالة محمد عليه السلام، ولا كتاب بعد كتاب الله القرآن، فإن لم تجد فيهما الهدى فلن تجده ولن تكون من المهتدين.

هذا في المسلمين بلاء أي بلاء ومنكر ما فوقه منكر، وليس هنالك ما

هو شر منه سوى أن يقوم رجال محسوبون على العلم والعلماء، وعلى الإسلام والمسلمين يذودون عن ذلك بغيرة لا أدري بماذا أصفها، ويثلبون من أنكره من صالح المؤمنين ثلباً مراً مزعجاً، ويملئون عليه الفضاء صراخاً وإعوالاً، ويرجفون به وبأمره إرجافاً رناناً هائلاً، زاعمين أنه خرج على الإسلام والمسلمين، وعاند الكتاب والسنة وقال قول الفرقة الضالة الملحدة، متهميه بإرادة السوء بالإسلام وبالهوى وبالشنع الأخرى، متلمسين في كتاب الله ورسالة نبيه البراهين على بطلان أمره وضلال رأيه، مزورين هذا في كتب وقراطيس مطبوعة محاولين إقناع المسلمين بها وخديعتهم بأمرها.

هذا من شر ما في المسلمين ومن أظهر ما فيهم من باطل، قامت عليه عيوبهم المشهودة المشهود أثرها في كل حال من حالاتهم.

وسيشهد القارئ لكتابنا هذا أسلوباً من هذه الأساليب الملتوية، وصراعاً عظيماً بين هذا الداء العتيد في الإنسانية الضالة وبين علاجه الحاسم، والله من وراء كل قصد وإليه المآب وعليه الحساب.

١٤ رمضان سنة ١٣٥٥هـ

المؤلف

لماذا ألّفت هذا الكتاب؟

في ربيع الأول سنة ١٣٥٥هجرية بعث إليّ الوجيه الحجازي المعروف محمد أفندي نصيف بكتابه «كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب»، وقد كتب حضرته على طرته العبارة الآتية: «إن مؤلف هذا الكتاب قد أتى بأشياء لم يأت بها أحد قبله من أعداء الدعوة الإسلامية»، فأرسلته لكم لإبداء رأيكم فيه، وللرد عليه.

فقلبت صفحات الكتاب مرة ومرة فرأيت فيه ما جعلني أتردد في الكتابة عنه، ثم بعث هذا الوجيه خطاباً إلى أحد الأعزة في مصر يطلب إليه فيه أن يطلب إليّ الرد على الكتاب، فصح عزمي وكتابة ما يأتي:

ليس عجيباً أن تسيء الشيعة إلى أهل نجد وغيرهم من أهل السنة، وتضيف إليهم من المعايب والشنع أفظعها وأكذبها، أو ترميهم بالفسوق والكفور وبالأمور الكبريات الأخرى، أو تجدّ في مناوأتهم وإيقاع الأذى بهم، أو تؤلف الكتب المملوءة بذاءة ووقاحة، ليس شيء من ذلك عجيباً من طائفة الشيعة، وقد أكفروا خيار البشر وقدحوا فيهم أمر القدح وأكذبه، فلسنا نطمع منهم في ولاء أو ثناء، وقد عادَوا أبا بكر وعمر والسيدة عائشة، وحفصة، وطلحة، والزبير وفضلاء المهاجرين والأنصار ومن تولاهم،

وآذوا الله عز شأنه فوصفوه بالبداء، ومعناه: أنه يفعل الأمر فيبدو له منه ما كان خافياً فيستأنف الحكم والعمل، ومعنى هذا وصفه بالجهالة.

وقد وصفه أشياخهم أيضاً بصفات النقص؛ كالحلول والجسمانية كما سوف ترى ذلك، وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فريق من أشياخهم: إن الرسالة كانت للإمام علي ولكن جبريل غلط فأداها إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وآذوا جبريل نفسه فوصفوه بالغلط في أشرف الأمور وهو أداء رسالة الله، فعدوه لذلك عدوهم المبين، وآذوا سائر المسلمين إذ لم يوافقوهم على عداوة صحابة رسول الله، وعلى الغلو في من يعدونهم أئمتهم المعصومين، فدعوا المسلمين لذلك «النواصب»، ويعنون بذلك أنهم أعداء بيت النبوة، فقدحوا في عقائدهم ودينهم وأئمتهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم.

ومن أقوال كتبهم عن أئمتهم: «خذ مال الناصبي وادفع الخمس»، وفارقوهم في الجمع والجماعات، وخالفوهم في شعائر الإسلام كالصلاة والحج والشعائر الأخرى، وتخلفوا عنهم في الجهاد، وناصبوا أمراءهم العداوة والبغضاء، وسعوا في تمكين أعدائهم منهم وأخذ نواصيهم.

وأعانوا أخصام الإسلام نقمة من أمراء النواصب وسلاطينهم ـ كما يزعمون ـ وقعدوا عنهم في كل أمر به نصرة الإسلام أو نصرة أوطان

المسلمين، وأتوا كل ما من شأنه إلقاء العداوة والفشل بين صفوف الإسلام، وكل ما من دأبه أن يبعث الأحقاد القديمة الكامنة، والحزازات الساكنة.

ولا يزالون يأتون ذلك في كل المناسبات وفي كل وقت تنحرك به نفوس المسلمين إلى نصرة الإسلام أو نصرة أوطانه، وقى الله دينه وعباده شرهم.

وقد كان أول أمر هذه الطائفة أن رجلاً يهودياً يقال له عبدالله بن سبأ في فجر الإسلام رأى سلطان الإسلام وقوته وعلوه على سائر الأديان وتهاوي عروش الباطل تحت عرشه الحق، فغاظه ذلك فأراد الكيد له والإيقاع الفظيع بأهله، وقد يكون عضواً قوياً لجمعية سرية هائلة أنشئت لهدم الإسلام، وليس ببعيد أن يكون من أعضاء هذه الجمعية أبو لؤلؤة الغلام المجوسي الذي قتل الخليفة عمر.

فإن طوائف من الشيعة يحبون هذا الغلام المجوسي ويرون أنه قد أسدى إليهم يداً إذ قتل عمر، فتظاهر هذا اليهودي بالإسلام وادعى الإيمان بالله وبرسوله، ولجأ إلى الزهد وإلى عون المظلومين في زعمه، فجهر بأن علياً مظلوم ظلمه أصحاب محمد النواصب حسداً منهم وطمعاً في الرئاسة والملك، فاغتصبوا الخلافة منه وهي حقه المعلوم، واستبدوا بالأمر دونه فهم الظالمون، وهو وآله المظلومون، وهم الخونة المستبدون، وهو وآله المستضعفون المغبونون، وطوبى لمن رجع الحق إلى أهله ومستحقيه، فدعا إلى الانتقام من

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوم علي، وإلى عون علي صاحب الأمر ووليه، ولم يقف أمر هذا اليهودي الخائن عند هذا الحد، بل غلا وأسرف في غلوه طمعاً منه في تفاقم الفتن والفشل والهرج والمرج فادعى في علي الألوهية وزعم أن فيه جانباً إلهياً، وربما زعم أن الله قد حل فيه كدعوى المسيحيين في المسيح، فأتت علياً دعواه فهمَّ بالانتقام منه، وأراد الإيقاع به، فهرب منه وظل يتنقل من بلد إلى بلد مدعياً دعواه المنكرة داعياً الناس إليها.

وليس أمثال هذا الرجل منا ببعيد، فكثير من الأوروبيين اليوم يدعون الإسلام، أو يدعون حب العرب ونصرتهم، ومرادهم الذي يضمرون وله يسعون، هو هدم الإسلام، وافتراس أهل الإسلام كيداً وغشاً.

فتطاير صدى دعوى هذا اليهودي إلى بعض الأذهان المريضة، ونادى قوم بألوهية علي وبأنه الله سبحانه وتعالى، فتنة يهودية محكمة، فاستتابهم الإمام علي فلم يتوبوا، فأضرم نيراناً عظيمة وقذفهم فيها فازدادوا بذلك ضلالاً وكفراً وقالوا: الآن علمنا بأنك أنت الله، إذ لا يعذب بالنار إلا رب النار! فأخاف عقاب علي قوماً منهم فكتموا كفرهم وضلالهم لا أبداً ولكن إلى حين، إلى أن تتهيأ لهم الفرصة ويأتي اليوم الذي به يستطيعون أن يقولوا كل ما يضمرون، والتقية والنفاق من أبرز صفات الشيعة وعقائدهم، وهؤلاء هم أهل الدهاء منهم والمكر السيئ.

وكانت هاتان الحادثتان أساس المذهب الشيعي والحجر الأول في بنائه، عليهما أقيم المذهب، وعنهما تفرعت حماقات الشيعة وعقائدهم الباطلة الأثيمة، ومن هذا الطريق أتى أهل الإلحاد المدعون التشيع والغلو في علي وأولاده، كالفاطميين والإسماعيليين والمختاريين».

فهرس الجزء الأول من كتاب: «الصراع بين الإسلام والوثنية»

تقريظ الجزء الأول من كتاب «الصراع»

ننشر في ما يلي هذه القصيدة البارعة التي قرظ بها الأستاذ الشيخ عبدالظاهر أبو السمح إمام المسجد الحرام، وخطيبه، ومدير دار الحديث بمكة المكرمة الجزء الأول من كتاب «الصراع»، قال رحمه الله:

ألا في الله مـا خـط اليـراع ... لنصر الدين واحتدم الصراع
«صراعٌ» لا يماثله صراع ... تميد به الأباطح والتلاع
صراع بين إسلام وكفر ... يقوم به القصيمي الشجاع
خبير بالبطولة عبقري ... له في العلم والبرهان باع
يقول الحق لا يخشى ملاماً ... وذلك عنده نعم المتاع
يريك «صراعه» أسداً هصوراً ... له في خصمه أمر مطاع
كأن بيانه سيل أتيّ ... تفيض به المسالك والبقاع
تسايره جنود الحق حتى ... لتخشاه الأساود والسباع
إلى صرعاه فانظر كيف أمسوا ... عليهم من مذلتهم رقاع
فبعضهمُ أسير أو قتيل ... وبعضهم يصيح ولا دفاع
أعبد الله مُنّ على الأسارى ... وأطعمهم هدىً فهمو جياع
أبنت عوارهم وصرعت منهم ... أكابرهم، ولم ينج الرعاع

لقــــد أحــــسنت في ردٍ علــــيهم وجئــــتهم بـــــما لا يــــستطاع
لقــد كنــا نعــد الــرفض جرمــاً فبــين كفــره هــذا «الــصراع»
كتــاب قــد حــوى علــماً غزيــراً لــه مــن نــور صــاحبه شــعاع
يــرد بــه عــلى الــضُلَّال طــراً ويــنقض مــا افــتروه ومــا أذاعــوا
ويــصلي الرافــضي بــه ســعيراً تلظــى، مالهــا عنــه انقطــاع
ويخــزي كــل ذي رفــض غــوي خلاصــة دينــه الــسوأى خــداع
يــسبون الــصحابة خــير صــحب وأزواج النبــــي ولم يراعــــوا
ومــن شــهد الرســول لهــم بفــوز بـــما ضــحوا بأنفــسهم وبــاعوا
ويحمــل قلــبهم بغــضاً شــنيعاً لخــير الخلــق لــيس لــه قنــاع
يقولــون: الأمــين حبــا بــوحي وخــان، ومــا لهــم عــن ذا ارتــداع
فهــل في الأرض كفــر بعــد هــذا وحرثهمــو لمــن يهــوى متــاع
فـــما للقـــوم ديـــن أو حيـــاء بحــسبهم مــن الخــزي «الــصراع»
ألا لله درك يـــــا ابـــــن «نجـــــد» كبــت الخــصم، فــانقطع النــزاع
وكــم لــك مــن مواقــف خالــدات بهـــا للحـــق عـــز وارتفـــاع
«بروقــك» في ســماء الحــق تعلــو وفيهـــا للـــذي عمّـــى اتـــضاع
«وفــصلك» مــا يــزال يــشع نــوراً وفي رأس العــدى منــه انــصداع
«ونقــدك» هــيكلاً أحــلى وأحــلى بــه للنــاس مــا مرضــوا انتفــاع

وكـــل ردودك الحـــسنى متـــاع تلـــذ لمـــن لـــه فيهـــا اســـتماع
ومنهـا مـا دحـرت بـه «شـيوخا» لهـــم في الـــدين جهـــل وابتـــداع
فجاهـــد في ســـبيل الله تـــؤجر مـــن الـــرحمن إن قـــوم أضـــاعوا
لقـــد رابطـــت في مـــصرٍ فـــأغنى لعمـري منـك عـن جـيشٍ دفـاع
وكـم سـيف لـدى الهيجـاء ينبـو ولا يجـــدي بهـــا إلا الـــيراع
وإن يراعـــك الـــسيال ســـيف إذا مـــا شـــمته انـــدكت قـــلاع
فـدم واسـلم لأهـل الحـق تقـضي عـــلى مـــن لـــيس عنـــدهم اتبـــاع

عبدالظاهر أبو السمح

أما في الجزء الثاني من كتاب: «الصراع..»

فقد قال القصيمي في مقدمته:

«لماذا سميت هذا الكتاب «الصراع»؟ الجواب: أنني سميته هذا الاسم لأني لم أجد المسلمين يحتاجون في هذا العصر إلى شيء احتياجهم إلى الصراع وإلى ما للصراع من آثار ونتائج، فما نكبوا في بلد من بلدانهم، ولا في حرمة من حرماتهم، ولا في مجد من أمجادهم، ولا في حق من حقوقهم، ولا في شيء من أشيائهم إلا بعد أن نسوا الصراع، وبعد أن ملوه وهجروه ومالوا إلى الدَعة والركود والهدوء الذليل الجبان.

وما بلغ المسلمون الأولون ما بلغوا، ولا نال الإسلام ما نال من ملك أذل كل ملك، وسلطان صرع كل سلطان، ومجد وطئ كل مجد إلا بالصراع، وإنهم ـ اليوم وبعد اليوم وفي كل وقت ـ لن ينالوا حقاً من حقوقهم، أو يستردوا كرامة من كراماتهم، أو يثأروا من عدو ظالم، أو يجدوا في هذا العالم الجياش بالمظالم إنصافاً إلا بالصراع وبالخصومة العنيفة الحادة الملتهبة.

الصراع ضروري لحياة الشعوب ولبقائها، وكل شعب فقد هذا الدواء فقد ـ ولا محالة ـ الحياة، وأكلته الشعوب، وطحنه تنازع البقاء، وذهب

أقساماً بين أشتات المطامع والأهواء، ولقي مثل ما لقي الشرق الوديع المسالم من الغرب الهائج المحارب.

لقد صار اليوم أغبى الأغبياء من يحاول أن ينال حقه باسم العدالة والرحمة أو باسم القوانين الخاصة أو العامة، أو باسم المدنية والإنسانية! وصار المغبون حقاً، المجنون حقاً ذلك الضعيف المهزول المسالم، الجاثي على ركبتيه الضعيفتين المهزولتين أمام ذلك الجبار القوي الظالم، يستجديه حقه، ويسأله إنصافه، ويطلب إليه بمدمعه، لا بمدفعه، أن يمسح الدم عن أظفاره الدامية، ويطهر فمه من لحوم الضعفاء الأبرياء، ويناديه باسم المدنية، وباسم الحقوق الإنسانية، وصار لا يوجد العدل إلا حيث يوجد الجور، ولا يوجد السلم إلا حيث توجد الحرب، ولا يوجد الحب إلا حيث توجد الكراهية والبغضاء، ولا يوجد القانون إلا حيث يوجد من يمزقه، ولا يوجد الإنسانية ولا التحدث عن حقوقها إلا حيث يوجد من يضربونها الضربات القاتلة.

وصار الأقوياء الباطشون لا يذكرون العدالة، ولا الحقوق، ولا القوانين، ولا المعاهدات، ولا الشرف، ولا سائر هاتيك الفضائل النارية إلا إذا تحدثوا إلى الأقوياء الباطشين الظالمين أمثالهم.

أما الضعيف العاجز عن الصراع، الهارب إلى الدعة والسلم، فماله عند هؤلاء الأقوياء الشرفاء إلا التمدين؛ ومعناه إفساد الأخلاق والأذواق

والعقائد، وإلا الاستعمار ومعناه؛ الجوع والجهل والذل والمرض وسائر ما للبؤس والشقاء من مظاهر ومعان، وإلا الانتداب ومعناه ما في فلسطين!

كان في الناس في الزمان الأول من يظنون أن القتال هو الذي يحدث القتل، وأن الشجاع المقاتل يقتل دون الجبان المسالم الراضي بالذلة، المقر للخسف في دينه ووطنه وشرفه، وكانوا يحسبون أن الجبناء أطول آجالاً من الشجعان فقالوا:

يقرب حبُّ الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

وقالوا أيضاً:

فيم الشماتة إعلاناً بأسد وغى ... أفناهم الصبرُ إذ أبقاكم الجزع

وكانوا يظنون أن من كره الموت ففر من وجهه ومن أسبابه نال الحياة الطويلة، لأنهم كانوا يظنون الأقوياء الظالمين لا يقاتلون إلا المقاتلين، ولا يحاربون إلا المقاومين، وكانوا يحسبون الإنسان يأنف من قتل المسالم المستسلم، ولهذا كله كان من يحرصون على الحياة يهرعون إلى السلم والاستسلام، وكان لا يقدم على الحرب والمقاومة إلا من رخصت لديهم الحياة وهان عليهم القتل، وعلى هذا كانت تكون الحرب، وكانت تكون السلم.

أما اليوم فقد تبين للناس كافة حتى للجبناء البلداء منهم أنه لا يُقتل إلا الجبان، ولا يقع في الحرب إلا الهارب إلى السلم، ولا ينال الشر إلا أهل الخير والدعة واللين والسلام، وأنه لا ينجو من الموت إلا المقاومون المصارعون، الموقدون الحرب بموقديها، الجازون الشر أضعافه، الطائرون إلى كل هيعة، وعلموا أنه لا أمل لطالب الحياة فيها إلا أن يكون أبداً رجل حرب وكفاح وصراع وإقدام، إذن ليقل للجبناء: إنكم بالجبن تقتلون أنفسكم، وبالهرب من الحرب تقعون فيها.

لقد سالم المسلمون وأخلصوا للسلم، وأحبوا فبالغوا في حبهم، وكرهوا الحروب وأخلصوا في كراهتهم حتى نفروا من كل حرب ومقاومة، وتخلوا من كل بغضاء وحقد وكره لهذا الغرب الحقود الظالم المحارب قروناً طويلة، وقد ظلوا يتقون الحروب ويتقون أسبابها حتى ذهبت بلادهم، وزال ملكهم، وتلاشت هيبتهم، ومنوا بكل ما هم فيه اليوم من هوان وذلة وفقر وجهل وعجز وخزي، حتى صاروا، وهم يعدون بأربعمائة مليون، لا يحسب لهم حساب، ولا يقام لإرادتهم ورأيهم وزن، ولا يذكرون حين تقتسم الأسلاب والمغانم ـ وليست الأسلاب ولا المغانم سواهم وسوى بلادهم وحقوقهم ـ.

وصارت أقل دولة وأذلها تأخذ منهم ما تريد، وتنال من بلادهم ما تشتهي دون أن تستأذنهم أو تسألهم أو يخطر لهم حساب على بالها، وكان من

أروع مظاهر هذا البلاء الذي أصاب المسلمين عامة أن استعمرت دويلة أوروبية ضئيلة، لا يزيد عددها على خمسة ملايين شعباً من المسلمين يبلغ تعداده ستين مليوناً، وهذه في الغرب وهؤلاء في الشرق.

وكان من أبلغ هذا الخزي الذي شمل المسلمين أن تُقدم هذه الدولة العجوز على فعلتها المنكرة في فلسطين، هذه الفعلة التي لم يسبق لها نظير في تاريخ الظالمين المتوحشين كلها، ثم لا تهتز جنبات العالم الإسلامي اهتزازاً ترتفع به أمم وتسقط به أخرى.

إن المسلمين لو لم يصابوا بهذا الفشل الذي لا مثيل له، ولو لم يملوا الصراع المقدس ما استطاعت بريطانيا أن تكشف سوءتها وحقارتها ومدنيتها الزائفة في فلسطين على منظر العالم الإسلامي العربي ومسمعه، وعلى رغمه، ثم لا يغضب غضبة يتحطم بها أكبر عرش مرصع بالجواهر المنهوبة من خزائن المسلمين ومن عروشهم المحطمة، الواحد تلو الآخر بدسائس هذه العجوز وطغيانها وكيدها.

هذا شعب عربي مسلم، في بلد عربي إسلامي، يقع في قلب البلدان العربية الإسلامية، تُغير عليه دولة أوروبية، فتحكمه وتتحكم فيه أخبث أنواع الحكم والتحكم باسم الانتداب الملعون، فتسلبه أولاً كل معاني السيادة

والعزة، ثم لا يكفيها هذا، بل تمتد يداها إلى مكان العقائد والإيمان والخلائق الفاضلة من أهله، فتحاول إفساده وتخبثه ليسهل عليها ما تريد.

ثم لا يكفيها هذا أيضاً بل تبسط يديها إلى القصور وإلى الأكواخ لتنزل فيهما الفقر والبؤس، ولتملأهما من معاني الشقاء والفاقة، وتبسطهما إلى الجيوب لتنتزع منها ما بقي فيها من مال قليل، فتبلغ أقصى ما تريد.

ثم لا يكفيها ـ ويلها ـ كل ذلك، بل تقوم تجر جيوشها وأساطيلها وطياراتها وسائر قواتها المزودة بأموال المسلمين وأموال العرب لتشرد هذا الشعب المنهوك بانتدابها ـ قاتله الله ـ من وطنه ووطن آبائه وأجداده، ووطن دينه منذ القرون القصية، وفيه مقدساته الدينية، وفيه رفات أسلافه الأكرمين الأولين، وفيه كم أراق دماءه وبذل مهجه لحمايته وصون حرماته من عدوان العادين، وفيه كم ساد وحكم وذاد عنه المغيرين... لتشرده من وطنه كي تهبه التائهين المشردين المنبوذين من اليهود الممقوتين في كل مكان وزمان، ليزرعوا فيه خبثهم وحقدهم وفسادهم الجبلي، ولينشروا فيه المعاني اليهودية المجرمة، وليكونوا الجرثومة الفتاكة القتالة في قلب الشعوب العربية الإسلامية، حتى يغلبها الفناء، وليكونوا في وطنهم ذاك الموهوم المزعوم مصدراً خصباً لشقاء المسلمين وشقاء العرب، ومصدراً لتهديد بلادهم بالمعاني الإسرائيلية الذميمة عن كثب.

فلما أن قام هذا الشعب العربي الباسل المنهوك بانتداب هذه الدولة العجوز قائلاً: لا، لن أخرج عن وطني ليكون وطناً لبني إسرائيل الأنذال، وإن رغمت بريطانيا القوية، وإن رغم كل ظالم على وجه الأرض، وقائلاً: إن وطناً قد حميته ودفعت عن سيادته وعن عروبته وإسلامه أربعة عشر قرناً من القرون القاسية العاصفة لا يمكن أن أتركه في عام واحد، ولا في عشرين عاماً، ولا في عشرين قرناً إن شاء الله.

ولو ساقت بريطانيا كل قواتها وأساطيلها وجيوشها وشياطينها لتحارب إرادة الله القوي، ولتقاوم مشيئته، فإن شعباً لا يعرف إلا الله لن يغلبه من لا يعرف الله، وإن من لا يعرف إلا الحق لن يذل لمن لا يعرف إلا الباطل، وإن شعباً تنميه آباؤه وجدوده إلى السلطان صلاح الدين، ثم ترتفع به إلى المعتصم وعبدالملك بن مروان، ومعاوية بن أبي سفيان، ثم تسمو به صعداً إلى الصديق وإلى الفاروق، وإلى خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وطارق بن زياد، وموسى بن نصير، ثم تسمو به أكثر حتى تصله بسيدنا وسيد العالمين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، ـ لن يقر هذا الظلم والخسف أبداً في وطنه ودينه، ولن يقبل هذا العقوق الفظيع لآبائه وسلفه ـ.

وإن شعباً دينه الإسلام، وقد ثل عروش القيصرية والكسروية، وأذل اليهود والنصرانية والمجوسية، وكل دين باطل أو محرف بحفنة من الأعراب

والعرب الأميين الذين لم يفارقوا الصحراء الجرداء إلا إلى الفتح والملك، وإلا إلى مدائن كسرى وخزائنه وإلى القصور البيضاء، والجنات الخضراء في الشام ومصر وفي الشرق والغرب ـ لن يترك وطنه الإسلامي العربي يتهود ويتنصر ويصبح كهفاً للمجرمين من اليهود المشردين المطرَدين بقوة الإنجليز وجبروتهم أو بقوة أوروبا كلها.

فلما أن قام هذا الشعب الباسل وقال قولته هذه، ورفعها على أطراف السنان بعد أن لم يجد رفعها على أطراف اللسان، لم يكن من هذه الدولة القوية الموصوفة ـ كذباً وخداعاً ـ بالعدالة والتمدن، إلا أن تسحب أصناف مكايدها ودسائسها وقواتها إلى هذا الشعب العربي الأبي، تفعل به ما لم يفعله شعب همجي منذ كانت الدنيا:

تأتي المدينة فتهدمها بأسرها وتنسف مبانيها التاريخية وغير التاريخية فتجعلها في ساعات أو لحظات خراباً كأن لم تمسها يد العمران منذ آلاف السنين، ثم تأتي المدينة الأخرى وتسوق جميع رجالها إلى السجن، وفي السجن من العذاب والقسوة ما لا يعرفه إلا زبانيته وإلا عرب فلسطين المساكين.

ثم تأتي المدينة الثالثة فتحشر جميع أهلها وتضع على أيديهم الأختام، سمة الإجرام، كأنهم بهائم توضع عليهم المياسم.

ثم تأتي المدينة الرابعة وتطلب إلى سكانها أن يخرجوا كل ما في جيوبهم

وأيديهم وبيوتهم من مال، وكل ما في أفواههم من خبز، وما على ظهورهم المحطمة من ثياب بالية ـ وما ترك الانتداب ومراباة اليهود من ذلك شيئاً باسم الغرامات، وهذه أخبث سرقة يحلها القانون الإنجليزي المتمدن، وهي سرقة لا تماثلها سرقات اللصوص العاديين، وهي سرقة بالقانون كما أن المنتدبين والمستعمرين قطاع طريق بالقانون السحري الفظيع.

ثم تأتي المدينة الخامسة، فتجمع كل من فيها، فتسدد إلى صدورهم ورؤوسهم المدافع والمسدسات، تفنناً في الإرهاب، ووحشية يقصر عنها ـ إن شاء الله ـ كل شعب شرقي، وإن بلغ ما بلغ من القسوة والإجرام.

ثم تأتي المدينة السادسة، فتروح تقتل وتنهب بلا حساب ولا قانون، ثم بعد ذلك كله تبعث وزارة المستعمرات في لندن إلى حاكمها بأمره في فلسطين تهبه السلطة المطلقة في أعمال النهب والتقتيل والتخريب واللصوصية المسماة بالغرامات... فيقتل العربي إذا وجد في منزله أو في أرضه رصاصة، أو حديدة، أو مدية، أو بندقية صيد.

هذا شعب عربي مسلم في بلد إسلامي عربي، يقع في قلب البلدان العربية الإسلامية، تُغير عليه هذه الدولة الأوروبية، فتفعل به هذه الفعلات السوداء في تاريخها وفي وجود العرب والمسلمين، ثم لا ينتطح فيها عنزان، ولا تُقَطّع رقاب، ولا تُفنى جيوش، ولا تُحطم عروش، بل ثم لا نجد كلاماً

فيه قوة، وفيه جد، وفيه صرامة ومرارة، وفيه حسرة ولوعة.

بل ثم تبقى العلاقات والصداقات والمعاهدات والمحالفات مع هذه الدولة كما هي، لا تصاب بالاختلال ولا بالانحلال ولا بالتخمة، بل نذهب نصافحها بإحدى يديها، ويدها الأخرى ممدودة جهاراً نهاراً إلى هذا القطر الإسلامي العربي لتسلخه من العروبة والإسلام، لتصيره يهودياً إنجليزياً، لتعاد نكبة الأندلس من جديد.

إنني أطلب إلى كل قارئ لهذه الكلمة أن يتذكر ما يأتي:

- فلسطين بلاد عربية وأهلها عرب، والإنجليز ليسوا عرباً.
- فلسطين بلاد إسلامية وأهلها مسلمون، والإنجليز مسيحيون أو ملحدون.
- فلسطين بلاد شرقية وأهلها شرقيون، والإنجليز غربيون أوروبيون.
- أهل فلسطين لا يريدون الإنجليز ولا يريدون تمدينهم، والإنجليز لا يخافونهم على بلادهم ومستعمراتهم.
- أهل فلسطين لهم أخلاق، وللإنجليز أخلاق أخرى تخالف أخلاق أهل فلسطين وأخلاق العرب عامة.
- أهل فلسطين لا يجدون في حكم الإنجليز إلا البؤس والفقر وكل ألوان الهوان، والإنجليز يعرفون هذه الحقيقة.

هذا كله صحيح، إذن ما المسوغ لتَحَكم الإنجليز في فلسطين وفي أهلها؟ وأي قانون بشرى عادل يحل هذا التحكم المقرون بهذه النكبات؟ وما الفرق بين هذا العمل المسمى بالانتداب وبين عمل اللصوص المهاجمين لبيوت الآمنين المسالمين، ليأخذوا ما فيها بقوة السلاح والإرهاب؟

نعم، إن بين العملين فرقاً، هو أن اللصوص لا يفعلون ذلك إلا تحت ضرورة الفاقة والحاجة، أما الإنجليز وغيرهم من المستعمرين والمنتدبين فإنهم يفعلون ذلك عن غنى وثروة طائلة

وفرقاً آخر، هو أن اللصوص لا يهاجمون غالباً إلا بيوت الأغنياء والأثرياء، أما الإنجليز فلا يهجمون إلا على الفقراء العاجزين، أما الأغنياء الأقوياء فإنهم لا يجرأون عليهم بل يساعدونهم على التهام الضعفاء.

وفرقاً آخر: هو أن اللصوص لا يقومون بعملهم إلا خفية وانسلالاً، أما الإنجليز فإنهم يفعلون ذلك في وضح النهار بكل تبجح وافتخار، على سمع العالم كله ومرآه فيها.

وفرقاً آخر: هو أن اللصوص لا يعتقدون إلا أنهم لصوص مذنبون، أما الإنجليز فإنهم يفعلون ذلك ويزعمون أنهم بفعلهم هذا يمدِّنون الشعوب المنحطة، وينشرون فيها العلوم والثقافات، ويهدون لها الخير والرحمة، وينزلون عليها المن والسلوى.

وفرقاً آخر: هو أن الإنجليز يفعلون ذلك بالقانون، أما اللصوص فلا يدعون أن لهم قانوناً.

وفرقاً آخر: هو أن اللصوص لا تمتد أيديهم إلى غير المال، أما هؤلاء فتمتد أيديهم الناعمة الصفراء إلى كل شيء، حتى إلى مكان الإيمان والاعتقاد لتحرقه وتمزقه.

لتخلُ أيها القارئ بنفسك ساعات أو لحظات، ولتتذكر فعل الإنجليز في فلسطين وفي غيرها من البلدان العربية الإسلامية، وفعل غير الإنجليز بالعرب والمسلمين في كل مكان، ولتتذكر موقفك من هذه النكبات الدينية الوطنية، ولتفرض نفسك مع جماعة من أصدقائك وأقربيك وبني دينك ولغتك في فلاة من الأرض، ففاجأهم اللصوص وقطاع الطريق، فأخذوا أموالهم وما يملكون، ثم أفسدوا أخلاقهم، ثم أعملوا أسلحتهم في رقابهم ومقاتلهم، وكان ذلك على مسمع ومشهد منك، وكان في استطاعتك أن تعمل شيئاً لإنقاذهم فلم تفعل شيئاً، بل ولم تقل شيئاً ولم تتعذب نفسك.

فما ترى موقفك هذا؟ ألا تود أن تبتلعك الأرض ولا تقف هذا الموقف الذليل الجبان؟ فهل ترى أيها القارئ فرقاً بين موقفي وموقفك وموقف جميع المسلمين من فلسطين وبين ذاك الموقف الجبان المخزي؟ ويزداد الموقف شناعة إذا كان اللصوص أقل عدداً من خصومهم أضعافاً مضاعفة، ثم يزداد

فظاعة وشناعة إذا ظلت علاقاتنا بهؤلاء اللصوص «المقدسين» علاقة العبد الذليل بسيده الجبار، بل أقل وأذل والله، لأن العبد قد يطغى على سيادة سيده، وقد يثور به وينازعه البقاء إذا أمعن في إذلاله وعذابه.

إن ألمانيا ـ وعددها ستون مليوناً ـ قامت في وجه العالم كله لتقاتله إذا لم يخضع لإرادتها من أجل ثلاثة ملايين من الألمان، محكومين بدولة أوربية مسيحية، متمتعين بأفضل ما تتمتع به «الأقليات».

وأخيراً انتصرت ألمانيا انتصاراً لا مثيل له، وانهزم أمام إرادتها شيوخ الاستعمار الجشع، واندركت فَرَقاً منها هيا كل الديمقراطيات القائمة على غير الحق، ونال الألمان ما أرادوا بالنحو المعلوم المخزي لفاعليه إلى الأبد.

وأنتم أيها المسلمون ـ وعددكم أربعمائة مليون [١] ـ وأنتم أيها العرب ـ وعددكم سبعون مليوناً ـ تقرون هذه المظالم التي لا تقرها البهائم في أنفسكم ودينكم وأوطانكم، ووالله لو كان عددكم هذا لألمانيا أو لغيرها من الدول الحية لحاربت العالم كله بأيديها عزلاء من كل سلاح إلا من هذا العدد الهائل، ثم لملكت ناصية النصر، ووالله لو لم تملوا الصراع «المقدس» لكان لكم ولهؤلاء شأن آخر، ولكن كرهتم الصراع فاجترأت على آسادكم وآجامكم ثعالب الأمم ومن لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم.

---

(١) هذا في زمان تأليف الكتاب، أما الآن فقد فاقوا المليار.

إنكم أيها المسلمون غالطون إذ تظنون أنكم تنجون من طغيان الغرب بالمسالمة والمجاملة والملاينة، ولكن كلا والله، لن تنجوا منهم إلا بالحرب والمخاشنة، فإن فلسطين لم تنج من الإنجليز واليهود بمسالمتها، وإن قطراً عربياً أو إسلامياً واحداً لم تنجه المسالمة والملاينة، بل لقد ذهبت البلدان العربية، والمالك الإسلامية ضحايا اللين والركون إلى الدعة والسلم رغبة في الحياة، ولكن السلم لا يُنال بالسلم، والحياة لا تدرك بالرغبة فيها، والحقوق لا تطلب بالنوم عنها.

ووالله لو أنكم وقفتم من إنجلترا موقفاً جريئاً حازماً، ورفعتم في وجه ظلمها عصاً لكان أجدى وأنفع من كل احتجاجاتكم وضراعاتكم الذليلة! ووالله لو علمتْ أنكم سوف تقابلون عدوانها بغير البكاء لوقفت هي منكم موقفكم اليوم منها: موقف المحتج المتوسل الضارع!

هذا مصطفى كمال[1]، قد زأر في وجه فرنسا زأرة واحدة، فتركت له لواء الأسكندرونة السوري العربي، صاغرة هاربة رغم كل شيء، وأين مصطفى كمال وقومه الأتراك من أحفاد الأكرمين: العرب؛ نجدة وشجاعة

---

(١) يعني: أتاتورك،وهو من ألد أعداء الإسلام والمسلمين، حوّل تركيا المسلمة إلى دولة علمانية، وأفسدها بالمنكرات والمخالفات. ينظر لبيان حقيقته: كتاب «الرجل الصنم»، وكتاب «عودة الحجاب» (١/ ٢٠٥-٢١٤).

وأخلاقاً وعدداً؟ ولكن مصطفى كمال زأر وأفهم فرنسا أنه يريد أن يهجم، وأما أنتم فبكيتم وأفهمتم إنجلترا أنك لا تريدون إلا أن تبكوا، وإلا أن يقال: إنكم قد أعذرتم بالبكاء.

ماذا ترون لو كنتم أنتم في مكان بريطانيا، وكانت بريطانيا في مكانكم؟ أعني لو كنتم تفعلون ببلدان إنجليزية وبأهلها مثل ما تفعله إنجلترا في فلسطين وأهلها من العدوان الصارخ: أتظنون إنجلترا تقبل ذلك منكم أو تنام عليه؟ أو تظنونها إن عجزت عن حربكم العسكرية تحجم عن أن تعلن الحرب عليكم من جهات أخرى؟ أتظنونها تبقى على صداقتكم وعلاقاتها السلمية بكم؟ لا تظنون شيئاً من ذلك أبداً.

إنكم لن تخلصوا من عدوان هؤلاء الأعداء إلا بالكره العميق، وبالبغضاء الحادة، وإنكم لن تعزوا حتى تكونوا جرآء على أن تقولوا لأعظم فيلسوف فيهم: إنه أحمق جاهل، ولأبرع حكمة يأتون بها: إنها سفاهة، ولأرقى مدينة يشيدونها: إنها همجية، وحتى تقولوا للذهب الذي يمطرونكم به من السماء: إنه طوب، إنه حجارة قاتلة، إنه قنابل...

الغربيون لا يضمرون لكم إلا البغض والحقد والاحتقار، فمن الجهل أن تقابلوا هذه النفسيات بالحب والإخلاص والامتداح والتعظيم..

الأوروبيون مجردون من القلوب ومن العواطف الإنسانية، وهم إن لم يعدلوا خوفاً وقسراً، فلن يعدلوا رحمة وإنسانيةً...

لقد أخلصتم لهم وأحسنتم بهم الظن، وبعدوانهم وطغيانهم حتى خضتم الحروب انتصاراً لهم، فماذا لقيتم عندهم وماذا كانت النتيجة؟ لقد ذهبت بلادكم وكاد يذهب دينكم وأخلاقكم، ثم هاهم الآن يحاولون إفناءكم، وإنهم لن يتأخروا عن ذلك إن استطاعوا... يجب عليكم أن تقابلوا الداء بالداء، والشر بالشر، والحقد بالحقد، والبغضاء بمثلها... يجب أن تقولوا لهم:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنا لا نحبكمو ... ولا نلومكمو أن لا تحبونا
كلٌ له نية في بغض صاحبه ... في ذمة الله نقليكم وتقلونا

إن كل إنسان فينا يحتاج إلى أن يكون شديد الكفاح، شديد المقاومة، فالصانع عندنا يحتاج إلى الكفاح، ليتماسك إزاء صُناع أوروبا وأمريكا واليهود.

والتاجر يحتاج إلى الكفاح لينجو من تجار هؤلاء الغزاة المنافسين، وسائر أصناف العمال يحتاجون إلى هذا الكفاح، لئلا تقضي عليهم منافسة هؤلاء الأعداء المهرة.

والعالم الديني يحتاج إلى هذا السلاح، لئلا تطغى أفكار هؤلاء القوم وعقائدهم على عقيدته وعقله، فيذهب يحرف دينه وينسل منه انسلالاً خدعة وضلة.

والعالم المدني يحتاج إلى هذا السلاح، لئلا يغلبوه ويصرعوه وينسوه آباءه وسلفه، وما جاءوا به من علوم ومعارف، فيذهب يضيفها إلى هؤلاء الكذبة إن قبلوها واعتقدوها صحيحة، ويذهب يردها ويسخر منها إن لم يقبلوها جهلاً أو حسداً وكراهةً للعرب والمسلمين، وللشرق والشرقيين.

والغني الثري يحتاج إلى هذا الصراع لينافس هؤلاء الذين قبضوا على زمام الثروات وأمسكوا بناصية الأسواق كلها؛ بشركاتهم ومصانعهم ومعاملهم ومضارباتهم ومقامراتهم.

والزعيم عندنا يحتاج أيضاً إلى هذا الصراع لئلا تذوب زعامته في زعامات هؤلاء الأعداء المكرَة، ولئلا يكون لهم تابعاً، وعلى أهوائهم ومشوراتهم الماكرة سائراً دائباً، ولئلا يقود أمته وقومه بزعامته الرخوة الذائبة إلى الهاوية، والهاوية هنا ليست سوى الركون إلى الغرب الظالم، فإن الغربيين لا يمكن أن يخلصوا لنا معشر المسلمين، وإن أخلصوا للشياطين، بل هم أبداً يرون الإسلام والمسلم العدوين الواجب حربهما ما أمكنت الحرب.

والصحفي والكاتب والمؤلف يحتاجون إلى هذه المقاومة، لئلا يفنوا في رجال صحافة أوروبا ومؤلفيها وكتابها، وكل مخلوق عندنا يحتاج إلى هذا السلاح.

ولو أننا لم نمل هذا النوع من الجهاد «المقدس» لما تقدم فينا أهل النفاق والخيانة والمروق والفسوق، وتأخر أهل الصلاح والاستقامة والإيمان والإخلاص والكفاية، ولما أمكن أن يكون كل شيء لدينا في أيدي هؤلاء الأعداء من اليهود والأوروبيين الخصوم غير الشرفاء، ولما كان كل شيء سائراً طبق أهوائهم ومصالحهم، ولما كانت مظاهر البلدان الإسلامية مظاهر إفرنجية أوروبية خالصة: تنظر إلى الشركات القوية الرابحة فتجدها في أيدي هؤلاء الدخلاء، وتنظر إلى المصانع والمعامل النشيطة النافقة فلا تحتاج إلى أن تسأل: لمن هذه، إذ هي للقوم بلا شك، وتنظر إلى المتاجر الكبرى المزدحم عليها فلا تشك في أنها ملك لهم، وتنظر إلى الأحياء الحية المحاطة بمظاهر النعيم والغني والترف، فتجدها خاصة بهؤلاء الضيوف، وتسمع بأصحاب الثروات الطائلة فلا تتردد في أنهم منهم.

وتنظر وتسمع كل شيء فلا تجد إلا ما يسوؤك ويدمي شعورك إذا كنت من أولئك المتألمين الشاعرين، والذي يؤلم حقاً أن الذين يُنَمون هؤلاء المستعمرين وينمون ثرواتهم هم المسلمون والعرب، ثم لا ينالون منهم إلا

الاحتقار والازدراء والاحتكار الذي مثيل له، حتى إن أصحاب المصانع والأعمال منهم يستعملون ـ إذا سمحوا ـ المسلمين الوطنيين العمال بما لا يشبعهم خبزاً حافاً، ولهم ذلك أن يسبوهم ويسبوا دينهم ووطنهم وزعماءهم ونبيهم، وعلى العمال المسلمين أن يشكروهم على ذلك وأن يتقبلوه بالرضا والتسليم، وإلا فالويل لهم ولوطنهم معهم! واعجباً من جريح لا يتألم من جراحته! ويا ويلتاه لذليل لا يشعر بذلته، ولمظلوم يتعبد ظالمه!

إن الأمر أيها الإخوان جد الجد، إنه الحياة أو الموت، وإن الخطاب إلى البقايا التي لما يقتلها هؤلاء الأعداء، لعلهم يمدون أيدي الإنقاذ والانتشال، أو لعلهم يهربون، على الأقل، بأنفسهم من هذه الأشراك القاتلة! أما هؤلاء الذين وقعوا في أيدي هؤلاء الضيوف الظالمين لمضيفهيم السنين والأعوام، فهم على بساط الموت، قد فقدوا كل حول وقوة، فلا يستطيعون شيئاً من الخير لأنفسهم، وإنما هم في انتظار الطبيب الرحيم الماهر المنقذ!

فهل يوجد فيكم أيها الإخوان ذلكم الطبيب؟ وإذا لم يكن موجوداً أفلا تعملون لإيجاده؟

انظروا أيها الإخوان إلى حقائق الأشياء نظرات تتجاوز المظاهر لتشعروا أن الهاوية في الانتظار، وأنكم إن لم تستيقظوا فالويل للنائم تحت

سياط الأعداء الذين لا يرحمون! أليس من البلاء أيها الإخوان أن يستولي هؤلاء على كل شيء في بلاد المسلمين حتى على الماء وعلى النور، وعلى النار، حتى إن الوطني المتحمس لوطنيته لو أراد الاستغناء عما ليس وطنياً، وأراد أن يعيش وطنياً في ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه وضروريات حياته ما أمكنه ذلك!

أوليس من المؤلم حقاً ألا يوجد في بلاد المسلمين أجنبي واحد فقير أو عاطل، وأن يكون المسلمون كلهم في بلادهم فقراء بؤساء، لا يظفرون بالكفاف من العيش المر إذا استثنينا الموظفين والوارثين وأمثالهم، والقليل النزر من غيرهم، على أن هؤلاء أنفسهم منطلقون إلى الفاقة العامة بخطوات واسعة، ومنطلق ما معهم إلى جيوب هؤلاء الأجانب بسرعة مدهشة وبطريقة تترك المحب لدينه ووطنه وقومه حيران مكبوتاً، حتى صار المسلمون كلهم كما قيل:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا   لكن يمر عليها وهو منطلق

اذهب إلى المتاجر والشركات والمصالح الأجنبية، وانظر كيف يتدفق عليها الوطنيون المسلمون، وكيف ينثرون بقايا ما معهم من مال قليل على موائد هؤلاء الأجانب بجود لا نظير له، ثم عرّج على المتاجر والمصالح الوطنية المسلمة إن كان شيء من ذلك، وانظر كيف يخيم عليها الفقر

والكساد والبؤس، وانظر كيف يهرب منها الوطنيون المسلمون، وكيف يضنون عليها بالمعاملة، ثم لك بعد ذلك أن تتألم ما وسعك الألم، وأن تحزن ما شاء لك الحزن، وأن تخشى كما خشي الأكثرون البصراء أن تصبح البلاد الإسلامية ـ المستقلة وغير المستقلة ـ خالصة لهؤلاء الضيوف بكل مرافقها ومواردها، وأن ينقرض المسلمون تحت عوامل الفاقة وما يلزم الفاقة من الأمراض والتشريد والشقاء العام القاتل.

ومن الحكايات المؤلمة أنني كنت يوماً أحادث أحد الأصدقاء فقال ذاك الصديق على سبيل الدعابة المرة: إننا معشر المسلمين الوطنيين نطلب الاستقلال لبلادنا مع أن الجاليات الأجنبية أولى منا بهذا الطلب في بلادنا نفسها؛ لكثرة مصالحهم ولاستيلائهم على كل شيء فيها!! وما أصدق هذا القول! وما أشد وقعه على ذوي الدين والوطنية، وعلى ذوي النفوس اليقظة الشاعرة.

إذن ما أحوجنا إلى الصراع! وما أحوج صراعنا إلى القوة والشدة! وما أحوجنا إلى أن نكون من الحديد والفولاذ، لا من اللحم والدم والعظام!

اللهم أيقظ قومي فإنهم نائمون!!

شعبان سنة ١٣٥٧هـ.

عبدالله علي القصيمي ـ القاهرة

فهرس الجزء الثاني

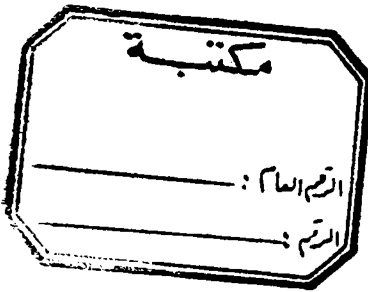
من كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية»

العنوان الصفحة

الصراع بين الإسلام والوثنية

تأليــــف

عبدالله علي القصيمي



الجــزء الأول

« نداء ورجاء ونصيحة الى
خمينى ايران واتبــاعه
ليقـراوا هـذا الـكتاب
بـكل الصدق والحمـاس
والاخـلاص والايمـان
والتقـوى »

الطبعـة الثـانية

القـــاهرة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

صورة غلاف كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية»

الردود

على عبدالله القصيمي

الرد الأول:

الرد القويم

على ملحد القصيم

للشيخ

عبدالله بن علي بن يابس

- رحمه الله -

ترجمة الشيخ عبدالله بن علي بن يابس[1]

هو الشيخ عبدالله بن علي بن محمد من آل يابس، وآل يابس بن يحيى أسرة من آل صالح، وصالح هذا هو ابن فياض بن عطوي بن زيد، وزيد هذا هو أبو القبيلة كلها، وهي قبيلة ـ على ما اشتهر ـ قضاعية قحطانية.

إذًا آل يابس عشيرة من الفخذ المشهور في بني زيد، وهم آل صالح، وبنو زيد أصل بلدهم شقراء عاصمة بلدان الوشم، ولكنهم متفرقون في عدة بلدان من بلاد نجد منهم في الدوادمي، وفي الشعراء، وفي العرض التي قاعدتها (القويعية).

وكانت أسرة المترجم تقيم في القويعية، فولد المترجَم فيها عام ١٣١٣هـ، ونشأ فيها وقرأ في كُتَّابها، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، ثم رحل إلى الرياض فقرأ على علمائه، وأشهر مشايخه فيها هم:

١) الشيخ عبدالله بن عبداللطيف.

(١) عن «علماء نجد خلال ثمانية قرون» للشيخ عبدالله البسام ـ رحمه الله ـ(٤/ ٣٣٥-٣٣٧)، وللزيادة عن ترجمته ينظر كتاب «من أعلام الإسلام: الشيخ عبدالله بن علي بن يابس» تأليف: عبدالله بن محمد اليابس.

٢) الشيخ سعد بن عتيق.

٣) الشيخ عبدالله بن محمود.

٤) الشيخ حمد بن فارس .. وغيرهم.

فأدرك في العلوم الشرعية والعلوم العربية، وتمكنت عقيدة السلف في قلبه، وأشرب حبها في لحمه ودمه، ونفعه ذلك حينما سافر إلى مصر، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقد اجتمع كل من المترجَم، والشيخ عبدالعزيز بن راشد، وعبدالله بن علي القصيمي، وعقدوا العزم على السفر إلى الهند لأخذ الحديث وعلومه عن علمائه، فمروا بالأحساء، فأقاموا فيه للقراءة على قاضيه الشيخ عبدالعزيز بن بشر.

وبعد فترة غير قليلة توجهوا إلى بغداد في طريقهم إلى الهند، فأقاموا فيه للأخذ عن علمائه، وأشهرهم السيد شكري الآلوسي.

ولأمور سياسية عدلوا عن الهند، وتوجهوا ثلاثتهم إلى مصر، فالتحق الثلاثة بالأزهر، فأخذوا عن علمائه واستفادوا منهم فائدة كبرى، فكان الثلاثة من كبار العلماء، ولم تتأثر عقيدتهم السلفية بشيء، بل ظلوا على تمسكهم بعقيدة السلف الصالح، يوالونها ويدعون إليها ويدافعون عنها، وهذا لم يردهم عن الاستفادة مما عند الأزهريين من علم التفسير والحديث

وأصولهما، ومن توسعٍ في علوم اللغة العربية، وكان من أشدهم مدافعة ومهاجمة، وردوداً على المنحرفين والمبتدعين، ولا سيما الشيعة، عبدالله بن علي القصيمي؛ صاحب القلم السيال، والحجة القوية، واللسان الذرب، فكبتهم بكتاباته العظيمة، وبرسائله: «البروق النجدية» وغيرها، إلا أنه انحرف ـ والعياذ بالله ـ بعد ذلك، وصار من أكبر الملاحدة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب.

والقصد أن المترجَم استقر في مصر، وكانت إقامته في الإسكندرية، وكان هو أيضاً يدافع عن عقيدة السلف، فقد ردَّ على الشيخ محمود شلتوت [1].

ولما انحرف زميله القصيمي وصنف كتابه «هذي هي الأغلال» ردَّ عليه المترجَم بكتاب سماه «الرد القويم على ملحد القصيم».

وله غير ذلك من الكتب المفيدة النافعة.

والحقيقة أن الله تعالى نفع به وبزميله عبدالعزيز بن راشد في الإسكندرية في بث عقيدة السلف.

وانقطعت صلة المترجَم عن بلاده نجد مدة طويلة، وفي آخر حياته صار يزور المملكة، وفي زيارته الأخيرة أدركه المرض الذي أقعده حتى توفي في الرياض، وذلك عام ١٣٨٩هـ. رحمه الله تعالى.

---

(١) بكتابه القيِّم: «إعلام الأنام بمخالفة شيخ الأزهر شلتوت للإسلام».

قال الأستاذ عبدالله بن محمد اليابس في ترجمته للشيخ ابن يابس ـ رحمه الله ـ : « خلافه مع عبدالله الصعيدي: في مقابلة سابقة مع الشيخ أحمد بن علي بن عبداللطيف المبارك السفير السابق بصحبة الشيخ عبدالعزيز بن محمد السدحان، أوضح أن خلاف الشيخ عبدالله بن علي اليابس مع زميله عبدالله الصعيدي يتلخص فيما يلي:

حينما وصل الشيخ عبدالله بن علي اليابس إلى القاهرة في أول عام ١٣٤٥هـ، سكن مع زميله عبدالله الصعيدي ـ المعروف (بعبد الله القصيمي) ـ في غرفة واحدة في رواق الحرمين، فكان نعم الصديق والزميل، ولم يلاحظ عليه شيء في العقيدة، بل كان جريئاً في الدفاع عنها جرأة نادرة، بل كان يشتبك مع بعض علماء الأزهر حول هذا الموضوع، ثم حمله العراك في المحاورات والمداورات، إلى أن ألّف كتاباً سماه «البروق النجدية»، وكتاب «شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام»، وكتاب «الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم»، وكتاب «الثورة الوهابية».

كل هذه الكتب طبعها الشيخ فوزان السابق السفير السعودي في القاهرة على حسابه الخاص، ونشرتها جمعية أنصار السنة المحمدية، ثم بدأ

يفكر في مقاومة بعض الطوائف الذي بهره وأزعجه كثيراً ما يرى من انتشارهم وأنهم اتخذوا التقيّة سلاحاً لإخفاء مقاصدهم.

وبناءاً على هذه التقيّة التي كانوا ينهجونها كان أمرهم يخفى على الناس، فكان كثير من الناس ينساقون وراءهم، فإذا تورطوا ووقعوا، وغالباً ما يقع إلا من كان على جهل، وهذا مكمن الخطورة، فأحب أن يبين حقيقتهم، فألّف كتابه «الصراع بين الوثنية والإسلام»[1]، وفي أثناء ما هو يكتب الجزء الأول والثاني، أخذ يقرأ بعض كتب (غوستاف لوبون)، وهو رجل فرنسي من رجال الثورة الفرنسية، وهذا الرجل معروف عند عداوته للإسلام منذ رضع من لبن أمه، وعند قراءة عبدالله الصعيدي لهذه الكتب تأثر بها وجعله يتجه هذا الاتجاه، وأكثر ما وجد عليه المسلمون من خذلان وذلّة، هو تحكم الغربيين فيهم، فكتب مقدمة ليجعلها مقدمة لكتابه الصراع وهي: «كيف ذل المسلمون»، ولكن حصل عنده بعض الشطحات في هذا الكتيب الصغير الذي هو «كيف ذل المسلمون»، فرد عليه الشيخ حامد الفقي، وكذلك بعض

(١) سبق الحديث عن هذا الكتاب؛ وأن سبب تأليفه أن الشيخ نصيف حثه على الرد على كتاب الرافضي محسن الأمين «كشف الارتياب عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب» التي تهجم عليها، وعلى دعاتها وحماتها ـ بعد الله ـ: الدولة السعودية وملوكها، فامتثل القصيمي لطلب نصيف ـ رحمه الله ـ.

الإخوان نبهوه ظناً منهم أن الرجل قريب العودة إليهم، ولكن الرجل لم يكن قريب العودة إليهم، فعمد إلى تأليف كتاب آخر وترك موضوعه الأول.

ثم ألّف كتاب «هذي هي الأغلال»، فكان أشد وطأة على المسلمين، فأخذ يتكلم بكلام مؤلم، ولكنه لم يتضح اتضاحاً كافياً بالنسبة لمقاصده، اللهم إلا الفصل الأخير الذي تحت عنوان «المشكلة التي لم تُحل» فهذه هي أخطر ما كتبه، ثم بعد ذلك بدأ العلماء يردون عليه، منهم الشيخ إبراهيم السويح، والشيخ حامد الفقي، والشيخ عبدالرزاق حمزة الإمام في الحرم المكي الشريف، والشيخ الدكتور محمد الغمراوي الذي رد على الدكتور طه حسين[1]، وخلق كثير، كذلك رد عليه الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، وغيره من العلماء السعوديين، وممن كان يعرفه ويقرأ مؤلفاته القديمة والحديثة، ولكن سبحان الله كان يزداد عتواً ونفوراً، بعد ذلك تكلم عدد من المشائخ عند الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالى ـ فقالوا له: إن هذا الرجل كتب كذا وكذا، فقال لهم الملك عبدالعزيز: أحسن شيء نكتب له ونقول له رد على نفسك، إن كان قريباً من الخير فالله يزيده، وإن كان

(١) في مقدمته لكتاب الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة «الشواهد والنصوص ..» ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ.

يعصي الله على بصيرة فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

فكتبوا له هذا الكتاب، والكلام الآن للشيخ أحمد المبارك، حيث ذكر أنني كنت في السفارة السعودية حينما ورد خطاب الملك عبدالعزيز لعبدالله الصعيدي وسُلِّمَ له، فسألته بيني وبينه: ما هو هذا الكتاب الذي جاء إليك؟ فقال: يا شيخ، هذا كتاب من الملك عبدالعزيز، فقلت: أرني هذا الخطاب، فقرأته، فإذا هو: «من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل» إلى عبدالله بن علي الصعيدي، وبعد: بلغنا أنكم ألّفتم كتاباً مخالفاً للشرع، ونحن نأمل العودة إلى الحق، ثم أخذ مني الكتاب فوضعه في جيبه، ثم بعد ذلك ألّف كتباً أخرى زاد فيها عتواً ونفوراً، نعوذ بالله من ذلك.

لماذا تحوّل اسمه من الصعيدي إلى القصيمي؟ ذكر الشيخ أحمد المبارك ساكن الأحساء حالياً في مقابلة معه بصحبة الشيخ عبدالعزيز بن محمد السدحان حول موضوع تسمية عبدالله الصعيدي بعبدالله القصيمي أن هناك أمراً يجهله كثير من الناس، حيث إنَّ هذا الرجل ليس قصيمياً كما يدعي، بل هو صعيدي من أهل مصر، ومن بقايا حملة إبراهيم باشا على نجد عام ١٢٣٣هـ، كما أن اسم عائلته «عائلة الصعيدي» وما زالت، إنما كيف دخلت عليه كلمة القصيمي، عندما كان يدرس على الشيخ عبدالعزيز البشر في الأحساء، وكان قبل ذلك درس عليه في الرياض، هو وزميله الشيخ عبدالله

بن علي بن يابس، والشيخ عبدالعزيز الراشد، فنصحهم بأن يأتوا إليه في الأحساء عندما نقل إليها عام ١٣٣٨هـ، وفي أثناء وجودهم في الأحساء سمعوا أخباراً بأن هناك مدرسة في الهند اسمها على ما أعتقد «الرحمانية»، وهي طبعاً سلفية، وأنه يصرف عليها بسخاء وأن الطلاب فيها بخير، فتاقت أنفسهم أن يذهبوا إليها جميعاً، وبذلك كلموا الشيخ عبدالعزيز البشر عن هذه الرحلة، فقال لهم: إنَّ التقرب في طلب العلم حسن ولا بأس من سفركم إلى هناك، وكان كل منهم ليس لديه جواز سفر، فكتب الشيخ عبدالعزيز البشر للأمير عبدالله بن جلوي ـ وهذه المعلومة لن تجدوها عند غيري أبداً ـ[1]، وعلى ذلك كتب الأمير عبدالله ابن جلوي لإدارة الجوازات بأن يعطوه جواز سفر، وعند حضوره مكتب الجوازات سألوه: من أنت؟ فقال: أنا عبدالله بن علي القصيمي، وترك الصعيدي لأنه خشي حينما يقول أنه صعيدي يطلبون منه ما يثبت بأنه سعودي، فيشتبهون معه، فتطول المسألة، وقد لا يتحقق له السفر، وذلك بأن يردون على الأمير عبدالله بن جلوي، والأمير بدوره يكتب للشيخ عبدالعزيز بن بشر وتطول المسألة، فحسم الأمر ما دام أن أمّه من أهل القصيم، وما دام أنه ولد في القصيم، فإذاً

---

(١) من كلام الشيخ أحمد المبارك.

ليس هناك فرق في أنه قصيمي، فهذه طبعاً قصة تسميته القصيمي، أحببت أن أبيّنها في هذه المقابلة إحقاقاً للحق.

مبدأ الخلاف: أما موضوع بداية اختلاف الشيخ عبدالله اليابس مع عبدالله الصعيدي، فقد سمع عنه بعض المعلومات حينما ألّف بعض كتبه المشتبه بها، وتريث في الرد عليه، وكان يأمل أن يعود إلى صوابه، إلا أنه بعد أن ألّف كتابه «هذي هي الأغلال»، وهذا الكتاب فيه إلحاد وانحراف عن الصواب ـ نعوذ بالله من ذلك ـ، فعند ذلك جاءه أحد الإخوان وقال له بأن زميلك عبدالله القصيمي أصدر كتاباً هذا مضمونه، فاستغرب ذلك منه وقال له: هل بإمكانك أن تعطيني نسخة منه، فجاءه بنسخة من كتابه هذي هي الأغلال، فتوكل على الله ورد عليه بكتابه الذي أسماه «الرد القويم على ملحد القصيم»[1]، وكان القصيمي في كتابه السابق يمدح البلشفية ويعظم شأنها، ويمدح الملاحدة من الأولين والآخرين، وقد وضع في هذا الكتاب قصيدة ركيكة هجا فيها الملك ابن سعود والشيخ فوزان السابق تعريضاً لا تصريحاً باسميهما، وفي هذه القصيدة يقول:

ولو أن ما عندي من العلم والفضل ... يُقَسم في الآفاق أغنى عن الرسل

---

(١) والكتاب طبع عام ١٣٦٦هـ.

ثم استشرى في مجالسه بالطعن على الله وعلى دينه، وللأستاذ قطب الفضل الأكبر في فضح الرجل وبيان انحرافه [(١)]، وقد نشر في مجلة «الحديث السوري»، كما كان للعلماء السابقين فضل في فضح هذا الملحد.

وإن كان الأستاذ حسين أفندي يوسف قد سبق الجميع في مهاجمته وكشف عواره في مجلته «النذير»، ثم جاء دور زميله وصديقه السابق الشيخ عبدالله بن علي اليابس الذي يعرف خباياه وما وراءها، فانبرى بالرد عليه بقلمه السيال ولسانه الذرب وحاربه حرباً شعواء لا هوادة، وقد اعترف عبدالله الصعيدي بأن رد الشيخ اليابس هو أعنف ردٍ عليه لأنه أعرف بخباياه ومقاصده، وكان الرد عليه بكتابه «الرد القويم على ملحد القصيم»، كما رد عليه بعدد من الأشعار؛ منها هذه القصيدة التي مطلعها:

لـــردّي أيهـــا الغـــر الأبـــاحي ... على الأغلال أنكـى في الكفـاحي
وأسمـى في نـضال الخـصم ممـا ... تُـصوره مُرَوجـة الـسفاحي
أتـى مـا فيـه مـن كفـر وزور ... فهـدم صـرحه فـوق البطـاحي

إلى أن قال:

فـذاك الكفـر يـدفع ممتطيـه ... إلى درك الـسفالة ذو جمـاحي

(١) ستأتي ردوده عليه ـ إن شاء الله ـ.

وهـــذا حكـــم ربـــك قـــد قـــضاه ... على من خـالفوا نهـج النجـاحي

وهذه قصيدة أخرى بعنوان «امدح يهودك»:

رأى الـــصعيدي صـــهيوناً تقدمـــه ... في الخبث والكفر والإفساد فاندفعا
يـــروم نـــصرته بالمـــدح مخرقـــة ... فضلّ سعياً فما أجـدى ومـا نفعـا
امـدح يهـودك وارقـب عـز دولـتهم ... يعطوك من عزهم إن شـفته شـيعا

إلى أن قال:

أيا أيها العُرب سـيروا في طريقكمـوا ... ولا تخافوا من الأحزاب مـا جمعـا
فمرسـل الـريح والأمـلاك أيّـدكم ... بنصره وسيلقى النصر مـن سمعـا

وقال قصيدة أخرى بعنوان «الشيطان الخارب»:

من عذيري من القصيمي الـصعيدي ... ثالـب الـدين طـاعن التوحيـد
مـــادح الكفـــر في جميـــع قـــواه ... ناصـر للفـسوق خـدن الجحـود
أمـم الكفـر قـد سـقوك زعافـاً ... حقنـة الـشرج حقنـة في الوريـد

إلى أن قال:

خـــائن الـــدين والـــبلاد ينـــادي ... بـاحتلال الـصليب أرض النجـود
إن للـــدين والـــبلاد رجـــالاً ... لا يقيلـــون زلـــة المنكـــود
لـيس تنجيـك أمّـة الكفـر منـا ... أن تخليـك دولـة ابـن الـسعود

وكان كتاب الشيخ عبدالله اليابس «الرد القويم» أعظم رد وأصـدق بيـان لافتراءاته على الله وعلى الصحابة وعلى جميع المسلمين، فكتاب الـصعيدي «هـذي

هي الأغلال» نجده يمدح اليهود ويدافع عنهم، ويحرّف آيات القرآن النازلة في ذمهم والمخبرة بهوانهم، ويفضل آيات التوراة المكذوبة على لباب الإسلام، كما أنه يمدح الأوربيين والمستعمرين لبلاد الإسلام، ويدعو إلى تعظيمهم وإدخالهم في البلاد الإسلامية، ووجوب الإبقاء عليهم.

وقد رفع هذه الرايات ورأى أنها خفيفة المحمل عليه، وتعهد للجميع برفع راياتهم مدافعاً عنها ومخلصاً لها، وكان يجادل في البديهيات الدينية؛ حتى اشتهر بكثرة جدله في الأمور الضرورية، وحتى كان يجادل بعض جلساءه في وجود نفسه وكان يقول ويصرح بأنه تعتريه الشكوك إذا جنّ الليل فيسخن جسمه ويطير النوم من أجفانه.

وكان يجادل في الله، وفي النبي ﷺ، ومنذ مدة طويلة وهو يجادل في الله، وفي أسمائه، وصفاته، وفي الأحاديث جدال المتعنت، حتى ألّف كتابه «البروق» الذي ملأ نفسه زهواً وكبراً، وهو عبارة عن مجموعة من ألفاظ الشتائم والهزء والسخرية وبعض المعلومات المسلوخة من كتاب «التوسل والوسيلة لابن تيمية» ـ رحمه الله تعالى ـ، وقد صدّره بقصيدة ركيكة يمدح بها نفسه ويطريها، ولما اطلع على هذا الكتاب الشيخ (عبدالعزيز بن بشر) ـ رحمه الله تعالى ـ أدرك بنور بصيرته وعلمه أن صاحبه منحرف عن الإسلام، وقد تنبأ بذلك حينما كان يقرأ عليه في

مدينة الأحساء لما رأى من كثرة جدله واعتراضاته السابقة، وعلى ذلك أرسل خطابات في هذا الشأن للشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية السعودية إذ ذاك.

أما موقف الشيخ عبدالعزيز الراشد من بلد المفيجر من عبدالله الصعيدي، فإنه لم يرض عن تأليفه لهذا الكتاب، فقد جادله ونصحه ووبخه وأخبره أن هذا كفر وناقشه، وأنه بهذا ينشر لنفسه سمعة خبيثة، وكان يجادل في أن العلم شر وأن الجهل خير، واتهم أصحاب العمائم مشائخ الأزهر بما ليس فيهم.

كذلك حينما ألّف عبدالله الصعيدي كتابه الذي سماه «شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام» ثار الخلاف والجدل وكثرت المشاكل بينه وبين شيوخ الأزهر، حيث طلب الأزهر من الحكومة المصرية التي كان يرأسها في ذلك الوقت (صدقي باشا) طرد هذا الرجل الذي هو عبدالله الصعيدي، فاستدعى رئيس الحكومة المصرية بعض المسئولين في الأزهر قائلاً لهم: على أي أساس تريدون أن نطرده؟ قالوا: بسبب قيامه بتأليف هذا الكتاب «شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام»، ومثل هذا وجوده خطر علينا وعلى الإسلام، فقال لهم رئيس الوزراء: أنا أرى هذا، وأرى أنه حينما تكلم عليكم فيجب أن تردوا عليه، أو أن نلجأ إلى أن نستعمل معه الشدة والقوة لنقوم بطرده، ممكن أن يؤلف غداً كتاباً يسميه «كيف طردت من مصر»، فيزيد عليكم الأمر وتصبحون في مأزق، ليس لديكم ما تردون به عليه، ولذا فإني أرى عدم طرده.

وفي عام ١٣٦٩هـ كان هناك شخص اسمه خالد محمد خالد [(١)]، وكان تلميذاً عند عبدالله بن علي الصعيدي، وقد تشبع من أفكاره وإلحاده، فألّف كتاباً سماه «من هنا نبدأ» فرد عليه أحد العلماء وهو الشيخ محمد الغزالي بكتاب آخر عنوانه «من هنا نعلم»، أما فضيلة الشيخ عبدالله بن علي بن يابس ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: إن هذا الكاتب لا يستحق أن نرد عليه بكتاب لأنه إنسان تافه وإمّعة لعبدالله الصعيدي، فرد عليه بقصيدة منها:

لعمـــرك إن خالـــداً عمـــاه ... وفي ترديـــده كفـــر الـــزنيم
أخالـد قـد دهـاك اليـوم خطـب ... بمـا أظهـرت مـن حـدث جسيم
أخـــذروف لأبنـــاء الأعـــادي ... وسـكين علـى الـدين القـويم
تمهـل يـا حطيئـة كـل علـج ... يهـودي ورومـي وروسـي
بـأن الـدين جانبـه منيـع ... تعـالى فـوق هامـات النجـومي

إلى أن قال:

يقـيم الحـرب هـذا محـض جهـل ... ونـوك مثـل نـوك الـصعيدي
تقـول المـال تقـسمه مـشاعاً ... على ذي الجد والخمل العديم» [(٢)]

---

(١) سبق الحديث عن خالد محمد خالد وأحواله.

(٢) من أعلام الإسلام: الشيخ عبدالله بن علي بن يابس، (ص ٦١-٧٠).

(٣)

الرقم ٢/ ٢٣/ ١٤٨٢ التاريخ ٢٠/ ٦/ ١٣٦٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى جناب المكرم عبدالله السليمان

سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد: فينبغي أن تعتمدوا توقيف مرتب الشيخ عبدالله بن علي بن يابس الموجود في القاهرة وتجرون له كل ما كان جارياً باسم القصيمي مكافأة له وتشجيعاً نظراً لقيامه بالمكافحة عن الدين في تلك البلاد.

والسلام

صورة طبق الأصل

إشارة تلغرافية المصدر: الرياض

الشيخ عبدالله بن يابس المملكة فريدة مصر

ج ـ نشكركم على ما أبديتموه في برقيتكم.

عبدالعزيز

خطاب من الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ بمكافأة الشيخ ابن يابس ـ رحمه الله ـ

إشارة تلغرافية مكتب التصدير:

الرياض

عبدالله بن يابس مصر

ج ـ نشكركم على تعزيتكم بفقيدنا نجلنا الأمير منصور.

والحمد لله على قضائه وقدره

عبدالعزيز

إشارة تلغرافية من الملك عبدالعزيز

(٤)

الرياض في ١٣/ ٥/ ١٣٦٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة سعادة الأستاذ الأخ عبدالله بن يابس المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فقد وصلتني النسخة المقدمة إليّ منكم من كتابكم الرد على القصيمي، فشكراً لكم على تقديركم كما قد أحطت علماً في رسالتكم إليّ وإني لن أدخر وسعاً إن شاء الله في مساعدة الإخوان العاملين.

كما قررت الاشتراك بعشرين نسخة من كتابكم، فأرجو أن ترسلوها إلى وكيلنا بمكة عبدالله بن شديد، وتعمدوا من يستلم قيمتها من المذكور.

والسلام عليكم

مساعد بن عبدالرحمن

خطاب شكر من الأمير مساعد بن عبدالرحمن ـ رحمه الله ـ للشيخ ابن يابس ـ رحمه الله ـ

(٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم ٦٤٢٦ التاريخ ١٣/ ٥/ ١٣٦٨هـ

من سعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل إلى المكرم عبدالله بن علي أبو يابس سلمه الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

وصل إلينا كتابكم تاريخ ٢٢/ ٣/ ١٣٦٨هـ ومعه نسخة من مؤلفكم الرد على القصيمي، فنحن نشكركم ونسأل الله التوفيق للجميع لما فيه خير الإسلام والمسلمين، وقد أمرنا المالية بتحويل مائة جنيه مصري لكم عن طريق المفوضية بالقاهرة، وكذلك قد كتبنا للمالية نسألها عن موضوع مساعدة الأولاد في نفقة المدرسة هذا ما لزم بيانه.

والسلام حرر في ١٢/ ٥/ ١٣٦٨هـ

إشارة تلغرافية مكتب التصدير: الرياض

عبدالله بن يابس مصر

ج ـ نشكركم على تعزيتكم لنا بوفاة الأخ الأمير منصور.

والحمد لله على قضائه وقدره.

سعود

خطاب شكر من الملك سعود ـ رحمه الله ـ للشيخ ابن يابس ـ رحمه الله ـ

إشارة تلغرافية   مكتب التصدير: الرياض

عبدالله بن يابس   مصر

ج ـ نشكركم على برقيتكم وما أوضحتموه وأنَّ منهجنا إن شاء الله هو نصر الدين ومحض كل باطل.

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير الدنيا والآخرة.

سعود

برقية من الملك سعود ـ رحمه الله ـ للشيخ ابن يابس ـ رحمه الله ـ.

نصيحة من الشيخ ابن يابس قدمت للملك سعود ـ رحمهما الله ـ وقت حضوره إلى مصر في المؤتمر الثلاثي العربي ٤/ ٨/ ١٣٧٥هـ

يا صاحب الجلالة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾. [آل عمران:١٨٧].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» [أخرجه مسلم (٩٥)].

لما ذكر أتقدم بهذه الكلمة تدفعني هذه الآيات ويحدوني النصح والإخلاص لشخصكم الكريم إن شاء الله تعالى.

إنه يا صاحب الجلالة قد عرف الخاص والعام أن القصيمي قد حارب الله ورسوله في كتابه «هذي هي الأغلال»، حتى جعل الاعتراف بوجوده تعالى مشكلة لم تحل، وجعل التدين غلاً في

الأعناق يقعد بأصحابه عن المجد، كما ناصر اليهود وفضل توراتهم على لباب الإسلام، وحرّف آيات الكتاب من أجلهم، ومدح سفاحهم، كما أنه مدح المستعمرين ودعا إلى إدخال جيوشهم في البلاد الإسلامية وشركاتهم وأطراهم بالمديح خيانة منه للوطن والدين والأمة.

كما أنه دعا إلى الإباحية وزعم أن تحريم الأمهات والبنات والأخوات إن هو إلا عُرف متكلف مكذوب وغير ذلك من الطوام البشعة التي هي خلاصة أفكار الملاحدة وخصوم الإسلام، وقد عرف الخاص والعام عن هذا الأمر، ورد عليه العلماء كما بينت عواره في كتابي «الرد القويم»، وأنتم تعلمون غضبة العلماء عليه وجميع الرعية خاصة، والمسلمين عامة.

وحينما علم والدكم الراحل ـ رحمه الله ـ بجلية أمره استتابه فأبى وعاند فقاطعه وقطعه وبقي منبوذاً مكروهاً من كل أحد حتى تكلم في حقه إمام اليمن لأنه أفسد عقائد الطلاب اليمنيين فأبعد إلى لبنان ... الخ الرسالة.

المخلص

عبدالله بن علي بن يابس

نصيحة من الشيخ ابن يابس قدمت للملك سعود ـ رحمهما الله ـ

من محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف إلى الأستاذ المكرم عبدالله بن علي بن يابس لا زال على الملحدين شهاباً قابس وشجي في حلق كل مما حل في الحق ومعاكس آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وموجب الكتاب السلام مع السؤال عن الحال أحال الباري عنا وعنكم جميع المكاره وعنا فنحن بخير ونحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو على سوابغ نعمه وجزيل أفضاله.

وبعد فقد وصل إلي كتابك الكريم المؤرخ ٢٢ ربيع الأول ١٣٦٨هـ، وما برفقه من مؤلفكم العظيم «الموسوم بالرد القويم على ملحد القصيم»، وسررنا به كما سر به جميع أهل الحق والاستقامة عكس حال أهل الزيغ والانحراف فلقد أصبح عليهم عمى، وأضحى في حلوقهم أشد الشجي فجزاك الله خيراً وشكر مسعاك، وهذا من أفضل أنواع الجهاد والذب عن الحق ومناوأة أهل العناد، وشرحنا من حال مؤلفكم المذكور عند الإمام أعزه الله بطاعته وعند ولي عهده أحاطه الله بحياطته ما يلزم من إعجابنا به واغتباطنا واغتباط جميع المشايخ والطلبة به فنزل هذا الكتاب من نفس الإمام ونفس ولي عهده المنزلة اللائقة بمثله وإن كان الحق غني بنفسه في حقيته، لكن من ناحية

قيامهما بما يلزم من جهتهما وبشارتك بذلك ذكرنا ذلك لك عنهما وفقهما الله لكل خير، وقد قرأ علينا جملة من هذا الرد المبارك وسيكمل علينا قراءة إن شاء الله، هذا ما لزم ومنا السلام على الأولاد وعلى من لديكم من طلبة العلم الموحدين السّنيين كما من عندنا الأولاد والأخ عبداللطيف سائر الأخوة يهدون السلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حرر في ١٥ جمادى أول ١٣٦٨هـ.

خطاب من الشيخ محمد بن إبراهيم للشيخ ابن يابس ـ رحمهما الله ـ بخصوص كتابه «الرد القويم»

(٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم التاريخ ١٤/ ٨/ ١٣٧٥هـ

من محمد بن إبراهيم إلى حضرة المكرم فضيلة الأستاذ الأخ الشيخ عبدالله بن علي بن يابس سلمه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

وبعد فقد وصلت إلينا برقيتكم في ١٢/ ٨/ ١٣٧٥هـ نمرة ٥٤ فيما يتعلق بالقصيمي وإن الحكومة رتبت له مالاً، ونحب أن نوضح لكم أن الملك سعود أيده الله فيما فعله مع القصيمي له مقصد حسن ولا يختلجكم أي شك في ذلك، نسأل الله أن يأخذ بأيدي ولاة الأمور لما فيه صلاح أمر دين المسلمين ودنياهم، ومنا السلام على الأولاد ولدينا الأولاد والأخوة بخير ويسلمون.

والسلام عليكم ورحمة الله

خطاب آخر من الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ

الرد القويم على ملحد القصيم:

قال الشيخ ابن يابس ـ رحمه الله ـ في مقدمته:

«أيها المسلمون: إن مؤلف الأغلال «القصيمى» الذي يسكن في أرضكم، ويشرب من مائكم، ويأكل من أرزاقكم، يمدح أعدائكم اليهود ويفضلهم عليكم، ويخيف بعلمهم وذكائهم ونفوذهم وقوتهم، ويحرف آيات القرآن، النازلة في ذمهم، والمخبرة بهولهم ويفضل توراتهم على لباب الإسلام.

ومع ذلك فإنه يمدح المستعمرين، ويدعو إلى إدخالهم في البلاد، لحفظ المسلمين ويزعم أن شركاتهم وجيوشهم وقوانينهم، إنما هي خير ورفعة، ومن قرأ كتابنا هذا عرف صدق ذلك.

وحينئذ فيجب عليكم جهاده غضباً لدينكم؛ ووطنكم وجنسكم، وجاهدوا من يؤيده أو يناصره.

هذا عدا ما فيه من مدح للملحدين، الأولين منهم والآخرين، وذم للمتدينين الأولين منهم والآخرين، وما فيه من طعن على الشريعة: أصولها وفروعها.

إلى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود

حفظه الله وأصلح بطانته

يـا أيهـا الملـك الحـامي حقيقتـه ... ومن تحاشى عـن الأدنـاس في حسبه
أمـا علمـت بـأن الخلـق قـد عرفـوا ... أن القصيمي يعدي الناس مـن جربـه
فلست أدري وكـل المخلـصين معـي ... مـاذا يؤمّـل مـن ذي الذمـة الخربـة
مـن بعـد مـا ظهـرت سـودٌ جرائمـه ... وإن نـصر خـصوم الـدين مـن أربـه
مخـوفٌ بـبني صـهيون أمتنـا ... وجاعـلٌ ملـة الإسـلام مـن حَرَبـه
يـسعى إلى نـصرة المـستعمرين وذم ... المـؤمنين فهـل تـسعون في أدبـه
أيـترك الحـد والأحكـام مهملـة ... وطـاعن الـدين مـا ينفـك في خببـه
وأيـن إيمـان أهـل الحـق إذ سـكتوا ... وما رضـاء دعـيّ الـدين مـن غـضبه
إذا الغـواة أشـاروا بالـضلال فـلا ... تسمع لذي الغيّ ما قد حاك مـن ريبـه
وانبـذ سياسـة مـن يـدعوك مجتهـداً ... لطـرح ديـن الهـدى واتركـه في كربـه
واقطع هديت جذور الرجس وارمِ بـهِ ... وقُـط ثعبانـه في منتهـى سـربه
ولا تُبْـق لـه ذكـراً ولا أثـراً ... وأشعل النفط فيمـا ضـم مـن حطبـه
إن سـعوداً وأبنـاءاً لـه درجـوا ... على اجتثاث جـذور الكفـر أو سببه
وأنـت شـبلهموا تقفـو شـريعتهم ... وتتبـع الجـد فيمـا شـاع مـن أدبـه
لـو أن فيـصل أو تركـيٌّ شـاهده ... لأسـكناه ضـريحاً هيـل مـن تربـه
ولم يـصيحا إلى قـول العـداة ولم ... يـسترشدا بغـبي في ذرى حجبـه
إن الحوادث في صـقل الرجـال لهـا ... شـأن عظـيم تـبين الزيـف مـن ذهبـه

وأنـــت ممـــتحن فلتـــذكرن بمـــا أبـديت مـن عمـل أبليـت في طلبـه
يُعليـك ربـك إن أعليـت شـرعته وذاك أفـضل مـا قـدمت مـن قُرَبـه
ليثـبتن ذوو التـاريخ مـا اجترحـت أيـدي الملـوك ويبقـي الـذكر في كتبـه
ويرحم الله من ساروا على سنن الـ هادي وصب على الأجداث من سُحبه

عبدالله بن علي بن يابس

الشهاب الثاقب على رأس الشيطان الخارب

من عذيري من القصيمي الصعيدي ثالب الدين طاعن التوحيد
مادح الكفر في جميع قواه ناصر للفسوق خدن الجحود
أمم الكفر قد سقوك زعافا حقنة الشرج حقنة في الوريد
من حميا ذاك الزعاف ترنحـ ـت وناديت مادحاً لليهود
وتمطيت كالمبرسم تهذي بهزيج الإلحاد أو بالنشيد
تزعم الدين والتدين نقصا وطريقاً إلى الهوان التليد
وعليا ليث الحروب إذا ما شبت الحرب في عراك عنيد
من تربى على الكتاب وأضحى ينهل العلم من رسول رشيد
خانه دينه، وفل قواه فانثنى راكعاً لخصم مريد
طعنة في محمد وذويه ثم في ربه الحكيم الحميد
أين من دوخوا القياصر والفر س وخلوا ملوكهم كالعبيد
أهل بدر وبيعة وتبوك ناشرو العلم في جميع الوجود
فتحوا الأرض والقلوب بنور وبعدل وحكمة وحديد
إنه الدين حافز لبنيه نحو هام العلى برغم الحسود
ناعب الفسق والفجور مريد طرح ثوب الحياء فعل القرود
وجّه القول نحو كل كفور وخسيس ونحو كل يهود
فطرة الحق شرع كل نبي شرعة الله ربنا المعبود
أورثت في النفوس غيرة صدق تقتل الخصم مثل قتل الأسود

خـائن الـدين والـبلاد ينـادي ... بـاحتلال الـصليب أرض النجـود

إن للـدين والـبلاد رجـالا ... لا يقيلـون زلـة المنكـود

كـم أطـاحوا بـرأس كـل جهـول ... وغـويّ بـل بنـدٍ صـنديد

عابـد المـال والحيـاة مـضيع ... يـوم حـشر النفـوس يـوم الخلـود

إنمـا الغـر حـالم في ظـلام ... غـره الحلـم في مُـراح الهجـود

سـوف تـدري إذا تـنفس صـبح ... ثـم أهطعـت في فئـام الـورود

إن هـذي الحيـاة شـيء حقـير ... تركـت كـل عابـد في سمـود

أيهـا الجاهـل المنكـب عمـدا ... مـنهج الحـق مـوغلاً في اللحـود

حـاملاً رايـة العـداء لـدين ... فـضله الجـم ذائـع في الوجـود

تحـسب الـدين أهلـه في غبـاء ... وعـن النـصر في زوايـا الهجـود

فـانتظر مـن أكفنـا ضـرباتٍ ... تزهـق الـنفس طعنـة المكبـود

لـيس تنجيـك أُمـة الكفـر منـا ... إن تخلّيـك دولـة ابـن سـعود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شرّع جهاد الكافر والمنافق، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أمر بقتل كل مارق، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا الكفرة في المغارب والمشارق، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن شمس الهداية الإسلامية والشريعة المحمدية بزغت على أهل الأرض وهم في ليل من الشرك دامس، وغيهب من الشر طامس، فأبصر صاحب النبوة صلى الله عليه وسلم أن أهل الأرض أمامه أربعة أقسام:

عرب مشركون جاهليون، يهود ماديون مفسدون، مجوس متجبرون متكبرون، نصارى متحيرون سادرون، فجاهد في سبيل الله، وشمّر في إعلاء كلمة الله، فراحت شمس الهداية تشق أجواء الفضاء، وتنير الأرض والسماء، وتمزق بضيائها ليل الشرك، وتذيب غياهب الشرور والشك، فما هي إلا برهة من الزمن حتى ذلت العرب ودانت، وغلبت اليهود واستكانت، وراحت رايات الإسلام تعلو على كل شرف وحدب في مشارق الأرض ومغاربها، فكسر كسرى، وقصر قيصر، ولما رأى ذلك سادة الأمم وزعماؤها ومكرة اليهود، وبهرهم هذا النصر المبين، فكروا في مقاومة هذا الدين بالقوة فلم

ينجحوا، ثم بالخيانة فلم يفلحوا، ثم رأوا بعد الأوبة والرجوع بالخيبة والتفكير الطويل أن يدخل في هذا الدين بعض زنادقتهم بقصد إفساده، فدخله منهم جماعات كابن سبأ وأمثاله لهذا الغرض، فنالوا شيئاً من النجاح، وفرقوا طوائف الأمة، ووقع ما أخبر به نبيها صلى الله عليه وسلم فافترقت هذه الأمة وأخذت مآخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع إلا من تمسك بالكتاب وهدي محمد صلى الله عليه وسلم وعض عليهما بالنواجذ.

ثم إن الأمة الإسلامية بعد الفتوحات العظيمة وحيازة كنوز الأمم استلانت العيش واستطابت الكسل، وانغمست في الشهوات، وتركت الجهاد في سبيل الله، ونامت أطول من نومة عبود، بل أكثر من نوم أصحاب الرقيم في الهجود، حتى مزقهم العدو أيادي سبا، وقطعهم إرباً إربا.

وفي هذا الزمن الذي قلَّ فيه العلم، ونزل فيه الجهل، وضرب الاحتلال الأجنبي بجرانه في بلاد الإسلام جميعها، وقضى على القوة المادية للمسلمين علم بعد التجربة والاختبار والتفكير والتروي أنه لا بد للإسلام من رجعة، ولا بد للحق من صولة ما دام هذا الكتاب المنزل موجوداً بين أظهرهم، ففكر وقدر، فقتل كيف قدر؛ ثم قتل كيف قدر، فجهز لغزو الإسلام في قلوب أهله جيشين عظيمين، الجيش الأول قواده المدام «المرأة» والمدام «الخمر» والدينار والدرهم، وعرض الحياة الزائل من رئاسة وغيرها، وكان القائد

الأكبر في هذا الجيش هو المرأة أشد فتكاً وأقوى سلاحاً، تعاونه الأغاني الماجنة، ودور اللهو العاهرة.

فاحتلت الجيوش بقواها كثيراً من قلوب ضعفة المسلمين، وركزت راياتها على حصون الإيمان في قلوبهم، وبالرغم من هذا الجيش اللجب، والقواد الماكرين، فقد شعر الأجنبي الغاصب أن الإسلام له قوة ومتانة، وأن أكثر النفوس تأبى تركه وإفلاته، وأن أصحاب الشهوات لا بد لهم من الفيئة والانقياد إذا سمعوا النذر ورأوا الآيات، خصوصاً إذا فهموا آي الذكر الحكيم.

فقرر إرسال الجيش الآخر؛ ذلك الجيش قواده وساسته هم المبشرون والماسونيون والبهائيون والقاديانيون والباطنيون، ولكن هذا الجيش أيضاً قد فُل حده، وكُسرت شوكته، وخارت قواه أمام حصون الحق ودروعه، وأيضاً فإن المسلمين يعرفون نشأة هذه الدعايات، وأنها جاءت من طريق العدو الغاصب، عدو الله والدين والوطن والجنس، وأنه هو المؤيد لها، والحامي لذمارها.

ثم فكر تفكيراً آخر، فالتمس في المسلمين عقولاً ضعيفة يغرها الطمع، وتقودها الشبه، فظفر منهم بأناس طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، أناس يتكلمون لغتنا، ويستوطنون أوطاننا، ويتزينون بزينا يحسبهم الجاهلون منا، وهم أضر على أمتنا من الكفر والكافرين؛ وجد في هذا العصر من هذا الصنف طائفة من الكتاب الذين سقطوا في حياتهم وأخلاقهم، فأوعز إليهم بمحاربة

الإسلام باسم إصلاح الإسلام، والطعن على المسلمين باسم إصلاح المسلمين، وكان من هؤلاء شخص يقال له عبدالله بن علي القصيمي، هذا المخلوق أغراه المستعمر واشتراه ثم أشراه، فذهب يطعن في هذا الدين وحملته وأحكامه في كتابه هذي هي الأغلال.

فإن قال قائل: كيف قلتم إنهم أغروه واشتروه، ولم تسمعوا الإغراء ولم تحضروا الشراء؟ قلنا: نعم وبالله التوفيق:

إننا ممن يعرفون الله بآياته ويعرفون صفاته من أفعاله في مخلوقاته، ويؤمنون بأنه تعالى وهب هذا البشر مرآة صافية هي العقل، يعرفون بها الحق من الباطل، والحالي من العاطل، وقد أدركنا بهذا العقل كما أدرك غيرنا أن أحداً لن يجترئ على أن يطعن في دينه ووطنه وجنسه، ويمدح أعداء الدين من غير عوض ولا مقابل، فأدركنا أن هناك بيعاً وشراء، وإلا فماذا؟!

فإن قيل: فأي طائفة من طوائف الكفر أغرته واشترته؟ قلنا وبالله التوفيق: إننا إذا نظرنا في كتابه «هذي هي الأغلال» وجدناه يمدح اليهود ويدافع عنه، ويحرف آيات القرآن النازلة في ذمهم والمخبرة بهوانهم ويفضل آيات التوراة المكذوبة على لباب الإسلام، فأدركنا أن اليهود رفعوا له رايتهم، وأعطوه أجراً على حملها، وإلا فماذا؟

ثم إذا قرأنا أغلاله، وجدنا هذا المخلوق يمدح الأوروبيين المستعمرين لبلاد الإسلام، ويدعو إلى تعظيمهم وإدخالهم في البلاد الإسلامية ووجوب الإبقاء عليهم، فأدركنا أن القوم رفعوا له راياتهم وأعطوه أجراً على حملها وإلا فماذا؟

ثم إذا رجعنا إلى كتابه ألفيناه يمتدح البلشفية ويعظم من شأنها، فأدركنا أن القوم رفعوا له رايتهم وأثابوه على حملها، وإلا فماذا؟

ثم إذا قرأنا كتابه ألفيناه يطعن في الله وفي الاعتقاد به، ويمدح الملاحدة من الأولين والآخرين، ويذم المتدينين من الأولين والآخرين، ويدعو إلى المادة وإلى عبادتها، فأدركنا أن أهل الإلحاد والإباحية رفعوا له راياتهم وأعطوه أجراً على حملها، وإلا فماذا؟

أخذ القصيمي هذه الرايات ورفع كل واحدة منها على حدة؛ فرأى أنها خفيفة المحمل عليه، ثم تعهد للجميع برفع راياتهم، فألّف كتابه «هذي هي الأغلال» حاملاً فيه تلك الرايات ومدافعاً عنها؛ ولكن هذه الرايات التفت عليه وصارت أغلالاً في عنقه، فذهب يلتمس الخلاص والفكاك من هذه الأغلال، وراح يطرق كل باب، فحمله أحمد حسين «الفتاتي»[1] في صحيفته منوهاً بعظم

(١) أي رئيس حزب «مصر الفتاة»، وللتعرف على ماهية هذا الحزب وأفكاره ينظر كتاب الدكتور =

مصابه، أو جليل قدره، فأبصره الشاب الغيور (حسين يوسف) زعيم شباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فرماه بقنبلة من قنابل الغيرة طيرته بأغلاله فوقع في دار الأستاذ سيد أفندي قطب ينادي ويصيح: يا سيد قطب، إن حرية الفكر في خطر، فزع الأستاذ سيد قطب من هذا الطارق وجاء مسرعاً يقول؛ إن الاستعمار لا قلب له ولا ضمير، فتملص القصيمي من ثيابه العربية وأبدى له وجهاً يهودياً، فيه عين دجالية وخدود إلحادية قائلاً: الاستعمار الإنجليزي أفضل من استعمار المسلمين.

الأستاذ سيد قطب: الاستعمال الإسلامي، أتريد التركي؟

القصيمي: لا، بل أصحاب محمد، الفساق الفجار! والقرآن الذي أيدهم على تخريبهم وإفسادهم ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ [الحشر: ٥].

فاشمأز الأستاذ سيد قطب والتفت إلى أغلاله فقرأ فيها: «نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من خطر هذا الشعب اليهودي، فاليهود قوم مسلحون بأعظم الأسلحة؛ ونحن مجردون، فلو تخلت عنا هاتان الدولتان لم يكن في وسعنا أن نحمي أنفسنا بقوانا الخاصة»، فضربه الأستاذ سيد قطب بقنبلة درعمية ألقت

بسام البطوش «الفكر الاجتماعي في مصر»، (ص ٥٢-٥٤).

به على شفا جرف هار، إن حُرك سقط، وإن تحرك سقط، يستغيث ولا مغيث سوى يد برمكية تمتد إليه بالمساعدة وسيقطع الله هذه اليد؛ ويسقط القصيمي في سحيق الهلاك.

نسرد لك نص ما حدث بينه وبين الأستاذ سيد قطب، ونسرد لك أيضاً جميع نصوصه في مديح طوائف الكفر ودفاعه عنهم لتعلم أننا لم نتقول عليه، وقبل ذلك نورد اعتراضاً على أنفسنا ونجيب عنه فنقول: فإن قيل: كيف قلتم إنهم أغروه واشتروه، وعزيز على المسلم الراسخ في إسلامه أن يشترى بسهولة إلا إذا كان منحلاً في دينه، فهل كان القصيمي منحلاً في عقيدته إبان الإغراء والشراء؟

قلنا: نعم كان القصيمي منذ أكثر من خمسة عشر عاماً تقريباً يجادل في البديهيات الدينية، حتى اشتهر بكثرة جدله في الأمور الضرورية، وحتى كان يجادل بعض جلسائه في وجود نفسه، وحدثني صديق حميم من العلماء الأفاضل قال: كان ذلك المخلوق القصيمي يأتي إليّ منذ ١٥ سنة تقريباً ويصرّح لي بأنه تعتريه الشكوك إذا جن الليل، فيسخن جسمه، ويطير النوم من أجفانه، قال: وكان يجادلني في الله، وفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكان قلبي يمتلئ بغضاً له واحتقاراً، قال: وكنت أجيء لزيارتكم فأجده يقرأ في صحيح مسلم مع بعض الإخوان، قال: فترجع نفسي قائلة لعلها وساوس وليست عقائد.

هذا الأستاذ سمع منه هذا التصريح وجادله، والرجل منذ ذلك الحين يجادل في الله، وفي أسمائه وصفاته؛ وفي الأحاديث جدال المتعنت ونحن نعرف ذلك منه إلى أن ألّف كتابه «البروق»، الذي ملأ نفسه زهواً وكبراً، وهو عبارة عن مجموعة من ألفاظ الشتائم والهزء والسخرية، وبعض المعاني المسلوخة من كتاب التوسل والوسيلة لابن تيمية ـ رحمه الله ـ، وقد صدّره بقصيدة ركيكة يمدح بها نفسه ويطريها، ولما اطلع على هذا الكتاب شيخنا (عبدالعزيز بن بشر) ـ رحمه الله ـ أدرك بنور بصيرته وعلمه أن صاحبه منحرف عن الإسلام، فأرسل خطابات في هذا للشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية السعودية إذ ذاك، ثم قرأ القصيمي ديوان المتنبي وكتب على طرته بقلمه:

كفى أحمداً أني نظرت كتابه ... لأن يدّعي أن الإله مخاطبه
ولو شامني أني قرأت كتابه ... لقال إله الكون إني وخالقه!

ومن هذا الشعر الساقط الركيك يتجلى لك طعنه في الله، واستهزاؤه بالدين منذ ١٥ سنة تقريباً، كما قال الأستاذ الفاضل، ثم ألّف كتاباً آخر وضع فيه قصيدة ركيكة هجا فيها الملك ابن سعود والشيخ فوزان السابق تعريضاً لا تصريحاً باسمهما، وفي هذه القصيدة يقول:

ولو أن ما عندي من العلم والفضل ... يُقَسم في الآفاق أغنى عن الرسل

فجادله الشيخ عبدالعزيز بن راشد ووبخه وأخبره أن هذا كفر

وضلال، وأنه بهذا البيت ينشر لنفسه سمعة خبيثة، فتراجع وحذف هذا البيت، إذ كان لا دافع له بعد من مال ولا إغراء.

وكان يجادل في أن العلم شر وأن الجهل خير، وكان السيد (عبدالرحمن عاصم) يضحك ويتعجب لهذه العقلية.

ثم استشرى في مجالسه بالطعن على الله وعلى دينه، وفي مدح الإلحاد والملاحدة؛ فكان من أحاديثه: الزنادقة مضرب المثل في الظرف، حتى قيل: فلان أظرف من زنديق، وكان يدلي بالاعتراضات بصيغة غريبة، فيقول لجلسائه: لو اعترض معترض بكذا فما هو الجواب؟ وينصب نفسه مدافعاً عن الاعتراض، وتارة يقول: قال فلان كذا ويدافع عنه، أو يقول بعد إيراده للاعتراض: هذا اعتراض أعجز الفلاسفة، وقصرت العقول عن الإجابة عليه، وفي مذهب دارون مرة يقول: إنه أعجز العقول، ومرة يقول: إنه لا يعارض الإسلام، وكان له صديق من أهل العلم، فكان يطرح عليه هذا الاعتراض، فإذا رأى منه غضباً على ذلك قال له: كذا قيل؛ وكان في كل هذه المجالس في غاية الجبن، فإذا رأى في المجلس متديناً عالماً، كفَّ عن هذيانه أو لطف؛ وإذا رأى الجو خالياً، أرسل ما شاءت له نفسه، وقد أفسد بعض الطلاب من نجديين ويمنيين وغيرهم.

سار القصيمي على هذا المنوال، واصطحب بأناس من فاسدي

الأخلاق والعقائد، واتصل بموظف متهم في دينه في الحكومة السعودية، وكان يجلس معه زمناً طويلاً، ويصحبهما جماعات من فاسدي الدين؛ وعلى إثر تلك الجلسات سعى له ذلك الموظف في رفع مرتبه؛ واستغل كلاهما كرم الشيخ فوزان وطيبته، كما استغلا كرم الملك ابن سعود، وبقي ذلك الموظف يسعى له في الزيادة، ثم شرع في تأليف هذا الكتاب الذي تصدينا للرد عليه، وقد رأى ذلك الموظف كتاب الأغلال في يدي فسألني: ما هذا الكتاب؟ فأخبرته، فقال: هذا جميل، فقلت: أأنت قرأته، فلما رأى مني اعتراضاً وانتقاداً قال لي: لم أقرأه ولم أره، مع أنه حدثني أحدُ من رأوه يقرأه قبل طبعه في الطائرة وهو مسافر إلى الحجاز.

وإذا صح هذا: فهل هؤلاء القوم من الموعزين له؛ وهل هذا المبلغ الضخم الذي يتقاضاه ثمناً لذلك العمل؟ هنا نقف ونتأمل!!

أخرج القصيمي كتابه وهو قلق النفس، مرتبك البال، خائف وجل، ومن الخوف الذي ألم به، طرق كل باب، يرجو نجدته، فذهب إلى أحمد حسين «الفتاتي» ومدحه قائلاً له: أنت الزعيم، من هو النحاس؟ ومن هو النقراشي؟ أنت زعيم مصر وباعث نهضتها، ودخل عليه من أضعف باب في نفسه، وحينئذ شمّر ذلك الفتاتي لمديحه والدفاع عنه، كما مدحه كاتب كان القصيمي وغيره يحكون عنه أن يمينه المقدسة عنده «والله الذي لا وجود له»!!

كما مدحه بعض خدمة النصارى، ولكن كل هؤلاء لم يعتقد القصيمي أن مديحهم يرفعه أو يزيل عنه الانتقاد، لأن الجميع من المتهمين في دينهم وعلمهم؛ فذهب إلى الأستاذ سيد أفندي قطب طالباً منه النجدة، زاعماً له أنه حر الفكر، وأن كتابه عبارة عن أفكار حرة، وأن علماء نجد الجهلة في نظره ستقوم قائمتهم عليه، واستنجد منه الدفاع عن هذه الأفكار، ولكن القصيمي في مجلسه هذا، عاد إليه طبعه، فذهب يهذي بهذه الكفريات أمام الأستاذ سيد قطب، معتقداً أنه ممن لا دين عنده، وهاك مقال الأستاذ..(١)

وللأستاذ سيد قطب الفضل الأكبر في هدم هذا الملحد وإلحاده ودعايته للاستعمار، وإن كان الأستاذ حسين أفندي يوسف قد سبق الجميع في مهاجمة هذا الملحد، وكشف عواره في مجلة «النذير»، فقد نشر فيها عن أحد الثقات أنه لقي القصيمي فقال له: من أين أقبلت؟ فقال: من عند هدى شعراوي، فقال له الراوي مستغرباً: هدى شعراوي! قال: نعم، قال: وماذا تصنع عندها؟ قال: تعلمت منها علماً لا يعرفه علماء الأزهر... قال: ماذا تعلمت منها؟ تعلمت منها كيف أحطم هذه الأغلال، الراوي: أي أغلال تعني؟ القصيمي: أعني هذا الحجاب!

---

(١) سيأتي كاملاً ـ إن شاء الله ـ ومعه غيره عند نقل ردود الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ على القصيمي.

قلت: إذاً فالقصيمي يخبرنا أنه استقى معلوماته عن عجوز السفور في حجاب المرأة والدعوة إلى الإباحية.

ونقلت مجلة «النذير» أيضاً عن آخر من الثقات عندها، قال: لقيت القصيمي فوجدته متغيراً في كل شيء، وإذا هو يحدثني عن الأمريكان حديث العارف بالجميل!! فقلت له: يا هذا، إن الأخلاق التي تذكرها عن هؤلاء موجود أحسن منها في الإسلام، فقال: أي خير في هذا الدين!!

فقلت: وهذا يدلك على أنه لا يعتقد بالله ولا يدين به.

وحدثني أحد أصدقائه قال: لما كتبت ا لجرائد عن القنبلة الذرية قال القصيمي: هذا دليل على أن الله غير موجود! وهذا الصديق الذي حدثني هو من العلماء، والحاصل أن هذا الرجل خاف من عمله في كتابه قبل أن يخيفه أحد ولم يخف لأنه آسف على ما كتب؟ ولكن خوفاً على المادة التي يتقاضاها.

وكان له عدة مواقع مع كثير من الإخوان من مسائل كثيرة من المسائل التي عرفت من الدين بالضرورة، حتى ذهب جماعة يشتكونه في هذه الأمور إلى ممثل الحكومة ولكنه لم يشكهم.

ومن ضحايا هذا الملحد، عسكري كان يجالسه جاءني يوماً أنا والشيخ عبدالعزيز بن راشد، وقد أوقره القصيمي اعتراضات وتشكيكات منها:

أهل الجنة لهم فيها ما يشاؤون: أليس كذلك؟ فقلنا: نعم، كذلك، فقال: أليس كل رجل يود لأبيه الخير؟ فقلنا: بلى، فقال: إذاً فكيف يكون لأهل الجنة ما يشاؤون والصحابة يعرفون أن آباءهم في النار!! فما هذا التناقض؟ فقلنا له: أأنت مؤمن؟ قال: نعم، قلنا: أتحب الله أكثر من أبيك؟ قال: نعم، قلنا له: فإذا كان الله يبغض أباك لجحوده وكفره أتحب ما أحب ربك أم تحب أباك؟ وهنا أدرك أنه مخدوع، فقلنا له: ألم تقرأ القرآن وما حكيَ عن إبراهيم، فبهت وسكت، وأوردنا شبهاً كثيرة كشفنا له حجابها في ذلك المجلس، وقد ذكر لنا أن الذي ألقاها عليه هو شيخه القصيمي.

ذهب هذا العسكري المسكين وتزوج ببنت رجل من الإخوان وأراد أن يخرج بها عارية إلى الشارع، فثار والدها عليه؛ فقال له العسكري: إن الشيخ القصيمي يقول: إن الإسلام يأمر بذلك ولا يكرهه، فلعنه والدها ولعن القصيمي وفرّق بينها وبينه.

رئيس جيش الإنقاذ

وما أدراك ما جيش الإنقاذ؟ هي جمعية يرأسها ظاهراً رجل مخدوع من مرضى العقول، ومديرها في الواقع هو القصيمي.

مطالبها وأغراضها: أن تجمع وتؤلف جمعاً لا فرق بين يهوديهم

ونصرانيهم وبلشفيهم ومسلميهم، وأن تضم إليها من هب ودبّ من ساقطات النساء وتسميهم المجندات، واتخذت لها داراً في شارع البغايا في القاهرة.

وأخرجت منشوراً طعنت فيه على الزكاة وقالت: إنها شيء حقير وطلبه ذلة ومهانة، وقالت فيه أيضاً: إننا لا نسمي العاصي عاصياً، ولكن نسميه الأخ المصاب، يعني أن تسمية الله له عاص وفاسق ومجرم ليست بصحيحة، فلا يرضاها جيش الإنقاذ.

وقد ذهب رئيسها يمدح كتاب الأغلال في مجلة السوادي، والقصيمي حاذق في خديعة هذا وأمثاله، إذ أنه يقول له: أنت أعلم من زملائك، وأنت الرجل المفكر، ومن هم الخَطَّابية[1]، إنهم لا يساوون غسالة قدمك، ومن هاهنا جرّه في عربته.

لي صديق قديم حذرته من الجلوس إلى هذا الملحد وقلت له: إن الرجل يطعن في الله وفي دينه فأبى تصديقي وصمم على امتحانه إلى أن ظهر له أنه كما قلت له، وعرف المخدوعين من صرعاه.

---

(١) نسبة للشيخ محمود خطاب السبكي، المتوفى سنة (١٣٥٢هـ) بمصر، مؤسس «الجمعية الشرعية» كان على مذهب الأشاعرة، مع تصوف. له ترجمة في «الأعلام» (١٨٦/٧)، وللمزيد عن كتبه وأفكاره تُنظر رسالة «مسالك أهل السنة فيما أشكل من نصوص العقيدة» للدكتور عبدالرزاق بن طاهر معاش (٧٩/٢ وما بعدها).

فإن قيل: وهل كفر القصيمي في كتابه أو أتى مكفراً، مع أنه يؤمن في كلامه بعد كل طعن، حتى في آخر الكتاب فقد ختمه بالإيمان الكلامي؟ قلنا وبالله التوفيق:

إنه قد كفر من عدة وجوه كثيرة منها:

الأمر الأول: هذا العمل مِن فعله، وهو الطعن وتعقيبه بالإيمان، فهو أحد الأدلة على كفره، لقد قال الله فيه وفي أمثاله من المنافقين حينما طعنوا وادعوا أن طعنهم لعباً ولهواً لا عقيدة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]، وقال فيهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المنافقون:١-٢].

ألا تراه كذبهم في دعواهم الإيمان، وما النفاق إلا الكفر وإظهار الإيمان، وهذه مسألة بديهية ضرورية، والرجل دأبه في جميع كتابه هو كما قال الأستاذ سيد قطب، يطعن في الدين ثم يتوارى في الدين، فعل المنافقين،

فالذين قالوا: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]، إنما قالوها تواريـاً في الدين.

الأمر الثاني: أنه يؤمن بالتطور الأبدي إلى أفضل، ومعنى ذلك إنكار الساعة وخراب العالم، وعذاب القبر، وعذاب النار التي يصير إليها معظم البشر، اللهم إلا أن يكابر فيدعي أن النار أفضل من الدنيا.

الأمر الثالث: زعمه أن التدين «حقه وباطله» سبب مزالق الفكر، وأن العقيدة في الله وعظمته تصيب صاحبها بالعجز، وهي المشكلة التي لم تحل، وذمه للأنبياء وأتباعهم، ومدحه للكفار.

الأمر الرابع: إنكاره للبديهيات الدينية، وزعمه أن دين الصحابة الذي تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذوه من القرآن قعد بهم عن المجد، وهو السبب في هزائمهم.

الأمر الخامس: إنكاره أن الحياة السعيدة في الآخرة، ووجوب طلبها وتأميلها هناك.

الأمر السادس: ذمه للبشرية ولأبيهم آدم إلى زمن الإسلام، وأنهم كالحيوانات في الإدراك والعقلية، وغير ذلك من مدح الإلحاد والدعوة إلى إبقاء جيوش الاحتلال، وسوف نسرد لك الشيء الكثير من هذا إذا قرأت كتابنا، والله الموفق.

وهناك حشرة من الحشرات غارقة في الوحل والطين، ترفع رأسها في الظلام فتنقنق بمديح ذلك الملحد وإلحاده، وإنها في ذلك لكما قال الأول:

تنق بلا شيء شيوخ محارب ... وما خلتها كانت تريش ولا تبري
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت ... فدل عليها صوتها حية البحر

ولا غرو أن تنق تلك الحشرة بمديح ذلك الملحد وإلحاده، فإن بينهما وجوه من الشبه كثيرة، أهمها: النفاق، والحقد، الذي أكل شراسيف قلبيهما على كل ذي نعمة، وعبادة المادة والمظاهر، كما أنهما يشتبهان في الخلقة، وقد كان من أمر هذه الحشرة أن كتب مقالات ينكر فيها الشيطان بمعناه، ويزعم موت المسيح تأييداً للقاديانية، وقد أنشأتُ جملة أبيات رداً عليه وعلى إمامه القصيمي:

أشينٌ والتواء في الظلام ... أفي الأجحار ترمي بالسهام
أما تخشى سحاب الحق يهمي ... على الأجحار يغرق كل رام
أموتاً للمسيح زعمت كيما ... ترى الدجال يعشو في سلام
وللشيطان تنكره جهارا ... لتبقى أنت شيطان الأنام
وتمدح صاحب الأغلال لما ... تزندق أو تُشَوه بالجذام
وسبَّ الله والإسلام عمداً ... وأهلَ الفضل من الغر الكرام
وأوغل في مديح الكفر حتى ... تخرق بالمديح على الطغام
وراح إلى الإباحة يجتبيها ... ويمتدح الدياثة بالكلام

لقـــد أُعجبـــت بـــالورم المعبـــى ... بقـــيح أو صـــديد أو سمـــام
مـدحت الكفـر ترجـو منـه فخـراً ... فخـذ شـرف المـديح قنـاع ذام
فمـــا تحـــت العمامـــة لـــو رفعنـــا ... سـوى لـؤم النفـاق علـى التمـام
دع القـــرآن والإســـلام وانـــدب ... صـريع الكفـر مكـسور الـسهام
تقـــوم علـــى منابرهـــا خطيبـــا ... وأنت الخطـب ذو الـشنع الجـسام
وفي المـــذياع هـــذار بـــوعظ ... تـوخى أن يقـال مـن العظـام
وللإلحـــاد مـــداح مـــبين ... تطلـــع أن تقـــام لـــه محـــام
لغـــير الله ســـعيكموا دوامـــا ... وباسـم الـدين تـضليل الجهـام
فيـا روغ الثعالـــب عنـــد حـــق ... وضـــد الكفـــر أشـــباه النعـــام
ويـــا عزمـــاً وحزمـــاً وانطلاقـــاً ... إلى نيـــل الوظـــائف والحطـــام
كـــذُبّان علـــى سَـــقَط تـــداعت ... تَـــرنم، أو تُغـــرد بالهيـــام

ولا تحسبن أننا تجنينا على هذه الحشرة، فقد لقيت جماعات من شتى الطوائف، كل منهم يحدثني بمديح تلك الحشرة لذلك الإلحاد.

لا يزال القصيمي مستمراً على الطعن في الدين في مجالسه:

حدثني بعض من أثق به قال: ذهب القصيمي هو وصديق له من المتعلمين، وكان ذلك الصديق يحسن الظن به، فجلسوا في بيت شخص آخر، وكان المجلس يحتوي على جماعات من أعشار المتعلمين، فأخذ القصيمي يتحدث قائلاً: إنه لا يصح أن يقال إن القرآن حق لأنه متواتر، فالتوراة والإنجيل متواتران، ومع ذلك فإننا نقول إنهما باطلتان، قال: فراجت الشبهة

على الحاضرين، فقام صديق القصيمي وقال له: يا هذا؛ إن كتابك قد أثبت إلحادك، وإن لسانك في مجالسك يؤيد خصومك، إن التوراة أحرقت وأعدمت مرتين، والأناجيل ألّفت بعد المسيح بزمن فليستا متواترتين، واليهود والنصارى المنصفون يعترفون بذلك، أما القرآن فيعرف تواتره الجن والإنس، فصفق الحاضرون لهذا الرد المسكت.

ولكن ملحد القصيم أبى عليه خبثه إلا أن يلحق الاعتراض تشكيكاً آخر فقال:

إن القرآن مطعون في تواتره، فالشيعة يقولون أن أبا بكر وعمر حذفا ثلث القرآن، قال: فراجت الشبهة على الجالسين، فقال ذلك الصديق: يا هذا؛ علام هذا التلبيس؟ فالشيعة الذين قالوا هذا القول لم يظهروا إلا بعد عصر الصحابة، وإذاً فهم حدثوا بعد الإجماع، لا يقدح قولهم في الإجماع، وأيضاً فالشيعة لم ينكروا هذا القرآن ولا تواتره؛ وإنما ادعوا أن هناك قرآناً محذوفاً.

تسميته لكتابه:

لا شك أن الاسم الحسن دليل على حسن المسمى في الغالب، ولا شك أن الفطر السليمة تستحسن الأسماء الحسنة وهي محبوبة إلى الله، محبوبة إلى الناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الاسم الحسن، والقول

الجميل، ويكره الأسماء القبيحة، وقد غيّر بعض الأسماء لقبحها ونهى عنها مثل: حرب، ومرة، وقد غيّر بعض أسماء أصحابه لقبحها؛ ولما مرَّ بوادٍ سأل عن اسمه فأخبر باسمه القبيح فتركه لقبح اسمه وسلك وادياً غيره أحسن اسماً منه، وكان يعجبه الفأل وهو الكلمة الطيبة، ومن ذلك تعلم أن الاسم الحسن يدل على حسن المسمى، وأنه محبوب إلى الله وإلى العباد؛ وأن الاسم القبيح بغيض إلى الله، بغيض إلى العباد، ودليل على قبح المسمى.

وقد نهج الملحد في تسمية كتابه نهجاً قبيحاً، فسماه «هذي هي الأغلال» وهذه الكلمة ذكرت في القرآن اسماً لبعض عذاب أهل النار في عدة مواضع، قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر:٧١]، وقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾[الإنسان:٤].

ومن أجل ذلك فإني لا أحصي من مج هذا الاسم واستقبحه، والمؤلف يشير بهذه التسمية إلى أحكام الدين والعقيدة في الله، ويسميها أغلالاً، وسنورد لك طعونه في الدين وأحكامه، وفي الله ورسله، ونبين لك ذلك من كلامه وصفحة كتابه، مثل قوله في آخر فصل «إن التدين حقه وباطله سبب للمزالق الفكرية»، إذ هو في نظره غل، والعقيدة في الله وعظمته مؤخرة تصيب صاحبها بالعجز والضعف، وهي المشكلة التي لم تحل في نظره، ومن أجل ذلك لم يعسر عليه أن يفهم كيف عجز المتدينون على

اختلاف أزمانهم وأنبيائهم عن أن يهبوا الحياة شيئاً، وأن يكونوا فيها أناسي، وإن من أشنع الأغلال ما يعتقده أهل الصين وهو أن السعادة في الآخرة من أجل ذلك يجب أن تطلب إذ لا سعادة في الدنيا.

وأن التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر والزهد ومدح الصبر على المصائب، واحتساب الثواب كل ذلك من الأغلال، وحجاب المرأة عن الأجنبي كذلك، والمحدثون والمفسرون دجاجلة، قتلة سقطوا من الحياة فصاروا في نظره أقل من العجماوات، فاتباعهم من الأغلال، كما حمل على آدم الإنسان الأول وحكم بأنه أقل من الحيوان، وأن كله جهل وظلم وطغيان، وكذلك الأطفال في طفولتهم، ومدح اليهود أعظم مديح حتى لن يجد اليهود مادحاً مثله، فحرّف لهم كتاب الله، ومدح الغربيين والأمريكيين والبلاشفة لأنهم عبدوا التجارة والصناعة وجعلوها آلهتهم المقدسة.

وزعم أنهم يعلمون ما في الأرحام ويهبون لمن شاؤوا ذكوراً ولمن شاؤوا إناثاً، ويخصبون المرأة، وقريب عنده أن يخلقوا إنساناً صناعياً أفضل من الإنسان الذي خلقه الله، فعداوتهم من الأغلال عنده، ومن أجل ذلك نحكم بكفر المؤلف، وبأن كتابه كفر وإلحاد، ومحادة لله والمؤمنين، وخيانة للجنس والوطن، وسنسوق لك كلامه والرد عليه تاركين الحكم لأهل الفطنة من القراء، والله الهادي إلى سواء السبيل.

حماقة في الغلاف:

قال في الغلاف الخارجي: «سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل»!

قلت: لا شك أن القارئ يدرك في هذه العبارة أن المؤلف مملوء إعجاباً وكبراً واحتقاراً للناس، حيث حكم بأنهم لا يعقلون، وأنه هو المرشد المبصر لهم، وهذه الأخلاق أخلاق ذمها الله ومقتها الناس، ونحن في غنى عن سرد الأدلة من الكتاب والسنة على قبح هذه الأخلاق، إذ أن قبحها بديهي عند جميع الناس، وأيضاً: ففي هذا الكلام ذم للأمم العربية، ووصف لها بالجهل وقلة الإبصار الأولين منهم والآخرين، حتى باعث العرب الذي أهدى إليه كتابه، وحتى ابن عبدالوهاب الذي مدحه لا عقيدة ولا حباً ولكن رشوة وتملقاً لآل سعود ولحفدته، ظناً منه أنه بذلك يستر كفرياته ويخفي حماقاته، ويأبى الله إلا أن يهتك ستر المعاندين، ويكبت الملحدين، وتلك سنته في خلقه، والبرهان على صدقه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة:٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]، ثم هذه العبارة قد أوجبت ضحك القراء على عقليته وقلة حيائه.

تركه التسمية:

لقد برهن القصيمي في زعمه على أن الدين كله أغلال في نظره وذلك بأقواله التي طعن فيها في الإسلام وفي أحكامه وحملته وبأفعاله، فقد جاء كتابه كتاباً أقطع أجذم، غير مبتدأ بذكر الله ولا باسمه ولا بحمده ولا بالصلاة على نبيه، مشيراً بذلك إلى أن ذكر اسم الله في بداءة الأعمال من الأغلال التي يجب نبذها، وأنها عادة من العادات التي يتحتم طرحها.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبدأ أمراً إلا ببسم الله، يفعل ذلك في جميع شؤونه كأكله وشربه ونومه وانتباهه وسفره وقدومه ورسائله، وقضاء حاجاته، حتى في كتبه إلى الكفار، فما بدأ منها كتاباً إلا ببسم الله، وقد سار جميع المسلمين سيرته ونهجوا منهجه، فصار ذلك عملاً إسلامياً بديهياً إجماعياً يدين به الصغار والكبار والمؤلفون في جميع العلوم، حتى في الطب والحساب والهندسة وغير ذلك يذكرون التسمية، ويفتتحون بها، وإذاً فيحق لنا أن نفهم ما فهمناه من أن القصيمي أراد بترك البسملة والحمدلة والصلاة على النبي، وذكر الله في أول كتابه مخالفة المسلمين ورسولهم، وكتابهم، وإظهاراً أن عملهم من الأغلال التي وضع كتابه من أجلها.

والقصيمي مع عمله هذا منافق جبان، فعندما قيل له: لماذا لم تبتدئ بالبسملة ولا بالحمدلة، تذبذب واضطرب، فمرة قال: إنه أراد ألا ينفر اليهود والنصارى من كتابه؛ فإنهم متى ألفوه أجذم أقطع قبلوه لخلوه من العصبية، ومرةً قال: إنه فعل ذلك اقتداءاً بسورة براءة، وهذا جواب مغالطة وتلبيس، وإنا كاشفوه لك إن شاء الله.

أولاً: قد بينا لك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبتدئ أمراً إلا ببسم الله، وأن المسلمين ساروا هذا المسير ولم يفهموا فهم القصيمي، وإذاً فالحق في أيديهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ثانياً: إن المسلمين لم يجزموا بأن سورة براءة مستقلة، فقد حصل الخلاف، أهي من سورة الأنفال، أم مستقلة؛ ولما لم يجزموا جعلوها إلى جانب سورة الأنفال خالية من البسملة، إشارة إلى القول بأنها منها؛ وجعلوا لها فصلاً في الخط إشارة إلى الخلاف.

ثالثاً: إن سورة براءة جزء من الكتاب العزيز الذي بدئ بالبسملة والحمدلة والثناء.

رابعاً: إن أول هذه السورة: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١]، فهي مبدوءة بذكر الله وذكر حكمه، وإذاً فالمغالطة بذكر براءة مغالطة يراد بها التلبيس على ضعاف العقول وقصار النظر، ولكن ذلك والحمد لله لن يخفى على أهل المعرفة».

فهرس كتاب «الرد القويم على ملحد القصيم»

الصفحة | الموضوع

الصفحة	الموضـــــــوع

الصفحة	الموضـــــــــوع

الصفحة	الموضـــــــــوع
١٦١	تحريفه لآية ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾.
١٦٥	تشبيهه الزواج ببيع المجهول والغرور.
١٧٢	دعوته للعري.
١٧٧	طعنه في الحياء.
١٨٩	تحريضه على نكاح المحارم.
١٩٩	تحريفه لآية التحريم.
٢٠٦	إغراء على تقليد أوروبا.
٢٠٧	طعنه في طريقة تعلم الصحابة.
٢١١	طعنه في الأنبياء.
٢١٥	كذبه على ابن حجر.
٢١٦	دعايته للزنا وطعنه في الحدود.
٢١٨	زعمه أن الحجاب مؤخر وتهكمه به.
٢٣٥	كراهة الحياة الدنيا، امتداح الجوع والفقر والمرض.

الصفحة	الموضـــــــــوع

الصفحة	الموضـــــــــــوع
٤٢٥	مدحه للبلشفية.
٤٢٦	مدحه إلحاد الترك وتفضيله إلحادهم على الإسلام.
٤٥٧	مدحه اليابان لعبادتها الطبيعة وذمه الصين لإيمانها بالآخرة.
٤٣٠	مدحه لقدماء الكفار لعبادتهم الطبيعية وزعمه أن الأديان نكبة على البشرية.
٤٣٧	طعنه المتدينين بعدم العقل.
٤٣٨	زعمه أن القرآن كذب وأنه ضار.
٤٤١	طعنه في حكمة الله.

هدية
للأستاذ الفاضل والمربي
فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة
٢٨/٤/١٣٧٢هـ
علي عبد [illegible]

الرد القويم على ملحد القصيم

بقلم

عبد الله بن علي بن يابس

أيها المسلمون : إن مؤلف «الأغلال» «القصيمي» الذي يسكن في أرضكم ، ويشرب من مائكم ، ويأكل من أرزاقكم ، يمدح أعداءكم اليهود ويفضلهم عليكم ، ويخيف بعلمهم وذكائهم ونفوذهم وقوتهم ، ويحرف آيات القرآن ، النازلة في ذمهم ، والمخبرة بهوانهم ويفضل توراتهم على لباب الاسلام .

ومع ذلك فانه يمدح المستعمرين ، ويدعو إلى إدخالهم في البلاد ، لحفظ المسلمين ويزعم أن شركاتهم وجيوشهم وقوانينهم ، إنما هي خير ورفعة ، ومن قرأ كتابنا هذا عرف صدق ذلك

وحينئذ فيجب عليكم جهاده غضباً لدينكم ، ووطنكم وجنسكم ، وجاهدوا من يؤيده أو يناصره .

هذا عدا ما فيه من مدح للملحدين ، الأولين منهم والآخرين ، وذم للمتدينين الأولين منهم والآخرين ، وما فيه من طعن على الشريعة : أصولها وفروعها .

مطبعة الإسلام
١٠ - الدمالشة عابدين - مصر

صورة غلاف كتاب «الرد القويم على ملحد القصيم»

الرد الثاني:

بيان الهدى من الضلال

للشيخ

إبراهيم بن عبدالعزيز السويح

ـ رحمه الله ـ

ترجمة الشيخ إبراهيم بن عبدالعزيز السويح[١]

ولد الشيخ إبراهيم بن عبدالعزيز بن إبراهيم السويح في بلدة (روضة سدير) إحدى بلدان مقاطعة سدير، عام ١٣٠٢هـ، ونشأ فيها وتعلَّم مبادئ القراءة والكتابة، ثم شرع في طلب العلم وقرأ على علماء بلدته.

ثم رحل إلى عاصمة المقاطعة مدينة المجمعة، فقرأ فيها على الشيخ أحمد ابن إبراهيم بن عيسى، ثم على الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العنقري، كما رحل إلى كثير من البلدان لطلب العلم، فجدَّ فيه حتى أدرك وصار صاحب فنون وعلوم.

قال الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن عثيمين في كتابه «السابلة»: «كان الشيخ إبراهيم بن عبدالعزيز السويح من أصحابي وجلسائي في مكة المكرمة قبل توليه القضاء في العلا وتبوك، وكان فقيهاً، نبيلاً، أديباً ماهراً في كل ذلك، له أخلاق فاضلة، لا يُمل حديثه، ذكي جداً، قوي الحافظة، وكان مبتسم الوجه، ذا سكينة ووقار.

(١) عن «علماء نجد خلال ثمانية قرون» (١/ ٣٣٤-٣٣٦). وله ترجمة في «روضة الناظرين» (١/ ٥١)، ومجلة العرب (٥/ ٧٥٢).

جاور في مكة وقرأ على علمائها، ومنهم: الشيخ عبدالعزيز بن مانع، ومحمد عبدالرزاق حمزة ... وغيرهما.

عُيِّن قاضياً في بلدة العلا، ثم في بلدة تبوك وما يتبعها من القرى، ومع قيامه بالقضاء، فهو من المدرسين المفيدين، ومن الدعاة إلى الله تعالى، فقد نفع الله تعالى به في كل البلدان التي يحل فيها». أهـ. من كلام العثيمين.

ولما أخرج عبدالله بن علي القصيمي كتابه «هذه هي الأغلال» يشير بذلك ـ قبحه الله ـ إلى أن الأديان بما فيها الدين الإسلامي وأحكامها وآدابها هي أغلال غَلَّت الناس عن التقدم الحضاري، فقد تقدمت دول أوروبا حينما تخلت من الدين المسيحي.

وقد انبرى له علماء الإسلام بالرد عليه وبيان ضلاله وانحرافه، وأن الدين الإسلامي هو دين الحضارة والرقي، وهو الذي يوجه الشعوب إلى الأخذ بأسباب التقدم والرقي.

وهكذا قام العلماء بتفنيد كفرياته، وكان من أبرزهم المترجَم بكتاب ردَّ به على هذا الضال المضل، يقع في مجلدين، سماه: «بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال»، فأفاد وأجاد بهذا الرد القويم، وطُبع الكتاب ووُزِّع ونفع الله تعالى به.

قال الشيخ صالح العثيمين: «أصيب في آخر عمره بداء الاستسقاء، فدخل المستشفى اللبناني في جدة، فلم يُقَدَّر له الشفاء، وكانت وفاته في آخر رمضان من عام ١٣٦٩هـ ـ رحمه الله ـ».

قال الشيخ إبراهيم في مقدمة كتابه:

«الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإني وقفت على كتاب ألّفه عبدالله بن علي القصيمي سماه «هذي هي الأغلال»، ووجه تسميته بهذا الاسم ـ على زعمه ـ أنه نظر إلى ما أصاب المسلمين من التأخر والضعف، ففهم أن ذلك إنما نشأ عن ارتكاب أمور أوثقت المسلمين عن العمل، وعاقته عن اللحوق بمن سبقهم من الأمم الغربية، فكانت هذه الأمور التي ارتكبوها كالأغلال التي تعوق الإنسان عن السير إلى غايته، وقد ضل في هذه التسمية كما زل في موضوع مسماه.

وقد ذكر في أول كتابه هذا أنه بذل جهده في البحث عن الأسباب التي أخّرت المسلمين إلى هذه الحالة، وسأل كثيراً ممن اجتمع به عن أسباب هذا التأخر، وما وجد أحداً عنده معرفة تكفي في بيان الحقيقة، وليته طالع كتاب جمعية أم القرى [1] وأمثال ليقتنع به ويسلم من التعب إن كان صادقاً، ولكنه

---

(١) ويسمى أم القرى أيضاً، لعبدالرحمن الكواكبي ـ رحمه الله ـ وهو كتاب تخيل فيه مؤتمراً فُرض =

ـ ويا للأسف ـ ذكر أنه وجد سبب هذا التأخر وعرفه حتى لم يكن لديه أدنى شك فيه، فوهم هذا الوهم الخاطئ الذي أبرزه في هذا الكتاب.

وحاصله «أن التمسك بالدين هو الذي أخر المسلمين» فظفر بعد التعب بهذا الوهم المقلوب الذي وجهه إلى الوراء وتصوره هو الحقيقة التي لا مرية فيها، فسقط منتكساً على أم رأسه في هاوية عميقة من أجل هذا الوهم المقلوب والتصور المعكوس، ثم ادّعى أن ما صنعه هو الدواء الوحيد الناجح، فضرب بذلك عقدة مشؤومة على تلك العقد التي أراد حلها، وزاد المريض وهناً على وهن والمصيبة بلاء على بلاء، وهكذا كل من أراد أن يصنع دواء وهو لا يعرف كيفية الداء وتشخيصه ولا يعرف الدواء وتركيب مفرداته، فإنه ولا بد أن يكون دواؤه مضراً إن لم يكن سماً قاتلاً.

إن أعظم فساد التصور: عكس الحقيقة الواضحة التي لا شك فيها عند جميع العقلاء وتغييرها عن حالتها الوضعية، وهذا التصور المعكوس قد تطور ظهوره في كثير من ذوي العقول الضعيفة المعجبين بأنفسهم من العصريين الذين

عقده في مكة سنة ١٣١٦هـ وحضرته وفود الدول الإسلامية، وعددهم ٢٢ فاضلاً، لعلاج قضايا الأمة.

ويؤخذ على الكواكبي تبنيه للفكر القومي، وتنظيره لمسألة فصل الدين عن الدنيا، وتذويبه لقضية الولاء والبراء. ينظر لبيان هذه المؤاخذات: رسالة «الجمعيات القومية العربية وموقفها من الإسلام والمسلمين» للدكتور إبراهيم الدبيان (١/ ٢٥٧-٢٨٣).

لم يستضيئوا بنور الوحي، ولم تفهم قلوبهم تعاليم الديانة الصحيحة، والقلب إن لم يستمد حياته من نور النبوة فإنه لن يفلح بل يكون مظلماً مريضاً، فتكون آراؤه وتصوراته كلها مظلمة مريضه؛ لأنها صادرة عن تفكيره وإرادته.

وهذا الضرب في الناس تجدهم بمجرد ما يبدو لهم أدنى لامع من لوامع المخترعات العصرية يقذفون بأنفسهم عليه كالفراش الذي يقذف بنفسه على ضوء المصباح الضئيل، فيعشقونه ويظلون دائرين حوله دوران الفراش على مصباحه، فلا ينزعهم عنه نازع ولا يردهم عنه رادّ مهما حاول واجتهد، ما دام هذا اللامع الضئيل مضيئاً، حتى يحرقهم أو يطفأ ضوءه، أما نور الشمس الواضح فإنهم لا يرونه إلا صدفة أو كرهاً، وإن قابلوه كاد أن يذهب بأبصارهم فتجدهم ينفرون منه ويهربون إلى كل نفق وملجأ.

لسنا بحاجة هنا إلى الاستدلال على فساد تصور هذا الرجل وكثرة تقلب آرائه، فإن مضادّة كتابه هذا لكتبه السابقة في كل شيء أمر لا يخفى على كل من تدبر ذلك، وقد أشار في كتابه هذا إلى أنه قضى عصراً من حياته وهو معتقد خلاف هذه الآراء التي نشرها في هذا الكتاب، ولا شك أن اضطراب الرأي وتناقض الاعتقاد في الأصول الضرورية الثابتة القطعية من أظهر الدلائل على فساد التصور، ولا سيما مع دعواه في كل من هذه الكتب المتضادة بأن ما اعتقده وقرره فيها مبني على براهين ثابتة صحيحة! ومعلوم أن البراهين

الثابتة لا تتناقض، وهذا بخلاف الآراء الجزئية التي تبنى على الظنون والقرائن وأمثال ذلك.

لقد استغرب الناس انقلاب هذا الرجل بهذه السرعة، وانسلاخه من آيات الله التي تظاهر بنصرها من قبل، فذهبوا يتساءلون عن الأسباب التي أحدثت هذا الانهيار الخلقي والانقلاب المفاجئ الغريب، والانسلاخ البلعامي المنكر، لأن هذا الرجل كان يتظاهر قبلاً بنصر السنة، وقد ألّف في ذلك كتباً معروفة طريقته فيها ـ كما قلنا ـ نقيض طريقته في هذا الكتاب، فكان كتابه هذا هدماً لها من أساسها، كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، فساءت لذلك فيه الظنون، وذهبوا يعللون هذا التراجع والتقهقر تعليلات شتى بحسب ما يظهر من القرائن، فعلل كثير بأنه ارتشى من بعض الدعايات المحاربة للأديان، واستدلوا على ذلك بأمور كثيرة ستتبين أكثرها في ثنايا هذا الكتاب، ثم هو ليس ممن عرف بالتقوى والديانة المتينة التي تحجزه عن الدخول في هذه المزالق الخطرة، فإن من سبر حاله علم أن به زهواً وإعجاباً بنفسه غير قليل، ينبئ عن ذلك قوله من قصيدة له [1]:

لـو أنـصفوا كنـتُ المقـدم في الأمـر ولم يطلبوا غيري لدى الحادث النكر

---

(١) في أول كتابه «الفصل الحاسم» ـ كما سبق ـ.

ولم يرغبــوا إلا إلــيّ إذا ابتغــوا رشاداً وحزماً يعزبان عن الفكر
ولم يذكروا غيري متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيري لدى غيبة البدر
فما أنا إلا الشمس في غير برجها وما أنا إلا الدرّ في لجج البحر
أعلل نفسي بالأكاذيب والمنى وقد ينفع الكذاب في ساعة الشر
فلولا رجائي والرجاء مخادعي لعذتُ بشر لا يضيق به صدري

وقال في أخرى:

متى جريتُ فكل الناس في أثري وإن وقفتُ فما في الناس من يجري

وخليق بمن هذا عقله ورأيه أن يشتري الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، وأن تكون عاقبته غير حميدة.

إن من الغباوة الشديدة، والبلادة المحققة أن ننخدع بتلك التمويهات التي خادع بها في بعض كلامه في كونه ما يريد إلا الإحسان، وأنه مؤمن بالله واليوم الآخر، فكلا وهيهات وأنى ذلك، بل هذه الدعوى جريمة فوق جريمة، فكيف يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر مع محاربة الدين وسبه وتشويهه ورفضه، وكيف يصرح الإنسان بقول واعتقاد أو يعمل عملاً ثم يدعي أنه يريد خلاف ما يقول ويعمل، فإن هذا غير مقبول لا شرعاً ولا عقلاً ولا عرفاً، فالمنافقون الذين قالوا للرسول ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]، كاذبون في شهادتهم بشهادة الله تعالى عليهم.

كما أن الذين بنوا مسجد الضرار وحلفوا أنهم ما أرادوا إلا الحسنى كاذبون في هذه الدعوى بشهادته تعالى عليهم أيضاً، لأن كلاً من هؤلاء فعلوا ما يضادّ أقوالهم وادعاءهم، فأصل النفاق مضادة القول للفعل، ولو أن رجلاً أهان المصحف أو سعى في هدم الكعبة ثم ادعى أنه يريد بذلك التعظيم والإحسان لقطع الناس بكذبه، وكما لو أن رجلاً حارب نظاماً محترماً من الأنظمة المعمول بها وبذل جهده في إزالته وتشويهه وخلعه ورفضه، ثم ادّعى مع ذلك أنه مؤمن به ومعظم له، فلا شك عند العقلاء أنه كاذب متلاعب وأن دعواه هذه مكر ومخادعة، وقد حذرنا الله سبحانه عن الاغترار بمثل هذا القول ممن فعل هذا الفعل بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩]،، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٢-٣]، والآيات في هذا كثير واضحة.

وقد صادف هذا الخداع البسيط المموه قلوباً غلفاً ليس لها نصيب من البصيرة في معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، فبقيت مضطربة في أمره تتخبط في ظلمات الجهل والريب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

إن أعظم جرم يجره الإنسان على نفسه وعلى أمته أن يذهب إلى الكمالات السامية والمبادئ الأساسية العادلة العالية التي شهدت العقول السليمة بكمالها الكمال الذي لا نهاية فوقه، واتضح ذلك اتضاحاً لا يمكن جحده، فيفهم من هذه الكمالات خلاف حقائقها وخلاف أوضاعها المعقولة، فيظل مندفعاً بلا أدنى هوادة إلى قلب صورتها وتحويلها إلى ضدها سواء كان ذلك جهلاً أو تجاهلاً، ثم يدعي مع ذلك أنه بفعله هذا صنع إحساناً إلى قومه، فيكون ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً، وهذا غاية الضلال والبعد عن سواء السبيل.

إن من تأمل ما في هذا الكتاب المنكر علم بلا أدنى شك أنه دعاية خبيثة مقصود بها هدم الإسلام والمروق منه بتشويه أوضاعه ومحاسنه بالكذب والتزوير والبهت والنفاق، فيجب على كل ذي علم وصلاح وغيرة على ديانته أن يقوم ضده ويبذل غاية جهده في محاربته والتحذير منه، فإن فيه خطراً كبيراً على كثير من الناس لما فيه من النفاق العميق ولبس الحق بالباطل بالدعاوي المزخرفة، وفتنة الذين في قلوبهم مرض من الطبقات المتطرفة الذين لم ترسخ علوم الشريعة في قلوبهم، ولم يفهموها فهماً صحيحاً، والقلوب الفارغة أسرع قبولاً للباطل من الحق، فإن القلب إن لم يكن مشغولاً بمعرفة الديانة الصحيحة مستمداً حياته من نورها كما ذكرنا فإنه

يكون عرضة لتأثير الأوهام والخرافات المزخرفة بصوغ العبارات وبهرجة الاستدلال عليها.

ولما كان هذا الرجل مصروفاً عن الحق والهدى، قد انصرف إلى نصر دعايته التي هي غاية الجهل والردى، بأقصى ما لديه وبكل ما يعول عليه، ورأى أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كلها واقفة في ردّ ما يرمي إليه، وضد ما يدعو إليه: أسهب في تطويل المجادلة وأطنب في إخفاء الحقائق بالمغالطة في كل كتابه في هذا الغرض، محاولاً صرف النصوص الشرعية عن مدلولاتها إلى ما يوافق هواه، ولو خرج عن الحدود اللغوية فضلاً عن الحدود الشرعية، فبعضاً حرّفه، وقسماً كذّب به، ونوعاً آخر أعرض عنه، فكان حاصل مقاله وحالة التكذيب بالكتاب وبما أرسل الله به رسله والجدال الطويل في ذلك، فجدير دخوله فيمن قال الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر:٦٩-٧٢]، فكتابه هذا سلسلة أغلال صنعتها يد شقاوته لنفسه لما اختار العمى على الهدى، وآثر الحياة الدنيا، وما من شك لدينا أن له قصداً سيئاً في إبراز هذا الكتاب الشنيع، فمثله لا يجهل ما فيه من صرائح الكفر

وقبائح الإلحاد، فإن كلامه في هذه الأمور واضح كالشمس لا يخفى إلا على أعمى البصيرة كما سوف ترى وضوح ذلك فيما يأتي مفصلاً.

وقد عمد هذا الرجل إلى كل ما كتبه الملاحدة من أعداء الدين وزنادقة الكتابيين الذين بذلوا وسعهم لتشويه الأديان لدى العامة ليلبسوا عليهم دينهم متذرعين بذلك إلى نقلهم عنه تدريجياً إلى الإباحية التي هي نهاية الكفر والإلحاد، فأخذ هذا الرجل عصارة تلك الآراء المسمومة ونشرها في هذا الكتاب وموه عليها بشيء من النصوص التي ظن أنها توافق هواه، فخلط الحق بالباطل ترويجاً لقصده الخبيث ومكره السيئ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وقد جعل كتابه هذا عشرة مباحث وخلاصة، وكل بحث يشتمل على مقالة ذكر فيها أنها من الأسباب التي أخّرت المسلمين، وذكر في الخلاصة حاصل ما ذكره في كتابه كله وسماها المشكلة التي لم تحل، وأبان فيها صريحاً مقصوده وما يرمي إليه، وهو أن الإيمان بالله وتصرّفه في العالم هو سبب التأخر، وأن التدين مضاد للرقي.

وفي مباحث سلسلة هذه الأغلال من الجنون والتخليط والجرأة الحادة على الدين والاستهزاء به وبأهله، والوقاحة والتهكم بأصوله وفضائله ما لا نعلم أحداً من الكافرين والمنافقين سبقه إلى مثله، حتى أنه

تصرف في النصوص المقدسة طبق ما يوافق هواه من المعاني، فما خالفه حرفه أو كذب به، وما ظن أنه موافق له قبله وصدقه واحتج به بكل حال، وقد أدخل مع ذلك في هذه المباحث من البهرجة والنفاق والتلبيس وإخراج الباطل في قالب الحق شيئاً كثيراً جداً يتبين من ذلك أنه من أعظم الدعايات إلى الكفر والإلحاد.

وقد رأينا أن نسلك في هذا الرد عليه مسلكاً متوسطاً مقبولاً فنتكلم على تلك المباحث ونجيب عن كل ما اعتمد عليه في الانتقال على الدين والمتدينين، كما نجيب عن كل ما ادعاه ونسبه إلى الدين من الأمور الباطلة التي أضافها إليه بعد نقل كلامه بحروفه في هذه الأمور، ونحذف ما هو مكرر أو ما لا حاجة ضرورية إلى الردّ عليه غالباً، ونشير إلى المحذوف أحياناً إذ تتبع كلامه يستدعي تطويلاً قليل الفائدة، وكلامه كله يدور على أصلين: **أحدهما:** الحث على رفض الأديان، **والثاني:** الانهماك في تعلم نواميس الطبيعة، والاعتماد الكلي عليها لأن ذلك عنده هو سبب التقدم والمجد المنشود.

فصل

وهاهنا إحدى عشرة ملاحظة تطلعك على أصول كلامه التي يدور عليها، وتعرف بها كيفية ردنا عليه فيها، وتسهل لك حل بعض مباحثه المعقدة:

الملاحظة الأولى:

أن تعلم أن طريقتنا في رد ما في هذا الكتاب هي طريقة من يريد بيان الحق وإزالة الباطل بالطريق الصحيحة الشرعية والعقلية المقنعة، لكل منصف عارف، يميز الحق من الباطل تمييزاً صحيحاً، ليست بطريقة من يحاول إقناع خصمه فقط، فإن سلوك هذه الطريقة لا يفيد مع مثل هذا الرجل، لأنه اعتقد اعتقاداً شاذاً وحصر الحق فيه وحده، ولبس أحياناً في تعمية قصده وإرادته: تارة بالتجاهل، وحيناً بالمغالطة، ومرة بالعناد والمكابرة، فإنه رفض أمراً وحاربه باطناً وظاهراً، ثم ادعى أحياناً في الظاهر أنه يراه ويعمل به، فكان قوله لاضطراب حالته وقصده معقداً ملتبساً متناقضاً لا يستقر على حالة ثابتة، ومثل من هذه حاله لا يمكن إقناعه بجميع الوسائل المبينة للحقيقة، لأن قصده الحقيقي اتباع هواه ورأيه الشاذ لا الحق، ولهذا فإننا نستدل بالنصوص الشرعية حقيقة كما

استدل بها هو في كتابه مخادعة، ونستدل بالمعقولات الصريحة والقواعد الثابتة والضرورة المحققة لأننا نتكلم بلسان المتدين الصادق، كما أنه تكلم بلسان الملحد المنافق، وقد وضع كتابه في الحط على المتدينين فكان الرد عليه بلسان أحدهم[1]، ولا يحسبن أحد أننا لا نعتمد على دلالة العقل مطلقاً، بل إننا نعتمد ذلك ونرى أن من الأدلة العقلية ما يفيد اليقين، ونعلم من حيث الجملة أنه ليس في الشريعة المطهرة ما يخالف المعقول الثابت في نفس الأمر أبداً، وما يزعمه البعض من وجود التعارض في بعض الأشياء فليس لذلك حقيقة، بل هو فساد في فهم من زعم ذلك، فإنه إما غلط في فهم المنقول أو في نظرية المعقول أو فساد في إحدى مقدمات أحدهما، وعند تحقيق البحث في ذلك تتبين العلة وأنها خارجة عن حقيقة المعقول والمنقول، كما بين ذلك الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب العقل والنقل بالبراهين القاطعة الواضحة.

الملاحظة الثانية:

اعلم أن روح كتابه وموضوعه هو الحث على رفض الدين، بل الأديان

---

(١) ولو أنه سلك مسلك الملاحدة المحض الذين لم يدخلوا في الإلحاد نفاقاً وخداعاً؛ لسلكنا في الرد عليه مسلكاً آخر يُبطل جميع ما يعتمد عليه من الباطل بأدلة عقلية محضة.

كلها، ودعوى أن الإلحاد هو أساس الرقي والتقدم كما صرح بذلك فيما يأتي في مواضع لا تحصر، وقد جره هذا المغزى الخبيث إلى ما ادعاه إخوانه من ملاحدة العصر؛ حيث ادعى أن الناس لا بد من أن يكونوا على ثلاث حالات: إما على دين صحيح، وإما على دين باطل، وإما على غير دين بل على إلحاد محض.

الحالة الأولى: أنه على الدين الصحيح؛ فقد صرح بأنه لا يعرف، وأن الناس عاجزون عن معرفته، فقد سد هذا الباب سداً محكماً، ولكنه استثنى النادر مخادعة، ومعلوم أن النادر لا حكم له، فوجوده كعدمه، فعنده أن الله كلف الناس ما لا يطيقون حيث صرح بأنهم عاجزون عن معرفته، فقد كلفهم ما هم عاجزون عنه.

وأما **الحالة الثانية:** فإنه اجتهد غاية جهده في أن يعزو إلى الدين من القبائح والفساد وسوء السمعة ما لا يوجد فيه أبداً، وتوسل إلى ذلك ببعض كلمات للاتحادية من الصوفية ونحوهم، وعزاها إلى المسلمين ليثبت بذلك أن الدين قد فسد وأن الناس على دين باطل، ليسهل لهم الطريق إلى رفضه حيث صرح بأن الدين الباطل آلة ضعف وانحطاط، وإن الإلحاد المحض لا يقف في وجه الرقي والتقدم، فحصر التقدم والرقي في الدين الصحيح أو الإلحاد الصريح، والتأخر في الدين الباطل، ثم نفى معرفة الأول أي الدين الصحيح

وأثبت وجود الحالة الثانية للترك، وسهل الوصول إلى **الحالة الثالثة**: أي الإلحاد المحض لتُسلك، بل أوجب ذلك؛ لأن الأولى غير معروفة، والثانية لا يمكن الإقامة عليها، والثالثة متيسرة والظروف تقتضيها.

وسر المسألة أنه وضع كتابه للبحث عن التقدم، وجعل التقدم محصوراً في حالتين: إما في الدين الصحيح أو في الإلحاد المحض، ثم سد باب الحالة الأولى، وادعى أن ذلك لا يكاد يعرف أو يوجد، فاقتضى أن يكون الكتاب في الحث على اعتناق الإلحاد المحض بضرورة التقسيم، لأنه لم يبق إلا حالة الدين الباطل، وقد قرر أنها توجب التأخر، فهو لا يريدها على دعوى وضع الكتاب ، بل جعلها وسيلة إلى رفض ما عليه الناس اليوم؛ لأنه قرر أنه دين محرّف واهم، فلا بد من رفضه أي: هو دين باطل فيجب خلعه، فتأمل هذا يزل عنك تلبيس كثير مما خادع به ضعفاء البصائر.

وستأتي مناقشته في هذه الدعوى العريضة تفصيلاً، وبيان أن هذا التقسيم باطل من أصله، وأن التفريع عليه ساقط سقوطاً بيناً.

وقد حمله غلوه وإسرافه في تشويه سمعة الإسلام وإفساده لأجل رفضه على أن يخترع وهماً كاذباً خاطئاً في أول كل بحث من مباحث هذه الأغلال، فيدعي أن الناس والمسلمين على هذا الاعتقاد أو هذا الرأي أو العمل، وأنهم يدينون به، ولا يخص طائفة دون طائفة ولا قوماً دون قوم، ثم يستشهد لهذه

الدعوى الكاذبة الخاطئة إما بحكاية عن صوفي أو بحديث باطل أو ضعيف لا أصل له، أو صحيح لكن يجعل معناه على وفق هواه ـ وإن كان المسلمون كلهم مخالفين هذا الرأي ـ ثم إذا اخترع هذا الكذب وسبكه على ما تقتضيه إرادته وشهوته وهواه رمى به المسلمين وأضافه إليهم وجعله رأياً ومعتقداً لهم، ثم أخذ في الرد والتشنيع عليهم والتشمت والاستهزاء والسخرية بهم فيما نسبه إليهم زوراً وفجوراً.

وهذه القاعدة المنكرة أصل كبير في كتابه بنى عليها أكثر ضلاله وفرع عليها غالب أقواله، وهي من أعظم العوامل التي تنفر عن الإسلام وتسيء السمعة وتشمت به الأعداء، وقد اقتبس هذه العملية من دعاية المبشرين من أضداد الإسلام وأعدائه للتنفير منه، وهي من أعظم ما يرجح صواب قول من قال إنه خدم بكتابه بعض الدعايات اللادينية لغرض دنيوي كما سلف.

الملاحظة الثالثة:

يجب أن يُعلم أنه لحرصه على التلبيس وخلط الحق بالباطل ومزجه به مكراً وخداعاً أنه كثيراً ما يعطف الجمل الكفرية والجمل المشتبهة والمسائل المباحة والصحيحة بعضها على بعض، ثم يجعل الحكم عليها حكماً واحداً من غير تفصيل، فتارة يذكرها مضافة إلى المسلمين ويدعي أن حكمها لديهم واحد، وتارة يذكرها عنهم ويحكم عليها حكماً واحداً بلا فرق، وهذا

التلبيس والمراوغة كثيراً ما ينتحلهما في مضايق كتابه في مواضع لا تحصر؛ كقوله سابقاً: «إن رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحني أمام المشكلات الإنسانية الكبرى كمشكلة الفقر، ومشكلة المرض، ومشكلة البطالة، ومشكلة الجدب، ومشكلة الجهل، ومشكلة الأخلاق، ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية، وكل مشكلة، ويرون أنهم ليسوا أهلاً لحل مشكلة من هذه المشاكل، بل وأنهم غير مخاطبين بحلها، بل إن محاولة حلها وعلاجها من التطاول على الله، ومن محاولة الوثوب على مقام الألوهية المقدس، وما عليهم إلا أن ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاؤون ويشتهون...الخ».

فبالله عليك تأمل ما في هذه الكلمات من الخلط الفاحش والخبط المدهش، والبهت والفجور العظيم في دعواه أن المسلمين يرون أن حل مشكلة الجهل والبطالة من التطاول على الله، والوثوب على مقام الألوهية، وأنهم يرون أنهم غير مخاطبين بحل ذلك، فجعلهم يرون التعليم وبناء المدارس من الكفر والشرك ومحاربة الله تعالى، فأين العقول؟ ثم انظر إلى خلطه مشكلة الجدب مع مشكلة الجهل، وأدنى رجل من المسلمين يفرّق بين هذه المسائل فيرى أن إنزال المطر لا يقدر عليه إلا الله، وأن الجهل يجب على صاحبه أن يتعلم، وأمثال هذه المواضع كثير جداً كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى[1].

(1) ونظير هذه الجملة المتقدمة ما ذكر سابقاً في قوله: «إن من السخط المبين أن يظل خطباؤنا ووعاظنا ورجال الدين وغير رجال الدين ينشدوننا الأناشيد ويقذفوننا بالخطب تلو الخطب
=

الملاحظة الرابعة:

يجب أن تعلم أن من أعظم أصوله أن كل حديث يخالف رأيه وهواه فهل باطل لا صحة له ولو اتفق المسلمون على صحته، وكل تفسير يخالف فكرته وعقله فهو باطل سواء كان له أصل من كلام السلف أو لم يكن له أصل، وكذلك كل قول أو رأي للفقهاء في أي مسألة كانت فهو رأي يضرب به عرض الحائط إذا كان لا يوافق هواه ولو أجمعوا كلهم عليه، ولهذا ادعى في البحث الثامن أن الناس منذ عشرة قرون ضالون، وأن إجماعهم على تقديم السلف إجماع باطل، وأقرَّ بأنهم خاطئون جميعاً، وأنه مخالف لهم كلهم، ولهذا هجم على كتب الدين كلها من غير استثناء وادعى بأنها كتب جهل وضلال، ولم يمدح كتاباً واحداً من كتب علماء المسلمين على كثرتها وتنوعها.

كما أنه لم يثن في أصل كتابه على عالم واحد من علماء المسلمين على كثرتهم، بل رماهم كلهم عن قوس واحدة بالجهل وعدم الفهم، ولهذا كان من أعظم تلبيسه في قلب الحقائق: أن العلم والثقافة والتقدم والرقي والحياة كل ذلك هو علم الطبيعة والمادة وعلوم الإلحاد والعلوم الدنيوية المحضة وما

مؤكدين لنا أن الإنسان ما خلق ليكون عالماً ولا ليكون شيئاً كبيراً، ولا ليغالب الطبيعة، ولا لينازع الله في علمه وقوته وقدرته ... الخ!»

يتعلق بذلك، وليس عنده ما يسمى علماً وحياة وتقدماً وثقافة غير هذه العلوم ولواحقها، أما علوم أصول الدين من التفسير والحديث والفقه وجميع الدين، فليست عنده بعلم، ولا يقيم لها أدنى وزن، بل هي الجهل بعينه كما سوف تقف على ذلك.

ولهذا أكثر من السخرية والاستهزاء والازدراء بها، وقد صرح بأن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث، وقد قال في بعض عباراته في الحط على الفقهاء وأقوالهم: «والإسلام لا يقبل شهادة الأطفال، ونحن نفهم أنه إنما رد شهادتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء، أما قول بعض الفقهاء أو قولهم كلهم إنه رد شهادتهم لأمور أخرى ذكروها فهو من جملة أقوالهم الكثيرة التي تموج بها الكتب من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية». انتهى.

فأقوال الفقهاء كلهم ليس لها قيمة في العلم والعقل والدين عنده كما ترى، إذا فهمت هذا فاعلم أنه إذا أطلق العلم في هذا الكتاب وأثنى عليه بالثناء الطويل العريض، وذم الجهل كذلك، فاعلم أنه يريد بالعلم ما ذكرنا تعريفه، وبالجهل ما شرحنا حقيقته، وكذلك إذا ذكر الحياة والثقافة والتقدم فإنه يريد بذلك هذا الذي ذكرنا، فافهم هذا ولاحظه في جميع فصول هذا الكتاب تجده صحيحاً.

ولقد بلغ به التعصب والغلوّ في متابعة الهوى ولجاجة الخصومة والعناد إلى حد أن حاول سلب اسم العلم والعلماء من علماء الدين، ومنحه بطيب نفس للملاحدة، ولم يكتف بذلك حتى كابر وادعى أن علماء الملاحدة هم العلماء الممدوحون في القرآن كما يأتي، وحاول أيضاً سلب مسمى العقل والعقلاء من علماء الأمة وعقلائها وإعطائه علماء الملاحدة الذين لهم معرفة في أمور الطبيعة ونحوها أو لهم معرفة في بعض الأمور المحرمة، فهؤلاء عنده هم أهل العلم والعقل والحياة الصحيحة والثقافة والسعادة، ومن خالفهم من أئمة الدين فهم أهل الجهل والغباء والجنون والشقاء وكل وصف ذميم، فلينظر العاقل المنصف هذا الخضوع التام والاستسلام الكامل والخدمة الصادقة للملاحدة ومروجيهم، وهذا البغض المنكر والمقت الشديد لعلماء الملة، ولينظر ماذا يراد من وراء هذا وما هو الدافع إليه، فإنه أمر لا ينبغي السكوت والإغضاء عنه.

الملاحظة الخامسة:

ينظر ما هي الأسباب التي دفعته إلى هذا الحد البعيد في التشنيع على المسلمين بتكرر الخطب أيام الجمع وترغيبهم في العبادة والتقوى، ويدعي أن هذه الدعاية مخدرة عن العمل، ثم يُنظر إلى سكوته الطويل عن جميع

الدعايات الوقحة المزخرفة المرغبة في الإلحاد والفجور والفواحش وحضور مواضع اللهو من الرقص والغناء ونحو ذلك، وقد ذكرت إحدى مجلات «أم درمان» وغيرها أن عدد الذاهبين إلى بيوت السينما أكثر من عدد الذاهبين إلى المدارس في الإحصاء، هذا في المدارس فكيف بالمساجد، فرجل يدعي أنه يقصد الحث على العمل كيف يشنع على خطباء الدين أيام الجمع، وعلى الذاهبين إلى المساجد أوقات الصلوات، ويسكت كأنه أخرس عن كثرة الدعايات الطويلة المتنوعة في الحث على الفجور والإلحاد؟! وعن كثرة الذاهبين إلى مواضع اللهو ونحوها واستغراق أكثر أوقاتهم في ذلك؟! لا شك أنه ماجن مستهتر منافق متلاعب في دعايته، فقد علم العقلاء كلهم أنه لا أشد ولا أعظم في التخدير والتثبيط عن الأعمال النافعة من الاشتغال بأعمال اللهو والغرام والتعلق بالعشق والهيام والفتنة بحب الصور، بل هذا بمنزلة السكر لا بمنزلة التخدير، فإنك لا تجد أعجز ولا أوهن ولا أكسل من المنهمكين في الملاهي، والمفتونين بالعشق والتعلق بالصور الفتانة، ثم أي تخدير في الخطب التي تحذر من الكسل ومن فتنة الدنيا والوقوع في الأخلاق الرديئة، بل هي الدافع القوي لإثارة العواطف الدينية الباعثة على الأعمال النافعة، لأنها تلهب الإيمان والدين الصحيح، والفطرة المستقيمة الكامنة وتوقظها، فإن الدين الصحيح من لوازمه العمل لإعزاز الحق وحماية الفضائل وطلب مرضاة الله بالجهاد في سبيله والفوز بجنته

والنجاة من ناره، فأين حالة هذا من حالة من فتن بصورة جميلة الهندام لا يهمه ولا يشغل قلبه من هذه الدنيا كلها إلا الحصول عليها والانسجام معها وقضاء الوطر منها؟! فأي الفريقين أشغل عن العمل وأحرى بالتخدير؟! فلينظر المنصف ما هي الأسباب التي دفعته إلى ما ذكر مع ما تقدم.

الملاحظة السادسة:

يجب أن يُعلم أننا من أعظم الناس دعاية إلى الحث على العلم والعمل الديني والدنيوي، وأننا نرى أن التجارات والثراء المالي وتعلم الصناعات كلها من أعظم العوامل التي لها الأثر في التقدم والتأخر، وأنه يجب تعلم مبادئ هذه الأمور بقدر الحاجة، فلسنا ننكر شيئاً من ذلك، كما أنه ليس في المسلمين ممن يعتدّ بقوله من ينكر ذلك، بل المسلمون يقولون إن الواجب تعلم جميع الوسائل التي بها يحصل عز الإسلام وتقدمه، وقد صرح غير واحد من علماء الملة أن تعلم الصناعات ونحوها مما به قوام الأمة فرض من فروض الكفاية.

ومن القواعد المعروفة في كتب الأصول المعمول بها أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد نوه القرآن العزيز بهذا الأصل تنويهاً موجزاً كافياً لم يبقَ وراءه مطلب لأحد، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم

مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال:٦٠]، وهذا يتناول جميع صور القوى، ويتناول جميع ما في استطاعتنا منها وما نستطيع أن نعمله، فهو سبحانه أمرنا بالاستعداد بجميع ما نملكه من قوة وجهد، ومعلوم أن هذا لا يحصل إلا بمعرفة الوسائل التي تمكن من ذلك وتسهله، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ [النساء:٧١]، وهذا أمر لنا بالحزم والاستعداد التام والتيقظ الدائم وسوء الظن بمقاصدهم المجهولة، ولكن علينا أن نعلم ونعتقد أن تحصيل هذه الأمور من صناعات وغيرها لا يحصل به النفع الناجح المستقيم المطلوب إلا إذا أقيمت على الدين المتين، وإذن فالواجب علينا أن نؤسس هذه الأعمال ونحوها كلها على الدين، وتأسيسه الصحيح هو الاجتهاد في تطبيقه على ما كان عليه السلف الصالح؛ أي: الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى وهو العمل بالكتاب والسنة، وذلك سهل يسير ولله الحمد إلا على القلوب المظلمة الخبيثة، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

ويجب أن يُعلم أنه لا تنافي بين الأخذ بعلوم الدين والعمل بالعلوم الصناعية والتجارية والمادية والاقتصادية ونحو ذلك، فليس في الدين حرف واحد ينهي عن الأخذ بهذه الأمور، وإنما يدّعي عدم إمكان التوفيق بينهما

زنادقة الملاحدة والمنافقون الذين لم يفهموا الدين على حقيقته، ولهم مقاصد سيئة في الصد عن سبيل الله، فيتخذون ذلك ذريعة إلى الانحلال والشك فيه والمروق منه كما فعل هذا الرجل في هذه الأغلال.

الملاحظة السابعة:

اعلم أن هدفه الأكبر الذي وجه إليه جميع اللوم والذم والحط الشديد في هذا الكتاب هم أولئك الذين أيقظوا فكرة المسلمين بأن طريق المجد الإسلامي والقومي ينحصر في العمل بالكتاب والسنة في أصول الدين وما يتعلق به، ثم بالأخذ بالأسباب المشروعة فيما يلزم الأمة، وقد ذكرهم في صدر كتابه في دعواه أنه «يوجد جماعات عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة يرون أن طريق المجد الإسلامي المنشود ينحصر في الرجوع إلى الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى، وفي تنفيذ الحدود الشرعية، وفي أداء الزكاة، وفي إقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية، والإيمان بالله والجهاد الديني في سبيله».

هكذا ذكر عنهم، ثم إنه خالفهم فادعى أن المجد القومي ينحصر في الأخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية، ثم ذكر أن الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى أي: غير نتائج المجد، ولهذا فسرها في الموضع الآخر بأنها ملهاة وتعويق ومصرف خبيث، فجميع ما في كتابه من

سب وحط يوجه إلى الجاحدين والجاهلين والهدامين والرجعيين والمغفلين والبائسين والخرافيين، وأمثال ذلك فكله موجه إلى هذا الهدف، وهم هؤلاء الجماعات الذين ذكرهم وذكر رأيهم، وجميع ما يوجد في كلامه من مسبة الجمود والرجوع إلى الوراء والحماقة والبؤس والشقاء والأوهام والخرافات والأباطيل، وأمثال ذلك؛ فهو موجه إلى مقالتهم التي قالوها، وهي الأخذ بالأخلاق السلفية والعمل بالكتاب والسنة على ما كان عليه السلف الصالح كما قال الإمام مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها».

والسبب الوحيد الذي دفعه إلى هذه الجرأة النكراء هو أنه رأى هؤلاء الجماعات العظيمة ـ بيّض الله وجوههم ـ واقفين في وجه دعايته وأقوالهم مضادة لما يحاوله، ويجمح إليه في الحث على المروق من الدين، والأخذ بأخلاق العصريين الملاحدة كما سجله في كتابه، لهذا حرج صدره وضاق بهم ذرعاً، فلم يجد بداً من الطعن فيهم والحط عليهم وإساءة أقوالهم وآرائهم بهذا الهراء المنكر ليخلو له الطريق، ولكن ما زاده هذا الصنيع إلا رجساً إلى رجسه وعاد سهمه في نحره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

الملاحظة الثامنة:

اعلم أن قاعدته التي يعتمد عليها ونقطة دائرته التي يدور حولها في دعايته أن التقدم كله والرقي والسيادة العالمية كلها، وملاك ناصية الوجود

كله محصور في معرفة شيء واحد، وهذا الشيء الواحد هو معرفة قوى الطبيعة ونواميسها كما صرح بذلك، وهذه عبارته بحروفها في صفحة ٨٢: «وإن ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل أنواع الاستقلال والسيادة، لا يعود إلى فساد في الأخلاق، ولا إلى خلاف في الرأي والقلوب[1] ولا إلى شيء مما يحسبه الجاهلون، إنما يعود إلى شيء واحد فقط، يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين؛ أي الجهل بقوة الطبيعة ونواميسها». انتهت عبارته.

وهي إحدى سجداته العمياء للطبيعة ونواميسها، فالمصيبة عنده والبلاء الذي أصاب المسلمين هو جهلهم بقوى الطبيعة ونواميسها، والعلم والقوة والسيادة العالمية وناصية الوجود كله بيد العارفين بقوة الطبيعة ونواميسها، أما الأخلاق الدينية كلها من توحيد وغيره فكل ذلك بمعزل عن التقدم، بل هو أوهام وملهاة وجهل وخرافات لها نتائج أخرى وهي التأخر والانحطاط، وعلى هذه القاعدة المنكرة بني جميع دعايته وجعل الدين مضاداً لها وحض على رفضه، فقد أطال في تكرار هذه القاعدة في كل صحيفة وجملة إلا ما ندر تكريراً وميلاً بمغالاة زائدة ومجازفة حادة، وأساليب متنوعة، وكتابه كله يدور على هذا الغرض، مع دعواه فيه بأنه حاول به فهم الدين، فيكون قد

---

(١) كلامه صريح في أنه لا يرى فساد الأخلاق ولا الخلاف في الرأي ونحوه عائقاً عن التقدم.

فهم أن علم الطبيعة ونواميسها هو أصل الدين عنده، فيكون الدين هو فهم الطبيعة ونواميسها، فيكون الله خلقهم لذلك ويكون معنى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، أي: ليفهموا الطبيعة ونواميسها، وهذا من آيات الله فيمن خرج عن نور كتابه المبين.

الملاحظة التاسعة:

إذا علمت أن أصل دعايته وأساسها الذي يدور عليه كلامه كله هو الحث على معرفة الطبيعة ونواميسها، فاعلم أنه سهل الحصول على ذلك، فجعل معرفة هذا الأصل الكبير عنده موقوفة على شيء واحد ولا سبيل إلى الوصول إليه إلا بهذا السبب الوحيد، وهذا السبب هو الاعتماد الكلي على الأسباب المادية، والاعتقاد بأنها فاعلة بطبعها حتماً ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها، ولا يمكن الحصول على هذا الاعتقاد أيضاً إلا من طريق واحد وهو الكفر بمشيئة الله تعالى وتدبيره لهذا العالم وتصرفه فيه بجميع أسبابه؛ بالقطع والوصل والإعطاء والمنع، فإذا كفر بهذه المشيئة المطلقة كان سببياً محضاً والنجاح محتوم له، ولا يمكن أن ينجح إلا إذا كان سببياً محضاً، فطريقة الحصول على النجاح هي أن يكون الإنسان سببياً محضاً، ولا يمكن أن يكون سببياً محضاً إذا آمن أن الله يتصرف في خلقه بما اقتضاه علمه ورحمته وحكمته تصرفاً مطلقاً بقوة قاهرة جبارة مهيمنة على كل أسباب الوجود

تتحكم في نهاياته وغاياته، ثم إنه تجاوز ذلك إلى ما هو أكبر منه؛ فأشار إلى أن الحصول على الكفر بالمشيئة موقوف على الكفر بوجوده تعالى، فإنه صرّح بأنه لا إله بلا فعل، وأن نفي فعله نفيٌ له.

ثم ادعى أن الإيمان بفعله يوجب عدم النجاح وهو خلاف المطلوب كما يأتي، وإنما طوَّل هذه الطريق وجعلها ملتوية غمغمة وتلبيساً على الجهالة وضعفاء البصائر، ومن ضرب الله قلبه بالطمس والإقفال والعمى، ولهذا بالغ هذا الملحد في الغلو بالاعتماد على الأسباب والتعلق بها وحدها، وصرح بأن تأثيرها لذاتها لا لمشيئة الله وإرادته، وادعى بأنه يجب الجزم بأن الله لا قدرة له على تغييرها عن سبيلها، فلا يمكن بحال أن يغيرها الله فيجعلها إن شاء أسباباً وإن شاء جعلها غير أسباب، أو أنه يفعل بدون الأسباب، فإن هذا عنده هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها.

وقد كرر هذا الأصل مراراً كثيرة، قال في بحث التوكل صفحة (٢٦٨): «لست أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله يدخل فيها[1] فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب، أو مع

(١) انظر إلى دقة إلحاده، فإنه جعل لفظ «يدخل» بدل «يتصرف» تشويهاً لسمعة المشيئة، قاتله الله ما أخبثه.

الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب، فإن هذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها». انتهى.

فتأمل هذا فإنه لم يجعل الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله في حصول النتيجة كافياً في نجاح العمل، بل لا بد عند الأخذ بها من الكفر بقدرة الله على تغييرها، فلا يمكن بحال أن يغيرها الله أبداً، فإنه جعل الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله له قدرة على تغييرها وقلبها أو له قدرة على أن يفعل بغيرها فوضى وسفهاً لا ضابط له كما يقول، وقد صرح بهذا في المشكلة التي لم تحل كما سيأتي، ولا شك أن هذا يبطل جميع النبوات[1] لأن النبوة لم تثبت إلا بالمعجزة، والمعجزة هي خرق للأسباب العادية أو قلب لها وإلا لم تكن معجزة، وهذا يبطل جميع الأديان، ولهذا كان روح الكتاب هو رفض الأديان.

فتبين لك أن هذا الأصل الخبيث الوحيد الذي هو مفتاح الطريق إلى الوصول إلى تلك القاعدة التي اعتمدها هو جحد قدرة الله ومشيئته العامة بل وربوبيته، ومغزى هذا وفحواه إنكار وجود الرب جل جلاله، أو على الأقل جحد كماله، لأن الرب الذي لا يدبر ملكه ولا يتصرف فيه بالقطع

---

(١) بل ويبطل الاعتراف بالربوبية؛ إذ الرب الذي لا يتصرف في ملكه تصرفاً مطلقاً ليس بكامل، بل هو ناقص مقهور.

والوصل على ما تقتضيه إرادته ورحمته وحكمته، إما معدوم أو عاجز كالأصنام، والمعدوم لا شيء، والعاجز لا يكون إلهاً يستحق العبادة ولا الدعاء، ولهذا صرح فيما يأتي بأن الدعاء لا فائدة فيه بعد أن قرر أنه عبادة، فجعل دعاء الله كدعاء المعدوم أو الأصنام الذي لا فائدة فيه، فهذا حل لغز هذا الكتاب المظلم وفك طلسمه المعقد، وبه تعرف أن حقيقته الكفر بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

الملاحظة العاشرة:

إذا علمت أن كلامه يدور على المغالاة في التعلق بالأسباب المادية وتأثيرها بطبعها، فيجب أن تعلم أننا لا ننكر تأثير الأسباب وارتباطها بالنتائج، وأن تأثيرها بالقوة التي أودعها الله فيها، فالماء عندنا يروي بنفسه، والسكين تقطع بنفسها، والنار تحرق بنفسها، وهكذا جميع الأسباب مربوطة بنتائجها، فهي عندنا كما هي عند جماهير المسلمين من أهل السنة وأصحاب الحديث مؤثرة بنفسها بالقوة التي أودعها الله تعالى فيها بمشيئته وقدرته، ولا نقول إن الأسباب لا تؤثر بنفسها أو بالقوة المودعة فيها، وإنما ذلك التأثير بفعل الله عند اقتران السبب بالمسبب، كما هو مذهب طائفة من المنتسبين إلى السنة، فإن هذا القول مرجوح وليس بصحيح كما سوف يجيء بيانه في بحث الأسباب.

وليُعلم أن النزاع بيننا وبينه في الأسباب إنما هو في إمكان تغييرها عن

طبعها وصرفها عن وجهتها بقطع أو وصل كخلق أسباب تعارضها أو تفسدها، فهو يدعي أن الله لا يغير فيها أبداً فلا يجعلها إن شاء أسباباً وإن شاء جعلها غير أسباب، بل هي عنده مطبوعة طبعاً مؤبداً ليس لقوة من القوى صرفها عن سبيلها، فلا يمكن أن يغيرها الله أو يغير فيها شيئاً، ونحن ننازعه في هذا فنقول: إن الله خلقها وأبدعها من العدم إلى الوجود، فهي ملكه وتحت تصرفه، فله القدرة الكاملة، والمشيئة المطلقة عليها، فهي بنتائجها تحت سيطرة المشيئة الإلهية والقدرة الربانية، فلا تجري إلا على مقتضى مشيئته وإرادته، فإن شاء جعلها أسباباً موصلة إلى نتائجها كما هي العادة الأغلبية، وإن شاء قطعها أو غيّرها فجعلها غير أسباب نافعة؛ بل قد يحولها إلى ضدها كما وقع كثيراً، وقد حوّل الله النار برداً وسلاماً بعد أن كانت حرارة محرقة، ونظائر ذلك من المعجزات، بل كون النتائج تتخلف عن الأسباب أمر معروف لدى الخاص والعام بالضرورة والحس، بل ليس في الدنيا سبب واحد مستقل بنتيجته بدون سبب آخر، كما أنه ليس في الدنيا سبب لا يبطله سبب آخر أو يفسده أو يغيره.

وينبغي أن يعلم أننا إذا أطلقنا الأديان فنريد بذلك الإسلام ودين أهل الكتاب خاصة دون غيرهم من أهل النحل الأخرى، لأنها لا تسمى أدياناً إلا مضافةً إلى أهلها، وإذا أطلقنا الدين الصحيح فهو ما كان عليه السلف

الصالح الأول والقرون المفضلة في أصول الدين وإثبات الصفات دون تحريفها الذي يسميه المتأخرون تأويلاً، وإذا أطلقنا الإسلام فالمراد به ما كان عليه السلف الصالح ومن اتبعهم.

ويدخل ذلك تبعاً في الجملة البدع التي لا تخرج من الملة دون الجهمية المحضة، والاتحادية وأمثالهم، فإن هؤلاء كفار مرتدون.

الملاحظة الحادية عشر:

ينبغي أن يُعلم أن أهم ما قصدناه في موضوع كتابنا هذا هو بيان مضادة كتابه للشريعة الإسلامية، بل وغيرها من الشرائع السماوية، وأنه مضاد لها من كل وجه، لئلا يروج كلامه الذي خادع به على من لم يعرف حقيقة أمره، ولا سيما فإنه لما أسقط في يده وارتكس في هذا المأزق الحرج حاول الخروج والتخلص منه؛ فأكثر من اللجاجة والمغالطة والخداع في مخاطباته ومكاتباته، مدعياً أنه ليس في كلامه ما يخالف الدين، وأنه ما قال غير الحق، وأن الناس لم يفهموا كلامه.

فأردنا أن ننبهه على هذا الأهم، وإن كان في كتابنا ما يتضمن مباحث أخرى متعلقة بهذا الأصل، وليعذرنا القارئ الكريم مما يراه في بعض الكلمات من الشدة، فإننا لم نعامله أكثر مما اعتدى به علينا وعلى

ديننا العظيم، ولا بد من أن يكون الجواب مناسباً لكلامه، ومن الواجب في مثل هذا أن يُنزل منزلته اللائقة به التي اختارها لنفسه، ويكال له بالصاع الذي كال به لغيره.

ولقد كان من الممكن له أي يبدي رأيه ـ كغيره ـ بدون بهت وسخرية وتهكم واستهزاء، وكذب وافتراء لا طائل تحته ولا فائدة فيه، وبدون أن يرتكب هذا الأمر الكبير ويقتحم هذا الشيء الخطير، ومعاملة الإنسان بجنس عمله من العدل، وليس من العدل أن يُحترم من لم يحترم شرع الله ونظامه، فلا كرامة لمثل هذا، وصنيعه في كتابه صنيع المتهكم المتحدّي لا صنيع العاقل المستدل المرشد، فلا بد من الإجابة بما يليق به وبكتابه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

فهرس الجزء الأول من كتاب «بيان الهدى من الضلال»

الصفحة	الموضوع

الجزء الثاني:

قال الشيخ إبراهيم السويح ـ رحمه الله ـ في الجزء الثاني من كتابه:

ثم قال ـ أي القصيمي ـ: «هذه قضايا قد آن الأوان لأن تكون معلومة، ولكن ماذا أريد أن أقول؟ أقول إن التدين المحرف الواهم نكبة على الجماعات وعلى الأفراد».

فيقال: هذا الذي تريد أن تقوله من كون هذا الدين الذي عليه المسلمون محرّف واهم، قد بينا لك أنه قول غير صحيح بل باطل بلا ريب، فالدين الذي عليه كثير من المسلمين اليوم خصوصاً أهل السنة وأصحاب الحديث، وهو ما قرره الإمام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما من أكابر المسلمين، وهو ما ذكره أئمة السلف الصالح في كتبهم المشهورة، فهذا الدين ليس بدين محرف ولا واهم، بل هو دين صحيح لا غبار عليه ولله الحمد، فإذا كان الله قد أعماك عن فهمه ومعرفته وتصوره على وجهه فليس لك أن تحكم على المسلمين بالضلال، وعلى دينهم بأنه محرّف واهم، فتنكر ما لم تحط به علماً، مع أنك متناقض فإنك في كتبك السابقة أدعيته ودعوت إليه وقررت أنه دين صحيح لا ريب فيه، وذكرت البراهين المتعددة على ذلك.

ثم لما انقلبت أخيراً ذهبت تدعي أن البشر عاجزون عن فهم الدين الصحيح، وتدعي فيما سبق وفي هذا أن ديننا محرّف واهم، وتدّعي مرة أخرى أن إيماننا بالله وأخلاقنا الدينية ليس فيهما عجز، وهذا عين التلاعب.

وأيضاً إذا كنت في شك من هذا الدين الذي نحن عليه فعليك أن تذكر هذا الدين المحرّف وتبيّن وجه تحريفه وفساده، فتذكر عقيدة أو عقائد من التي نعتمدها كالواسطية أو غيرها من كتب ابن تيمية أو ابن القيم أو محمد بن عبدالوهاب ونحوهم، ثم تجيب عليها وتبيّن عدم فهمك لها ووجه فسادها، أما الهجوم على دين الإسلام الذي عليه المسلمون بأنه دين محرّف هكذا كيلا مجازفة، فقول لا يجرؤ عليه إلا من انسلخ من الدين والعقل جميعاً، ونحن ـ ولله الحمد ـ على بصيرة من ديننا ونعلم أنه صحيح غير محرّف ولا واهم، وليس بنكبة على أحد؛ لا على جماعات ولا على أفراد، بل دين الإسلام الحنيف هو دين الفطرة، ونحن مستعدون لمباهلتك على ذلك، فلو قام المسلمون كلهم جميعاً بهذا الدين وعملوا به وأخلصوا في العمل به لخلصوا أنفسهم وشعوبهم كلها من عدوهم، ولتقدموا به كما تقدم من عمل به من أسلافهم وكانوا على غاية من العز والسيادة وضخامة الشأن».

لقد ضلَّ من أغراك بالسب والهجا ...

ألا أيها الغمر الذي غرّه الكبر ... ترديت من عال وناسبك القعر
تمنيت يا مغرور ما ليس حاصلاً ... فساءت لك العقبى وصادمك الدهر
أماني مغرور تزايد عجبه ... فليس له إلا الإهانة والدحر
فأصبح مدحوراً لدى كل عاقل ... له الطرد والإبعاد والذم والهجر
تفكر طويلاً يا جهولاً ترادفت ... عليه المخازي فهي في متنه أسر
خسرت بهذا البيع أخسر صفقة ... فما أنتج المسعى ولا أربح الوفر
نبذت نفيس الدر واخترت ضده ... ومن يكره الياقوت يعجبه البعر
تخيرت عن سبل الرشاد غواية ... وصدك عن طرق الهدى الكبر والأشر
فأصبحت مصبوباً عليك شتائم ... كما كان مشبوباً على قلبك الجمر
ظننت خداع الله في الدين هينا ... ولن يخرج الله الذي كنه الصدر
فجئت بأقوال النفاق مخادعاً ... فقد بان ما تخفيه وانهتك الستر
أبى الله إلا أن يعاقب من بغى ... وأضمر سوءاً قصده الكيد والشر
فما نلت مما كنت تبغيه ضلة ... سوى عكس ما ترجو وحل بك الضر

* * * *

لقد جاء في «الغل» الذي قد عملته ... لنفسك قول ليس يخفى به الكفر
تحارب دين الله يا شر ملحد ... وتلصق آراء به مالها قدر
وتعرض عما فيه من ساطع الضيا ... ومن مُثل عليا ينال بها الفخر
فكم من شعوب مسها الويل والعنا ... فجاء لها من نوره المجد والنصر

وكم من شعوب ذاقت الذل والشقا به اعتصمت يوماً فطار لها ذكر
فسل من درى التاريخ من كل عارف إذا كنت لا تدري كأمثال من غروا
وسل من له علم صحيح وفكرة لكي تعرف الغرّا فإنك مغتر
وإلا فعز الدين ـ ويحك ـ بَيِّن كما بان وجه الشمس واتضح الظهر
دعوتَ إلى الإلحاد جهدك معلناً بأن فساد الناس ليس له إثر
سوى أنها الأسباب تجري بطبعها وليس لرب العرش في سيرها أمر
وهذا هو الإلحاد لا شك واضح فكيف يروج المين أو ينفع العذر
وتزعم أن الغرب ما سار وارتقى ولا ساد إلا حينما حله الكفر
وأن نظام الدين أخر أهله وليس لأهل الدين عقل ولا فكر
تجاهلت عن كل الشعوب التي هوت وسيرتها الإلحاد والكفر والنكر
فكل ذوي الجهل الشنيع وشبههم من الأمم السذجى وليس لها حصر
همو عندك الراقون في العلم والحجى لأنْ ماهم في الدين فهمٌ ولا خبر
فإنك عللت التأخر عندنا بأسباب هذا الدين لا سيما الذكر
وإقرارنا التدبير لله كله بقدرته من شأنه الحكم والقهر

* * * *

أطلت لحاك الله في القَدح في الدعا وتسفيه من يدعو إذا مسه الضر
نفيت صريحاً أن يكون وسيلة وليس له نفع سوى أنه الشر
وكررت هذا الكفر في كل موضع لعلمك أن الدين أشرفه الذكر
فهل قال هذا القول قبلك مشرك سوى الملحد الأشقى ومن قاده الخمر
وفسرت عدل الله في الحكم والقضا بقرمطة شنعاء بل إنها جبر

بتفويضه الأسباب تحكم ذا الورى ... بطبع قديم عندها العسر واليسر
فكل أسير للطبيعة موثق ... وليس يعين اللهُ من ضده عسر
فعطلت هذا الكون عن أمر ربه ... وصيرته طبعاً له الوصل والبتر
فلا فرق بين المحسنين وضدهم ... فلا تنفع الحسنى ولا يوبق الوزر
وهذا هو الكفر الصريح مؤكداً ... ومن شك في هذا فليس له حجر

* * * *

وتسلك في أمر النسا شر مسلك ... إباحية صلعاء ليس لها ستر
فتزعم أن المسلمين يرونها ... كبعض متاع البيت إن صانها خدر
فلا العلم أعطوها ولا شيء غيره ... سوى القيد والأصفاد قد شدها الأسر
خَلقت فجوراً ثم جئت مدافعاً ... لتوهم أغماراً إلى الغي قد جروا
بأنك تدعوها إلى العلم والنهى ... وتدفع ما أبقى لها الجهل والقسر
فأسميت ما تنوي من الخبث والخنا ... كذا الرقص والفحشاء والخمر والسكر
هو العلم والتحرير والعدل والضيا ... وأما سوى هذا فليس به خير
فمن أعجب الأشياء أنك تفتري ... وتحسبُ أن الناس بالزور لن يدروا
فتصنع من دعواك في البهت حجة ... ومن ردّ ما تملي هو الجاهل الغرّ

* * * *

مدحتَ بني صهيون عظمت شأنهم ... وذا المدح والتعظيم حتماً له سر
«دسائس لا تدري اليهود بعشرها» ... حداك إليها السوء والخبث والتبر
وإلا فما هذي المحاماة دونهم ... وتحريف آي الذكر ما ردك الزجر
أضفت لهم كل المعارف والقوى ... ونحن جميعاً حظنا الجهل والفقر
وجردتنا من كل علم وقوة ... ومن كل آيات يفيض بها العصر

وقلـت جهـاراً دون أي تكـتم ... بـأن ضـلالاً أن يـتم لنـا أمـر
سـوى أن تمـسكنا بإبقـا حليفنـا ... ليـدفع عنـا إن أريـد بنـا الغـدر
فصرحت بالعـدوان والخبـث ظـاهراً ... ولكن أعمـى القلـب أقنعـه الهـذر
جننت بـأمر «الـنشء» فيمـا سمعتـه ... فأسرعت في تصديق من قوله هجر
فأعماك ما أبـصرت في الـبر والفـضا ... ومن سفن شـتى يمـوج بهـا البحـر
فصدقت مـا يـروى علـى كـل حـاة ... وقد طار منك العقل وانـتفخ الـسحر
وأمـا علـوم الـدين والنـور والهـدى ... جميعاً ففي أذنيك عن سمعهـا وقـر

* * * *

ألا يـا نـصير الكفـر ويلـك فاتئـد ... ولا تنطح الصفوان يـدمغك الـصخر
لقد ضل من أغراك بالسب والهجا ... كمـا زل مـن أغـواك نيتـه المكـر
أتحـسب أن الـدين سـهلاً أساسـه ... سـتنزله أقوالـك الـزور والفجـر
أتحـسب أن الـدين تخفـي ضـياءه ... عجاجتـك الهوجـا وآثارهـا الكـدر
أتحسب أن الناس قد غـاب عـنهم ... مقاصـدك الـسوآى وأفعالـك المـر
أتحـسب أن الـدين يـدرك بالريـا ... بـلا فعـل إخـلاص يـصاحبه الـبر
فمـا أنـت في دعـواك إلا منـافق ... كأصحابك النوكي وهم في الورى كثر
فـأنتم فـساد النـاس في كـل أمـة ... وجرثومة يضنى بها الجسم والفكر

* * * *

لقد فات ما ترجو وأخفقـت دونـه ... فشب على أحشائك «الغل» والحرّ
فدعنا من التلبـيس فـالحق واضـح ... وإن ظـلام الليـل يفـضحه الفجـر
وإن خـداع المـرء يعـرف ظـاهراً ... وكـل ريـاء سـوف يجـري لـه نـشر

فمن عجب دعواك أنك مصلح … وأنك ترجو أن يزاد لك الوفر
فأمليت ما أمليت بالطيش والهوى … مقالة مأفون تمادى به السُكر
فتقدح في الأديان جهراً وترتجي … بأسباب هذا القدح يوعى لك الذخر
«كمطعمة ا لأيتام من كد فرجها» … وتزعم في ذا الفعل أن لها أجر
لحى الله قوماً صانعوك غباوة … لأهواء نفس نالها الخوف والذعر
أمثلك يا مأفون يخشى ويُتقى … لقد هزلت نفس يهولنها الصر
فما أنت إلا ضفدع مترنم … ينق على بعد إذا بله القطر
فلا تجعل العدوان للدين راحة … فبعداً وسحقاً عاقك العسر والخسر
فإنك لن تشفى من الغيظ والبلا … بلى إنْ هذا الوحر يلهبه الوحر
فمهلاً قليلاً إنك اليوم غافل … ستندم في الدنيا ومن بعدها القبر
ومن بعد ذا يوم عسير حسابه … به يعلم الإنسان ما أثمر العمر
وكلٌ بذي الأيام يلقى جزاءه … فليس بها هَضْم لحق ولا جور

إبراهيم بن عبدالعزيز السويح

فهرس الجزء الثاني من كتاب «بيان الهدى من الضلال»

صفحة | الموضـــــــوع

صفحة	الموضـــــوع
٣٧	كلام له في تأثير نظرات بعض الموهوبين، وتأويلات أخرى للعين.
٤٢	زعمه أن المسلمين ظلوا مئات السنين يعتقدون أنهم لن يُغلبوا
٤٤	تهجينه رأى جماعات ينادون بالأخذ بالأخلاق الدينية.
٤٨	إنكاره على خطيب يدعو المسلمين إلى إدراك المرغوب بدعاء الله موقنين بالإجابة.
٥٥	زعمه أن شيخاً من القدماء ذكر أن الأعداء لا يستولون على دمشق.
٥٦	نقله قول أحد القواد «إذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما».
٦١	تعظيمه أمر اليهود وتحقيره شأن المسلمين.
٦٨	لماذا تأخر المسلمون، وبماذا تقدموا من قبل؟
٨٠	دعواه أن التقدم لا يلزم أن يكون قائماً على الدين والتقوى.
٨٣	كلامه على الآيات الواردة في اليهود.
٩٩	قوله: القرآن لم يقدم لنا صك الضمان من خطر اليهود.
١٠٦	تعظيمه أمر اليهود.
١٠٩	اجتراؤه على المقام الأقدس بأنه قد وكل خليقته إلى الطبيعة.
١١٨	كلامه في النظام المفروض على الكون وأنه لا يتغير.
١٢٠	قوله: إن الأنبياء والمصلحين جاءوا بالنظام والدعوة إليه، وجوابه

صفحة	الموضـــــــوع

صفحة	الموضـــــوع
	وكيف وجدوا، واستشهاده بشعر المعري.
٥٥١	تعليله ذلك بأنهم ينكرون أن يكون بين أحداث الوجود ترابط.
٥٥٤	اتهامه المتدينين بالقسوة إذا قدروا.
٥٥٦	تساؤله: هل معنى ذلك أن الدين نفسه مفسد للبشر؟
٥٥٧	جوابه: كلا، لكن إذا أخذ الدين على غير وجهه جاء مضراً!
٥٥٩	وأن البشر عاجزون عن فهمه وتصوره على وجهه النافع.
٥٦٠	الرد عليه بأن الله قد يسر للناس فهم الدين الصحيح النافع، وبيان أدلة ذلك من الكتاية والسنة ونصوص الأئمة.
٥٦٧	زعمه أن المبادئ الإنسانية العظيمة تأتي سابقة لاستعداد الجماهير من البشر.
٥٧٠	قوله: إن من نتائج ذلك نهوض أقوام يحاربون الأديان.
٥٧٢	تقسيمة الإنسانية إلى ثلاث حالات: أن تكون بلا دين، أو على دين باطل، أو على دين صحيح، ومناقشته في ذلك مع المقارنة بأقواله الأخرى.
٥٧٦	المقصود من الكتاب المردود عليه رفض الدين والدعوة إلى الإلحاد
٥٧٨	كلامه على ما يسر المستعمرين ويساعدون عليه من شؤون المسلمين الدينية، ادعاؤه أن الناس على دين محرف؛ أي باطل.

بيان الهدى من الضلال

في الرد على صاحب الاغلال

تأليف

العلامة المحقق الشيخ

ابراهيم بن عبد العزيز السويح النجدي

القاضي الشرعي

ورئيس محاكم المقاطعة الشمالية (في العلا وتبوك وملحقاتها)

الجزء الأول

١٣٦٨

المطبعة السلفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح ، بجزيرة الروضة (القاهرة)

صورة غلاف كتاب «بيان الهدى من الضلال»

الرد الثالث:

تشخيص أخطاء صاحب الأغلال الرئيسية وبيان ما دلت عليه من الإلحاد والمذاهب الإباحية

للشيخ

راشد بن صالح بن خنين

ويليها قصيدتان

للشيخ صالح بن سحمان

والشيخ صالح العراقي

تقريظ: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز

- رحم الله الجميع -

ترجمة الشيخ راشد بن خنين(١)

هو معالي الشيخ راشد بن صالح بن محمد بن عبدالعزيز بن خنين، ولد في الدِّلم عام ١٣٤٤ هـ، وبعد أن أصبح يافعاً بدأ بتعلم القراءة والكتابة في كتَّاب في الدلم، ثم بدأ بتعلم شيء من مبادئ العقيدة والنحو لدى أحد طلبة العلم؛ وهو الشيخ محمد بن الشيخ عبدالعزيز الصيرامي ـ رحمهما الله ـ، ثم لدى قاضي الخرج آنذاك الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، ثم سافر إلى الرياض وعمره لم يتجاوز الحادية عشرة لطلب العلم على يد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية سابقاً ـ رحمه الله ـ، فلما عُيِّن سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز مفتي عام المملكة والرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء ورئيس هيئة كبار العلماء ـ رحمه الله ـ، قاضياً لبلدان الخرج ومقر إقامته الدلم، عاد معالي الشيخ راشد إلى الدلم، وواصل طلب العلم على يد سماحته، وكاتباً عنده في المحكمة.

ثم رُشح معالي الشيخ راشد لتولي القضاء من قبل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ولكنه اعتذر لمواصلة الدراسة، فواصل الدراسة على

---

(١) نقلاً عن «شعراء من الدلم» للأستاذ عبدالعزيز البراك (ص٢٢-٢٣). وينظر «معجم الكتاب والمؤلفين في المملكة العربية السعودية» (ص ٥٢)، وموسوعة أسبار (١/ ٢٨٢).

يد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، حتى تم افتتاح المعهد العلمي بالرياض فالتحق به، وبعد تخرجه واصل دراسته في كلية الشريعة في الرياض، وبعد تأسيس رئاسة القضاء بالرياض طلب معالي الشيخ راشد العمل بها؛ فنُقل إليها، وكان أول عضو فيها، وتدرج في وظائفها حتى صدر الأمر الملكي بتعيينه وكيلاً لوزارة العدل.

وفي ٦/ ١١/ ١٣٩٧هـ، صدر أمر ملكي بتعيينه رئيساً عاماً لتعليم البنات بمرتبة وزير.

وفي ١٠/ ٦/ ١٤٠٣هـ، صدر أمر ملكي بتعيينه مستشاراً بالديوان الملكي، ولا يزال حتى اليوم، ومعاليه عضو بهيئة كبار العلماء منذ تأسيسها عام ١٣٩١هـ.

وقد كان معالي الشيخ راشد عضواً في مجلس إدارة المعهد العالي للقضاء سابقاً، وعضواً في مجلس إدارة مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية، وعضواً بمجلس القضاء الأعلى.

ومعالي الشيخ راشد، إلى جانب كونه إدارياً ناجحاً، عالم متواضع ذو صلة بمعارفه، كريم وأديب حصيف، وشاعر قال الشعر مبكراً، وشعره يتسم بالنضج والسلاسة، وقوة المعنى ودقة الوصف، بحيث إنك حينما تقرأ

بعض قصائده كأنك تنظر إلى ما يصف، ويتدرج في ذلك تدرجاً سهلاً.

ومعالي الشيخ راشد ينشر شعره في الصحف بين آونة وأخرى، وهو مقل في ذلك، إذ يحتفظ بقصائده بين دفتي ديوان مخطوط لم ير النور بعد.

ترجمة الشيخ صالح بن سليمان بن سحمان [(١)]

هو الشيخ العالم الفلكي صالح ابن الشيخ سليمان بن سحمان الفزعي الخثعمي، ولد في سنة عشرين وثلاثمائة وألف هجرية، ونشأ في حضانة والديه، وكان باراً بهما، وكان قد حفظ القرآن على يد والده العلامة سليمان بن سحمان ـ رحمه الله ـ، كما أخذ العلم عن عدد من أشهر وأكبر علماء نجد والحرم المكي، مما جعله بارعاً في شتى فنون العلم والمعرفة، ومن هؤلاء العلماء:

١) شيخ نجد العلامة الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ، وكان صاحب الترجمة ملازماً له في جميع مجالسه العلمية.

٢) الشيخ محمد بن عبداللطيف آل الشيخ.

٣) الشيخ العلامة سعد بن حمد بن عتيق.

٤) الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ.

٥) الشيخ الفرضي المشهور عبدالله بن راشد.

---

(١) نقلاً عن «علماء نجد خلال ثمانية قرون» (٢/ ٤٦٨-٤٧٢). وللمزيد ينظر: «قلائد الجمان في بيان سيرة آل سحمان» للأستاذ عمر بن غرامة العَمْري، (ص ٤١-١٠٥).

٦) الشيخ حمد بن فارس.

٧) الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ.

٨) الشيخ سعد بن وقاص ـ المقرئ في الحرم المكي الشريف ـ وقد أخذ عنه صاحب الترجمة تجويد القرآن الكريم في مكة، ومعه سماحة العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ.

صفاته:

كان الشيخ صالح ـ رحمه الله ـ حسن السيرة وحسن الخلق، وكان عالماً فاضلاً زاهداً ورعاً متواضعاً، عالماً في العلوم الفلكية، وله فيها الباع الطويل، وقد ألَّف من ذلك كتابه الشهير: «التقويم المبتكر المصفى الأوفى».

وكان يقول الشعر، وكان خطاطاً ورساماً، إلا أنه لا يحب الرسم ولا يمارسه، ولهذا فقد كان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل ـ رحمه الله ـ يستدعيه لكتابة الرسائل المهمة والكتب الدينية، ومن ذلك كتاب «الورد المصفى المختار» من اختيار الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ، وقد طبع أكثر من ثلاثين مرة.

أعماله الوظيفية:

من رغبته الشديدة وحرصه على طلب العلم ومجالس العلماء في جميع

أوقاته، فقد امتنع عن الوظائف الحكومية، بالرغم من أن الملك عبدالعزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ عرض عليه ذلك مرات عديدة، وكان عذره أنه يقوم بخدمة والده الشيخ سليمان الذي أصبح كفيف البصر.

وبعد وفاة والده عرض عليه الملك عبدالعزيز الوظائف، بل وطلبه أن يكون كاتباً له؛ لحسن خطه وأمانته، إلاَّ أنه اعتذر لكونه يرغب مواصلة العلم على المشايخ.

وبعد وفاة الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أمر الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ رئيس هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بتعيينه عضواً في الهيئة، لملازمته إياه، والاستفادة منه في كل ما يهمه، وقد استمر الشيخ صالح في عمله المذكور حتى أحيل على التقاعد لكبر سنه، وكان خلال ذلك يجلس لطلبة العلم لتعليمهم.

تلاميذه:

ومن أشهر تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم في التفسير والقرآن والفرائض والنحو وبرعوا فيه:

١) الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن سحمان.

٢) الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن محمد بن سحمان، الذي يعمل

الآن عضواً في هيئة التمييز بالرياض.

٣) الشيخ عبدالعزيز بن صالح بن سليمان بن سحمان، الذي يعمل الآن مفتشاً بإدارة تعليم منطقة الرياض التعليمية.

وعدد كثير غيرهم من طلبة العلم، فقد كان يجلس لطلبة العلم، من أبناء أهل العمار بالأفلاج، في مسجد العمار، وكانوا يأخذون عنه الفرائض.

وكان مثالاً حسناً في صلته لأرحامه، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم.

آثاره:

صنَّف ـ رحمه الله ـ في العلوم الفلكية ومواقع البروج وفي الحساب الأبجدي، وفي الشعر الإسلامي في الدعوة والنصح، ومن مؤلفاته:

١) كتاب التقويم المبتكر المصفى الأوفى، طبع بمطابع دار نشر الثقافة بالإسكندرية، ويبدأ من سنة ١٣٧٩هـ إلى سنة ١٤٢٤هـ.

٢) كتاب ملتقى الأنهار من منتقى الأشعار، وهو القسم الثاني لكتاب التقويم الأول.

٣) كتاب مجموع النفايس الشعرية والغرائب الشهية، شاركه ابن أخيه عبدالرحمن بن عبدالعزيز، يقع في ١٦٠ صفحة، ويعتبر بحق من

أعظم المصادر التاريخية؛ لاقتران التاريخ بالشعر على حرف حساب الجُمل.

٤) ديوانه الكبير «الجواهر البهية»، الذي يقع في مجلدين.

وقد قام الدكتور إبراهيم الفوزان بعمل دراسة للديوان، وقد صدر منه الجزء الأول، ويحتوي على الدراسة، والعزيزيات، والفيصليات، والمتفرقات، طبع سنة ١٤٠١هـ.

وفاته:

توفي ـ رحمه الله ـ في ليلة الجمعة الموافقة لأربع وعشرين خلون من شهر شوال، سنة اثنتين وأربعمائة وألف هجرية، في مدينة الرياض، ودفن في المقبرة المعروفة بـ(مقبرة العود).

وقد خلّف من الأولاد: عبدالعزيز، وسليمان، وعبدالرحمن، ومحمد، وسعد، وقد رثاه فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن محمد بن سحمان بهذه المرثية فقال:

فقد الحبيب مصاب أمره خطر ... في القلب نار ودمع العين منهمر
لقد فقدنا حبيباً عالماً ورعاً ... في حسن أخلاقه والوصل مفتخر
وشاعراً واعظاً يرجو بذاك رضى ... رب العباد ونيل الأجر يدخر

قد جد في درس آيات الكتاب كـذا — تفـسيره دائـماً للأجـر ينتظـر
أعني بـه صـالحاً اسـماً كـذا عمـل — في كـل حالاتـه للخـير لا يـذر
ابـن لعـالم نجـد بـل وشـاعره — أعنـي سـليمان مَـن لله ينتـصر
وجَـدُّه جَـدُّنا سـحمان مـن شـهرا — بزهـده والتقـى للأخـرى متجـر
يـا رب فـاغفر لكـل منهمـو فلقـد — كانوا لنا مفخراً بالعلم قـد شـهروا
إنـا إلى الله إنـا راجعـون لـه — الـصبر واجبنـا والأجـر مـدخر
للـصابرين وكـل الخلـق مرتحـل — من هـذه الـدار للأخـرى ولا وزر
يقي من المـوت والإنـسان مـرتهن — بكـل أعمالـه مـا سر أو ضرر
وفي مـصيبة خـير الخلـق كلهمـو — محمـد المـصطفى عـزا المـن بـتروا

ترجمة الشيخ صالح بن حسين العلي «العراقي»[١]

ولد في عام ١٣٣٠هـ تقريباً، وبعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ كتاب الله الكريم، التحق بحلقات سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ، فلازمه وأفاد منه كثيراً، وعندما عُيِّن سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، مفتي عام المملكة والرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء ـ رحمه الله ـ، قاضياً للخرج، لازمه في حلقاته في جامع الدلم، وكاتباً لديه في المحكمة، ثم رشحه سماحة الشيخ عبدالعزيز مديراً للمدرسة السعودية في الدلم (ابن عباس حالياً).

وكان للشيخ صالح دور بارز في نشر العلم والمعرفة والأدب؛ إذ جعل منزله مدرسة يعلم فيها عامة الناس أمور الدين بعد صلاة الجمعة، بالإضافة إلى قيامه في إحدى الليالي بإحياء لقاء أدبي تُطرح فيه الكلمات النثرية والقصائد بحضور عدد من أهل العلم والأدب، وحضور سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز.

---

(١) نقلاً عن: «شعراء من الدلم» للأستاذ عبدالعزيز البراك (ص ٢٢٣-٢٢٩)، وينظر أيضاً: «ابن باز في الدلم» للبراك (ص ٤٤ و٤٦ و٦٠ و٧٠ و١١٠)، و«موسوعة تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية» (٤/ ٢٢٢).

وعندما عين سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رئيساً للجامعة الإسلامية، انتقل الشيخ صالح معه مدرساً في الجامعة، حتى أحيل على التقاعد.

توفي الشيخ صالح في مكة المكرمة عام ١٤٠٤هـ، رحمه الله رحمة واسعة.

قال الشيخ ابن خنين:

«الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل في كتابه المبين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]. والقائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد: فإني حين اطلعت على كتاب ألّفه عبدالله بن علي القصيمي وسماه «هذي هي الأغلال» وتأملته، فإذا مراده بهذه التسمية، ما صرح به في كتابه هذا من أن الدين الإسلامي هو الذي منع المسلمين بأغلاله عن التقدم ونيل المجد والسيادة، ومراده بالمجد والسيادة هنا هو تحصيل الدنيا لا غير، ولم يدر المسكين أن سبب تأخرهم عن قهر عدوهم هو عدم قيامهم بواجب دينهم على التمام.

وحقيقة قصده الخبيث: هو الدعوة إلى الفوضى في العقيدة والدين والأخلاق، وأن يكون الناس كالبهائم لا وازع ولا رادع إلا ما تمنعه الحيوانية، وهذه دعوة الشيوعية عدوة كل دين ونظام، فهذا الخبيث يدعو المسلمين إلى الانسلاخ من الدين وأن يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ

لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[يونس:٨-٩]، وقد مدح في كتابه هذا الدول الكافرة وخصوصاً الملحدة، وفضلهم على المسلمين، وحرّف آيات وأحاديث لأجل ذلك، كالآيات الواردة بذل اليهود وصغارهم وغيرها، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:١٧٥].

ولقد تناقض في أغلاله وموّه ودجّل، وارتد عن الإسلام وعن الحق تحول، فهو كالذي قال الله تعالى فيه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، ومن اطلع على كتابه هذا من أولي البصائر علم أنه ضال مضل، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى.

ولحبي للمشاركة في واجب نصرة الدين، وقمع أعدائه الملحدين قلت أبياتاً راداً بها على القصيمي وأمثاله الذين غلّوا أنفسهم عن الدين موضحاً كفره لئلا يُغتر به، وناصحاً له لعله أن يتوب، والله تعالى يقول: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ

فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ [الإسراء: ١٥]، وأسأل الله أن ينصر دينه ويعلي كلمته، وأن يثبتني وجميع إخواني المسلمين على الحق والهدى، ويتوفانا عليه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وهذا نص الأبيات ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

هذا القصيميُ في الأغلال قد كفرا	وفاه بالزيغ والإلحاد مشتهراً
هذا الذي بصراع والبروق أتى	بالزعم منتسباً للدين منتصرا
من بعد نصرته للدين في كتب	أضحى يفنده، يا بئس ما ابتكرا
ذمّ السؤال من الرحمن مع خُطب	أيضا التدين لا يبغي له أثرا
مُخّ العبادة مع نصح يُهجِّن ذا	هدي الرسول وأمر الله قد هجرا
الروس يمدح، أمريكا يُمجدها	الدين يشتمه لا شك قد كفرا
أيضا الخبيث يقول: الدين أخّرنا	عمّا يقدم، بالأغلال قد أسرا
قلنا كذبت، فإن الدين ينصرنا	هاذي التواريخ يابن اللؤم فادّكرا
فانظر لسيرة خير الخلق أجمعهم	والتابعين له إن كنت معتبرا
والدين قد وضع الأغلال يا غُدَر	قد زال عقلك أم لؤم بك انتشرا
ذا في القران بحمد الله نقرؤه	وفي الصحاح وكتب الفقه قد سُطرا
يا ذا الزهوِّ كتابَ الله مع سننٍ	ألقيت خلفك بعد النصر محتقرا
والبعض حرفته بالزور مبتغياً	إضلال متبع للحق قد بصرا
أبدلت دينك بالكفران منتكساً	يا قبح ما قلته بالكفر مفتخرا
أبطلت كل الذي قد قلت من حَسَن	بعد الكرامة صرت اليوم محتقرا
أو ذاك زندقة، والآن قد ظهرت	منك الطوية في الأغلال منحدرا
واسم الكتاب دليل الخُبث متضحٌ	ما فيه بسملةٌ، إذ خيره بُترا

تبـاً لجامعـه سُـحقاً لطابعـه لا دين يزجرهم عن فعل ما حُظرا
أسخطت ربك إذ هجّنت شرعته والكفر تمدحه بالزور منفجرا
لا تغترر بحروب الروس مع دول فالكل كافرة والرب قد قدرا
ذا الحرب منه عذاباً عاجلاً ولهم في الحشر منزلة أعني بها سقرا
وانظر جزيرتنا والأمن شاملها والضد في نكد بالحرب قد وُترا
الدين أمننا، والكفر أزعجهم لكن قلبك بالدينار قد أسرا
هذا مع النقص منّا في تديننا لولا التساهل كان الضد كالأُسرا
فالدين أكمله ربي وتممه فيه الكفاية بالخيرات قد أمرا
وما يَضر بذي الدنيا وآخرة من الشرور فعنه الدين قد زجرا
أخزاك ربك إذ تأتي بمدحتهم مخوفاً داعياً لا تستحي أشرا
ولا نخاف سوى الرحمن من أحد مدّح لسادتك الكفار أو فذرا
ما نستطيع من القوات نرصده مع التمسك بالإسلام لا خورا
نُحكّم الشرع والإلحاد نبغضه والله ينصر من للدين قد نصرا
لسنا نشك بهذا الدين إن حدثت بعض المصائب بل نرضى له ونرى
أن المصائب من كسب الذنوب أتت والله ممتحن، يا فوز من صبرا
والدين عندك حتى الآن ما فُهمت منه الحقيقة، كل الناس ما قَدرا
هذا الرسول ومن بالحق يتبعه للدين قد فهموا يا وزغ سل خبرا
هم صفوة الناس والأنجاس ضدهم لكنّ دينك غير الدين قد ظهرا
والأمر تزعمه يجري بلا قدر حسب الطبيعة إن نفعا وإن ضررا
والخير عندك عيش الناس قاطبةً مثل البهائم لا يخشون مَن فطرا
أيضاً التبرج للنسوان تمدحه يا للمصيبة، منك الخبث قد كثرا
مع ذي الفضائح للإسلام منتسبٌ ودينك الكفر في الأغلال قد زُبرا
للدين ترفض والدينار تعبده الله أكبر، إن الجرم قد كبرا
أنكرت ربك أم دنيا غررت بها فالعقل منك بذي اللذات قد سكرا
أم بعت دينك بالدينار منسلخاً فانظر لمثلك في الأعراف قد ذُكرا
هذا نباحك للإسلام مشتهر فاحذر عقوبة من للخلق قد قهرا

الفوز عندك ما نالوا وما صنعوا ... من زخرف عاجل قد زادهم بطرا
وذا بأجمعه دنيا مولية ... فيها تعجل لذات لمن كفرا
والنار يصلونها بالذل قد وسموا ... فالخير منقطع والشر قد حضرا
والمؤمنون ببعض العيش قد قنعوا ... إذ كله كدرٌ والصفو قد ذُخرا
في خير منزلة دار النعيم لهم ... فيها الخلود وخيرٌ ليس منحصرا
يا ابن القصيمي هداك الله شرعتنا ... اترك زهوّك وادع الله معتذرا
وارجع لربك قبل الموت في خجلٍ ... فالله يقبل من عبدٍ إذا اعتذرا
لله در أبي سمح لقد صدقتْ ... منه النصيحة في المنظوم قد نَشَرا
أبدى مخازيك ثم النقض أتبعها ... وبالنصيحة جاد الشهم مبتدرا (١)
فاقبل نصيحتنا والله فاتقه ... أو للعقوبة والأغلال فانتظرا
فإن قبلت فنعم الخير تقبله ... وإن رددت فلا تحزن لمن كفرا
وأختم القول مني بالصلاة على ... خير الخليقة من بالحق قد جهرا
والآل والصحب ثم التابعين لهم ... ما قام منتصر للدين وانتصرا

الدلم «الخرج» ١٢/ ٤/ ١٣٦٦هـ

القائل الفقير إلى عفو ربه

راشد بن صالح بن خنين

---

(١) ستأتي قصيدة الشيخ عبدالظاهر أبي السمح في القصيمي ـ إن شاء الله ـ .

تقريظ وتحبيذ

العلامة الورع التقي الغيور على الحق الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد: فإني لما قرأت هذه القصيدة السديدة، التي أنشأها الفهيم الأديب واللوذعي الأريب، الشاب الفاضل راشد بن صالح بن خنين، زاده الله علماً وفهماً، وجدتها قد وافقت الحق الذي يجب اعتقاده في هذا الباب، وزيفت كثيراً من أضاليل هذا الزائغ المرتاب.

إن هذا الضال القصيمي قد أكثر في كتابه من أنواع الضلال والكفر والإلحاد، ليضل بها الناس عن الحق والهدى ويدعوهم بها إلى نبذ الدين وسلوك مسلك أعداء الله الكافرين في حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، وطلبها بكل طريق أوصل إليها، سواء أباحه الشرع أو حظره.

زعمه في صفحة ٣١٥ منه أن الإيمان بالله وقدرته التامة على كل شيء مشكلة لم تحل، وقوله صفحة ٣٢٦ منه إن البشر عاجزون فيما يبدو لنا حتى اليوم عن أخذه، أي الدين، وفهمه وتصوره على وجهه النافع المفيد، بل هم

إمّا أن يبقوا غير متدينين أو متدينين تديناً باطلاً، كما أثبت هذا جملة تاريخ الإنسان، ولا بد من استثناء فترات أو ومضات قليلة خافتة، إلى أن قال: «والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التي عجز الناس عن تصورها تصوراً صحيحاً لأنها جاءت قبل استيفاء استعدادهم الموقوت، فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل ـ إلى أن قال صفحة ٣٢٨ ولكن ثبت أن البشرية عاجزة إلا فيما ندر عن فهمه على وجهه الصحيح».

هذه هي المشكلة التي لم تحل! فهذا الكلام لا يصدر إلا من شخص عدو الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكافر بأن القرآن حق ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم حق، لأن القرآن والسنة قد بينا حقيقة الإيمان بالله، وحقيقة الدين الحق أعظم بيان، وصار ذلك عند المؤمنين بالله حقاً أوضح من الشمس في رابعة النهار.

وقد فهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان حقيقة الإيمان، وحقيقة الدين الحق، ودرجوا عليه ودعوا إليه، وجاءت الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم مبشرة بأنه لا تزال طائفة من الأمة على الحق منصورة ظاهرة إلى قيام الساعة، وفي بعضها: «حتى يأتي أمر الله»[1] فكيف يكون الدين والحالة هذه لم يفهم إلا في ومضات أو

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٢)، ومسلم (١٩٢٠).

فترات قليلة خافتة؟ وكيف يكون البشر عاجزين عن فهمه وتصوره تصوراً صحيحاً مع وضوحه وظهور أدلته؟ وكيف يجوز نسبة الله سبحانه إلى أنه كلف البشر مالا يستطيعون فهمه، وأمرهم بشرائع قبل استعدادهم لها، فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل؟ هذا الكلام في غاية الكفر والضلال والإلحاد، فقاتل الله هذا الرجل الخبيث، ما أعظم جرأته على الله ودينه، وما أشد تلبيسه وأبعده عن الهدى، ومقصده من هذا الكلام دعوة الناس إلى نبذ الدين جملة، لأنهم إذا سمعوا أنهم عاجزون عن تصوره تصوراً صحيحاً، وأنهم إن أخذوه أخذوه على غير وجهه فكان ضاراً لهم؛ كرهوه ورفضوه واعتنقوا سواه، لا سيما إن عرفوا أن هذا المفتون الخبيث قد كان قبل هذا يُظهر الدعوة إلى الدين الحق ويرد على من خالفه، وإنما يغتر بمثل هذا ضعفاء البصائر، وأما من له أدنى مسكة من عقل صحيح، وعلم نافع صحيح، فإنه لا يغتر بمثل هذا الزائغ وأضاليله؛ للعلم بأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولوضوح خطئه وزيغه، نسأل الله العافية والثبات على دينه.

ومن جملة أضاليل هذا الزائغ المفتون قوله في صفحة ٢٩: «إن الدعاء أضعف وسيلة يلقي بها عدو عدوه، بل إنه ليس بوسيلة، وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة»، وقوله في صفحة ١٨٠: «كانت الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات، وذلك أنها لتكررها كل أسبوع استطاعت أن تجعل تحذيرها مستمراً مضموناً متجدداً، يعني بذلك تحذيرها عن

الانهماك في طلب الدنيا والتنافس فيها ... إلى أن قال: لأنه لتكررها لا تترك فرصة لانطلاق معنى طيب من معاني الإنسان..... إلى أن قال في صفحة ١٨٢: ولكن هذا الاجتماع الأسبوعي مفروض فرضاً، وهذه الخطب مفروضة على هذا الاجتماع فرضاً أيضاً، فأين النجاة، وكيف الفرار؟».

فانظر أيها القارئ هذا الكلام وتأمل، هل مثله يصدر من مسلم يعقل ما يقول؟ لا والله، لا والله، وإنما يصدر من شخص قد ملئ قلبه من بغض الأديان، ومعادات حزب الرحمن، لأن من ذم ما شرعه الله، وزعم أنه نكبة على العباد، وعملية مضرة لا شك في كفره وبغضه للحق وأهله.

وقد دل على أن مثل هذا كفر قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:٩]، وفي كتاب هذا المفتري الملحد من الترهات والأضاليل غير ما ذكرنا كثير، قد أشار الناظم إلى جملة منها، وبيّن خطأه فيها، جزاه الله خيراً، وجعلنا وإياه وجميع إخواننا من أنصار الحق ودعاة الهدى.

وبالجملة فمن تأمل كتاب هذا الزائغ المفتون من أوله إلى آخره عرف أنه لا يدين إلا بعبادة الطبيعة، ولا يدعو في كتابه إلا إلى عبادتها، وأما الإله الحق الذي يُميت ويُحيي، ويُسعد ويشقي، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد،

فلا يؤمن به ولا يدعو إلى عبادته، كما يدل على ذلك كلامه في مبحث القضاء والقدر والأسباب والمشكلة التي لم تحل، وفي مواضع كثيرة من كتابه.

ومن عظيم إلحاده ودعوته إلى عبادة الطبيعة قوله في صفحة ١٥٨ في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة، وبمناجاتها فوق غار حراء، وختمها بمناجاتها أيضاً وهو في حجر عائشة، بينما كان يجود بأنفاسه، فلقد كان في تلك الساعة شاخصاً ببصره إلى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل، ويقول: اللهم في الرفيق الأعلى»، فنسبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مناجاة الطبيعة كذب ظاهر، وكفر واضح، ومخالفة لما فهمه المؤمنون من هذا الحديث الشريف، وقد أقذع هذا الضال في ذم الدين والسلف الصالحين، وحذر من سلوك سبيلهم، وحرّف آيات كثيرة وأحاديث ليقودها إلى مذهبه الباطل، ورد أحاديث أخرى صحيحة لما لم توافقه على مذهبه العاطل، وأكثر من التلبيس والتدليس والخداع ليغير بذلك دين من لا بصيرة له بالدين الحق، وشابه في ذلك إخوانه من اليهود والمنافقين.

فنسأل الله الثبات على دينه، ونعوذ به من زيغ القلوب ورين الذنوب، وأسأله أن يمن على هذا الضال بالهداية والرجوع إلى الحق والتوبة النصوح، وأن يعيذنا والمسلمين مما ابتلاه به إنه سميع الدعاء قريب الإجابة.

ولقصد تأييد ما دلت عليه هذه القصيدة من الحق وتزييف أباطيل هذا

المارق، والتحذير من خطئه لئلا يغتر به، حررت هذه الأحرف، وأنا الفقير إلى الله تعالى عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، قاضي الخرج، سامحني الله وغفر لي ولوالديّ ومشايخي وجميع المسلمين. وصلى الله على محمد عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم، سنة ١٣٦٦هـ.

قصيدة الشيخ صالح بن الشيخ سليمان بن سحمان

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد: فإنه لما كان في سنة ١٣٦٦هـ من الهجرة رأيت كتاباً لعبدالله بن علي القصيمي سماه، «هذي هي الأغلال»، ويعني بذلك أن الدين غلّ أهليه وأخّرهم عن التقدم وأقعدهم عن الترقي إلى المجد والشرف وأذلهم، وأن علو الهمة ليس بالدين، وأن المرأة كالرجل لا فرق ولا ميزة، ولها أن تخرج سافرة وأن تكون متعلمة حتى تكمل لا كالمحجور عليها الجاهلة، فخبط خبط عشواء وتناقض في كثير، وفسّر بعض الآيات على ما يشتهي، وحرّف أحاديث على ما يريد، وكذّب بعضاً، فأحببت أن أعجل أبياتاً قليلة في الرد عليه على سبيل الاختصار والإشارة، فقلت وأنا الفقير إلى المنان صالح بن سحمان مستعيناً بالله تعالى:

في مِصرَ وزغٌ تمادى في الضلالات ... وتاه في تيه ديجور الجهالات
أعني القصيمي عبدالله من بلد الـ ... ـصعيد من جار في نشر الخُرافات
أبدى مخازيه في أغلاله وهوى ... في هُوة وتعامى بالمقالات
يدعو إلى جهل أفرنج الضلال ولم ... يستحي في القول من ربّ السموات
يقول دين الهدى لا خير فيه وقد ... أغلّ أهليه عن نيل الكرامات

والروس مع أمريكا عند ذاك سمو ... بالعز إذ خلعوا دين الخليقات
واستخرجوا كنز أراض بها كملوا ... طراً ونالوا المعالي بالصناعات
وانحط بالدين أقوام وقد سفلوا ... إذ لم يكونوا كأصحاب المطارات
فذمّ دين الهدى والتابعين له ... والواعظين على روس الجماعات
والرافعين إلى المولى أكفّهموا ... يدعون ربّ الورى باري البريات
يقولُ والله لا يسمع دعاءهموا ... وليس يفعلُ من بذل الإجابات
لأن رفعهمو ذلٌّ ومخرقة ... مثل العجائز في رفع الشكايات
إن الطبيعة لا ترضى وقد خلقوا ... أعزة ما لهم هافي الكمالات
إن الكمال لهم طبعاً كخالقهم ... لأنه كامل والنقص لايات
والناقصون على زعم الغبي لهم ... ربٌّ نقيص تعالى عن نقيصات
أأخَّرَ الدين خير المرسلين إذاً ... عن التقدم يا حاوي الرذالات
كذا خليفته الصديق أقعده ... عن العلى الدين مع كل الصحابات
أيضاً ولا عمر الفاروق ما فتحت ... في عصره أبدا كل الفتوحات
ما قصروا قيصرا أيضاً ولا كسروا ... كسرى ولا هدموا عرشاً بآلات
وقل إذا شئت كل المرسلين إذاً ... الدين أقعدهم في كل مرات
قاموا يمدون أيديهم لخالقهم ... عجزاً وضعفاً وعاشوا بالمذلات
فيا أبا جهل يا فرعون مصر ويا ... بلعام ذا العصر يا أصل الجهالات
أرُوسيا بذلت دنيا فجدت لها ... ببذل دينك في بث الدعايات
تدعو إلى دينها والروس ليس لها ... دين كذلك إفرنج الطبيعات
طوراً تحارب رب العالمين على ... مقدوره في الورى يا بئس ما تات

وتـــارة لـــيس إلا بالطبيعـــة في ... أفعالهــا النفــع أو دفــع المــضرات
هــي الإلــه الحقيقــي فهــي خالقــة ... خلقــاً كــذلك تفنــى بالإماتــات
والمــرء حــرٌّ إذا مــا شــاء يفعلــه ... ولــيس يملكــه رب الــسموات
كــذا النــساء لهــا حريــة ولهــا ... مــا للرجــال فمــا فــرق بميــزات
فــلا تميَــزُ في لــبس وســافرةً ... تبقـى وتكـشف إن شـاءت لعـورات
مـع الرجـال لتطفـي نـار شـهوتهم ... هـذا هـو الحـق عنـد الفـاجر العـاتي
إذاً علــى ذا لهــا تختــارُ أربعــة ... مـن البعولـة، إذ لا فـرق في الـذات
أفٍ لهذي العقول الـسخف أيـن بهـا ... يُغـدى وذا في الـورى آت بـضحكات
ألقــى الكتــاب وراء الظهــر منبــذه ... وســنة المــصطفى الهــادي لخــيرات
يفسر البعض مـن آي الكتـاب علـى ... مــا يــشتهي ويــراه مــن مــضلات
كــذاك ســنة خــير العــالمين ولا ... يــستحي مــن ربــه يــا للمــصيبات
أيـن الـصراعُ ونقـدٌ والـبروق ومـا ... أعلنت بـالحق عـن هـذي الخرافـات
أتلـك زندقـةٌ والرشـد مـا نطقـت ... أغلالـك الآن مـن هـذي الحماقـات
إذاً فــدينك دينــارٌ جعلــت لــه ... فخـاً فـدمت علـى تلـك الركيعـات
إن كان بالـشرق أومـأت الركـوع لـه ... أو كــان عنــدك أكثــرت التحيــات
هــو الإلــه وديــن الحــق عنــدك لا ... ســواه تقــصد في كــل العبــادات

* * * *

يـا ابـن الـصعيدي يـا عبَّـاد درهمـه ... يا أخسر النـاس يـا أخـزى الخليقـات
أخزيـت نفـسك عنـد النـاس قاطبـة ... ومــا اتقيــت عليمــاً بالخفيــات
أشهرت نفسك بالجهل العـريض بمـا ... أمليتــه الآن مــن كــل البليــات
الـدين ينكـر مـا أمليـت مـن سـفه ... والعــالمون وأصــحاب المــروءات

يـا بـائعين علـى الـرحمن أنفـسهم بجنـــة عـــرضُ أرضٍ والـــسموات
غُلّـــوا بأغلالـــه أيـــدٍ إلى عنـــق وأخرجـوا مقـولاً في حلقـه عـاتي
فمـــن يبـــدلُ دينـــاً دمّـــه هَـــدَرٌ مـن الأعاريـب نـصٌ ظـاهرٌ آتـي
إنـي تأملـت بعـضاً مـن سفاسـطه وبعـض منشـوره الحـاوي لـزلات
وسـوف أنقـض مـا قـد كـان أبرمـه إن شـــاء ربـــي بمعقـــولٍ وآيـــات
والله أســأل عونـــاً علـــى شُـــبهٍ مـا إن تـروج علـى أهـل الـدّرايات
ثـم الـصلاة علـى المعـصوم سـيّدنا محمـد المـصطفى أزكـى البريـات
والآل والصحب ما قد قال منشدها بمـصر وزغٌ تمـادى في الـضلالات

وحرر في يوم ٢٢ من صفر سنة ١٣٦٦هـ.

قصيدة الشيخ صالح العراقي ـ رحمه الله ـ

«الحمد لله الذي هيأ العقول والفطر لقبول السنة والقرآن، وفاوت بينها بحسب علمها بهما في قوة وزيادة الإيمان، القائل في كتابه الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، والقائل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، الذي جعل من آياته المتلوة والمشهودة ما يثبت ببعضها وجود ذاته، وتشهد الخلائق بكل ذلك وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ويعجز العقل عن إدراك ما أودع فيها من الحكم والأسرار، سوى ما يحصل له به الإذعان، وما يكون به الموعظة والاعتبار، فيعلم بها حقاً أنه لا يوصله لعلم ما فيها مما يهيئه لصلاحه وكماله إلا الإسلام، فسلّم لباريه، وغادر دعاويه، فظفر بما قدّر له فاستقام.

ومتى خرج عن الإسلام وادعى الاستقلال، وأنه يدرك من غيره ما به له السعادة والكمال، بعدت عنه الفضائل وقربت منه الرذائل، وتاه في دياجير الغيّ والضلال، فسبحان ربنا القائل في كتابه المبين: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

والصلاة والسلام على من وضع الله به عن عباده الأصر والأغلال، إلا من أبى شرعه وأضاعه، وجعل الهداية والنور والفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة لمن تمسك بشرعه وأطاعه، نبينا محمد سيد الأنبياء والمرسلين، وإمام الصالحين والمتقين، المبعوث بالهدى ودين الحق إلى عامة الثقلين، وعلى آله وأصحابه الأخيار، الذين اختارهم الله لصحبة المصطفى المختار، الذين هم رهبان بالليل وأسود بالنهار، حملة السنة الكريمة، وأهل العقول المستقيمة، والفطر الصحيحة السليمة، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. آمين.

أما بعد: فإني لما اطلعت على الكتاب المسمى «هذي هي الأغلال» الذي ألّفه عبدالله بن علي القصيمي وجدته مملوءاً من الأفكار الفاسدة والآراء الكاسدة، منطوقها ردّ على السنة والقرآن، ومفهومها نفيٌ للخالق المنان، ولازمها تكذيب الأنبياء والمرسلين، وتصديق الإباحية والطبائعيين، ونتيجتها دعوة العباد إلى نبذ الأديان، وإنكار المعاد، والاكتفاء بالعقل والطبيعة، والإيمان بالإنسانية التي في زعمه ليست مقيدة شرعاً، وليست لها حدود قدراً، إذ عنده أن الإيمان بمواهب الإنسان هو الذي يوصله إلى السعادة والكمال، والإيمان بالله والتمسك بشرعه هو الذي يوصله إلى الشقاوة والنقص وسوء الحال.

على أن في كتابه المذكور من الآراء ما هو مقبول، ولكنه قطرة من ماء طهور فرات، في بحر نجس زعاق، مملوء بالأكدار والقاذورات فاستخرت الله عز وجل في نظم أبيات تشتمل على إيضاح أباطيله، وردّ خطئه وأضاليله، وتشخيص ما به ارتد ومرق من الإسلام، نصحاً لله ولرسوله وللمسلمين، وقياماً ببعض ما يجب عليّ من نصر الدين وجهاد من خالفه من أعداء رب العالمين، لقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[1].

وإنما قلت ما قلت في هذه القصيدة بعدما قرأت الكتاب المذكور من أوله إلى آخره، على شيخنا العلامة المحقق، والأستاذ الفاضل المدقق أبي عبدالله: عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن آل باز، رفع الله قدره في الدارين، ورزقه الصبر واليقين، ونيل الإمامة في الدين، والقراءة المذكورة قراءة تدبر وبحث واستشكال، وذاكرته في المواضع المشكلة من كلام هذا المارق، حتى اتضح لي الصواب، وعرفت مقصود هذا الزائغ الخبيث المرتاب.

وأسأل الله أن ينفع بما قلت وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً

---

(١) اخرجه أبو داود: (٢٥٠٤)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ.

للفوز لديه في جنات النعيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهذا نص ما قلت، وأنا الفقير إلى الله: صالح بن حسين العلي العراقي:

كل امرئ خاض فيما ليس يعنيه ... لا بد يأسى على ما كان يأتيه
إذ كل شيء جرى في غير مركزه ... لضده ينتمي أو ما يحاكيه
لحكمة ولغايات سمت حكماً ... له تعالى عليها الحمد نمضيه
لذا لو أن خبيثاً كان من بشر ... قد ارتدى طَيباً قصداً يواريه
فمقتضى العدل والأسما وحكمته ... انتزاعه أو بعيد الموت يعريه
هذا القصيمي قبلاً كان مرتديَ ... الشرع فلما أراد الله يشقيه
باع الهدى صفقة من دون تفرقة ... بالكفر ثم انتحى حرباً يناويه
آب بخفَّي حُنين سوء بيعته ... وعاد من حربه والسهم يدميه
كرافع طرفه نحو السما قُبلاً ... قصد البصاق فعاد التفل في فيه

* * * *

قد كان من ناصري الإسلام متبعاً ... في قوله غالباً منهاج أهليه
لكنما الكذب في فعل وفي كلم ... وصف له، عَلَّه طبع مؤاخيه
وألحق به الكبر بل والحرص مع حسد ... كيف النجاة لشخص هذه فيه؟

* * * *

لا يوجد الكبر في شخص ولا حسد ... والحرص إلا وفي الخسران ترديه
إذ تلك أصل الخطايا في شريعتنا ... سل من قضاها النجاد وما تواليه
فالكفر يخرج من كبر ومن حسد ... بغي وظلم ومن حرص معاصيه
والكذب أسوؤها قبحاً وحجتنا ... أنْ هذه نعته مثل تماديه

في حلقه وهو ذو دين للحيته ... وحبه علم إفرنج مواليه
إن حب شيئاً غلا في مدحه وإذا ... قلاه تالله بالبهت يمانيه
قد قال في ملكنا لم يأت معصية ... قطعاً إذن عنده معصوم يدعيه
والله لو ملكنا قد كان مطلعاً ... عليه عاقبه أو كان يقليه
لعلمه أن هذا الأمر منفرد ... به أولو الوحي فيما الله يوحيه
وابن القصيمي هذا القول يعلمه ... لكنما حبه الأموال سابيه
فأكرم الملك مثواه لنصرته ... دين الهدى لا لكون المرء يطريه
طالع كلام اللئيم ذا بثورته ... تعلمه حقاً وتعجب كيف يحكيه

* *

وقال في نظمه ما يستدل به ... لما ذكرناه من كذب ومن تيه
إذا جريتُ فكل الناس في أثري ... وليس يجري إذا ما قام قافيه
بل قال شمسٌ أنا في غير مركزها ... معنى شطير له في الشعر منشيه
وقال لو أنصفوا كنت المقدم في ... الأمر، فهل بان ما قلنا لقاريه؟
إن الخصال التي قلنا به اجتمعت ... حكماً نعم، وهي من أسوى مساويه

* *

طالع شيوخ أزهر والفصل وثورته ... صراعه تلق خطأ لست تحصيه
مع أن جُل الذي فيها بلا ريب ... حق وليس لذي الإنصاف يخفيه
إن هذه في أخي الأغلال قد وجدت ... قبل ارتداد، فكيف اليوم نشفيه؟
ونحن نؤمن إيماناً بلا ريَب ... من يضلل الله ليس الخلق يهديه
لكن علينا على قدر استطاعتنا ... ردّ القبيح وإقصا أهاليه
والقول بالحق مع فعل يقارنه ... قصد الإله ويعلى الحق معليه

ولا نقـول كمـا قالـت مقلـدة الـ ... سـبكي إذ ذمّ منهاجـاً لمليـه (١)
ذاك الإمـام أبـو العبـاس أحمـد مـن ... لم يـأت مـن بعـده شـخص يـساميه
إذ لـو تركنـا اللئـيم في سـفاهته ... مـع طوقنـا الـردّ قـد يهـذي بمكـروه

* * * *

كـان علـى هـذه الأخـلاق مـشتهراً ... ولم تـزل مـن زعـاق الـشر تـسقيه
حتـى إذا امـتلأت منـه مداركـه ... وأشـربته وشـاء الله يخزيـه
إذ تم وقـت اكتنـاه الـشر في أزل ... قامـت بـراكين ذاك الـشر توليـه
مـن الـشرور وإلحـاد وزندقـة ... مـا بعـضه في الـشقا والهلـك كافيـه

* * * *

وهـذه كلـها الأغـلال يجمعهـا ... اسـم كتـاب لـه غُلـت أياديـه
أملى الشرور التي قـد كـان يـضمرها ... فيـه، فمـا مـسلم إلا ويقليـه

---

(١) يشير إلى قول تقي الدين السبكي الأشعري في كتاب «منهاج السنة» لشيخ الإسلام ابن تيمية، في الرد على الرافضي ابن المطهر الحليّ:

وابـن المطهـر لم تطهـر خلائقـه ... داعٍ إلى الـرفض غـالٍ في تعـصبه
ولابـن تيميـة ردٌ عليـه وفى ... بمقـصد الـرد واسـتيفاء أضربـه
لكنـه خلـط الحـق المبـين بـما ... يـشوبه كـدر في صـفو مـشربه

إلى آخر ما قال ...

وقد ردّ على قصيدة السبكي ودافع عن ابن تيمية: أبوالمظفر يوسف بن محمد العبادي السرَّمرّي، المتوفى سنة (٧٧٦هـ). ومثله فعل محمد بن يوسف الشافعي اليمني. وقد قام الأستاذ صلاح الدين مقبول بتحقيق الردين ونشرهما في كتاب واحد بعنوان «الحمية الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية».

فـضلٌ مـن الله إذ لـو كـان أودعـه ... موزعـاً في الـذي بـالحق مَمليـه
لـراج إلا علـى مـن كـان مـضطلعاً ... بالـشرع، والحمـد للمـولى نواليـه

* * * *

مـا في كتيبـه الأغـلال أجمعـه ... تـالله، فالـسنة الغـرا تنافيـه
ومـا بـه مـن جميـل لـيس مبتكـراً ... وجـاء بـه شـبهة قـصداً لتمويـه
لكـي يـروج علـى الغوغـاء باطلـه ... لعلـها بالـذكا والعقـل تدعيـه
حتـى يقودهمـو إلى هلاكهمـو ... بـئس الـزعيم وبـئس مـن يرجّيـه

* * * *

وكـل نـوع مـن الإنـسان مـرتئس ... فاختـار صـاحب أغـلال أخـو التيـه
رئاسـة الملحـدين مـن أراذلـه ... إذ طبعـه اسـتبعد الحـق يرقيـه
فاسـتبدل الخـير مختـاراً بـلا خجـل ... بالـشر في كـل منحـى مـن مناحيـه
فأبـدل الله منـه كـل صـالحة ... بباطـل وفـساد في مـساعيه
فـراح يهـذي بمـا لم يرضـه العقـلا ... فضلاً عن أهل التقى، سبحان مغويـه

* * * *

كـل امـرئ دان بالإسـلام إن نظـرا ... أغلالـه قـال ذو كفـران منـشيه
بل كل شخص له عقـل وذو نـصف ... ونـاظر في الهـدى قطعـاً يجليـه
إذ مقتـضى مـا حكـاه في كتيبـه ... ردّ علـى الـشرع مـن نـص وتنبيـه
لـذا نظمنـا أصـولاً مـن قبائحـه ... كـلٌ بردتـه يقـضي يرديـه

* * * *

قصدي ابتغاء رضـى المولى ونـصرته ... والنـصر للـشرع مـع نـصح لأهليـه
وردّ باطـل هـذا الفـدم ملتمـساً ... تشخيـصه عـلّ ربّ الخلـق يهديـه
دعـا لـذا قولـه إن بـان مـن خطـأ ... فشخـصوه ولومَنْـا دعاويـه
إذا أن ما قد حوى الأغلال من خطـأ ... فالكـل حكمـاً أرى لـيس بخافيـه

إذ كـان قـبلا بـه في الـشرع مختـبراً ... وإنمـــا زاغ إمّـــا مـــن تماريـــه
أو كـان عمـداً علـى علـم مخالفـه ... وقـال مـا قـال هـذا مـن تعاشـيه
لأنـــه قـــال هـــذا القـــول معـــذرة ... لـبعض مـن لامـه قـصداً فيرضـيه

* * * *

فمـــن كـــلام الـــدعيّ في كتيبـــه ... أن الـــدعا يجلـــب الـــضر لأهليـــه
فنـسأل الله عفـواً والثبـات علـى ... ديـن الهـدى في الـذي نبـدي ونخفيـه
فالـــشرع أجمعـــه بالاتفـــاق دعـــا ... كيـف المـضرات تـأتي مـن تعاطيـه

* * * *

ألـست تـدري الـدعا إمـا لمـسئلة ... أو طاعـة دون ريـب أنـت داريـه
لكـن جحـدت علـى علـم مكـابرة ... إن لم تكـن يـا قـصيمي بمعتـوه
تـدري، فمـا لازم القـول بـذا غُـدَر ... معنـاه إنـك رب الخلـق تنفيـه
إذ قـال ربـي فجـل ذكـره وعـلا ... في محكـم الـنص قطعـاً أنـت قاريـه
وقال ربكم ادعـوني أستجب لكمـو ... عمـداً تنابـذ لا جهـلاً تزجيـه
قـولاً بـلا حجـة شـرعاً ولا نظـراً ... ولا اعتبـاراً ولا عقـلاً تواتيـه
هـذا انـسلاخ مـن العقـل بـلا ريـب ... إذن فـلا بـدع فيمـا أنـت تأتيـه
نعـوذ بـالله مـن زيـغ القلـوب ومـن ... سلب العقـول ومـا يُقـضى فيجريـه
لـو لم يكـن موجـب يقـضي بردتـه ... إلا ازدراء الـدعا حقـاً فيكفيـه

* * * *

كيـف وقـد قـال إن الـدين مـشكلة ... لم يلـف حـلٌ لهـا لـلآن في تيـه
إذ الـورى عـاجزون عـن تـصوره ... تـصوراً مبـدياً للمعنـى وجاليـه
لأنـه سـبق اسـتعدادهم وأتـى ... قبـل اكتمـال الحجـا، مـن ذا ينافيـه؟
وقـد يجـي للـورى يومـاً تـصوره ... علـى الحقيقـة ذا حتمـاً يوافيـه
مهما تـأخر وقـت المـرء يقـرب مـن ... نـضج وفهـم صـحيح ضـد ماضيـه

بل قال هذا القصيمي بلا خجل قولاً صريحاً فلم يصلح لتوجيه
مستقبل الوقت وأهل الوقت أفضل من ماضي الزمان بلا ريب وأهليه
فهذه كلها أقوال ذي فند صريحة وهي من أسوى ضواديه

* * * *

فيلزم القول إن الدين مشكلة أمران كل قبيح سوف يرديه
نقول أمّا النبي الحل يعلمه أم لا؟ فإن قلت ناء عن معانيه
جعلته جاهلاً يحكي ويفعل ما قد ليس يفهمه أو لست تبغيه
فللخيانة مع غش لأمته نسبته قولك المقبوح يقضيه

* * * *

وباتفاق أولي الإسلام أحمد قد فاق الورى مطلقاً فضلاً قد أوتيه
في العلم أعلمهم والنصح أنصحهم وفي البيان فقصب السبق حاويه
معصوم من خطأ فعلاً وفي كلم وما أقر عليه وهو داريه
وأصوب الناس رأياً بل وأرجحهم عقلاً وفكراً فقد طابت مساعيه
وابن القصيمي رماه بالخيانة والجـ ـهل المركب بل بالعيّ يرميه
ويدعي أنه الداعي لسنته تناقض ليس ذو عقل يواتيه
فالمرء لا شك عار من مروءته والعقل أما الحياء فهو مقصيه
ولازم العجز عن فهم حقيقته أنْ ديننا باطل حالاً وماضيه
بل صرح المرء في هذا بلازم ما ذكرته هاهنا من دون تشبيه
مفهومه جانبوا الإسلام واتبعوا طبعاً وعقلاً، فيا عظم تجريه
الله أكبر، هل يأتي الرسول بما لا يعقل الخلق معناه وما فيه
مما به لهمو إصلاح حالهمو والسؤدد المحض في أسما معانيه
في هذه الدار ثم في معادهمو حاشاه حاشا عن إلحاد شانيه

* * * *

ومقتضى سبقه استعدادنا، غُدَر   وصف الإله مع الظلم بتسفيه
لأنه عز رباً لا يكلفنا   ما لا نطيق فلم تأت بتنزيه
أصاب عقلك مسخ أم أسأت على   بصيرة، أم جنون ذاك تهذيه؟
لا شك إن قيل منها فيك واحدة   تالله من قالها لسنا نخطيه
جهلت ربك إن كنت تقرّ به   والعقل في صحة بل أنت نافيه

* *   * *

لكن معنى يجيء للملا زمن   قد يدركون من الدين معانيه
مما يبين أن المرء معتمد   آراءه في الذي يأتي ويحكيه
لأنه رد ما القرآن أو سنن   قد أخبرتنا به من شر آتيه
أكلُّ أحبار هذا الدين ما وصلوا   لفهمه لا ولا الأصحاب تدريه؟
ولا الرسول، بل الآتي سيفهمه   فهماً على ما إله الخلق يبغيه
يحاول الوزغ منّا من سخافته   أن نترك الدين يا هذا ونقصيه
ليس كثيراً على من لا حياء له   ولا تقى ما إذا تكثر مساويه
وقال أول شيء يؤمن به الا   نسان، لا الله نطقاً غير تنبيه
فمقتضاه بأن الرب ليس له   تصرفٌ قصده تعطيل باريه
لأنه قال إن المرء مقتدر   يسمو كمالاً ولا شيء يعاصيه
بل كل شيء له يسمو بقدرته   وطبعه دون ما ربط بمنشيه
وذا صريح بأن ليس لخالقنا   فعل وعلم وحكم بل وينفيه
إذ قال إن الرسول كان أول ما   يُوحي له إنما الطبع يناجيه
لا الربُّ أوحى، ولا جبريل بلغه   وذا بمعناه والمفهوم يجريه
وبالطبيعة قبل الوحي مختلياً   طوراً يخاطبها طوراً تناجيه
حتى أتى الموت وهو في مخاطبة   مع الطبيعة يا كثر تجنّيه

* *   * *

ألـيس ظـاهره أن الرسـول أتـى ... بالـدين منـه أو الأكـوان توحيـه
فـصار حينئـذ شـرع الـنبي حكمـاً ... ليـست أوامـر ربّ أو نواهيـه
خذ ما ارتضاه الهوى منها ودع جملاً ... تخـالف القـصد والوقـت وأهليـه
إذ لا عقـاب علـى نهـي تقارفـه ... ولا ثـواب علـى أمـر تودّيـه
أو فاسـتقل بعقـل ذا لـوازم مـا ... قـال القـصيمي وذا التـالي مـصافيه
أبعـد هـذا يكـون المـرء متبعـاً ... شـرعاً ويعتـذرن عنـه مؤاخيـه؟
فكـل معتـذر عنـه ويفهـم مـا ... حـواه أغلالـه حقـاً يـساويه

* * * *

وقال لم تبـصر العـرب طريـق حجـاً ... مـن قبـل أغلالـه معنـى أحاجيـه
إن الرسول وأصحاب الرسول ومـن ... بعـد اقتفـاهم عمـون عـن مجاريـه
هـذا اخـتلاط فلـولا قبـل شـهرته ... بنـصرة الحـق مـا قمنـا نجاريـه
إذ حـسب نـاظره أن فطـرة سـلمت ... تأمـل الـبعض يـدري مـن مخازيـه
مـا يقـشعر لـه الجلـد ويحزنـه ... إذ كلـه كالقـذى في عـين رائيـه
نعـم يـروج علـى مـن سـار سيرته ... ومعجـب بعلـوم الغـرب يغريـه
ومـا بـه مـن كـلام راق نـاظره ... مـن كتـب أحبارنـا الحفـاظ يجنيه

* * * *

يا ابن القصيمي قد باينت دائـرة الـ ... ـعقل الصحيح وتدعو الناس تقـصيه
تبغي الفساد وطرق الجهـل نـسلكها ... ونـترك الـدين وهـو الخـير يحويـه
حـق علـى كـل مـن كانـت مودتـه ... عريقـة في القـصيمي أن يعزّيـه
في عقلـه، إنـه والله منـسلخ ... منـه وفي الـدين للمفتـون يرثيـه

* * * *

العقـل عقـلان عقـلٌ للهـدى تبـع ... فعـلاً وتركـاً وعقـل لـيس يتليـه
فتـابع الـشرع عقـلٌ صـح جـوهره ... وطـاب موضـعه يـا سـعد راعيـه

وآبـي الـشرع عقـل ضـدّ تابعـه ... مـن حـلّ فيـه رمـاه في أتاويـه
أمـا إذا مـنح الحـذق صـويحبه ... قـضى الإلـه بـأن في الـشر يلقيـه
أمـا الـصحيح إذا مـا زاد صـاحبه ... حـذقاً تـرى أفـضل الخـيرات يأتيـه
بـل عقـل سـائر مـن للـدين متبـع ... ولـو مـع الـنقص خـير مـن أعاديـه

* * * *

والعقـل عنـد القـصيمي يخـالف مـا ... جـاء الرسـول بـه إذ قـال يزريـه
قومـوا بنـا قومنـا نـبني ثقافتنـا ... علـى الجديـد الـسعيد ذا وآتيـه
إن القـديم شـقي إذ نجانبـه ... وذا يعـم الهـدى حـالاً وماضـيه
فقـد حكمـت علـى خـير الخليقـة ... والصحب الكرام بذا يا صاحب التيه
بـأنهم في الـشقا كـانوا ذوي حمـق ... أم سـوء فهـم بـل الإلحـاد تبغيـه
بـل وانـسلاخاً مـن الأديـان قاطبـة ... هـذا الـسعيد الـذي تعـني وتطريـه
حـق تقـول ولا تـدري وحـق لمـن ... يجفـو هـداه بـأن الله يعميـه
عمـى بـصيرة قلـب طبـق حكمتـه ... يـضل مـن شـا ومـن شـا فيهديـه
سـبحانه جـلّ ربـاً لـيس يمنعـه ... شـيء إذا مـا يـشاء الـشيء يمـضيه

* * * *

أمـا القـضاء ففـي كـل مـوارده ... قـال الفـراغ مـن الـشيء معانيـه
وجعـل ذا الـشيء في كـم وكيفيـة ... منظمـاً ذا مقـادير تواخيـه
في كـل مـا جـاء قـل ذا حـده قـدرا ... عنـد القـصيمي يـا عظـم تقافيـه
أمـا اعتقـادك أن الخلـق قـد فرغـوا ... منـه ولا ثـمّ تغـيير لباريـه
فهـو التوكـل فـانظر خبـث ملحظـه ... وصـوغه القـول تمويهـاً بتـشبيه
وقـال لـو لم أقـل هـذا فيلـزمني ... أن الـتغير جـا مـن جهـل منـشيه
إذن فمـا قلتـه حـق ومعتمـد ... ومـا سـواه ففـي الـبطلان أرميـه
يا بن القصيمي هذا قول من رفض الأ ... ديـان قاطبـة أنـى تواليـه

وتعجبن به لا بدع إذ عدمت ... منك الحقائق أن تجزى بتسفيه
تخالفن تفاسير الأولى علموا ... مقاصد الشرع مع رمي بتشويه
وتعزل الله عن تدبير ما خلقا ... وتزعم الحق فيما أنت تبديه
فهل دليل على ما قلت من نظر ... عقل فشرع؟ فهيهات تأتيه
حسب القصيمي من حمق مقالته ... هذي على أن ذا أسوى تعاييه

* *

علم الإله بما يقضي وينقضه ... وصف له كامل لا شك يعريه
يقضي بأمرٍ حميد في خليقته ... وقتاً وينقضه من دون تشبيه
لحكمة ذا أخا الأغلال معتقد ... لأهل التقى ثم هذا القول نجريه
معنى لأقداره سبحانه وعلا ... لأنها للقضا ردف تحاكيه
أما التوكل فأهل الحق قاطبة ... على خلاف الذي يا فدم تعنيه
إذا ليس ما قلته شرعاً ولا لغة ... بل افتراء على مولاك تجنيه
إذ حدّه بذل ما اسطعناه من سبب ... والاعتماد على الخلاق قاضيه
فإن ظفرنا بما نبغي فذاك، وإن ... فات اعتقدنا الحكيم ليس شائيه
لحكمة ثم لا تثني عزائمنا ... عن غيره وهو مطلوب نواتيه
وهكذا صنعنا فيما أباح لنا ... جلباً ودفعاً وفي الحالين نرضيه
فثم نسمو كمالاً لا يضارعنا ... فيه سوانا، إذا هذا نوفيه
والاعتماد بلا شك على سبب ... شرك كما تركه قدح بآبيه
وأنت معتقد في أيما سبب ... بنفسه يستقل دون باريه
فبان أن المراد من مباحثه ... في ذا الكتاب أخا الحق ومنشيه
جحد الإله ورسل مع ديانتهم ... والعقل يعين الورى والطبع حاديه
فهل إذا عرف الإنسان مقصده ... هذا يشك بكفر الفسل جانيه؟
لا والذي رفع السبع الطباق بلى ... شخص لئيم أراد الله يخزيه

إن قـــدر الله للإنـــسان شـــقوته ... لا ينفـــع العلـــم مـــع كثـــر توقيـــه

* * * *

وقـال إنـا مـدحنا الفقـر مـع بلـه ... مـع الجنـون وجهـل مـن تمنيـه
والعي والسقم والتخريـب مـع قـذر ... وضـد هـذي بـزعم الغُمـر نُزريـه
لا يفتـأ المـرء هـذا يفـترى كـذباً ... علـى التـواريخ والـدين وأهليـه
بـشطح أهـل الـسلوك في كلامهمـو ... أو أهـل بـدع ومـن بـالزيغ يحكيـه
لكـون كـلٍ لـدين الحـق منتـسباً ... عـمّ ذوي الحـق بالـذم وتـسفيه
لله كـم سـرّت الـشيطان طلعتُـه ... بـل كـل آن بـلا شـك يحييـه
فـالفقر قـد جـاءت الأخبـار مادحـة ... لمـن دهـاه إذا كانـت مناشـيه
أما عـن الزهـد في الـدنيا نـشا طمعـاً ... في الـسير لله مـع قـصد مراضـيه
فـذا جميـل بـشرط الـصبر ملتمـساً ... جلب الذي عـن جميـع النـاس يغنيه
مـع القيـام بحـق المـسلمين بـلا ... تـبرم أو خنـوع منـه مبديـه
أو ناشئاً عن مـصاب قـد أصيب بـه ... وقـام منـه مجـداً في تفـصيه
مـع صـبره واثقـاً بـالله يكـشفه ... لأنـه يـا لئـيم مـن بلاويـه
وضـد هـذا فمـذموم بـلا ريـب ... كيـف القبـيح لنـا قبحـت تنميـه
وإننـا قـد مـدحناه فـذا عتـه ... إذ لـو حجـاك لـديك لـست تعزيـه
والزهـد يـا وغـد في الـدنيا حقارتهـا ... في القلـب حتـى ولـو كانـت بأيديـه
مـع صـرفها إن أتتـه في مواضـعها ... في الـشرع لا للمعاصـي أو تباهيـه
إذ لـيس يلـزم مـن زهـد خلـوّ يـد ... مـن كثـر مـال ولـو بالكـسب يجبيـه
كلا ولا مـن رياسـات ولـو عظمـت ... كالراشـدين لهـم في الزهـد عاليـه
والزهد فيهـا علـى ذا النحـو مادحـه ... إلهنـا وأهلـه هـم مـن محبيـه
إمـامهم سـيد الكـونين يـا غُـدر ... وصـحبه منهمـو كيـف تهاجيـه
مـا غادروهـا ولا كانـت تهمهمـو ... علمـاً بـأن الفنـا قطعـاً تأتيـه

مـع علمهـم أن دار الخلـد باقيـة ... مـع خيرهـا دون تنغيص ومكـروه
لو كنت تـؤمن بـالأخرى لما قبحـت ... لـديك أعمـالهم بـل أنـت مقـصيه
أمـا الغنـى إن أصـار المـرء منحرفـاً ... عـن طاعـة الله أو عنهـا فيلهيـه
فـذا ذمـيم وإن كانـت مـصارفه ... في طاعـة الله محمـود تعاطيـه

أمـا الجمـال فممـدوح بـلا سـرف ... وصـرف مـال ووقـت في تـشهيه

* *

وقال حجبَ النسا مع بعدهن من الـ ... ـرجـال ظلـم لـذا الجنس يقاسـيه
مـع أنـه للزنـا داع ومجلبـة ... حتمـاً وإلا بـه تقـوى دواعيـه
أمـا الـسفور وكـون المـرء مختليـاً ... مـع الفتـاة ببـستان تناغيـه
لا يجلبـان الزنـا إذ ليـستا سـبباً ... بـل يـضعفان مـن الإنـسان داعيـه
مثـل اجتمـاع الفتـى بـأم وخالتـه ... ونحـو تـين ولا فـرق يُـرى فيـه
هـذا كـلام أخـي الأغـلال مقتبـساً ... في نـصه أو مـن المعنـى وتنبيـه
هل قال يـا معـشر الإسـلام منتـسب ... للـدين أو للنهـى قـولاً يـضاهيه
بلـى الإباحيـة المكـسوف عقلـهمو ... لـدى جميـع الـورى والمـرء يرويـه
عـنهم ولكنـه راض بـه ولـذا ... جعلتـه آنفـاً ضـمن أحاجيـه
اخـترت جهـلا محاكـات البهيم بـلا ... قيـد وشـرط طليقـاً في مراعيـه
الله أكـبر مـا أوهـى دعايتـه ... ومـا أشـد عـن العقـل تنائيـه

* *

وقـال مـن نكبـات الـدين خطبتنـا ... في جمعـة وهـي مفـروض تؤديـه
يقـول قـد أضـعف العقـل تكررهـا ... إذ كـل سـبعة أيـام تغاديـه
فأحـدثت فيـه أوهامـاً تعرقلـه ... عـن نيلـه الفهـم والجهـل تغذيـه
أيـن الفـرار إذن منهـا وقـد ضـعفت ... منـا القـوى يـا لـه أمـر نقاسـيه

هــذا كــلام الــزنيم أي خلاصــته ... معنـى تـدور علـى مـا جـا بتنبيـه
ثـم انتحـى يـزدري تلـك المنـابر إذ ... قــد ضــللتنا، فيــا كثــف تعاميــه
لله لا شـــك في إمهالـــه حكـــم ... لا يـدرك العقـل مـا تحـوي وتبنيـه

* *

وعــرف الــدين تعريفـاً أحــاط بــه ... وقــال مجـد الـورى القـومي تلفيـه
في غيره وهو خمـس مـن بهـا أخـذوا ... يــسمو وإلا فيغــشى الــذل ناديــه
وهــي اقتــصاد صــناعات فماديــة ... تجــارة علـــم ذا نـــصٌ دعاويـــه
وقـــال لم ترتـــق أمريكـــا بـــشرعتها ... بـل فاقـت النـاس منهـا لامِـرا فيـه
وإننـــا قـــد عجزنـــا أن نـــضارعهم ... لتركنا الخمـس معنـى قـول ذي التيـه
فـــلا سـبيل إلى مجـــد كمجـــدهمو ... إلا بهـــا، وجميـــع الـــدين نقـــصيه
أنظـــر مقالتـــه ذي صـــفح رابعـــة ... مـن بعـد عـشر وصـفحات تواليـه
واستقرِ بحـث الفتـى تفهـم مقاصـده ... لله مـــاذا تـــرى ثـــمَّ وتلفيـــه
تلفـــي وربـــي صـــريحاً في مقالتـــه ... مـــا يـــستقل بكفـــر الطمـــل ممليـــه
لأن مـــن قـــال إن المجـــد منحـــصر ... في غــير ديــن الهــدى قطعــاً تــسميه
أهـــل الجماعـــة والأخبـــار قاطبـــة ... كـــويفرا كاذبـــاً فاصـــغى لتنبيـــه
يعطـي الإلـه علـى الإسـلام رفعتنـا ... دنيــا وأخــرى وذو الأغــلال ينفيــه
إذ عنــده أن هــذي الخمــس ترفعنــا ... والــدين يخفــضنا شــاهت معاريــه
وخــاب مــسعاه ويــا قــبح مقالتــه ... هــذي ويــا عظــم للكفــر تحريــه
الله أعلـــم أن الـــشخص خاليـــة ... أجــزاؤه مــن هــدى والــشر غاشــيه

* *

وقـــال إن الهـــدى الإســـلام أخرنـــا ... عــن اللحــاق بــذا الغربــي مغريــه
إذ أنـــه قـــد سمـــا في زعمـــه شـــرفاً ... وســؤدداً لــيس مــا قبــل يــضاهيه
أســبابه رفــضه كــل الــشرائع بــل ... إنكـــاره خـــالق الخلـــق ومنـــشيه

إذ آمنوا بعد طول البحث واعتقدوا ... أن الذي يُسعد الخلق ويشقيه
هو الطبيعة والعقل الرسول لهم ... منها ولا رب نخشى أو نرجيه
هذا خلاصة قول الفدم مقتبساً ... من نصه ومن المفهوم نجنيه
وهو الأساس الذي أدلى له حججاً ... ما تحتها طائل بل قد توهيه
أفكار فاسدة آراء كاسدة ... تعطي ورب الورى إلحاد مُمليه
تدري أخا الحق ما قصد الدخيل بذا ... بل ما نتيجة ما قال وينويه
هو دعوة العالم الديني أن يدعا ... دين الهدى جملة والرب ينفيه
إذا قال لن يدرك المجد ولا شرفاً ... إن لم ينابذهما نص أماليه
وهاهنا أطنب الخبّ بمدحته ... للروس والغرب وأمريكا مواليه
ووجه الذم لأهل الحق مزدريا ... علومهم، خيب الله مساعيه
وصرح الغر أن القوم كلهمو ... مدمرون وقال من تنزّيه
لا ينبغي ننظر الكتب التي تركوا ... في نصرة الدين حيث السخف تحويه
وينبغي ننظر الأغلال يوصلنا ... بحبوحة المجد أو كتباً تحاكيه
مما يؤلفه الغربي سيده ... في مدح ما الله قد ذم ويفنيه
أليس يا معشر الإخوان مقصد ذا ... رد على الشرع والرسل وموجيه
بلى بلى ذا ورب الخلق مقصده ... ولو أبى أو أبى غر يهافيه
قد كان قبلا إذا ما قال ملتمساً ... نصر الهدى سدد الله مراميه
والآن لما انتمى للكفر عوقب بالإ ... فساد في فطرة من خير ما فيه
لا شك أن أعرض الغر مكابرة ... عن ديننا زاعماً أن ليس يكفيه
يأتي الفساد سريعاً نحو فطرته ... فيكسف العقل بل والقلب يعميه
فثم تعزل عن فهم مداركه ... وتجعل النُكر معروفاً تواليه
أن يبلغ المرء هذا الحد معتقداً ... سموّه عزّ والمولى تلافيه
تجني على نفسها براقش إذ نبحت ... والحق في منعة ممن يعاديه

هـب أن طائفـة الكفـار قـد سـبقوا أهـل التقـى بالـصناعات أخـا التيـه
أعنـدهم علـم تثقيـف العقـول ومـا يـسمو بـه الفكـر بـل والقلـب يحييـه
ويـسعد المـرء في دنيـا وآخـره وبـرزخ، ذا عُـرت منـه وتقليـه
والعلم هذا الـذي قـد كنت مرتـدياً أمـس بـه غـير أن اليـوم عاريـه
هـو الهدى ديننـا الإسـلام يـا غُـدر هـو الـذي ضـاء للخلـق تلألـيه
فـراح كـل ملّـي منـذ تلألـؤه بنـوره يستـضيء كيـف بأهليـه
بـل كـل شـعب رقـى دنيـا لسؤدده مـن ديننـا جـاءه أصـل ترقيـه
إمـا اقتباسـاً حقيقيـاً مباشـرة أو صـدفة فـالعلا جـا مـن معاليـه
شاء أولو الغرب أم لم يرتضوا حسداً بغياً وظلمـاً، كمـا قـد رحـت تزريـه
هـو الـذي جعـل المـولى شـرائعه نهـج الجنـان وأسـباب مراضيـه
هـو الـذي مـن بـه قـام سمـا شـرفاً وسـؤدداً لـيس مخلـوق يـضاهيه
ديـنٌ محاسـنه إن رام حاسـبها تعـدداها رام أمـراً لـيس يحـصيه
لـو لم يكـن جـاء للنـاس بمنقبـة إلا بتحريمـه التقليـد مـع تيـه
حثـا لكـل امـرئ يـسمو بفكرتـه لكـي يكـونن حـيّ القلـب واعيـه
كفـى بهـا يـا أخـا الأغـلال منقبـة هبـت بعقـل الـورى لأسمـى معانيـه
أكـرم بـشرعته الـشورى لمرتبـة العـدل العظـيم بـذا تـسمو معانيـه
وترتقـي في علـوم الـدين أسـرته قـصد التهيـؤ لهـا لا للخـير تنويـه
بل تحتذي أسرى الإقليم حذوهمو فيكثـر الخـير في الـشعب وواليـه
وربمـا كانـت أعـلا للعـلا سـبباً ولـلـصلاح لكـون الخـير تفـشيه
بـل ربمـا يحـسن النيـات طالبهـا أثنـاء مطلبـه فيمـا يرجيـه
ذي بعض ما تثمر الشورى وتكسبه ومـا سـواهما فالاسـتبداد يعطيـه
فالجهـل فـالكبر فاسـتئثار يثمـره وعـزم أحـرار ذاك الـشعب يثنيـه
عن التنـافس في الخيرات أو خمـدت منـه العـزائم مـدناً مـع بواديـه

وقلّ أن يشبه الشورى بلا ريب ... إذ لا يساوي الهدى رأي يباريه
لفضلها قال ما معناه خالقنا ... يثني على المؤمنين من أناسيه
وأمرهم بينهم شورى ولا سبب ... أدعى لإتقان أعمال يدانيه
وهكذا كل حكم في محاسنه ... يحتار عقل العليم في مراميه
تالله ما عندهم ما العقل يقبله ... إلا وأشرفه الإسلام حاويه
إن قلت أنى عرى الغرب وقد نجمت ... هذي الصناعات عن أفكار أهليه
قلنا هبلت فذا من صرف وقتهمو ... فيما عنيت ودرس كاد يضنيه
بعد المئات من الأعوام متصلاً ... بحث الملا رافضاً ما الله باغيه
فجاء بالنفي من بعدُ لخالقه ... ورفض أديانه والشر يفشيه
آب بما آبت المعزى التي بحثت ... بالظلف عن حتفها والظلم يزجيه
ليس من العقل صرف المرء فكرته ... فيما يضر وفيما الله يفنيه
مع علمه أن داراً ثم باقية ... نعماؤها لا تزال الدهر تأتيه
لكن أهل التقى لو قام بعضهمو ... بذا لجاء العظيم من مساعيه
بصرف نزر من الأوقات مقتصراً ... على الذي ينصر الحق ويعليه
خصيصة خصها الله بفكرهموا ... برهانها آية الأنفال تعطيه
أعني بها قوله إن تتقوا ولكم ... من آية قد حوت ما تلك تحويه
واليوم لّما أخلّوا بالتقى قصرت ... مدارك الفكر عما الغرب ينشيه
من الصناعات حرباً أو مرافقه ... براً وبحراً ومما في مغانيه
وليس ضائرنا هذا إذا سلمت ... لنا العقائد والتوحيد نبديه
مع اعتداد لهم قدر استطاعتنا ... من قوة طبق ذا الوقت وآتيه
إذ جلبُ ما فيه للإسلام تقوية ... ورفعة وهو مما لا ينافيه
تالله من أعظم التقوى تعلّمه ... وجلبه وبذا الإسلام نحميه
ونحرب الكفر بدءاً أو مدافعة ... إذ ذا استطاعتنا بل لو نوافيه

عند اللقاء وربي بالمراوح أو ... أردى العصي رجونا النصر نحويه
إذا اعتقدنا بأن النصر يمنحه ... رب الخلائق لا الأسباب توليه
وثم قد صدقت منا عزائمنا ... والكفر هاجمنا للظلم والتيه
وإن هزمنا واذعنّا لسلطتهم ... في هذه الحال فالإخلال موليه
أما إذا ما اتقينا الله يانكس ... حق التقى أي جيش جاء نقصيه
تقوى الإله ولو مع فقد قوتهم ... منّا هي النصر قطعاً لا مرا فيه
أليس يا ألام الخلق بها حصلت ... معية الله فضلاً منه معطيه
أنى نخاف من الكفار بأسهمو ... والنصر نجزم أن الرب واليه
قد هالك الحرب منهم فانسلخت ... من الإسلام جبناً وإيثاراً لفانيه

* *

تالله لو حكّم الإسلام قادتنا ... في كل شيء لسادوا الغرب ذا التيه
أو جاءهم سؤدد يفنى لهيبته ... كبر الورى مطلقاً وانقاد عاصيه
لكنهم قدموا حظ النفوس وماسـ ... ـتطاعوا على الصبر كي ترقى مبانيه
قد هالهم شبح الموت لحبهمو ... هذي الحياة لذا انقادوا لشانيه
بفعل أولاء ضفت النقص من سفه ... للدين يا ناقص العقل وتقليه
وتنسبن انحطاط المسلمين إلى الإ ... سلام وهو الذي أعلت مباديه
شأن الخليقة في دنيا وفي فكر ... في ذا الزمان وقبلا عز معليه

* *

اذكر عصور الأولى شادوا لنا شرفاً ... مجداً رفيعاً قوياً في مبانيه
عصر النبي وعصر الراشدين فيا ... للدين إذ ذاك ما أبهى مرائيه
وعصر شام وقد أعلت معالمه ... بنو أمية حتى عزّ ضاويه
لله عصر بني العباس مزدهياً ... به العراق وشام مع نواحيه
بلى الجزيرة مع مصر إلى أندلس ... يحلها من جمال الملك زاهيه

بلى الجزيرة مع مصر إلى أندلس | يحلها من جمال الملك زاهيه
عصر سما فيه علم الدين وانتشرت | فيه الحضارة وانجابت دياجيه
كان اقتباس العلوم من إنارته | حتى ازدهى كل شعب من لآليه
فبالتقى يا أخا الأغلال قد نهضوا | ووطدوا الملك حتى لان عاتيه
كم عاهل ساد في تلك العصور وقد | دانت له الغرب والدنيا تحابيه
كانت بأيديهمو الدنيا برمتها | لما أمدوا الهدى لأنأى مراسيه
لا سيما جهتا الشرق وغربهو | من صينها فإلى الغرب وقاصيه
في نحو قرن أخا الأغلال قد ملكوا | هذا وكم راق ذاك العز رائيه
أولائك القوم فخر العرب ذكرهموا | لا يستطيع الورى يوماً تناسيه
ذكر جميل لهم في الناس قاطبة | كيف أخو العقل ينساه ويخفيه
من هديهم أن غزوا قوماً تقدمهم | داع لهم إننا لا ملكَ نبغيه
وإنما قد غزوناكم لنعلمكم | دين السلام الذي للناس راضيه
فإن أجبتم فنحن إخوة أبداً | وإن أبيتم فسيف الحق نمضيه
ودأبهم بعد فتح الشعب نهضتهم | بالدين والعلم إرشاداً لأهليه
وبث كل إصلاح في مدائنه | قد زان إنسانهم بالحلم باريه
ورائد الكل نصر الحق قد بذلوا | له النفوس ومن مال فغاليه
مع أن همتهم أسمى شمائلهم | وكل خُلق جميل هم أهاليه
جاءوا الورى وخيام الجهل ضاربة | أطنابها وفساد الفكر غاشيه
لم يلبثوا برهة إلا وجهلهمو | خيامه طويت والفكر تسقيه
من سلسبيل الهدى حتى إذا نضجت | عقولهم ببذل الحب لأهليه
والنصح والصدق والإسلام حاكمهم | من زاد علماً به زادت مراقيه

* * * *

والغرب بالضد لما أن أتى أمماً | شرقية بث فيها من ملاهيه

صـاد الـسفيه بغـزلان تغازلـه ... والـسينماء ويـا كثـر أمانيـه
صـف الخمـور وصـندوقاً ورادية ... مـع مـا أتـى بخرافـات وتـسفيه
ولىَّ على الشعب مـن حاكـاه معتقـداً ... وهـو بـان المـلا لا رب راجيـه
شـاد المعاهـد ضـد الـدين فـامتلأت ... بالخبـث يـا صـاح والـشر نواديـه
فـراح كـل بـلاد مـن ممالكنـا ... في البـؤس والـتعس والأرزا تفاجيـه
سـوى بـلاد الـسعود في مناعتـه ... قـد صـانه الله فـضلاً مـن توليـه
لـذا فلمـا أقـيم الحـرب بينهمـو ... في ذا الزمـان فـلا كـرب نعانيـه
بينـا الممالـك في كـرب ومـسغبة ... عـدا الجزيـرة في أمـن وترفيـه
مـن أيـن جـاء الأمـان في جزيرتنـا ... وأرغـد العـيش بينـا الغـرب عاريـه
أجـاء مـن كثـرة الـذرات أو عـدد ... جـمّ فـلا، بـل بفـضل الـدين آتيـه

* *

ونـسأل الله رب الخلـق ينقـذنا ... مـن فتنـة الغـرب بـالتقوى وتفقيـه
في شـرعنا ثـم بعـد الفعـل يـصحبه ... هـذا الـسلاح الـذي حقـاً سـيرديه
وهـا هـو الملـك سـاع في إشـادته ... معاهـد الـدين نرجـو الله يجزيـه
عن سعيه خـير مـا جـازى بـه ملكـاً ... ولاه ربـي علـى قـوم مطيعيـه
أعـاذه الله مـن أمـر يثبطـه ... عـن نـصرة الـدين أو إن هـم يثنيـه
ويمـنح الملـك تمكينـاً ونـصرته ... ونهجـة الـشرع والقـرآن هاديـه
مـع حـسن نيتـه إصـلاح أسـرته ... ونـسله بـل وشـعب تحـت أيديـه

* *

ونـسأل الله يهـدي العـرب قاطبـة ... للـدين كـي يطـردوا الغـرب لقاصيـه
ويـنـصرنّ ذوي الإسـلام أجمعهـم ... في كـل صـقع علـى أهـل معاصيـه

* *

وجملـة القـول أن الـدين مـن أخـذا ... بـه عـلا مجـده والله يحميـه

وإن أبـــاه القـــصيمي وشـــيعته إذ لا نجـا في الهـدى إن كـان يزريـه
قـــد بـــان حقـــاً لنـــا مما تـضمنه نظمـي بـأن الفتـى لا ديـن يبغيـه
ولا إلـــه ولا أخـــذاً بموجـــب مـــا يرضاه عقـل الـورى سبحان مـشقيه
لا شك إن أفسد الله الحجا فـسدت تـصورات الفتـى حتـى مـساعيه
فيجعـل الـسوء إحـساناً ومكرمـة والعُرف نكراً، فهـل يرجـى تداويـه؟
وهل يفيد الحجاج مع فتىً فـسدت آلات إدراكـــه؟ كـــلاًّ ومنـــشيه
لكـن علـى مـن لـه بـالحق معرفـة تبيينـــه عـــاملاً قبـــلُ بمـــا فيـــه
كل امرئ قـدر مـا اسـطاع بـلا سـأم ولا يقـل مـن أنـا للحـق راعيـه
هـذي الأصـول الـتي تقـضي بردتـه جمعـاً وفـرداً فهـل يـا صـاحب التيـه
تشخـصت لـك أم لـلآن مـشكلة وراجـع الفهـم وأمعـن في تأنيـه
تعلمهـا حقـاً وإن غادرتهـا سـفهاً وقعـت والله في بلـوى ومكـروه
إذا أبنـت لحـر طـاب عنـصره وعقلـه سـوء مـا قـال ويأتيـه
وقـد أقمـت عليـه مـن أدلتـه مـا بعـضه يوجـب القطـع ويعطيـه
حـالاً يتـوب، وإلا قـد يقـرّ بـه ويـصطفيك علـى أعـلا مؤدّيـه
أمـا الـزنيم أو الـشخص اللئيم فـلا يزيـده ذا سـوى بغـض لمبديـه
ولا يقـرُّ بـه، كيـف يغـادره بـل ربمـا ازداد بالـسوء تماديـه

* * * *

هـذا ونـسأل رب الخلـق ينظمنـا في سـلك أحبابـه رغـم أعاديـه
وينـصر الـدين والكفـران يخذلـه وأن يمـد الهـدى لأنهـى نواحيـه
وأن يجـب لأهـل الـدين نـصرته كـي بـالنفوس وأمـوال تفديـه
وبالخـصوص ولاة الأمـر قادتنـا نرجـوه ذلـك إذ مـا خـاب راجيـه

* * * *

ثـم الـصلاة علـى خـير الخليقـة مـع سـلامه جـل مـا دامـت لياليـه

والآل والصحب ثم التابعين لهم ... علي الهدى ما بدى برق لرائيه
وما ترنمت الورق على فنن ... وأزهر الروض واخضلت حواشيه

وبعد؛ فقد وقع الفراغ من تحريرها حسب الطاقة ليلة الجمعة ١١/ ١١/ ١٣٦٦هـ فما فيها من صواب فمن الله عز وجل، وما فيها من خطأ فمني ومن الشيطان، ولي من أبيات يستحسن إيرادها هنا ولا يخفى على الفطن مناسبتها والمراد منها:

إذا فات إنساناً من اثنين واحد ... أساء أبى أم شاء في الورد والصدر
فأول ذين الرفق في القول والعمل ... ولا سيما حسن التثبت في النظر
وثانيهما فهم صحيح مؤيد ... بنقل وعقل يرتضيه أولو الأثر
فإن فاته الأمران فارثى لحاله ... وقل إن هذا النوع من أسفل البشر
كما أن من أوتيهما فاق عصره ... إذا استعمل الأمرين في الحق واستمر

تقريظ للشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد: فإني لما قرأت هذه القصيدة التي نظمها الابن الأديب، والفاضل الأريب صالح بن حسين العلي، وجدتها قد اشتملت على إيضاح كثير من أضاليل هذا القصيمي الخبيث الزائغ، ورد جمل كثيرة من أخطائه رداً صحيحاً مستنداً إلى الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة النبوية، وإجماع سلف الأمة، مع الإشارة إلى بعض ما يقضي بردة القصيمي صاحب الأغلال، ومروقه من دين الإسلام، فجزى الله هذا الناظم خيراً وزاداه من العلم والعمل، وجعلنا وإياه وجميع إخواننا من أنصار دينه والدعاة إلى سبيله على بصيرة، ونسأل الله أن يهدي صاحب الأغلال ويمنّ عليه بالتوبة النصوح، وأن يعيذنا وجميع المسلمين من مضلات الفتن آمين.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

قاله الفقير إلى ربه عبدالعزيز بن عبدالله بن باز قاضي الخرج عفا الله عنه وغفر له.

حرر في الحادي عشر من شهر ذي القعدة الحرام من شهور سنة ١٣٦٧هـ من هجرة النبي عليه الصلاة وأزكى السلام.

وقال الشيخ راشد بن خنين ـ رحمه الله ـ :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد: فهذه أبيات قلتها تقريظاً لهذه القصيدة التي أنشأها صديقي ومحبي في الله، الأخ الفاضل الأديب، صالح بن حسين العلي وهذا نصها:

أحسنت يا صاحبي في الرد تمليه ... إذ قمت تنقض ما أملاه ذو التيه
ببسطك القول في نظم أتيت به ... قصداً لنصرة حق، ذا يعاديه
أعني القصيمي ذا الأغلال من قبحت ... في الناس سمعته من قبح ما فيه
يدعو لنبذ الهدى والحق أجمعه ... معبوده درهم، أو ما يضاهيه
لذا يفضل أهل الكفر إذ بطروا ... على الرسول وصحب، مع مواليه
هدى الفرنج ومن يقفو طريقهم ... هو الهدى عنده والمجد يسميه
وذاك من جهله بالدين مع حسد ... وحبه للدنيا، خابت مساعيه
لو كان يعرف ما جاء الرسول به ... على الحقيقة لم يمدح أعاديه
ولم يقُم داعياً للشر معترضاً ... على النصوص التي للخير تحويه
لكنه أحمق والشرع يبغضه ... إذ عقله فاسد، والعُجب مغريه
فلا حياء ولا ديناً يباعده ... عن الشرور، بل الشيطان يغويه
لو كان يعقل لم يؤثر لعاجلة ... على النعيم الذي الجنات تحويه
إذ نابذ الدين كي يحظى بشهوته ... وصار يبغض ما يرضاه باريه

* * * *

جــزاك ربــك يــا صــاحي بجنتــه ... إذ جئت تنقض ما أملى معاديـه
نقلاً وعقلاً صحيحاً قـد رددت بـه ... فمـا أجـل الـذي تحـوي معانيـه
لله درك إذ حاربـــــت باطلــــه ... مشخصاً جلّـه في الـنظم مبديـه
لعلــه يهتــدي للحــق إن صــدقت ... منــه الطويــة في ســول لتنبيــه
على الشرور التي من فيه قد صدرت ... وظننـــا أنــــه مَـــيْن بتمويـــه
مــع أنــي ســائل ربــي وأســأله ... أن يهدي الخب ينأى عن مخازيه
ويظهـر الخـير والأخطـاء ينقـضها ... والــدين ينــصره حقــاً ويتليــه
والــنظم أبديتــه قــبلاً لأنــصحه ... لكنمــا نفــسه بالعجــب ترديــه
نعــوذ بــالله مــن زيــغ ومــن ريــب ... فالنفس تأمر بالفحشا ومكـروه
وفي الختــام أعيــد النــصح محتــسباً ... لعلــه يهتــدي والــشر يقليــه
أقول يا صاحب الأغلال إنـك قـد ... ضللت عن رشد بل أنت في تيه
فارجع لدينك قبل الموت مع نـدم ... علــى الــذي قلتــه ممــا ينافيــه

* * * *

والله أســـــأله نــــصراً لـــــشرعتنا ... وملكنــا بالهــدى والعــز يعليــه
عبــدالعزيز الــذي جلــت فــضائله ... يا رب فانصر به الإسلام وهليـه
واحفــظ مــشايخنا وانفــع بعلمهــو ... ليقمعــوا مارقــاً أو مــن يحاكيــه
ثــم الــصلاة وتــسليم الإلــه علــى ... خــير البريــة مــن آلِ وتاليــه

القائل لهذا التقريظ الفقير إلى ربه: راشد بن صالح بن خنين سامحه الله تعالى آمين. الدلم ـ الخرج ـ ١١/ ١١/ ١٣٦٧هـ

تشخيص أخطاء صاحب الأغلال الرئيسية

وبيان ما دلت عليه من الإلحاد والمذاهب الإباحية

قصيدة الشيخ راشد بن صالح بن خنين

ثم تقريظ العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل باز

ثم قصيدتي الشيخين :

صالح بن سحمان و صالح العراقي

طبعت على نفقة الغيور على الاسلام

ع ٠ ع

مطبعة أنصار السنة المحمدية

صورة غلاف كتاب «تشخيص أخطاء صاحب الأغلال»

الرد الرابع:

«الشواهد والنصوص من كتاب «الأغلال» على ما فيه من زيغ وكفر وضلال»

للشيخ

محمد عبدالرزاق حمزة

ـ رحمه الله ـ

ترجمة الشيخ: محمد بن عبدالرزاق حمزة[(١)]

هو الشيخ العلامة محمد بن عبدالرزاق بن حمزة بن إبراهيم بن نورالدين بن عبدالمتعال بن حمزة الأشبولي، ولد في شعبان سنة ١٣٠٨هـ في قرية كفر عامر، إحدى قرى محافظة القليوبية التابعة لجمهورية مصر العربية.

تلقى العلوم الأولية في مدرسة القرية، ثم التحق بالأزهر، وعمل بدار الدعوة والإرشاد التي أنشأها الشيخ رشيد رضا، ثم أصبح معاوناً للشيخ في تصحيح ما يُطبع في مطبعة المنار من الكتب العلمية.

ذهب للحج سنة ١٣٤٤هـ، فاستبقاه الملك عبدالعزيز لإمامة الحرمين الشريفين مع الشيخ عبدالظاهر أبي السمح، وأصبح مدرساً بالمسجد الحرام والمعهد السعودي، ثم انتقل إلى المدينة خطيباً للمسجد النبوي، وإماماً لصلاة الصبح، ومدرساً ووكيلاً لهيئة مراقبة الدروس فيه، ثم عاد إلى مكة كما كان أولاً. وفي عام ١٣٧٢هـ انتدب للتدريس بالمعهد العلمي بالرياض سنة واحدة، ثم عاد إلى مكة، وشارك في التدريس بدار الحديث بها، ثم أحيل

(١) اختصرتها من ترجمته الموسعة التي عملها الأستاذ محمد بن أحمد سيد أحمد بعنوان «الشيخ العلامة المُحدِّث محمد عبدالرزاق حمزة، من كبار علماء الحرمين الشريفين». (ط١ سنة ١٤٢٥هـ).

للتقاعد في عام ١٣٧٢هـ، توفي عام ١٣٩٢هـ -رحمه الله رحمة واسعة-.

مؤلفاته:

١- كتاب «الصلاة» (١٣٧٢هـ).

٢- «الشواهد والنصوص» في الرد على القصيمي (١٣٦٧هـ).

٣- الرد على الكوثري (١٣٧٠هـ).

٤- «ظلمات أبي رية» (١٣٧٨هـ).

٥- «الإمام الباقلاني وكتابه التمهيد».

قال الأستاذ محمد أحمد الغمراوي[١] في تقديم الكتاب:

«الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذا كتاب في الرد على كتاب «هذي هي الأغلال» كتبه أخي في الله الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة المدرس بالحرم المكي الشريف، تأييداً وتتميماً للرسالة المقنعة الممتعة التي كتبها علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن السعدي في نقد نفس الكتاب، والتي سماها «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»[٢].

وكتاب الأغلال ألّفه شاب نجدي مغمور، وطبعه ونشره في مصر، فلم يكن له من الأثر إلا ما يكون للحصاة يلقى بها في اليمّ: مقالات قليلة كتبت هنا وهناك أكثرها كان في تحقير الكتاب وتسفيه صاحبه، وأقلها كان في جانبه من بعض من يذهب مذهبه في الدين ونشوئه، وقد أقنعتني جميعها بتفاهة الكتاب وسخفه، فصدتني عن قراءته فضلاً عن الاهتمام بنقده، رغم رجاء أحد تلامذتي وزملائي إياي أن أنقده لأنه كما قال: كتاب سوء يحارب الإسلام بكل وسيلة ومن كل سبيل.

---

(١) كان دكتوراً في الكيمياء والصيدلة، إلا أنه تعمق في علوم القرآن واللغة؛ فكان مبرزاً فيها. من مؤلفاته: «النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي» رد به على طه حسين، و«سنن الله الكونية»، وغيرها. ترجم له الأستاذ حسن سويدان في خاتمة كتاب «مدخل لدراسة السيرة النبوية» للغمراوي، رحمه الله.

(٢) سيأتي الحديث عنها ـ إن شاء الله ـ.

لكن الموقف تغير حين طلب إليّ أخي وصديقي الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة أن أعلق على كتابه وأن أقدم له إن أمكن، وحين أرسل إليّ مع كتابه رسالة الشيخ السعدي هدية من نبيل جدة ووجيهها الشيخ محمد نصيف. قرأت رسالة الشيخ السعدي، ثم قرأت كتاب الشيخ حمزة فإذا بي أمام أمور فظيعة منسوبة إلى صاحب الأغلال، ونصوص شنيعة منقولة عن كتابه لم يذهب بي الخيال يوماً إلى أن مثلها يمكن أن يصدر عن مسلم كان له يوماً في الإسلام قدم، بل كان له في سبيل الإسلام عند أهل بلده جهاد.

ولم أجد بداً حين قرأت الكتابين من أن أقرأ كتاب الأغلال من أوله إلى آخره لأعرف حقيقته عن غير واسطة إن كنت كاتباً مقدمة للرد عليه، قرأته فإذا الأمر أفظع حتى مما يبدو من خلال الكتابين.

وجدت كتاباً ينبض بالضغن ويفيض بالقدح في الإسلام وأهله، فقد نقض صاحبه ما وصلت إليه يده من كتب المتقدمين حتى إذا وقف على بعض أقوال لا يقول بها أحد يُعتد به اليوم ـ ولا يخلو من مثلها تاريخ أمة حتى في هذا العهد الحديث ـ اتخذ تلك الأقوال ذريعة إلى الطعن في المسلمين أجمعين في عشرة القرون الأخيرة من تاريخ الإسلام، مؤكداً للقارئ وللناس أن المسلمين جميعاً عاشوا طوال تلك الحقبة لا يرون الأخذ بالأسباب، معتقدين أن التوكل على الله معناه النوم وترك التدبير اتكالاً على

أن الله سيرزقهم من غير سعي ولا عمل، ويحميهم من غير إعداد عدة ولا جهاد، واكتفاء في ذلك كله بالدعاء والانقطاع لعبادة الله من نحو صوم أو صلاة، فتأخروا في زعمه عن ركب الإنسانية ألف عام ناموها، وسارها غيرهم من مختلفي الشعوب والأديان.

ولو اقتصر الأمر على مثل هذا الزعم لهان على شناعته؛ فكل عارف بتاريخ الإسلام يعلم أن المسلمين لم يكونوا كلهم أو جلّهم يعتقدون ذلك يوماً من الأيام، ولعل فترات عزهم في الألف عام الأخيرة كانت أكثر من فترات ذلهم، بعكس الغربيين الذين يُسبح صاحب الأغلال بحمدهم وحمد مدنيتهم، ويقدس لها ولهم.

وعلى فرض أن المسلمين كانوا كما وصف طوال تلك القرون العشرة فليسوا هم كذلك الآن، فكلهم يريد الأخذ بالأسباب، وكلهم يدعو إلى الأخذ بأسباب النهوض والعزة، وإن اختلفوا في الأسباب ذاتها اختلاف أية أمة ناهضة أو شعب في كل عصر، على الأخص في هذا العصر، ففيم إذن الهمز واللمز والطعن والذم والاستهزاء والسخرية، وقد انقضى سببهما المزعوم إن كان قد وجد يوماً من الأيام.؟!

أليس من الحمق والغباوة؟ أو من الغرور وتلمس شهوة المال والشهرة من أسوأ طريق، أن يفترض صاحب الأغلال وجود مالم يوجد أو

استمرار ما قد انقطع وانقضى؛ ليجاهده وينازله كما كان دُنكشيوت في كتاب سرفنتيس يجاهد وينازل طواحين الهواء يظنها مردة وعماليق تقطع على الناس الطريق.

ثم أليس من الغرور والحمق معاً أن يعتقد صاحب الأغلال أن الأربعمائة المليون المسلم ـ على حد تعبيره ـ خاضعة اليوم لسلطان تلك الخرافات التي يزعم؟ ثم يطمع أن يزحزحها هو عن ذلك بسفاهته وبذاءته التي بثها في كتابه، والتي ستصد عنه كل من يقترب منه كما صد الرائحة الخبيثة عن مكان الجيفة؟ فلو أن إنساناً أحسن الدعوة من وجهها وجاء إلى المسلمين يدعوهم ليقودهم بزمام دينهم ـ والإسلام كله مقاد إلى الخير والعز والفلاح ـ لكان عجباً مع ذلك أن يطمع بمفرده في تحريك العالم الإسلامي، وقد قعد عن العمل بالإسلام، طالت مدة القعود أو قصرت، فكيف بهذا المغرور الضال الذي لا يرى سبيلاً إلى نهوض المسلمين إلا أن يكفروا بماضيهم كله، وينزلوا عن ميراثهم كله، ويحتقروا كل ما ألّف في ألف سنة في أي علم أو فن؛ لأنه صورة من كتاب واحد ألّف في علمه أو فنه قبل أن تبدأ الألف أو بعد أن بدأت الألف، وأن يُنزلوا أي رواية أو رأي يجمع عليه أو عليها مؤلفو تلك الكتب الكثيرة منزلة رواية الفرد الواحد، ورأي الشخص الواحد.

هكذا يدعي وإلى ذلك يدعو هذا المغرور المفتون في إعادة وتكرار ومبالغة وتوكيد، واقرأ له إن شئت لترى إلى أي مدى يذهب الغرور بصاحبه؛ ولتحكم أعَن عقل يصدر في كلامه أم عن تخليط، قال من ص٣٠٦ من كتابه:

«إننا نعدّ في علم التاريخ مئات الكتب وألوفها؛ وكذا في **الحديث والفقه والتفسير، وفي كل علم،** ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتاباً واحداً، فإنسان ألف منذ ألف سنة مثلاً مؤلفاً في علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها، فإذا جاء بعده ألف مؤلف في هذا العلم فإنهم جميعاً سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه **بلا نظر أو تفكير،** وهذا هو الشأن في جميع المؤلفات التي تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم، والتي يفوت إحصاؤها».

«وعلى هذا فمن الخطأ الذي يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأياً في مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأي قد قال به ورواه هذا العدد العديد، والصحيح أن نقول إنها أو إنه «رواية أو رأي» إنسان واحد في مؤلف واحد نقله هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل؛ فلا ننخدع ونخدع بالكثرة ونقول: كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدّقها عشرات العلماء أو مئاتهم! وكيف

تكون كذباً ثم يخفى حالها على كل هؤلاء؟ إن من السهل على الإنسان ألا يثق برواية إنسان واحد وبرأيه، ولكن من العسير عليه أن يشك في رواية العشرات ورأيهم ولا سيما إن كانوا ممن يجلّ ويحترم»!

دعوى يلقيها هذا الأحمق كأنه قرأ تلك الألوف المؤلفة في جميع العلوم في عشرة قرون فجاء يعلن نتيجة بحوثه ويزين له شيطانه أن سيسمع له الناس!

والحمق والغرور الظاهران من هذه الفقرة التي نقلناها لك من كتاب الأغلال، هما الطابع الذي طبع به على الكتاب كله، لا يكاد يخلو من أماراتهما صفحة من صفحاته، فأنت إذا تناولت الكتاب وجدت ذلك الطابع على غلافه الخارجي إذ تقرأ:

«سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل....»!!

كأن الأمم العربية عامية عن العقل وطريقه وستبدأ تُبصرهما ولكن على يد صاحب الأغلال!

فإذا أنت قلبت الغلاف وجدت نفس الطابع مرة أخرى، إذ تقرأ على الغلاف الداخلي:

«ثورة في فهم العقل والحياة، دراسة عميقة للعوامل النفسية

والاعتقادية والتاريخية والخلقية التي قضت بانحلال المسلمين عربهم وعجمهم وذهابهم في طوفان الغرب الطاغي.. ثم كيف يمكن أن ينحسر عنهم هذا الطوفان..»

أرأيت إلى هذا الأحمق المغرور؟ إنه يثور لا على المسلمين وحدهم، ولكن على الإنسانية جميعاً فيما يبدو، يثور عليهم وعليها في فهم العقل! ثم في فهم الدين! ثم في فهم الحياة!

وكأنه أراد ألا يدعك في شك من مدى غروره وفجوره في ثورته ودعوته فكتب لك في أول صفحة تلقاها داخل الغلاف:

«إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التي تفقدها أمة فتهوي لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنه قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة... ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم يستغني عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية»!!

يعني أنه هو وحده من بين المسلمين أو من بين البشر يأتي بثورة في فهم العقل والدين والحياة، ثم لا يكون ما يأتي به ـ في كل الكتاب لا بعضه ـ إلا حقائق أزلية أبدية! صادقة منذ القدم قبل أن يوجد الإنسان؛ صادقة إلى الأبد بعد أن يفنى الإنسان؛ فليت شعر العقل إن كان ما في كتابه كذلك فكيف

يكون ثورة في فهم العقل أو الدين أو الحياة؟ أفلم تهتدِ الإنسانية بنفسها أو برسل ربها إلى مقومات الحياة والدين الأزلية الأبدية قبل عبدالله بن علي القصيمي أو قبل كتاب «هذي هي الأغلال»؟!

وإذا كان كتابه ثورة فكيف يكون كله حقائق، وحقائق أزلية أبدية؟ لو كان بعضه حقاً جديداً يضاف إلى ما بيد الناس دهمائهم وعلمائهم من الحق فيما يتعلق بالعقل والدين والحياة لكان عجباً من القصيمي، وفتحاً للقصيمي لا للناس، لأن كل حق جديد يكشف عنه يجب أن يتفق مع ما بيد الناس من حق معروف من قديم كي يثبت أنه حق؛ إذ المحك الذي يعرف به الحق من الباطل في العلم وعند البحث هو أن يتفق الجديد مع كل المعروف من الحق حتى يُمكن أن يفتح له الباب ليدخل في حظيرة الحق، إن الحق لا يتناقض ولا يمكن أن يتناقض، إنما الذي يتناقض مع نفسه ومع غيره هو الباطل.

والناس في العلم وفي غير العلم يستعملون ما بيدهم من الحق محكاً لكل جديد يأتيهم بزعم أنه حق: إن اتفق مع المعروف من الحق قبلوه وضموه إلى ما بيدهم من الحق، وازدادت به ثروتهم من الحقائق قليلاً أو غير قليل، حسب مقدار المكشوف الجديد، وكان تقديرهم للكاشف عن الجزئية الجديدة من الحق في هذه الحالة تقديراً صادقاً، صغرت الجزئية أو عظمت.

أما إذا كان الشيء الجديد منافياً لشيء من الحق المعروف؛ فإن هذا يكون دليلاً لا يرد وشاهداً لا يكذب، على أن الجديد زائف باطل ليس من قبيل الحق في شيء، فكيف إذا نافت القضية أو القضايا الجديدة كثيراً من الحق المعروف للناس علمائهم وجهلائهم على السواء؟ إنها عندئذ تكون لا تستحق النظر، وإن نادى عليها صاحبها من الصبح إلى المساء.

فصاحب الأغلال حين وصف كتابه بأنه ثورة في فهم العقل والدين والحياة، وأنه في الوقت نفسه حقائق أزلية أبدية قد دلَّ على نفسه أنه دعيّ في أهل الحق، لا يدري ما الحق ولا ما علامات الحق، إنه قد دمغ كتابه بالبطلان حين طبعه بطابع الثورة على المعروف للناس أجمعين في أمر العقل والدين والحياة، فإن كان في الناس من يصدقه مع جمعه بين النقيضين فهو مثله لا يدري ما الحق ولا ما التفكير.

ثورته على الحياة والدين:

ثورته في فهم الحياة هي في الواقع ثورته على الإسلام وأهله، فهو لا يفهم الإسلام كما فهمه المسلمون ويفهمونه، ولا يحب أهله، يرى المسلمين ضعفاء فيحتقرهم لضعفهم وفقرهم، لأن القوة والمال والجاه عنده هي الجديرة بالاحترام، وبالسعي فيها والعمل لها، أما المروءة وأما فضائل الأخلاق فهو إن سواها بالقوة المادية والثراء فقد تساهل معها في الحساب.

ثم هو يرى أن ضعف المسلمين ليس من تركهم الدين؛ ولكن من اتباعهم إياه، فهو لذلك يحارب الدين ويستهزئ بقوانينه التي وضعها للناس، كلما وجد إلى الاستهزاء سبيلاً، أي كلما أمن عواقب الاستهزاء، فإن لم يأمن وظن أن رأيه الذي يعتقد ويود لو اتبعه الناس يعرضه لسخطهم ولرميهم إياه بما هم لا بد راموه به من الزندقة والإلحاد أو ما هو أكبر منهما لفّ ودار، وقرر رأيه بجميع الصور، ثم تبرأ في الهامش أو في الصلب أن يكون قصد كفراً أو إلحاداً، ولكنه قصد تقرير الحقيقة، أو أنه فعل ما فعل وأورد ما أورد للاعتبار:

ولا نجد شيئاً إسلامياً سلم من سلاطة هذا الرجل وبذاءته، لا الدهماء، ولا العلماء، لا الفقراء ولا الأغنياء، لا الملوك، ولا السوقة؛ لا الأمم ولا الأفراد؛ لا العرب ولا العجم، لا معاهد العلم ولا جهود المسلمين في سبيله في الماضي والحاضر، لا شيء من ذلك للإسلام يلقى من صاحب الأغلال إلا الغل والضغن، كأن ذلك كله حال في الماضي ويحول في الحاضر بين صاحب الأغلال وبين ما يبتغيه من جاه وقوة وثراء.

ولو كان هذا الرجل ينبض قلبه بشيء من الحب للإسلام وأهله لكان سبيله في تنبيههم غير سبيل تجاهل المحاسن وتلمس المساوئ والمعايب، الموجود منها والموهوم، واتخاذها وسيلة للتحقير والتسفيه والزراية

والتشهير، ولدعاهم إلى ما دعاهم ربهم إليه من العمل بدينه كما في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بدلاً من أن يحاول صرف ذلك كله عن وجهه وصرفهم عنه تارة بسوء التأويل الذي لا يمكن أن يكون كله راجعاً إلى الجهل، وتارة بالكتمان الذي لا يمكن أن يكون كله راجعاً إلى النسيان، وتارة بالتشكيك في الأصول، وتارة بالإنكار حتى لما هو معروف من الدين بالضرورة؛ كفضل الدعاء وأثر طاعة الله في حياة الإنسان هنا في الدنيا، وفضل التوكل على الله حتى مع الأخذ بما شرع من أسباب، ثم ما هو أدهى وأمرّ من إنكاره تصرف الله المطلق في ملكه يفعل فيه ما يشاء.

وليس يهمنا هنا إثبات شيء من هذا على هذا الرجل المفتون؛ فسترى ما يكفي وفوق ما يكفي لهذا فيما أورده الشيخ حمزة في رده البليغ من نصوص؛ إنما الذي يهمنا الآن هو الوقوف على سبب تطور نفسية هذا الرجل ذلك التطور الذي نقله من آخر مراكز البندول في اليمين إلى آخر مواقف البندول في اليسار ـ من التطرف في الدين إلى التطرف في التنكر للدين.

وتطرف الرجل في الدين في الماضي يحدثنا به الرجل نفسه في فقرة عجيبة من كتابه لعلها من أغرب الاعترافات، إنها تدلك على حاضر الرجل وماضيه معاً فاقرأها:

«إن ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة تعاودني كلما مرَّ بخاطري عصر

مشؤوم قضيته مسحوراً بهذه الآراء، كنت أفرّ من الحياة ومما يعلي من قيمة الحياة، فقد كنت لا أجد ما يحملني على أن أرفع قدمي لو علمت أني إذا رفعتهما تكشف ما تحتهما عن أعز ما عليه يتقاتل الأحياء! وقد ضاعت عليّ من أجل ذلك فرص كان يمكن الإفادة منها، لا يمكن استرجاعها! كان الغرور الديني قد أفسد عليّ كل شعور بالوجود وبجماله.

وكنت مؤمناً بأن من في المجتمع لو كانوا يرون رأيي ويزهدون زهدي لوقفت الأعمال كلها، ولما وجد العالم بدأ من أن يخرب! كنت أنظر إلى من يهتمون بالحياة وبمن فيها، ومن يعملون لها ويجاملون ويخالفون من أجلها، بعين أقل ما فيها الاحتقار والاستصغار!

وكنت لا أبالي بأحد مهما كان عظيماً ومهما كان قادراً على النفع والضر، وما كنت أفكر في أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو للاتصال به!

وكنت لا أخالق إنساناً رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله، وكان شعاري في تلك الفترة قول ذلك المغرور المخدوع:

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين؛ وأن جميع ما فوق التراب وما في العالم من جمال وطيبات وحاجيات، ومن أقوام وأمم وشعوب، تراب!

وكنت لا أبالي أن يحلو لي شيء من ذلك أو يمر، ولا أن يرضى أو يغضب، ولا أن يعمر أو يخرب، كما يقول هذا الشاعر المسكين.

وكنت أرى أني بذلك أرضي الله، وإني إذا أرضيته فلن يضيرني شيء.. وكانت الدنيا كلها تدور من حولي من غير أن أدور معها أو أحس دورانها! وكان يخيل إليّ وإلى غروري الديني الأعمى أنه لا قوة كقوتي؛ لأن الله معي واهب القوى! فليقوَ العالم كما يشاء، وليجمع من الأسباب ما طاب له، وليحاول من أجل نفسه ما يحاول، فإن ذلك كله لا قيمة له ولا خطر بالنسبة إلى قوة من استقوى بطاعة الله، ومن ترك الأسباب جملة مستمسكاً بأسباب الله وحدها.

وكان يبدو لي أنه بقدر إيمان الإنسان بذلك، وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والإنسانية كلها، وبقدر استصغاره لها واحتقاره إياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها - بل سبها ولعنها - يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه.

وكانت هذه الاعتقادات أو الخيالات تهبط بي وتعلو، وتجعل لي وجوداً خاصاً، وعالماً خاصاً، ودنيا خاصة، تدور من أجل واحد وتوجد من أجل

واحد أيضاً ـ واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه فوهب الله له على حسب ما يظن، كل ما يريد ولو كان في جملة ما يريد إعزاز الأمم وإذلالها».

هذا ملك كان هذا الرجل فيه من غير شك، دونه ملك الثراء والقوة والجاه، إن هذه العزة النفسية التي تملأ جوانب كل متدين متوكل على الله حق توكله، وتملأ نفس من يكون مع الله بالقلب والنفس والروح والبدن، وهي أقصى ثمرة الملك المادي في الدنيا، ثم لا ينالها كثير من أهل المال والسلطان، ومع ذلك فقد استبدل بها ذلك الرجل طائعاً مختاراً حالاً الله أعلم بها وبه فيها، فما أظنه نال من القوة والمال كثيراً، وسيدأب وينصب في سبيلهما من غير أن ينال ما يصبو إليه منهما كل من يرى المادة هي كل شيء، وأن ليس بعد الدنيا شيء، وسيجد نفسه مضطراً إلى النزول على حكم الدنيا وأهلها وأسبابها التي يرى أنها طبيعية حتمية لا مفر منها، فيبذل في سبيل النجاح والمال من ماء وجهه ما كان يصونه حين كان فقيراً مع الله.

ولم يكن الرجل فيما بلغنا مع الفقراء حقاً إلا بالنسبة إلى ما يطمح إليه ويطمع فيه الآن، فقد كان له راتب من الحكومة السعودية لعله كان أربعين جنيهاً في الشهر، ولعله لا يزال يأخذه إلى الآن من غير أن يرضى عن الحياة ويستشعر من القوة والعزة فيها ما كان يملؤه حين كان مع الله بالصورة التي وصف.

وإنك لتجد مفتاح ضلال هذا الرجل فيما قص علينا من أمر حياته الدينية قبل أن يفتتن عن الدين، لقد أراد أن يسلك سبيلاً من الزهد في الدنيا ليس هو من رجاله، فشدد على نفسه وعصى الله ورسوله بتشدده، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن التشدد والتنطع في الدين في أكثر من حديث كريم قال: «**لن يشادّ هذا الدين أحد إلا غلبه**»، (١) وقال: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**»، (٢) وقال: «**من رغب عن سنتي فليس مني**» (٣) في حديث مشهور نهى فيه رجالاً عن حرمان أنفسهم مما أحل الله لهم من الطيبات، ولما بلغه تشدد عبدالله بن عمرو في الصيام والقيام نهاه وقال: «**لا صام من صام الأبد**» (٤).

وكذلك أمر الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من كتابه بالأخذ من الطيبات التي أحل لعباده: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾[الأعراف: ٣١ - ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ

(١) أخرجه البخاري (٣٩).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٣٠٧٤)، وحسنه الأرنؤوط.
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (٣٤٠٣).
(٤) أخرجه البخاري (١٩٧٧)،ومسلم (١١٥٩).

طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ [سبأ:١٥-١٦].

فصاحب الأغلال لم يطع الرسول فيما أمر من القصد، وأوغل في الدين بغير رفق؛ فخسر الرحل والراحلة وانقطع به الطريق.

حرّم على نفسه الطيبات، وبالغ في حرمان نفسه رجاء الدرجات العلى عند الله؛ وما كان عليه في ذلك من بأس لو أنه كان من رجاله، لكنه لم يكن هنالك.

وكأنه لما عجز عما كلف به نفسه مما لم يكلفه الله، وبرم بالزهد ومطالبه، صادف أن قرأ بعض ما نقل إلى العربية من مذاهب الماديين في الحياة، وبعض النظريات القديمة في النشوء، وبعض محاولات من يحاولون تعميم نظرية نشوء الأحياء على النفس والعقل والروح والدين، فلا يرون هناك إلا المادة، ويرون الدين نتيجة طبيعية لتطور الإنسان، لا شريعة إلهية من عند الله بالمعنى المعروف في الأديان، صادف المسكين هذا فقرأ ولم يهضم، وغره نسبة تلك الآراء إلى العلم فأنزلها كلها من الثبوت منزلة واحدة، وقبلها كلها من غير تمييز ولا مقدرة على التمحيص.

ولقد كان بيده وسيلة التمحيص لو أراد، ولم يكتسحه سيل الشك الذي فتح على نفسه، كان بيده القرآن الذي كان يوقن عندئذ أنه من عند الله، وأنه كلام الله الذي أنزله على رسوله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم؛

فكان يستطيع أن يعرض ما قرأ على ما استيقن من كلام الله، فما لم يمكن التوفيق بينه وبين كلام الله نبذه من غير تردد لو كان يقينه وإيمانه إذ ذاك قائماً على أساس من البرهان، إذ ليس مما يجوز في عقل تكذيب كلام الله عند من يؤمن به؛ وتصديق نظريات الناس، لكن تدينه فيما يبدو كان أساسه التقليد رغم أنه كان فيه من المتشددين الحُمس، فأخذت الشكوك تنوشه، ومر المسكين في فترات من العذاب النفسي يستطيع أن يتصوره الإنسان، حتى استقر أمره تدريجياً على ما استقر عليه، ولو لينجو من ذلك العذاب.

ولو أنه أطاع الله فلم يقفُ ما ليس له به علم من تلك الآراء والفروض المنسوبة إلى العلم، والتي يعلم العلم، أنها ليست من الحقائق ولا من سنن الفطرة ولكنها تفسيرات لوقائع يقول بها العلم اليوم ويجيزون عليها أن تُنبذ غداً، لو أنه اهتدى بهدي الله في هذا لنجا من الشك وآثاره، لكنه في اللحظة التي استيقن فيها ما يجيز العلم بطلانه من النظريات أصبح مستحيلاً عليه التوفيق بين كل تلك النظريات المتضاربة ـ حتى فيما بينها ـ وبين يقينيات الدين، إذ من المستحيل التوفيق بين الحق والباطل مهما اجتهد الإنسان، وقد سلم صاحب الأغلال فيما بينه وبين نفسه بباطل تلك النظريات، فلم يبقَ أمامه إلا التخلي عما كان يعرف أنه الحق من الدين، لأن تدينه كان قائماً على التقليد لا على البرهان.

وقضي الأمر، وصدّق إبليس ظنه على عبدالله بن علي القصيمي فاتبعه، ومن المستحيل أن ينقلب متطرف في الدين متطرفاً ضده مرة واحدة؛ كما يستحيل أن ينتقل البندول من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار دفعة واحدة؛ لا بد من التدرج ولا بد من الاستدراج، ويستطيع الإنسان أن يتصور استدراج الشيطان لهذا المسكين قبل وبعد إيمانه بما يناقض القرآن، يستطيع أن يتصور كيف زين إليه أن يقبل من أحاديث الرسول وينبذ، لا طِبق أصول علم الحديث ولكن وفق الهوى.

ينبذ ما صحح علماء الحديث إذا ناقض الحديث هواه، وقد يقبل ما رفضوا إذا وافقه، وستجد أمثلة من ذلك في الكتاب الذي بين يديك نبه إليها مؤلفه المفضال تنبيه محدث خبير، وبين كيف أن صاحب الأغلال ينبذ من الأحاديث ويقبل، وطريق ما نبذ هو عين طريق ما قبل، وليس لذلك من تعليل إلا ما ذكرت لك، ولو كان يصدر في ذلك عن عقل لنبذ الجميع أو لقبل الجميع، ما دام الكل قد اتحد في الإسناد، وأكبر الظن أن صاحب الأغلال قد صار إلى الحال التي لا يقبل فيها من الحديث شيئاً ولكنه يحتج بما يظن أن فيه حجة له عند المؤمنين بالحديث.

زُين لصاحب الأغلال التحلل من الحديث أول الأمر فيما نظن؛ والاقتصار على القرآن رغم تحذير الرسول أمثاله في قوله صلى الله عليه

وسلم: «**لا ألفينّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدري! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه**»(١)، وكما كان الأخذ في الحديث بالهوى سبيلاً إلى نبذ الحديث، كان كلاهما سبباً إلى القول في القرآن بالرأي وبغير علم، رغم تحذير الرسول أمثاله في قوله صلى الله عليه وسلم: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»(٢).

وهذا الرجل يقول في القرآن بغير علم، بل وبغير عقل، لأن أقل ما ينبغي على المتعرض للقرآن بعد التزام أصول اللغة أن يراعي سائر القرآن فلا ينقض بعض آيه ببعض؛ أي: لا يفهم بعض آياته على وجه مناقض لبعض آياته الأخرى، لكن صاحب الأغلال لا يراعي اللغة ولا يراعي امتناع التناقض في القرآن، فالله سبحانه يقول: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة:٥١]، وصاحب الأغلال يقول: «ثم لنعلم أنه لا خير يمكن أن يصيبنا إلا ما تقدمه لنا أنفسنا وأيدينا وأعمالنا، تدفعنا أنانيتنا الخالصة الخاصة إليه»، هو لم يذكر الآية ولكن نص عبارته يدل بوضوح أن الآية في ذهنه وهو يكتب كأنما هو يريد أن يورد نقيض الآية في توقح وإجراء.

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٦٠٥)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وينكر على الناس فهمهم للقضاء والقدر، ويزعم أن القضاء معناه الفراغ والانتهاء، لا معنى له في القرآن غيره، وأن القدر بجملته وجملة استعمالاته في القرآن وفي الشعر أيضاً «يراد به التقدير أي: جعل الشيء ذا مقادير معلومة، أي يراد به جعل الشيء منظماً في كمه وكيفه..».

وكل الآيات التي جاء بها تفيد هذا، ولكنها تفيد أيضاً التقدير من ناحية الزمن مقداراً وتحديد أجل، ولو قال هذا لما كان بينه وبين المسلمين خلاف، لكنه يرى أن اعتقاد المسلمين في القضاء والقدر من أقوى أسباب تأخرهم فأراد أن يصرفهم عما اعتقدوا بتأويله آيات القرآن لهم تأويلاً يتناقض مع آيات أخرى في القرآن؛ كالآية التي أشرنا إليها آنفاً، وتعمد من غير ذكر لها أن يناقضها بقوله: «لا خير يمكن أن يصيبنا إلا ما تقدمه لنا أنفسنا» الخ.

وكالآية الكريمة من سورة الحديد التي احتج عليه بها الأستاذ الناقد في ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد:٢٢]، وصاحب الأغلال لا يمكن إلا أن يكون حفظ الآيتين فيما حفظ من القرآن أيام زهده وتبتله، فهو يكتمهما عمداً لأنه لا يجد لهما تأويلاً لا ينقض مذهبه الذي يدعو إليه، ولا ما ذهب إليه في فهم آيات أخرى، مثل بعض الآيات التي نزلت في غزوة أحد.

ويلتحق بهذا الباب تجاهل الرجل الآيات القرآنية التي يعلم أنها تنقض مذهبه في مسألة الأسباب وخضوعها لمسببها سبحانه، ومسألة الطاعة والمعصية وأثرهما في هذه الحياة.

الطاعة والمعصية:

فعنده أن طاعة الله ومعصيته لا أثر لهما مطلقاً في نتائج السعي والكدح لهذه الحياة، إن كان لهما أثر فأثرهما سيكون في الآخرة، أما في هذه الدنيا فالفعل كله للأسباب المادية والقوانين الطبيعية المسيطرة على الحياة، والتي يستوي أمامها المؤمن والكافر والطائع والعاصي، بل هو يتجاوز هذا ويزعم أن الله جل جلاله لا يكون عادلاً إن هو فضّل في الدنيا من يطيعه على من يعصيه، إذا ما استويا في العمل، فكيف إذا بز العاصي المؤمن في الكدح والجهاد؟!

وليس مُهماً أن يعتقد صاحب الأغلال هذا أو ما هو شر من هذا، فهو حر في ذات نفسه؛ إن شاء آمن وإن شاء كفر، لكنه يزعم للمسلمين أن من أسباب تأخرهم وتفوق الأجنبي عليهم اعتقادهم أن طاعة الله تُقدم، وأن معصيته تؤخر في هذه الدنيا، وأن اعتقادهم هذا يخالف القرآن!

والقرآن الكريم ينقض زعمه هذا، وهو يعلمه، يعلم أن الله قص علينا في كتابه خبر الأمم الماضية الذين أهلكهم الله لما كفروا به وعصوا رسله؛ في سورة يونس وهود والشعراء وغيرها من سور القرآن الكريم: أهلكهم

بنفس العوامل التي يقول هذا الرجل إنها طبيعية لا تخضع لسلطان ولا تتأثر بطاعة ولا معصية ـ بالخسف والرجم والأعاصير والسيل والطوفان ـ وأهلكهم بغير هذه العوامل الطبيعية؛ كالصيحة والطير الأبابيل، فكيف أمكن لهذا الرجل أن يتجاهل تلك السور وأمثالها ويتهكم بمن يسترشد بها ويقيس عليها، إن كان يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر كما يقول في آخر الكتاب؟ وإن كان لا يؤمن بكتب الله ولا بالقرآن فكيف أطمعه شيطانه الغرور ـ حين زعم للمسلمين ما زعم ـ أنهم سيصدقونه ويكذبون القرآن؟

ومن عجب أن يحتج صاحب الأغلال لرأيه السخيف بآيات في القرآن لم ترد إلا لتوكيد أن الكفر والمعصية يُهلكان، وأن الإيمان والطاعة ينجيان، احتج لاطراد ما سماه الأسباب الطبيعية بقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر:٤٣]، وأبى عناده وأبت خيانته للبحث وروح الحق أن ينظر في مساق هذه الآيات في القرآن الكريم.

ولو كان مخلصاً يريد الحق لرجع إلى مواطن تلك الآيات الكريمة ولعرف أنها كلها سيقت لا لتقرير اطراد السنن التي يسميها طبيعية، ولكن لتوكيد أن هلاك الأمم بالكفر والمعصية سنة اجتماعية لله، ليس لها تبديل ولا تحويل، ففي سورة فاطر: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا

سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ فاطر: [فاطر:٤٣-٤٤]، وفي سورة الفتح: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح:٢١-٢٣]، وفي سورة الأحزاب: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢].

إن الله قد علم أن من السهل أن يؤمن الناس كما آمن صاحب الأغلال بأن الظواهر الطبيعية تجري على سنن ليس لها تغيير ولا تبديل؛ لكن من العسير الصعب أن يؤمن الناس أن لله في الاجتماعيات سنناً لا تتغير أيضاً ولا تتبدل، منها هلاك الناس بالكفر والمعصية، ونجاتهم بالإيمان والطاعة، فاقتضت حكمته ورحمته سبحانه أن يلفت الناس إلى هذه السنن المتعلق بها مصيرهم في الدنيا قبل الآخرة، وأن يجعل توكيده

عدم تخلف سننه منصباً على الاجتماعي منها لا على ما يسميه الناس بالطبيعي؛ علهم يؤمنون ويعملون بمقتضى إيمانهم قبل أن يمسهم من الله عذاب لا ينفعهم معه إيمان.

وكما أن تلك سنة الله في الأمم، فكذلك هي سنته في القرى وفي الأفراد، وآيات القرآن في هذا الباب كثيرة لتحذير الناس من عاقبة الكفر والطغيان مثل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦-٢٨].

وصاحب الأغلال يدعو المسلمين إلى عبادة القوة والمال والانقطاع

لها؛ وطلب العلم من أجلها لا من أجل الدين، حتى يكونوا في القوة أنداد الغرب، وفي المال أنداد اليهود، متجاهلاً كل هذه الآيات وأمثالها، رغم علمه بها وترديده لها أيام كان يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً!

والأفراد شأنهم في الطاعة والمعصية وأثرهما شأن الجماعات، يعلم ذلك أيضاً صاحب الأغلال، لأنه قرأ خبر قارون في سورة القصص، وكيف أنكر أن يكون لله عليه نعمة، معللاً قوته وغناه بما يعلل به صاحب الأغلال اليوم قوة القوي، وغنى الغني: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨]، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ القصص: ٨١].

قرأ صاحب الأغلال هذا من غير شك كما قرأ نتيجة الحوار بين الكافر والمؤمن اللذين ضربهما الله مثلاً للناس في سورة الكهف: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ٤٢ - ٤٣].

قرأ هذه الأمثلة الخاصة كما قرأ المثل العام في قول الله سبحانه من سورة

الزمر: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٤٩ - ٥٢].

ولو شئنا لضاعفنا لصاحب الأغلال الآيات عله يتذكر ويرجع إن كان يؤمن بالقرآن حقاً كما يقول، أما إذا ركب رأسه واتبع هواه وحاول تحريفها كما حرف غيرها من الآي ليثبت أن الله سبحانه لا يتدخل في الأسباب، ولا يكشف الضر بالدعاء، ولا يبسط الرزق أو يقدره كما يشاء؛ ولا يسلب النعمة من أحد ينسبها إلى علمه هو لا إلى الله، كما ينسب صاحب الأغلال مال ذوي المال وقوة ذوي القوة، وكما يريد من الناس أن ينسبوا ـ أما إذا فعل ذلك فإنه يكون قد حقت عليه كلمة الله التي قررها في قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣].

مسألة الأسباب:

إن مسألة الطاعة والمعصية وأثرهما في حياة الإنسان فرع من مسألة عامة هي مسألة الأسباب، وكان من الممكن أن يخرج صاحب الأغلال من

مأزق الشك الذي لا بد أن يكون وقع فيه في تطوره الاعتقادي، بتوفيق مبدئي بين اعتقاده الديني القديم واعتقاده الطبيعي الجديد، لو أنه اعتبر طاعة الله سبباً من الأسباب الفعالة في هذه الحياة ـ وهذا طبعاً قبل أن يتطرف في تفسير التطور ويعتبر الروح نتيجة لتطور المادة والطاقة، ومظهراً من مظاهرها، أي: في الوقت الذي كان يعتبر فيه الروح أهم ركني إنسانية الإنسان، وأن المادة لا اختيار لها.

في ذلك الوقت حين عرضت له مسألة الأسباب الطبيعية وعدم تخلفها كان يستطيع أن يُنزل الروح منزلة المادة في وجوب طاعتها لله، لأنه يقر بأن المادة لا محيص لها من اتباع السنن التي سنها الله لها وإلا هلكت.

كذلك الروح لا محيص لها من اتباع السنن التي سنها الله لها وإلا هلكت، ولا بد أن تختلف سنن الروح عن سنن المادة بقدر الاختلاف بين طبيعة المادة وطبيعة الروح، وبقدر امتياز الروح على المادة بأن لها اختياراً وعقلاً، وأن المادة لا اختيار ولا عقل لها، وسنن الله التي سنها للروح تتمثل في الدين الذي أنزله الله لهداية الإنسان، فلم يكن للإنسان بد من أن يطيع الدين طاعة لله وإلا هلكت روحه كما يهلك النجم والشجر لو لم يطع الله، غير أن الهلاكَيْن لا بد أن يتميزا ويختلفا باختلاف الطبيعتين ومراعاةً لعامل الاختيار العقلي في الروح.

لذلك كانت المادة وما إليها يعجل لها وله جزاء المعصية رأي العين في الدنيا، أما الروح فالحكمة في منحها الاختيار تقتضي تأجيل الجزاء تأجيلاً قليلاً أو كثيراً حسبما تقتضيه حكمة الله ورحمته، وإلا فأي فرصة تكون هناك للإنسان لو عُجِّل له العقاب أو عُجِّل له الثواب؟ إذاً لأجبر على الإيمان إجباراً لأنه يرى الكفر والمعصية تتبعهما العقوبة فوراً، ويرى الإيمان والطاعة يتبعهما الثواب، وإذاً لتعطلت الحكمة في منح الروح الاختيار.

وهذا الفرق بين الجزاءين من ناحية التعجيل والتأجيل هو سبب خفاء الأثر المادي للطاعة والمعصية الروحيين، وإن كان أثراً حتمياً كأثرهما في عالم المادة من غير تفريق.

فطاعة الله هي إذن السنة العامة في ملكوت الله في عالمي المادة والروح، لا بد منها للنجاة والسعادة وإلا كان الهلاك الحتمي الذي ليس منه فكاك، وعالما المادة والروح تتساند قوانين الله فيهما ولا تتناقض؛ أي: لا بد للإنسان من طاعة الله سبحانه فيهما جميعاً قبل أن تتحقق سعادة الإنسان كاملة، ومن هنا جاء تعطل النجاح المادي لبعض المؤمنين الذين هم أكثر طاعة في عالم الروح منهم في عالم المادة، وتكثّر نجاح بعض الكافرين والعاصين الذين هم أكثر طاعة في المادة منهم في عالم الروح.

وطبعاً هناك درجات كثيرة لا تحصى من الطاعة والمعصية في كل من العالمين وفيما بينهما وفي نتائج ذلك كله، فمن الخطأ الكبير التعميم مما يبدو للإنسان على سطح الحياة أو في باطنها؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يرى إلا جزءاً صغيراً جداً مما يجري، كما أنه لا يفهم إلا جزءاً مما يرى، ولو فهم كل ما يرى لما أمكن أن يفهمه حق الفهم؛ لأن ما يراه جزء من كلٍ خاضع لله، تجري فيه سننه وتجري عليه إرادته.

وصاحب الأغلال ومن لف لفه يؤتون من ناحية العجز عن التوفيق بين سنن الله التي يرون أنها يجب أن تكون صارمة، وبين إرادته التي يرون أنها تستتبع التنقص من الصرامة، والتدخل في السنن بالتغيير والتبديل، وهم حين يرون هذا يقعون في نفس الغلطة التي يرمون بها خصومهم: غلطة قياس الله سبحانه على الإنسان، هم يرمون المؤمنين بالله بأنهم يقيسون الله على أنفسهم فينسبون إليه من الصفات ما يجدونه في أنفسهم وفي عالمهم، ويقعون هم في نفس العيب الذي يعيبون به المؤمنين بقياسهم إرادة الله على إرادة الناس، ويخلقون لأنفسهم الصعاب والمشاكل الروحية والنفسية والعقلية بتوهمهم أن إثابة الطائع ومعاقبة العاصي في هذه الحياة وبعدها تستلزم المحاباة واتباع الهوى، بالمعنى الذي عرفوه في أنفسهم وفي الناس، أمن المستحيل أن يعاقب الله ويثيب كما يشاء طبق العدل وطبق الحكمة؟ وإذا لم يكن ذلك مستحيلاً فقد انحل الإشكال لو كانوا يفقهون.

الواقع أن العيب الذي يُرمى به المؤمنون من هذه الناحية هو عيب خصومهم وحدهم لا عيب المؤمنين، إن المؤمنين يصفون الله سبحانه بما وصف به نفسه في كتبه، في القرآن والإنجيل والتوراة، ولو لم يصف سبحانه نفسه بصفات الكمال لوجب أن يصفه بها العقل، عند من يُسَلم طبعاً بوجود الله، إن من غير الممكن ولا الجائز في العقل أن يكون المخلوق مريداً مختاراً ويكون خالقه مجرداً عن الإرادة والاختيار، ومثل الإرادة والاختيار بقية صفات الكمال، فالغلطة ليست في إسناد الصفات لله، ولكن في تصورها، والفصل بين الحق والباطل في ذلك هو تحقيق الكمال المطلق اللائق بذات الله سبحانه.

وتقييد الله سبحانه بالقوانين الطبيعية بالمعنى الذي فهمه ويفهمه أمثال صاحب الأغلال هو في حقيقته ونتيجته تجريد لله سبحانه من الإرادة والاختيار، إنه تقييد لا يمكن أن يكون إلا في الوهم قياساً على فهمهم العدل في تطبيق قوانين الإنسان في حكوماته، تلك القوانين التي يجب أن تطبق على جميع رعايا الأمة الواحدة ذات الحكومة الواحدة من غير محاباة.

ومن هنا القياس الأخرق الذي قاس به صاحب الأغلال حكومة الله على حكومة الناس حتى قال في كتابه: «وإن حكومة يعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوي بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أشغالهم وأعمالهم لأنها تفرق بينهم في الحب والبغض، لأن منهم الموافقين

ومنهم المخالفين على حسب الأحزاب والمبادئ والأشياء الأخرى - إن حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات، وهي حكومة لا يصح الاتكال عليها ولا الاعتماد على حكمها، ولا الإيمان بحكمتها، فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة؟».

إن صاحب هذا الكلام يرمي المتدينين أو المسلمين بدائه وينسلّ، يرميهم بأنهم يقيسون الله على قدر أنفسهم، ويقيس هو حكومة الله على حكومة الناس أهواءٍ وأحزابٍ وشيع إلى آخر ما هنالك، ثم هو مع ذلك لا يحسن القياس، فالقياس ينبغي أن يكون أساسه الطاعة - طاعة القوانين - والجد والإخلاص في العمل، فإذا كانت القوانين توجب احترام الحاكم وتعاقب من يطلق اللسان فيه كان من الواجب معاقبة من يخالفها في ذلك من غير تفريق، وإذا كانت القوانين تقرر عقوبات على مخالفيها في كل حكومة راشدة كان من الظلم ومن الفوضى أن يسوى بين الطائع والعاصي في المعاملة، فلا يعاقب العاصي ولا يقدر المطيع، فلو كان صاحب الأغلال يعقل: ما قاس حكومة الله على حكومة البشر، أو على الأقل لأحسن القياس.

إن قوانين الله في ملكوته يجب أن تطاع، وأهم هذه القوانين هي: حب الله وتوقيره واتباع أوامره واجتناب نواهيه، هي: عبادته كما ينبغي أن يعبد فيما بين الإنسان وربه، وفيما بينه وبين الناس.

هذا هو القانون العام، أما التفصيل فيجده الإنسان في الدين الذي أنزل الله، وفي الفطرة التي أمر الله الإنسان أن يلتمس أسرار الله فيها؛ فهما ناحيتان متتامتان، لكن شتان ثم شتان بينهما، فالمادة مادة والروح روح؛ والتسوية بينهما كالتسوية بين المعصية والطاعة: خرق وظلم وعدوان.

هما مصدران للحق ليس لهما ثالث، ولا يمكن أن يكون: دين الله والفطرة، والإسلام هو دين الفطرة، بل هو بالنسبة للإنسان فطرة الله نفسها كما وصفه الله في كتابه، وهو وصف لا يمكن أن يكون جاء عن خيال إنسان: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]، ودين الله المتمثل في القرآن أعم وأوسع من العلوم الطبيعية كما نعرفها، لأنها جزء منه شملتها بعض آياته إجمالاً، وتركت تفاصيلها يطلبها الإنسان بأمر الله، فمن العجب أن يتصور متصور أن يقع بين الإسلام وبين الحق من العلم ـ طبيعي أو غير طبيعي ـ تناقض، ومن الخذلان ـ ونعوذ بالله من الخذلان ـ أن يتكلف مسلم ما ليس له به علم، فإذا عرض له فيما تكلف ما لا يتفق مع الإسلام، لزم ما تكلف وشك في الإسلام!

إن استباحة الشك في كل شيء بدعة أصيب بها شباب هذا الزمان يظنونها حرية فكر، وانطلاقاً من الأغلال، وقد أصيب صاحب الأغلال بهذه

الآفة، فكان نتيجتها كتابه، وإن لم أجده أشار إليها فيه إلا بقوله: «ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغاً من الحضارة ما لم تشك وما لم تفهم، فالشك والفهم شرطان ضروريان في تحصيل الحضارة والعلم والقوة، والذي لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم»، وصاحب الكتاب لا يعرف أن يشك لأنه لا يعرف شروط الشك السليم، شروط الشك العلمي المبني على أساس من التفكير العلمي، أما الشك للشك طلباً لحرية فكرية مزعومة، وتحللاً حتى من قيود التفكير، فخير منه سهولة التصديق.

إن التصديق بالباطل كالشك في الحق، كلاهما بالغ الضرر بالإنسان، فالفكر الذي يقبل شيئاً من الباطل على أنه حق يفسد على نفسه كثيراً من الحق الذي لديه، لأن كل تفكير يُدخل في قياساته ذلك الباطل القليل سيؤدي حتماً إلى نتيجة باطلة تعتبر هي أيضاً عند المفكر حقاً من الحق، فتلد له باطلاً آخر بالتزاوج مع الحق أو الباطل الذي عنده ـ وهكذا دواليك، والشك في الحق يفقد المفكر قوة هائلة كانت لديه، بانتقاص جزئيات الحق عنده فلا يستطيع في التفكير تحليقاً، كالطائر الذي نتف من جناحيه الريش، لكن ضرر الشك في الحق لا يقف عند هذا، لأنه يستتبع حتماً الاعتقاد في باطل أدى إلى ذلك الشك؛ أو باطل هو ضد الحق الذي شك فيه.

فضرر الشك في الحق مزدوج: لأنه يعطل الحق فلا يُنتفع به في تفكير،

ويكثر سواد الباطل عند الشاك فيفسد عليه التفكير، والمسارع إلى التصديق يشترك والشكاك في عاقبة تكثير سواد الباطل، لكنه يظل على أي حال منتفعاً بالحق الذي لديه، والذي لم يفسده الشك عليه.

وأسوأ أنواع الشك هو الشك الديني، خصوصاً في المسلّمات التي أجمعت عليها كل الإنسانية في جميع الأديان؛ مثل: وجود الله سبحانه، وبعثه الرسل، وبعث الإنسان بعد الموت، وأقل الشاكين في الدين عذراً مسلم نشأ على الإسلام وقرأ القرآن ولو ببعض فهم، لأن الإسلام أكثر الأديان احتضاناً للعلم وأوثقها اتصالاً به، وأشدها احتراماً للعقل واعتماداً عليه، فلو أن المسلم حين تعرض له الشبهات يتمسك بحبل الإسلام كما يتمسك الغريق بحبل النجاة، ويتطلب من الشبهات مخرجاً، إذن لوجد المخرج من غير أن يخالف العقل أو اليقين الثابت من العلم، لكن الشرط الضروري لهذا ألا يقبل مطلقاً شيئاً غير يقيني الثبوت حتى ولو قال بذلك الشيء فريق كبير من العلماء، فإن وجود فريق من العلماء وإن قلّ لا يقول به، دليل كاف على احتمال بطلانه، وقد يكون في ذاته باطلاً فلا يتفق مع الثابت من الدين فيضل المسلم به كما ضل صاحب الأغلال.

وصاحب الأغلال لا يقتصر على قبول كل ما وصل إلى سمعه من أكثر الآراء العلمية تطرفاً، ولكن يزيد عليه ويتوسع فيه ما استطاع، فهو مثلاً:

يقبل نظريات التطور بحذافيرها من غير أي نقد لها فيما يبدو وإلا ـ وهو يتأول صريح القرآن بما لا يتفق مع صريح اللغة ولا مع سائر القرآن ـ لوجب أن يشك في نظريات تطور الإنسان؛ لأنها أولى بالشك؛ لأنها لا تعتمد في الغالب إلا على بعض أجزاء هيكل الإنسان ـ جمجمة هنا؛ أو بقايا هيكل هناك، وأحياناً لا تعتمد إلا على سن واحدة يبني العلماء عليها بقية الهيكل ـ فهل من أجل هذا يستبيح مسلم أن يشك في القرآن إذا أعوزه التوفيق بين آياته ونظريات التطور في خلق الإنسان؟ على أن التوفيق بين مبدأ التطور العام وبين القرآن سهل ميسور، وعلى أي حال فالتطور جملة أدل على فعل الله سبحانه لا كما يتصور الطبيعيون.

ويجاوز صاحب الأغلال تطور الأحياء إلى الجماد فيقول بتطوره ولم يقل به أحد، ويذهب في ذلك إلى أبعد الحدود، فيحاول أن يفسر البعث بالتطور بعد أن يؤكد اطراد الترقي التطوري، واستمرار التطور من غير انقطاع ولا انتكاس؛ مع أن هذه نقطة كثر فيها الخلاف بين التطوريين، وقد يستقيم له تخيل سماوات غير السماوات وأرضاً غير الأرض عن طريق التطور كما حاول في تفسير: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، لكن التطور المطرد الترقي حتى في الجماد إن استقام مع هذه الآية فلا يستقيم مع آيات نسف الجبال وانفطار السماء وانتثار الكواكب، وحتى لو استقام مع هذه فلا يمكن أن

يستقيم مع بعث الأموات فرداً فرداً، مهما اتسع خيال القائل بالتطور الآلي الناشئ عن طبيعة المادة وطبيعة الوجود الذي يقول به صاحب الكتاب.

صاحب الأغلال والأمانة العلمية:

ومهما يكن تاريخ التطور الاعتقادي لصاحب الأغلال فقد تطور فعلاً إلى ما تطور إليه مما يتمثل في كتابه ويتبدى من خلال الرد عليه، لكن بقيت نقطة لها أهميتها ينبغي التساؤل عنها، إذ على نتيجة بحثها يتوقف الشيء الكثير من الحكم على بواعث صاحب الأغلال.

هل كان صاحب الأغلال مخلصاً فيما يدّعي من طلبه الحقيقة بما كتبت؟ إن الإنسان قد يؤتى من ناحية الخطأ في التفكير أو من ناحية قلة العلم، بل قد يبالغ في الشك من غير مبرر فلا يلحقه من ذلك عار؛ لأن إخلاصه في طلب الحق يشفع له، فلننظر أين صاحب الأغلال من الإخلاص؟

إن أول ما نلقى من دلائل عدم إخلاصه في طلب الحق تجاهله الكثير من آيات القرآن المضادة لمذهبه ـ إن الرجل جابه المسلمين بشيء كثير فلا يمكن تعليل تجاهله تلك الآيات بالخوف من عاقبة بحثها وعرض مذهبه عليها أو تفسيرها تفسيراً يوافق مذهبه الذي ساقه في الكتاب، وقد كان يستطيع إذا عجز عن التوفيق أن يعرض الأمر من طرفيه في كتابه مبيناً

موقف القرآن الكريم والحجج التي تشهد للرأي الذي لم يستطع التوفيق بينه وبين القرآن، ثم يطلب إلى أهل العلم والرأي حلاً للمشكل الذي وقع فيه، هذا إذا كان يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر كما ذكر في آخر صفحة من الكتاب.

لقد أنكر أن يكون لله سبحانه سلطان على العوامل الطبيعية من نحو تسخيرها لقوم إذا أطاعوه أو إرسالها على قوم إذا عصوه، وقد رد عليه مؤلف هذا النقد الجليل بالآيات القرآنية المقررة لمعجزات الرسل، وذكرت هذه المقدمة غير ذلك من الآيات القرآنية في إهلاك الأمم التي أصرت على عصيان الرسل؛ وكلا الضربين من الآيات أغفله صاحب الأغلال، لكن هناك آيات أخرى تتصل بحياة البشر ولها نفس دلالة الصنفين السابقين.

فمن آيات التخويف قوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٦ - ٦٩].

ومن آيات المن وإظهار القدرة: قوله سبحانه من سورة النور: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: ٤٣].

ومن سورة الروم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٤٧ - ٥٠].

فهذه آيات نص في موضوعين على الأقل من المواضيع التي خالف فيها صاحب الأغلال إجماع المسلمين، وهو طبعاً يعرفها وكان عليه أن يعرض عليها مذهبه الذي ذهب إليه إن كان لا يزال يؤمن بالقرآن.

لكن لا يزال هناك احتمال بعيد ضعيف أن صاحب الكتاب لم يكن يعرف هذه الآيات وأمثالها ومواضعها من القرآن، فهاك آيتين لا يمكن أن يتطرق إليهما مثل هذا الاحتمال، لأنه استشهد بإحداهما وأختها تنقض معناه الذي استشهد عليه، وهما آيتا الأحزاب خطاباً منه سبحانه لزوجات الرسول

صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣ - ٣٤]، فقد فسر (واذكرن) بمعنى علّمن الرجال والنساء ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ولم يتعرض لقوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ بصرف النظر عما في معناه الذي ذهب إليه في ﴿ وَٱذْكُرْنَ ﴾ من غرابة وتكلف وبعد.

وهاك شاهداً آخر أظهر من هذا، فقد زعم صاحب الأغلال أن الإسلام يسوي بين المرأة والرجل في كل شيء، وأورد دليلاً على زعمه قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وسكت عن بقية الآية: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهو سكوت ينطق بقلة حظ صاحبه من الأمانة والإخلاص.

على أننا إذا جاوزنا استشهاده بالقرآن إلى استشهاده على سوء رأي بعض أئمة الدين وجدناه يخون في الاستشهاد هنا كما خان في الاستشهاد هناك، لكنا لن نستطيع أن نشير إلا إلى مثلين مما كتب في أمر التوكل على الله، وما افتراه فيه على المسلمين.

أول المثلين ما نقله عن عوارف المعارف للسهروردي من حكاية يشنع بها على التوكل والمتوكلين: حكاية القنبرة العمياء التي لما شاهدها أحد المتوكلين في البادية تنشق لها الأرض عن سكرجة فيها سمسم وماء فأكلت وشربت رجع هو عن السعي والطلب، والحكاية موجودة في السهروردي حقاً لكن موجود بعدها غير بعيد منها حكاية المتصوف الذي خرج إلى البادية وأقسم ألا يسأل أحداً شيئاً حتى كاد أن يهلك، فنودي أن وعزتي وجلالي لأرزقنك حتى تدخل الأمصار، فدخل فرزق فنودي مرة أخرى: أردت أن تبطل حكمتي في الأسباب، ألم تعلم أن رزقي العباد على يد العباد أحب إلي من أن أرزقهم بيد القدرة؟

هذا أو قريب من هذا هو خلاصة الحكاية الثانية، وهي ضد مراد صاحب الأغلال من الحكاية الأولى على خط مستقيم؛ وقد كانت الأمانة تقتضي أن يذكرهما معاً أو يتركهما معاً، لا أن يقتصر على ذكر ما يلائم مراده من التشنيع.

والمثل الثاني هو: ما افتراه على الإمام الغزالي في أمر التوكل، فقد اقتبس جملة انتزعها من موضعها فدلت على غير مراد الإمام، وترك آراء الغزالي في التوكل وشروطه ومراتب أهله إلى آخر ذلك التحليل العلمي الدقيق، مما تجده في باب التوكل في الإحياء، ومما هو وما رماه به صاحب الأغلال على طرفي نقيض، لكن صاحب الأغلال لا يكتب ابتغاء الحق ولكن ابتغاء التشنيع، ولا بأس عنده في سبيل تحقيق غرضه من التلبيس والتحريف.

والشواهد على عدم أمانة الرجل كثيرة في كتابه نقتصر مما بقي منها على ثلاثة قصيرة، ولكنها كبيرة الدلالة.

الأول: قوله في باب التوكل أيضاً: «وفي قواميس اللغة، توكل على الله واتكل استسلم» وإذا رجعت إلى القاموس وجدت «استسلم إليه» لا استسلم فحسب، وحذف «إليه» يوهم الاستسلام لغير الله؛ وذكرها يقيده بأنه إلى الله ويذهب بكل ما أراد صاحب الأغلال الاستشهاد به عليه، إذ لا حرج على المسلم ـ بل الفخر كل الفخر ـ أن يستسلم إلى الله، إذ هذا من المعنى الأساسي للإسلام، هذا واحد.

الثاني: أنه أراد أن يتهم أهل الحديث النبوي: بالوضع على النبي ما لا يمكن أن يكون صلى الله عليه وسلم قد قاله، فأورد فيها أورد حديث: «**أكثر أهل الجنة البُله**»، ونقل معناه عن قاموس النهاية لابن الأثير وأسقط ما نص عليه ابن الأثير في آخر شرحه إذ قال: «فأما الأبله وهو الذي لا عقل له فغير مراد»، واستباح صاحب الأغلال هذا الإسقاط ليوهم قارئه أن المعنى على المتبادر من اللفظ.

لكن لعل من أظهر الدلائل على خيانة الرجل في البحث بيتاً استشهد به فغيّر فيه لفظة لو ذكرها على أصلها ما أسعفه البيت بما يريد من النعي به على قوم يزعم أنهم يعبدون قبور أناس بعد الموت، وقد كانوا لا ينصفونهم في الحياة: قال: وقد قيل في هذا المعنى أو ما يشبهه:

لا ألفينـــك بعـــد المـــوت تعبـــدني وفي حيـــاتي مـــا زودتـــني زادا

والبيت «تندبني» كما هو معروف، لكن لا بأس فيما يظهر من مثل هذا التحريف والتلبيس بالحذف والتبديل في مذهب صاحبنا الجديد.

والآن لا بد من وقفة عند هذه الظاهرة في هذا الرجل الغريب، لا نظن الرجل كان يستبيح مثل هذا الغش والكذب في أيامه الأولى التي حدثنا هو عنها ـ أيام كان يحذر الآخرة ولا يبالي بالدنيا، وأيام كان يرجو الله ويخشاه ولا يرجو ولا يخشى سواه، أما بعد أن صار سببياً محضاً، ومادياً يرى المادة غاية الحياة، فقد انقلب عن فضائله الأولى التي عاقته عن بلوغ حظ الناس من الدنيا؛ وأخذ يسلك إلى الدنيا سبلها غير متقيد بقيد عله يختصر الطريق إلى ما فاته منها، فكان هذا الذي قصصنا عليك من خيانته في النقل والتفكير، والغاية تبرر الواسطة عند من يتحلل من قيود الدين، على ما في الغاية عند هذا الرجل من سقوط.

وبعد؛ فقط طالت هذه المقدمة فوق ما كنا نريد، لكن لا بد لنا مع ذلك من أن نتلمس وجه العبرة في هذا المثل الفذ من أمثلة الانقلاب الديني ـ مثل هذا الرجل الذي كان بالأمس من المؤمنين الحُمس فأصبح يرى التدين لا يأتي بخير، ويرى الدين لا فائدة فيه.

أما فرق ما بينه اليوم وبين نفسه بالأمس من حيث السلوك فقد

رأيت طرفاً منه فيما قصصنا عليك، ولو قرأت كتابه لرأيت سُحق ما انقلب إليه: تقرأ له فتقول: دهريٌّ يتكلم؛ ثم تقرأ فتقول: صهيوني يتكلم، ثم تقرأ فتقول: شيوعي يتكلم، ولعل في هذا ما يفسر طلبه الدنيا عن طريق مناصبته الإسلام العداوة، ومبالغته في ذلك حتى ليخيل إليك أنك إزاء كلب أو ذئب عقور يحاول أن يعقر من الإسلام كل ما يرى، لولا أنك ترى أحياناً من خداعه وختله، ودورانه ولفه؛ ما ينذرك أنك تجاه عدو يكيد ولكن كيد مفتون مغرور.

فلنترك الرجل وما اختار لنفسه، ولنتساءل: كيف أمكن أن يقع مثل هذا الانقلاب؟ كيف أمكن أن يأتي الرجل مصر متديناً زاهداً متشدداً ـ كما يقول ـ ثم ينقلب فيها إلى ما انقلب إليه؟ أي وسط وأية بيئة مصرية أثرت في الرجل ذلك التأثير، ونقلته تلك النقلة؟

إن المشتغلين بالإصلاح في مصر لا يستغنون عن كشف تلك البيئة والعوامل فيها، فإنها إذا كانت قد أثرت ذلك التأثير في ذلك الزاهد الأحمس ـ على حد وصفه لنفسه في طوره الأول ـ، فأي تأثير يكون لها في من يتعرض لها من شبابنا وليس لهم من الوقاية الدينية ما كان لذلك المسكين؟

على أنه سواء عرفنا تلك البيئة أو لم نعرفها فلا مناص لأولي الأمر القوامين على المسلمين في مصر وفي غير مصر من أن ينظروا بجد في هذا

المشكل، مشكل صيانة النشء الإسلامي ووقايته مما استجد في البيئة الإسلامية من العوامل الهدامة للدين في النفوس، والعبرة في صاحب الأغلال من ناحيتين: ناحية تربيته الدينية الأولى، فهذه ثبت أن مثلها لا يصون ولا يقي، فيجب أن نتجنب مثلها في تربية نشئنا، والأخرى ناحية البحث عن تربية إسلامية صالحة تصون وتقي وتكفي على الأقل لرد عادية الشبهات الحديثة التي لا بد أن تعرض للمسلم في هذا العصر الحديث، حتى إذا وجدوها ـ ووجودها ميسور ـ اتخذوها ونفذوها على الوجه الذي يكفل تحقيق الغرض منها في بيئات التعليم والتربية على اختلافها.

ولابد من اختلاف في صور تلك التربية يناسب الاختلاف في تلك البيئات، لكن الروح يجب أن تكون واحدة، روح القرآن وروح العلم الطبيعي: علم الفطرة التي دينها الإسلام.

وإلى أخويّ في الإسلام اللذين أتاحا لي فرصة التعبير عن هذه الآراء خالص تحيتي وشكري، ثم خالص دعائي أن يجزيهما الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء».

محمد أحمد الغمراوي

شعبان سنة ١٣٦٧هـ
يونيه سنة ١٩٤٨م

وقال الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة ـ رحمه الله ـ في مقدمة كتابه:

«الحمد لله كما حمد نفسه، والصلاة والسلام على خير خلقه المصطفين خصوصاً خاتم المرسلين محمد، وعلى أصحابه بدور الهداية وشمس الرشاد، وآلهم ومن تبعهم على صراطهم المستقيم إلى يوم الدين.

وبعد: فلما ألّف علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رسالته المسماة «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»، لم يذكر فيها نصوص كتاب «هذي هي الأغلال» بألفاظها ونصوصها بل اكتفى بذكر معانيها اختصاراً، مشيراً إلى أرقام صفحاتها استقذاراً لها واحتقاراً، ولكن دعت الحاجة لذكرها نصاً لأمرين:

أولهما: قطع شغب المشاغب وجدل المجادل والمعاند، بدعوى أن الشيخ لم يفهم تلك النصوص فغلط فيها.

ثانياً: أن تكون عمدة لمن ليس عنده الكتاب «الأغلال» في حكمه عليه وعلى صاحبه بنفسه.

وربما زدت شيئاً يوضح غرض الكتاب ومرامي مؤلفه وأهدافه التي يرمي إليها بعبارته الملتوية ونفاقه المقنع، وجبنه عن الصراحة والصدق اللذين هما أهم سند الدعاة المصلحين الذين يريدون الخير لأنفسهم وللناس

أجمعين، وهاك نصوص نصوصه وما أردت نقله وردّه:

آخر صفحة ١٥٦ وأول ١٥٧:

«ويشهد لذهابه ـ يعني النبي صلى الله عليه وسلم ـ في حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائماً يحتضن الطبيعة ويحنو عليها ويعمل على اجتلائها وعلى الخلوة بها»!

فهذا هو فهم الماديين الذين ينكرون ما وراء المادة من عالم الغيب كربّ العالمين وملائكته ووحيه لصفوة خلقه، وتصويرهم للنبوة والرسالة والوحي السماوي الذي يؤمن به أهل الأديان جميعاً وينكره الماديون الدهريون، لخص الكاتب فكرهم بعبارة مقتضبة مبهمة مبرقعة ـ وسيأتي تبسيط فكرته في غضون كتابه وإسفار وجهها مما لا نحتاج معه إلى استنتاج، بل نقل النصوص بألفاظها كاف واف للحكم على مرامي الكاتب وأغراضه وأهدافه.

ثم وصف خروجه ليلاً إلى البقيع لزيارة قبوره ووصف حاله حينئذ فقال في ص١٥٧:

«إنه في الصحراء يناجي السكون والظلام والنسيم والسماء... إنه يخاطب ما حوله بلغة هي فوق الحروف والألفاظ، إنها لغة تموت عندها الألفاظ والحروف... إنه يرى في الكواكب فوق الإشراق والارتفاع والنظام

والدوام فتمتلئ نفسه الكبيرة بهذه المعاني، ويذهب تصوره لها إلى أن رسالته يجب أن تشرق إشراقها وترتفع ارتفاعها، وتدوم دوامها، وتنتظم انتظامها، إنه يغمره من هذا الإشراق والانتظام والدوام ما يرفع عن نفسه الحدود والقيود والعوائق والموانع إنه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقداً أنه لا شيء يستطيع أن يقف في طريق الجمال الذي تزود به مما شهد ورأى والذي قفل به، عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه إلى الوجود، إنه رأى قمراً واحداً وسع نوره الكون، وشهد سماء واحدة قد أظلت الوجود وإنه الآن ليرى قلباً واحداً يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياء وحرارة...

إنه لا يستطيع فراق الطبيعة لأنه لا يستطيع فراق الجمال... إن الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والكسوف والخسوف والرعد والبرق والغيم والصحو والرياح والنسائم والجبال والسهول والأنهار والغدران وكل النبات والحيوان وكل ساكن ومتحرك، إن كل شيء من هذا ليأخذ بلبه وببصره ويلهمه الجمال».

أما وحي السماء ونزول الروح الأمين على قلبه منزل عليه من رب العالمين لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بسورة منه ما فعلوا ولن يفعلوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فهذا كله ليس له موضع في تفكير كاتب الأغلال ولا يستحق قليلاً ولا

كثيراً من جهوده وعنايته التي وجهها لتقرير المذهب المادي وتوضيحه في كل مناسبة من كلامه وفي غير مناسبة كما سيأتي ذلك مبسطاً موضحاً.

أول ص١٥٨:

«لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة ومناجاتها فوق غار حراء وختمها بمناجاتها أيضاً وهو في حجر عائشة بينما كان يجود بأنفاسه، فلقد كان في تلك الساعة شاخصاً ببصره إلى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل ويقول: اللهم الرفيق الأعلى».

ونقول للكاتب: الرفيق الأعلى ليس هو الطبيعة، وقصة زيارته صلى الله عليه وسلم للبقيع كانت لزيارة القبور والسلام على الأموات المؤمنين فيه، وسؤاله الله تعالى الرفيق الأعلى كانت دعاء لله تعالى أن يلحقه بأهل الرفيق الأعلى...».

ثم قال الشيخ ـ رحمه الله ـ تحت مبحث «المسألة اليهودية»:

«عُني كاتب الأغلال بالمسألة اليهودية في أغلاله عناية خاصة تسترعي الانتباه والحذر، فكتب فيها عشر صفحات (٢١٦-٢٢٥) وساق فيها من الآراء والاحتمالات ما يسدل الاشتباه والحيرة على غرضه الذي يرمي إليه: أهو نصح محض وإيقاظ وتحذير من مستقبل الصهيونية وشرورها ووطنها

القومي الذي تسعى له سعياً حثيثاً متواصلاً في فلسطين، فساق الإنذار تلو الإنذار كأنه النذير العريان يقول: صبحكم مساكم، إن العدو بأسفل الوادي يريد أن يغير عليكم فيصبحكم ـ أو هي دعوة صهيونية مستأجرة لتفتير العزائم وتوهين القوى بنشر بأس الصهيونية وذكائها، وعلمها وخبرتها وصناعتها وعالميتها، على حد قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ومن ذلك تحريف الآيات في ضرب الذلة على اليهود؛ وإطفاء نارهم، وبعث الذين يسومونهم سوء العذاب إلى يوم القيامة وتقطيعهم في الأرض أمماً ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

سأترك الحكم على غرضه وما انطوت عليه دخيلة نفسه، وذات صدره حتى تُظهره الأيام أجلى ظهور، وحينئذ يكون الحكم للأيام وللعقلاء وللقضاة العدل، وإنها المناقشة معه للفهم المقلوب، والتحريف الشائن لمدلولات آيات كتاب الله ودفع معانيها الظاهرة في الصدور والإعجاز وقلب مفهومها رأساً على عقب، فهذا ما أخوضه.

قال الكاتب ص٢١٦:

«هذا ما كان يقوله المسلمون في العصور الخالية في سيادة النصارى عليهم، أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر، وصاروا يقولون هذا القول ويهمون مثل هذا الوهم في خطر اليهود وفي ملكهم ومحاولتهم إعادة

وطن قومي لهم... فقد أكثروا من الادعاء بأن اليهود لا خطر لهم ذاتي، وأنه لا يخشى منهم منفردين على المسلمين ولا على الأوطان الإسلامية لا على فلسطين ولا غيرها، ثم زعموا كما زعموا منذ ٥٠٠ سنة بأن الله قد دفع إليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك ولن يكون لهم وطن خاص، ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه وراحوا يتلون منزليها في غير مواضعها، والآيات التي استدلوا بها هي قوله في سورة البقرة: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [البقرة: ٦١]، ثم قوله من آل عمران: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾[آل عمران: ١١٢]، ثم قوله من سورة المائدة: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ثم قوله في الأعراف: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الأعراف: ١٦٧ - ١٦٨]، وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع في أن اليهود لن تقوم لهم دولة؛ ولن تكون لهم صولة، ولكن هذا غير صحيح لا بالنظر إلى سنة الله ولا بالنظر إلى كتاب الله، أما سنة الله فإنها قد علمتنا بأن من أخذ بأسباب الملك ناله، واليهود من أعمل الناس اليوم لهذا الغرض ومن آخذهم بالأسباب».

ونقول للكاتب: إن السنن وحدها ليست كافية في نوال المطلوب إلا على قاعدته المادية الدهرية، فلسفة القرن التاسع عشر وما قبله من آلية الكون وحكمه بالنواميس الطبيعية، مع إنكار القدر والاختيار الإلهي، وقد قدمنا الرد على ذلك من كلام أساطين القرن العشرين وما وصفوا به الفلسفة الآلية المادية أنها أفكار أطفال وصبيان، وارجع إلى ما نقلت سابقاً من كلام مشرفة باشا عميد كلية العلوم، وكلام السير جيمس جنر العالم الإنكليزي من كتابه «الكون الغامض».

ونقول لكاتب الأغلال: إن ألمانيا وإيطاليا واليابان لم يدخروا وسعاً في الأخذ بأسباب السيادة على العالم من قوة عسكرية وحربية وصناعية، فهل نالوا ما أخذوا بأسبابه، أم هو القدر الذي جمع عليهم ما لم يكن في حسبانهم؟

وأيضاً: فهل الأسباب التي أخذت بها مصر والعراق أقل مما هي في اليمن وبلاد العرب وسوريا حتى استقلت هذه وفشلت الأوليان؟ إن القدر الذي آمن به طبيعيو القرن العشرين وأدخلوه في تفكيرهم العلمي لا يؤمن به الكاتب، ويعد الإيمان به عجزاً وغلا يعوق التقدم والرقي، لذلك يعد الكاتب أخذ اليهود بالسنن التي يظنونها تصل بهم إلى أهداف الملك والوطن الصهيوني منيلاً لهم ما سعوا إليه وإن خالفت النصوص القرآنية.

ألا فلينتظر الكاتب نتائج أخذ اليهود بسننهم فإنا مع جهادهم وإعداد

العدة لصدهم وإذلالهم، مع التصديق بما أخبر الله عنهم منتظرون، ولا يخيفنا ما ذكر عنهم من ذكاء وغنى وخبرة وصناعة وعلم؛ وها هي المسألة قد دخلت في طورها العملي: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [طه: ١٣٥].

قال الكاتب ص٢١٦:

«وأما كتاب الله فإن هذه الآيات ليست صريحة في صدق هذه الدعوى، أما ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ [البقرة: ٦١] في الآيات كلها، فإن الذلة عند أكثر المفسرين هي الجزية، فيكون تفسير هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود وفرضها عليهم في وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم، وإذا قدر بأن المراد بالذلة في الآيات هو المعنى الأول السابق إلى الأفهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم، ذلك لأن أخبار القرآن بأن اليهود أذلة في وقت نزوله لا يقتضي أن يبقوا أبد الآبدين كذلك.

وما من أمة من الأمم إلا قد مرت بها عصور ذلة وضعف مهما كانت اليوم عزيزة منيعة، وفي الكتاب ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل

عمران: ١٢٣]، وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه ولكن لا يمكن الزعم بأنهم سيبقون أذلة أبدا... وأما المسكنة عند أشهر المفسرين فهي الفقر والمراد هنا: الفقر القلبي لشدة حبهم المال، وقيل: المسكنة هي ضرب الجزية، وقيل: الخراج، وكل هذه التفسيرات لا تنافي أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوماً ما خطراً مرهوباً».

أقول: في هذا ألوان من غرائب التلاعب بفهم كتاب الله وتحريفه بقلة حياء: منها: كذبه على أكثر المفسرين أنهم فسروا الذلة بضرب الجزية، والمفسرون يعلمون أن أكثر يهود العالم حتى الذين في الحجاز حول المدينة لم تؤخذ منهم الجزية وقت نزول هذه الآيات، فكيف يفسرونها بما لا يؤيده الواقع، والجزية نزلت في سورة التوبة في السنة الثامنة من الهجرة بعد إجلاء يهود المدينة عنها، بله يهود العالم كله، ومن فسرها بالجزية فقد فسرها باللازم.

والذلة والصغار والحقارة والمهانة والمسكنة وعدم العزة والأنفة؛ كلها معان متقاربة لائقة بحال اليهود أينما كانوا وحيثما قطنوا، سواء بأوروبا أو بأمريكا أو بغيرهما.

وأما المعنى الثاني الذي وهنه الكاتب بقوله: «وإذا قدّر أن المراد بالذلة هو المعنى السابق للأفهام» مما ذكرناه من حال اليهود ـ فهو المعنى الحق، وهو

صادق على اليهود وإن كذبه الكاتب وعدّه وهماً، فالآيات لفظها ﴿ضُرِبَتْ﴾ الذي يدل على الإلزام وعدم الانفكاك، من ضرب السكة والنقش على وجهيها ما تلزمه ولا يزول عنها، ثم أكدت ذلك بعبارة «أينما ثقفوا» المستلزم لعموم الأمكنة ومن لازمه عموم الأزمنة، ثم أكدته تأكيداً آخر بالاستثناء الذي هو من أدوات العموم فيما عدا المستثنى بقوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وفسر الحبل بالعهد والميثاق، فهم أذلاء صاغرون أينما كانوا وأيان وجدوا إلا تحت حماية عهد إلهي ومحالفة من الناس، لا بقوتهم الذاتية التي يخيفنا منها الكاتب.

فدعوى الكاتب على القرآن إخباره بذلة اليهود وقت نزوله فقط ـ كذب على القرآن الذي وصمهم بضرب الذلة والمسكنة عليهم أينما كانوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وقد عرفت معنى الضرب والعموم في ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وذكره أن أمماً مرت عليهم عصور ذلة ثم عزت بعد ذلك، لا يفيده شيئاً في دعواه، فالمسألة في إخبار الله أنهم ضُربت عليهم الذلة والمسكنة أينما كانوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، لا مرور عصور ذلة على أمم بعدها عزة، وشتان بين المسألتين:

الأولى: خبر الله القطعي بضرب الذلة على اليهود أينما كانوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس.

والثانية: مرور عصور مختلفة على أمم، فأين هذا من هذا؟ ثم استشهاده على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، مما يدل على أن معرفته بالعربية فسدت إلى حد العجمة الشائنة أو هو الهوى وفساد النية، فقول الله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ جملة حالية والأحوال تتجدد وتزول، «ودوام الحال من المحال»، وأما: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فخبر جزم عام لا يتخلف حتى تزول السموات والأرض ولو تبجح ترومان رئيس أمريكا وهدد بنصره لليهود تزلفاً لهم لانتخابه رئيساً أصلياً فيما يرجوه في الدورة الانتخابية فستكذبه الأيام وتخونه الأماني: «وليغلبن مغالب الغلاب»، وقول الكاتب: «وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه»، فحقد أملاه عليه بغضه للإسلام حتى لم يعد يفرق بين الذلة والضعف.

نعم في المسلمين اليوم ضعف لا ذلة حتى المحكومين بالأجانب منهم فيهم عزة بقدر ما فيهم من دين وفيهم ذلة بقدر ما تركوا من دينهم، ألا

فليخبرنا الكاتب عن الذلة بمعناها الصحيح أين هي في اليمن وبلاد العرب ومصر والشام والعراق على تفاوت بينهم في الضعف والقوة بقدر تمسكهم بالدين؟

أما الذلة المضروبة على اليهود أيام دول النصرانية من عهد قسطنطين وما جرى عليهم من تشريد وقتل أفاقوا منه في العصر الإسلامي قليلاً مع ذلة يستلزمها خبثهم وماضيهم وما قدموا، ثم جاء العهد الهتلري وما صبه عليهم، وإنا لنتوقع لهم تكرار التاريخ عليهم إذا لم يقلعوا عن خبثهم ونواياهم الشريرة ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٤ - ٨].

ونسأل الكاتب: متى احترم المفسرين وأخذ بأقوالهم حتى يأخذ هنا عنهم أن الذلة هي الجزية ويعزوه إلى قول أكثرهم كذباً أو قلة فهم لما قالوه،

أو هوىً وسوء نية ليعبر من ذلك على ما يناقض خبر القرآن ووعيده لليهود، فيقر بذلك عين اليهود وينال منهم ما يبغيه؟

قال الكاتب ص ٢١٧:

«وأما قوله: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] فالمراد أن دسائسهم ومكائدهم التي حاكوها بإحكام واستمرار للقضاء على الرسول ودعوته قد أخذهما الفشل من كل جانب، وأنهم هزموا في كل حروبهم التي شبوها مريدين القضاء على الإسلام، وهذا لا ينفي أن يكونوا خطراً في المستقبل».

وأول الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

فأنت ترى أن الآية في وصف اليهود أينما كانوا وحينما ثقفوا، ليست خاصة بما فعلوه مع النبي صلى الله عليه وسلم فأحبطه الله وأطفأه، كما قيده الكاتب بذلك من عنده؛ ليتوصل بذلك إلى ما يريد من تهديدنا بهم، والعموم في الآية ظاهر من قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومن لفظ: ﴿كُلَّمَآ﴾ الذي يسور به المناطقة قضاياهم الكلية

الموجبة، فمن أين جاء للكاتب هذا التخصيص الذي استنتج منه أن يكونوا خطراً في المستقبل؟!

وتنبه إلى عبارته في مكائدهم ودسائسهم: «أخذها الفشل وأنهم هزموا»، والله يقول: ﴿ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ ، فكأن الكاتب يعادي اسم الله ويتنفر من نسبة فعل إلى الله تعالى ولو نسبه الله لنفسه؛ حتى لا ينخرم تلازم أسبابه ومسبباته، وحتى لا يؤمن بقدر إلهي فوق الأسباب والنواميس، أو يهدم ما بناه من مادية القرن التاسع عشر وآلية الكون وصرامة النواميس.

قال الكاتب ص٢١٧ س١٦:

«وأما بعث الله عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة فإنه لا ينافي الملك أيضاً؛ لأنه إذا كانت لهم دولة وبقيت الحروب بينهم وبين الآخرين مستعرة فإن في هذا أشد أنواع العذاب وأشد سوم لهم بالعذاب ولا ريب أن المتحاربين كل منهم يسوم الآخر، ويصليه العذاب».

وهذا من جنس ما قبله تحريفاً وتمويهاً، فالآية وعيد من الله تعالى وإخبار منه أنه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، وسومهم سوء العذاب فسره نظيره مما سامهم إياه آل فرعون في قوله: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم

بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٤٩]، فسوم سوء العذاب الذي جرى لهم في عهد آل فرعون هو الذي أخبر الله عنه أنه يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يفعل بهم نظيره، وبعثه عليهم من يفعل بهم ذلك هو نظير ما بعث عليهم من عباده الكلدانيين والآشوريين في تاريخهم الماضي، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٥]، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٧]، فهذا البعث هو نظير ما أخبر الله أنه سيفعله بهم إلى يوم القيامة، فمن أين تأتيهم الدولة، ويكون لهم الملك مع هذا؟ حتى يتوقعه الكاتب لهم، ويشبهه بما يكون بين المتحاربين، مع أن المتحاربين لا يقال فيهم عرفاً ولغة أنهم يسومون بعضهم بعضاً سوء العذاب، إلا للمنتصر منهم على المخذول المدال عليه؛ ثم في قول الله: ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ ما يدل على الاستعلاء والتحكم والإذلال لمن يذوق طعم الأسلوب العربي.

ثم الغاية بقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ تعود لغواً على ما توقعه الكاتب لهم من قيام دولة وملك لهم، ويمسي هذا الخبر لغواً، وذلك مما لا يعز على الكاتب ولا يستغربه، لأن دينه الذي يقدسه واستبدله بالإسلام هو مادية القرن التاسع عشر، وما قبله، من كون آلي لا اختيار لخالقه، ولا قدر، بل

نواميس طبيعية صارمة، إن تخلفت بقدرة خالقها وإرادته، دل ذلك عند الكاتب على أن الخالق قوة مجنونة أو كالمجنون تقف في سبيلها، وأنى لها ذلك، كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، سبحان الله وتعالى عما يقول الكاتب فيه علواً كبيراً.

قال الكاتب ص٢١٧:

«فالقرآن لم يقدم لنا صكاً بالضمان من خطر هذا الشعب الذكي، الغني الماكر، بل قدم إلينا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر ونستيقظ، ونقف، وقد جاءت الأحاديث الصحاح بأن حروباً عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود، وقد يكون في هذا ما يعطي بأن اليهود قد تكون لهم دولة وجيوش يحاربون بها، ودفاعاً عنها».

فليهنأ يهود صهيون، فقد مزق لهم الكاتب وعيدات القرآن فيهم، من ضرب الذلة والمسكنة عليهم أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، ومن الخبر الأكيد من بعث من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة مستعلياً عليهم، ومن إطفاء حروبهم التي يوقدونها لأغراضهم، كإعادة ملك داود...الخ، وتوقع لهم ملكاً ودولة يحاربون بهما المسلمين؛ فيا قرة أعين الصهيونية بهذه الدعاية السافرة لهم.

وإذا كان الكاتب يؤمن بما جاء في الأحاديث الصحاح، الواردة في

ذلك، ففيها أن المسلمين ينتصرون عليهم حتى يختبئوا وراء الأشجار والأحجار، وحتى يقول الحجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي، وتخبر بهم الأشجار إلا شجر الغردق فإنه من أشجارهم(1)، وفيها نزول عيسى بن مريم عليه السلام، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام(2)؛ سواء من اليهود أو النصارى، أو غيرهم، وهذا هو أحد الوجوه في تفسير الآية: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، أي أن أهل الكتاب وقت نزول عيسى يؤمنون به كلهم قبل موت عيسى عليه السلام.

والوجه الآخر في معنى الآية: أن كل كتابي سواء في وقت عيسى أو قبله يؤمن بعيسى وقت احتضار الكتابي تُعرض عليه حقيقة الأمر في مسألة عيسى، فيؤمن بالحق فيه، سواء كان يهودياً أو نصرانياً، والمحتضر تختصر له صفحات حياته اختصاراً سينمائياً.

قال الكاتب ص٢١٨:

«ومما يجب الالتفات إليه أنه لا يحسن منا أن نحكم بأن القرآن قد جهر

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٢٥)، ومسلم (٢٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٦)، ومسلم (١٥٥).

بأن اليهود لن يكون لهم ملك في عصر من العصور، فإننا لو حكمنا هذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا، لخشينا أن يكون في ذلك شيء من توجيه الاتهام إلى القرآن ونصوصه وقضاياه».

ونقول للكاتب: إذا حكم القرآن بحكم قطعي جزمنا به، وأنه لا تنقضه الأيام والليالي، ولا تبطله الأعوام والعصور، لأنا نعلم علماً لا شك فيه أنه من عند علام الغيوب، ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦].

بقي: هل حكم القرآن على اليهود هذا الحكم أنه لن يكون لهم مُلك في عصر من العصور؟ فقد رأيت النصوص التي حرفها الكاتب ومزقها شر ممزق، ليخرج منها بهذه النتيجة التي يقر بها أعين اليهود وينال بها حظوتهم، وإن كان يُظهر بذلك الغيرة على صدق القرآن، ويزعم إبعاد الاتهام لنصوصه وقضاياه، وستظهر الأيام حسن فهم المسلمين لكتابهم وصوابه، وإن ارتاب المبطلون، وتشكك المتشككون، ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝١٣٥﴾ [طه: ١٣٥]، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦ - ٧]، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ونصيحة الكاتب لنا بقول ص٢١٨:

«وأن أشد ما يفزعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذي كتبنا في هذه المسألة، هو أننا نخاف أن نبقى متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هذا الخطر المخيف الفاغر فاه اليوم، كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحي حتى قضي القضاء... وحينئذ لا يجدي الندم، كما لم يجدِ فيما فرغ، وقد لاحظنا أن هذا الغرور ـ وهو خليق بأن يسمى غروراً ـ مستول على تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر الذي يكاد يحاط بهم (يعني العرب في جزيرتهم) فهم يرون أنهم لو خلي بينهم وبين اليهود وما جمعوا من الأموال والقوات، ومن العلم والمكر والدهاء، لكانت لهم الغلبة، وإن فقدوا كل شيء من هذه الأمور التي من ملكها فهو المنتصر، ومن فاتته فلا شيء له».

وقوله ص٢١٩ س٦:

«ولهذه النتيجة ـ فتح فلسطين لليهود ـ نتيجة أخرى، هي أشد هولاً، وأشد فزعاً لمن يفكر فيها ويدريها، هي: الامتداد العسكري الاقتصادي والثقافي الذي سيكون أثراً محتوماً لاحتشاد القوى اليهودية المخيفة في ساحة ضيقة مثل فلسطين... ومن المعلوم أن هذا الامتداد لن يكون إلا في بلاد العرب، ومعنى هذا أن الآلة اليهودية لا محالة من أن تتحدى الآلة العربية وتصطدم بها، ولا ندري كيف تتكافأ الآلتان مع ما بينهما من الفروق

العظيمة، والقول بأن العزة للكاثر قول كان يصدق أحياناً لما كانت الأمم والجماعات يتنازعون ويتقاتلون بالأكف والحجارة والسهام والنبال، وأمثال ذلك، ولكنه لا يجب أن يصدق في الزمان الذي يكون العلم فيه هو الفاصل والحكم والعدة».

وقوله ص٢٢٠ س٢٢:

«وأما فلسطين وسواها من البلاد العربية فهي عاجزة عن الأمرين: عن تدمير اللصوص الواغلين أو إجلائهم، وعن منافستهم تجارياً، أو صناعياً، أو زراعياً، فما أطيبهم إذن مغنماً، وما أسعد من ظفروا بهم ودخلوا عليهم الأبواب، ومن السهل عليك أن تبسط يدك آمناً مطمئناً، فتجتذب الطيور المسالمة الضعيفة من أوكارها، لتقدم لك على مائدتك طعاماً شهياً سائغاً - يريد أن هذا مثلنا مع اليهود - ولكن من الصعب عليك أن تفعل ذلك بعرين الأسود، معنى هذا أن بعض الشعوب فيها مناعة ذاتية تقيها الفناء والعدوان، وبعضها ليست فيها هذه المناعة فهي محتاجة إلى حماية خارجية وإلا ذهبت في الهالكين، واليهود يعلمون أننا فاقدون لهذه المناعة، ولهذا فإنهم لا يخشون وغولهم علينا ولا غزوهم إيانا، لن يهاجم اللصوص منزلك وأنت موجود فيه يقظان إلا متى وثقوا من ضعفك وهوانك».

ثم نصح ص٢٢١ لفلسطين وغيرها من البلدان العربية لنجاتها من جميع الغزاة والدخلاء، بتعلم كيفية إيجاد هذه المناعة الذاتية، التي تكون في استطاعتها تدمير الغازين ومنافستهم منافسة تمنعهم من أن يتلمسوا لأقدامهم بيننا موضعاً، ثم قال:

«أما ما لم توجد فينا هذه المناعة فسنظل عرضة لضروب الغزوات، وصنوف الغازين، ولن يمنعنا من ذلك صراخ ولا احتجاج، ولا شيء مما نصنعه من هذا القبيل».

ولم يشرح لنا تلك المناعة الذاتية؛ هل يريد بها إصلاح خلقنا وديننا، وبالتبع له دنيانا؟ أو هو رفض ذلك كله، والاستبدال به مادية طبيعية لا روح ولا خلق ولا دين فيها، كما أعاده وكرره في كتابه؟

وقال ص٢١٩ س١٤:

«وأما الاحتمال الآخر الذي يرضينا معشر العرب، والذي نعمل له، والذي هو أقصى أمانينا ـ أعني إيصاد الأبواب كلها في سبيل كل يهودي يريد دخول فلسطين ـ فهذا الاحتمال ـ على أنه أفضل احتمال ـ ليس في استطاعته أن يرد عنا الخطر الصهيوني الذي أنشب أنيابه حقيقة في جانب من جوانب هذا الوطن العربي، وذلك أن اليهود حينئذ ـ وهم أهل الذكاء والحيلة والتصميم والتعصب القومي العجيب ـ سيلجئون إلى وسائل كثيرة، هينة

عليهم، وعلى من هم مثلهم ثقافة وعلماً ونشاطاً ومالاً وشأناً دولياً ملحوظاً، ومن هذه الوسائل: تنظيم عمليات التهريب براً وبحراً وجواً، والتحايل على الوصول إلى ما زعموه وطنهم، الذي لن تثنيهم عن دخوله قوة من القوى، ومنها محاولة تكثير مواليدهم وتوالدهم بطرق فنية مبتكرة مفزعة، وهكذا حتى يصيروا عدداً جسيماً في هذه البلاد، وحينئذ ينطلقون في سبيل تحقيق أغراضهم الكبرى التي أرصدوا لها أضخم الذهنيات العالمية، يمدها ذلك الخيال اليهودي الذي ألهبته عبر التاريخ القاسية الطويلة ومعارف هذا العصر الفذ، ثم تلك الشهية العتيدة التي شهر بالتمتع بها حفدة شيلوك[1] وقارون إزاء المال والحياة، وإزاء المنافسة في تحصيلهما، وإذن فالخطر اليهودي قد صار حقيقة واقعة على كل الاحتمالات والحالات، فلو ظفرنا بأجمل ما يلعب بآمالنا ـ وهو وقف الهجرة الصهيونية نهائياً ـ لما كان في ذلك شيء من الضمان إلا عند من اعتادوا أن يناموا تحت مطارق الأقدار، فكيف الخلاص إذن؟».

ثم تساءل: «لماذا يحاول اليهود أن يتركوا أوروبا مهبط النشاط الإنساني الرائع، ومجلى العبقرية البشرية، وأن يتخذوا كل صعب وذلول ليتجمعوا في هذا الوطن الشرقي العربي، الذي يكاد يكون من الناحية الزراعية والصناعية

(١) يشير إلى شخصية «شيلوك» اليهودي المرابي في مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير. ينظر للفائدة: «اليهود في مسرحيات شكسبير» للدكتور عدنان الوزان.

والعلمية فطرياً، بدائياً، والذي لا قيمة لموارده الطبيعية بالنسبة للبلاد التي يفرون منها».

ثم نفى عنهم أن يكونوا قد خُدعوا، فاعتقدوا أن مجال العمل والنشاط والحياة في فلسطين أعظم منه في الأوطان التي تركوها، كما أنه من غير الممكن أن يكون المبدأ الديني قد خالط رؤوسهم فاختاروا هذا المكان من الدنيا انقياداً لعاطفة دينية، وطاعة لنص وجدوه في كتبهم المقدسة، كل هذا لا يمكن أن يكون، وإن جوزه على الجماهير المضللة، ولكن الرؤوس التي نظمت هذا الغزو وأوفت به على الغاية ليس من الممكن أن يكون قد ألم بها هذا الخبال أو الخيال، فالأمر إذن غير ذلك، فما هو؟

ثم افترض أن بريطانيا وأمريكا ـ أقوى قوتين تحكمان العالم اليوم ـ طلبتا إلى اليهود أن يختاروا لهم أغنى وأفضل منطقة في ألمانيا، أو اليابان، أو إيطاليا، ليصيروها وطناً قومياً بقوة السلاح، فهل من الممكن أن يرضى اليهود بهذا الوطن المفروض المعروض، وأن يقدموا على تجربته؟ أجاب بالنفي البات، ثم سأل: ولكن لماذا لا يفعلون؟

ثم أجاب بقوله ص٢٢٠ س١٨:

«بالجواب عن هذا نعرف لماذا اختاروا بلداً عربياً، وهان عليهم تحدي أهله وتحدي جيرانهم وإخوانهم، إنهم لا يقبلون مثل هذا الوطن لأنهم

يعلمون أن أهله سيدمرونهم في يوم من الأيام أو يجلونهم على الأقل لا محالة، هذا من جهة، ولأنهم يعلمون من جهة أخرى، أن هذه الشعوب ليست هينة المنافسة ولا سهلة القضم والبلع، أما فلسطين وسواها من البلاد العربية فهي عاجزة عن الأمرين معاً، عن تدمير اللصوص الواغلين وإجلائهم، وعن منافستهم تجارياً وصناعياً وزراعياً، فما أطيبهم إذن مغنماً، وما أسعد ما ظفروا بهم، ودخلوا عليهم الأبواب! من السهل عليك أن تبسط يدك آمناً مطمئناً فتجتذب الطيور المسالمة الضعيفة من أوكارها لتقدم لك على مائدتك طعاماً شهياً سائغاً، ولكن من الصعب عليك أن تفعل ذلك بعرين الأسد.

ثم حضنا على المناعة الذاتية ولم يبينها لنا بما عودنا من بيانه المسهب الطويل المكرر، فلماذا؟ أَجبن وهو الشجاع المغوار الذي هاجم المسلمين في صميم دينهم، أم ماذا وراء الأكمة؟ وليس في فم الكاتب ماء فلماذا لم ينطق؟ أطنبت في نقل ما وصف به الكاتب اليهود، وما وصفنا، والأمثلة التي ضربها لنا ولهم من الطيور الشهية المأكل، السائغة المضغ والبلع، ومن خلونا من علوم العصر وصفاته ومكره ودهائه وغناه وماله، بجانب تفوق اليهود حفدة شيلوك وقارون في الذكاء والدهاء والشأن العالمي، ليتفكر في ذلك ساسة العرب وزعماؤها وقوادها وحكماؤها، إن كان للتفكير موضع من عنايتهم في ذلك، حتى يبرهنوا أنهم أهل للحياة في العصر، عصر العلم والآلة والصناعة، وحتى يكونوا جزءاً من قافلة الجماعة وركب الحياة.

وإننا نهيب بهم كما أهاب بهم الكاتب مع فارق جوهري بيننا وبينه، إذ هو يلغي الدين، ونحن نعده كما يعده سائر العقلاء أساس النهضة، وعمود الحياة التي لا تقوم إلا عليه، الدين الذي يقوم على حياة الروح والجسد على المعنى والمادة على الخلق والخلق، على الزهد والغنى، على القناعة والسعي والكسب، على الإيمان بقدر الله واختياره مع الأخذ بالأسباب، على جريان الأسباب في وديانها ما لم تر العناية الإلهية تحويلاً لحكمة عالية قد نعلمها وقد لا نعلمها.

لقد كان من شهوة كثير من الناس انتصار المحور[1]، وتدمير الحلفاء تدميراً عسكرياً ـ وإن كان رأسهم قد تدمر معنوياً واقتصادياً ـ ولكن العناية الإلهية لها من الأغراض والحكم ما هو فوق هوى الكثير ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وختم الكاتب مقاله بقوله ص٢٢٥ س١٤:

«والذي نريد أن نقوله هنا هو أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد

---

(١) دول المحور: تعبير يُستعمل للإشارة إلى تحالف: ألمانيا والنمسا والمجر والدولة العثمانية وبلغاريا أثناء الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء.

من خلقه، وقد وضع نواميس وسنناً وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل، فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين وسار معها بلا اصطدام ولا خروج فقد نال ما يبغي، ومن عاند هذه النواميس والقوانين وحاول الخروج عنها فقد هلك ولا محالة، ولن ينفعه أن يقول إنه مسلم، وإنه يصلي ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه، كما أن هذه الأقوال والدعاوي لن تجدي من ذهب يتحدى سنة الله، فترك الطعام والشراب والمحافظة على الصحة والحياة زاعماً أنه مسلم مؤمن، وزاعماً أن المسلم المؤمن معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الإلهية».

ونحن مع الكاتب نقول: إن الأقوال بلا أعمال لا تفيد ولا تجدي ولا قيمة لها عند الله ولا عند خلقه، ولكن نقول: إن المسلم حقاً الذي يعرف الإسلام من كتاب ربه وسنة نبيه، وسيرة الراشدين من خلفائه، وسيرة صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم ومن تبعهم على أثرهم في فهم الإسلام، والعمل عليه والسير على صراطه، فهذا معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الإلهية، لا تعارضه السنن والنواميس بل تخدمه بمعونة العناية الربانية بالهداية الإلهية، وبالتوفيق السماوي ورحمة أرحم الراحمين، والشواهد من الواقع والتاريخ أعظم البراهين.

فما غزا الرسول صلى الله عليه وسلم ولا انتصر على عدو، ولا فتح الصحابة شرق الأرض وغربها، وصاروا سادة العالم وبيدهم صولجان العز والسيادة إلا بالإيمان الصحيح والإسلام الحق، الذي كان نور هدايتهم وشمس سيرهم، وبه تقدموا علماً وعملاً وسياسةً وسيادةً.

إن خالد بن الوليد بطل الإسلام، وسيف الله الذي لم يُغمد، فاتح العراقين وبطل الشام ما شرب السم؛ سم الساعة الذي كان مع مفاوضه الفارسي فلم يضره إلا بقوة الإيمان والإسلام [(١)]، وذلك الذي أُلقي في النار فلم تحرقه، وفرح به عمر بن الخطاب حينما رآه وقال ما معناه: الحمد لله الذي أراني في أمة محمد من صارت عليه النار برداً وسلاماً كإبراهيم [(٢)]، ما أطفئت عنه النار إلا بقوة الإيمان وصدق الإسلام، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية من أعرف الناس بالمعقول والمنقول ما تحدى شيخ الرفاعية في زمانه بدخول النار وإياه ليتبين الصادق من الكاذب في دعوى الولاية والكرامة إلا بالإيمان الحق والإسلام الصحيح.

---

(١) أخرج القصة الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٨١٦)، وصححها المحقق.

(٢) الملقى في النار: أبومسلم الخولاني، أحد التابعين، له ترجمة في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٧)، مع ذكر حكايته مع عمر ـ رضي الله عنه ـ.

وختاماً: هل كان الكاتب جاداً حينما مدح الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابه بالنجاح ومعرفة الحياة، ثم وصف أتباعه الذين نجح فيهم ص١٤: «بأنهم يعدون بين الشعوب نموذجاً رائعاً للهوان والضعف والجهل والمسكنة»، وعناهم بقوله ص٧٦: «وكلنا يعلم أن بلداً إسلامياً مستقلاً لا يزال اليوم يعيش على هامش الحياة وعلى الفطرة الأولى، يعني أنهم بكونهم على هامش الحياة ليسوا فيها حقيقة بل هم إلى الموت أقرب من الحياة»، وكذلك مدح الملك ابن سعود ـ وهو أهل للمدح ـ.

ثم قال ص٧٨ بعدما وصف بعض قادة الأمم، وأن كثيراً منهم كانوا يعملون على أن يحولوا بين شعوبهم وبين العلم، ويحرمونه عليهم لأنهم يخافون امتناعهم عليهم وعسر طاعتهم لهم إذا تعلموا، ثم قال: «وحتى في هذا العصر لا يزال يوجد فريق من هؤلاء القادة الذين يخشون العلم، ومما يؤلم أنه يوجد اليوم في إحدى البلاد العزيزة علينا من لا يكافئون المتعلمين إلا بالسجن والعذاب والمطاردة»، فمن يعني الكاتب بهذا؟ وهل يظن الناس لا يفهمون مغامزه؟ ولماذا هذا الإبهام والتستر بالغلائل التي لا تستر، والرمي من وراء جدران الجبن؟

وقف القلم هنا ليعود في فرصة أخرى والحمد لله أولاً وآخراً».

فهرس كتاب «الشواهد والنصوص..»

مقدمة للأستاذ الغمراوي أبان فيها غرور صاحب الأغلال، وكيف تطور وأسباب انقلابه من اليمين إلى الشمال، وحكى أمثلة من تحريفاته وتأويلاته للآيات والأحاديث، وأظهر ما في كتابه من سوء الفهم والقصد.

كلمة قيمة للكاتب القدير سيد قطب، أزاح فيها الستار عن محاولات القصيمي معه ومع غيره كي يؤيدوا كتابه؛ ولكن الكاتب شمَّ في حديث القصيمي معه رائحة غير نظيفة.

الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال
على ما فيه من زيغ وكفر وضلال
بالعقل والنقل

بقلم

محمد عبد الرزاق حمزه

المدرس بالحرم المكي الشريف

قدّم له وعلق عليه

محمد احمد الغمراوي

مؤلف « النقد التحليلي » و « في سنن الله الكونية »

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) سورة الاعراف

الناشر
عبد الله محمد بابال الشنقيطي

صورة غلاف كتاب «الشواهد والنصوص»

الرد الخامس:

تعليقات

الشيخ محمد بن مانع

- رحمه الله -

على كتاب

«هذي هي الأغلال»

ترجمة الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع (١)

هو الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن مانع بن إبراهيم بن حمدان بن محمد بن مانع بن شبرمة.

وآل شبرمة من (آل محمد) الذين هم أحد فخذي (آل وهيب) المسمون الوهبة، الذين هم من بني حنظلة، أحد البطون الكبار في القبيلة الكبيرة الشهيرة (بني تميم).

أما والدته، فهي بنت رشيد بن ناصر آل شبيلي، وآل شبيلي هم أسرة كريمة من العناقر من بني سعد بن تميم.

وُلد المترجم في بلدة عنيزة، المدينة الشهيرة بالقصيم عام ١٣٠٠ هـ، فلما بلغ السابعة أدخله والده كُتاباً ليتعلم القرآن، وكان والده مريضاً إذ ذاك، وهو قاضي بلدة عنيزة، وبعد أيام توفي والده، فقرأ القرآن كله وحفظ بعضه، ثم اشتغل بطلب العلم، فقرأ مختصرات العلوم الشرعية والعربية؛ ككتاب التوحيد ودليل الطالب وبلوغ المرام وشرح الشنشوري على الرحبية، والآجرومية، على علماء عنيزة وبريدة.

---

(١) عن «علماء نجد خلال ثمانية قرون» للشيخ عبدالله البسام ـ رحمه الله ـ (٦/ ١٠٠-١١٣) (باختصار)، وللزيادة عن ترجمته ينظر كتاب «العلامة محمد بن مانع» للأستاذ عبدالمنعم الوكيل.

فلما ناهز البلوغ سافر إلى بغداد للاستزادة من العلم، فقرأ على علمائه النحو والصرف والفقه والفرائض والحساب والمنطق، ثم توجه إلى مصر فأقام بالأزهر، فقرأ فقه الحنابلة والنحو وغيرهما.

ثم سافر إلى دمشق، واتصل بعلمائها وتعرف عليهم، فقرأ عليهم في الحديث، ثم عاد إلى العراق ولازم مشايخه السابقين، فتزود منهم في علوم العربية بأنواعها، وقرأ عليهم مختلف أنواع العلم وفنونه.

وكان جاداً مجداً مواصلاً نهاره بليله في القراءة والتحصيل، وإدمان المراجعة والبحث، وكان لا يضيع من وقته لا قليلاً ولا كثيراً.

وكان فقيهاً مطلعاً على خلاف العلماء، ويكاد يحفظ نظم ابن عبدالقوي البالغ أربعة عشر ألف بيت في فقه الحنابلة، هذا عدا المختصرات والمتون ونظم العلوم.

من مشايخه:

الشيخ محمد بن عبدالله بن سليم، الشيخ عبدالله بن عائض، الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر، الشيخ صالح العثمان القاضي، الشيخ عبدالله بن محمد بن دخيل. وهؤلاء مشايخه في القصيم من بريدة وعنيزة والمذنب.

السيد محمود شكري الآلوسي، السيد علي نعمان الآلوسي، الشيخ محمد الذهبي، الشيخ جمال الدين القاسمي، الشيخ عبدالرزاق البيطار، الشيخ بدرالدين الحسيني، العلامة الشيخ عبدالوهاب أفندي، نائب أمين الفتوى في بغداد، الشيخ عبدالرزاق الأعظمي البغدادي، العلامة السيد يحيى بن قاسم الأثري، المدرس في المدرسة الأحمدية ببغداد. **وهؤلاء مشايخه في دمشق وبغداد والقاهرة.**

الشيخ محمد بن عوجان، قرأ عليه الفقه في بلد الزبير، وذلك عام ١٣٣٠هـ حينما عاد من عنيزة إلى العراق. وقرأ على كثير غير هؤلاء ممن لا تحضرني أسماؤهم.

من أعماله:

١- أنشأ المحسن الشهير مقبل بن عبدالرحمن الذكير نادياً في البحرين لتحرير المقالات والتباحث، وإعداد الردود على النصارى المبشرين الذين انتشروا في أطراف الجزيرة العربية والخليج العربي للتبشير، فجعل المترجَم رئيس النادي المذكور، فقام به خير قيام.

٢- وفي عام ١٣٣٤هـ، طلبه حاكم قطر الشيخ عبدالله بن ثاني، فرحل إليه، فولاه قضاء قطر والتدريس والخطابة، فأمضى في هذه الأعمال ثلاثاً وعشرين سنة، رحل إليه الطلاب من عمان وسائر بلدان الخليج، وأخذوا

عنه أثناء هذه الفترة الطويلة، وقبل حلوله في قطر كان أهلها يقلدون مذهب المالكية، فصاروا من آثار تدريسه وتعليمه حنابلة المذهب.

٣- وفي عام ١٣٥٨هـ طلبه الملك عبدالعزيز آل سعود فأمره بالتدريس بالمسجد الحرام والمدارس الحكومية.

٤- ثم عينه جلالته رئيساً لثلاث هيئات: هيئة تمييز الأحكام الشرعية، وهيئة الأمر بالمعروف، وهيئة الوعظ والإرشاد، فكان رئيساً لهذه الدوائر الثلاث في آن واحد.

٥- وفي عام ١٣٦٥ هـ صدر مرسوم ملكي كريم بتعيينه مديراً عاماً للمعارف، ثم أسندت إليه رئاسة دار التوحيد، وما زال مديراً للمعارف حتى شكلت وزارة المعارف، وأسندت وزارتها إلى سمو الأمير فهد بن عبدالعزيز (خادم الحرمين فيما بعد ـ رحمه الله ـ).

٦- وفي عام ١٣٧٤هـ طلبه حاكم قطر ـ سابقاً ـ الشيخ علي بن ثاني من حكومتنا، فرحل إلى قطر وصار مشرفاً على سير التعليم فيها، وإصلاح مناهجه.

٧- أقام في قطر، فصار هو المستشار لحكومتها في الأمور الدينية، فحصل من ثمرة هذه الثقة به والنفوذ لكلمته، أن قامت هذه الحكومة

الكريمة بطبع الكثير من الكتب العلمية النافعة في التفسير والحديث والتوحيد والفقه والأدب، وتوزيعها على أهل العلم بالمجان، ولا شك أن له نصيباً من الأجر، فالدال على الخير كفاعله، فقد وجدت الكتب النادرة، فحصلت منها الفائدة الكبيرة.

من تلاميذه:

الشيخ عبدالرحمن بن ناصر آل سعدي، علامة القصيم وصاحب المؤلفات المعروفة، الشيخ عثمان بن صالح القاضي، الشيخ محمد بن عبدالله آل مانع، وهذا ابن عم المترجَم، الشيخ محمد بن عبدالرحمن آل عبدلي، الشيخ عبدالله بن عمربن دهيش، رئيس المحكمة الكبرى بمكة، الشيخ فيصل بن عبدالعزيز آل مبارك، صاحب المؤلفات الشهيرة، الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم بن عبداللطيف، المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الشيخ علي بن محمد الهندي، المستشار بوزارة المعارف، الشيخ عبدالله بن زيد بن محمود، رئيس محكمة قطر، الشيخ عبدالله الأنصاري، مدير الشؤون الدينية في حكومة قطر، وعضو المجلس التأسيسي في رابطة العالم الإسلامي، الشيخ ناصر بن حمد الراشد الرئيس العام لمدارس البنات، معالي الشيخ عبدالعزيز بن حسن بن عبدالله بن حسن آل الشيخ، الرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف، الشيخ محمد بن عبدالله بن حسن آل الشيخ، الرئيس العام للتربية

الإسلامية بوزارة المعارف، الشيخ عبدالعزيز بن نصار بن رشيد، رئيس هيئة التمييز بالمنطقة الوسطى والشرقية، الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم الباهلي، قاضي بلدة شقراء، الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن مانع، ابن المترجَم، الشيخ أحمد بن محمد بن مانع، في الملحق الثقافي السعودي بالقاهرة، وابن المترجَم، الشيخ قاسم بن درويش، من أعيان قطر، الشيخ عبدالرحمن الشعلان، قاضي المستعجلة الأولى بمكة، الشيخ محمد بن عبدالرحيم الصديقي، المدرس بالطائف، الشيخ محمد بن عبدالله آل عبدالقادر الأحسائي، قاضي المبرز، ومؤلف «تاريخ الأحساء»، وله في المترجَم مدائح شعرية ذكر بعضها في تاريخه، الشاعر الكبير محمد بن عثيمين قرأ عليه في قطر، وللتلميذ في شيخه قصيدة جيدة مدحه فيها، الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز آل الشيخ، إمام وخطيب مسجد ابن عباس بالطائف.

وغير هؤلاء كثير لا تحضرني أسماؤهم من المملكة العربية السعودية ومن بلدان الخليج العربي.

مؤلفاته:

١) مختصر شرح عقيدة السفاريني.

٢) حاشية على عمدة الفقه.

٣) حاشية على دليل الطالب.

٤) رسالة في آداب البحث والمناظرة.

٥) تحديث النظر في أخبار المهدي المنتظر.

٦) كشف الغطا عما في إعلام الورى من الخطا.

٧) إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والآداب.

٨) إقامة البرهان على تحريم الإجارة في تلاوة القرآن.

٩) الأجوبة الحميدة على الأسئلة المفيدة للشيخ عبدالرحمن بن حسن.

١٠) شرح شواهد القطر وشواهد المغني.

أصيب الشيخ بمرض (البروستات) فأجريت له عملية جراحية بأحد مستشفيات بيروت، فأخذت صحته في التأخر؛ حتى وافاه الأجل قبيل الفجر من يوم السبت الثاني عشر من شهر رجب عام ١٣٨٥هـ في بيروت، ونقل جثمانه إلى قطر، وصلى عليه رجال الحكومة القطرية والأهالي، ودفن في قطر، ودفن معه بحر زاخر من العلوم والمعارف، فرحمه الله تعالى.

تعليقاته على كتاب «هذي هي الأغلال»[1]

قال القصيمي: «إن العرب الأحرار إنما بعثوا إلى العالم في الزمن الذي وجب أن يبعثوا فيه ليبلغوا رسالتهم المحمدية، وهي تتلخص في ثلاثة أمور جامعة: الأول: تخليصه من مفاسد عبودية رجال الدين، والثاني: عبودية القادة والرؤساء الظالمين، والثالث: عبودية سائر صنوف المخلوقين».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «انظر كيف قدم عبودية رجال الدين؛ لأن قصده التنفير من أهل العلم، ويجب علينا إساءة الظن في جميع ما ينقله، ولم يكن معلوماً لنا؛ لأنه غير ثقة، وله في هذا التأليف مقاصد خبيثة، فلا تصدقه أيها القارئ في نقله حتى تعرفه من غيره».

قال القصيمي: «ولكن السبيل إلى المجد القومي المطلوب ينحصر في أشياء أخرى: في الأخلاق الصناعية والتجارية، والاقتصادية، والمادية، والعلمية».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «عدم تقدم المسلمين لتركهم العمل

---

(١) أنقل أهمها من هامش نسخته من كتاب «هذي هي الأغلال» وهي محفوظة بمكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، شاكراً أمينها الدكتور علي الصوينع، والأستاذ الكريم عبدالله الناصر؛ لتسهيلهما الحصول على صورة منها، وأنبه إلى أن الدكتور الصوينع سبق أن عَرَض لشيء منها في كتابه: «الكتب العربية النادرة»، (ص٩٦-٩٨).

بالدين الصحيح الحاث على العبادة والاستعداد للأعداء بالقوة، لكن إذا اتقوا الله أرشدهم إلى الأخذ بالقوة».

قال القصيمي: «ولعله من الواضح المستغني عن كل بيان أن ألمانيا واليابان وأشياعهم؛ إنما انتصروا في بداية هذه الحرب المنتهية: بصناعاتهم وجيوشهم المزودة بالقنابل والطائرات والمدافع والدبابات الكثيرة المتفوقة، وأن خصومهم إنما انتصروا في آخر الجولة بهذه الأمور نفسها، وأن الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا في البداية ولا في النهاية».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لا شك أن هذا من أقوى أسباب النصر؛ لكن لا بد من الدين، وصاحب المنار برهن على هذا في كثير من كتبه ومجلاته».

قال القصيمي: «فطريق المجد القومي إذن يجب أن يكون معروفاً واضحاً متفقاً عليه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لا شك أنه معروف واضح، وهو التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهما يدلان على الحزم والأخذ بالقوة غاية الطاقة».

قال القصيمي: «كم تستولي عليَّ شتى العواطف إذا رأيت هؤلاء الشبان المخلصين المتوقدين حمية وغيرة يقادون بهذه الأفكار، دون أن يدروا

من أمرها سوى أنها تسرف في إعطائهم الوعود السخية الكريمة الرخيصة، وسوى أنها تؤكد بلوغهم كل ما يرجون ويحبون من آمال بأضعف الأسباب وأصغرها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا غير صحيح، فلا تعطيهم ذلك بدون عمل وقوة و استعداد للأعداء بكل استطاعة كما أمر الله، ولكنهم إذا اتقوا الله وعملوا بطاعته أرشدهم إلى ما فيه عزهم».

قال القصيمي: «يعجز الباحث أن يجد متديناً حرفياً استطاع أن يكون في الحياة شيئاً مذكوراً، وأن يتقدم بها ويعطيها ما ليس عندها، ونجد كل الذين صنعوا الحياة، وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ : «فالمعنى: يا متدين اترك الدين مع كون دينك لا عيب فيه، ولكن إذا تدينت صرت معيباً!».

قال القصيمي: «فطبيعة المتدين ـ غالباً ـ طبيعة فاترة فاقدة للحرارة المولدة للحركة، المولدة للإبداع ... ومن ثمة فإنك غير واجد أعجز ولا أوهن من هؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «أيريد أن يترك الناس الدين لهذا

التشنيع على المتدينين، وهل أعز الله أهل الإسلام السابقين إلا بالدين».

قال القصيمي: «وإن مما يؤلم ومما يتعجب منه حقاً أن هذا الانهيار الشامل لم يكن وقفاً على الشعوب الإسلامية فحسب، بل شملها وشمل الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين، فقد اجتاح الضعف والانحدار والسلطان الأجنبي كل الشعوب الموحدة الإسلامية والشعوب المختلطة».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «يريد أن غير المسلمين المخالطين لهم أصابتهم العدوى! فتأمل».

قال القصيمي: «وقد حرصت كل الحرص لما تشرفت بأداء فريضة الحج في العام الماضي على أن أتصل بالمسلمين ـ الذين جمعتهم هذه الفريضة ـ اتصال بحث ودرس وتنقيب واستقراء، وأصررت على أن أغوص إلى الأعماق، وأن أستخرج الدفين الكمين، وأن أصل من تلك النفوس الحاشرة إلى ما لم يوصل إليه قبلاً، وأن أكتشف منها ما ظل كل هذه الأحقاب مجهولاً، حتى بلغت ـ حسب ظني ـ ما أردت، وقد كان كثيرون من الإخوان يعجبون من عنايتي بالصغائر المتصلة بهذه القضية إذا ما رأوني ملحاً في السؤال».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «إن هذا البحث والاجتهاد في السؤال ما سمعنا به ونحن وهو في الحجاز، بل ولم نعلم له اختلاطاً بالناس سوى رجلين من العوام!».

قال القصيمي: «وكل شعب يكفر بالإنسانية ـ الإنسانية المطلقة، إنسانيته هو وإنسانية غيره ـ ويكفر بمواهبها وثرواتها الذاتية الطبيعية، ويؤمن بأنها مقيدة بقيود وحدود لا تتعداها ولا تتخلص منها، وأنها ليست مطلقة القوى، وليس متروكاً لها الطريق ـ الطريق الذي ليس له نهاية تحده ولا غاية تلزمه الوقوف عندها ـ نعم كل شعب يكون هذا رأيه، وهذا إيمانه بالإنسانية لا محالة من أن تفتر همه ويضعف عمله، وأن يقف عاجزاً عن التحليق في سماء اللانهاية، وأن يرضى من زمنه بالتافه الحقير وبالنصيب اليسير».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «من سبر أحوال الناس وعرف غاياتهم: علم أنهم معترفون بمواهب الإنسان، ولكن مع الأسف أنهم لم يسلكوا الطريق الموصلة إلى الكمال؛ من فتح المدارس، وإيجاد الشركات والمصانع، مع اعترافهم بمواهب الإنسان، وأن همم الرجال تقلع الجبال، ولكن المسلمين نائمون حتى الآن مع ظهور العجائب التي تحير العقول، وليس ذلك لازم للدين، فإن الدين يأمر بالقوة والعزة، ولكن أين الدين الصحيح؟، وهل يوجد في جمهور المنتسبين إلى الإسلام إلا الشرك وعبادة غير الله، والجهل بآياته وصفاته؟ فمصيبتهم من شركهم، لا من دينهم؛ دين العزة والمجد والسعادة والسيادة».

قال القصيمي: «ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلقى بها عدو عدوه، بل إنه ليس بوسيلة، وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «قوله في الدعاء أنه ليس بوسيلة يخالف بذلك الكتاب والسنة».

قال القصيمي: «والأشعار التي أوردناها في مطلع هذا البحث تبين عن حكم هذه الثقافة في هذه القضية أحسن إبانة».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «إن الأشعار المذكورة إنما هي إنشاء المتكلمين الطالبين معرفة الله بالطرق الكلامية الباطلة، فلما انتهى أمرهم إلى الحيرة أعرب كل منهم عن عجزه عن إدراك ذلك، وصدق، فإن معرفة الله إنما تُعلم بما دل عليه كتابه العزيز ونبيه الصادق المصدوق، والمؤلف خلط هذه المسألة بغيرها».

قال القصيمي: «وقد جاء في هذه الأغنية قولهم متهكمين ساخرين:

من أنت يا أرسطو ومن	أفلاط قبلك قد تجرد
ما أنتمو إلا الفراش	رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه	ولو اهتدى رشداً لأبعد

يعنون بهذا أن هؤلاء الرجال الباحثين وغيرهم من الفلاسفة حكمهم

حينما أرادوا الدنو من المعرفة، ومن العلم الذي لم يهتك حجابه؛ حكم الفراش الذي يرى النور المتوقد فيثب عليه ويدنو منه فيحترق فيموت! وقد كان حكم العقل الراشد يقضي بأن يبعد عن السراج وعن نوره لينجو، ولكن الفَراش لا يهتدي لأنه لا عقل له، وكذلك هؤلاء الذين يطلبون المعرفة يحرقون أنفسهم بطلبها من غير أن يدركوها، ويجهلون كما يجهل الفراش الهاجم على النار والنور، فالمعرفة إذن لا يمكن الوصول إليها، ومن حاول هذا الوصول هلك في طريقه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «إن أرسطو وأفلاطون من حكماء اليونان لم تدلهم حكمتهم على معرفة الله؛ فعبدوا الكواكب والأصنام، واختلفوا في آرائهم، وغلَّط بعضهم بعضاً، وقد فاقهم كثير من أهل الإسلام».

قال القصيمي: «وهذه صور قليلة تنبئ عن مقدار سيطرة هذه الروح الخبيثة الشريرة على ثقافة هؤلاء الذين تعلق العالم الإسلامي منذ مئات السنين بركابهم؛ فراحوا يجرونه وهو لا يدري أين هو ذاهب، فأصابه من الجروح والقروح والأحوال المذهلة ما أعجزه حتى اليوم عن الإفاقة، وعن الشعور بما هو فيه من الآلام».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لا تغتر بما قاله، فإن الروح الخبيثة

هي روح من عبد الكواكب والتماثيل، والعالم الإسلامي لم يتعلق بركابهم؛ بل رد عليهم وتبرأ منهم، وإنما تعلق بركابهم أرباب الكلام الباطل».

قال القصيمي: «انظر إلى هؤلاء الواقعين صرعى في معركة الحياة الرهيبة، العاجزين عن النهوض وعن الحياة الصحيحة، ثم سلهم فرداً فرداً: لماذا سقطوا، ولماذا عجزوا تعلم أنه قد سقطوا؟ وأنهم عجزوا لأسباب، وأن أحد هذه الأسباب هو شكهم في أنفسهم، وكفرهم بكفاياتهم الذاتية، بل كفرهم بالكفايات الإنسانية».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا غير صحيح؛ فإن العجز عن العلم جهل، وهذا يقوله المتكلمون ومن نحا منحاهم في العجز عن معرفتهم الله تعالى، حتى انتهوا إلى الحيرة والضلال».

قال القصيمي: «أما قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] فهو تصريح بعلم الإنسان كل شيء، فقد وكده بقوله: ﴿ كُلَّهَا ﴾».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «تصريح بعلم آدم خاصة لا كل إنسان، والحكمة في ذلك معروفة في محلها من كتب التفسير».

قال القصيمي: «وعلى كل حال فإن من المستحيل على عاقل أن يتعلم الأسماء كلها ثم يبقى جاهلاً بمسمياتها، بل إذا علم هذه فقد علم تلك».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا خاص بآدم، فقد يتعلم الإنسان الاسم ويعرفه ولكن لا يعرف حقيقته، وهذا ظاهر في الصنائع التي نشاهدها ونعرفها، ولا نعلم حقيقتها وتركيبها».

قال القصيمي: «وعرض الله الأسماء كلها على الملائكة وسؤاله إياهم إنباءه بها وعجزهم عن معرفتها، واعترافهم بالعجز، ثم أمره لآدم أن ينبئهم، وإنباؤه إياهم بها يدل ذلك كله من وجوه كثيرة على فضيلة الإنسان العلمية، فإنه يثبت أولاً: أنه أعلم من الملائكة، ومن المفروض المعلوم أن الملائكة ذوو مكانة علمية ظاهرة، فمن كان أعلم منهم كانت فضيلته العلمية لا تدفع، ثم فيه ثانياً: أنه جعل مقام الإنسان منهم مقام المعلم».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «قوله في الإنسان إنه أعلم من الملائكة، هذا إنما هو في آدم دون ذريته، وقوله جعل مقام الإنسان منهم مقام المعلم لا يخفى عليك هذا الغلو، مع أن الواقع أن الملائكة هم الذين يبلغون الأنبياء أمر الله وشرعه ودينه، وكثيراً ما قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا سئل: حتى أسأل جبريل».

قال القصيمي: «ومن الأحاديث التي يحسن إيرادها هنا: حديث صحيح مشهور قدسي، هو قوله صلى الله عليه وسلم حكاية لما قاله الله: **(ولا يزال عبدي**

يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...)».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا الحديث يهدم ما بناه المعد، فإن الله قال: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل**» الحديث، فدل على أنه إذا أدى الفرائض، وأتى بالنوافل صار قوياً نشيطاً بصيراً، والمعد ينكر التدين، ويقول: المتدين فاتر، فدل على تناقضه».

قال القصيمي: «وفي الحديث الصحيح المشهور: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم في كل نص يقع بين أيديهم، ولا التفات إلى ما قالوه فيه؛ لأنه غير قائم على أصل من أصول العلم المقررة».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «حديث كل مولود يولد على الفطرة، الشراح فسروا الحديث بالحديث، فتفسيرهم الفطرة: أن الله فطر العباد على معرفته وتوحيده كما في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠]، وأبوهريرة ومن غيره من أهل العلم فسرها بالتوحيد، ويدل عليه قول الله في الحديث القدسي الصحيح: «**إني خلقت عبادي ضعفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم**»، وأما كونه ولد جاهلاً فهذا لا نزاع فيه، وهو غير الفطرة، وهذا المعد يتهجم بالأقوال الساقطة

المرذولة عند إنعام النظر».

قال القصيمي: «والإسلام لا يقبل شهادة الأطفال، ونحن نفهم أنه إنما رد شهاداتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء، أما قول بعض الفقهاء ـ أو قولهم كلهم ـ إنه رد شهادتهم لأمور أخرى ذكروها، فهو من جملة أقوالهم الكثيرة التي تموج بها الكتب موجاً من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «كما أن قولك واستنباطك لا قيمة له عند أهل العقول وأئمة النظر، بل لأقوالهم القيمة العالية».

قال القصيمي: «كان الإنسان الأول يراع من رؤية البحار ويرهبها أشد الرهبة، وكان لا يخطر على باله أن يجيء يوم يخاطر فيه بحياته فيركب متن هذا العدو الجياش الصاخب، ولقد لبث على هذا أحقاباً وأحقاباً».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «متى كان هذا؟ بعد نوح أو قبله؟، وموسى والخضر ركبا سفينة، فمتى ومن أين علم أن الإنسان يراع من رؤية البحر! من ذكر ذلك من أهل العلم، تنبه ولا تأخذ دعاويه قضايا مسلمة».

قال القصيمي: «إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا وعلماؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين وغير رجال الدين ينشدون الأناشيد ويقذفوننا

بالخطب تلو الخطب، وبالمقالات إثر المقالات، مؤكدين لنا بأن الإنسان ما خلق ليكون عالماً، ولا ليكون شيئاً كبيراً، ولا ليغالب الطبيعة والحياة، ولا لينازع الله في علمه وقوته وقدرته، ولا ليخرج من طبيعته».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «خلق الله الجن والإنس لعبادته، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]، ومن الغلط قوله لينازع الله في علمه وقدرته وقوته، فالله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، ولا يعلم الإنسان إلا ما علمه الله، وقدرته تابعة لقدرة الله، ولينظر المعد ما عليه ملوك الإسلام والعلماء الأعلام من علوم الهيمنة والقوة التي تحير العقول، فهذا المعد يظن أن المسلمين كالأغنام السائمة؛ لأنه نظر بعين المقت والحقارة، فبخسهم حقهم، وكان عليه أن يحثهم على فتح المدارس، ويحثهم على تعلم الصنائع ... بالدين القويم».

قال القصيمي: «وجاء في كتاب مطبوع حديث التأليف أن أحد العلماء المشهورين جداً قال: (كل ما يسمى علماً مما ليس في الكتاب والسنة ومما ليس من علوم الدين فهو لا يخلو من أحد احتمالين: أحد الاحتمالين أن يكون غير علم، وأن تكون تسميته بالعلم من تسمية الجهل بالعلم خطأ، وثانيهما: أن يكون علماً حقيقة ولكنه علم ضار غير نافع، فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله)».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «العالم المشار إليه هو شيخ الإسلام ابن تيمية، والعبارة المذكورة في ص ١٤٤ من المجموع الذي فيه التدمرية، وهو جواب الشيخ لأبي القاسم المغربي».

قال القصيمي: «وهنالك قسم كبير من الأولياء عند الذين كتبوا في الطبقات يسمون بالمجاذيب، أو بالأولياء المجاذيب، وقد أورد الشعراني في كتابه «طبقات الأولياء الكبرى» أسماء طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين، وهكذا صنع غيره».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هؤلاء أنكر المحققون عليهم».

قال القصيمي: «فأمثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان وأبي بكر الرازي والكندي وسواهم ـ ممن قاموا بتجارب ودراسات لها قيمة صادقة في الكيمياء والطبيعة والرياضة والفلك والطب والفلسفة ـ محاربون مكروهون متهمون في دينهم وأخلاقهم».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «تقدم أنه لا يريد الالتفات إلى الماضي فهو الآن يُذكر بقوم يقال لهم فلاسفة المسلمين».

قال القصيمي: «وظني أن أكثر المسلمين الآن لو رجعوا إلى اختيارهم الخاص في قبول هذه الحضارة وعلومها، وفي رفضها، لكان الرافضون الآبون هم الأكثرين».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا غير صحيح؛ فالمسلمون يودون أن يبلغوا ما بلغه الغربيون من العلوم النافعة ولكن بشرط سلامة الدين».

قال القصيمي: «وقد تجلى أيضاً أثر هذه الروح في لبنان، فإن المسلمين هناك قد بقوا مجانبين للمعاهد الأجنبية الموجودة، ثم ممتنعين عن دخولها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لأن هذه المعاهد للتبشير ودعوة المسلمين إلى التنصر، فلهذا امتنعوا».

قال القصيمي: «إن أساس أكثر أخطاء هؤلاء الدعاة هو أنهم اعتقدوا أن العبد لا يكون عبداً لله حقاً مخلصاً خالصاً له إلا إذا كان ضعيفاً في كل شيء عاجزاً عن كل شيء».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «النبي صلى الله عليه وسلم حث على القوة، وقال اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، وقال: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير».

قال القصيمي: «وهكذا فهموا أن الله يرضيه ويعجبه من عبيده ألا يكونوا موصوفين بصفات القوة الخاصة به، بل أن يكونوا موصوفين بعكسها، أي بالضعف بكل ضروبه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا غير صحيح؛ بل يصفون العبد

بالعلم والقدرة والإرادة، ويصفون الله بأنه واحد في صفاته، فالعبد مهما عظم ضعيف حقير عاجز بالنسبة إلى الخالق».

قال القصيمي: «فاستخرجوا هذه النتيجة ـ وهي أن الأذكياء والعقلاء والعلماء يضلون ويكفرون».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا غير مسلم، فمن الذي ذم حفاظ الصحابة وعلماء التابعين؟ واعتبر الإسلام المبرزين الذين بلغت مؤلفاتهم العشرات والمئات، وكفرهم لذلك أو نسبهم إلى الكفر؟ إلا إذا خالف أحدهم نصوص الكتاب والسنة، وأتى بما دلت النصوص على كفره به».

قال القصيمي: «ومن هنا قال الصوفية في تعاليمهم: (العلم حجاب) وقالوا: (الجهالة أم الفضائل) وقالوا: (اللهم ديناً كدين العجائز)، وقالوا: (العجز عن الإدراك إدراك)».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا قول مردود لا يُجعل حجة إلا على قائله».

قال القصيمي: «واعتقادهم أن من اشتغل بالعلوم الدنيوية أو التي تفيد في الدنيا، فقد اشتغل بخدمة الباطل، والباطل هو الدنيا، وكل ما يُعمل لها ومن أجلها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «طلب الدنيا من طرق حلال مما أمر الله به، وكل ما أمر به فهو عبادة لله».

قال القصيمي: «وأن ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل أنواع الاستقلال، والسيادة، لا يعود على فساد في الأخلاق، ولا إلى خلاف في الرأي والقلوب، ولا إلى شيء بما يحسبه الجاهلون ... إنما يعود إلى شيء واحد فقط: يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين، أي إلى الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «بل إلى شيئين: المذكور، وترك الدين الصحيح واستبداله بالشرك والبدع».

قال القصيمي: «ومن اللازم هنا أن نعلم أن القرآن قد أشاد بفضل العلم والعقل أعظم إشادة».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «وهذا هو العلم النافع الذي أخذ به الصحابة وأتباعهم إلى يوم القيامة».

قال القصيمي: «ووصف الكافرين والفاسقين والضالين بالجهل والغباء والغفلة وبكل عبارة تعطي هذا المعنى».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «ومن جملة الكفار أرسطو وأفلاطون، فالله ذم الكفار وأنت تمدحهم وتُرَغب في علومهم».

قال القصيمي: «وقد أراد الله أن يذم الإنسان في موضع وضع فيه نفسه وضعاً جرّ عليه الوبال، وعلى من معه فيه ومن حوله، فلم ير تعالى أبلغ في الذم والإنكار عليه من نعته بالجهل».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «من أين حكمت على الله بأنه لم ير أبلغ في الذم من نعته بالجهل، هذه دعوى عريضة وحكم على الله بغير علم».

قال القصيمي: «ومن الروايات الصحيحة والحوادث الشهيرة أن النساء كن يتعرضن لرسول الله عليه السلام في حجة الوداع يسألنه عن الحج وأحكامه أمام الناس، وأن امرأة جاءته تسأله وكانت وسيمة جميلة وكان مردفاً معه الفضل بن العباس، فأخذ الفضل ينظر إليها، فراح الرسول عليه السلام يصرف وجهه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «إنما ذكر من الأحاديث صحيحة، ولكن هل ثبت أنهن سافرات الوجوه؟ وهل ثبت أن رجلاً أخلى بامرأة أجنبية وأقره النبي؟ بل نهى عنه ونهى عن سفر المرأة بغير محرم، وجميع ما ذكره يقع الآن بلا إنكار؛ فهن يطفن مع الرجال ويحضرن مجالس العلم ويصلين الجماعة، والتفصيل يطول».

قال القصيمي: «وقد أمر الكتاب الكريم بالاستشهاد بالمرأة وبتأديتها

شهادتها، وأمر لها بالحقوق التي للرجل، وهذا لا يكون ممكناً إذا كان من الحرام الممنوع أن تجتمع هي والرجال في مكان واحد كما يحب بعض المتشددين».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «وهذا يقع بالمحاكم بلا إنكار، ولا محذور».

قال القصيمي: «وإذا ما رأيت أمة تثير غبار الجدل الديني أمام ما يجد من مبتكرات العقل الإنساني ـ مجوزة أو مانعة، محللة أو محرمة ـ فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتفكيرها ودينها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «أما المبتكرات التي لا تخالف الدين فلا تجوز معارضتها،وأما المبتكرات المخالفة للدين فهي مردودة والأمة المعارضة لها راقية».

قال القصيمي: «بعد كل هذا الذي تقدم نقول: إننا لا نرى مانعاً من أن نحكي آراء وحججاً يذكرها هؤلاء الذين صنعوا هذه الحضارة في موضوع المرأة، وموضوع الاختلاط والحجاب والسفور».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «أما مسألة السفور واختلاط الجنسين فهو من أقوالك السالفة الساقطة، وقد أوردت أدلة صحيحة شرعية أردت بها غير ما دلت عليه، وأهل الحق قد قبلوها وعملوا بها، ولم يجعلوها وسيلة وسبباً للفجور وارتكاب المنكرات، راجع ص٩٤ السابقة قريباً».

قال القصيمي: «ولسنا في حكايتنا لهذا ملتزمين القول والإيمان بكل ما فيه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «إذا نقلت القول الباطل وسكت عليه فأنت مقر به وقابل له، وقولك ولسنا؛ حيلة تحاول بها التخلص من ردك والطعن في حقك».

قال القصيمي: «إنه لا بد أن تتزوج المرأة ويتزوج الرجل ـ أي لا بد أن يجتمعا بعد هذا الافتراق، ويقترنا بعد هذا الابتعاد المفروض ـ ولا بد أن تقوم بينهما المعاملة الفكرية والروحية واليدوية والقولية، ولا بد أن يكون أحدهما ملائماً للآخر ـ عدلاً له، منطبعاً به، موافقاً مواتياً، وإلا صارت الحياة بينهما مستحيلة أو بغيضة لا تحتمل،وإذا كانت هذه الأمور لا خلاف فيها بين الناس، ولا خلاف في اشتراطها للحياة الزوجية الصحيحة، فكيف يكون من الممكن الحصول عليها إذا كان أحدهما يجهل الآخر طباعه الخاصة والعامة، ويجهل ميوله ويجهله كله جهلاً عاماً، لأنه لم يتصل به ولم يره ولم يعرفه؟!».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «المعنى أن الرجل يعاشر المرأة ويخلو بها ويذهب معها للمنتزهات حتى يعرف طبائعها وأخلاقها، ثم يتزوجها!! ولا إشكال أن هذا العمل هادم للدين والأخلاق والشرف».

قال القصيمي: «إن أسبابه ـ أو من أعظم أسبابه ـ هو ما يوجد بينهما من تباعد وعدم اختلاط حقيقي صريح من أجل الظن أن الاختلاط والتقارب يوقعان في الفساد والمنكر، إذ كل منهما يرى ـ على حسب ما لقن وورث ـ أنه يجب عليه أن ينأى عن الآخر، وأن يخاف الاتصال به والقرب منه في الحياة العامة وفي كل مكان».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هل عُلم أن أحداً من الصحابة وأئمة الدين عاشر امرأة وسبر أخلاقها واختلط بها حتى يتزوجها، وإنما أباح الشرع النظر إلى المخطوبة بدون خلوة، فاعجب لهؤلاء الفاقدين للغيرة وشهامة الرجال».

قال القصيمي: «وكلنا نعلم أن الدين بجملته بل الأديان كلهاعبارة عن تعاليم وإرشادات وأوامر ونواهٍ، وكلنا نعلم أن الدين موجه إلى الرجال والنساء إلى الناس جميعاً، فالفريقان ملزمان مكلفان بعلمه وتعلمه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «أما معرفة الواجبات الدينية فهي واجبة على الرجال والنساء، فالرجل يعلم الرجال ومحارمه، والمرأة تعلمها النساء ومحارمها، وأما كون الرجل يعلم المرأة الأجنبية ويخلو بها للتعليم فقد حرم الشرع الخلوة بها بالأحاديث الصحيحة».

قال القصيمي: «والروايات في مدح الفقر والفاقة وذم الدنيا والغنى كثيرة جداً لا يخلو منها كتاب! بل ادعى جماعات من هؤلاء أن غاية الدين وجملته أربع كلمات: إحداها كلمة: «ازهد في الدنيا يحبك الله» ونظموا ذلك شعراً قائلين:

غايــة الــدين عنــدنا كلــمات مسندات مـن قـول خـير البريـة

ثم عدوا الكلمات الأربع وذكروا منها الزهد».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «يظن أن الزهد هو الفقر والفاقة، وهذا غلط، فالزهد هو تفريغ القلب، لا تفريغ اليد، فمن الصحابة من له المال العظيم وهو زاهد، راجع المدارج لابن القيم».

قال القصيمي: «وهذا الشيخ النووي ألَّف كتابه «رياض الصالحين» لهذا الغرض ـ أي غرض الذود عن الدنيا والتنفير منها ـ».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «ذم الجاهل الصقيع رياض الصالحين وأدب الدنيا والدين، وأول من ذم الغرور في الدنيا ونهى عنها رب العالمين».

قال القصيمي: «ولما أن كان رأي هؤلاء الشيوخ هو ذم الدنيا بكل وجوهها وفروضها، وذم كل الأغنياء: من كانوا وكيف كانوا».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «من ذم غنياً لأجل غناه صحابياً كان

أو غيره فهو جاهل، كما أن من مدح الفقير لأجل فقره فهو جاهل، وليس معنى الزهد الفقر، وفوائد المال كثيرة، بل لا تقوم أكثر الواجبات إلا به».

قال القصيمي: «ثم حاولوا أن يتناولوا جانباً آخر من جوانب الحياة بالتدمير والهدم، فراحوا كالمجانين ينقلون روايات في النهي عن الزراعة، وفي ذم الزراعيين: فنقلوا أنه عليه السلام قال: (**ما من أهل بيت يغدو عليهم فدان ـ أي ثور الزراعة أو آلة الزراعة ـ إلا ذلوا**)».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الزرع الذي يشغل عن الجهاد والإعراض عن الدعوة إلى دين الإسلام، كيف يُنهى عن الزرع وبساتين المدينة أشهر من أن تذكر!».

قال القصيمي: «وجب علينا أن نحارب بكل سلاح من أسلحة الحرب هذه الدعايات المدمرة لقوى الشعوب ولروح الأفراد والجماعات، وهي دعايات الزهد وتفضيل الفقر والمرض والفاقة والحرمان، وكل تلك السخافات والأباطيل التي بقيت مضللة ومخدرة للإنسانية ومعطلة لمواهبها أحقاباً وقروناً يعجز المحصون عن إحصائها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا المسكين ما عرف معنى الزهد الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «ازهد في الدنيا يحبك الله»؛ فظن أنه ترك العمل والاكتساب، وأن الإنسان يكون عالة على غيره، والشرع

الشريف نهى عن ذلك وأمر بالعمل والتكسب، والأحاديث بذلك كثيرة شعيرة، وليته أمعن النظر في كلام ابن القيم وابن رجب وابن مفلح حتى يهتدي إلى الصواب».

قال القصيمي: «وعلينا نحن معشر المسلمين المغلوبين على أمرنا أن ننظر إلى هذه الدعايات والتعاليم على أنها أصفاد وأغلال قد مكن الجهل والغباء أعناقنا وأيدينا منها! فليس لنا مفر من العمل على تحطيمها وتحطيم من صنعوها بلا رحمة ولا شفقة، كما نهض محمد عليه السلام، وكما نهض قبله إخوانه من الأنبياء والمرسلين، محطمين وواضعين جميع الأغلال والأصفاد والآصار التي لقوها في طريقهم وفي طريق الإنسانية التي جاءوا لهدايتها وإنقاذها من جميع ما صنعه الشر والجهل».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هل ترضيك سيرة محمد عليه السلام؟ فإنك لا توقن بزهده ولا تقنع به، وهو القائل: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً، وفي رواية كفافاً» متفق عليه».

قال القصيمي: «ولنزهد في الزهد إن كان لا بد من الزهد، ويجب أن يعلم أن كلمة الزهد لم ترد في القرآن إلا في موضع واحد، وهو قوله في قصة يوسف: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف: ٢٠] ولا شك أن المقام هنا مقام ذم، وكذلك لم ترد في الأحاديث الصحيحة هذه اللفظة».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «قال ابن رجب في شرح الخمسين: «فأما الزهد في الدنيا فقد كثر في القرآن الإشارة إلى مدحه،وكذا ذم الرغبة في الدنيا» ثم أورد كثيراً من الآيات وجملة من الأحاديث الصحيحة، وإذا لم يرد هذا اللفظ فالمطلوب معناه، وهو كثير شهير».

قال القصيمي: «وقد ضاعت عليّ من أجل ذلك فرص، كان يمكن الإفادة منها، لا يمكن استرجاعها! كان الغرور الديني قد أفسد علي كل شعور بالوجود وبجماله».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «أنت منذ خلقت فقير معدم، فما كنت صانعاً فاصنعه الآن!».

قال القصيمي: «وكنت مؤمناً بأن من في المجتمع لو كانوا يرون رأيي ويزهدون زهدي لوقفت الأعمال كلها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «إن زهدك اضطرار لا اختيار؛ لأنك فقير من أبناء الفقراء».

قال القصيمي: «وكانت الدنيا كلها تدور من حولي من غير أن أدور معها أو أحس دورانها! وكان يخيل إليّ وإلى غروري الديني الأعمى أنه لا قوة كقوتي».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «انظر هل هذا المسكين ارتفعت ثقته بالله من قلبه؟ فانقلب على عقبه وأخلد إلى الأرض، أما ذكر قول الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]».

قال القصيمي: «إن القوانين تعاقب من تناول المخدرات مرة في خفية وعلى حذر، ولكنها تبيح تخدير الآلاف، بل مئات الآلاف، بل مئات الملايين في المساجد والجمعيات كل أسبوع، بل كل يوم أحياناً، ثم تحث هؤلاء المخدرين على أن يخدروا، بل وتجازيهم وتوظفهم وتقتطع لهم من أموال الدولة المكافآت الشهرية! وهذا بلا ريب من أعجب مناقضات القوانين وغرائبها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «قاس خطب الجمعة المشتملة على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأمر بتقوى الله والنهي عن معاصي الله بشارب المخدر بل بالمخدر نفسه، وهذا انعكاس وانتكاس، نعوذ بالله من هذه الوقاحة والجراءة».

قال القصيمي: «وقد أشار القرآن إلى هذا في قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى

ٱلْقُـرْبَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان: ٨] وهذه الآيات صريحة في أن المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم في كتابه هم الذين يحبون المال».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «ينبغي أن يقال أنت من أشد الناس فقراً، فما معنى هذا الترغيب في الدنيا وأنت ما ذقت حلاوة الغنى!».

قال القصيمي: «إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرد تارة، وبالبكاء والضراعة تارة، وبالصلاة تارات، وبالصيام أخريات».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «الدعاء وأنواع العبادة من أعظم الأسباب التي تنال بها المطالب وتتهيأ لها الأسباب، والعالم بأجمعه يعلم أن الأمور مربوطة بأسبابها، ومن ظن خلاف ذلك لحق بالبهائم».

قال القصيمي: «وقد دهم الديار المصرية وباء مزعج منذ سنين فاجتمع العلماء في الجامع الأزهر وقرأوا البخاري لرفع هذا الوباء!».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «في كتاب إصلاح المساجد للقاسمي بحث مفصل في قراءة البخاري لرفع الشدائد ورد هذه البدعة».

قال القصيمي: «ومنذ شهور قليلة قام بيني وبين إنسان عالم نزاع في هذا، وقد زعم هو بأن العفاريت يتصرفون في هذه الدنيا، وأنه يعرف إنساناً

كانوا يخدمونه ويحضرون له الفاكهة من بلاد أخرى في أوقات تفقد فيها الفواكه، وأنهم - أي العفاريت - نقلوا له البراميل من بلدة إلى بلدة ... وهكذا».

قال الشيخ ابن مانع - رحمه الله -: «في كتاب الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن بحث مفصل في خدمة الجن للإنس لإضلالهم فليراجع».

قال القصيمي: «وقد أضحت عبادة الموتى وعبادة أرواحهم أعظم وأضخم مظاهر عبادات هؤلاء الجاهلين في مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها».

قال الشيخ ابن مانع - رحمه الله -: «أي إسلامية من حيث الجغرافية، وأما في الحقيقة فهي في بلاد وثنية؛ لأن شعائر الكفر فيها أظهر من شعائر الإسلام».

قال القصيمي: «وراحوا يصدقون ويدعون إلى تصديق ما كان ينسب إلى الموتى وإلى المشايخ والأولياء من أعمال لا يستطيعها إلا من استطاع أن يقهر خصائص المادة وقوى الطبيعة الطبيعية، وأن يخرق كل ناموس في الوجود، وأن يبطل كل سنة فيه! وراحوا من أجل هذا يحسنون دعوة الأموات وسؤالهم الحاجات، بل ويحسنون عبادة المخلوقين والانقطاع إليهم».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «وهذا من أقوى الأسباب التي أوهنت قوى الإسلام، وصار المنتسبون إليه أذل ذليل، فلو أعزو الإسلام لأعزهم الله، ولو نصروا الدين لنصرهم الله، ولكنهم كفروا وأشركوا وغيروا الدين؛ فغير الله عليهم نعمه».

قال القصيمي: «إن الناس ظلوا مئات السنين يعتقدون أن المسلمين لن يُغلبوا، لأن دينهم حق، والحق يجب أن يكون أهله منتصرين أبدا وإن قصروا وأهملوا ونسوا أنفسهم».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ:

«والحق منصور وممتحن فلا … تعجب فهذي سنة الرحمان
وبذاك يظهر حزبه من حربه … ولأجل ذاك الناس طائفتان
ولأجل ذاك الحرب بين الرسل … والكفار مذ قام الورى سجلان
لكنما العقبى لأهل الحق إن … فاتت هنا كانت لدى الديان

الحق ما قاله المسلمون؛ فقد قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٣] ولكن دين الإسلام الصحيح في كثير من الأقطار فُقد، حيث عبدوا الأموات، وابتدعوا الطرقات؛ فغيروا دين الله، فغير الله عليهم، وهم يعتقدون أنهم مسلمون، ومن حكمته تعالى أنه يمتحن عباده المؤمنين ليظهر فضلهم وصبرهم وقوة إيمانهم».

قال القصيمي: «قال أحد القواد العبقريين الذين عركتهم الحروب وعركوها: «إذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما»، وهذه قولة قد نظنها كفراً أو فسوقاً أو جهلاً إذا نظرنا إليها بشق واحد من عقولنا».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة؟ وبنو إسرائيل شرذمة كانوا مع موسى فنصرهم الله على فرعون وقومه، والكفار في اليرموك والقادسية أقوى عدة وأكثر عدد من المسلمين، وكذلك في أفريقية والمغرب والأندلس وخراسان وفارس والهند والصين ولكن المسلمين أقوى بالتوحيد والعمل الصالح والإخلاص، فلهذا غلبوا الكفار يا جاهل».

قال القصيمي: «وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «حاشى وكلا! والذين ضربت عليهم الذلة المتسمين بالإسلام هم عباد القبور وأهل الطرق والمشركين، وإن ادعوا الإسلام، والله يقول وهو أصدق القائلين: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]».

قال القصيمي: «وقد جاءت الأحاديث الصحاح بأن حروباً عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود، وقد يكون في هذا ما يعطي بأن اليهود قد

تكون لهم دولة وجيوش يحاربون بها ودفاعاً عنها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «ولكن الأحاديث دلت على خذلان اليهود، وأنهم يختبئون تحت الأحجار، والحجر يخاطب المسلم ويدعوه إلى قتل اليهودي كما في صحيح مسلم».

قال القصيمي: «هكذا فهموا القضاء والقدر، وهكذا اعتقدوا في أنفسهم أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات جامدة لا تتحرك وإنما تُحرك، ولا تتصرف، وإنما يُتَصرف فيها، ولا تفعل وإنما تنفعل».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لا يخفى على البصير أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبر عن سابق القضاء فقيل له: ففيم العمل؟ قال: «**اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له**»، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعمل والإيمان بالقدر، **وقال:** «**احرص على ما ينفعل واستعن بالله**»، وهذا هو الذي عليه عمل المسلمين، فلا تغتر بما هذى به هذا المتعاقل الرقيع».

قال القصيمي: «فالتعاليم القائمة على أن الإنسان خلق عاجزاً مجرداً من كل قوة، وعاجزاً على أن يعمل شيئاً ـ وإنما هو ظرف ومحل للأعمال كما يقول هؤلاء الجاهلون على حسب ما فهموا القضاء والقدر ـ هي تعاليم زائفة خبيثة قاطعة للطريق، مهلكة لمن أخذوا بها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «الإنسان خلق قادراً مريداً، ولكنه غير مستقل بإرادته، بل هي تابعة لإرادة الله».

قال القصيمي: «وراحوا يقولون كما يقول الشيخ الغزالي في أحد كتبه المشهورة: «الرزق مقسوم لا تتبدل ولا تتغير قسمته»!».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الزخرف: ٣٢]».

قال القصيمي: «نادِ في جموع المسلمين منكراً عليهم اختصاصهم بالذل والاستعباد دون العالمين، فإنهم سيجيبونك: إنه القضاء والقدر، قل لتاجر أو صانع أو زارع: لماذا أنت صغير فقير وفلان من الأجانب يملك الضياع والمتاجر والمصانع والأموال العظيمة، فسيجيبك أيضاً: إنه القضاء والقدر».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «مذهب أهل الحق: أن العبد له قدرة حقيقية وأنها مؤثرة في مقدورها، وأن العبد هو الفاعل لفعله، ولكن قدرته تابعة لقدرة الله، ومشيئته وإرادته، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]».

قال القصيمي: «كيف يجب أن يفهم القضاء والقدر؟ إن كل ما ذكر هنا باطل، فكيف إذن يجب أن يفهما ـ والإيمان بهما ركن من أركان الإيمان ـ وقد جاء ذكرهما في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جداً».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لا تغتر بهذيانه؛ فأهل السنة آمنوا بالقضاء والقدر وعلموا أن الله ربط الأسباب بالمسببات، والنبي صلى الله عليه وسلم جعل من أركان الإيمان وأصوله: الإيمان بالقدر خيره وشره، وأنه من الله، ومع ذلك قال: «**لأن يأخذ أحدكم حبله ...**» الحديث، وقال: «**المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف**» الحديث، وقال: «**الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**» فمن أمر بترك العمل فقد خالف الشرع، بل قال عليه السلام: «**اعقل واتكل**»».

قال القصيمي: «فالقدر بجملته وجملة استعمالاته يراد به التقدير، أي جعل الشيء ذا مقادير معلومة، أي يراد به جعل الشيء منظماً في كمه وكيفه...».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن المعد انحرف عن مذهب أهل السنة في الإيمان بالقدر؛ حيث فسره بما أملاه عليه فكره الكاسد وعقله السقيم، والحق أن يقال في تعريف القدر: هو أن الله جل وعلا سبق في علمه ما العباد عاملون، وأن أعمالهم تجري على مقتضى علمه السابق، راجع شرح

حديث جبريل في جامع العلوم والحكم لابن رجب، والواسطية لشيخ الإسلام، وشرح الدرة، ويرحم الله الشافعي حيث قال: خلقت العباد على ما علمت، ففي العلم يجري الفتى، واعلم أن من لا يؤمن بالقدر خيره وشره فهو من أهل النار، كما في الحديث الشهير».

قال القصيمي: «ولنختم هذا البحث برواية ـ هي وإن كانت ضعيفة الإسناد إلا أنها صحيحة المعنى مؤيدة لما قلنا ـ وذلك ما رواه البزار والطبراني عن ابن عباس وأبي قتادة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هلاك أمتي في ثلاث: في القدرية والعصبية والرواية من غير ثبت**»، والقدرية هنا إن كان المراد بهم المنكرين للقدر كان هذا واضحاً لما سبق من أن الذين ينكرون القدر يرون أن الوجود ليس فيه نظام، وليس قائماً على الأسباب والمسببات، ومن كان رأيهم هذا فلن يكونوا هم منظمين لا في تفكيرهم ولا في أعمالهم، ولن تكون أفعالهم قائمة على أسبابها الصحيحة، وتبعاً لهذه الفوضى العقلية والعملية لن يكونوا شيئاً مذكوراً في الحياة ..، وأما إن كان المراد بالقدرية هم الذين يؤمنون بالقدر إيمان من ذكرنا فواضح أيضاً، فالقدرية على الاحتمالين لن ينجحوا في الحياة ولن يبلغوا منها شأواً عظيماً، ولن يصيروا أهلا للقيادة، وقد يكون المراد بالقدرية القدر، جاء على وزن النسبة».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله خلق الخلق على أتم نظام وأكمله، قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، ويعتقدون أن الله يربط الأسباب بالمسببات، قال تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٤]، فهذا المغرور يتبجح ويظن أنه عثر على كنز من العرفان لم يدركه غيره، والقدرية الذين يلحقهم الذم هم الذين قالوا: لا قدر، أي أنكروا سابق علم الله بالأشياء، وأن الأمر أُنُف أي مستأنف، وأن الله لا يعلم بالأشياء إلا بعد وقوعها، والحق أن يقال إن معنى القدر أن الله سبق في علمه ما العباد عاملون، وأنه علم من هو من أهل الجنة، ومن هو من أهل النار، وعلم أرزاقهم وآجالهم قبل خلقهم وقبل خلق الجنة والنار، وأن جميع أفعال العباد تقع منهم مطابقة للعلم السابق، قال في الدرة:

وكل ما قدر أو قضاه ... فواقع حتماً كما قضاه

فمؤلف هذا الكتاب ينكر ذلك، فهو إذًا قدريٌ ضال».

قال القصيمي: «التوكل: كيف يجب أن يُفهم».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «حقيقة التوكل عند أهل الحق: صدق اعتماد القلب على الله، والمتوكل يبذر الحب ويعتمد على الرب، وقال عليه السلام: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله**»».

قال القصيمي: «أساء المسلمون الظن بالأسباب وأكثروا من القول في تقليل قيمتها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «انظر هذا المعتوه كذب على المسلمين ونسبهم إلى إساءة الظن، وهم القائلون: إن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه».

قال القصيمي: «أما الطائفة الأخرى فإنها لم تنكر الأسباب جملة ولكنها جردتها من التأثير، وزعمت أنها مظاهر صورية يؤديها الإنسان؛ لأن الله أمر بتأديتها، أو لأن الطبيعة البشرية تطمئن بها وتستريح إليها، لا لأنها تؤثر أو توصل».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا مذهب الأشاعرة».

قال القصيمي: «وجه هذا أن يُعلَّموا وأن يعْلموا أن الله قد جعل الأسباب هي كل شيء، وأنه لم يجعل شيئاً بدون سبب، وان المرء يتوصل بالأسباب إلى كل أموره، ولا يتوصل بغيرها إلى شيء».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «مات زيد الغني، فورثه أخوه الفقير فصار غنياً، فما هو السبب الذي فعله يا أحمق؟، قال في «فتح المجيد» (ص٦٦): مباشرة الأسباب أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ

فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال ابن القيم: لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً، وتعطيلها يقدح في نفس التوكل كما يقدح في الأمر والحكمة الخ».

قال القصيمي: «من هذه الروايات الرواية التي أوردناها في مطلع البحث وهي: (**لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه**)، وهذه الرواية مخالفة للرواية الأخرى الصحيحة القائلة: (**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**)».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «سب الدهر هو ما كان يقوله أهل الجاهلية مثل: يا خيبة الدهر، وحديث أنس ـ لا يأتي زمان... ـ إخبار لاسب، فليس بينهما مخالفة».

قال القصيمي: «وفي الرواية قصة هي كوثيقة الجريمة التي تعلق في عنق المتهم: قالوا أتى الناس أنس بن مالك وشكوا إليه ما يلقون من الحجاج بن يوسف، فقال أنس: اصبروا فإنه (لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) سمعته من نبيكم ... وإذن فالرواية إنما سيقت في مقام الأمر بالصبر على مظالم الحجاج بحجة أنه لا أمل في ما يطلبون من العدل ومن الحكم الصالح، ولا أمل في أن يوجد أحسن من الحجاج ومن خليفته المرخى له في عنانه، ليخوض في عدوانه؛ لأن الناس أبداً يفسدون ولا يصلحون، ولأنهم أبداً يجورون ولا يعدلون، وأنهم سيظلون على ذلك يتتابعون في الإثم إلى قيام الساعة، من غير أن يقوم بينهم صالح عادل ... فالحجاج وخليفته شر من

الذين قبلهم، وهما خير من الذين بعدهم، فإذا ذهب الحجاج وذهب معه حكمه فلن يجيء خير منه بل شر؛ لأنه بعده، وإذن لا معنى للتبرم من حكومته ومن رجاء زوالها، بل يجب العمل على بقائها والاستزادة من أيامها، لأن بعض الشر أهون من بعض، ولأن شر الحجاج أهون من شر من سيأتون بعده».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لا تغتر بهذه الفلسفة؛ فالمقصود العموم لا الأفراد، ولا شك أن زمن الحجاج خير من الزمن الذي بعده، فإنه في زمان التابعين وهم خير من أتباع التابعين بنص الحديث، ولا يلزم أن يكون الحجاج خير من الذين بعده».

قال القصيمي: «إن العاقل لتأخذه الحيرة البالغة متى أتيح له أن ينظر في هذه الكتب المُسِنّة التي تخرجها المطابع تباعاً ليلتهمها القراء بشره ولذة».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «يقال: ما مرادك بالكتب المسنة إلى آخر الهذيان؟ إن كان مراده كتب التفسير فقد بينت معاني كلام الله، وإن كان مراده السنة النبوية فهي حُفظت ليعمل بها، وكذا يقال في جميع المؤلفات المفيدة».

قال القصيمي: «والسبيل التي لا سبيل سواها، لإخراج هذه الجماعات المنكودة مما هي فيه، أن تُعلَّم الكفر بهؤلاء، والشك فيهم وإساءة الظن بهم وبعلمهم، وأن تعلم أنهم كانوا تحت ظنهم بهم جداً، وأنهم أبعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين، وأن تعلم كيف تثق بنفسها وبعقلها واستعدادها».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «تحذيره من احترام العلماء الماضين والحث على الإعراض عن كتبهم وإساءة الظن فيهم! ما أظن هذا الخبيث إلا يداً عاملة للمبشرين الساعين في هدم الإسلام وإهلاك المسلمين».

قال القصيمي: «فمن وجد في كتاب من هذه الكتب تناقضاً أو باطلاً أو كذباً أو جهلاً أو سخفاً وكفراً؛ وجب عليه أن يعتقد أن ذلك من نقص فيه لا في المؤلف، فالواجب تنزيهه وتقديسه وتصديقه .. وقد غبروا مدى ألف عام وهم مصلتوها سيوفاً مرهفة في وجه كل من يحاول أن يعترض أو يصحح أو يشك، بل أو أن يفهم ويعقل ... وإلى اليوم لا يزالون شاهري هذا السلاح».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذا غلط غير مسلم، بل لم يزل العلماء ينتقدون ما يُنتقد، ويردون ما ينبغي رده، من متن وشرح وحاشية، ويُحمدون على ذلك، فكلامه ساقط».

قال القصيمي: «فلو أن ألمانيا أو انجلترا أو أمريكا أو غيرها من الدول الكبرى اعتقدت بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وبأن ما عجز عنه القدماء فلن يقدر عليه أبناؤهم وأبناء أبنائهم، لما استطاعت أن تحسن وتجدد في أسلحتها وقواها وعلومها وفنونها وأساليبها، ولقرت عيناً بما صنع قبل ذلك، ولما أمكن أن تخرج القنبلة الذرية ولا غيرها مما دان لقدرة المتأخرين، وكان فوق قوى المتقدمين».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «هذه مسألة دنيوية، ونحن نقول فرق بين مسائل الدين والدنيا، وأنت لا تفرق بينهما».

قال القصيمي: «وقد يقال بعبارة أخرى ـ على حسب تصور المتدين ـ: إن المسألة لا بد أن تفهم هكذا: الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أو غير كافية، فإن كانت كافية فأين الإله وأفعاله وألطافه؟! فهي إذن غير كافية، وإذا كانت غير كافية فهي إذن غير خليقة بأن يعول عليها المؤمن تعويلاً صحيحاً ولا أن يلتفت إليها، ومن هنا يصبح غير سببي».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «يقال إن السبب لا يكفي إلا إذا جعله الله سبباً، وأراد وقوع المسبب، والله جل وعلا إذا أراد شيئاً هيأ له أسباباً، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وجدت الأسباب أو عدمت، فهذا المطر سبب لظهور النبات، وأحياناً ينزل ولا تنبت الأرض».

قال القصيمي: «ومن المعلوم أن أوروبا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة كانت في ذلك الهوان والضعف والعجز الذي نعرفه ونقرؤه، فلما أن مرقت من إيمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الأخروي وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هي آلهتها التي وحدتها وأبت الإشراك بها، صعدت بالحياة هذا الصعود الذي أعجز أبصارنا نوره، والنظر إليه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «الدعوة إلى الكفر لأجل الدنيا».

قال القصيمي: «حتى إن رجلاً فيلسوفاً عظيماً، وهو الدكتور جستاف لوبون، لما أن لاحظ هذا قال في كتابه الموسوم بـ«الآراء والمعتقدات»: (إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر) لأنه ـ على ما زعم ـ قد وقف بالحضارة عن التقدم والسير إلى الأمام! قال: (ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطوا خطواتها الصحيحة القوية إلا في عهود الوثنية وعبادة الأصنام)[(١)] !!».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لو لم تكن تعتقد ذلك لرددته وأنكرته، ولكنك نقلته وسكت عن رده، والسكوت إقرار، وأي فائدة في ذكر هذا الكفر تطلب منه سوى الدعوة إليه؟!».

قال القصيمي: «وثانيهما أني لم أحاول إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «لم يذكر الإيمان بالملائكة، والإيمان بالقدر؛ لأنه قدري كما سبق، ثم إنه ذكر إيمان عمر ومن تبعه، ولم يذكر أبا بكر وعثمان وعلي تعمداً !!».

---

(١) قال القصيمي في الهامش: «ونحن نبرأ من كل إلحاد وزيغ، وليس عرضنا لهذه الأقوال من أجل الإيمان بها، ولكن من أجل الاعتبار وطلب الفائدة».

فقال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ: «مرادك بالفائدة: الاقتداء بأئمة الضلال، فلا يفيدك البراءة من مذهب تدعو إليه».

قال الشيخ ابن مانع ـ رحمه الله ـ في آخر تعليقة له على كتاب «هذي هي الأغلال»: « انتهت قراءة هذا الكتاب الموحش المريب، فرأيت مؤلفه قد أخلد إلى الأرض وأعرض عن طريق أهل الحق، ينظر للأديان بعين السخط، ويمقت المتدينين ويعظم الرجال المشهورين بالإلحاد، ويذكر بعض المبتدعين، ويشهر بعض بدعهم، ويجعلها وسيلة للتهكم بجميع المسلمين، ويُنفر عن الدين بذم المتدينين، ولم يذكر رجلاً واحداً بالثناء من العلماء المحققين؛ لأنه يحاول نبذ الأسلاف، ولا يلتفت إليهم في دين ولا دنيا، ورأيت الرجل قدرياً يحرف الآيات والأحاديث على رأيه الفاسد، وفهمه الكاسد، ولقد أحسن القائل في أمثاله، وينطبق عليه:

ومـــا انتـــسبوا إلى الإســـلام إلا لـــصون دمـــائهم أن لا تـــسالَ

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك الصحيح الحق، الذي بُعث به محمد صلى الله عليه وسلم. حرر في ١٦/ ١/ ١٣٦٦ ».

الرد السادس:

تنزيه الدين وحملته ورجاله
مما افتراه القصيمي في أغلاله

للشيخ

عبدالرحمن بن ناصر السعدي

- رحمه الله -

ترجمة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر آل سعدي[(١)]

هو الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي، وأسرة آل سعدي ينتهون في نسبهم إلى آل مفيد، وآل مفيد فخذ كبير يرجع أصلهم إلى بطن (آل حماد) الذين هم من بني العنبر من بني عمرو أحد قبائل تميم الشهيرة.

وُلد في بلدة عنيزة في ١٢ محرم عام ١٣٠٧ هـ، وتوفيت والدته وله من العمر أربع سنين، وتوفي والده سنة ١٣١٣ هـ، وله سبع سنين، وكان والده واعظاً وإماماً في مسجد المسوكف، فكفلته زوجة والده، وأحبته أكثر من أولادها، فصار عندها موضع العناية والرعاية.

اشتغل بالعلم على علماء بلده ومن يرد إليها من العلماء، وانقطع للعلم وجعل كل أوقاته مشغولة في تحصيله؛ حفظاً وفهماً ودراسة ومراجعة واستذكاراً، حتى أدرك في صباه ما لا يدركه غيره في عمر طويل.

ولما رأى زملاؤه في الدراسة تفوقه عليه ونبوغه تتلمذوا عليه، وصاروا يأخذون عنه العلم، وهو في سن البلوغ، فصار في هذا الشباب المبكر متعلماً ومعلماً.

---

(١) عن «علماء نجد خلال ثمانية قرون» (٣/ ٢١٨-٢٧٢) (باختصار). وللمزيد عن ترجمته تُنظر مقدمة الشيخ هيثم الحداد لكتاب: «الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة» لابن سعدي ـ رحمه الله ـ.

وما أن تقدمت به الدراسة شوطاً حتى تفتحت أمامه آفاق العلم فخرج عن مألوف بلده من الاهتمام بالفقه الحنبلي فقط، إلى الاطلاع على كتب التفسير والحديث والتوحيد، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وهي التي فتقت ذهنه ووسعت مداركه، فخرج عن طور التقليد إلى طور الاجتهاد المقيد، فصار يرجح من الأقوال ما رجحه الدليل وصدقه التعليل، ولكنه في الغالب لا يخرج عن اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية.

فلما بلغ أشده ونضج علمه، ورسخت قدمه، شرع في التأليف، ففسر القرآن الكريم، وبين أصول التفسير، وشرح جوامع الكلام النبوي، ووضح أنواع التوحيد وأقسامه، وهذب مسائل الفقه وجمع أشتاتها، ورد على الملاحدة والزنادقة والمخالفين، وبين محاسن الإسلام، كل ذلك في كتب ورسائل طبعت ووزعت، ونفع الله بها.

كما نفع الله به الخاصة والعامة، فإنه صار مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أحوالهم وشؤونهم، فهو مدرس الطلاب، وواعظ العامة، وإمام الجامع وخطيبه، ومفتي البلاد، وكاتب الوثائق، ومحرر الأوقاف والوصايا، وعاقد الأنكحة، ومستشارهم في كل ما يهمهم.

وكان لا ينقطع عن زيارتهم في بيوتهم، ومشاركتهم في مجتمعاتهم، ومع هذا بورك له في أوقاته، فقام بهذه الأشياء كلها، ولم تصرفه عن التأليف

والمراجعة والبحث، فقد أعطى كل ذي حق حقه.

وأثنى عليه العلماء بأنه العلامة المفسر المحدث الفقيه الأصولي النحوي، ورشح لقضاء عنيزة عام ١٣٦٠هـ، لكنه امتنع عنه تورعاً.

من مشايخه:

الشيخ محمد العبدالكريم بن شبل، الشيخ عبدالله بن عائض، وهما أول مشايخه، الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر، في عنيزة وبريدة، الشيخ صعب التويجري، الشيخ علي بن محمد السناني، الشيخ علي بن ناصر بن وادي، الشيخ محمد الأمين محمود الشنقيطي، في عنيزة، الشيخ صالح بن عثمان آل قاضي، وهو أكثرهم له ملازمة، الشيخ محمد بن عبدالعزيز المانع، الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى.

مؤلفاته:

أما مؤلفاته فهي تربو على أربعين مؤلفاً في أنواع العلوم الشرعية، من التفسير والحديث والفقه والأصول والتوحيد، ومحاسن الإسلام، والرد على المخالفين والجاحدين، وهي متداولة معروفة.

وهذه المؤلفات مع ما فيها من الفوائد والجمع والجدة في الأسلوب والعرض، إلا أنه ينقصها التحرير في بعض المواضع، ولعل هذا يرجع إلى أنه

كان يكتبها من حفظه، ثم لا يعود إليها بالتنقيح، وإليك بيانها:

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، الدلائل القرآنية في العلوم العصرية، فوائد مستنبطة من قصة يوسف، القواعد الحسان لتفسير القرآن، المواهب الربانية، بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، القول السديد في مقاصد التوحيد، الحق الواضح المبين في توحيد الأنبياء والمرسلين، توضيح الكافية الشافية، الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، التنبيهات اللطيفة على الواسطية، سؤال وجواب في أهم المهمات، الدين الصحيح يحل جميع المشاكل، الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، الدرة البهية في حل المشكلة القدرية، تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله، فتح الرب الحميد في أصول العقائد والتوحيد (مخطوط)، الجهاد في سبيل الله، انتصار الحق، الدرة المختصرة في محاسن الإسلام، منظومة في السير إلى الله، وجوب التعاون بين المسلمين، الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، الخطب المنبرية على المناسبات، الفواكه الشهية في الخطب المنبرية، مجموع الخطب في المواضيع النافعة، المختارات الجلية، منهج السالكين، الإرشاد إلى معرفة الأحكام، الجمع بين الإنصاف ونظم ابن عبدالقوي، ولم يكمله بل وصل إلى باب الحج، مناظرات فقهية،

الفتاوى السعدية (جمعت بعد وفاته)، حكم سُبُع البدنة حكم الشاة (مخطوط)، حكم شرب الدخان، رسالة في أصول الفقه، طريق الوصول إلى العلم المأمول، القواعد والأصول الجامعة، منظومة في أحكام الفقه، منظومة في قواعد فقهية، مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (مخطوط)، التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب، رسالة عن يأجوج ومأجوج.

وفاته: أصيب بمرض ضغط الدم وتصلب الشرايين، فكان يعتريه المرة بعد الأخرى وهو صابر عليه مدة خمس سنوات، فزاد عليه وسافر إلى لبنان لعلاجه، فنصحه الأطباء بالراحة وقلة التفكير والإجهاد، فعاد إلى بلاده ولم يصبر على ترك العلم؛ فقام به تعليماً وتأليفاً وبحثاً، لأن هوايته العلمية تلح عليه في ذلك، فعاد إليه المرض أشد مما كان.

وفي ليلة الأربعاء بعد أن صلى الناس صلاة العشاء أصيب بإغماء لم يفق منه إلا فترة بسيطة، طمأن فيها الحاضرين من أهله، وهون عليهم أمر الدنيا، ثم عاد إلى إغمائه، فطُلب له الأطباء من الرياض بالطائرة، ولرداءة الجو لم تتمكن من الهبوط في مطار عنيزة، وقرب طلوع الفجر من ليلة الخميس ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٣٧٦هـ انتقل إلى رحمة الله تعالى وصُلي عليه بعد صلاة الظهر في الجامع، وأم الناس في الصلاة أحد تلاميذه ونائبه في إمامة الجامع وخطابته الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن سليمان البسام، ودفن في مقبرة الشهوانية شمالي عنيزة ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في مقدمة كتابه:

«الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإني قد وقفت على كتاب؛ صنفه عبدالله بن علي القصيمي سماه «هذه هي الأغلال» فإذا هو محتوٍ على نبذ الدين، والدعاية إلى نبذه، والانحلال عنه من كل وجه؛ وكان هذا الرجل قبل كتابته، وإظهاره لهذا الكتاب؛ معروفاً بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح، وكانت تصانيفه السابقة مشحونة بنصر الحق، والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقامٌ وسمعة حسنة، فلم يَرَع الناس في هذا العام حتى فاجأهم بما في هذا الكتاب، الذي نسخ به وأبطل جميع ما كتبه عن الدين سابقاً.

وبعدما كان في كتبه السابقة معدوداً من أنصار الحق، انقلب في كتابه هذا من أعظم المنابذين له، فاستغرب الناس منه هذه المفاجأة الغريبة لسوابقه؛ ولسنا بصدد التعرض للأسباب التي دعته لكتابة هذا الكتاب، وكثير من الناس يظنون به الظنون التي تدل عليها القرائن، وليست بعيدة من الصواب، يظنُّ

بعضهم أنه ارتشى من بعض جهات الدعاية الأجنبية اللادينية.

ولكن لما كتب هذا الكتاب، وطبعه ونشره بين الناس، وجعله دعاية بليغة لنبذ دين الإسلام، بَلْه غيره من الديانات والمبادئ الخلقية، فكان هذا أكبر عداء ومهاجمة للدين وجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوي عليه كتابه من العظائم، خشية اغترار من ليس له بصيرة بكلامه، حيث كان معروفاً قبل ذلك من علماء المسلمين، ولم يُدر ما طرأ عليه من الانقلاب؛ وإننا نعلم أن الذين يقرؤون كتابه، ويقفون عليه؛ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من له بصيرة ومعرفة وتفريق بين الحق والباطل، ومعرفة بحقيقة الدين، فهذا لا يحتاج إلى التنبيه، بل مجرد وقوفه على كلامه وفهمه، يكفيه معرفة ببطلانه وفساده؛ لأن هذا القسم من الناس لا تغرهم الألفاظ المزخرفة، ولا الاستدلالات المزورة المبهرجة.

القسم الثاني: من وقف على كتبه السابقة، ثم على كتابه هذا، ورأى ما فيها من الاضطراب والتناقض والتضارب وعدم الاستقرار على قول ورأي واحد، يقول القول اليوم فيهدمه بالغد، ويبني ما هدمه ويهدم ما بناه، فبينما تراه يدعي أنه ينصر الدين ويغار على المسلمين، إذ تراه ملحاً في هدم أصول الدين، وقواعده، حاملاً على حملته متهكماً بالعلماء والمرشدين، مؤيساً لهم من الرقي في الحياة ما داموا متمسكين بدين الإسلام.

وبينا تراه يحط على أئمة الدين، ومصابيح الدجى، إذ يصب الثناء والمدح على أئمة الكفر وزنادقة الملاحدة ويعظمهم غاية التعظيم، وبينا تراه يذم القديم، ويحث على رفضه ومراده به ما جاء به الدين علوماً وأخلاقاً وأعمالاً، ويحث على الأخذ بكل جديد، إذ تراه متناقضاً يحث على اتباع المنحرفين: كأرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا ونحوهم من المتقدمين والمتأخرين، إلى غير ذلك من مناقضاته، التي توجب للناظر فيها أن يهدر كلامه ويسقطه من الاعتبار، ولو لم يكن من أهل العلم والإبصار.

وأما **القسم الثالث:** الذين لا بصيرة لهم يميزون بها بين الحق الباطل، ولا وقفوا على تناقضه وعدم استقراره على رأي واحد؛ فإنهم يخشى عليهم من الاغترار بكلامه؛ لأنهم يسمعون عبارات مزخرفة، واستدلالات مموهة، لأنه يردد المعنى الضئيل بعبارات كثيرة، وأساليب متنوعة؛ ونحن لا ننكر ما في كلامه وكتابه، من المعاني الصحيحة المطروقة التي لم يزل أهل العلم يقولونها ويبدونها، من الحث على تعلم العلوم وفنون الصنائع النافعة، وما فيه من ذم الجهل وآثاره الضارة، وما فيه من تأخر المسلمين في الفنون العصرية، وما فيه من وصف تفوق غيرهم في فنون المادة، فقد ذكر أهل العلم من هذه الأمور أكثر مما ذكر هذا الرجل، ولم يبين ما بيّنوه ولا شرح الداء الذي أصاب المسلمين حقيقة ولا كيفية الدواء.

والمقصود أن ما في كتابه من الحقائق، لم يكن أول من قالها، بل لم يزل أهل المعرفة يقولون ما هو أتم منها، وإنما المنكر الفظيع والطامة الكبرى، ترويجه بهذه الأمور على من لم يعرف الحقائق، وجعلها له كالأساس الذي يحمل منه على الدين وأهله الحملات المنكرة المتكررة»[1].

عبدالرحمن بن ناصر السعدي

(1) «تنزيه الدين وحَمَلته ورجاله..»، (ص٣١-٣٣). وقال الشيخ عن رده هذا في كتابه «الأجوبة النافعة» (ص١٨١): «وبعض المواضع التي ذكرناها تكفي المسلم الذي يُقال له مسلم في بيان انحرافه، وأما من له ميل إلى الإلحاد، والانسلاخ من الدين؛ فهو يوافق مشربه، ونسأل الله الثبات على دينه».

وقال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ أثناء رده على القصيمي:

«أما تأخر المسلمين الآن في الفنون العصرية والاختراعات والصناعات وأشباهها، فليس هذا التأخر منسوباً إلى دينهم، فليس في دين الإسلام أصل من الأصول أو فرع من الفروع يوجب على أهله التأخر بوجه من الوجوه، وإنما الأمر بالعكس، كما تقدم التنبيه عليه بأن الدين الإسلامي قد جمع بين المصالح الدينية والدنيوية، وحث على جميع المنافع وعلى الأعمال النافعة والعلوم النافعة، عكس ما رماه به هذا الكاتب من الجمود والتأخر ومنافاة الحضارة والتقدم وخدمة الحياة بزعمه، وإنما السبب الوحيد الذي أخّرهم في هذه الفنون، هو ترك الاستمساك بروح الدين ومقوماته، وترك الأخذ بما يحثُّ عليه من الاجتماع والائتلاف واتفاق الكلمة، والتشاور في الأمور كلها، وترك الأغراض الشخصية للمصالح الكلية، وبتركهم الجهاد القولي والبدني والمالي، وهو مقاومة الأعداء بكل وسيلة تناسب الزمان والمكان بحسب الاستطاعة.

فالدين يحث على الأخذ التام بهذه الأمور التي لا قوام للأمم بدونها، وهم كسلوا وغفلوا عنها علماً وعملاً، وأهملوا مصالحهم ومالوا إلى الترف والدّعة والرضوخ والاستعباد للأجانب، فلما رآهم الأجانب بهذه الحالة

المؤلمة لعبت بهم سياساتهم وفككتهم وفرّقتهم زيادة على ما اتصفوا به من التنافر والاختلاف، وعلى ما زهدوا فيه من الجهاد ومقاومة الأعداء، واستعبدوهم بكل حيلة، وحللوا معنويتهم وروحهم الدينية، وصاروا يضربون بعضهم ببعض ويقيمون لهم من جنسهم ومن بني قومهم ممن يتسمى بالإسلام من يقيم الدعايات الباطلة، في تزويدهم من هذه الحال الحرجة، وممن يفتّ في أعضادهم ويخدر أعصابهم، ويسعى بكل مقدوره في تأييسهم من التقدم وفي إماتة هممهم؛ كما ترى هذا الكاتب الذي توسل باسم الدين والغيرة على المسلمين، وسعى في نبذ الدين ومحاربته بهذه الطريقة التي أربت على طرق المنافقين.

ثم قال الشيخ مبيناً مكر القصيمي:

«ثم إن هذا الكاتب بهرج على من لم يعرف الحقائق، بالاستدلال بأحوال المنحرفين من الصوفية والخرافيين، ومن تسمى بالدين وهو منه بريء، وأورد من خرافاتهم وخزعبلاتهم، ما يظن أنه يروج به باطله، حيث نسبه إلى حملة الدين! وهو يعلم حق العلم، أن الدين وأهله الذين هم أهله؛ هم أبعد الناس عن هذه الخرافات، وأعظم المنكرين لها، وأنهم يبرؤون منها، وينزهون الدين الإسلامي عنها، فكيف لا يستحي أن يستدل بأحوال ابن عربي، وخرافات الشعراني، وشطحات المتصوفة، على الدين وأهله، ويتوسل

بذلك إلى القدح في الدين وحملة الدين، وهو يعلم حق العلم أن الإسلام بريء من هذه الأمور والشطحات والخرافات، فكيف لا يستحي من هذه البهرجة والتناقض؟ أيظن الناس كالبهائم العُجم التي لا تفهم شيئاً، أم سُحر عقله فصار يهذي بالباطل وبما يغلي به صدره من الغل والإلحاد؟

ألم يعلم أن الدين وأهله الذين هم أهله الذين عرفوا الحقائق، وميّزوا بين الحق والباطل، والمحقين والمبطلين ينفون عنه انتساب كل مبطل، كما ينفون عن حقائقه كل باطل، وأن المبطل لا يروج أمره عليهم بمجرد انتسابه إلى الدين؟ فكم انتسب إلى الدين من الزنادقة والمشركين والمنافقين، من هو شر من اليهود والنصارى، فمن احتج بأحوال من انتسب إلى الدين وأهله، فهو من المزورين المبهرجين، وكذلك من احتج بالآثار والحكايات الباطلة على الدين، فهو مفتر كذاب؛ كما فعل هذا الكاتب، وملأ كتابه من الخرافات والحكايات الكاذبة، ونسبها لأهل الدين؛ ليتوصل بذلك إلى القدح فيه وفي أهله.

والدين كما يعلم كل من له بصيرة؛ أنه نقي خالص حق في أصوله وفي فروعه، وفي أخلاقه وآدابه، وتعاليمه جميعها في غاية العلو والسمو والمكانة العالية، التي لو اجتمع جميع العقلاء أن يقترحوا أحسن منها، أو ما يقاربها لعجزت أفكارهم، وقدرتهم عن ذلك، لأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويُعرف هذا بتتبع أصوله وفروعه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، أي يهدي لأصلح الأمور من العقائد والأخلاق والآداب والأعمال للأسباب وغيرها، فليأت هذا الكاتب أو غيره بمثله إن كانوا صادقين، فإن الدين الإسلامي قد فصَّل الحقائق، وبيّن المناهج الصحيحة والطرائق، وميّز بين الحق والباطل، وبيّن أولياء الرحمن من أولياء الشيطان، وبيّن الخير والشر، وبيّن العلوم النافعة التي تنفع الخلق في دينهم ودنياهم من العلوم الضارة التي هي بضد ذلك...

ثم إن هذا الكاذب موّه على الناس، وزعم أن الذي أوصل هؤلاء المتفننين في العلوم العصرية والاختراعات نبذهم للدين، وكل أحد يعلم أن نبذهم الدين لم يوصلهم إلى مصلحة دنيوية، فضلاً عن المصالح الدينية، وإنما الذي أوصلهم إلى الترقي في هذه الفنون، جدَّهم البليغ واجتهادهم ومواصلتهم الليل مع النهار في تعلمها وإدراكها وتفريعها وترقيتها، وقد تقدم لك أن الدين الإسلامي، يحث على تعلم كل نافع منها، ويأمر بكل علم يعين الأمة على مقاومة الأمم، ويوصلها إلى مصالحها، فمن استدل بتفوق الأجانب في علوم المادة على صلاح دينهم وفساد دين غيرهم، فهو من أجهل الخلق، وأبعدهم عن المعارف بالكلية، أو مغرر مموّه يقصد الترويج على من لم يعرف الحقائق، كما هو دأب هذا الكاتب الذي يسعى فيه.

ومن تمويهاته الشنيعة، التي يريد بها محاربة الدين وأهله، أن يزعم أن المسلمين يحثون على الفقر والبأساء والضراء وأنواع المصائب، ويطلبونها ويسعون في تحصيلها بكل طريق، ويسخر منهم، ومن ذكر الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على فضيلة الصبر على الفقر والأمراض وأنواع المصائب، كما صرح بذلك في صفحات ١٢٦، و١٤٠، و٣١٩.

وكذلك جميع النصوص الدالة على ذلك من الكتاب والسنة، وهذا من باب قلب الحقائق؛ فإن ذلك من أعظم محاسن الدين الإسلامي، حيث أرشد أهله إلى التربية العالية، التي هي أنفع التربيات وأجلّها وأكثرها آثاراً حميدة، فقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة، في فضل الصبر على المصائب والأمراض وأنواع المحن، التي لا بدَّ للخلق كلهم منها في هذه الدار، وذكر فضائل الصابرين، وما لهم من عند الله من الثواب، وذلك ليوطنوا أنفسهم على تقلبات هذه الحياة الدنيا من غنى إلى فقر، ومن يسر إلى عسر، ومن بأساء وضراء إلى خير وسراء، ومن عافية إلى مرض، ويعلمهم كيف يتلقون هذه الأمور الملازمة للبشر، في أطوار حياتهم، فهي من ضرورات الحياة والوجود، وأمرهم أن يتلقوا النعم والخيرات بالشكر والاعتراف بنعمة المنعم، وصرفها في الأمور النافعة، في أمر الدين والدنيا، وعدم الطغيان والبطر فيها، وأن يتلقوا المكاره والمصائب بالصبر والاحتساب والرضى بما منّ المولى، والرجاء

لثوابها العاجل والآجل، فهم يتقلبون في أحوالهم كلها مسرورين مغتبطين، إن أصابتهم سراء شكروا، وقاموا بحق المنعم، وصرفوها فيما يعود عليهم بالنفع عاجلاً وآجلاً، وإن أصابتهم الضراء صبروا وتضرعوا، فهم أقوى الخلق، وأجلدهم عند المصيبات والمكاره التي لا يسلم منها بر ولا فاجر، بل كثير منهم يتلقونها بالرضى والطمأنينة والشجاعة التامة وعدم الكراهة، حيث تخور عزائم المنحرفين عن الدين عند المصائب، ويجري لهم من التسخطات والجزع والهلع والآلام القلبية والزلازل الروحية والفظائع والفجائع، التي قد توصلهم إلى الانتحار، الذي يبرهن على ضعف النفوس وخورها، وأنه بلغ معها المكروه مبلغاً لا تصبر معه على الحياة، فقارن بين هذه الحال الفظيعة؛ وحالة المسلمين القائمين بوظائف دينهم، تجد الفرق العظيم بين النفوس والهمم القوية من المهينة، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩-٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:٩-١١].

وتعرف بذلك أن النصوص التي فيها فضائل الفقر والفقراء والأمراض والمصائب المتنوعة، والحث على الصبر والمرض وبيان ما في ذلك

من الثواب، لقصد حث النفوس على مقابلتها خير مقابلة، وأن ذلك من محاسن دين الإسلام؛ حيث يموِّه هذا الكاتب؛ أن نقل أهل العلم وهداة الأمة هذه النصوص، تدل على سوء حال المسلمين، وأنهم بذلك يسعون ويطلبون هذه الأمور بجدهم؛ وهذا من التمويه الذي لم يصل إليه أحد من الأجانب، فأين دعواه أنه ينصر الدين، وهو من أكبر المحاربين له؟

ولقد علم كل أحد أن هذه النصوص، قُصد بها تربية المسلمين على مجابهة هذه البلايا بصدور منشرحة ونفوس مطمئنة، وكلُّ عارف بدين الإسلام، يعرف أنه يأمر بالأخذ بجميع أسباب الصحة؛ من تدبير الأغذية والنوم والنظافة الإيمانية والحركة الرياضية، ونظافة الأبدان والثياب والفرش والمساكن وغيرها، حيث يدّعي هذا الكاتب عكس ذلك، فليأتنا بمثال واحد ونصٍّ واحد من الدين، يدل على التداوي إذا وقعت الآلام، ويخبرهم الشارع أنه «**ما من داء إلا وله شفاء ودواء، علمه من علمه وجهله من جهله**»[1]...

أما الرسل وورثتهم من العلماء الربانيين والأئمة المصلحين الهادين المهديين، فشربوا من العلوم الدينية وتغذوا بالمعارف الربانية المصلحة للقلوب والأرواح المرقية لها إلى أعلى الدرجات، وأكمل السعادات، وكملوا

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٧٨)، وصححه الأرنؤوط.

ذلك بعلوم الأحكام ومعرفة الحلال والحرام، وعلوم المعاملات والحقوق المتنوعة بين الخلق المبنية على كمال العدل والقسط والصلاح والإصلاح، ومعرفة الفنون السياسية وجميع العلوم المعينة على الدين، المصلحة للأحوال الجالبة للمنافع الدافعة للمضار، حتى صاروا هادين مهتدين، بهم يهتدي المهتدون وبإرشاداتهم يقتدي الصالحون، فلم يصل لأحد علم ولا معرفة ولا خير إلا على أيديهم، وبهدايتهم وعلومهم ومعارفهم، توزن العلوم والمعارف؛ وبأخلاقهم وأعمالهم يتبين الصالح من الفاسد؛ فبلغوا شأواً وغاية لم يصل إلى قريب منها أحد من الأولين والآخرين، وصار الواحد من أتباع الرسل وأئمة الهدى، لو قيس به جميع من يعظمهم هذا الكاتب، ويخضع لمعارفهم وأحوالهم، من أئمة الملاحدة لم يصل إلى عشر معشار ما أوتيه من القوة العلمية.

فضلاً عما يترتب على ذلك من أحوال القلوب والإنابة إلى الله تعالى، وكل من له معرفة يشهد بذلك، والكاتب اعترف به وشهد به حيث ترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتابه «الصراع» ترجمة حافلة وفضَّله على جميع العلماء، وأنه برّهم بسعة علمه وقوة إرشاده وسعة اطلاعه ومهارته العجيبة، ولا فرق بين المسلمين منهم والمبطلين، ولكنه كذّب نفسه وتناقض في هذا الكتاب، فيا ويحه المسكين أنى يؤفك ويصرف عن الحق.

وأما في هذا الوقت الأخير فقد جدَّت الأمم الأفرنجية والأمريكية ومن تبعهم، واجتهدت في الفنون العصرية، وصرفت لها أوقاتها وراحاتها، وأقبلت عليها إقبالاً عظيماً، فبلغت هذا المبلغ الذي لم يصل إليه أحد، وهي جادةٌ في السير إلى تكميل فنونها، وستصل بحسب ما يرى إلى ما تصل إليه قواها ومداركها، وأما كون معارفهم لا منتهى لها وأعمالهم لا حد لها وأنها ستزاحم رب العالمين وستعلم كل شيء وتقدر على كل شيء فهذا أمر يُعرف بطلانه ببداهة العقول.

نعم هي قد توصلت من علوم المادة الأرضية والحيوية وتسخير القوى السفلية إلى أمور لا يمكن إنكارها، أما كونها تتصل إلى عالم السموات والعالم العلوي وعلم ما كان وما سيكون، مما لا سبيل لها إليه بوجه من الوجوه، أو أنها ستتمكن من إيجاد الحيوانات ونفخ الروح فيها؛ فهذا ممتنع في العقول الصحيحة كما أنه ممتنع في الشريعة، فإن الله تفرد بغيوب لا يعلمها نبي مرسل ولا مَلك مقرب فضلاً عن غيرهم، وتفرد تعالى بأنه هو الذي يميت ويحيي لا يشاركه في ذلك مشارك من أهل السماء وأهل الأرض، فهنا يقال على سبيل التحدي لأي مخلوق يكون: قد صنع هؤلاء المخترعون وأهل المهارة في علوم المادة الصورة والصنائع المدهشة، فهل في إمكانهم إيجاد بعوضة أو غيرها أو يردوا الروح إذا بلغت الحلقوم إلى موضعها؟...

ونحمد الله على ما نبهنا عليه في كتابه من الفظائع والشنايع التي لا يقولها إلا من انتهى إلحاده وكفره، لم نستعمل معه في خطابه الخاص إلا الرفق واللين اتباعاً للكتاب والسنة في خطاب المحاربين المنحرفين أن يقال: قال فلان وفعل فلان؛ وأما عند ذكر الأقوال الشنيعة، فيذكر ما احتوت عليه من الضرر والمناقضة للأديان، ومرتبتها في البعد من الدين، وبيان ما على قائلها من الضلال والغي، فيكون القدح فيه موجه عليه من أقواله، ويبين ما على صاحبها من نقص الدين والعقل والرأي.

وليس لنا غرض في شخصية هذا الرجل، ولكن لما اعتدى على ديننا الإسلامي، وعلى قواعده وأصوله وأسسه، وتهكم به وبحملته، وفضّل عليهم زنادقة الملحدين، وصنع مع المسلمين أعظم من صنيع دعاة النصارى من المبشرين، وجب على كل مسلم مدافعته ودفع شره وتبيين أمره، والتحذير من طريقته ودعايته بحسب القدرة، وإلا فوالله إننا لنأسف أشد الأسف على انقلاب هذا الرجل، ونعدّ ذلك من الخسائر علينا، حيث فقدنا هذا الرجل الذي مضى له من المقامات ونصر الحق مالا يُنكر، بل لنا أن نقرأ قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

ونسأل ا لله أن يرده إلى الحق، وأن يعيده إلى الإسلام بالتوبة والتنصل مما وقع منه، وأن يكتب كتاباً في رجوعه عن هذه المباحث الخبيثة، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على دينه، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[1]

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله

عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي

(1) «تنزيه الدين وحملته..»، (ص٤٦-٨٧) باختصار.

وقال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في رسالة له إلى تلميذه الشيخ عبدالله بن عقيل ـ حفظه الله ـ:

«من عنيزة في ١٨صفر سنة ١٣٦٦هـ، من المحب عبدالرحمن الناصر السعدي، إلى الولد المكرم عبدالله العبد العزيز العقيل المحترم، حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، مع السؤال عن صحتكم، صحتنا مع الوالد والعيال والإخوان تسركم، أرجو الله أن يتم على الجميع نعمه.

وصلني كتابك من الرياض وما شرحته من عزمكم على التوجه لمكة فجيزان لظف[1] أشغالكم هناك، وقد وصلت برقيتكم للوالد بالتوجه، يسر الله أمركم في حلكم وترحالكم وجميع حركاتكم.

أما ما شرحته عن كتاب عبدالله القصيمي الذي سماه الأغلال، ومقتِ المشايخ للكتاب المذكور، وذكركم أنكم سترسلون لنا بوصولكم مكة نسخة نطّلع عليها، فنحن قد اطلعنا عليه، وهو فوق كل ما قيل فيه من الانحراف عن الدين، فمن أمعن فيه النظر جزم جزماً لا يمتري فيه أنه دعاية صريحة لنبذ الدين، مع كثرة تهافت صاحبه وتناقضه واعتذاراته أنه بريء من الإلحاد، وأنه مؤمن بالله وبما أخبر الله به، وعدم استقراره.

---

(١) ظف: جمع وإنهاء.

فصاحب البصيرة والذي يرى تناقض صاحبه وعدم ثبوته وتلوّن آرائه، لا يمتري ببطلان كلامه.

وهاك على سبيل الإجمال واختصار الزائد جمل ما يحتوي عليه، جُملاً رددها وكررها بكتابه بعبارات وأساليب متنوعةٍ.

كتابه هذا عن الدين ينقض جميع كتبه السابقة عنه، فهو قد كذبه أو هي كذبته، يحتوي على الحث الكثير على نبذ الإيمان بالله، ويقول: إنه من أكبر الأغلال المانعة من الرقي، وأنه لا يمكن المسلمين أن يرتقوا في هذه الحياة ما داموا مؤمنين بالله، وهو مع ذلك يُموِّه، ويزعم أن الناس لا يمكن أن يفهموا دينهم بالكلية، بل ذلك متعذر، يعني فيتعين عليهم أن يرفضوه.

فهو يحث على نبذ الدين والإيمان، ويُرغِّب غاية الترغيب في طريق الملحدين المعطلين لرب العالمين، ولأفعاله وربوبيته، ويتوسل إلى هذه الدعاية بذكر خرافات المتصوفة وأهل الخرافات، كابن عربي والشعراني ومن سلك سبيلهم من أهل الانحراف، ويطبق أحوالهم وما يقولونه على المسلمين، ليتمكن بذلك من القدح في المسلمين.

ومن الطامات أنه يزعم أن الناس مسلمهم وكافرهم وقت نزول القرآن في طور الطفولية، بل في طور دون ذلك يقرب من طور الحيوانات.

وأن الناس في هذا الوقت ـ ليس كلّ الناس بل المراد أهل الاختراعات ـ قد بلغوا رشدهم وكملت عقولهم، وكرر على هذا الأصل الخبيث الحمل على السابقين الأولين، وعلى قرون الأمة، وزعم أنه لا خير فيهم.

وأن الجامعة الإسلامية[1] كلها من أولها إلى آخرها لم يخرج منها عبقري ولا مرشد نافع للأمة.

وأوجب رفض القديم، واعتناق الجديد، وفرَّع على ذلك وجوب نبذ العلوم والأخلاق والآداب السابقة، وفي مقدمته العلوم الدينية والأخلاق الدينية.

وأنه يجب أن يعلم الناس الكفر بجميع ما خلّفته الجامعة الإسلامية من كتب وعلوم وأخلاق وأعمال، وأنه يجب مقتهم مع الإقبال على ما قاله الملحدون، كرر ذلك في مواضع.

وأن السابقين من الأنبياء وغيرهم لم ينفعوا الإنسانية، ولم يرشدوها إلى الأمور النافعة، فقدح صريحاً بجميع الأنبياء والأئمة والهداة.

ورغّب في المعاهد الأجنبية، وحمل حملاتٍ منكرة على المسلمين من

---

(١) «الجامعة الإسلامية» اصطلاح أطلق في ذلك الوقت وما قبله وحمل عدة معاني دالة على الرجوع إلى الإسلام، ومنها الدعوة إلى الوحدة الإسلامية.
انظر: حركة الجامعة الإسلامية، للدكتور أحمد فهد بركات الشوابكة ص٥ من المقدمة، طبعة مكتبة المنار بالأردن، سنة ١٤٠٤هـ من تعليق الشيخ هيثم بن جواد الحداد ـ وفقه الله ـ.

أولهم إلى آخرهم، وزعم أن المسلمين من أولهم إلى آخرهم يحثون على الفقر، وحصول الأمراض وأنواع المصائب، ويسعون لطلبها، وفي هذه الفقرة كذب كل نص فيه فضل الفقر والفقراء والأمراض وردّها وحرّفها.

ومن تمويهاته وتزويراته أنه يذكر الأحاديث الصحيحة، ثم يضم إليها أحاديث باطلة وآثاراً ساقطة، فيرد الجميع.

ويتهكم بالرواة لتلك الأحاديث، لا يرفعها عن صحابي ولا تابعي ولا إمام من أئمة الهدى.

وكذلك ردّ الأحاديث الدالة على أن هذه الأمة أولها أفضل من آخرها، وتهكم برواة حديث أنس الذي في البخاري: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرّ منه**»[1].

وزعم أن هذه الآية: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧]، أنها منطبقة على عصر التنزيل، وأن الصحابة والقرون المفضلة لا يعلمون إلا علماً ظاهراً بسيطاً، وأما العلوم النافعة فإنها لمن يعظمهم من الزنادقة الملاحدة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

وكـــذلك قولـــه تعـــالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعـراف:١٩٨]، ينظـرون إلى ظـاهر النبـي صـلى الله عليـه وسـلم، ولا يبصرون باطن دينه، ولا حقيقته، ويريد تنزيلها على المسلمين وقت التنزيـل، وأنهم لم يعرفوا الدين لا هم ولا من بعدهم، وفهمهم إياه فهم ظـاهري غـير حقيقي، ويحتوي على صرف القلوب عن عبادة الله وحده لا شريك له، ويذم الافتقار إلى الله.

ونقل عبارات بعض العلماء ـ منهم ابن القيم، ولكنه لم يسمّه ـ في الفقر إلى الله، وجعل يردّها ويتهكم بها، ويسخر منهم ومنها، ويحث على عبادة الطبيعة وصرف الظاهر والباطن إليها.

ويحتوي كتابه على التهكمات الشنيعة في وعد الله ووعيده وعقوباته ومثوباته الدنيوية والأخروية في مواضع كثيرة من كتابه، ولا يرضى بتفسير التوكل والقدر بتفسير الجبرية، ولا بتفسير القدرية، ولكنه نصر تفسير الفلاسفة الزنادقة، وأن معنى ذلك أن تؤمن فقط بنظام هذا العالم وانتظامه، وأن الأسباب مستقلة لا يقدر الله على تغييرها ولا تحويلها ولا التصرف فيها بوجه من الوجوه، وإنما ذلك عمل الطبيعة فقط.

ويقول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه وقت خلواته بالله ووقت انتقاله من الدنيا أنه متوجه إلى الطبيعة وشاخص إليها، وليس لله ذكر ولا

خبر، فخلوته ليست بالله، وقوله عند احتضاره: «**في الرفيق الأعلى**»[(١)]، ليس طلبه القرب من الله، وإنما يقصد التعلق بعالم السموات وبالطبيعة فقط، في كلام طويل مردد.

وصرح أن الإنسان في أول أمره مثل البهائم، مكث مدة طويلة لا ينطق ولا يتكلم إلا أصوات مثل أصوات الأطفال وقت ولادتهم، ثم انتقل إلى طور الإشارات فقط، ثم انتقل بعد مدة طويلة إلى طور الكلام، فكذّب بهذه الجمل التي رددها جميع ما أخبر الله به عن آدم وحواء وأول الآدميين.

ومن بحوثه الفظيعة أنه يمكن الإنسان أن يزاحم رب العالمين في علمه وقدرته، فيمكنه أن يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء وأنه علم مبدأ العالم ومنتهاه، وأنه سيرتقي علمه إلى العالم العلوي بعدما يفرغ من العالم السفلي، وأنه قد يتمكن من إيجاد المخلوقات الحية وينفخ فيها الروح.

وأن التفريق بين الله وخلقه جهل وضلال وغلط، فقدح بجميع الكتب وجميع الرسل وأتباعهم، إذ أصل الدين والتوحيد والإيمان هو التفريق بين الله وبين خلقه، لكن هذا كلام من لا يثبت لله أصلاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٧) ومسلم (٢٤٤٤).

وكرر أن الإيمان قيد وغلّ مانع من الرقي ومضعف للقلوب والهمم والعزائم، فحثَّ على الرفض حثاً كثيراً شنيعاً، وردّ كثيراً من الأحاديث الصحيحة النبوية.

وأما ما فيه من إنكار الغيرة، والحث على السفور، والتهكم بأهل الصيانات لنسائهم، فحدِّث ولا حرج.

ومن عجيب أمره أن كتابه ملآنٌ من السخريات والتهكمات بالدين وحملة الدين، ومن نظر في كتابه وكتبه السابقة، وكيف كان هذا الانقلاب الفجائي في أصول الدين وأسسه، فلا بدّ أن يفهم الأسباب التي حملته على تصنيف هذا الكتاب.

وبالحقيقة كتابه هذا أشنع وأطمّ من كتب دعاة النصارى والمبشرين، لأنه دعاية لنبذ الدين في قالب أنه من أنصاره وهو يحاربه ويوهم الناس أنه يحارب له.

فنؤمل أن حكومتنا يوفقها الله تعالى للمنع ا لصارم لتسرب نسخ هذا الكتاب للمملكة، وإن كان ـ ولله الحمد والمنة ـ في المشايخ والمتبصرين بركةٌ بإيقاف الأغرار على ما في كتابه من الأمور الضارة في الدين، ولكن على كل حال إبعاد مثل هذا الكتاب عن المملكة أهون شراً، لأنه يوجد شبيبة لا رأي لهم، ويرغبون في الكتب العصرية وقراءة الصحف، فخطره عظيم على أمثال هؤلاء.

ونرجو الله تعالى أن يقمع الملحدين وأن ينصر دينه وكتابه وعباده المؤمنين، إنّه جواد كريم.

هذا ما لزم تعريفك، منا السلام على جميع من تتصل به من المشايخ والإخوان والأصحاب.

كما منا الوالد والولد محمد والإخوان والشيخ (١) وجميع المحبين والسلام» (٢).

(١) يعني الشيخ عبدالرحمن بن عودان قاضي عنيزة ـ رحمه الله ـ.

(٢) عن: «الأجوبة النافعة..» (ص١٥١-١٥٨)، و: «تنزيه الدين وحملته...» طبعة دار ابن الجوزي، بتحقيق الأخ الكريم عبدالرحمن الرحمة ـ وفقه الله ـ، والهوامش منهما. وقد ذكر الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في «الأجوبة النافعة» (ص١٦٥): «أن الشيخ عبدالعزيز بن باز اشتغل في رد كتاب القصيمي، ينقل فيه كلامه، وأنه منعه من تكميله كثرةُ أشغاله».

مكتبة ابن سعدي (١٨)

تنزيه الدين وحملته ورجاله

مما افتراه القصيمي في أغلاله

تأليف

الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

رحمه الله تعالى (١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ)

وبذيله مجموع للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله مشتمل على:

١ - جواب مجمل مطول عما احتواه كتاب "الأغلال" من الضلال.

٢ - جواب مختصر عن حقيقة كتاب "هذي هي الأغلال".

٣ - نبذة مفيدة في التحذير من كتاب "هذي هي الأغلال".

٤ - رسالة الشيخ عبد الرحمن السعدي إلى تلميذه الشيخ عبد الله بن عقيل في التحذير من كتاب الأغلال.

٥ - مقدمة كتاب "مظاهر الضلال في الأغلال" للشيخ محمد تقي الدين الهلالي بخط العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

٦ - كشاف المسائل الخبيثة والمباحث الخطيرة في كتاب الأغلال "نقد كتاب الأغلال".

تقديم سماحة الشيخ

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

تحقيق وتعليق الفقير إلى عفو ربه القدير

عبد الرحمن بن يوسف الرحمة

- ختم الله له بخير -

دار ابن الجوزي

صورة غلاف كتاب «تنزيه الدين وحملته ورجاله ...»

الرد السابع:

مُظهر الضَّلال في كتاب الأغلال

للشيخ

تقي الدين الهلالي

- رحمه الله -

ترجمة الشيخ تقي الدين الهلالي [١]

هو محمد تقي الدين بن عبدالقادر الهلالي أبوشكيب: علامة داعية من أهل المغرب، له شعر، ولد في قرية الفرخ من بادية سجلماسة بالمغرب، وقد هاجر إليها أجداده من القيروان في تونس، قرأ على والده وحفظ القرآن الكريم، ثم رحل إلى الجزائر للتكسب، وكان عمره اثنتي عشرة سنة، فتعلم في مدرسة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي سبع سنين، وعاد بعدئذٍ إلى المغرب فحضر على علماء فاس، كما حصل على شهادة جامع القرويين.

ثم إنه قصد القاهرة فالتقى بالشيخ رشيد رضا وأمثاله من العلماء السلفيين، وحضر دروس القسم العالي بالأزهر، توجه بعد ذلك إلى الحج فالهند، حيث اجتمع بعلماء الحديث، فأخذ عن الشيخ عبدالرحمن المباركفوري عالم عصره في بلاده، وغادر إلى الزبير في العراق فالتقى بالشيخ محمد الأمين الشنقيطي وتزوج ابنته.

وقصد الملك عبدالعزيز آل سعود يحمل توصية من الشيخ رشيد رضا، فنزل في ضيافته أشهراً، وعين مراقباً للتدريس في المسجد النبوي سنتين نقل بعدهما إلى المسجد الحرام والمعهد السعودي بمكة المكرمة.

---

(١) عن «إتمام الأعلام» لنزار إباضة، ورياض المالح، وللمزيد عن ترجمته تنظر مقدمة تفسيره «سبيل الرشاد» بتحقيق الشيخ مشهور سلمان ـ وفقه الله ـ.

ولما جاءته رسائل من الهند تطلبه للتدريس قصد ندوة العلماء في لكنو، حيث صار رئيس أساتذة الأدب العربي فيها، ومكث هناك ثلاث سنوات تعلم خلالها الإنكليزية، وأصدر مجلة «الضياء» باقتراح الشيخ سليمان الندوي ومساعدة تلميذه مسعود عالم الندوي.

عاد بعد ذلك إلى الزبير فكان أستاذاً بمدرسة النجاة الأهلية التي أسسها والد زوجته، وسافر بعد سنوات ثلاث إلى ألمانيا محاضراً وطالباً في جامعة بون في الوقت نفسه، ثم انتقل إلى جامعة برلين طالباً ومحاضراً كذلك ومشرفاً على الإذاعة العربية، وحصل على الدكتوراه.

سافر خلال الحرب العالمية الثانية إلى المغرب بتكليف من الحاج أمين الحسيني في مهمة سياسية، فأقام في تطوان خمس سنوات، وأصدر مجلة «لسان الدين» بالتعاون مع الشيخ عبدالله كنون، وأخذ يراسل جماعة الإخوان المسلمين في مصر، فقبض عليه الإسبان وسجنوه، سافر بعدئذٍ إلى العراق فقام بالتدريس في كلية الملكة عالية ببغداد حتى حدثت ثورة ١٩٥٨ فغادره إلى المغرب أستاذاً في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، وتلقى دعوة من الشيخ عبدالعزيز بن باز رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للتدريس، فلبى الدعوة وعمل هناك سنوات حتى عام ١٩٧٤ حين غادرها إلى المغرب متفرغاً للدعوة.

من مؤلفاته:

له مؤلفات كثيرة منها: الزند الواري والبدر الساري في شرح صحيح البخاري، المجلد الأول، الإلهام والإنعام في سورة الأنعام، الإسفار عن الحق في مسألة السفور والحجاب، القاضي العدل في حكم البناء على القبور، الأنوار المتبعة في تحقيق سنة الجمعة، قبسة من أنوار الوحي، الصبح السافر في حكم صلاة المسافر، العلم المأثور والعلم المشهور واللواء المنشور في بدع القبور، آل البيت: ما لهم وما عليهم، أحكام الخلع في الإسلام، حاشية على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل، حاشية على كشف الشبهات لمحمد بن عبدالوهاب، أهل الحديث، الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق، دليل الحاج إلى مناسك الحج، العقود الدرية في منع تحديد الذرية، دواء الشاكين وقامع المشككين في الرد على الملحدين، البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية وبريء من الألوهية، فكاك الأسير العاني المكبول بالكبل التيجاني، سب القاديانيين للإسلام والرد عليهم، الرجعية والتقدم، تقويم اللسانين، رحلة من الزبير إلى جنيف، رحلة إلى درعة بالمغرب، من يرافقني إلى برلين؟، الهاديات، حواشٍ شتى على إنجيل متى، الصديقات الثلاث، قصة، تاريخ اللغة السامية، رحلة إلى ألمانية، الطبقات عند العرب، تمثيليات طيف الخيال

لمحمد بن دانيال، الجماهر في الجواهر، رسالة الدكتوراه، مدنية العرب في الأندلس، مترجم عن الإنكليزية، كتاب البلدان لمحمد بن الفقيه البغدادي، مترجم إلى الألمانية بالاشتراك، فضل الكبير المتعال: ديوان شعر محمد تقي الدين الهلالي، وكتب في مجلتي الفتح لمحب الدين الخطيب والمنار لمحمد رشيد رضا، توفي بالدار البيضاء، عام ١٤٠٧هـ».

قال الشيخ الهلالي ـ رحمه الله ـ في مقدمة كتابه:

«الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، وهادي الأمة وكاشف الغمة، خاتم النبيين وإمام المصلحين، من بعث بدعوته الأموات، وجمع الأشتات، وعلى آله وأصحابه المتصفة بأحسن الصفات.

أما بعد: فهذا مُظهر الضلال في كتاب الأغلال، نسأل الله أن يوفقنا فيه لإصابة الصواب، ورفع الريبة عن كل مرتاب.

المقام الأول: قوله: «سيقول مؤرخو الفكر أنه بهذا الكتاب، قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل»، كان العرب قبل الإسلام متصفين بصفات من أقبح ما وصلت إليه أمة منحطة؛ منها: الجهل؛ ولذلك سمي زمانهم زمان الجاهلية، ومنها: تفرق الكلمة، ومنها: الذلة بالنسبة إلى الأمم الأخرى، ومنها: الفقر المدقع، ومنها: الجفاء وغلظ الطبع، ومنها: مساوئ الأخلاق؛ كوأد البنات، وعدم توريث النساء والصبيان، بل كانوا يورثون النساء في بعض الأحوال، وأكل مال اليتيم، وقتل النفوس، وشن الغارات، والنهب والسلب، واسترقاق بعضهم بعضاً، والتفاخر بالأنساب لا بالأعمال، واستلحاق أولاد الزنا، إلى غير ذلك مما هو معروف.

فجاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من تمسك به نجا، ومن زاغ عنه هلك، فأحيا الله به العرب بعد الموت، وجمعهم بعد الشتات، وأغناهم من الفقر، وأعزهم بعد الذلة، وجعلهم سادة لمن كانوا لهم عبيداً ـ أي الفرس والروم ـ وأبدلهم من القسوة رحمة، ومن الخشونة والجفاء لطفاً وليناً؛ وبالجملة جعلهم سعداء بعد أن كانوا أشقياء.

وقد أخبر الله في هذا الكتاب وفي بيانه ـ وهو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ـ أن العرب وسائر المسلمين لن يزالوا الأعلين ما تمسكوا بهذا الكتاب، واهتدوا بهدي النبي الكريم، ومتى تركوه وابتغوا الهدى في غيره أضلهم الله وخيّب سعيهم، وردهم إلى ما كانوا فيه من الشقاء؛ وهذا ما وقع، وهذا الرجل يقول: إن الأمة العربية بكتابه هذا تبدأ تبصر طريق العقل، كأنَّ كتاب الله وبيان رسوله الذي حييت به الأمة، وسعدت باتباعه، ثم ماتت وشقيت بتركه، والتاريخ أصدق شاهد، لا يكفي لبعث العرب وإبصارهم طريق العقل والرشد، وكل ما ألّفه علماء الإسلام في زمان مجدهم، لا يكفي لإبصارهم طريق العقل، حتى يأتي هذا الكتيب فيفتح أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، ﴿ سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور: ١٦]، ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النور: ١٧].

والمهم أن هذه أمنيته، وخيال تخيله المصنف، وفرح به واستهواه وأغواه، وأخذ يتكهن بمستقبل كتابه، ويهيم في أودية الأحلام.

.... إن الأماني والأحلام تضليل

المقام الثاني: قوله في صفحة٣: «إن ما في هذا الكتاب، هو من الحقائق الأزلية الأبدية، التي تفقدها أمة فتهوي، لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض، لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة؛ ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة مليون مسلم يستغني عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية».

الحقائق الأزلية ليست إلا صفات الله تعالى، لأن كل ما سواه حادثٌ، إلا إذا كان المؤلف يقول بقدم العالم فتلك مسألة أخرى، والمسلمون يخالفونه في ذلك؛ وأما كون هذا الكتاب لا يستغني عنه مسلم يرد أن يحيا حياة صحيحة طبيعية، فهذه دعوى وأماني.

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

يا لله العجب، لقد ألّف الحكماء من المسلمين وغير المسلمين كتباً كثيرة، متواضعين لله تعالى، متبرئين من الدعوى، فرفعهم الله تعالى، ونفع الناس بعلمهم، ولا نعلم أحداً منهم ادعى لكتابه مثل ما ادعى هذا الرجل، كأنه نبي أوحي إليه.

والــدعاوى مــا لم يقيمــوا عليهــا بينـــاتٍ أبناؤهـــا أدعيـــاء

فصل

لا نريد أن نناقش المؤلف في الألفاظ؛ لأن خطأه فيها غير مهم، لا يستحق تضييع الوقت في تتبعه والرد عليه، ولكننا رأيناه يستعمل لفظ الرومان في جمع رومي، وهو خطأ؛ إن اغتفرناه لعامة الكتاب الذين يتعلمون الإنشاء، في الصحف والمجلات، فلا نغتفره لكاتب تعلم في المساجد وقرأ القرآن وفيه: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:١-٢]، وبهذا اللفظ سميت السورة نفسها؛ وهو الموجود في الأحاديث، وكتب التاريخ والأدب العربي، ولم يُستعمل لفظ الرومان إلا في هذا الوقت، الذي ضربت فيه الفوضى أطنابها في الإنشاء؛ فضاع بذلك أسلوب اللغة العربية، ووقع الفساد في مفرداتها وتراكيبها، بسبب ما ترجم من اللغات المتغلب أهلها، على يد تراجمة جاهلين، فأخذ الناس يحاكونهم ويقتدون بهم، حتى صار الفقيه يترك الألفاظ الصحيحة، التي يعرفها من القرآن وكلام العرب، ويستعمل الألفاظ الفاسدة، ظناً منه أن ذلك يرفعه إلى درجة الفلاسفة ويجعله عصرياً.

وهذه الألف والنون، التي في لفظ الرومان، هي في بعض اللغات الأوروبية، بمنزلة ياء النسبة في اللغة العربية، فالرومان في اللغة الإنكليزية

مثلاً: صفة، كالرومي بالعربية؛ في قولك: العصر الرومي، وتكون اسماً بمنزلة الرجل الرومي أو الرجال الروميين، ويظهر لنا أن المؤلف في هذا الكتاب لا يصيغ قلمه فكرة، بل ينتهب المعاني والألفاظ من كلام كتاب آخرين، يسمون أنفسهم عصريين وأحرار الفكر ليكون مثلهم، وقد خُيل إليه أنه بهذا يصير فيلسوفاً عظيماً.

وقد استعمل أيضاً الإنتاج وإنما هو النتاج، كما في قوله في صفحة٧: «ولقد صار معلوماً أن عظمة الشعوب، ليست في الاستقلال السياسي... إلى أن قال: ولكن عظمة الشعوب الحقيقة، التي تطأطئ لها الدنيا أمامها إجلالاً ورهبة، تتجلى في شيء واحد لا ثاني له، هذا الشيء الواحد هو قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلي والمادي من ناحية الأفراد، فالشعب الذي يتفوق أفراده في هذا الإنتاج، هو الشعب الذي له التفوق المطلق، وله السيادة المطلقة، وهو الشعب الذي تخفض له الدنيا رأسها، والفرق بيننا وبين شعوب أوروبا وأمريكا لا يعدو الفرق بين أفرادنا وأفرادهم في هذا الإنتاج، فإنه لما وفر إنتاج أفرادهم العقلي والمادي، وضعف إنتاج أفرادنا، أو أضحى مفقوداً، أضحوا أقوى منا في كل شيء، فسادوا وتأخرنا ... الخ».

ذكر المؤلف في هذا الكلام سبعة أسباب للعظمة والسيادة المطلقة، فنفى منها ستة، وحصر الأمر في سابعها، وهو ما سماه قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج

العقلي والمادي من ناحية الأفراد، ولا نريد أن نناقشه في نسبة ذلك إلى الأفراد دون الجماعة مع ما فيه، ولكننا نقول: من أين عرفت هذا، وما دليلك عليه؟

والحق أن رقي الأمة وسيادتها متوقف على أمور كثيرة، لا يغني أحدها عن غيره، فالأمة القليلة العدد مثلاً، لا تحصل بها السيادة المطلقة، ولا تستطيع أن تحافظ على استقلالها، وإن بلغت الذروة العليا في النتاج من حيث الأفراد ومن حيث الجماعات، وقد رأينا ما وقع لفلندة ولم تُغلب هذه الدولة التي بلغت أوج الرقي في كل شيء إلا بسبب قلة عددها، والدولة التي غلبتها لا تساويها في الرقي، وإنما غلبتها في كثرة العدد، فظهر أن كثرة العدد جزء من سبب السيادة، ولا ندعي أنها هي السبب كله، وكذلك ثروة البلاد الطبعية لا الطبيعية هي من أسباب عظمتها، فإن الأمة إذا كانت بلادها فقيرة، لا تملك المواد الأولية الضرورية، تكون دائماً تحت رحمة الأمم التي تمدها بذلك؛ وكذلك الوطنية والحماسة فإنها سبب لا بد»[1].

---

(١) انتهى ما وُجد من كتاب الشيخ الهلالي ـ رحمه الله ـ، ويظهر أنه لم يُتمه؛ إنما كتب مقدمته. وقد نُشرت ضمن رد الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ على القصيمي، في طبعة عام ١٤٢٧هـ، بتحقيق الأخ الكريم عبدالرحمن بن يوسف الرحمة. وقد نبه إلى هذا.

الرد الثامن:

رد الشيخ

زيد بن فيَّاض

- رحمه الله -

ترجمة الشيخ زيد بن عبدالعزيز بن فياض [(١)]

هو الشيخ زيد بن عبدالعزيز بن زيد بن عبدالعزيز بن عبدالوهاب بن محمد بن ناصر بن فياض بن فارس بن أحمد بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب، ونسبته (ابن فياض) إلى جده السادس.

وُلد في روضة سدير عام ١٣٥٠هـ، وبعد سن التمييز دخل كُتَّابها وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ودرس القرآن على يد خاله الشيخ عبدالله فوزان القديري، فحفظه وهو ابن عشر سنين، ثم أعاد تسمعيه وهو ابن اثنتي عشرة سنة.

ثم سافر إلى الرياض في عام ١٣٦٢هـ، وأخذ العلم عن عدد كبير من علمائها، ومنهم الشيخ محمد بن إبراهيم رئيس القضاة، والشيخ عبداللطيف بن إبراهيم، والشيخ إبراهيم بن سليمان، والشيخ سعود بن رشود.

هذه الدراسة كانت سنة ١٣٧١هـ، قبل فتح المعهد العلمي، ولما فُتح المعهد التحق به، فنجح بدراسته، وكان ترتيبه الأول، ثم التحق بكلية

---

(١) عن «علماء نجد خلال ثمانية قرون»، (٢/ ٢٠٣-٢٠٨) للشيخ عبدالله البسام ـ رحمه الله ـ. وللمزيد تنظر مقدمة كتابه «الروضة الندية ...» (ط٤).

الشريعة، فتخرج منها عام ١٣٧٦هـ بتفوق.

ومشايخه في المعهد وكلية الشريعة هم:

الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، الشيخ عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد رئيس محكمة التمييز، الأستاذ حمد الجاسر، الشيخ عبدالرزاق عفيفي، الأستاذ عبداللطيف سرحان مبعوث الأزهر، الأستاذ يوسف الضبع، الشيخ يوسف عمر.

وكل هؤلاء العلماء من سعوديين ومصريين من كبار العلماء وأعيانهم.

وصادف ذلك من المترجَم جد واجتهاد في الطلب، ومحافظة على الوقت، فأدرك إدراكاً جيداً في كل العلوم الشرعية والعربية والاجتماعية التي درسها.

من مؤلفاته:

وللمترجم نشاط طيب في التأليف والبحث العلمي، حتى بلغت مؤلفاته ٩٠ كتاباً، فكان من مؤلفاته:

الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، وهو من أحسن شروحها، وقد طبع وحصلت الفائدة الكبيرة منه، نظرات في الشريعة، طبع عام ١٣٨١هـ واجب المسلمين في نشر الإسلام، طبع عام ١٣٨٥هـ من كل صوب، يحوي

مقالات وبحوث قيمة، الوحدة الإسلامية، وفيه بيان أهمية التضامن الإسلامي، وفيه تفنيد للشعارات الباطلة من الوحدة العربية والوحدة الوطنية وغير ذلك مما لا يربط بعضه ببعض برباط وثيق كريم، قضية فلسطين، وفيه ربط للإسلام نحو هذه القضية، وغيرها من الكتب النافعة[1].

أعماله:

كان عضواً في دار الإفتاء عام ١٣٧٦هـ، ثم انتقل إلى التدريس في المعهد العلمي بالرياض عام ١٣٧٩هـ، ثم إلى التدريس في كلية الشريعة بالرياض عام ١٣٨١هـ، ثم عُيِّن عضواً في رئاسة القضاة مع بقائه في التدريس، ثم أصبح رئيس تحرير صحيفة اليمامة، ثم استقال من رئاسة القضاء، وتفرغ للعمل في مؤسسة اليمامة.

وفي عام ١٣٨٥هـ أعيدت خدماته؛ حيث عُين مساعداً لمدير عام إدارات المكتبات، وقام بالتدريس في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد ابن سعود.

له تلاميذ كثيرون، وخاصة حيث درس في الجامعة، ومن أبرز تلاميذه:

الدكتور عبدالله التركي، الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ، الدكتور محمد

(١)وقد قام أبناء الشيخ مؤخراً بطباعة جميع آثاره ـ رحمه الله ـ.

العجلان ... وغيرهم كثير.

وكان المترجَم محباً للأدب، ويقرض الشعر، ويكتب القصة، وله قصائد عدة، وما زال في هذا الدأب المفيد حتى وافاه أجله في ٢١/ ١١/ ١٤١٦هـ، بعد أن ظل يعاني من شلل نصفي قرابة ثلاث سنوات، وقد صُلِّي عليه في جامع الراجحي بجمع كبير من المواطنين، يتقدمهم العلماء وطلابه ـ رحمه الله تعالى ـ، وخلف أربعة ذكور وسبع بنات، وهم على خير تربية، بارك الله فيهم».

دراسة عن القصيمي

«هذا هو اسم الكتاب الذي أصدره الدكتور صلاح الدين المنجد في ٦٣ صفحة من منشورات دار الكتاب الجديد طبع على مطابع الأمان ببيروت في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٧ (١٣٨٧هـ)، وقد حلل الدكتور المنجد في هذا الكتاب آراء القصيمي وفندها، ونقل عبارات من كلامه توضح اتجاهاته الإلحادية، وهزءه بالأنبياء والديانات، وإنكاره لوجود الله، وقدحه في علماء الإسلام، وسخريته بالتراث الإسلامي ...

كان القصيمي قد مر بمرحلتين: إحداهما: قبل كتابه «هذي هي الأغلال» الذي أصدره في عام ١٩٤٦، والثانية: ما بعد هذا الكتاب. وقد كان قبل إخراج كتابه الأغلال أصدر كتباً في الدفاع عن الإسلام والرد على الوثنيين والخرافيين والقادحين في الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فله كتاب «شيوخ الأزهر»، و «الزيادة في الإسلام»، و «مشكلات الأحاديث النبوية»، و «نقد كتاب حياة محمد»، و «الصراع بين الإسلام والوثنية»، و «البروق النجدية»، وإن كان الغرور والتعاظم يبدوان من فلتات لسانه أحياناً، غير أنه في تلك المرحلة يعتبر مدافعاً عن الإسلام مبيناً لمحاسنه راداً على أهل البدع والتشكيك.

ولما أصدر كتابه الأغلال استبان منه أنه انتقل من طور إلى طور، ومن حالة إلى نقيضها، فحبذ الإلحاد وهزأ بالدين، وتنقص المتدينين، وزعم أن الطبيعة هي خالقة الكون ومدبرته، فهب علماء الإسلام ينكرون قوله، ويردون باطله، ونشروا المقالات والقصائد، وألفوا الكتب في بيان ما يحتويه كتابه من سموم وكفريات.

فألَّف علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي ـ رحمه الله ـ كتاباً سماه: «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»، ورد الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة عليه بكتاب لطيف، وألَّف الشيخ عبدالله بن يابس كتاباً أسماه: «الرد القويم على ملحد القصيم»، وقام الشيخ إبراهيم بن عبدالعزيز السويح قاضي المقاطعة الشمالية بالمملكة حينذاك بتأليف كتاب ضخم بعنوان: «بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال»، يقع في مجلدين، كما كتب الشيخ سيد قطب مقالاً نشر في مجلة الهدي النبوي، ومجلة السوادي، يبين ما ينطوي عليه الأغلال من ضلال وإلحاد، ونشرت قصائد لبعض المشايخ وطلبة العلم في الموضوع.

لقد أسف علماء الإسلام لهذه النكسة من القصيمي، وهذا الزيغ والارتياب الذي ملأ به كتابه، وما أحسن ما قال الشيخ إبراهيم السويح ـ غفر الله له ـ في مقدمة كتابه «بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب

الأغلال» المطبوع سنة ١٣٦٨ بالمطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة (ج١، ص٤-٥): «لسنا بحاجة إلى الاستدلال على فساد تصور هذا الرجل وكثرة تقلب آرائه، فإن مضادة كتابه هذا لكتبه السابقة في كل شيء أمر لا يخفى على كل من تدبر ذلك، وقد أشار في كتابه هذا إلى أنه قضى عصراً من حياته وهو معتقد خلاف هذه الآراء التي نشرها في هذا الكتاب، ولا شك أن اضطراب الرأي وتناقض الاعتقاد في الأصول الضرورية الثابتة القطعية من أظهر الدلائل على فساد التصور، ولا سيما مع دعواه في كل من هذه الكتب المتضادة؛ بأن ما اعتقده وقرره فيها بني على براهين ثابتة صحيحة! ومعلوم أن البراهين الثابتة لا تتناقض، وهذا بخلاف الآراء الجريئة التي تبنى على الظنون والقرائن وأمثال ذلك».

ويقول الأستاذ محمد أحمد الغمراوي في تقديم كتاب «الشواهد والنصوص من كتاب «الأغلال» على ما فيه من زيغ وكفر وضلال»، بالعقل والنقل للشيخ محمد عبدالرزاق حمزة المطبوع سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، بمطبعة الإسلام بمصر: «قرأت رسالة الشيخ السعدي، ثم قرأت كتاب الشيخ حمزة فإذا بي أمام أمور منسوبة إلى صاحب الأغلال،ونصوص شنيعة منقولة عن كتابه لم يذهب بي الخيال يوماً إلى أن مثلها يمكن أن يصدر عن مسلم كان له يوماً في الإسلام قدم، بل كان له في سبيل الإسلام عند أهل

بلده جهاد، ولم أجد بداً حين قرأت الكتابين من أن أقرأ كتاب «الأغلال» من أوله إلى آخره لأعرف حقيقته من غير وساطة إن كنت كاتباً مقدمة الرد عليه، فإذا الأمر أفظع حتى مما يبدو من خلال الكتابين».

ناقش هؤلاء العلماء الأفاضل كتاب القصيمي وأبانوا ما احتواه من أخطاء وجنوح عن الحق وسير ركاب الملحدين، وترقب الناس أن يثوب القصيمي إلى رشده، بيد أنه سار في خطته إلى أبعد الحدود .. وأصدر كتابه «العالم ليس عقلاً» في عام ١٩٦٣م، وبعد عامين أصدر كتابين هما: «كبرياء التاريخ في مأزق»، و «هذا الكون ما ضميره»، وهما من نفس النمط.

ولقد أحسن الدكتور المنجد بنشر هذه الدراسة التي هي على إيجازها تعطي فكرة واضحة عن أهداف القصيمي وغاياته، وتدحض مزاعم من ينتحل لها التأويل، ويتعسف في المعاذير، ويدعي أن الذين ردوا عليه قد تعجلوا ولم يدركوا ما يعنيه، فقد أتى الدكتور المنجد بعبارات للقصيمي صريحة في الإلحاد والتشكيك، وتأليه الطبيعة، وجحود البعث والجزاء، وإنكار الخالق جل وعلا. وهل يبقى بعد هذا مجال لمتأول أو متنطع؟!

وآراء القصيمي هي آراء الدهريين والشيوعيين والباطنية وأضرابهم

ممن يزعم أن لا بعث ولا نشور، وأن الله لا وجود له، ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

لقد حسب القصيمي أن إنكار وجود الله والسخرية بالأنبياء والتطاول على الأديان حرية وتقدم، وأن الكفر والإلحاد والفوضى عنوان النبوغ، ودليل العبقرية، وهكذا يقلب الحقائق ويُلبس الباطل ثوب الجمال، ويحاول تشويه الحق وإظهاره في صورة مزرية تنفيراً وعناداً، ونسي ما قاله في كتبه وردوده على الفرقة الضالة الذين يلقبون أهل الحق بألقاب منكرة؛ فيسمونهم حشوية ونابتة، بل إن المشركين ـ إمعاناً منهم في صد الناس عن الحق ـ كانوا يقولون عن الرسول صلى الله عليه وسلم إنه شاعر، وكاهن، وساحر، ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]، ومع هذه الألقاب والمؤتفكات فلم يغير ذلك من الحقيقة شيئاً، وبقي الحق جلياً لا غبار عليه، وظل الدين ثابتاً راسخاً تتحطم دونه افتراءات المفترين وأباطيل المكذبين، وما فتئ أتباعه يعدون بمئات الملايين، وهم يتكاثرون ويقبلون على الدخول فيه أفواجاً، بينما يهرب المضللون والمخدوعون بالشيوعية والماسونية والوجودية وأشباهها من النحل الهدامة والطرائق المعوجة، ويودون الفكاك من وحشيتها وأغلالها، وما أنباء الهروب من الاتحاد السوفيتي بشكل مستمر

ومتلاحق إلا مَثَل لما تجلبه الشيوعية ونظائرها من دمار وخراب.

وماذا يجد الملحدون والمشككون سوى الحسرة المحرقة والقلق النفسي والتوتر العصبي والعيش في فراغ قاتل وظلمة حالكة؛ لأنهم تاهوا في دياجير الكفر والإلحاد، وضلوا عن النور واليقين، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨].

نعم فالمتدين يجد الراحة النفسية وهدوء البال واطمئنان القلب، أما من خلا قلبه من الإيمان بالله فإنه يتخبط على غير هدى، ويسير على غير بصيرة، تائهاً حائراً لا يدري أين الصواب، ولا كيف الهداية، وهو في صراع نفسي عنيف؛ لأنه يعاكس الفطرة التي فطر الناس عليها، ويقاوم داعي الإيمان وما يستلزمه العقل وتقتضيه الحكمة، وبئس ما يصنعون.

تحدث الدكتور المنجد عن تشعب الآراء في القصيمي، ثم قال: «وبين هذه الطوائف الثلاث إجماع واحد، هو أن القصيمي ملحد يفاخر بإلحاده ويعلنه، وإن كان الفريق الثالث يسمي إلحاده فكراً حراً»، وأورد شيئاً عن تاريخ نشأته ونسبه، وأنه كان يلقب بالصعيدي، وأنه تسمى بعد ذلك بالقصيمي؛ لأنه وُلد بالقصيم، وتحدث عند دراسته وطرده من الأزهر على إثر تأليفه كتاب «البروق النجدية في الرد على شيخه يوسف الدجوي»، وفي

سنة ١٣٥٦ أصدر كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية» في ثلاثة أجزاء، بلغت صفحاتها ألفين وخمسمائة صفحة، ونال هذا الكتاب إعجاب الكثيرين، وأثنى عليه علماء نجد.

يقول الدكتور المنجد: «وروى لي القصيمي أن أهل نجد وهم المتمسكون بالدين الصحيح والتوحيد، فرحوا بهذا الكتاب أعظم الفرح حتى إنهم قالوا للملك عبدالعزيز: لقد دفع القصيمي مهر الجنة بكتابه هذا، ويبدي الدكتور المنجد شكوكه في هذه الرواية، ومعه الحق في ذلك، فإن أهل نجد لا يشهدون بالجنة لمعين، إلا لمن شهد له الرسول ﷺ؛ كالعشرة المبشرين بالجنة، ولكن مما لا امتراء فيه أن علماء نجد قد أُعجبوا بالكتاب وفرحوا به.

ويتحدث الدكتور المنجد عن زهو القصيمي وتباهيه بهذا الكتاب الذي أتبعه بكتاب آخر هو: «كيف ذل المسلمون»، وأنه أمّل أن ينال منصباً وجاهاً ومالاً، فلما خاب أمله استاء من ذلك، وثارت النقمة في نفسه، فانقلب إلى شخص ساخط على المجتمع الذي لم يقدر عبقريته المزعومة، ونبوغه الخارق، فتحول إلى النقيض لعله يجد ما يروم، وينال ما حرم منه، فكان ثمار هذا السخط، وتلك النقمة: كتابه «هذي هي الأغلال»، الذي خرج في عام ١٩٤٦م، فصاح به علماء الإسلام، ورأوا فيه نكوصاً عن الحق، واتباعاً لسبيل الضلالة، وفي عام ١٩٦٣م، أصدر كتابه «العالم ليس عقلاً»، ثم تمادى

في هذا السبيل، وأوغل، فصدر له كتابان آخران على هذا النحو.

ويرى الدكتور المنجد أن ما نفثه القصيمي في كتبه الأخيرة هو نتيجة «لعقد نفسية متراكمة منذ صغره، وحرمان مما كان يؤمله ويريده»، ثم يذكر ـ المنجد ـ مقارنه بين آراء القصيمي وآراء الشيوعيين، ويبين أنه يسير في نفس الخط الذي يسير عليه ماركس ولينين وأمثالهما من الملاحدة، وأن التشابه واضح، واقتفاء أثرهما جلي، فكلٌّ منهم يُنكر وجود الله ويؤله الطبيعة، ويدعو إلى التحطيم والهدم، ويجحد البعث والنشور، ويناهض الأديان، وسنورد عينة من آرائه على قاعدة «ناقل الكفر لا يكفر»، فإذا كان ماركس يقول: «إنه لا إله في الكون، وأن المهم هو تغيير الأشياء في الكون، وأن من أعمال البروليتاريا (الطبقة العاملة) القضاء على الدين والداعين إليه، وهدم العقائد الدينية وتغييرها، ونشر الإلحاد وتبنيه، وعدم الاهتمام بالأخلاق والمثل الروحية، فإن القصيمي يحذو حذوه في إلحاده واقتباس آرائه، ويضمنها كتابه «هذا الكون ما ضميره»، وهو من نوع «هذي هي الأغلال»، و«العالم ليس عقلاً»، و«كبرياء التاريخ في مأزق».

فيقول في ص٣٠١:«إن الآلهة والعقائد والمذاهب تصاب بالخمول والفساد والتعفن، ويتراكم عليها التراب والحشرات إذا تقادمت دون تغيير

أو تحريك أو تنظيف..»، و يقول: «إنه لمحال أن يتغير العبيد دون أن يتغير الإله الآمر. هل يمكن أن يتغير البشر دون أن يتغير الإله، إن المفروض أن يكون الإله هو أكثر الأشياء تغيراً؛ لأنه أحوج الأشياء على التغيير..»، ويقول في ص١٤٤: «إن كل شيء يبدأ من الطبيعة، وتمنحه الطبيعة كل شيء إذن الطبيعة هي كل شيء..».

ويقول في ص١٤٥: «إن الأشياء هي التي تصنع نفسها وتغيرها»، ويقول في ص٥٨: «إن الكون هو أقوى لغات الرفض للإله»، ويقول في ص٩٦: «جميع تقديراتنا وأعمالنا الذهنية والمادية ونشاطاتنا، كلها قائمة على افتراض أن الكون آلي لا تتدخل فيه أي مشيئة، ولا أي قدرة مطلقة، ولا أي إله طيب يرضى ويغضب ويحاسب ويعاقب ويقول للشيء كن فيكون».

ويوغل القصيمي في كفرياته وتطاوله على الله ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾ [عبس:١٧ – ٢٢]، فيقول ص٩٤: «كيف يكون الأفضل للبشر أن يكون فوقهم طاغية لا حد لقدرته ولغيرته ولغضبه ولحبه ولبحثه عن المجد الذاتي»، وفي ص٩٩ يكرر هذا البذاء بشكل فاضح فيقول ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ: «إننا في حالة آلية الكون نكون فيه سادة نحكمه، ونوجهه كما نشاء بقدر ما نستطيع، أما في حالة روحانيته وعبوديته فإننا نكون فيه عبيداً مقهورين بقوة غيبية، مثله لا نستطيع أن ننتصر عليها، ولا أن نتفاهم معها، أو نعرف متى نفعل أو تكف عن

الفعل، متى توقف النهر وإلى متى تتركه جارياً».

ويستمرئ القصيمي هذا الهذيان الذي يحسبه عبقرية فيقول في ص٣٣: «إذن لقد استطاعت الآلهة والأديان أن تعيش طويلاً، ويرفض تغييرها أو موتها أو إنكارها ونقدها، وظل التعصب لها قوياً وغير عاقل، أو متوفر؛ لأنها كانت غير موجودة في حياة الناس المؤمنين بها أو غير ملزمة، لقد كانت الأديان والآلهة دعاوى وخطباً وسباباً بذيئاً فقط، ولم تكن موجودة كحياة أو سلوك أو فضائل نفسية..».

هكذا يجهر القصيمي بإنكار وجود الله، ويدعي أن هذا تحرر عقلي وفكر تقدمي، ويذهب به الغرور والهراء إلى أن يزعم أن العرب لم يكونوا عاجزين عن معارضة القرآن، والإتيان بمثله، وأن الخوف هو الذي دفعهم لذلك، وهو بهذا الإفك المبين يتنكر للحقائق الثابتة علمياً وتاريخياً، ويوضح بجلاء أنه لا يخجل من أكاذيبه التي يعرف العالم أجمع كذبها وبطلانها.

فقد حارب مشركو العرب الرسول ﷺ، وهجوه بالشعر، وافتروا عليه، وزعموه ساحراً كذاباً، وتعنتوا في مطالبهم، وحاولوا قتله، وجرحوه وكسروا ثنيته، وشجوا رأسه، وقذفوه بالحجارة، وأرادوا اغتياله وخنقه، وآذوه أشد الإيذاء، فمن يعمل هذا وغيره كيف يكون ترك معارضة القرآن

خوفاً؟! والقصيمي الذي يدعي لنفسه العبقرية وأنه النابغة الذي لم يُنْجَب من يدانيه ذكاءً وفهماً وفكراً حراً وبلاغةً، هل يقوى على معارضة القرآن والإتيان بمثله؟.. وليقتد بمسيلمة الكذاب في سخافاته؟ أليس من الهوس والجنون أن يبلغ هذا المبلغ من التفكير السقيم والدعاوى الحمقاء، ثم يجد من يغتر به من ذوي الإلحاد ومن الإمعات.

وفي سبيل تهكمه بالقرآن يزعم في ص٧٠٢: «أن معارضته القرآن، ومحاولة التفوق عليه شيء واجب على المؤمنين (من أمثاله) أن يوجدوه؛ ليحققوا للقرآن رغبة الضجيج والإعلان والتوتر والمخاصمة»، ويدعي أن أبا لهب أولى بالنبوة من الرسول ﷺ!! ذلك أن الصلة بين أبي لهب وبين القصيمي صلة وثيقة؛ لذا دفعته الغيرة على أبي لهب أن يرشحه للنبوة، ويفضله على الأنبياء، ويتمنى أن تقوم الهيئات الدولية بعمليات تشكيك شاملة على مستوى عالمي، تعلم الناس بكل الوسائل أن يشكوا في يقينهم، ودفعته أوهامه وأمراضه النفسية، وتلوث مزاجه أن يعتبر ذلك طريق السلام، وإنهاء الحروب، وهو يهزأ بالإيمان، ويستخف بالمؤمنين، ويرى الإيمان عامل ضعف، «قد يكون السبب أن المؤمنين يكونون غالباً ضعفاء بظروفهم ومواهبهم لهذا آمنوا، لقد آمنوا لأنهم ضعفاء»، وليس القصيمي جاهلاً بأن الدين يدعو للقوة والعزة، ففي الحديث الصحيح: «المؤمن القوي

خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»، ولكنه العناد والجحود والافتراء، وهكذا يتحدث القصيمي في كتابه «هذا الكون ما ضميره».

لقد غطس القصيمي في الوحل، وملأته الشكوك والحيرة، وصارت حاله كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠] اسمعه يقول ص٩٠: «من الهزل الزعم أن الكون أو الإنسان محكوم بمشيئة إله أو بعدله أو برحمته أو بقدرته أو بذكائه»، وها هو يقول ص٦٦٨: «لقد تقيأت الطبيعة أفعالها ووحداتها أي شموسها وكواكبها وأنهارها وبحارها وإنسانها وحشراتها بلا نظام أو منطق»، ويتشاءم ويعيش في بلبلة فكرية يلوث بها صفحات الكتب، وعقول السذج، يقول ص٤٤٥: «تشاؤمي نوع من الاحتجاج ضد الكون وضد الآلهة وضد نفسي، إني أتشاءم؛ لأني لا أستطيع أن أكون إلهاً»، ويلمح المتتبع لكتابات القصيمي في كتبه الإلحادية أنه يريد تبرير خصاله الرديئة، فهو يقول ص١٤٥: «هل سقوط الإنسان شيء رديء؟ لماذا هو رديء؟ وهل يسعد أو تسعد الحياة أكثر لو رفض السقوط؟ ولم يقبل أن يهون».

ويعلق الدكتور المنجد على هذه الفقرة من كلام القصيمي بقوله: «إن القصيمي يدعو إلى الهوان والسقوط، وهل يدعو إلى ذلك عاقل ذو منطق؟ فبورك له بالهوان وبورك له بالسقوط، وليعيش مهاناً ذليلاً ساقطاً، ما دام لا يرى في ذلك شيئاً رديئاً».

ويختم الدكتور المنجد كتابه بالحديث عن الدوافع التي حدت بالقصيمي إلى سلوك هذه المتاهات الكفرية، فيرجعها إلى عوامل نفسية وحقد على المجتمع الذي لم يبوأه المكانة التي يحلم بها، فأراد الثأر من العلماء من جهة، والحصول على شهرة وأتباع، فتولد من هذه النقمة، وتلك الأحلام أن احتذى حذو ماركس وأشباهه؛ لأنه رأى في هدمهم وتخريبهم ما يرضي غروره، فانعكست عنده المفاهيم، ونظر بمنظار أسود، وتراكمت عليه الشكوك والرغبة في الانتقام.

«لقد اتجه بعد أن نفض يده من عمل أي عمل ينفع به نفسه والإنسانية إلى زرع الشكوك، ورمي التهم، يمزق النفوس ويسلبها راحتها، ويهدم الأخلاق والقيم الروحية، وينسب إليها الفساد.

إن آراء القصيمي كلها سلبية لا إيجابية فيها، كلها شر لا خير فيها، يعيدها في كتابه مرات ومرات، بشكل ممل حاد متوتر، كأنه صراخ المعذبين، أو أنات المنكوبين؛ لأن أنانيته الطاغية وسوست له أن يكون إلهاً أو نبياً أو

شيئاً مذكوراً، فالقصيمي يعيد دائماً في أحاديثه وكتبه: لو كنت إلهاً لفعلت هذا ولم أفعل هذا.

إن مثل هذه الآراء التي تبناها القصيمي لا تستند إلى منطق ولا عقل ولا مصلحة.. ولو فرضنا أن أناساً قبلوا آراء القصيمي فألحدوا، وهدموا الأخلاق والمذاهب والعقائد، فهل تنالهم السعادة والهناء والراحة والسلامة، وينجون من كل آفة وشر وألم ودموع وبلاء وموت؟ هل يُرفع عنهم المرض، أو يذهب الموت، أو يُمحى من بينهم القبح، أو تتطهر نفوسهم من الحقد واللؤم، أو يرجع العقل إلى المجانين؟ هل يتساوون في الرغبات والأحلام والخلق والرزق والفهم والعلم؟ إن الشيوعية نفسها التي يستمد القصيمي آراءه منها لم تستطع تحقيق ذلك، رغم مضي نصف قرن على وجودها في روسيا، نعم إن دعوة القصيمي سلبية ضد الحياة وضد الإنسان وضد الكرامة، إنها الطريق إلى المعيشة الضنك، فمن شاء أن يعيش معيشة ضنكا في عذاب وقلق وشقاء فليتبعها.

وإن دعوة القصيمي مهما كانت منابعها نذير شؤم واضمحلال، دعوة هدم وشر، وليست دعوة خير وبناء، وستتلاشى وتموت شأن كل دعوة حاقدة مجرمة لا تستند إلى تعاليم السماء النبيلة الخيرة، التي ما أرادت إلا خير الإنسان وكرامته وسعادته وهناءه الخ...».

وبعد: فقد أحسن الدكتور المنجد بما قدمه في هذا الكتاب من كشف لآراء القصيمي الضالة وما فيها من جنف وإلحاد، وعلى قلة صفحات الكتاب فقد أبان الكثير مما تجدر معرفته من كتب مملوءة بالشك والإلحاد والهدم، وقد أدى المنجد بهذا الكتاب خدمة جلية لأمة العرب والإسلام.

وإذا كان لي ملاحظة على هذا الكتاب فهي ملاحظة بسيطة: فقد ورد في ص١٥ في اسم مشعان بن منصور حيث جاء في الصفحة المذكورة: وأخبرني الشيخ منصور بن مشعان، والصواب: مشعان بن منصور.

وأخيراً: فهذا الكتاب النفيس جدير بالقراءة والتأمل، وجدير بالنشر على نطاق واسع، فجزى الله مؤلفه الدكتور المنجد خيراً، ووفق الجميع إلى النهج الأقوم»(١).

---

(١) نشر المقال في صحيفة الجزيرة العدد ١٩٥ الصادر بتاريخ ٢٤/٣/١٣٨٨هـ، والعدد ١٩٩ في ٢٢/٣/١٣٨٨هـ، وضمّنه الشيخ في كتابه «بحوث ومناقشات»، ص١٢١-١٣١.

الرد التاسع:

ردود مجلة

«الهدي النبوي»

ويليها: قصيدة للشيخ

عبد الظاهر أبي السمح

إمام وخطيب المسجد الحرام

ـ رحمه الله ـ

ترجمة الشيخ محمد عبدالظاهر أبو السمح [(١)]

هو محمد عبدالظاهر بن محمد بن محمد نورالدين الفقيه (أبوالسمح) التليني (نسبة إلى بلدة تلين)، ويرجع تاريخ أسرته إلى أسرة عربية معروفة باسم آل الفقيه وآل جلال.

ولد عام ١٣٠٠هـ، الموافق ١٨٨٢م في بلدة التلين التابعة لمركز منيا القمح ـ مديرية الشرقية بمصر.

نشأ الشيخ أبوالسمح في بيئة صالحة مهتمة بالعلم والدين، فقد اشتهرت عائلته برعايتها شئون تحفيظ القرآن الكريم حقبة من الزمن، وكان والده الشيخ نورالدين الفقيه صاحب كُتَّاب بلدته، فتلقى عليه القرآن فحفظه وجوَّده ولما يكمل التاسعة من عمره.

ألحقه والده بالأزهر فأكب على طلب العلم ينهل من معينه، فقرأ بالروايات السبع، وحفظ متون العلوم الدينية والعربية على مشايخ الأزهر، ثم التحق بمدرسة المعلمين الأولية حتى حصل على شهادة كفاءة المعلمين، التحق بدار الدعوة والإرشاد حين أنشأها السيد رشيد رضا، فكان يتعلم

---

(١) عن «جماعة أنصار السنة: نشأتها، أهدافها» للدكتور أحمد محمد الطاهر (ص ٢٢٢-٢٢٨). وللشيخ ترجمة في «الأعلام» (٤/ ١١).

فيها ويعلم تجويد القرآن والخط، وكان من قبل وهو صغير قد حضر مجلس الشيخ محمد عبده.

اتصل بالشيخ أمين الشنقيطي فلفت نظره إلى دعوة التوحيد، وأنار له سبيل العقيدة السلفية والمنهج القويم، فحبب إليه العكوف على دراسة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية ـ رحمهما الله ـ.

بعد حصوله على شهادة كفاءة المعلمين، عمل مدرساً بمدرسة ابتدائية بالسويس، ثم تولى تدريس تجويد القرآن الكريم والخط في دار الدعوة والإرشاد التي أنشأها السيد رشيد رضا، بعدها انتقل إلى الإسكندرية وعمل معلماً خاصاً لأبناء محمود الدين باشا، وذلك في عام ١٣٣٢هـ الموافق ١٩١٤م، ثم عمل مدرساً بمدرسة الإسكندرية.

طلبه الملك عبدالعزيز آل سعود ليكون إماماً وخطيباً ومدرساً بالمسجد الحرام، لما أعجبه من رخامة صوته وعذوبته في تلاوة القرآن، ثم عمل مديراً لمدرسة دار الحديث بعد تأسيسه لها بمكة المكرمة، وعين هو والشيخ محمد حامد الفقي بأمر ملكي صدر عام ١٣٤٧هـ عضواً مراقباً في هيئة المراقبة والمدرسين في الحرم المكي الشريف.

وفي سنة ١٣٤٨هـ في شهر صفر عين وكيلاً لرئيس هيئة التدريس والمراقبة في الحرم المكي.

مؤلفاته: الحج وفق السنة المحمدية، حياة القلوب بدعاء علام الغيوب، الرسالة المكية في الرد على الرسالة الرملية، الأولياء والكرامات، له نظم، مراجعة كتاب «شرح حديث أبي الدرداء فيمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً» لابن رجب الحنبلي.

توفي الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح في سحر ليلة الاثنين قبيل فجر اليوم العاشر من شهر رجب سنة ١٣٧٠هـ، بعد حياة حافلة بالعلم والجهاد والعطاء، ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

نظرة خاطفة في كتاب «هذي هي الأغلال»[(١)]

«بهذا العنوان أخرج الأستاذ عبدالله القصيمي النجدي كتاباً يقع في ثلاثين وثلاثمائة صفحة، وقسمه إلى اثني عشر فصلاً غير الإهداء ـ الموجه إلى حضرة الملك عبدالعزيز آل سعود ـ وغير المقدمة.

وهو يصف كتابه بقوله على غلافه الخارجي: «إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل».

ويصفه أيضاً على الغلاف الداخلي بأنه: «ثورة في فهم العقل والدين والحياة ... دراسة عميقة للعوامل النفسية والاعتقادية والتاريخية والخلقية ـ التي قضت بانحلال المسلمين عربهم وعجمهم وذهابهم في طوفان الغرب الطاغي، ثم كيف يمكن أنه ينحسر عنهم ذلك الطوفان».

وهما بلا شك وصفان ضخمان يغريان بتصفح الكتاب وقراءته، فإن الوصف الأول يعطي أن المؤلف قد أتى بما خفي عن العرب هذه القرون الطويلة.

قرأنا الكتاب الذي وصفه مؤلفه بما وصف، فإذا بجميع فصوله ـ على

(١)مجلة الهدي النبوي (عدد ذي القعدة ١٣٦٥هـ).

طول نفسه في صياغتها ومظهر القوة في عبارتها ـ لم يأت فيه بجديد، بل نسخة مجموعة من الصحف والمجلات التي دأبت على الدعوة الملحة إلى عبادة المادة وتقديسها، وإلى الكفر بكل المعاني الروحية السامية التي دعا إليها كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد عرف الناس قديماً وحديثاً أن أولئك الماديين إنما قاموا بدعوتهم هذه الملحة، نتيجة ما أصيبوا به من فقد وحرمان من هذه المادة، أوغر صدورهم على من وهبهم الله منها، ووسع عليهم في دنياهم وعيشهم؛ ثم نتيجة حتمية لموت قلوبهم وأرواحهم التي طال بها الحرمان من الغذاء الروحي الذي أنزله الله شفاء لما في الصدور، فلما طال عليها الأمد في ذلك قست وتحجرت، فكانت من الفاسقين، فأملت على الألسنة والأقلام هذا الدين الذهبي الحديدي الجديد، محاولة تقويض ما أقام الإسلام الصحيح بكتابه ورسوله من صروح الإيمان الصادق في قلوب الذين آمنوا بالله وكتابه ورسوله، وآمنوا بأن الحياة الدنيا متاع، وأن الآخرة هي دار القرار، وآمنوا بقول الله ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٥].

فكل فصول الكتاب عني فيها المؤلف أشد العناية بإكبار المدنية الغربية المادية، ودعوة المسلمين دعوة حارة ملحة إلى اتخاذها شرعة ومنهاجاً إن أرادوا لأنفسهم الخلاص مما هم فيه، مهما انحرفت عن دينهم؛ وأوضعت في ظلمات الضلالة، إذ كلها في نظر المؤلف حسنات لا تجد سيئة إلى شيء منها سبيلاً، وكيف لا تزكو إلى درجة القداسة ما دام أصحابها قد ملكوا بها نواحي هذه القطعان الآدمية المنبثة في رقاع البلاد الشرقية؟!

وهو في كل فصول الكتاب تقريباً يعزو خمول هذه المخلوقات إلى كونهم متدينين، وإن كان يستدرك على ذلك في بعض الفصول بقوله: «إن دينهم المبدل هو السبب في نكبتهم في عقولهم وتفكيرهم، ثم تعدى هذه النكبة إلى كل أحوالهم وملابساتهم»، ولكن القارئ الحصيف لا تفوته تلك الغمزات اللاذعة التي غمز بها المتدينين كلهم، سواء أكانوا يدينون بدين حق أم بدين باطل، فإنك تراه كلما استطرد في ذم المتدينين على الإطلاق وأتى بطائفة من مخازيهم وأسباب ضعفهم أفلت الزمام من يده فأنحى على الدين من حيث هو دين، وعدَّه أصفاداً في أيدي أهله، وأغلالاً في أعناقهم يحول بينهم وبين المجد والسيادة والقوة، تلك الصفات التي لا تُنال إلا بالفسق والبطش والجبرية، ولكنه عندما يشعر أنه عثر يجعل ما نسبه للأديان من المثالب لغيره، وأنه لا يعتقد هذه العقيدة فيه، مع أن القارئ يفهم بغير عناء

أنه أورد ذلك مستحسناً إياه فخوراً بلفظه ومعناه، ولن يسلم من غب هذا القول إلا إذا كان له قلبان في جوفه، يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، ولا يغض كفر أحدهما بإيمان الآخر ما دام قادراً على التوفيق بين الضلالة والهدى، كما قدر على ذلك المؤلف فيما سطر وسجل في كتابه، وكما تقرأ وتسمع من كثير من أساتذة المؤلف في مجلاتهم ونواديهم.

ونحن نجتزئ من كتابه بمثل واحد يغني القارئ عن إيراد غيره ـ وإن كان الكتاب كله مَثل على ذلك ـ ليُستدل منه على حفيظة المؤلف التي تعتلج في صدره على الدين وأهله، أو بعبارة أخرى على مُنزل الدين الذي أعاق أمماً كثيرة من النوع البشري أن تبلغ المستوى الرفيع الذي بلغته أمم جعلت الدين من أساطير الأولين، والقارئ إذ يشعر من هذا المثل بلهيب الغيظ المشبوب على الدين وأهله، فهو يشعر في الوقت نفسه بنسيم الولاء العطر يرسله تقديساً وعبادة، لذلك العجل الذهبي الماثل في صورة المدنية الغربية.

فاستمع إليه إذ يقول (من صحيفة ١٧): «فطبيعة المتدين غالباً (ولم يفرق بين المتدين بحق والمصاب بنوع من الهستريا سماه ديناً) طبيعة فاترة فاقدة للحرارة المولدة للحركة المولدة للإبداع، ومن ثمة فإنك غير واجد أعجز ولا أوهى من هؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية»، ويقول في الصفحة نفسها قبل ذلك بقليل: «وتجد كل الذين صنعوا الحياة

وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه».

ويسوق على ذلك شواهد لو ساقها غيره في مثل هذا المقام لكان موضع سخرية وتندر، كأن يقول على لسان زياد بن أبيه: أما عبدالله بن عمر فقد قعدت به تقواه، يعني عن النهوض إلى السيادة والمجد.

ونحن نسأله هو إن فاتنا سؤال زياد: هل قعدت بعمر أبي عبدالله هذه التقوى عن أن يكون المثل المضروب على وجه الدهر في كل صفة كريمة يجب أن يتحلى بها من يسوس الناس؟ وهل هناك بين من اقتعدوا غارب المجد والسيادة عن طريق الحكم مثل عمر بُعْد صيت، ورفعة ذكر، وشدة احترام وتوقير من الناس جميعاً؟

ومن مغالطاته الطريفة: أنه استشهد بقول المتنبي يصف رجلاً اختاره ليكون عوناً له في انتزاع الملك:

شيخٌ يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحل دم الحُجَّاج في الحرم

وينسى بل يتناسى عامداً صنو هذا البيت الذي يدل دلالة قاطعة على أن المتنبي يجعل هجاء الرجل غرضاً مقصوداً لذاته، لا أن يجعل وصفه بهذه الخلال المرذولة من آيات كفايته التي اصطفاه لأجلها ليساعده على انتزاع

الملك!! وذلك إذ يقول المتنبي بعد البيت المتقدم:

صفاته لست أحصيها لكثرتها ... لكنها ذكرت في نون والقلم

والصفات التي جاءت في نون والقلم يجمعها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القلم: ١٠ - ١٣]، فأي عقل يُسَوغ مدح إنسان بصفات جعلها الله نهاية ما في النفوس البشرية من حقارة وإسفاف، كما لا يتصور أحد مهما ضؤل تفكيره أن صاحب هذه الصفات أو بعضها ممن يستعان به في شيء من محقرات الحياة، فضلاً عن انتزاع الملك وتوطيد عرش؟ فإن كانت الرواية صادقة وأصر المتنبي على اتخاذ بطانة من نوع مهجوه هذا فلا يكون في ادعائه النبوة شيء من الغرابة، خصوصاً إذا اصطفى الذين يبلغون رسالته من نوع صاحبه هذا، وإذاً يكون استشهاد الأستاذ بشعره هذا من البراهين القوية في إثبات دعواه!

ولو أن مغالطاته وقفت عند تخريج الشعر أو كلام الناس حسب هواه لهان ذلك بعض الشيء؛ ولكنه يأبى إلا أن ينهج هذا النهج بعينه، وبالجرأة نفسها في صريح الكتاب وصحيح السنة، وتلك هي الطامة التي تجعل ما حام حوله من ظنون يكاد يرتقي إلى مرتبة اليقين، والمرء كما قالوا: مخبوء تحت لسانه.

ونسوق على ذلك كذلك شاهداً واحد على جرأته في تمزيق نسيج الآيات بالتأويل السخيف الذي يقهرها به على أن تكون دليلاً له، فقد وصف الطور الإنساني في زمن الرسالة بأنه: «لا يعدو النظرة السطحية والإلمام بظواهر الأشياء دون النفوذ إلى بواطنها الخ»، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧]، وهب أن حال الناس كان كذلك عند البعثة، فهل سيقت الآية لتصف هذه الحالة التي يقصدها هو؟ أو أنها سيقت لوصف حالة أخرى بينها وبين ما يرمي إليه بُعد المشرقين؟!

ولقد احتال على إدخال هذا التمويه على بسطاء المعجبين به بأن حذف طرفي الآية وساقها محذوفة الصدر والعجز، لتوافق غرضه وما زعم، ولو أنه أدلى بها مجتمعة لصاح به ـ حتى المفتون بزخرف قوله ـ إنك كنتَ من الخاطئين، وذلك أن الله عز وجل يقول من سورة الروم بعد إخباره بانتصارهم بعد انكسارهم: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧ ﴾ [الروم: ٦ – ٧].

ومجرد ذكر الآية يريك البون البعيد بين ما قصد، وقصد الله، فالرب

تعالى نسب أكثر الناس للجهل لمريتهم في صدق وعده، وهو يعرفنا أنهم مهما بلغوا من العلم بشئون الحياة وكشفوا كل يوم من أسرارها جديداً، وبلغوا في اكتناه مساتيرها أمداً بعيداً، فأوفوا من الماء على قراره،ومن النجم على مداره؛ ووصلوا بعلمهم إلى غاية ليست بسبيل التصديق اليوم، مع جهلهم بالله ومرائهم في الآخرة وعدم الالتفات إلى وجه الخلاص من أهوالها، فلن يعدوا علمهم هذا ظاهرَ الحياة الدنيا، وذلك هو القصد الذي لا قصد غيره في إيراد الآية في هذا الموضع، وهي لظهورها ليست من المشكلات، فتكثر حولها الخلافات.

وفي ثنايا كتابه من رد أحاديث البخاري ومسلم والهزء بها والسخرية منها، أو تأويلها أغرب تأويل وأبعده عن منطوقها العربي، اتباعاً لهواه؛ شيء كثير، نحيل القارئ في الإلمام به إلى الكتاب نفسه، فهو واجد فيه ما يحكم به على طوية المؤلف، وفتنته بالحضارة الغربية؛ فتنة جعلته ينحل أربابها كل فضيلة؛ بل إن كل فضيلة لم يتحلوا بها لا تعد فضيلة، وإن تعجب فعجب أن يقف المؤلف ذلك الموقف من الدين ويجعله ـ في عبارة صريحة ـ سبباً في نكبة المتمسكين به، وفيما يتقلبون فيه ذلة وهوان.

نعم إنه ساق في كتابه من أسباب نكبة المسلمين بالمتصوفة المجرمين والزهاد الكاذبين والعلماء المضلين، وتسميمهم عقول المسلمين، بأن

تعاليمهم هذه من الدين ما نقره عليه ونصدقه فيه؛ ولكن ذلك الإطلاق في جعل الدين من حيث هو دين ـ بغض النظر عن براءته مما يفهم منه المروق والانحراف ـ من أسباب هذه النكبة، حتى لقد أنحى باللائمة أشد الإنحاء على إحدى الجماعات الإسلامية التي تدعو إلى الحكم بما أنزل الله، فتقول في دعوتها: «إن طريق المجد الإسلامي المنشود ينحصر في الأخلاق الدينية الأولى، وفي تنفيذ الحدود الشرعية الخ»، ومن ذا الذي يماري في هذا إلا من في قلبه مرض؟ وكان ممن دمغهم الله بقوله ـ مقصرين في السعي إلى الحكم بما أنزل أو راضين لعكسه ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

وهو ينكر أشد الإنكار كون الله تعالى يأخذ الأمم بذنوبها، جاحداً ما ورد في القرآن بهذا المعنى بتأويلات تسعده بها قريحته الخصبة!! وهل أدل على أن الله عز وجل لا ترضيه مثل هذه المدنية إذا تجردت من معانيها الصالحة، واستعملها أهلها في البطش والجبروت، كسائر الأمم في القديم والحديث، من أن كل أمة من الأمم التي ضربها الله مثلاً في التفصي عن طاعته، والعتو عن أمره؛ وعاقبها بالعقوبات المختلفة كانت لها حضارة، وبلغت بها من سيادة الدنيا حداً كبيراً؛ فقال تعالى تذكيراً للخلف بحال

السلف: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الروم: ٩ - ١٠]. فإذا مارى أهل الجدل في أية حضارة من هذه الحضارات، فلن يماروا في حضارة أجدادهم قدماء المصريين، وتلك هي آثارهم تدل عليهم.

وكان فرعون موسى هو الرمز الذي أقامه الله آية على مقته وغضبه، لعدم رضاه على كل من فعل مثل فعله، من سبقه ومن لحقه من الفراعين وغيرهم من الظالمين، فهل أنجت المدنية الغابرة المجردة من معانيها الصالحة عاداً وثمود وقوم فرعون وسواهم من غضب الله وبطشه بهم؟ وهل أنجت كذلك المدنية الحديثة ـ معبودة المؤلف ومهوى قلبه ومثله الأعلى ـ أن يصيب الله بعض أهلها لما ظلموا بالهلاك والدمار بأقسى وأعنف مما فعله في الأمم السابقة؟ وما الفرق في العقوبة بين أن ينزل على أمة رجزاً من السماء، وبين أن يسلط أمة على أمة فتذوق على يديها رجزاً كرجز السماء أو أشد هولاً؟!

نفهم من هذا: أن المدنية الحقة في الدين الحق من عبادة الله وحده؛ والسير على النهج الذي يريد أمراً ونهياً، وأخذاً وتركاً، فهو تعالى لا يرضى

عن طغيان أهل المدنية الحاضرة الذين عاقبهم بتسليط بعضهم على بعض، فحدث لهم ما سمعنا ورأينا، وما زال يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فهم من خوف الموت في موت، كما لا يرضيه خمول أولئك القطعان الآدمية باسم أي دين كانوا، ما داموا قد انحرفوا عن ذلك الدين، وجروا في غير مضماره، فعاقبهم بالذلة التي ضربها عليهم، بواسطة أصحاب هذه المدنية الذين لو أنصف المؤلف لسماهم وحوشاً مخالبهم الدبابات، وأنيابهم المدافع والطيارات.

ولما يعلمه الله من انحراف الإنسان عن قصد السبيل، لو تُرك لنفسه، اقتضت رحمته به أن ينزل إليه ديناً يعصمه من الزلل، ولا يتعرض لحريته إلا بمقدار ما يحجزه عن الخطر، ويرده إلى الجادة؛ فلا ينطلق بلا قيد فيطغى، ولا يخلد إلى الأرض فيشل، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والأستاذ المؤلف ـ لو خلا من الغرض والمرض ـ لكان بحكم ثقافته وماضيه أول الداعين إلى رجوع المسلمين إلى دينهم الحق؛ الذي به عز أسلافهم؛ وما كان له من حاجة لأن يدعوهم إلى عبادة هذه المدنية الفاجرة التي لا ترقب في سبيل غايتها إلاً ولا ذمة؛ فكل ما في أهلها من فضائل إنما هو طلاء سرعان ما ينصل لونه بأقل احتكاك.

وإذا كان المؤلف أميناً في نصحه، فهل من أمانة الداعي الناصح أن يدل مريديه على غابة تعج بالوحوش الكاسرة تتواثب وتتهارش؟ فيزين لهم أعمالها باسم المدنية ليقلدوها ويكونوا أمثالها، أو يدلهم على مدنية فاضلة أهلها من الأناسي الذين كانت لهم قدم صدق، فيما عاد ويعود على الإنسانية بالخير العميم، فإن لم يجدها اليوم بالفعل على خريطة الكرة الأرضية، فقد تكفل القرآن بالدلالة عليها، ووصف أهلها بآيات بينات، لا تعجز من أراد أن يسلك سبيلهم، وأراه من علاماتهم ما لو اتسم به ما شآه سابق، ولا بزه في حلبة العزة لاحق.

وإن إلمامة بالكتاب الكريم، ونظرة واحدة في تاريخ الدولة المثالية التي استمسكت به، لترينا الفرق الكبير والبون الشاسع بين المدنيتين.

ففي ميدان القتال نرى الجندي الذي صنعته هذه المدنية في الحرب الأخيرة، فدخلها بكل ما ابتكره العلم الجبار من آلات تدمير واستئصال، هو هو الجندي الفاتك المخرب الذي ليس له غاية شريفة يهدف إليها، وإنما كل غرضه من الحرب استعباد غيره، وما يترتب على ذلك الاستعباد من نيل المجد الكاذب، شأنه تماماً كشأن الجندي البدائي صاحب القوس والنشاب الذي كان لا يطمح في أكثر من قهر عدوه وسبي نسائه، والاستيلاء على أشيائه!! مع يسير من الفرق في الوسائل اقتضته سنة التطور، أما الغاية فواحدة.

وقد اصطنعته المدنية على عينها على هذا الأساس، أساس فهمها للحرب المبيدة المدمرة، فقام بما عهد إليه شر قيام.

فتعال استمع إلى الشروط العنيفة التي شرطها الله في الجندي الإسلامي حتى لا يكون لعنة بل رحمة، وحتى لا يكون وباء بل شفاء، وليكون امتداداً لهذه الرسالة الزكية، رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أينما توجه وحيثما دعاه الواجب، وذلك حيث يقول الله من سورة التوبة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة: ١١١ - ١١٢].

فلو أن جندياً اتصف بهذه الصفات وذهب يبشر بها؛ فإن لم يستجب إليه الناس حملهم عليها بالقوة، لقال أعداؤه بل أولياؤه: ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم.

وفي ميدان التضحية الاجتماعية أرأيت كيف رمز الله للفئة الباغية بمن

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وجعل الجهة المقابلة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، فهل رأيت أروع أسلوباً في الحث على مقاومة الظالمين من هذا الأسلوب؟ وفي الدعوة إلى التضحية أقوى من هذه الدعوى والحث عليها؟

أما في السلم: فانظر كيف شرط الله في أهل الحل والعقد أو أهل الشورى الذين تنحل بآرائهم المشاكل، ويرتفع الشك عن محيا اليقين في كل أمر يعرض عليهم، وذلك إذ يقول عز وجل من سورة الشورى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٨]، فتصور مجلس نواب تكون (لائحته الداخلية) هذه الصفات الرفيعة، كيف ينصح الأمة، وكيف يكون وجوده فيها مناط صلاحها وفلاحها، قارن بين مجلس نواب هذا شأنه، وبين مجلس نواب ما استفادت منه أمة ورزئت به إلا ما تسمع أخباره وترى آثاره، من بلاء فوق بلاء وعللاً ليس لها شفاء، ودعاء إلى الله ليخلصها منه إثر دعاء، مع زعمهم أنه أسس على أحدث الطرز، وأجدّ ما ابتكرته الحضارة (معبودة المؤلف) من تجارب ناضجة.

ذلك وغيره؛ ليعلم الناس أن الدين إنما جاء ليثبت الأخلاق الفاضلة، وينافح عنها، ويصدهم عن كل خلق مرذول، لا ليدعو إلى القوة المجردة أو

العلم الذي يزيد هذه القوة طغياناً وكفراً؛ وفي الوقت نفسه تراه وضع العلم النافع فوق الذروة، ومدح المتلبسين به فقال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة: ١١]، وقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وجعلها خاتمة آية تدعو إلى التمرس فيما أودع الله في خلقه من حيوان وإنسان وزرع وجبال، من عجائب وخصائص، فالعلماء في الآية هم المتخصصون في هذه الآيات الكونية، علماً وعملاً واستكشافاً واختراعاً.

وأنا أعتقد أن التوسع في هذه البحوث، واستكناه هذا الخلق العظيم، هو من صميم العلم الذي يزيد به الإيمان ويربو اليقين، وبحسبك أن تصغي بقلبك إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ: ٦] لتعلم أن العلم المقصود هو كل ما يوصل إلى الله من دراسة آياته، كونية كانت أو وحياً، فأولئك الذين نبغوا في العلم الصحيح، أول من يشهد بحقيقة الكتاب العزيز وأنه الهادي إلى الصراط المستقيم؛ بما أودعه من أسرار، لن يستوعبها الناس أو ينقضي عمر الدنيا.

فلو أن باستور وكوري وزوجه وماركوني وستفنسن وغيرهم، وحتى

بريمس صاحب ذلك الموقد المنتشر اللطيف، وغيرهم ممن خدموا الإنسانية بعلومهم واستكشافاتهم قاموا بها قاموا به على أساس الإيمان بالله، لا أنه شيء استقلالي أفادوه باجتهادهم المحض، لكانوا عند الله مع الصديقين والشهداء.

ما ذنب الدين ونصوصه كالنهار وضوحاً في وجوب تعلم العلم النافع، إذا وجد من المجرمين من صد الناس عن هذا العلم؛ فتركوا علم الرحمن إلى علم الشيطان، فبدل أن يتخرجوا في مدرسة الرسول ﷺ التي خَرَّجت أمثال: خالد وسعد والمثنى وعكرمة وغيرهم من دهاقين الحرب التي تعقبها الحياة العزيزة، والتساوي في القسم بين الغالب والمغلوب، نعم إنهم بدل أن يتخرجوا في تلك المدرسة؛ تتلمذوا للشعراني والشاذلي وأبي يزيد البسطامي وغيرهم من المتصوفة الحلولية المجرمين، من الذين لم يحسنوا من الطب إلا عملية التخدير، فنجحوا في تخدير ضحاياهم ـ وما أكثرهم ـ نجاحاً فات كل تقدير، وعمَّر أطول تعمير، فضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

ما ذنب هذا الكتاب الذي ما ذكر آية في الإيمان إلا قرن بها العمل الصالح، ورتب المثوبة على القيام بهما معاً أو تركهما معاً، فما انفراد أحدهما عن الآخر عند امرئ بمزحزحه من العذاب شيئاً ـ إذا وجد من هؤلاء

المساكين من ينكر الأسباب ويرى الأخذ بها ضلالة، أو يفسر القضاء والقدر تفسيراً يميت الهمم ويشل العزائم، أو يفسر التوكل الحافز إلى كل طموح بالتواكل المقعد المميت!!

ما ذنب الدين إذا كان قد فرغ من سن هذا القانون السماوي، وقال لرسوله الأمين على تبليغه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨]، ومن مواد هذا القانون ما نظم به علاقة المرأة بالرجل خير نظام وأدقه، يناسب طبيعتهما بلا إفراط أو تفريط ـ نعم ما ذنبه إذا وجد رجل من أهل العلم، كصاحب الكتاب يضع المرأة في غير الموضع الذي ارتضاه الله لها، ولا يرضى لعباده ـ من ذكر وأنثى ـ إلا الرحمة والعدل واليسر، والله تعالى خلق المرأة على هذه الصورة لتكون قرة عين لزوجها، ووعاء لولده، لها ما له في كافة الحقوق الاجتماعية إلا الدرجة التي ميزه الله بها، وهي لا تغض من هذه الحقوق، بل تزيدها جمالاً وتثبيتاً، فإذا انحرف الغالون عن فهم مراد الله فسجنوها وبخسوها حقها من تعليم وغيره، وانحرف المفرطون فوضعوا حبلها على غاربها كالسائمة من غير قائد؛ فشطت هذا الشطط الذي يشكو منه حتى مَنْ أكبرهم المؤلف، وغالى في مدحهم، حتى أوجب على الناس عبادتهم، فأي ذنب على الإسلام أو كتابه، وهذا هو الحق يلمح في أثنائه لا يحجب عنه إلا كل محروم؟!

كل ما ذكره الأستاذ في الفصل الذي ناصر فيه المرأة يكاد يكون مغالطة صريحة للحس والواقع، وما ساقه من الشواهد إن هو إلا سفسطات جدلية لا تثبت عند البحث الصحيح على قدم، وليعذرني القراء لو أبديت عجبي من أولئك الذي أقاموا أنفسهم محامين عن المرأة وأدى هذا العجب إلى سؤالهم: ما الذي بقي في نفس المرأة لم تحصل عليه من الرجل اغتصاباً، ولقد استخذى أمامها حتى في موقف الدفاع عن عرضه الذي امتهنته بتصرفاتها الحمقاء، بل نسي أن له حصة في هذا العرض، فوهبه إياها تتصرف كيف شاءت وشاء لها الهوى؟ وليطب أولئك المحامون ـ ومنهم الأستاذ المؤلف ـ نفساً فقد أبلغوها ما أرادت وأرادوا لها، واعتصبوا لها من أشباه الرجال سائر ما صبت إليه، ولم يبق أمامهم إلا شيء واحد إن قدروا عليه فقد أوفوا على الغاية في خدمة المرأة، ذلك أن يطلبوا من الله أن يغير تصميمها هذا إلى صورة لا تكون معها معرضة لحمل ولا ولادة ولا حيض ولا نفاس، من هذه الحالات التي تعوقها جزء كبيراً من الوقت عن الانطلاق حيث أرادت، أو ليريحوا أنفسهم من عناء دعاء غير مقبول انتظاراً لبشارة الأستاذ الذي يقول في كتابه باحتمال قدرة العلم مستقبلاً على التحكم في الجنين، فيجعل الأنثى ذكراً والذكر أنثى؛ وعندئذٍ يختار الأمهات ـ ذوات الخيرة في كل أمر ـ لأجنتهن النوع الذي يرغبن فيه؛ ولله في خلقه شئون!!

ويقول الأستاذ إن ما أصاب المسلمين من ضعة وهوان وسوء حال، كان شغله الشاغل وموضع تفكيره من ست سنوات أو تزيد، وكان رأسه

يلتهب طول هذه المدة بالتفكير التهاباً، ونحن لا نذيع سراً إذا قلنا له: إن أعراض المرض الذي أصابه فغير اتجاه تفكيره كانت تبلغنا بطرق شتى وعلى صور مختلفة؛ منها: إنكاره المعلوم من الدين بالضرورة كما يقولون ـ إن عجز فيه عن الإنكار الحرفي أنكر معناه وفسره بهواه، يبشر بذلك ويذيعه في مجالسه الخاصة والعامة، وفي النوادي والمتنزهات؛ فإن صارحه أحد إخوانه القدماء تملص من التهمة بعدم فهم ناقل الخبر لغرضه، وتكرر منه ذلك كثيراً، فكان ذلك يحزننا كثيراً لذلك الماضي الذي نعرفه عنه، من الذود عن الدعوة الحقة زمناً غير وجيز، وفي كل هذه المدة كنا ننتظر أن يفيء إلى أمر الله، ولكن الأخبار كانت تأتينا بأن أعراض مرضه ازدادت وتفاقمت، حتى أخرج للناس كتابه هذا، وقد تمت به عملية الهضم والتمثيل لهذه الأفكار الهدامة التي كانت مستولية على كل مشاعره؛ فأصبح من المستحيل أن يصده عنها صاد أو يقنعه ببطلانها دليل، لذلك فقد جعلنا بنشر هذه الكلمة الإجمالية على صفحات مجلة الهدي النبوي، نحذر فيها الناس من سموم هذا الكتاب، إلى أن يتم نقده تفصيلاً في فرصة أوسع من هذه، ولكنها ستكون قريبة إن شاء الله، ليحي من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب».

محمد صادق عرنوس

وكيل جماعة أنصار السنة المحمدية

وقالت المجلة ـ أيضاً ـ:[1]

«أخرج القصيمي هذا الكتاب بعد دراسة يقول فيها في الصفحة ٢٠ من المقدمة: «فكرت في هذه المسألة تفكيراً عميقاً مضنياً، وما زلت منذ ست سنوات أو تزيد ـ ورأسي يلتهب بالتفكير فيها التهاباً، مقلباً لها على كل الوجوه محاولاً إنضاجها في معمل الفكر، وما فتئتُ كل هذه الأعوام أثير مع الأصدقاء، ومن يظن بهم الفهم والعلم حولها المعارك الكلامية والحروب الجدلية، بغية الإحاطة بها من كل أطرافها والإلمام بأسبابها، حتى لقد ظننت بها شبه مريض، أشفى إذا تحدثت فيها وأمرض إذا سكت عنها.

وقد اجتهدت أن أدرس القضية درساً دقيقاً من كل وجوهها واحتمالاتها، فدرستها في الكتب التي ظننتها مصدر الداء، ودرستها في التاريخ الخاص والعام، ودرستها ـ وهذا أبلغ الدروس ـ في نفوس المسلمين: في نفوس الخاصة والعامة، المتعلمين والجاهلين، الآخذين معارفهم عن الشرق أو عن الغرب، وقد حرصت كل الحرص لما تشرفت بأداء فريضة الحج في العام الماضي على أن أتصل بالمسلمين الذي جمعتهم هذه الفريضة، اتصال بحث ودرس وتنقيب واستقراء، وأصررت على أن

---

(١) عدد ذي الحجة، ١٣٦٥هـ.

أغوص إلى الأعماق، وأن أستخرج الدفين الكمين، وأن أصل من تلك النفوس الحائرة إلى ما لم يوصل إليه قبلاً، وأن أكتشف منها ما ظل كل هذه الأحقاب مجهولاً، حتى بلغت حسب ظني ما أردت».

وأنه قد اجتمع له من كل ذلك وغيره مادة كتابه «هذي هي الأغلال» حتى لقد كان من مواده معاملة وأخلاق موظفي وزارة التموين التي هيأت له فرصة دراستها حين كان يتردد عليهم في طلب الورق لطبع الكتاب، مما يدل على أنه حريص أن يُفهم أنه لا تند عنه حادثة أو تفوته واقعة إلا اتخذ منها عنصراً لتكوين «هذي هي الأغلال».

وهو كذلك حريص على أن يُظهر قراءه والناس على ما بذل من جهد في تحضير هذه المواد، من قراءة ومشاهدات، فهو يحاول أن يبرز في إطارات لامعة أخاذة ما اقتبسه مؤمناً به من النظريات الحديثة، في الطبيعة وعلم النفس، وعلوم الاجتماع والوراثة، والآراء الجديدة في المرأة؛ وتعليمها وسفورها واختلاطها بالرجال، ومكانها من المجتمع الذي يرى الأوروبيون وجوب أن تكون فيه على قدم المساواة للرجل، لولا ما حاق بها من ظلم الرجل واستبداده بها من قديم الزمن.

وهو كذلك حريص على أن يعطي قارئه صورة لنفسه: أنه محيط بكل

التطورات العلمية؛ والمستحدثات العصرية، وما بلغته من التقدم والاتساع في كل النواحي، ولعل هذا الحرص هو الذي يتعثر به في أثناء الطريق، فتزل به القدم كثيراً؛ أو تخونه الذاكرة أكثر، فيقطع فيها بأمور لما تزل قيد البحث والتمحيص، ولما يصل الباحثون فيها إلى نتيجة قاطعة أو شبه قاطعة، إذ يقول مثلاً في صفحة ٣٨: «قيل: إنهم توصلوا إلى جعل إخصاب المرأة كما يشاءون، إن شاءوه ذكراً وإن شاءوه أنثى، كما توصلوا إلى ذلك في النبات والحيوان».

ثم هو يبالغ في محاولة إقناع القارئ بأنه مطلع ودارس حتى كتب النصارى والمبشرين، حين يسوق الدليل على أن سبب كفر المسلمين بذاتيتهم وإنسانيتهم الذي حطهم إلى هذا الدرك السحيق «هو تصورهم أن الإيمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق، أو بين الله وعباده، فالله ـ في اعتقادهم ـ يجب أن يُعتقد أنه كامل في كل شيء، قوي في كل شيء، والعبد يجب أن يُعتقد بأنه ناقص في كل شيء، الضعيف في كل شيء.... فإذا ذم علم المخلوق وقوته بالجهل والضعف، فقد كان ذلك بمثابة الثناء على الله وعلى واسع علمه، وعلى اختصاصه بالعلم والقوة، وتصور أن ذلك يرضي الله كل الرضا، وأن خلافه يغضبه كل الإغضاب، لأن الله لم يشأ لعباده أن يساووه ولا أن ينازعوه في الكمال والعظة، أو السلطان العلمي والمادي، فحدد قواهم العقلية وغيرها بحدود

صارمة معلومة لا يستطيعون تعديلها، فعقولهم ومعارفهم محدودة بحدود ضيقة، ليس لها أن تتجول في باحات المعرفة كيف شاءت» (ص٣٦).

ثم يسوق في (ص٣٨) الدليل على ذلك فيقول بالحرف الواحد:

«قرأت مرة في كتاب مطبوع لأحد المسيحيين ما خلاصته: إن القول بألوهية المسيح ـ وإن كان باطلاً في نفسه ـ إلا أنه مفيد في نتيجته، وذلك أننا إذا أفهمنا الدائنين بالنصرانية، ففهموا أن بشراً في مظهره ومنظره ومولده وحياته وكل صفاته؛ استطاع أن يترقى حتى صار إلهاً، يفعل فعل الآلهة ويعلم علمهم، ويُخضع الأمم والشعوب إلى أن تدين له بالألوهية والربوبية وتعبده؛ فقد فتحنا مجالاً للتسامي وللرقي لا حد له، يأخذ بالهمم والآمال، فتتسامى هذا التسامي، وتطمع بأبصارها إلى هذا المرتقى العظيم؛ وفي هذا من الحفز للهمة والإغراء بالوثوب ما يعجز عن وصفه الواصفون، ولهذا فإن الفرق في عظمة الآمال واتساع المطامع عظيم بين الأمم المسيحية وغيرها...».

هذا خلاصة قول هذا المدافع عن تأليه المسيح، وليس بخاف ما في هذا القول من محاولة للتسامي بالمواهب الإنسانية والحقيقة الإنسانية، وكم من الفرق بين هذه الروح التي أملت هذا الكلام، وبين تلك الروح التي أملت قول الزمخشري:

العلـــم للـــرحمن جـــل جلالـــه وســـواه في غمراتـــه يـــتقمقم
مـــا للـــتراب وللعلـــوم، وإنـمـــا يـــسعى لعلـــم أنـــه لا يعلـــم

وهو في هذا مفتن مبدع، رائع في افتنانه وإبداعه.

فهو دارس فاهم جيد الفهم لما درس، ذكي حاد الذكاء، استطاع أن يهضم ما درس وأن يؤمن به ويدعو إليه في حرارة، وهو كاتب مصور جيد التصوير؛ بل فنان في تصوير أفكاره وما دان به من هذه النظريات الحديثة، وتلوينها بالألوان الزاهية الأخاذة التي تبهر الناظر؛ وتحاول في لباقة أن تجذبه إلى الإيمان بها، وإنه ليتعب فكره وقلمه كثيراً في هذا التلوين وتكراره، لأنه يعرف أن في هذه النظريات عيوباً ونقائص فيتعب ويكد محاولاً أن يستر هذه العيوب والنقائص، لكن القارئ الدارس يستطيع أن يتبين ما بها من عيب ونقص في حقيقتها ومعناها، ولكن بجهد جاهد ووقوف طويل شاق؛ ولعل ذلك لأنه يعلم ويوقن أنها صور غريبة، بل صور قبيحة نافرة أشد النفور؛ عن البيئة والوسط الذي سيشرف على معرض صوره وفنه الحديث الجديد، فهو من أجل هذا يكثر ـ في إملال ـ من التعاريج والمنحنيات الطويلة جداً، ويكثر من الرتوش والألوان المختلفة التي قد تكون في أكثر الأحايين متنافرة نابية غير منسجمة ولا متلائمة، وهو بلا شك يقصد إلى كل ذلك عن عمد، احتياطاً، واتقاء لما لعله يكون من بعض النظارة الذين لا تروقهم حقيقة

صوره، ولا حقيقة المقصود منها، وما ترمي إليه من أمور خطيرة جد خطيرة.

ولعله أخفق في ذلك ـ فيما يغلب على ظني ـ فإن صوره ناطقة، تنادي بكل المقصد، وتدعو بلسان فصيح إلى الغاية التي من أجلها وضعت؛ بل إنها إن كانت صادقة، فليس صدقها إلا في تصوير النفس التي تصورتها أولاً؛ والقلب الذي دان بها وأخرجها باسم «هذي هي الأغلال».

وهو يكثر جداً من اللف والدوران، ومحاولة الإفلات بفطنة ولباقة من خصومه ـ الذين يعلم حق العلم أنهم كثر، وأن لهم شأن لا يستهان به ـ وهو يفتن ويبدع حقاً في لفه ودورانه، وهو يكثر التلفت من حوله ليشهد إعجاب الأدباء من الشباب الجدد ـ وهم أيضاً كثر، وإن لم يكن لهم شأن خصومه، من المتدينين الحريصين وما ورثوا من كتاب الله وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم، والذين يضحون في سبيله بأنفسهم وأموالهم، وهو يدل الإدلال كله، وتأخذه نشوة السرور البالغ حين يرى هذا الفريق من المجددين والمتمدنين الذين دانوا للطبيعة وألّهو المادة من كل نفوسهم وعبدوا شهواتهم وبهيميتهم ـ يهتف باسمه ويصفق له التصفيق الحاد، فرحاً بانضمام من كان بالأمس خصماً له، وفراره من الفريق الأول الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، تشجيعاً له على المضي في سبيله المادي الطبيعي العابد للجمال، وتهوينا عليه ما لعله يفقده بانسلاخه ممن كان له بهم صلة وثيقة ورابطة وشيجة، وأغلب الظن أنه قد رضي بذلك وقنع

به، مؤمناً بأنه سيكون في القريب العاجل قائد جيش الإنقاذ من هؤلاء الحدثاء المجددين والمجددات الذين لا يفرق بينهم دين ولا مبدأ، بل يسجدون جميعاً وراء إمامهم وقائدهم القصيمي في محراب الوطنية، وكل واحد يبلغ على قدر أمله، كما يقول في كتابه، وإن كان كثير ممن نقول عنهم نحن أنهم عقلاء، يقولون: إنها أماني ونزوات طائشة، لها عواقب وخيمة أشد الوخامة.

والأستاذ القصيمي يقول: إنه درس حال المسلمين دراسة عميقة، وفكر في أسباب تأخرهم تفكيراً عميقاً أيضاً، ثم خرج من هذه الدراسة وهذا التفكير بتشخيص الأسباب والأمراض، وحاول أن يصف لها الدواء والعلاج، وضمّن كتابه «هذي هي الأغلال» هذه الأمراض وهذا الدواء، وها أنا أحاول أن ألخص ذلك للقارئ، فالكتاب يقوم بناؤه على مقدمة وعشرة فصول.

وخلاصة المقدمة: أنه لا يعلم قضية أهملت، وأهمل التفكير فيها والعناية بها من قضية هذه الجموع البشرية البالغة أربعمائة مليون مسلم، في مشارق الأرض ومغاربها: عاجزة من مئات السنين عن اللحاق بالركب الإنساني، المتفجرة ينابيع الحياة فيه كل يوم عن ينبوع دفاق بالمثل الإنسانية العلمية؛ التي من ملكها فقد ملك الوجود كله، وقد غُلبت هذه الجموع على أمرها في كل ضروب الحياة العلمية والسياسية والاقتصادية والصناعية.

ومما يوجب الدهشة، أنها عاجزة أفراداً وجماعات في أي وطن وأي بيئة، عن غيرها من الأمم والأفراد الآخرين الذين لا يدينون بدينها، وأن كل من فكر في الإصلاح فهو مخطئ في فهم الأسباب والعلل، فقوم يعدون من خيرة المسلمين؛ ينادون بأن جماع علل المسلمين هو سفور المرأة واختلاطها بالرجال، وهم مخطئون في ذلك أشد الخطأ؛ لأنه لا تزال توجد إلى اليوم أمم مستمسكة بهذين الأمرين بعناد وشدة، ومع هذا فإنها تعد بين الشعوب نموذجاً رائعاً للهوان والضعف والجهل والمسكنة، بل ينبغي أن يفهموا جيداً أن السفور والاختلاط من أسباب النهوض والتقدم لا من أسباب الركود والخمول!

وإلى جانب هؤلاء جماعات أخرى عظيمة الشأن من حيث الحماسة والعدد، تنادي بأن طريق المجد الإسلامي ينحصر في الرجوع إلى الأخلاق الدينية الأولى، وفي تنفيذ الحدود الشرعية، وفي أداء الزكاة، وفي إقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية، وفي الإيمان بالله والجهاد الديني في سبيله، والأخلاق الدينية؛ وكلما يدعون إليه من الفضائل هو سبيلنا إلى الدخول إلى ملكوت الله، وإلى امتلاء أنفسنا بالجمال والرضا والثقة، لكن السبيل إلى المجد القومي، ينحصر في الأخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية، فإننا ما عجزنا عن اللحاق بأمريكا وغيرها، لعجز في روحانيتنا أو في إيماننا بالله، وإنما عجزنا لتفوقهم بأخلاقهم الصناعية والاقتصادية والمادية والعلمية.

وإننا لنجد كل الذين صنعوا الحياة، وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين والتحلل منه..... فطبيعة المتدين ـ غالباً ـ طبيعة فاترة فاقدة للحرارة المولدة للحركة المولدة للإبداع، ومن ثمة فإنك غير واجد أعجز ولا أوهن من الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية، والذنب ذنب النفس البشرية التي لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين والتوفيق بين روح الدين وروح العمل للحياة.

وقد شمل هذا الانهيار الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين، ومن الملاحظ: أن المتعلمين من المسلمين في المعاهد الأجنبية والذين يحملون شهاداتها العالية، يعجزون عن اللحاق بالمتخرجين معهم من المسيحيين، فالأولون قصارى أمرهم أن يكونوا أبداً مقلدين ناقلين، أما الآخرون: فإنهم يقدمون إلى العلوم وإلى الثروة الإنسانية العامة كل يوم شيئاً جديداً.

فما هي العوامل التي قضت بهذا التفاوت المفزع؟

سنثبت في الفصول الآتية، أن المسألة لا تعدو أن تكون تفاوتاً بعيداً في فهم الحياة وفهم سنن الوجود؛ وفهم ما بين الأسباب والمسببات من ارتباط، وفهم الإنسان نفسه، وفهم صلات الإنسان بالإنسان وصلاته بالوجود، وفهم كل ما يقع تحت الحس والوجدان؛ وأن الحواجز والعوائق التي وقفت في سبيل المسلمين، هي عوائق معنوية نفسية اعتقادية، حملوها أنفسهم فوهنت، ووضعوها

في طريقهم فحادوا عن الطريق، فاعترض طريقهم من عرف الطريق، وأخذهم بقوة سنن الحياة من علموا سننها.

الفصل الأول: لقد كفروا بالإنسان ـ الإيمان به أول:

قدم له بحكاية أبيات من الشعر قالها بعض علماء الكلام، بعد أن طال تطويفهم وبحثهم في صفات الله، وكنهها وحقيقتها على طريقة الفلسفة، فلما لم يظفروا منها بطائل ثابوا إلى رشدهم وعادوا بعد سفرهم الطويل المضني، يقولون: إنها فوق مدارك العقل الإنساني، لأن ذات الله المتصف بها فوق مدارك العقل، ولا سبيل إلى العلم بها والإيمان إلا الصراط المستقيم، وهو التسليم التام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فعبروا عن عجزهم هذا، وخيبة آمالهم في السفر الأول، بهذا الشعر، الذي منه قول الآمدي:

لعمري، لقد طفت المعاهد كلها ... وجولت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقَن، أو قارعاً سن نادم

وقول الفخر الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه: قيل، وقالوا

فالواضح البين من هذا: أنهم إنما منعوا العقل من التطاول إلى ما لا

فالواضح البين من هذا: أنهم إنما منعوا العقل من التطاول إلى ما لا سبيل له إليه، لأن الأبواب مغلقة دونه، بقول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وبقوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وغير ذلك من آي الذكر الحكيم الذي جعل في ميدان التفكر في المخلوقات والكائنات في السماء والأرض أوسع وأفسح مجال لتفكير العقل وعلمه ما يغنيه، ويفيده وينفعه في حياته الدنيا والأخرى، وما يستغرق كل وقته وجميع جهوده عن أن يتطاول إلى البحث في كنه وحقيقة الخالق سبحانه وصفاته، وأنه يكفيه جداً؛ ويستوعب كل وقته، وينفعه جد النفع البحث في آيات الله، واكتناه حقائقها ومعرفة أسرارها.

وبذلك جاءت كل الرسل ونزلت كل الكتب لكن الأستاذ القصيمي يأبى هذا كل الإباء، ويذهب إلى أبعد حد في سخريته اللاذعة من جميع علماء المسلمين؛ الذين قيدوا العقل الإنساني بهذه القيود، وحدوا له هذه الحدود، ولو أنصفهم، لعلم أن تلك القيود والحدود ليست من وضعهم؛ وإنما هي من صنع الله خالق الإنسان وغير الإنسان.

فهو يفتتح هذا الفصل بمنابع البترول في المملكة السعودية، يضربها مثلاً، ويقول: إن بعض الدارسين درسوها فأخفقوا، لأنه لم يثابروا ولم يصبروا وآخرون صبروا وثابروا فنجحوا هذا النجاح الذي عاد عليهم بالأرباح الوفيرة.

ثم يقول: ففريق من الإنسانية ينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأولى اليائسين من الحصول على النفط في هذا الموضع، أي ينظرون إلى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط، من أن يكون فيهم استعدادات يكمن وراءها النبوغ والعبقرية؛ والكنوز الذاتية... فلا يحاولون القيام بعمل ما لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده.

أما الآخرون فينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأخيرة.. فيصبحون ما شاءوا مجداً وضخامة شأن، ويصيرون أعظم مصدر للحضارة البشرية، وأكبر مولد للقوى العلمية...

وقد كان الإغريق والرومان والمصريون القدماء والعرب وأوروبا الحديثة وأمريكا طبعاً وغيرهم ممن أوجدوا التاريخ الإنساني؛ وصنعوا الحضارات؛ مدفوعين بفيض من هذا الإيمان، وكل شعب يكفر بمواهب الإنسانية وثرواتها الذاتية الطبيعية، ويؤمن بأنها مقيدة بقيود وحدود لا

تتعداها، وأنها ليست مطلقة القوى، متروكاً لها الطريق الذي ليس له نهاية تحده؛ ولا غاية تلزمه الوقوف عندها ـ لا محالة أن يفتر هذا الشعب، ويقف عاجزاً عن التحليق في سماء اللانهاية.

وقد اتصل الذين جاءونا بالمكتشفات الكبرى التي نحيا على حسابها بمعين من هذا الإيمان بالطبيعة البشرية لا يعرف النضوب.. والرجال العاجزون القاعدون لم يُرزقوا هذا الإيمان، بل رزقوا ـ وأخْبِث به رزقاً ـ الاعتقاد بأن الإنسان خلق عاجزاً محدوداً، لا قدرة له على تغيير هذا العالم الذي أوجده الله، ولا على تغيير صبغته التي صبغه الله عليها، فعليه أن لا يتجاوز قدره أو يتخطى طوره.. إن أولئك يريدون كل شيء من السماء، أما هؤلاء فيعولون على أنفسهم ويطلبون منها كل شيء، وفي استطاعتها أن تهبهم كل ما فقدوا وكل ما احتاجوا إليه.

وقد لونت الثقافة، التي ما زلنا منذ ألف سنة تقريباً نطعم على مائدتها بهذه الألوان الدكناء، فمن رأي هذه الثقافة ـ الذي لا رأي لها سواه: أن الإنسان ما خُلق ليكون يوماً ما عظيماً، بل إنه خُلق ضعيفاً في عقله وجسمه، وليس له مفر من هذا الضعف، وكل محاولة تبذل للفرار من هذه الحقيقة هي محاولة خاسرة، وعند هذه الثقافة: أن الإنسان محدود، وأنه ليس من المستطاع أن يخرج من حدوده إلا إذا كان من المستطاع أن يخرج من عبوديته

ومخلوقيته.. وإطلاق القوى المختلفة من الحدود والقيود لا يكون إلا للخالق وحده، والأشعار التي أوردناها في مطلع هذا البحث تبين عن حكم هذه الثقافة في هذه القضية أحسن إبانة.

وهو يكرر هذا المعنى ويلح في تكراره إذ يقول:

يلوح أن الإنسان إنما كفر بذاتيته وإنسانيته، لأنه أراد أن يؤمن بالله الإيمان الذي تصوره، فقد تصور أن أساس الإيمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق، أو بين الله وعباده، فالله يجب أن يُعتقد بأنه كامل في كل شيء، قوي في كل شيء، والعبد يجب أن يُعتقد أنه ناقص في كل شيء ضعيف في كل شيء، ثم تصور أنه كلما بالغ في تنقيص الإنسان والمخلوق وفي تضعيفه، فقد بالغ في تعظيم الله وفي الإيمان بكمالاته.. لأن الله لم يشأ لعباده أن يساووه، ولا أن ينازعوه في الكمال والعظمة أو السلطان العلمي والمادي، فحدد قواهم العقلية وغيرها بحدود صامة، لا يستطيعون تعديها، وإلا فما الفرق بينهم وبين الله؟.. ولولا هذا لما كان هناك عابد ومعبود؛ ولكن الديانات كلها مبنية على العبودية، وقد رأوا أنهم بهذه الأهاجي يتقربون إلى الله وينالون رضاه.

وقد أكثروا جداً من هذه الفلسفة المجنونة المخذولة؛ حتى صار الخلاف فيها لديهم ولدى القطعان التابعة لهم في إحدى القضايا المفروغ

منها؛ وصاروا إذا سمعوا بإمكان تغلب الإنسان وقهره لكل المشكلات والأزمات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والنفسية والخلقية، وسمعوا ما ينتظر من وثوب الإنسان بالعلوم وكل نواحي الحياة، وقهره للأمراض وللجهل؛ وفتوحاته العلمية التي قد تفضي إلى القضاء التام على شقاء الإنسان ـ اشمأزوا منه ومن قائله واتهموه بالزندقة والإلحاد، إذ يرون أن هذه المزاعم تدل على أن الإنسان ترك غير محدود القوى الذهنية؛ وأن له أن يشارك الله في عمله.. وهذا عندهم نهاية الكفر والضلال!

ثم أخذ يرد على هؤلاء بأدلة عقلية وآيات وأحاديث، حرفها وحمّلها من المعاني ما لا تحتمله ألفاظها العربية المبينة؛ وسنشرح ذلك ونفصله في ردنا التفصيلي عليه الذي لا تحتمله صفحات هذه المجلة.

وانساق به القول إلى الكلام في بدء خلق الإنسان وأصله، فأخذ يقرر نظرية دارون في النشوء والارتقاء في إيمان عميق بها، فقال:

«قد استطاع الإنسان بمعرفته أول لغة أن يضع حداً فاصلاً بين عهود الطفولة ـ أو الحيوانية على رأي آخرين ـ وبين العهود الإنسانية، وأن يخلي الطفولة والحيوانية وراءه، بحيث لا يخشى الرجوع إليها مرة أخرى، ويجب أن يسمي هذا العهد أول تاريخ للإنسانية، وأول نقطة استطاعت الوثوب منها..

ولشدة الوثبة التي وثبها الإنسان، وبُعد الخطوة التي خطاها في مجموع قواه الذهنية والشعورية والجسدية، وعظم النقلة التي انتقلها راحت معارف الإنسان وأعماله تتسم بسمات النضج والتقدم المستمر العجل.

وأخذت المعارف والعلوم والأعمال الصناعية والزراعية وغيرها، تتساوق وتتدافع بعد هذا بسرعة، وأخذت كلما تقدمت خطوة ازدادت سرعتها فتصير قوى وطاقات تمنحها قوة الدفع وقوة الاندفاع وقوة الاستمرار.

ومعنى هذا أن تقدمه لن يتوقف البتة، بل يأخذ في طريقه حتى يبلغ أقصاها ومنتهاها، إن كان لها منتهى..

.. وإن اعترى الإنسان في بعض الأوقات همود وركود، فمثله كقطعة الأرض في حال زراعتها واستغلالها، لا يقال إنها في حالة تأخر وضعف، وفي حال تركها بدون استغلال تقوى وتتفاعل العناصر الكامنة فيها مع أشعة الشمس، وكل العوامل، حتى تصير بعد مدة في قوة تمكنها من الإغلال والإثمار بعد زراعتها؛ وتمكينها من إظهار طاقتها، بل نقول: إن كل شيء له كمون وظهور، فالظهور يدل على الكامن، وعدم الظهور لا ينفي الكمون أو الكامن، أي إن حالة الإنسان لا تعدو أن تكون طوراً من أطوار الكمون الذي يصيب كل شيء..

.. فالإنسانية لها مستوى معلوم.. يرتفع ويتزايد شيئاً فشيئاً على مر الزمن، ويتكون ويستوي وينضج كذلك.. بتفاعل مهيأ كما تتفاعل وتتكون المعادن والأحجار الكريمة والخسيسة والعناصر كلها في مواضعها، بل كما تتفاعل وتتكون الطبيعة كلها، ولا شيء يمنع هذا التفاعل والتكوين».

وقد أطال القول في الاستدلال على نظرية النشوء والترقي وقوانين الوراثة، ثم خرج منها بأنها تدل دلالات كثيرة لم يفطن لها المسلمون ـ من منذ ألف سنة طبعاً! ـ منها: «أن الإنسان بطبيعته شرير خبيث ظالم، وأن الإنسان الأول كان كذلك في عهوده، وأن الخير والإحسان والصفات الجميلة التي يتصف بها اليوم، مكتسبة من الأديان ومن التربية، التي كونها الإنسان لنفسه بحكم الضرورة والحاجة والأنانية أيضاً، وعلى هذا فمن الجهل الفاضح التلفت إلى الوراء بقصد الاقتداء والاحتذاء، وإنما يجب الهرب دائماً من الماضي والتطلع إلى المستقبل الباسم، راغبين آملين أن يمحو كل وراثات ذلك الماضي، وأن ينزع تأثيرها وسيطرتها على الإنسان المقبل، فالحنين إلى الماضي والتصايح بالدعوة لاتباع الأولين والأخذ عنهم بلاهة».

ويلاحظ هنا جيداً أنه جعل الأديان التي كونها الإنسان لنفسه، كالتربية، وأنها ليست سماوية من عند الله! ويدل لذلك بصراحة تامة قوله ص٨١: «والإنسانية بمجموعها ملزمة بأن تعمل على إيجاد المبادئ والتعاليم

الأدبية والدينية والشعرية والاجتماعية»، وسيصرح بهذا أكثر في الفصل الأخير؛ وإنها لذلك تأتي ككل المبادئ الديمقراطية وغيرها قبل نضج العقل الإنساني، فلا يحسن فهمها ولا تطبيقاً، وسيصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان خيالياً واسع الخيال وأنه كان مفتوناً بجمال الطبيعة، وأنه شغل وقته بالنظر في هذا الجمال فهبط عليه الوحي من سماء هذا الخيال لا من عند الله كما يفهم ويؤمن المسلمون!

وعنده: أن الحضارة والمدنية عملت للإنسانية ما لم يعمله الإسلام، إذ يقول في ص٦٧: «وقد عمل الإسلام أعمالاً باهرة، لا تكفي لنقل الإنسانية من طورها هذا إلى ما هو أكمل منه وأفضل، فقد خطت الإنسانية بعد ذلك خطوات فاتت في سرعتها وقوتها كل حساب وظن.

فالإنسان اليوم راح يؤلف من العناصر أطعمة صناعية تفوق في جودتها وحسنها وفائدتها ومذاقها الأطعمة الطبيعية .. وإنا لنخشى أو نرجو، أن يأتي الزمن الذي يقال فيه: الإنسان الصناعي، والحيوان الصناعي.. وما يزال العلم يهاجم بعزم من يعلم أنه منتصر لا محالة، وعلينا نحن أن ننتظر لمن يكتب النصر في هذا النضال الحامي، من أجل الانتصار على سر الحياة ولغزها.

لقد حَسّن الإنسان كل شيء في الحياة، بعد أن وهبه النظام وجعل له الأصول والقوانين، كان كل شيء مضطرباً مشوشاً لا نظام له ولا قاعدة، فأصبح اليوم يرى عالماً كله النظام وكله الترتيب، في كل ناحية من نواحيه ومعنى من

معانيه، كان الإنسان الأول يراع من رؤية البحار ويرهبها؛ ولقد لبث على هذا أحقاباً ثم بعد ما لا يعرف الآن على وجه التحقيق من الدهور وُفق أن يتوصل إلى نقر جذوع النخل والأشجار الأخرى فيطفو بها على سطح الماء... ثم لم يزل يسوقه التطور ويدفعه، حتى تهيأ له أن يركب هذه المدن الجميلة الطافية؛ ساخرة من البحر ومن أمواجه».

هذا؛ والكتب السماوية كلها تقول: إن الله هو الذي علّم نوحاً صنع السفينة، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧]، ويقول: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون:٢٧]، ويقول: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥]، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٣-١٥]، فأيهما نصدق، آلله أم القصيمي؟ لا شك أن المؤمنين بالله وكتبه ورسله، يصدقون الله وحده.

ثم يقول: «إن أقل ما يجب أن نفعله الآن: هو أن نشيد ثقافة جديدة كل الجدة، منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة، وأن نقيم قواعدها على روح الإيمان بالإنسان وبمواهبه التي لا تحصى، ثم أن نعدّ هؤلاء الذين يدعوننا إلى الكفر بالإنسان مجرمين».

وواضح أنه يعني أن نبني ثقافتنا على ما سبق تقريره من نظرية النشوء

والترقي، وأن الإنسان الأول كان شريراً خبيثاً ظالماً، وأن نكفر بسلفنا وعلمائنا وتراثنا الديني الإسلامي كله، لنبني هذه الثقافة على كل العلوم والنظريات المادية الحديثة، وأعتقد أنه لا يوافقه على هذا مؤمن بالله واليوم الآخر.

ومن الملاحظة الواضحة: أننا نجد الأستاذ القصيمي لا يفتأ يخلع على علماء الإسلام ـ كلهم بدون تفصيل ولا استثناء ـ من ألقاب الإجرام والغباوة والبلادة والبلاهة في كل صفحات كتابه الطويل، مما يدل على أنه حانق عليهم أشد الحنق، ومبغض لهم أشد البغض، وأنه كذلك لا يذكر كتب التفسير والحديث والفقه ـ كلها كذلك بدون تفصيل، إلا بكل انتقاص ومذمة وسخرية لاذعة وتهكم شنيع؛ حتى لقد عقد الفصل العاشر «أمامنا لا وراءنا» للطعن والتقبيح بكل لون؛ والدعوة الحارة الصادقة إلى التخلص من كل هؤلاء الماضين وآثارهم بدون استثناء، والأخذ بما استحدثه فنانو ومخترعو أمريكا وأوروبا، من مدنيات وحضارات وفلسفات ونظريات بدون استثناء كذلك.

ثم هو لا يذكر المشهورين بالزيغ والإلحاد، كالحسن بن الهيثم والفارابي وابن سينا وأبي بكر الرازي وأضرابهم، من كل من عرفوا وسماهم هو مارقين ملحدين ـ إلا بالثناء والتعظيم البالغ والتبجيل؛ حتى إنه حين يستدل بقول جوستاف لوبون يقول: إنه الرجل الفيلسوف العظيم، مع أنه يذكر عنه مفاخراً

«أن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر، ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا في عهود الوثنية وعبادة الأوثان»!!

فهل يسمح الأستاذ القصيمي للقارئ أن يفهم من هذا أنك صرت من فريق ابن سينا والفارابي وجوستاف لوبون وإخوانهم؟ وأنك لست من الأغبياء البله البلداء المجرمين علماء الإسلام وقدوة المسلمين؟ مثل مالك والشافعي وأحمد وابن تيمية وابن القيم وأمثالهم رضي الله عنهم.

وإننا لنخطو خطوة سريعة؛ أو نطفر أو نثب ـ على مذهب الأستاذ القصيمي ـ وثبة قوية عجلى، لنتجاوز بقية فصول الكتاب التي تحتاج إلى تفصيل وقول طويل لا تحتمله صفحات هذه المجلة، ونرجئه إلى كتابنا التفصيلي ـ لنصل إلى فصله الأخير الذي هو خلاصة الكتاب، ومقصده الواضح، وهو الفصل الحادي عشر.

المشكلة التي لم تحل

وفيه يقول الأستاذ القصيمي: «يتبين للقارئ إذا كان قد قرأ فصول هذا الكتاب كلها: أن أساس هذه المزالق الفكرية قائم على التدين الباطل؛ أو على الفكرة الدينية من حيث هي، فالمشكلة التي ما أظن أحداً قد درسها دراسة صحيحة وافية: هي أن التدين قائم على الإيمان بسبب ترجع إليه جميع الأسباب، لأنه هو خالقها المهيمن عليها المتصرف فيها كيف شاء، وهذا

السبب الذي هو سبب الأسباب؛ أي الله على اختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفي حقيقته ـ لا يحتاج هو إلى سبب في وجوده، وفي قيامه بنفسه وفي فعله وصنعه.

فإذا وصلوا إلى الإيمان بهذا السبب، وإلى الإيمان بقدرته الكاملة، التي لا يعجزها شيء ولا يند عن سلطانها وقبضتها أمر، شَكوا في الأسباب الأخرى التي هي دونه، والتي هي من خلقه وصنعه؛ وإذا ما صاروا إلى الشك في الأسباب تراخوا في الأخذ بها وفي العمل على إتقانها والتعويل عليها، وحينئذ تصاب قواهم كلها بالضعف والعجز عن الإبداع والتبريز وعن الإنتاج والعمل البارع العظيم. فإن الإنسان لن يكون سببياً محضاً إلا متى آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية، تسير إلى نهايتها، والإنسان لن ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سببياً محضاً، فالإيمان بسبب الأسباب ـ الذي هو الله ـ يمنعه على حسب ما تصور وبلغ أن يكون سببياً، وعدم كونه سببياً يمنعه من النجاح..

فالله في تقدير المتدينين يغضب ويرضى وينتقم ويثيب ويجازي... ويتحكم في هذا العالم كله ـ على مقتضى الغضب والرضى والثواب والجزاء.. فإذا بلغوا ذلك الإيمان، هبوا يلتمسون رضا هذا الإله على ما تصوروا... وأرصدوا جل قواهم وأوقاتهم وأعمالهم لهذه السبيل، ليدركوا لديه ما

يشتهون ويبتغون، فشغلوا بذلك عن القيام بالأعمال النافعة المجدية؛ لأن تصورهم للأشياء قد أصيب بالفساد:

وأمر آخر: ذلك أن المؤمنين ـ بلا استثناء ـ يرون دائماً أن الله حينما خلق العالم وخلقهم، قد ضمن أرزاقهم وكفلها؛ وتعهد بحمايتهم ورعايتهم، لأنهم لا يتصورون أن يتخلى الله ـ وهو الكريم القادر ـ عمن صنع بيديه، وعمن أوجدهم اختياراً واقتداراً، فيصابون بما يصاب به الطفل المدلل.

ثم إن المؤمن ـ بلا استثناء أيضاً ـ يعتقد أن الله إذ تفضل عليه فخلقه، وأوجده من صميم العدم، فمن الواجب عليه أن يشتغل بعبادة ذلك الرب المتفضل، وبالانقطاع إلى عبادته، زاهداً في خدمة نفسه وخدمة شهواته، وأن يصرف كل قواه وأوقاته في شكر ذلك المنعم الخالق المتفضل وإلا فإنه عبد سوء.. وحينئذ يجيء عاجزاً في تناوله الأمور والحياة.

على أن هناك ما هو أعظم في الفرق بين المتدين وغير المتدين، ذلك أن الإنسان لا يمكن أن يحيا بدون أمل، وبدون شيء يرجيه.. على أنه لا خلاف في أن أسمى هذه الآمال وأقواها في الاجتذاب والتوجيه: هو ذلك الأمل الضخم الأبدي في تلك الحياة الأبدية الضخمة، التي ينال المرء فيها الخلود، وكل ما يُرجى من حاجات الجسم والنفس، بدون أن يكدر ذلك شيء من المكدرات المعروفة، التي تشوب لذائذ هذه الحياة

الأولى القصيرة، فإذا ما استطاع إنسان أن يتمثل هذا الأمل وأن يفنى ويتغنى به؛ وأن يصرف إليه تصوره والتفكير فيه، وفي لذة الظفر به والحصول عليه، فلا محالة في أن يشغله هذا عن كل شيء في هذا الوجود؛ وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لا يدع منه لهذه الحياة شيئاً، وقد يدع شيئاً قليلاً أو كثيراً.

فإذا لاحظنا على المتدينين أفراداً وشعوباً، عجزاً عن إيجاد الحياة وعن التحليق بالصناعة أو الزراعة أو العلوم المادية الإنسانية، أو عن شيء من أسباب الحياة ووسائلها، فلنعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو هذا التصور لهذا الأمل العظيم والانصراف إليه بأكثر العقل وأكثر العمل وأعظم الاهتمام.

فالمؤمنون إذن يشغلهم أملهم في الآخرة عن أن يصنعوا لهم في الدنيا أملاً عظيماً فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين.

وأوروبا يوم كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة، كانت في ذلك الهوان والضعف والعجز، فلما أن مرقت من إيمانها، وتنازلت عن ذلك الأمل الأخروي؛ وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية، هي آلهتها التي وحدتها، وأبت الإشراك بها، صعدت بالحياة هذا الصعود، وقد قال أحد فلاسفة الإنجليز المعاصرين: «إن أوروبا لم تستطع أن تكون أوروبا؛ إلا بعد أن أعتقت نفسها من رق الإيمان بالآخرة وبالله».

وكانت روسيا مثلاً طيباً للوهن والفقر والجهل والمسكنة، حينما كانت مسيحية متدينة صالحة، تشكو بؤسها ومرضها إلى القوى الخفية المجهولة، فلما أن مرق بها البلاشفة؛ وصنعوا لها أرباباً آخرين، وعبادة أخرى من المصنع والمحراث والمدرسة، صارت روسيا قاهرة ألمانيا.

وكذلك القول في تركيا والأمم الحديثة والقديمة.

وهذه اليابان الفتية المتوثبة، وإن كان للدين البوذي فيها آثار وبقايا ومعابد وتماثيل، إلا أنها قد نفضت حقيقة هذا الدين فلم تدع على روحها منه شيئاً، وإن أبقت تلك الأشياء على جسمها الخارجي، والدين الشنتوي الذي تقمصته الروح اليابانية هو الدين الذي يوجهها ويمثلها، وهو يقوم على عبادة الطبيعة وعبادة مظاهر هذا الكون الجميلة، وعلى عبادة الجمال والقوة المادية، ليست له طقوس ولا فروض ولا عبادات خاصة، ولا كتب ذات نصوص يتعبد بتلاوتها ـ يعني كالقرآن للمسلمين ـ وهو لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب ولا بالعقاب والجزاء، وخلاصته أنه دين الطبيعة، فمن ثم كان أهله أشد اتصالاً بالطبيعة، ومن أجل هذا وجدت الأمة اليابانية المخيفة.

وما أبدعت أمة إلا بقدر ما كان لديها من الأمل في هذه الحياة والدوران حولها، وقد أبدع الإغريق والرومان والمصريين القدماء وغيرهم

من الشعوب القديمة، لأنهم كانوا يبالغون جداً في حب مظاهر الطبيعة حتى عبدوها، وهوت كل الأمم التي انصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد من هذه الطبيعة، إلى مالا تحس ولا ترى ولا تجد: من الإيمان بالله والدار الآخرة، حتى أن رجلاً فيلسوفاً عظيماً هو الدكتور جوستاف لوبون لما لاحظ هذا قال: «إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر» لأنه ـ على ما زعم ـ قد وقف بالحضارة عن التقدم والسير إلى الأمام، قال: «ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا في عهود الوثنية وعبادة الأوثان».

وهو طبعاً يريد بعهود الوثنية العهود التي سادت فيها عبادة الطبيعة، وبعهود التوحيد والإيمان العهود التي أعلن فيها الدعوة إلى عبادة الله وحده؛ وإلى العمل للآخرة وحدها والتأميل فيها دون الدنيا؛ كعهود أنبياء بني إسرائيل وأسباطهم.

ومن الملاحظات الفردية أن الآحاد الذين نراهم ينجحون في التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الإنسانية، هم دائماً من غير الأتقياء الورعين، وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم.

حتى إننا إذا أردنا أن نلتمس في تاريخنا نفسه، مكان أولئك الأفذاذ القلائل الذين لمعوا في سماء الشعر والأدب الخالد، أو قاموا بنظريات علمية لها بقاء وخلود، أو جاءوا بفلسفة ذات شأن، لم نجدهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرد والانحلال الديني، أمثال: المتنبي والمعري وابن الرومي والجاحظ وابن سينا والرازي والفارابي وابن رشد وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم.

ثم قد علم بالتجربة، أن المتدينين يفقدون الميزان الفكري الذي توزن به الأمور، ويصبحون من الناحية النفسية أناساً طيبين خيرين فاقدين لكل مناعة عقلية؛ وليست روح التسليم العقلي عند المتدينين بجديدة؛ بل هي روح ملازمة لهم منذ وجدوا وكيف وجدوا.

ومن الواجب أن تعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكري لدى المتدينين والذي يظهر لنا من أن أسبابه: أنهم يرون أن الوجود كله ـ بما فيه من حوادث وأحداث ـ محكوم بقوة مجنونة في أفعالها وتصرفها، فلا ضوابط ولا قوانين للمعجزات ـ يعني طبعاً معجزات الأنبياء عليهم السلام ـ فكل شيء جائز، فيصابون بالفساد الفكري، وإذا انهار الأساس انهار بلا شك ما رفع عليه.

وهذا التعليل صحيح على وجه الإجمال، كما علل بعض علماء النفس والاجتماع، القسوة التي يتصف بها المتدينون غالباً إذا قدروا، وأخذهم

خصومهم بلا شفقة ولا إنسانية بكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصاة والكافرين، وكثرة قراءتهم النصوص التي تصف الأهوال المعدة لأهل الآثام والشهوات، يعني في الآخرة، ولن تجد أقسى قلباً ولا أفتك يداً، من إنسان يثب على عنقك ومالك ويقتلك ويسلبك معتقداً أنه يتقرب إلى الله بذلك، ويجاهد في سبيله وينفذ أوامره وشرائعه»!!

هذا ما يؤمن به الأستاذ القصيمي ويعتقده في الجهاد في سبيل الله، لأجل تنفيذ أوامره وشرائعه، أما هذه الحروب الوحشية الباغية على الضعفاء والنساء والأطفال لأجل الاستعمار والاغتصاب والظلم، فهو يؤمن بأن أهلها الموقدين لنارها والشابين لضرامها مصلحون صالحون، يجب الإيمان بهم ومدنيتهم ومادتهم وآلهتهم، والكفر بالرسل وكتبهم وربهم والمؤمنين الذين اتبعوا النور الذي أنزل معه؛ وباعوا أنفسهم لله وفي سبيله، ولإعلاء كلمته، والذين وعدهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار؛ يسخر منها الأستاذ القصيمي ومن الآملين فيها بكل ما عنده من سخرية لاذعة، فهل يسمح لنا أن نقول له في صراحة مثل صراحته: لست من أهلها، بل أنت مع إخوانك في النار.

ثم ذهب يعتذر في رخاوة وبرود عن وسمه الدين والمتدينين بهذه السمة، ولكنه مع ذلك عذر لا يخرج في حقيقته ومدلوله عن قوله الأول في

الدين والمتدينين، إذ يزعم أن: «الدين بطبعه وروحه لا يعدو أن يكون وثوباً بالعاطفة وبالعقل والخلق والعمل»، ومعنى ذلك الذي لا معنى له سواه، ما سبق تصريحه به أن الدين طور من تطورات الإنسانية التي يلزمها أن تصنعها، وأنه ليس من عند الله ولا جاءت به رسل أوحي إليهم، ويدل لذلك أوضح؛ قوله: «ويظهر أن المبادئ الإنسانية العظيمة ـ ولا تنسى أنه في معرض الكلام عن الدين ـ تأتي دائماً سابقة لأوانها واستعداد الجماهير من البشر، فإذا دعوا إليها أو فرضت عليهم ـ قبل تمام هذا الاستعداد ـ أخذوها أخذاً سيئاً ضاراً بهم وبالمبادئ نفسها، وذهبوا يعملون بها على غير وجهها وصوابها، ومن هنا تأتي النكبة، وكلما تقدم نضج الإنسان قرب من الإحسان ومن الفهم الصحيح والتصور الصحيح لهذه المبادئ الجميلة التي تسبق استعداده».

فالدين مبدأ ككل المبادئ الإنسانية كالديمقراطية والعدالة الاجتماعية والنظام والسلام العام وغيرها من المبادئ التي صنعها الإنسان بتفكيره.

والمتأمل بعض التأمل في كلامه يعلم أن ربه.. الذي سماه فيما نقلنا عنه أول هذا الفصل: سبب الأسباب ـ ليس هو رب العالمين الذي يؤمن به المؤمنون، الذين عرفوه من كتبه ورسله وآياته، وإنما هو العنصر الأول أو الأصل الأول، الذي يؤمن به الفلاسفة والماديون والطبائعيون، ومن هنا عاب أشد العيب على المتدينين الذين يتعلقون بالله ربهم دائماً يرجون رحمته ويخافون عذابه، بل سخر

منهم سخرية لاذعة، ومغزى كلامه ومدلوله: أن ربه الذي هو سبب الأسباب، حين انفصلت عنه الأسباب، انفصلت انفصالاً تاماً واستغنت عنه غنى تاماً بما فيها من الطاقات والقوى الذاتية ـ التي يكررها كثيراً جداً ـ بحيث لم يبق له عليها أي تدبير ولا تسخير ولا قهر ولا أمر ولا نهي!

ثم هو يعطي دليلاً أوضح؛ هو أن ربه سبب الأسباب هذا من الممكن معرفة كنهه وحقيقته، والعلماء جادون ـ كما يقول ـ في معرفة سر الحياة، وهم لا بد ظافرون ومنتصرون، حتى ليُنتظر أن يُرى قريباً الحيوان الصناعي والإنسان الصناعي، والله ربنا ورب كل شيء يقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]، أي من سر الربوبية في هذا الوجود التي لن يمكن لإنسان مهما علا كعبه في البحث والاكتشافات المادية أن يصل إلى كنهها وحقيقتها.

وإني مؤمن بأن الأستاذ الصصيمي سيموت قبل أن يتحقق رجاؤه في الحيوان الصناعي والإنسان الصناعي [١]، وصدق الله إذ يقول: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَـةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِـيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ

(١) وقد تحقق إيمان الشيخ!

عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم:٢٨-٣٠].

ولقد كان خيراً وأولى بالأستاذ القصيمي وأجدى عليه وعلى الناس، أن يسلك مسلك المصلحين الصادقين المخلصين المجربين أكثر من تجربته آلاف المرات؛ مثل أستاذنا السيد رشيد رضا في مناره، وصنوه أمير البيان الأمير شكيب أرسلان في كتابه «لماذا تأخر المسلمون؟»، وغيرهما، وهم بحمد الله كثير، درسوا هذه القضية وهذه المشكلة، ومن قبلهم حلها الله في كتابه الذي هو تبيان لكل شيء، والذي يهدي للتي هي أقوم، وحلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصاياه ونصائحه النبوية الصادقة.

فالأولى والأحق أن ندعو الناس إلى الدين الصحيح، لا أن ندعوهم إلى الكفر به وبالآخرة وندعوهم لعبادة المادة والطبيعة، فإن مفكري أوروبا وعقلاءها يشكون مُرَّ الشكوى من الفساد والفوضى التي حاقت بهم من طغيان طوفان المادة؛ فقوضت كل نظام وقضت على كل فضيلة روحية وميزة معنوية للإنسانية كلها.

ولا أدري ما الذي نزع بك يا قصيمي عن ماضيك الديني الحميد، ودعوتك الإسلامية، إلى هذا الدين الجديد، الذي انسلخت به عن كل ماضيك الحسن الجميل؟!

ولكن: سبحان مقلب القلوب والأبصار، كما يقلب الليل والنهار، وإن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار».

هذا هو الظن بآل سعود المؤمنين[1]

«لم يكن يخالجنا ذرة من الشك لحظة من اللحظات أن محكمة العقل والتوحيد السعودية ستقضي على القصيمي بما قضى به هو على نفسه، إذ قاد نفسه إليها مكبلاً بهذي الأغلال، وما كان لدعايات الأغرار السفهاء، الذين لا يمتون إلى الإسلام بأي سبب ـ أي أثر في زحزحة آل سعود المؤمنين الموحدين عن عقيدتهم فيهم، وأنهم بلا أدنى شك هم ولا يزالون أنصار الإسلام، دعاة الحق،وجند التوحيد على علم وبينة ونور من ربهم.

وها نحن نسوق إلى الناس دليلاً جديداً على صدق إيمان آل سعود وفقههم وتبصرهم في دينهم، وأنهم لا يخشون في الله لومة لائم، ويصدعون بكلمة الحق، وهم يعرفونها ويقدرونها قدرها، وأنهم هم الذين حاربوا إخوانهم وأقرب الناس إليهم يوم قام هؤلاء السعوديون ينصرون دين الله ويجاهدون في سبيله وابتغاء مرضاته، حتى بوأ الله لهم هذا الملك الوطيد، وأقام لهم هذه الدولة الإسلامية على عمد الإسلام وقواعد التوحيد الخالص، وإنهم لثابتون بحمد الله ثبات الجبال الرواسخ بالقول الثابت

(١) مجلة الهدي النبوي، عدد محرم ١٣٦٦هـ.

والعقيدة الصحيحة، لا يتحولون ولا تميل بهم الأهواء، زادنا الله وإياهم ثباتاً على الحق وعزيمة على الرشد.

وها هو الدليل؛ فاسمع إليه إذ يسوقه أقرب الناس إلى قلوبهم، وأصدق المقربين حديثاً عنهم، وهو السيد ...[1] من آل أستاذ الجميع: الإمام السيد محمد رشيد رضا الذي كان ـ رحمه الله ـ أصدق لسان ينصر الله به الحق، ويعلي كلمته التي حمل رايتها، وباع نفسه وماله في سبيلها آل سعود، فكان له ـ رحمه الله ـ من قلب جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ـ أدام الله تأييده ونصره ـ أوثق المحبة وأعظم الثقة، وأصدق المحبة في ذات الله وأرفع المكانة.

قال السيد ...:

ذهبت أنا وابن عمي السيد .... نزور صاحب السمو العالم الأديب، مثال الذكاء والحصافة، ومضرب المثل في الفطانة والحنكة السياسية: الأمير الجليل، الذي يعرف الجميع منزلته من قلب الملك المعظم، وملازمة سموه لجلالته سفراً وحضراً، ولما امتاز به سموه من عظيم الحكمة، واتساع الأفق العلمي في كل ناحية دينية ودنيوية، ولعل سموه كان صاحب الفضل أولاً في تقريب القصيمي ونيله ما كان يناله من الحكومة السعودية، وهذا شأنه مع كل طلبة العلم، مد الله في حياة سموه المباركة.

---

(١) أخفت المجلة اسمه.

وكانت العادة أن نتشرف بزيارة سموه بعد صلاة المغرب، فجلسنا ننتظر مقدم سمو الأمير وتشريفه المجلس، وكان محمد التميمي - تابع القصيمي - قد سبقنا، فلم نلبث قليلاً حتى أشرقت طلعة سمو الأمير، تحفه الهيبة والجلال، ويشع من عينيه نور الذكاء والحكمة، فسلمنا، وتفضل حفظه الله فخصني والسيد .... بتحية حارة، وأجلسني عن يمينه، والسيد .... عن يساره، ولم يعر التميمي التفاتاً، فعجبت لذلك، فإن هذا يخالف ما جمل الله به سمو الأمير الكريم من الأدب العالي، والأخلاق السامية الكريمة، فقلت في نفسي: لا بد أن لذلك سراً، لا بد أنه سيظهر قريباً، ثم استأذنا فلم يأذن لنا، وتفضل - حفظه الله وأطال بقاءه - ممتعاً بأجمل العافية فدعانا إلى العشاء مع سموه، ثم أخذني بيمينه والسيد ... بيساره، وسار بنا إلى غرف الطعام، وكذلك أجلسني عن يمينه والسيد ... عن يساره، وهو في كل ذلك لا يلتفت على التميمي، فتبعنا التميمي حتى دخل غرفة الطعام، وجلس بجواري، فنظر إليه صاحب السمو نظرة غضب، وقال بلهجة شديدة: أنت يا تميمي كتبت في جريدة الكتلة مقالة تمدح بها كتاب الأغلال، وتثني على مؤلفه؟ فسكت التميمي ولم يحر جواباً، فتابع سمو الأمير الكلام، وقال له: أنت قرأت الكتاب وفهمته؛ وعرفت مقاصده؟

فحاد التميمي عن الجواب؛ وقال: إن المهم يا سيدي الأمير هو سمعة

آل سعود، والقصيمي نجدي قبل كل شيء، وقد صارع المشركين والقبوريين ولا يجوز أن نخذله بعد مواقفه هذه.

فرد سمو الأمير في حدة وغضب شديدين، وقال: ألأنه نجدي نغتفر له الشرك والإلحاد؟! ولأجل مواقفه نلقي له الحبل، ونقره على الزيغ والضلال؟! هذا عجيب جداً، ومتى كان آل سعود يداهنون في دينهم ويجاملون؟ وهذه سيوفهم تقطر من دماء المبتدعين المشركين، ولقد كان الناس قديماً يطعنون على آل سعود أشد الطعن ويرمونهم بكل نقيصة، فلما عرف الناس أننا والحمد لله إنما نجاهد للحق ولإعلاء كلمة الله، ولإنقاذ الناس من الغفلة والجهل والوثنية، عادوا على أنفسهم باللوم، واستغفروا مما كانوا يرموننا به، والحمد لله على رجوعهم إلى الحق، حين عرفوه..

ونحن آل سعود لا يهمنا من يمدحنا ولا من يذمنا، وإنما يهمنا العقيدة الصحيحة، ولقد سمعت الملك ـ حفظه الله وأيده بنصره ـ يقول مراراً: إن اليهود ـ أشد أعدائنا ـ إذا أعطيناهم نقوداً يمدحوننا أكثر من أقرب المقربين.

فلما سمع التميمي ذلك، حاول أن يتجه بالحديث اتجاهاً آخر، فقال: إن الملك ـ أطال الله بقاءه ـ حكيم غير متسرع، وقد أحال الكتاب على لجنة من العلماء على رأسهم الشيخ محمد بن إبراهيم، فرد صاحب السمو الأمير في

حدة أشد من الأولى، وقال: أنا أفهم ما تقصد وأعرف ما ترمي إليه، ونحن لا نشك في هذا ولا نجهله من الملك حتى تعلمنا به، ونعرف أن السبب أن الملك ـ حفظه الله ـ لم يبد رأيه في الكتاب؛ لأنه لم يقرأه إلى الآن، لأنه مشغول بما هو أهم، وأما إحالته إلى لجنة من العلماء على رأسهم العالم الجليل الشيخ محمد بن إبراهيم، فأقول: إنا حين قرأنا على الشيخ محمد بن إبراهيم مقدمة الكتاب التي نشرت في إحدى المجلات المصرية، غضب أشد الغضب، وحكم عليه بالمروق والضلال، فكيف به حين يقرأ الكتاب كله، وبالأخص حين يقرأ الفصل الأخير منه الذي فيه الطعن الشنيع على الدين والمتدينين.

ثم قال صاحب السمو للتميمي: أنت يا تميمي لو أعلنت توبتك ورجوعك عن مدحك للكتاب قبلنا منك هذه التوبة والرجوع، أما القصيمي فمهما أعلن توبته باللسان أو القلم، فكتابه يدل على خبيئة في نفسه قد تمكنت منها، وتغلغلت فيها أشد التغلغل، وأمثال هذا لا تنفع توبته، ولا ينخدع بها إلا من يخدعون بالظواهر.

ثم أعطى سمو الأمير للتميمي مجلة السوادي التي فيها مقالة الأستاذ سيد قطب، وسموه شديد الاحتفاظ بها ـ وقال له: اقرأ هذه المقالة على المجلس، فتلكأ التميمي فألزمه سمو الأمير بقراءتها، فكان سمو الأمير يلفت

السامعين إلى كل فقرة فيها، ويؤمن عليها، فلما فرغ من قراءتها استرد منه سمو الأمير المجلة واحتفظ بها، وانفض المجلس بعد هذا لذهاب سمو الأمير إلى مجلس الملك.

وقد سمعت صاحب السمو في مجلس آخر يقول: إني قرأت كثيراً من كتب المبشرين الذين يطعنون في الإسلام، ويحاولون تشويهه، وقرأت كتاب القصيمي، فوجدته قد فاق عليها جميعاً، وبزها في محاربة الإسلام والديانات السماوية كلها، وأكاد أقطع بأن القصيمي مدفوع إلى هذا بدوافع الله أعلم بها.

وقد سمعت الشيخ حسين نصيف مدير الأوقاف بجدة سابقاً ـ والتميمي في دارهم العامرة ـ يقول للتميمي عند أول مقابلة: الحذر يا تميمي أن تمدح كتاب القصيمي أو تدافع عنه، وإلا عرضت نفسك لغضب الجميع وما لا نحبه لك، ثم أخذ منه الكتاب، وقال له: حتى لا يراه أحد معك فيثير غضبه.

هذه حقيقة ما رأيت وشهدت في جو الحجاز، وما لقيت أحداً من النجديين إلا رأيته ساخطاً حانقاً جداً على كتاب القصيمي، وكثير من العلماء آخذ في الرد عليه، وتفنيد ما فيه من أباطيل، ومنهم من هو مشغول بعمل التقريرات لرفعها إلى الملك أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونصره».

كلمة أعيان العلماء(١)

«طالعنا القراء في العدد الماضي بكلمة «الحق والعدل» التي أصدرها الملك الصالح إمام الموحدين: الملك عبدالعزيز آل سعود أدام الله تأييده ونصره: حكماً صارماً على مؤلف «هذي هي الأغلال».

وقد جاءتنا الكلمة الآتية من المفضال السري الأمثل الشيخ محمد نصيف الذي ليس في العالمين الشرقي والغربي من يجهله من السراة وأعيان العلماء، فداره العامرة بجدة ندوة أهل الفضل والعلم والأدب، ومنزل كرام ضيوف الوافدين على الحجاز من مشارق الأرض ومغاربها من جميع الطبقات، ومكتبته الجامعة لنفائس الكتب في جميع الفنون والعلوم من مخطوط ومطبوع مورد عذب لكل ناهل وظامي، وهو يعبر في كلمته عن رأي طبقتي الأعيان والعلماء، ولقد كان أشد الناس عطفاً على القصيمي وبراً به ونفعاً له، ودفاعاً عنه.

قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى إخواننا أنصار السنة، ثبتنا الله وإياهم وبعد، فإن القصيمي سيشيع في حزبه الخاسرين: أنه إنما يعلن

---

(١) مجلة الهدي النبوي، عدد ربيع الأول ١٣٦٦هـ.

للملك توبته: خوفاً على حياة أسرته بنجد، ولعل بعضهم ينخدع بهذا؛ فليعلموا أنه إنما يحاول الإبقاء على نفسه وعلى مرتبه فقط، إذ ليس له بنجد أسرة، وما له إلا أم ضعيفة قد أهملها وضيعها، وتركها لرحمة بني عمها، وقد كتبتْ إليه بواسطتي مراراً تطلب منه البر بها ومساعدتها بشيء مما أوسع الله عليه من أثمان كتبه ومرتبه الكبير، ومع الأسف فإنه لم يكلف نفسه حتى رد الجواب، لا علي ولا عليها، وهو لذلك أشد الناس عقوقاً لأمه وقطيعة لرحمه، ولو فرض أن له أسرة بنجد فإن الملك وقاف عند أمر الله وشرعه؛ فلا يخالف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤].

ولله درك يا حامد، فلقد كنت أبعد الناس نظراً وأدقهم وزناً للقصيمي، وأعرفهم بلحن قوله، والله يزيدنا وإياك هدى وبصيرة وتوفيقاً وتسديداً، وتثبيتاً على الحق والصراط المستقيم».

براءة من القصيمي(١)

«من عبدالمجيد أحمد السلفي - بالشيخ عثمان: عدن - إلى أخي في الله سابقاً: عبدالله بن علي القصيمي.

وبعد، فإنه لم يكن لك في بلادنا عدن وضواحيها من صديق لك قبلي، وما كان يحبك أحد مثلي؛ لأنك قد خدمت الدين ونصرة الحق، وكنت تبعث من ضياء التوحيد ما يبدد ظلمات الجهل والإشراك بالله، ونحن ممن انتفع بكتبك: «البروق النجدية»، و «الفصل الحاسم»، و «شيوخ الأزهر»، و«الثورة الوهابية»، و «الصراع بين الإسلام والوثنية».

ولعلك لا تنسى أني منذ ثمان سنين بعثت إليك بتحية الإجلال والإكبار، وقلت لصديقي الشيخ محمد بن سالم البيحاني أن يُقَبلك بين عينيك، وأظنه فعل، واليوم يصل إلينا كتابك الأغلال، فكنا نظنه ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [غافر: ٧١ - ٧٢]، ولكن ما كدنا نقرؤه حتى وجدناه ويا للأسف داعياً لعبادة المادة وترجماناً للإلحاد، وشبكة للشيطان، يقتنص بها الذين يقولون: ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص:

(١) مجلة الهدي النبوي، عدد ربيع ثاني ١٣٦٦هـ.

٧٩] ، وأنت تعلم ـ ومصيبة من يعلم أعظم ـ أن الدين الذي جاء لتهذيب الروح وتخليص النفس من سلاسل الذنوب والركون إلى دار الغرور، لا ينبغي أن يكون وسيلة لتقديس العاجل والاشتغال به عن الآجل، وما علينا وقد اتبعناه وآمنا به إلا أن نعمل للآخرة ما يقربنا إلى الله، غير ناسين نصيباً من الدنيا، وليس علينا أن نجعل أنفسنا أغنياء أو مسيطرين على الدنيا، فذلك بيد الله وحده ما دمنا نحب العمل، ونسعى بكل الأسباب والسنن الكونية إلى الخير في المعاش.

فالله نسأل أن يُرجع إليك صوابك، وأن لا يُضل بك أحداً من خلقه، وإن كنت تقرر أن الدعاء غباوة وبلادة وأن العبد يغني نفسه ويفقرها، ولو كنت أعرف أن اللوم يُرجعك لزدتك، ولكنك أقمت بكتابك الدليل أنك قد اتبعت هواك، فطاش بك القلم وزلت بك القدم، والحمد لله الذي جعلك تُفرغ سمومك الخبيثة دفعة واحدة، حتى لا يفتتن المسلمون بقراءتها مدسوسة في كتبك الأخرى، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به، ونسأله أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا».

أخوك بالأمس والمتبرئ منك اليوم

عبدالمجيد أحمد السلفي

حول كتاب «هذي هي الأغلال»[(١)]

«ألَّف العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي النجدي رسالة لطيفة تقع في ثلاث ملازم سماها: «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله» يرد بها ترهات القصيمي في كتابه المعروف، وقد قام بطبعها على نفقته حضرة السري المسماح الشيخ محمد نصيف، وقام بتوزيعها مجاناً في مصر وغيرها على الأفراد والهيئات ممن يصح أن يكونوا قد عرفوا هذا القصيمي من قبل، فيسألوا الله التثبيت على الهدى، ويقولوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨].

والشيخ عبدالرحمن بن ناصر غني بشهرته العلمية الناضجة عن التعريف، فهو صاحب «رسالة القواعد الحسان لتفسير القرآن» التي قامت مطبعة أنصار السنة بطبعها منذ وقت غير بعيد.

وعندما أهدى الشيخ محمد نصيف هذه الرسالة القيمة لسعادة الشيخ محمد بن مانع مدير المعارف بالمملكة العربية السعودية أرسل إليه ما نصه: «حضرة الأخ المكرم الشيخ محمد نصيف. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

---

(١) مجلة الهدي النبوي، عدد ذي القعدة ١٣٦٦هـ.

وبعد، فقد وصلت إلي الرسالتان: رد الشيخ عبدالرحمن على الأغلال، فجزاكم الله خيراً ونصر بكم الإسلام والمسلمين، وحقيقة أنكما قمتما بفرض الكفاية، فجزاكما الله خيراً. والسلام» **محبكم الداعي محمد بن نافع.**

وكذلك أرسل الأستاذ العلامة الشيخ بهجت البيطار مدير مدرسة التوحيد بالطائف إلى الشيخ محمد نصيف عندما أهدى إليه نسخاً من هذه الرسالة بخطاب هذه صورته:

فضيلة العلامة الجليل الأستاذ الشيخ: محمد نصيف المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد وصلتنا هديتكم الكريمة وهي: «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»، تأليف علامة القصيم الأستاذ الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي، وقد تفضلتم بطبعه على نفقتكم، فشاركتم المؤلف في الثواب، فجزاكم المولى وجزاه أفضل الجزاء وأدام توفيقكم جميعاً لما يحبه ويرضاه، وعوض عليكم أضعاف ما بذلتموه. وقد وزعنا النسخ المهداة منكم على الأساتذة الكرام، فشاركونا في الثناء الطيب على فضيلتكم والدعاء الخالص: والأستاذ المؤلف من فضلاء العلماء وحكمائهم ، وقلمه طري وأسلوبه عذب شهي، وكتابه وإن لم ينقل عبارات القصيمي بحروفها، فقد أشار إلى مواضعها وصفحاتها، وأنا لم

أطالع الأصل، ولكن تبين لي من الرد أن منزع المردود عليه إلحادي إفسادي، وغرضه التشكيك بالديانات، وأهلها، وهدم أصولها وقواعدها، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢] ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإني مذ اجتمعت بالقصيمي في أوتيل حارة الباب في مكة المكرمة رأيته قادماً على انقلاب عجيب، وقد ظهر هذا في كتابه، وسمعت أنه أنجز كتاباً آخر سماه «محنة الفكر العربي»، ولعله من هذا الباب، ويريد أن يزيد به الطين بلة، أصلحه الله وهداه، وتاب عليه وأعاده إلى حظيرة الإسلام بمنه وكرمه».

محمد بهجت البيطار

قصيدة الشيخ عبدالظاهر أبي السمح[(١)]

قال الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن الملحدين في كتابه: «حياة القلوب»:

«ومن هؤلاء الذين طبع الله على قلوبهم رجل كان يذب عن التوحيد ويقرره في كتبه ورسائله، والناس معجبون به، إذا هو بين عشية وضحاها يُشكك في وجود الله تعالى، ويزعم أن الإسلام هو الذي أخر متبعيه، وأنهم لا يرتقون ولا يسيرون مع ركب الأمم المتقدمة الراقية إلا بترك هذا الدين القويم، ومن هو هذا المسكين الذي أصيب في عقله ودينه، وما هو هذا الكتاب الذي ضمنه مخازيه وحملته على الإسلام؟! أما الكتاب فاسمه «الأغلال»، وهو يريد بهذه التسمية أن أوامر الإسلام ونواهيه (أغلال)، وأما هذا المؤلف فهو أحقر من أن يُذكر إلا بالسخرية والاستهزاء.

وفي مصر ملحدون كثيرون عادَوا الإسلام عن جهل به، وعدم معرفة لتعاليمه، وذلك لأنهم نشأوا بعيدين عنه، وهؤلاء أقرب إليه؛ لأنهم لو فتحوا كتابه لوقفوا على ما تقر به أعينهم، وترضى به أنفسهم، وترتاح إليه

---

(١) نشرها في كتابه «حياة القلوب» (ص ٨٩-٩٣).

قلوبهم؛ أما الملحدون الآخرون فهم أصحاب شهوات وشبهات عادَوا الإسلام؛ لأنه يضيق عليهم من دوائر فسقهم وشهواتهم؛ ويحرم عليهم الرذائل، ويضطرهم إلى نظام حي في الحياة لا يريدونه، فآثروا الخروج عليه والطعن فيه، وكان من حلم الله عليهم أن أملى لهم وأمدهم في ضلالهم؛ فازدادوا بذلك غروراً وكانوا قوماً بورا.

والملحدون في كل أمة متدينة دعاة فتنة وقادة همجية، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فهم بلاء الشعوب، ووباء الإنسانية ومرضها، وعلة الاجتماع، ولا شفاء للأمم منهم إلا بضرب رقابهم، واستئصال شأفتهم، وملحد الأغلال بزهم في البهتان والكذب على الله والقرآن، فالقرآن يدعو إلى الإيمان والأعمال الصالحة، وإلى العلوم والمعارف، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[الأنفال: ٦٠]، وفي القرآن آيات كثيرة تدعو إلى البحث والنظر؛ وتحث على الضرب في الأرض، واستخراج كنوزها وتعلم علومها، فهل هذا الدين يؤخر متبعيه؟ فما هي الآيات التي تدعو إلى ترك العمل والانصراف عن الحياة؟ والظاهر أن هذا

الملحد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، وسيرى عاقبة ما سولت له نفسه، وقد قلنا فيه وفي أمثاله هذه القصيدة:

مدحتك يا أخا الأغلال قبلاً ... بها ألفتَ (من سِفر الصراع)
فأما الآن فاسمع من قوافي ... هجائك مُهلكات كالأفاعي
تساور مارقاً يدعو لكفر ... تردَّى في الثرى بعد ارتفاع
عزوتَ إلى الشرائع كل نقص ... ومنك النقص في كل المساعي
وقلتَ: (الدين أخَّر تابعيه) ... وهذا قول أحمق لا يراعي
أتنكر دين خير الخلق طرا ... وتاريخاً تواتر بالسماع
أتنكر يا غوي قرون صدق ... سموا بالدين في كل البقاع
أما ملكوا الورى في كل قطر ... بدينهم القويم والاتباع؟
أهذا الدين أخَّر تابعيه ... وهذا الدين من رب مطاع؟
فقل يا أخا الأغلال واصدق ... أكذبٌ منك أم قصر اطلاع؟
جنون منك أن تدعو لكفر ... وتؤثره بمنزور المتاع
تبيع الدين بالدنيا غروراً ... لتُشْهر بين أوباش رعاع
أما دك الصحابة كلَّ عرش ... بهذا الدين من بعد القلاع
فسل إن كنت لم تعلم وإلا ... فدارِ الجهل يا ابن بني لكاع
أيا بلعام عصرك أي أرض ... تقلك والأنام عليك داع
وقد بارزت رب العرش جهراً ... لكفر فيك أو لؤم الطباع
فمن يحميك من رب غيور ... شديد البطش ذي أمر مطاع

أمـــا والله إن الــــدين عــــز لمــــن والاه حقـــاً باتبـــاع
وليس الذنب ذنب الـدين لكـن ذنـــوب الجـــاهلين بالابتـــداع
ألا يا ابن القصيم ضللت فارجع فـــإن الحـــق أولى باســـتماع
لقـد أسرفـت في الأغـلال حتـى سـقطت وكنـت طـلاع الـتلاع
وقـــد والله أشـــمتّ الأعـــادي بـــلا ســـبب لـــديك ولا دواع
فبـــيّن بالأدلـــة أيّ غـــل أتـــى في الـــدين عقـــل أو ســماع
وفي التنزيـــل أم ســـنن صـــحاح نهـــاك الله عـــن حـــسن اخـــتراع
تحبـــذ فعـــل إفـــرنج تولـــوا عـــن الأديـــان والـــرب المطـــاع
وتهوى أن يعيش النـاسُ فـوضى كأنعــــام تُـــسَافد في المراعـــي
وتـــدعو للتـــبرج كـــل أنثـــى بـــلا خجـــل لـــديك ولا ارتـــداع
أتـــدعو للجهالـــة بعـــد علـــم وللفحـــشاء والنُكـــر المـــشاع
أيعجبك الفـرنج وهـم وحـوش ومـــا للخـــير عنـــدهم دواع
فــما يرجــون مــن رب ثوابـاً ولا يخـــشون كالإبـــل الرتـــاع
ويـوم الحـرب عنـدهم جحـيم تـصب عـلى الأكـابر والرعـاع
عـلى الأطفـال والـضعفاء تـترى بـــلا رفـــق أضر مـــن الـــسباع
ولـولا الـشرق في نـوم عميـق لمـــا نعـــم العلـــوج بـــذا المتـــاع
فأبـشر يـا غـوي بكـل خـزي ومـــا تلقـــاه مـــن صـــفع الـــيراع
ستندم يـوم تُجـزى كـلُ نفـس بـما عملـت لـدى نـشر الرقـاع
أتـذكر يـوم كنـت حليـف فقـر وقمـــلٌ في ثيابـــك واللفـــاع

فلـما أن حبـاك الله مـالا ... لتـشكره بقـدر المـستطاع
بطـرت وقمـت للـرحمن حربـا ... بـلا خجـل لـديك ولا قنـاع
خـسرت الـدين والـدنيا جميعـا ... ومالـك في القيامـة مـن دفـاع
فتـب لله قبـل المـوت واصـدق ... ودع ما قد نـسجت مـن الخـداع
نصحتك إن قبلت اليوم نـصحي ... وإن تُعـرض فـإعلان الـوداع
ويـوم الحـشر ينـدم كـل بـاغ ... ويلقـى مـا جنـى صـاعاً بـصاع
وإن مُتعـت أيامـاً قـصاراً ... فـما الـدنيا الغـرور سـوى متـاع

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ:

قولـوا لهـذا الملحـد الـدجال ... أحبطـت مـا قـدمت مـن أعـمال
وسـببت ديـن الله يـا شر الـورى ... وأطعـت كـل مـضلل دجـال
وتقـول إن الـدين أخَّـر أهلـه ... ثكلتـك أمـك مـن جهـول قـال
أوَ لم تـرى الإسـلام قـدم أهلـه ... في سـالف الأزمـان والأجيـال
وشـهوده التـاريخ والـسير التـي ... تُـتلى ومـا تخفـى عـلى الأطفـال
وكتابـه الـشافي لكـل جهالـة ... يـدعو إلى الإحـسان والأعـمال
ويُبَـصر العميـان إذ يهـدي إلى ... سـبل الحيـاة بـأبلغ الأقـوال
يا عائب الـدين الحنيـف بجهلـه ... وبأنـه كـسلاسل الأغـلال
هـات الأدلـة يـا جهـول بنـصها ... واذكـر لنـا دعـواك بالأمثـال
الـدين قـال الله قـال رسـوله ... لا قـول مبتـدع وفعـل ضـلالي
مـا أنـت إلا ناقـل ومقلـد ... للملحـدين، شراهـة في المـال

قد بعت دينك تبتغي الدنيا به ... وستبتلى بالفقر والإذلال
ومن الغباوة والضلالة زعمه ... أن الألى فضحوه (في الأغلال)
حسدوه ما أدري لأي فضيلة ... ألأنه أربى على الضُلال
وأتى بما أعيى الأوائل قبله ... من كل سخف مضحك وخبال
لو أن هذا الشخص كان مغنياً ... أو راقصاً أثرى من الأموال
ولكان أقرب أن يتوب لربه ... لكن غدا أضحوكة الأطفال
أسفي على هذا المسكين الذي ... قد ذل بعد العز والإجلال
ولقد غدا من بؤسه متهوسا ... يرمي الألى نصحوه غير مبال
ويظن أن وعيده سيضيرهم ... والله ناصر حزبه ومُوال
فاربأ بنفسك أن تحارب قادراً ... يرميك في النيران (بالأغلال)
وارجع إلى الإسلام والعرب الألى ... نصروه بالأرواح والأموال
ولُم الكسالى إن أردت ملامة ... فالذنب ذنبهم بغير جدال
شهدت له الإفرنج عن علم به ... من بعد بحث دائم وسؤال
دين يحث على الفضيلة والتقى ... وعلى العلوم ونيل كل كمال
يرميه بالبهتان أخرقُ أحمق ... أعمى جهولٌ خائب الآمال
حقاً لقد هُزِلت وقام يسومها ... نذل غبي غافل متغال
لوثت نجداً والقصيم بوصمَتي ... خزي وعار طيلة الأجيال
أرضيتمو يا مسلمين بسبكم ... وبسب دينكم القويم الغالي
أين الشهامة والشجاعة أين غيـ ... ـرتكم على الإسلام في ذي الحال

والله لــــو أني غـــدوت مُحكـــماً　　في الملحـــدين قتلـــتهم بنعـــالي
وأقــول هــذا مــا أراه لكــل مــن　　كفـــروا بـــدين إلهنـــا المتعـــالي»

الرد العاشر:

مقالات سيد قطب - رحمه الله -

عن «كتاب الأغلال»

مع مقال للأستاذ عبدالمنعم خلاف يبين فيه أن فكرة كتاب الأغلال مسروقة منه

ترجمة الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ[1]

هو سيد بن قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية «موشا» في أسيوط، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م)، وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي «الرسالة»، و«الثقافة»، وعين مدرساً للعربية، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف، ثم مراقباً فنياً للوزارة.

وأُوفد في بعثة لدراسة «برامج التعليم» في أمريكا (١٩٤٨-١٩٥١)، ولما عاد انتقد البرامج المصرية، وكان يراها من وضع الإنجليز، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية.

وبنى على هذا استقالته (١٩٥٣) في العام الثاني للثورة، وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة، وتولى تحرير جريدتهم (١٩٥٣-٥٤) وسُجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمر بإعدامه، فأعدم.

---

(١) الأعلام للزركلي (٣/ ١٤٧). وترجمته ـ رحمه الله ـ مشهورة ميسورة، من أشملها وأوفاها كتاب «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» للدكتور صلاح الخالدي.

قال خالد محيي الدين ـ أحد أقطاب الثورة المصرية ـ فيما كتب عنه: كان سيد قطب قبل الثورة من أكثر المفكرين الإسلاميين وضوحاً، ومن العجيب أنه انقلب ـ بعد قيام الثورة ـ ناقماً متمرداً على كل ما يحدث حوله، لا يراه إلا جاهلية مظلمة.

من كتبه:

النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، العدالة الاجتماعية في الإسلام، التصوير الفني في القرآن، مشاهد يوم القيامة في القرآن، كتب وشخصيات، أشواك، الإسلام ومشكلات الحضارة، السلام العالمي والإسلام، المستقبل لهذا الدين، في ظلال القرآن، معالم في الطريق».

هذي هي الأغلال

«لم أكن أنوي أن أكتب شيئاً عن هذا الكتاب، لا خيراً ولا شراً، فلعل صاحبه أن يصل إلى أهدافه الحقيقية من طريق الشر والخير سواء.

وللكتاب ولصاحبه معي قصة ما كنت لأفشيها للناس لولا أنها تكررت مع غيري، فلم تعد سراً.

أهدى إليَّ الرجل كتابه، ومضت فترة لم أكن قد فرغت فيها لقراءته، ثم تفضل فزارني مع صديق كريم عزيز أحمل له في نفسي وداً مكيناً، وأسر لي الصديق ثم أعلن أنه وافد إلي في مهمة: إن حرية الفكر في خطر!

فهذا الرجل صاحب الكتاب قد عنت له أفكار وآراء جريئة فأودعها كتابه، وخصومه من الرجعيين والنفعيين في الحجاز يدسون له هناك، وأنه على وشك أن يستدعى لمحاكمته، وربما لشنقه! وأن علي ككاتب يقدر رسالة الفكر أن أشارك في الذود عن حرية الفكر الموشكة على الاختناق.

ولم يكن بد من أن أتحمس في أول الأمر، فعزيز على صاحب فكر وقلم أن يسمع ويرى خنق حرية الفكر ولا يتحمس أو يثور، ووعدت أن أفعل في حدود ما أستطيع.

وجلس الرجل وأخذنا بأطراف الحديث ـ في داري ـ وشيئاً فشيئاً

بدأت أشم رائحة في الحديث، رائحة ليست نظيفة.

هذا رجل يريدني أن أفهم أن الإنجليز في الشرق قوم مصلحون لا مستعمرون، وأن وسائلهم في الشرق أرقى وأكرم من وسائل المسلمين عندما استعمروا الشعوب!

وليس ـ المسلمين ـ هم الأتراك مثلاً فأجد عذراً، ولكنهم أصحاب محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب، بل القرآن الذي أباح التخريب والتمثيل.

وكان ذلك كله رداً على ما قلته له: من أن الاستعمار لا قلب له ولا ضمير، وأن الحضارة الأوروبية الحديثة تستخدم وسائل غير إنسانية في الحروب وغير الحروب.

إن المسلمين صنعوا تلك الشناعات وبعد ما صنعوها جاء القرآن ليبررها لهم!

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥]! ولم يُرد أن يستمع إلى حديثي عن وصايا النبي للقواد، ولا إلى وصايا خلفائه الإنسانية الرحيمة.

فليكن! فقد تكون تلك عقيدة يجاهر بها صاحبها ويتحمل تبعاتها ونتائجها! ثم ماذا؟

ثم يجب أن ننفي العنصر الأخلاقي من حياتنا، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية، ولا قيمة لها في الرقي والاستعلاء، هذا والمسلمون لم يكونوا في أي عصر من عصورهم حتى أيام محمد إلا فساقاً فجاراً، وهم الآن في البلاد المحافظة أفسق وأفجر، ولا عبرة بهذا كله، فقد كانوا أقوياء وهم فساق فجار؛ لأنهم آخذون بوسائل الحياة المادية، وهم ضعفاء اليوم ـ مع فسقهم وفجورهم ـ لأنهم لا يأخذون بوسائل الحياة المادية.

والمعول على هذه الوسائل، لا على بر أو فجور!

فليكن أيضاً، فقد تكون تلك عقيدة الرجل، وأنا مستعد أن أستمع لكل عقيدة يجاهر بها صاحبها، ويتحمل تبعاتها ونتائجها.

وطال الحديث، وأنا ـ بعد هذا كله ـ لا أزال معتزماً أن أقرأ الكتاب، فإن وجدت فيه حرية رأي حقيقة وفكرة ناضجة قوية، دافعت عن الرجل ولو خالفته في فكرته كل المخالفة!

ثم عدتُ إلى الكتاب، وهنا تحول شعوري إلى اشمئزاز عميق.

هذا رجل ينافق، يريد أن يطعن الطعنة في صميم الدين خاصة ثم يتوارى ويتحصن في الدين وينكر ما قد يفهمه القارئ من بعض النصوص، ومن روح الكتاب كله، وراء النصوص.

ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتي بشيء «دون كيشوت» جديد، يطعن في الهواء ويحارب أفكاراً لم يعد لها وجود منذ خمسين عاماً على الأقل.

ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص، وينكر أن يكون قد قرأ شيئاً عن هذه الأفكار.

ثم ـ وهو الأهم ـ هذا رجل مريب!

١ - «فطبيعة المتدين ـ غالباً ـ طبيعة فاترة، فاقدة للحرارة المولدة للحركة المولدة للإبداع». «ونرجع لنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ولكن الذنب ذنب النفوس البشرية التي لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين والتوفيق بين الروحين: روح الدين، وروح العمل للحياة».

هكذا: طبيعة «المتدين» غالباً طبيعة فاترة فاقدة للحرارة، الخ، ثم «الدين نفسه لا ذنب له» وأمثالها في كل موضع كثير، والحديث عن الخلق كالحديث عن الدين، فهو دائماً ضد العنصر الأخلاقي يراه قيداً معجزاً وضعفاً زرياً، ثم يتوارى بعد هنيهة وينكر ما تنطق به النصوص.

هذا رجل تنقصه الجرأة على أن يقول ما يريد أن يقول، وإذن فلا حرية فكر ولا خطر على حرية الفكر! إنما هي دعوة خبيثة ملتوية ضد التدين، وبخاصة الإسلام، وضد الروح الخلقية في النفس والضمير!

٢- مَن مِن الشعوب الإسلامية الآن يكتفي في مجاهدة الغربيين بالدعاء بأن يحرق الله بيوتهم وييتم أطفالهم، الخ؟!

قد تكون هذه بعض دعوات المنابر التقليدية ولكن الشعوب هذه هي تجاهد وتقاوم وتكافح وتثور وتسيل دماؤها في كل مكان.

ولكن المؤلف لا يرى في المسلمين إلا هؤلاء الداعين على بعض المنابر، ويجيء بكتابه ليقول: إنكم جميعاً ـ سواء ـ أخطأتم الطريق بالاقتصار على هذا الدعاء.

وهكذا معظم كفاحه لتصحيح أفكار المسلمين «دون كيشوت» يطعن في الهواء وينازل الأشباح، ويحارب الأفكار التي حاربها الزمن منذ خمسين عاماً أو تزيد.

٣- وفصل ضخم ـ هو أحسن فصول الكتاب ـ عن الإيمان بالإنسان، وهو عنوان كتاب للأستاذ عبدالمنعم خلاف! ولا يشك إنسان في أن مؤلف الأغلال انتفع بهذا الكتاب انتفاعاً كاملاً تاماً وليس في هذا من حرج، ولكن الرجل حينما سمع مني اسم الكتاب أبدى أنه لم يسمع به أصلاً!! لم أحترم هذا التجاهل لأنه ليس سمة الباحثين المخلصين.

٤- «نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق (الغزو الصهيوني) مع أنهما هما الخصمان! إننا نخدع أنفسنا كثيراً ونضللها

حينما نظن أن في حولنا ـ لو تخلت هاتان الدولتان ـ أن نحمي أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها، فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدولية، أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك».

وإذن فعلينا أن نبدأ في الاستعداد لحماية أنفسنا، وإلى أن نستعد يجب أن نحافظ على بقاء قوة إنجلترا بجانبنا لتحمينا من الغزو الصهيوني!

هنا رائحة ما!

هذا رجل لا يُخاف عليه من اعتقال ولا شنق ولا سواهما، إنه رجل يعرف طريقه جداً، فلا داعي للخوف الشديد!

وعلمتُ أن الاسطوانة التي أديرت على أذني أديرت على آذان الكثيرين، واستنهضت بها أريحية الكثيرين، وقد تحمس الأستاذ إسماعيل مظهر فكتب كلمة قوية في الكتلة عن الكتاب، وأنا واثق أنه لم يقرأه إلى نهايته، وإلا فلن تفوت فطنة الأستاذ إسماعيل أن تتبين في ثنايا الكتاب شيئاً غير نظيف!

وكنتُ بعد هذا كله على نية أن أسكت لولا أن وجدت بدء ضجة مفتعلة تعطي الكتاب أكثر من قيمتهُ، وتصور المسألة في غير صورتها،

ولا بد أن الأستاذ السوادي ـ وأنا أعرف أريحيته ـ قد تأثر بالاسطوانة المثيرة ففتح صدر جريدته للدفاع عن حرية الرأي المهددة بالشنق، لقد كنتُ على استعداد أن أدافع عن الرأي المخالف لو وجدت شيئاً ذا قيمة، ولو وجدت إيماناً حقيقياً بفكرة، ثم لو لم أشتم هنا وهناك رائحة شيء ما.. شيء غير نظيف!».

سيد قطب

(عن مجلة السوادي)[1]

(١) ونُشر في مجلة الهدي النبوي، عدد: محرم ١٣٦٦هـ.

من مفارقات التفكير...!

الأستاذ إسماعيل مظهر وكتاب الأغلال [(١)]

للأستاذ سيد قطب

«لا يزال الإنسان يصادف بين آونة وأخرى صنوفاً من مفارقات التفكير، ما كان ليتصورها لو لم تقع فعلاً في الحياة، وتبدو آثارها للعيان، فقد تجد الرجل المحقق المتفوق في علم أو فن، يبدي فيه الرأي، فإذا له الكلمة الصائبة، والنظرة النافذة.. ثم يجاوز مادة تخصصه إلى شأن آخر، فيأتي الكلام الذي لا تصدق نسبته إليه إلا إذا قامت لك البراهين على أنه هو قائله؛ لأنك تجد عندئذ رجلاً آخر لا تعرفه، دون ذلك الرجل بمراحل ومسافات.

وأقرب مثل يحضرني اليوم هو الأستاذ إسماعيل مظهر.

فمما لا شك فيه عندي أن الرجل مثقف مطلع، ذو مشاركة طيبة في الحركة الفكرية المعاصرة.. ولكنني رأيته يكتب في جريدة الكتلة مرة ومرة عن كتاب «هذي هي الأغلال» بطريقة عجيبة، فمرة يقول: إنه يساوي ثقله

---

(١) نُشر هذا المقال لسيد قطب ـ رحمه الله ـ في مجلة الرسالة (السنة ١٤، المجلد الثاني، عدد ٧٠٠).

ذهباً؛ ومرة يرتفع بصاحبه على مقام جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده![1] ويخلو أسلوبه على كل حال من التمحيص والاتزان اللذين أعهدهما فيه...

وعجبت من أن يكتب رجل كالأستاذ إسماعيل بمثل هذا الأسلوب، وأن يعتقد في مثل هذا الكتاب وصاحبه ذلك الاعتقاد... وظللت متحيراً في هذه الظاهرة العجيبة، وكنت قد قرأت الكتاب فوجدت صاحبه يتعلق بالتافه من خرافات العوام، ومن الأضاليل الخرافية التي حاربها الزمن في البيئة الإسلامية وانتهى من حربها منذ خمسين عاماً أو تزيد، يتعلق بهذا التافه فيصول ويجول في الكفاح والنزال، ويبدو ـ كما قلت في مجلة السوادي ـ في هيئة «دون كيشوت» يطعن في الهواء يحسب طواحين الهواء فرساناً، وزقاق الخمر قساوسة!

ثم ينتهي في التواء إلى أن هذه هي العقلية الدينية الإسلامية؛ فهي إذن عقلية لا تصلح للحياة ولا لوراثة الأرض، بينما الأوروبيون يتبعون منطق الحياة، فهم إذن أولى بوراثة الأرض من أصحاب العقلية الدينية، وإذن فما يحق للشرق أن يثور على استعمار ولا أن يحنق على مستعمرين! وتلك هي النتيجة الحتمية لكل مقدمات الكتاب، ولعلها هي الهدف الأول الذي لف في طواياه!

ولا ينتهي الرجل إلى هذه النتيجة وحدها، عن هذا الطريق الملتوي

(١) الأفغاني ومحمد عبده لهما انحرافات بينها العلماء، لكنها لا تصل إلى ما لدى الملحد القصيمي. ينظر لبيانها: «دعوة الأفعاني في ميزان الإسلام» لمصطفى غزال.

المليء بالمغالطات، إنما ينتهي إلى نتيجة أخرى ـ لعلها هي التي قادته إلى سلوك هذا المسلك المريب؛ ولعلها كانت رائدة في كتابه وفي حياته.. تلك أن العنصر الأخلاقي يجب أن ينفى من الحياة، فكل ما يقال له روح وضمير وخلق ودين.. إن هو إلا «أغلال» ومعوقات وتعلات فارغة لا تجدي؛ والمعول في الحياة على القوة المادية: قوة الصناعة والتجارة والمال! ولعل الرجل يطبق في كتابه وسلوكه تلك المبادئ الذهبية!

أقول: عجبت من أن يبذل الأستاذ مظهر إعجابه كله لمثل هذا الكتاب المريب في هذا الأوان، إلى درجة أن يستخفه الإعجاب، فيفارقه ما عرف به من النفاذ والتؤدة والاتزان.. ولكن أخيراً تكشف لي السبب، فبطل مني العجب؛ وذلك في كلمة افتتاحية في المقتطف الأخير عن كتاب «هذي هي الأغلال» أيضاً!

إن الأستاذ إسماعيل فيما يظهر قد استغرقته الدراسات الفلسفية والدراسات العلمية ـ وفي أوروبا خاصة ـ فلم يجد وقتاً يتتبع فيه الحركة الفكرية في الشرق العربي ـ وفي مصر خاصة، فظل يعتقد مخلصاً في اعتقاده أن أهم ما يشغل بال المسلمين في الآونة الحاضرة من أمور دينهم ودنياهم مسائل من نوع: «الكلام في مثل ما تكلم فيه السيوطي في كتابه «كشف المعمى في فضائل الحمى»، وكتابه «الطرثوث في فضل البرغوث»، أو ما

تكلم فيه ابن حجر العسقلاني في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون»، أو ما ترى في كتب المناقب وغير كتب المناقب من الخرافات التي تهلع لها قلوب الأحرار، والأساطير التي تهتز لها الأرض وتفزع السماء، أو البحث في من يحمل فوق ظهره قربة ملئت فُساءً هل تصح صلاته بها أم ينتقض وضوءه» كما كتب في هذه الافتتاحية العجيبة!

وهذه هي الخرافات التوافه التي أخذ المؤلف يبدئ فيها وفي أمثالها ويعيد، ويصم التفكير الإسلامي كله بأنه يصدر عنها؛ ثم أخذ ينازلها كما نازل «دون كيشوت» طواحين السماء، ويشقها بسيفه كما شق «دون كيشوت» زقاق الخمر! والتي خيل للأستاذ مظهر أنها كذلك تشغل بال المسلمين في هذه العصور، فأخِذ بالقوة التي يهاجمها بها مؤلف الأغلال، فقال:

«أنتصر لهذا الكتاب، لأني أشتم فيه ريح القوة والجبروت والعزة التي هي من صفات الإسلام، وليست من صفات المسلمين!!»

وهنا زال عجبي وعرفت القصة، فالأستاذ إسماعيل مظهر بقدر ما هو عالم ومطلع في الفلسفة الحديثة والعلم الحديث، بعيد كل البعد عن حركة الفكر الإسلامي في القديم أو في الحديث، فكل حديث عنها في نظره إعجاز وإبداع!!

ومثل إعجابه البالغ الذي لا يتحفظ فيه بهذا الكتاب كمثل من يعجب

أشد الإعجاب برجل يشنها حرباً شعواء على من يقولون: إن الأرض محمولة على قرن ثور، فما تزيد معظم الخرافات التي تصدى لها المؤلف في أهميتها اليوم، وفي مقدار اعتقاد الناس فيها، على اعتقاد بعض العامة أن الأرض محمولة على قرن ثور!

ويا ليت إخلاصاً يبدو في ثنايا الكتاب، حتى مع هذا التمحل وهذا التزوير المدسوس على عقلية الشعوب الإسلامية في العصر الذي نعيش فيه؛ إنما هنالك الريبة التي تخالج القارئ حين يذهب في القراءة إلى النهاية، فيشم رائحة غير نظيفة تشيع بطريقة ملتوية خبيثة، رائحة إشعار الأمم الشرقية بأنها لا تستحق وراثة الأرض، ولا تستحق سوى العبودية والذل، وأن الأمم الأوروبية هي التي تستحق هذه الوراثة، وأن العرب خاصة في حاجة إلى حماية الإنجليز والأمريكان لهم، لأن الخطر الصهيوني يتهددهم وهم عُزل من كل قوة، ولا سند لهم إلا قوة خصومهم من الإنجليز والأمريكان!

ترى هذه هي ريح القوة والجبروت والعزة التي يتحدث عنها الأستاذ إسماعيل؟ اللهم إن رجلاً بعيداً عن كل اتصال بحركة الفكر الإسلامية، راعته البديهيات الساذجة التي يسوقها رجل مريب، فلم يتنبه في ـ زحمة الروعة ـ لهذا العنصر المريب.

وكتب الأستاذ «عبدالمنعم خلاف» في عدد «الرسالة» الماضي يشير إلى ما نبهت إليه من سرقة المؤلف لأفكاره في كتابه «أؤمن بالإنسان» وادعائه أنه لم يسمع بموضوع هذا الكتاب (١).

قلت في كلمتي بمجلة «السوادي»: إنني لم أحترم هذا التجاهل، لأنه ليس سمة الباحثين المخلصين، وقال الأستاذ عبدالمنعم بعد أن قرر أنه فرح لانتشار فكرته التي دعا إليها ست سنوات، فكرة الإيمان بالإنسان والاعتقاد بأن الحياة صادقة:

«ولكن ما لبثت هزة الفرح والابتهاج أن انقلبت إلى أسى ووجوم واشمئزاز، إذ رأيت الكتاب يخلو من أدنى إشارة إلى تسجيل سبقي في هذه الدعوة، وإذ رأيت صاحبه مع ذلك يحدث ضجة مفتعلة حوله، ويصدر غلافه بهذه الجملة:

سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل.. وإنه ثورة في فهم الدين والعقل والحياة..» كأن مؤرخي الفكر عميان لا يتلمسون مصادر الآراء!

---

(١) سيأتي مقال الأستاذ عبدالمنعم خلاف ـ إن شاء الله ـ .

وإني أعجب كيف يجرؤ كاتب أو مفكر يحترم رأي الناس، ويستحي من نفسه، أن يسبق التاريخ ويصدر حكمه على عمله بهذه الدرجة من الافتتان والزعم!

إن المفكر الواثق من أنه أتى بجديد حقاً، يضع آثاره بين يدي التاريخ في صمت، ويدع له أن يحكم، ولا يتعجل الحكم حتى تعلنه الأيام سواء في حياته أو بعد مماته.. والمفكر الأمين الثقة الغيور على الحق وحرية الفكر يترفع عن أن يغمط حق غيره، وعن أن يغطي جهود من سبقوه بالدعاية الجريئة لنفسه، لأن هذا إن جاز في مجاز الإعلان عن المتاجر والمهن، فلن يجوز في رحاب الفكر والخلق.

ولكن ما للمؤلف وللحديث عن الأخلاق، وهو كما روى عنه الأستاذ سيد قطب في مجلة «السوادي» يرى (أنه يجب أن ننفي العنصر الأخلاقي من حياتنا، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية، ولا قيمة لها في الرقي والاستعلاء).

والأستاذ عبدالمنعم يحاكم الرجل إلى مبادئ ومُثل يقول هو عنها: إن التشبث بها هو سبب تأخر الشرق وجموده، فما الخلق؟ وما الضمير؟ وما الحياة؟ إنها كلها «أغلال» تقيد الخطو وتخلق العثرات، إنما المهم كما يقول: هي الأخلاق الصناعية والتجارية والمالية!!

والواقع أنها جرأة عجيبة، ولكن لماذا لا يجرؤ الرجل، وفي مصر كتابٌ كبار لا يتنبهون لهذه الجرأة العجيبة، فيسبغون على فكرة مسروقة ومستغلة استغلالاً مريباً كل هذا الاهتمام والإعجاب؟

ولكنني أعود فأستدرك، فلعل هناك اتهاماً للأستاذ عبدالمنعم، وطعناً في ضميره وخلقه ووطنيته حين نذكر أن فكرة الأغلال مسروقة من كتابه «أؤمن بالإنسان».

إنها مسروقة، نعم في عمومها وفي الكثير من قضاياها، ولكن الأستاذ عبدالمنعم كان يعالج فكرته في استقامة ونزاهة، ويحسب للدين وللخلق وللضمير حسابها في قيم الحياة، وحين دعا إلى الإيمان بالإنسان مستدلاً بما أبدع في الأرض بفكره ويده، لم ينس أنه يهدف إلى قضية أكبر، وهي قضية الإيمان بخالق هذا الإنسان، وقضية التسامي بضمير هذا الإنسان.

ولقد وافقت الأستاذ عبدالمنعم على قضيته وأهدافه، وخالفته في طريقة استشهاده، وودت أن يفسح للوجدانات الروحية، وللأعمال الفنية مكاناً أكبر في الاستشهاد على عظمة هذا الإنسان، ليكون نشيد الإيمان به أوسع وأشمل، حين نضم إلى إبداع فكره ويده إبداع وجدانه ومشاعره.

أما هذا الرجل، صاحب الأغلال، فيأخذ الفكرة لينحدر بها انحداراً عن مستواها، وليبدو فيها ضيق الآفاق، لا يتصور أن الإنسان جسم وروح،

وأن الحياة مادة ومعنى، ثم ليستخدم الفكرة في الزراية على الشرق عامة والمسلمين خاصة، وليحطم في نفوسهم كل شعور بالعزة، وليسوّد عليهم مستعمريهم، وليثبت لهم أنهم في حاجة إلى قوة هؤلاء المستعمرين، إلى أن يتخذوا طريقهم في الإنتاج!

وما يخدم قضية الاستعمار في طورها الحالي كما يخدمها بث هذه الروح، وإذا كان الشرق يعتز في جهاده للاستعمار بماضيه وبعقائده وبكرامته القومية، وبعدد من مثل هذه المعنويات، فهذا رجل منه يقول له: إنما تعتز بترهات جوفاء، والمستعمر أحق بوراثة الأرض منك، فلتحن هامتك إذن، فتلك سنة الحياة!

وبدلاً من أن ينبه النقاد الكبار إلى هذا الاتجاه المريب يؤخذون بالدعاوى المفتعلة، ويبذلون إعجابهم المطلق للكتاب وصاحب الكتاب! والرجل والحق يقال: ماهر في الدعاوى، لا تقيده فيها الأغلال!!

ألا إنه لكتاب يساوي ثقله ذهباً، كما قال الأستاذ مظهر، ولعل من تهمهم مثل هذه الكتب لم يبخسوا الكتاب قدره، وكل الدلائل تشير إلى أنهم لم يبخسوه قدره، والحمد لله».

سيد قطب

غفلة النقد في مصر (١)

«في تقديري أن الضجة المفتعلة التي أثيرت حول ذلك الكتاب المريب، كتاب الشيخ عبدالله القصيمي، والتي انزلق فيها بعض الكبار مخدوعين بما صورّه لهم المؤلف من مخاوف تحيط به وبكل تفكير حر في المملكة العربية السعودية، هذه المخاوف التي تدنيه من حبل المشنقة بسبب كتابه.. إلى آخر ما أجاد المؤلف تمثيله من الأدوار..

في تقديري أن هذه الضجة وذلك الانزلاق فضيحة أدبية لمصر، وقد تؤخذ دليلاً على غفلة النقد فيها إلى حد مخجل.

ولقد قُدِّم إليَّ هذا الكتاب، وأديرت على سمعي «الأسطوانة» التي أديرت على أسماع الكثيرين، وتأثرت ساعتها وتحمست؛ فحياة كاتب ليست بالشيء الهين؛ وإهدار هذه الحياة بسبب رأي أو فكرة مسألة لا يحتملها القرن العشرون، فوق ما في الفكر الإسلامي من سماحة تبرئه من الجنوح إلى طريقة محاكم التفتيش.

ولكنني حين عدت فقرأت الكتاب بردت هذه الحماسة، وفتر ذلك

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة الرسالة (السنة ١٤، المجلد الثاني، عدد ٧٠٢).

التأثر؛ لأنني لم أجد إلا كاتباً مريباً، يتناول مسائل ميتة في الغالب، ومشاكل محلولة ـ حلها الزمن في البيئة الإسلامية منذ نصف قرن على الأقل ـ ويزيد عليها: فكرة مسروقة بنصها وبجزئياتها وبشواهدها من كاتب شاب يعيش وكتابه حديث الصدور لم يبعد به الزمن فيُنسى .. ليتخذ من ذلك كله ستاراً طويلاً عريضاً يلف به دعوة غير نظيفة، للاستعمار والمستعمرين.

ولم أشعر أن الرجل في خطر، فأمثال هؤلاء يعرفون طريقهم جيداً ـ كما قلت في مرة؛ ولا خوف عليهم من الشنق ولا غيره، ولو كانوا يعرفون أن الشنق ينتظرهم حقاً، لما أقدموا على فعلتهم؛ لأن الحياة على كل حال أغلى من كل ثمن سواها قد يأتي به الكتاب!

ووجدت أنه من المهانة للفكر أن أنزلق فأكتب عن كتاب تافه مريب مسروق كهذا الكتاب، يسلك صاحبه هذا السلوك في الاحتيال لبعث الاهتمام به، وإثارة الضجة حوله؛ كما أنه يثبت على غلافه شهادة من نفسه لنفسه، هذه الجملة المتبجحة: «سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل»!

ثم ما أشعر إلا وضجة عجيبة يثيرها بعضهم حوله، وهنا فقط وجدت أن لا بد من كشف الستار، فهي فضيحة، وفضيحة لمصر خاصة، أن تبلغ غفلة النقد فيها هذا المستوى العجيب!

لكي ننقد كتاباً يعالج مشكلات اجتماعية ونفسية وإنسانية يجب أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة الثلاثة:

١- هل يعالج الكتاب مشكلات حية تعيش في هذا الأوان؟

٢- هل نفذ إلى صميم هذه المشكلات، وصورها التصوير الصحيح، واقترح لها الحلول المناسبة.

٣- هل كان أصيلاً في تصويرها وعلاجها؟

وقد سألت نفسي هذه الأسئلة، وكان الجواب باختصار:

١- إن المؤلف «دون كيشوت» جديد يطعن برمحه طواحين الهواء يحسبها فرساناً، ويشق بها زقاق الخمر يحسبها قساوسة! ويحمل حملات شعواء على أولئك الذين يمدحون الجهل ويذمون العلم، ويقررون أن الجنة لا يدخلها إلا البله، ويؤمنون بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إنما بعثت بخراب العالم...**»!

ولكنه لا يقول: إن هذا كله كان من أوهام العوام، كان خرافات سوداء في عهود الظلام، ثم انتهت بانتهاء هذه العهود المظلمة.. لا يقول هذا، إنما يتهم العقلية الإسلامية بأن هذه هي أهم مشكلاتها وعقائدها دائماً أبداً؛ ليصل من هذا الطريق الملتوي إلى تحقير هذه العقلية في جميع الأزمان، وإلى

إيثار العقلية الأوروبية؛ لأنها خلعت ربقة الدين، وربقة الخلق، وربقة التطلع إلى الله، وانطلقت تهدف إلى الأرض وحدها، ولا تعلق نظرها مرة واحدة بالسماء، لأن التطلع إلى الله كفيل بإفساد الحياة!

وفي ثنايا هذا الذي يبدو تحرراً فكرياً في ظاهره، يخدع المخدوعين ممن يحسبون التحرر الفكري مجرد التحلل من الأديان والأخلاق على أي وضع من الأوضاع، في ثنايا هذا يدس ما لعل الكتاب كله قد ألّف لأجله: يدس الإيحاء للشرق العربي المسلم بأن لا حق له في كراهة الاستعمار والمستعمرين، لأنهم ورثة الأرض الذين يستحقون كنوزها وخيراتها، لأنهم يتطلعون إلى الأرض وأسبابها، ولا يعلقون أنظارهم بالله ولا بالسماء!

وهناك مسألة أو مسألتان حيتان في الكتاب، ولا تزالان تعيشان، لأنهما إنسانيتان: مشكلة الإيمان بالإنسان، ومشكلة الإيمان بالأديان.

فأما الأولى: فهي قضية الأستاذ عبدالمنعم خلاف في كتابه «أؤمن بالإنسان»، وقد شغلت من كتاب «هذي هي الأغلال»، نحو أربعين صفحة أولاً، وتغلغلت في ثنايا الكتاب كله أخيراً.

وأما المشكلة الثانية: فقد عولجت بسلسلة من المغالطات والأغلاط تتلخص في أن روح التدين تخالف روح الحياة، وأن المتدين لا يمكن أن

يكون رجل دنيا.. وهذا منطق لا يستحق الاحترام؛ لأن الشواهد الواقعة تنفيه، ولأن الدين روح حافز للعمل، ولا سيما في الإسلام الذي يصب عليه المؤلف جميع أوزار التأخر والانحطاط، وإن عاد فالتوى ونفى عن الدين ذاته هذه الأوزار في نفاق ظاهر يستحق الاشمئزاز دائماً، ولا يثير الاحترام.

٢- ولعل الجواب عن السؤال الثاني يكون قد اتضح من الجواب على السؤال الأول؛ فالنفاذ إلى صميم المشكلات يستدعي قسطاً من الاستقامة والإخلاص، وهذان العنصران مفتقدان في الكتاب كله.

فهو مثلاً يستخلص سمات التفكير الإسلامي من أوهام العامة وخرافاتهم، ومن أقوال لبعض المتصوفة وأمثالهم، بدل أن يستخلصها من مجموعة المفكرين والمشرعين والفاتحين والعاملين في التاريخ الإسلامي الطويل، فالحضارة الإسلامية كلها، وعمارة الأرض وسياستها في جميع العصور ليست داخلة في حساب المؤلف، وليست دليلاً على شيء من خصائص العقلية الإسلامية، إنما الذي يصور هذه العقلية وحده دون سواه، أقوال كهذه الأبيات:

من أنت يا رسطو ومن ... أفلاط قبلك قد تجردْ
ما أنتمو إلا الفراش ... رأى السراج وقد توقدْ
فدنا فأحرق نفسه ... ولو اهتدى رشداً لأبعدْ

وكلمات للمتصوفة والزهاد يذمون الدنيا والعلم والعقل، ويمدحون الزهد والبلاهة والغيبوبة.

أولئك هم جميع المسلمين في نظر المؤلف، وهذه هي عقليتهم الإسلامية التي يجرد قلمه لينسفها نسفاً، فيقف جماعة من النقاد في مصر يعجبون بهذا القلم القوي البتار!!

وبمثل هذا الالتواء المريب يواجه مسألة التدين، ومسألة الأخلاق، ومسألة الأرض والسماء، فلا ينفذ إلى صميم مشكلة واحدة، لأن عنصري الاستقامة والإخلاص لا يتوافران.

٣- أما الجواب عن السؤال الثالث؛ فهو فضيحة الفضائح، فما عهدت أن يعمد مؤلف إلى مؤلف حي، فيقبض فصولاً كاملة من كتابه قبضاً، ويمهرها بتوقيعه ويطلع بها على الناس.

جرأة نادرة، ولكنها جازت على النقد في مصر!

لقد كنت ـ وما زلت ـ أفهم، أن الناقد قارئ متتبع لسير الفكر، فهذا هو الشرط الأول للناقد كيما يستطيع أن يؤرخ خطوات الفكر، ويعرف من السابق ومن اللاحق.

وأنه يتحرج أشد التحرج من إصدار حكم بالسبق والأهمية، إذا لم يكن

قد اطلع على كل ما سبقه أو جله؛ لأنه مسئول عن تقرير أحكامه للضمير وللتاريخ وللقراء.

فما بال كتاب صدر منذ عهد قريب، ونشر قبل ذلك فصولاً في مجلتين مقروءتين، ثم يجيء كاتب، فيهجم هجوماً بشعاً على فكرته، وطريقة عرضها، وبراهينها وأدلتها، ثم لا يجد ناقداً يقول له: مكانك فهذا استغفال!

لقد عملها الرجل، ولم يجد من يقول له هذه الكلمة في مصر إلا بعد حين!

لقد عملها وهو يتحدى: «سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل»!

تُرى كان الرجل يتوقع هذه الغفلة، أم إنه وقد نزع عن نفسه «الأغلال» لم يكن يبالي، وقد صدقت الأيام ظنه أو تكاد!

إن في مصر غفلة نقد منشؤها أن كثيراً من الكبار الذين كانوا يتولون حركة النقد لم يعودوا يقرأون، وإذا قرأوا لم يقرأوا للشباب، استصغاراً منهم لما ينشئ أولئك الشباب.

وهم أحرار في هذا، ولا يستطيع أحد أن يجبرهم على قراءة معينة، فهم في دور الكهولة والشيخوخة كثيرو المتاعب، ولأنفسهم عليهم حق، ولهم أن يقضوا أوقاتهم في لذائذهم الحسية والفكرية حسبما يشتهون، فإن من حقهم أن ينالوا الراحة والحرية بعد الجهاد الطويل.

ولكن عليهم في مقابل الراحة والحرية ألا يتعرضوا للنقد، فيصدروا فيه الأحكام إلا بعد تتبع لحركة الفكر في كل كتاب يصدر في الفن الذي يريدون نقده، وإصدار حكم عليه، فذلك هو واجب الضمير الأدبي في أضيق الحدود.

إن القراء يثقون بهم إلى حد، وهذه الثقة تدعو إلى تحري الدقة، فلا يفتون بغير علم، أو بعلم ناقص، فتلك تبعة ثقيلة على الرقاب.

وأنا واثق أن بعض الذين كتبوا عن كتاب الأغلال، ما كانوا ليكتبوا لو أنهم أولاً قرأوا الكتاب كله، ولم يكتفوا بتصفح بعض فصوله، ثم لو أنهم ثانياً كانوا قد قرأوا كتاب الأستاذ عبدالمنعم خلاف، مهما تكن حيلة الرجل بارعة ومهارته في الدعاية قوية.

وقبل أن أنهي هذه الكلمة أوجه إلى فريق آخر من المتزمتين[(١)] لم يقابلوا الكتاب هذه المقابلة، بل ثاروا عليه وناهضوه، وشغلوا أنفسهم بالاحتجاج عليه، وقيل لي: إن بعضهم أخذ يؤلف كتباً في الرد عليه.

هؤلاء يشاركون ـ من غير قصد ـ في الضجة المفتعلة التي يثيرها الرجل حول كتابه وحول نفسه.

---

(١) ليسوا متزمتين! بل أصحاب غيرة على دينهم وأمتهم.

هونوا على أنفسكم، فالدنيا بخير!

لقد ترددت مرة ومرة في أن أكتب عن هذا الكتاب التافه المريب؛ لأن كل ضجة حوله تبلغ به الغاية التي أرادها له صاحبه ومن يهمهم نشر مثل هذه الكتب في الشرق العربي الناهض لمجاهدة الاستعمار.

ولقد كان رجال الإرساليات التبشيرية في الشرق يتعمدون إثارة الضجيج حول حوادثهم في مصر منذ سنوات، في خطف بعض الفتيان والفتيات، ليبرهنوا للجمعيات التي أرسلتهم أنهم ذوو خطر، وأن لحركاتهم في دار الإسلام صدى.

أقول: كانوا يتعمدون إثارة الخواطر، بافتضاح الحوادث ليبلغوا هذه الغاية، وصاحبنا في طرائقه ليس ببعيد عن هؤلاء، فلا تبلغوه غايته من وراء الضجيج والصياح! إنكم أناس طيبون أيها المتزمتون، فلا عليكم من الكاتب والكتاب.

ضجة فارغة حول كتاب مريب أمطرتنا دور الدعاية بعشرات مثله في أيام الحرب، دعوه ليموت فإنه ميت، ولن تنفخ فيه الحياة ضجةٌ مفتعلة، منشؤها الخداع والإيهام.

ولولا أن أنفي عن النقد في مصر تهمة الغفلة ما كتبت هذه الكلمات».

سيد قطب

الكتاب المريب (١)

«مجلة «المقتطف» من المجلات العزيزة على كل مثقف، يعرف تاريخها المجيد، وتقاليدها العلمية النبيلة، ولكنها ـ مع الأسف ـ تعاني في هذه الأيام أزمة قاتلة من هذه الناحية، كما أنها تحتضر وتوشك على البوار، وذلك من جراء إشراف الأستاذ إسماعيل مظهر عليها، بعدما كان يشرف عليها من قبل من يعرفون كيف يحافظون على تلك التقاليد.

ولقد كان من أول هذه التقاليد ألا تشتم الناس، وألا تهاتر مهاترات الوريقات الرخيصة، فجاء الأستاذ مظهر يحيد بها عن منهجها، ويقودها إلى الموت الوشيك الذي يأسف له كل من أحبوا هذه المجلة في تاريخا الطويل، أولئك الذي يرجون الله أن يقيض لها من ينتشلها من وهدتها، فلا تصير إلى ما صارت إليه «مجلة العصور» على يد الأستاذ رئيس التحرير!

ولقد سمح الأستاذ مظهر أن ينشر في العدد الأخير من المقتطف شتيمة واطية لجميع من تعرضوا لنقد ذلك الكتاب المريب «الأغلال»، ومن بينهم

(١) نُشر هذا المقال لسيد قطب ـ رحمه الله ـ في مجلة الرسالة (السنة ١٥، ص١٢٧).

كاتب هذه السطور، وسواء كان هذا الذي نشر من قلمه، وقد خزي أن يوقعه، فرمز إلى نفسه بتوقيع «مسلم حر»، أو كان بقلم ذلك الرجل المريب صاحب الكتاب ـ كما يبدو ـ؛ فإن الأستاذ مظهر هو المسؤول عن تمريغ المقتطف في هذا الوحل.

وكل ما قاله كلام مضحك، وهو منشور في مجلة محتضرة ـ بفضل رئيس التحرير ـ فلأعيد له نشره في مجلة يقرؤها الناس، فلعل هذا يرضيه، ولعله كذلك يُضحك القراء.

قال الرجل المريب، أو قال رئيس التحرير:

«وثمة خصم ثالث لهذا الكتاب، وهو رجل يتعاطى صناعة الأدب الصناعي؛ ولكن مقاومته لهذا الكتاب، والأسلوب الذي اختاره للمقاومة، كانا برهانين على براءته من كل صلة بالأدب بكل معانيه ومبانيه».

أفادكم الله يا مولانا!!

لقد انتهى «سيد قطب»، فما عاد في عالم الأدب وجود، بعد هذا الكلام المفيد، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

أما بعد، فذلك الكتاب المريب قد انتهى، واسأل يا مولانا من شئت من الناس، فستعلم صدق هذا الذي أقول، انتهى، لا لأنني كتبت عنه كلمة أو

أكثر، ولكن لأنني «كشفت» فقط عن مدى «نظافته»، وعن جراثيم الفناء فيه!

ولستُ ـ بعد هذا ـ أوافق على إيصال الأذى الشخصي لصاحبه، كما اقترح بعد النجديين والمصريين، فهو وصاحبه أهون من ذلك جداً، وليس الإيذاء الشخصي علاجاً، وأنا أكره مصادرة حرية الناس الفكرية، ولو كان الذي يكتبونه تفيح منه روائح غير نظيفة، فالموت الأدبي الذي لقيه الكتاب وصاحبه يكفي، ما لم تثبت على الرجل جريمة أخرى غير نظيفة يتناولها القانون العادي، وإني لأحسبه أحرص من أن يترك أدلة مادية!

أما أنت يا أستاذ مظهر ـ وأنا أسميك باسمك ولقبك ولا أشير إليك كما أشرت إلي، لأن الأدب الواجب يحتم على الناس المؤدبين ذلك ـ أما أنت فأنا شديد الرثاء لك.

إنني أعلم تلك العقدة النفسية التي توجهك، إنها عقدة الفشل، الفشل في كل مشروع هممت به، وأنت تعزو إلى رجال الدين تبعة هذا الفشل في حياتك.. فكل شتم للدين ورجاله يغذي هذه العقيدة فيك، فلا تسأل بعدها إن كان نظيفاً أو غير نظيف، محقاً أو غير محق، ومن هنا تعصبك لكاتب مريب وكتاب غير نظيف، وأنت في هذا تستحق المرثية، فالكتاب لا يحارب الدين وحده، ولكنه ينعى على كل خلق نظيف، ويسمي الضمير والخلق

والمروءة وما إليها «أغلالاً»، ثم يهدف إلى إخضاعنا الدائم للمستعمرين، والناس يعرفون من ماضي الرجل وتاريخه ما يخزي، ويعرفون ما لا أستطيع نشره؛ لأنه يقع تحت طائلة القانون، وأنت مندفع مع عقدتك النفسية، فالله يرحمك ويرحم المقتطف، والسلام».

سيد قطب

بين «أؤمن بالإنسان» و«هذي هي الأغلال»(١)

«لقد أخذتني فرحة هزتني حين تصفحت بسرعة كتاب «هذي هي الأغلال» للأستاذ عبدالله القصيمي النجدي، فرأيته يتناول بالشرح والتأييد القضيتين اللتين يدور حولهما فكري، ويكاد يقف على الدعوة إليهما قلمي منذ ست سنوات أو تزيد، وهما قضية «الإيمان بالإنسانية»، وقضية الاعتقاد أن «الحياة صادقة»، وذوو الفلسفات الذين يزرون عليها وينادون بالحرمان من ينابيعها كاذبون، لأنني أعتقد أن اعتناق هاتين الفكرتين أمر جدير أن يُحدث انقلاباً عظيماً في نظرة الناس إلى أنفسهم، وإلى الحياة، وإلى واهب الحياة، إذ هما الشيء الواحد الجديد الذي يمكن تقديمه للبشرية جميعها الآن، ويمكن اللقاء بينها في مجاله، ويمكن به إمدادها بكثير من عوامل التأميل والإسعاد والتفاؤل.

فما إن رأيت أن الفصل الأول من «هذي هي الأغلال» عنوانه «لقد كفروا بالإنسان ـ الإيمان به أول»، حتى قلت: الحمد لله ثم الحمد لله! ـ يعتنق الفكرة ويدعو لها بحماس، ويصدر بها كتابه.

---

(١) نُشر هذا المقال للأستاذ عبدالمنعم خلاف، في مجلة الرسالة (السنة ١٥، ص ١٣١٩).

وما إن رأيت كذلك أغلب فصول الكتاب يستعرض أقوالاً معدودة في سجل الحكم والفضائل عند كثير من المسلمين، وتنحى عليها بالنقض، ثم تجعلها في سجل الرذائل المدمرة للحياة والدين، حتى ثنيت الشكر لله على أن ما سبق أن قلته في مقالات «الحياة صادقة»، وفي هذه المجلة في أوائل سنة ١٩٤٢، وما بعدها؛ قد وجد صدى مدوياً، ولكن ما لبثت هزة الفرح والابتهاج أن انقلبت إلى أسى ووجوم واشمئزاز! إذ رأيت الكتاب يخلو من أدنى إشارة إلى تسجيل سبقي في هذه الدعوة، وإذ رأيت صاحبه مع ذلك يحدث ضجة مفتعلة حوله، ويصدر غلافه بهذه الجملة: «سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل...» وإنه: «ثورة في فهم الدين والعقل والحياة...»، كأن مؤرخي الفكر عميان لا يتلمسون مصادر الآراء!

وإني أعجب كيف يجرؤ كاتب أو مفكر يحترم رأي الناس ويستحي من نفسه أن يسبق التاريخ ويصدر حكمه على عمله بهذه الدرجة من الافتتان والزعم!

إن المفكر الواثق من أنه أتى بجديد حقاً يضع آثاره بين يدي التاريخ في صمت، ويدع له أن يحكم، ولا يتعجل الحكم حتى تعلمه الأيام سواء في حياته أم بعد مماته.. والمفكر الأمين الثقة الغيور على الحق وحرية الفكر يترفع عن أن يغمط حق غيره، وعن أن يغطي جهود من سبقوه بالدعاوى الجريئة لنفسه، لأن هذا إن جاز في مجال الإعلان عن المتاجر والمهن فلن يجوز في

رحاب الفكر والخلق.

ولكن ما للمؤلف وللحديث عن الأخلاق، وهو كما روى عند الأستاذ سيد قطب في مجلة السوادي يرى: «أنه يجب أن ننفي العنصر الأخلاقي من حياتنا، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية، ولا قيمة لها في الرقي والاستعلاء...»!

ومما زاد أسفي أن أرى المؤلف يتجاهل حين سأله الأستاذ قطب أن يكون قد علم بسبقي إلى الفكرة، فعلى فرض أنه لم يطلع على «أؤمن بالإنسان» بعد ظهوره مجموعاً في سنة ١٩٤٥م، فهل يكون من المقبول أو المعقول أنه لم يقرأ حتى بعض مقالات «أؤمن بالإنسان» التي تقارب العشرين حول تلك القضية أثناء بسطها في «الرسالة»، وأحياناً في «الثقافة» في مدى خمس سنين تقريباً، ولا أزال أبسطها للآن، ويتناولها بعض الكتاب بالمناقشة؟ أم هو يزعم أنه لم يقرأ «الرسالة» أيضاً طول هذه المدة!!

ولئن كان سروري بانتشار الفكرة برغم انتحال ناشرها لها قد قعد بي ما يزيد على شهرين بعد اطلاعي مصادفةً على كتاب «هذي هي الأغلال» لدى الأستاذ الجليل محب الدين الخطيب، دون أن أنبه القراء، يضاف إلى ذلك أنني كنت على ثقة من أن النقد اليقظ سيرد الأمر إلى صاحبه.. لئن كان ذلك هو ما قعد بي عن التنبيه فإنني حين اطلعت على مقال الأستاذ سيد

قطب في مجلة «السوادي» في الأسبوع الماضي، ورأيته يكشف عن خبايا كبيرة في آراء القصيمي الشخصية، وسلوكه السياسي نحو محطمي أمجاد الإسلام والأديان، ومهدري كرامة الإنسان.. شعرت أن الواجب يقتضيني أن أنبه القراء إليه.

ولعلي أجد من الوقت ما يسمح بتتبع الالتواء الذي خرج به المؤلف عن جادة الفكرة الأصيلة التي تبناها في حياة أبيها...».

عبدالمنعم خلاف

الرد الحادي عشر:

دراسة عن القصيمي

للدكتور

صلاح الدين المنجد

ترجمة الأستاذ صلاح المنجد[1]

هو الدكتور صلاح الدين بن عبدالله المنجد، ولد بدمشق في النصف من عام ١٩٢٠م، في أسرة دمشقية قديمة، تعلم الفرنسية إلى جانب لغته العربية، نال البكالوريا، القسم الأول عام ١٩٣٦م، والقسم الثاني (فلسفة) عام ١٩٣٧م، تخرج من دار المعلمين الابتدائية عام ١٩٣٩م، نال إجازة الحقوق من الجامعة السورية عام ١٩٤٣م، حضر محاضرات فقه اللغة والحضارة الإسلامية والآثار والاجتماع الإسلامي في الجامعة اليسوعية! ببيروت عام١٩٤٩م.

نشر في مجلة المكشوف عشر مقالات في النقد، بتوقيع مستعار، بعنوان «أعضاء مجمع لكنهم مفلسون»، أصدر في عام ١٩٤٣م ثلاث مسرحيات صغيرة بعنوان «إبليس يغني»، ومنذ عام ١٩٤٤م، انصرف إلى التاريخ، عين أمين سر التعليم العالي والخاص في وزارة المعارف عام ١٩٣٩، ثم رئيساً لديوان مديرية الآثار العامة عام ١٩٤٤م، ثم مديراً للآثار بالوكالة في صيف عام ١٩٤٥م، ثم رئيساً لدائرة الآثار عام ١٩٤٧م.

(١) عن «معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين» للأستاذ عبدالقادر عياش (ص ٤٩٥-٥٠١) (باختصار).

استهوته الآثار واضطره عمله إلى الرجوع إلى المخطوطات القديمة، وشغف بها شغفاً لازمه ولم يتركه، اتصل بالأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي، فشجعه على الكتابة، وذهب إلى باريس للاطلاع والاستفادة.

ترك العمل في مديرية الآثار عام ١٩٤٩م، فعهد إليه المجمع العلمي العربي تحقيق تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر لنشره، وفي عام ١٩٤٩م انتخب عضواً في الجمعية الدولية للدراسات الشرقية (ليدن)، نال جائزة المجمع العلمي العربي لعام ١٩٤٩م، تقديراً لمؤلفاته، وفي تلك الفترة ألقى محاضرات في المجمع العلمي العربي.

في سنة ١٩٥٤م أرسلته الحكومة السورية إلى أسبانيا لكشف مخطوطات دير الأسكوريال والأديرة الأخرى، ثم عين مديراً لمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية، بقي فيه ثماني سنوات في القاهرة، ثم جاء إلى بيروت، وتزوج من بيت مروة، وأسس داراً للنشر، هي دار الكتاب الجديد في بيروت.

معه دكتوراه في الآداب وفي القانون، وهو عضو في مجمع اللغة العربية في القاهرة، وعضو في المجمع العلمي العراقي ببغداد، وعضو في المعهد الألماني للآثار ببرلين، وأستاذ زائر بجامعة فرانكفورت وجامعة برنستن،

ورئيس تحرير مجلة معهد المخطوطات العربية، ومستشار بجامعة الدول العربية، ومدير معهد المخطوطات فيها (١٩٥٤-١٩٦١م)، وأستاذ محاضر بجامعة طهران ١٩٦٥م، وأستاذ بكلية بيروت للبنات ١٩٦٦م، نشر مقالات عديدة في مجلة المجمع العلمي العربي ومجلة العربي وغيرهما.

حقق ونشر كثيراً من المخطوطات؛ منها:

١) دور القرآن بدمشق، عبدالقادر النعمي (٩٢٧هـ)، مقدمة في مدارس دمشق، وتطور الحركة العلمية فيها، دمشق، مطبعة الترقي، ١٠٣ ص، ١٩٤٦م.

٢) كتاب اللغات في القرآن، رواية عبدالله بن الحسين (٣٨٦هـ)، ١٠٠ ص، ١٩٤٦م.

٣) رسالة الألفاظ المهموزة، لابن جني، دمشق، ١٦ ص، ١٩٤٨م.

٤) كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، لابن الفراء، ٢٠٠ ص، ١٩٣٩م.

٥) مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس، للنعيمي، ٤٠٠ ص، ١٩٤٧م، مطبوعات مديرية الآثار العامة بسورية، دمشق، مطبعة الترقي.

٦) حمامات دمشق، نصوص من تاريخ دمشق لابن عساكر، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ٢٦ ص، ١٩٤٧م.

٧) تاريخ مسجد دمشق، دمشق، ٣٢ ص، ١٩٤٩م.

٨) كتاب وقف القاضي عثمان بن نجا (٦٤١هـ)، ٤٨ ص، ١٩٤٩م، مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق.

٩) ولاة دمشق في العهد العثماني، لابن جمعة وابن القاري، دمشق، ١٣٦ ص، ١٩٤٩م.

١٠) ولاة دمشق في العهد السلجوقي، نصوص من تاريخ دمشق لابن عساكر، دمشق، ٣٢ ص، ١٩٥٠م.

١١) فضائل الشام، للربعي (٤٤٤هـ)، مع أربعة ملاحق، دمشق، ١٨٣ ص، ١٩٥٠م، مطبوعات المجمع العلمي العربي.

١٢) التمهيد فيما يجب فيه التحديد، لقاضي القضاة تقي الدين السبكي (٧٥٦هـ)، دمشق، ٤٠ ص، ١٩٥١م.

١٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، المجلدة الأولى، دمشق، ٩٦٠ ص، ١٩٥١م، مطبوعات المجمع العلمي العربي.

١٤) أرجوزة في محاسن دمشق، لابن خداويردي (١١٩٥هـ)، ١٦ ص، ١٩٥٢م، نشرت في مجلة المجمع العمي بدمشق، عدد نيسان، ١٩٥٢م.

١٤) كتاب وقف أسعد باشا، دمشق، ٢٨ ص، ١٩٥٣م.

١٥) أسماء مؤلفات ابن تيمية، لابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، ٢٨ ص، ١٩٥٣م، مطبوعات المجمع العلمي العربي.

وله من المؤلفات باللغة العربية:

١) دمشق: أسوارها، أبراجها، أبوابها، مزدان بالصور، دمشق، ٦٤ ص، ١٩٤٥م، منشورات مديرية الآثار العامة بدمشق.

٢) بيمارستان نورالدين بدمشق، دمشق، ٤٠ ص، ١٩٤٥م.

٣) تدمر عروس الصحراء، بالاشتراك مع جان ستاركي، عضو المعهد الفرنسي للآثار ببيروت، ٦٤ ص، ١٩٦٤م، منشورات مديرية الآثار بدمشق.

٤) قصر أسعد باشا العظم، ٣٢ ص، ط٢، مزدان بالصور، بيروت، مطبعة الكشاف، ١٩٤٧م.

٥) خطط دمشق، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٦٠ ص، مزدان بصور.

٦) قواعد تحقيق النصوص القديمة، ٢٤ ص، القاهرة، ١٩٥٥م، وط٢، بيروت، ١٩٦٤م، وط٤، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م.

٧) المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث الهجري إلى نهاية القرن العاشر، القاهرة، ٨٦ ص.

٨) دراسة عن القصيمي، تحليل لآرائه ومصادرها، بيروت، ٦٤ ص، ١٩٦٧م.

٩) أعمدة النكبة، بحث في أسباب هزيمة ٥ حزيران ١٩٦٧م، بيروت، ٢٠٠ ص، ١٩٦٧م، نقل إلى الألمانية عام ١٩٦٩م، وإلى الهولندية ١٩٧٠م.

١٠)رسائل إلى شاب متشكك، رد على مطاعن الشيوعيين على الإسلام، بيروت، ٩٢ ص، ١٩٧١م.

١١)أحسن ما قرأت عن الإسلام، مختارات لكبار الأدباء والعلماء المعاصرين، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١١٦ ص، ١٩٧١م.

١٢)فيصل بن عبدالعزيز، من خلال أقواله وأفعاله، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١١٢ ص، ١٩٧١م.

قال الدكتور صلاح المنجد ـ وفقه الله ـ:

«عندما صدر كتاب «العالم ليس عقلاً» كتبتُ عن القصيمي في جريدة الحياة «إنه إما أن يكون عبقرياً أو مجنوناً».

وقد أعجبني ما كتبه يومئذ عن «الدكتاتور» في ذلك الكتاب، ولم أقرأ فيه سوى تلك الصفحات، وكان القصيمي يفتخر في أحاديثه أنه يقصد بها كتب رئيساً معروفاً من رؤساء الدول العربية.

ولقيت كلمتي هذه صدى كله رضا عند المعجبين بالقصيمي؛ فأرسلوا إليَّ الشكر، وأخذ القصيمي نفسه ما كتبته عنه وضمَّنه في إعلان عن الكتاب، ثم حرّفه وكتب ما لم أقل عنه!

ولكن تلك الكلمة لقيت أيضاً صدى كلمة غضب عند الذين لا يحبون القصيمي، فأرسلوا إليّ العتب واللوم، وأن هذا الرجل لا يجوز أن يُكتب عنه ما كتبت.

وقد دفعني ذلك إلى معرفة القصيمي بنفسي، فلقيته وتحدثت إليه، ثم قرأتُ كتبه الأخيرة بإمعان، وكتبت عنه هذه الدراسة العلمية، وآمل أن لا أكون مخطئاً فيها.

ولعل القراء يجدون فيها خلاصة ما يجب أن يعرفوه عن القصيمي.

الفصل الأول: القصيمي والناس

عبدالله القصيمي أحد الذين أثاروا بما أنتجوه أخيراً من آثار، ضجة في البلاد العربية، ونريد، قبل أن نبدأ نحن دراستنا، أن نسجل هنا أصداء هذه الضجة لدى طبقات مختلفة من الناس، فهذا الاستعراض لآراء الذين اهتموا بمؤلفات القصيمي، إنما هو إتمام للدراسة التي نريدها، وقد يساعدنا على فهم حقيقة هذا الرجل.

فالذين قرءوا مؤلفات القصيمي الأخيرة يرجعون إلى ثلاث فرق:

١- فأناس استنكروا واشمأزوا وقرفوا من القصيمي وآثاره، وحجتهم أنه رجل ارتد إلى الإلحاد بعد الإيمان بالله، وبعد الاندفاع في تعظيم القيم الروحية، وأنه بلغ حداً بعيداً في التطاول على المعتقدات الدينية والروحية والتراث الخلقي، وراح يدعو جهرة إلى الإلحاد والهدم، بروح ملؤها النقمة على كل شيء، فالقصيمي عند هؤلاء ملحد هدَّام مضلل، كأنه الوباء.

٢- وأناس آخرون قرأوا ما كتبه القصيمي بكثير من السخرية والتهكم، واتهموه أنه مجنون، أو أنه مصاب بمرض نفساني، وحجتهم أن ما يكتبه كله متناقض، كل سطر ينقض الذي يسبقه، وأن آراءه لا

تستقيم مع قواعد العقل وسُبل المنطق، وأنه يكتب أشياء لا تُفهم أبداً، فكأنها ـ على قولهم ـ هذيان مجنون أو محموم، يشتم الشمس مرة لأنها لا تثور على ما خلقها الله عليه، ويسب الحشرات لأنها لا تنادي بالاحتجاج على ما هي فيه، وغير ذلك من آراء تشبه هذه، تدعو إلى السخرية، وتدعو إلى الريبة في عقل كاتبها.

٣- وفريق ثالث قرأوا ما كتبه القصيمي بإعجاب، لأنه أتى بما لم يأت به أحد قبله ـ على حد تعبيرهم ـ ولأنه صاحب التأمل العميق الذي فهم بنظره سر الكون فوصفه، ولأن تاريخ العرب لم يعرف فكراً أخصب من فكره، وهذا الفريق من الشباب الناشئ، الذي لم يؤت ثقافة واسعة يستطيع أن يردّ الأمور بها إلى نصابها، أو يميّز بها الصحيح من الباطل، أو من الملحدين الذين لم يعرفوا الله في بيوتهم ولا مدارسهم ولا بيئتهم، أو من الناقمين الذين أطربهم ضجيج القصيمي الناقم.

وبين هذه الطوائف الثلاث إجماع واحد، هو أن القصيمي ملحد، يُفاخر بإلحاده ويعلنه، وإن كان الفريق الثالث يسمي إلحاده «فكراً حراً».

على أن هناك تعليقات أخرى يذكرها أو يكتبها المفكرون والأدباء، دون أن يلتزموا طائفة من الطوائف الثلاث التي ذكرناها.

فمنهم من سمعتُه يقول: هذا الرجل مغلق، وما يكتبه مغلق أيضاً لا يُفهم، وإذا كان الكاتب لا يستطيع إفهام قارئه فهذا دليل على أنه هو نفسه لا يعرف ماذا يريد، وهم يقولون أيضاً: إن القصيمي ليس عنده اتزان وتسلسل منطقي في تفكيره، فهو يقفز من فكرة إلى فكرة، فتأتي هذه الأفكار مضطربة، مسيخة لم تنضج نضجاً يمكنها من الظهور واضحة سافرة.

وسمعت آخرين يقولون: إن خلاصة ما كتبه القصيمي، وما سيكتبه، هو ما يلي: «أيها الناس لا تؤمنوا بالله، ولا بأي دين، ولا تؤمنوا بالأخلاق والقيم، ولا تحترموا أحداً، ثوروا على كل شيء واحتجوا على كل شيء، واهدموا كل شيء، فما دمتُ أنا مُهْمَلاً في هذا الكون، ولست أنا مركز الكون، فيجب أن أنقم على كل شيء، وأن أدفع الناس إلى النقمة، وإلى الثورة والاحتجاج، ليبدّلوا كل شيء ويخرب هذا الكون»!

وسمعت آخرين من الأدباء يقولون: السطحية واضحة فيما كتب القصيمي، فهو ضعيف الثقافة يحاول طرق موضوعات فلسفية هي أعلى من مستواه العقلي، فلم يُتح له أن يتصل بالتيارات الفلسفية والثقافية الأوروبية إلا عن طريق بعض المترجمات، فأغار على بعضها وشوّهها، وتبنى بعض الآراء الغربية المادية وتمسك بها، فليس عنده أصالة فيما كتب، وكل كلمة قالها يمكن ردّها إلى صاحبها الأوروبي الذي أخذها عنه، ولم يكن بارعاً ولا

ماهراً في ربط هذه الآراء المسروقة بعضها ببعض بلباقة ولطف، فجاءت كتبه مثل جُراب الشحاذين، يضعون فيه ألواناً من الأطعمة المتنافرة والمتآلفة، بعضها فوق بعض، فيكون المزيج عجيباً.

على أن الآراء التي يختارها القصيمي هي سامة دائماً: فيها شر، وليس فيها خير.

هذه أمثلة من أقوال الناس وتقوّلاتهم على القصيمي، وما أكثر اختلاف آراء الناس، واضطراب أهوائهم في كل شيء.

فما هي حقيقة القصيمي؟ وما هي آراؤه، ومن أين استمدها، لنترك ما نقلناه عن الناس جانباً، ولنرافق القصيمي، جهد المستطاع، منذ جاء إلى هذه الدنيا، حتى أيامنا، لنبلغ الحقيقة.

الفصل الثاني: أضواء على حياة القصيمي

١ - أسرة القصيمي وأصله:

ما سأذكره في هذا الفصل، بعضه رُوي لي عن الشيخ عبدالرحمن آل عثمان القرعاوي الأمير السابق لخب الحلوة في منطقة القصيم بنجد في السعودية، وقد عرف القصيمي منذ صغره، والبعض الآخر هو مما يتحدث به القصيمي عن نفسه.

ليس للقصيمي نسب عربي معروف، وليس لأسرته اسم تُعرف به، و«القصيمي» اسم جديد اتخذه عبدالله فعُرف به، ذلك لأن أسرته ليست من نجد، ولا من أي مكان في الجزيرة العربية، بل هي مصرية أخرجها صعيد مصر، فهو إذن مصريُّ الأصل والأسرة.

واسم أبيه علي، جاء إلى القصيم أيام ابن ضبعان أو محمود الزيد، وكان من بقايا حملة إبراهيم باشا على نجد، وعُرف بالقصيم باسم «علي الصعيدي».

وطاب المقام لعلي في قصيم نجد أكثر من صعيد مصر، فسكن في خبّ الحلوة التابعة لمدينة بريدة، وتزوج بها بموضي بنت عبدالعزيز الملقب عِبْدَه (بكسر العين) فولدت له ابنه عبدالله الذي نتحدث عنه.

ويبدو أن آخرين من أقرباء علي الصعيدي قد جاءوا أيضاً إلى نجد، منهم أبناء عمه: حمود الصعيدي وعبدالله الصعيدي الموجودون في الرياض، وجميع أهل حائل لا يعرفون لهذه الأسرة أصلاً ولا نسباً، وإنما يقال لهم «الصعايدة».

وروى القرعاوي المذكور أنه لقي فيما بعد عبدالله الذي نتحدث عنه في مصر، عند الشيخ فوزان السابق ـ الذي كان وزيراً مفوضاً للمملكة العربية السعودية هناك ـ فسأله: لماذا أسميت نفسك بالقصيمي وأنتَ الصعيدي؟

فأجابه: لأني ولدتُ بالقصيم.

٢- نشأته وتركه القصيم:

قضى عبدالله طفولته في القصيم، بخب الحلوة، في حجر والدته موضي، ثم نراه صبياً يشتغل أجيراً في فلاحة عبدالرحمن آل عثمان القرعاوي الأمير يومئذ هناك.

وكان أبوه علي قد ترك حائل وانتقل إلى العجمان في عُمان ليعمل هناك باللؤلؤ، فترك عبدالله عمله عند القرعاوي والتحق بأبيه وهو فتى، وهناك قرأ عبدالله القرآن.

وأخبرني الشيخ منصور بن مشعان أن الشيخ علي بن محمود، وهو تاجر صالح، أرسل عبدالله، ومعه عبدالعزيز بن راشد إلى الشيخ محمد الشنقيطي في جنوب العراق، سنة ٤٢ هجرية، وكان الشيخ منصور عند الشنقيطي ورأى عبدالله هناك، وبعد سنة أو أقل ذهب القصيمي وصديقه إلى الهند، بقصد تعلم الحديث النبوي، فقصد إلى دلهي، وهناك التحق بالمدرسة الرحمانية، ولم أجد لها ذكراً في كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» الذي ألّفه عبدالحي الحسني، ويبدو أنها لم تكن ذات شأن، أو أنها كانت للصغار المبتدئين، فبقي فيها حوالي سنة ونصف سنة، ثم عاد إلى «الزبير» في جنوب العراق، ليدرس ثانية عند الشيخ أمين الشنقيطي، وهو غير الشنقيطي الموريتاني المشهور، فبقي عنده عشرة أشهر يقرأ

الحديث وغيره من علوم الدين، ثم ترك شيخه الشنقيطي وجاء إلى بغداد ليلقى الشيخ الآلوسي، فوجده قد مات، وقصد الكاظمية ولازمها شهوراً، ثم تركها قاصداً الشام ثم القاهرة، فبلغها في سنة ١٩٢٥م وهو يُشرف على الثامنة عشرة من عمره.

وأخبرني عبدالله بن خميس أن الذي رافقه إلى الهند هو عبدالله أبو يابس المقيم الآن بالقاهرة، ومن علماء الحديث[(١)].

ولا ندري من الذي كان يُنفق عليه أو يعوله في سفرته هذه، ومن كان يحوطه برعايته وعنايته، والظاهر أن أباه لم يكن من أصحاب الثراء، وإلا لما تركه يعمل في فلاحة الأمير.

وكذلك نلاحظ أن القصيمي حُرم نعمة العيش في كنف أمه وأبيه أيام صباه، ولم يشبع نفسه من العطف الروحي الذي يحتاج إليه الصبيان كحاجتهم إلى الغذاء المادي.

لقد بدأت حياته قاسية منذ صغره.

وبعد وصوله إلى القاهرة التحق بالأزهر ولبس الجبّة والعمامة، وقد رآه

---

(١) رحمه الله. وقد مضى رده على القصيمي.

القرعاوي فيما بعد بلباسه هذا عندما صادفه عند الشيخ فوزان السابق، وسأله لماذا بدل اسمه، ثم أخذ عبدالله يشدو العلم على الطريقة الأزهرية من حفظ المتون والشروح وملازمة حلقات الشيوخ، قانعاً بما كان يقدمه الأزهر للملتحقين الغرباء به من خبز وفول وما شابه ذلك.

٣- من الطعن على الدجوي إلى الطعن على الله:

وما ندري نوع الثقافة الدينية التي أخذها في الهند والعراق، ومداها وعمقها، وهل أثّرت فيه فعلاً أم لا، ولكن أحاديث القصيمي عن تنقله بين الهند والعراق وشيوخه فيهما لا يخلو دائماً من سخرية وتهكم.

على كل يبدو أن عبدالله كان متحمساً للدين عندما بلغ القاهرة.

وما كان الأزهر في أوائل هذا القرن في مستوى علمي عظيم، وكان شيوخه من ضيق العقل والمنطق والجمود ما جعل الإمام محمد عبده يخشى على الدين الإسلامي كله منهم، وما كتبه طه حسين عن هؤلاء الشيوخ معروف، فليس المهم أن نعرف ماذا تعلم عبدالله في الأزهر، غير ما كانوا يقرأونه من متون أو شروح كما ذكرنا، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن عبدالله أخذ يؤلف الكتب، مما يدل على أن نفسه بدأت تتفاعل وتعطي ثمرات ما كسبته.

فماذا كان موضوع الكتاب الأول؟

كان شتماً وطعناً على شيخ من شيوخه هو الشيخ يوسف الدِجوي (بكسر الدال وسكون الجيم)، وكان الدجوي من علماء الأزهر ومن هيئة كبار العلماء، وكان أعمى كف بصره في طفولته بمرض الجدري، فتخاصم القصيمي والدجوي يوماً، فألّف القصيمي كتاباً سماه «البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية»، فما ترك طعناً إلا ألصقه بالشيخ الأعمى، فما كان من الشيخ الدجوي إلا أن عمل على طرده من الأزهر.

وقد آلم القصيمي أن يطرد من الأزهر ألماً عميقاً، ما زال يحسّ به سامعه وهو يتحدث عنه، ولعل هذا الطرد كان من العوامل الأولى التي دفعت القصيمي لازدراء الأزهر ورجاله، ثم دفعته فيما بعد للتحول عن نهج الدين، كما وقع لطه حسين.

وأتبع القصيمي مؤلفه الأول بمؤلف ثان أراد أن يتحدى به الأزهر وعلماءه جميعاً سماه «الصراع بين الإسلام والوثنية»، صدر في ثلاثة أجزاء، بلغت ألفين وخمسمائة صفحة، دافع به عن الإسلام والتوحيد أمجد دفاع، وكان دفاعه مملوءاً بالقوة والحرارة والحجة.

وروى لي القصيمي أن أهل نجد، وهم المتمسكون بالدين الصحيح

والتوحيد الخالص، فرحوا بهذا الكتاب أعظم الفرح، حتى أنهم قالوا للملك عبدالعزيز: «لقد دفع القصيمي مهر الجنة بكتابه هذا».

وسواء كان هذا القول صحيحاً أم وضعه القصيمي مستخفاً بالنجديين [(١)]، أو مقرّظاً عمله الذي قام به، فإنه يدل على أن القصيمي كان مؤمناً، مندفعاً في إيمانه وإخلاصه للإسلام والتوحيد.

وسارع الكثيرون من العلماء لتقريظ الكتاب والثناء عليه، شعراً ونثراً، فمما قاله إمام الحرم المكي يوم ذاك، من قصيدة طويلة:

صراعٌ بين إسلامٍ وكفرٍ ... يقوم به القصيمي الشجاع
ألا لله ما خط اليراع ... لنصر الدين، واحتدم النزاع

وشعر القصيمي، بعد كتابه هذا، بكثير من الزهو الفخر، فألفان وخمسمائة صفحة في الدفاع عن الدين والإيمان وتحطيم الوثنية والكفر تكفي لتجعل منه الشيخ الذي يُنظر إليه بعين الرضا في كل مكان، والذي يحق له أن يتصدر المجالس والحلقات.

ولكن إذا كان أهل نجد هللّوا للكتاب، فقد تجاهله علماء الأزهر ولم يوفّوه حقه من التقدير، وكانت عقدة نفسية جديدة عند القصيمي، أضيفت

(١) وهذا هو الأقرب!

إلى العقدة التي سببها طرده من الأزهر من قبل.

ودفعه ذلك كله إلى ثورة عاقلة، نظر فيها أسباب انحطاط المسلمين أو «كيف ذلّ المسلمون» أخرجها في كتاب نفَّس فيه عن نفسه.

وتزوج فتاة مصرية، فلم يوفق، على قوله في زواجه منها، ولدت له ابناً وبنتاً.

وكانت الحرب العالمية الثانية قد قامت، وقد نشطت في مصر العناصر الشيوعية تبث أفكارها تحت شعار الهجوم على النازية والفاشية، وكانت مؤلفات فلاسفة الغرب وأدباؤه تنقل كل يوم في ا لصحف أو المجلات أو في كتب خاصة إلى العربية، وكانت هذه الكتب تحوي كل شيء، من الإلحاد حتى الإيمان، ومن الضار حتى النافع.

ويذكر القصيمي أنه كان مغرماً بأمرين: القراءة والتأمل، فدفعه فشله المتواصل، وتعبه الطويل إلى اللجوء إلى القراءة، ومن الطبيعي أن يقرأ الإنسان ما يلذ لنفسه، أو ما يوافق الحالة النفسية التي هو فيها، فكانت قراءاته كلها ثورة أو ما يدعو إلى ثورة.

وهبت عاصفة شك في نفسه؛ لأن الأقدار (بزعمه) لم تعطه ما أعطت غيره، وجاء عام ١٩٤٦م فكان نقطة التحول في حياة القصيمي، فقد أصدر

كتابه «هذي هي الأغلال» ثار فيها على كل شيء مما سماه تقاليد وعادات وعقائد وخرافات، فأثار الكتاب ضجة عنيفة في صفوف الجمعيات الدينية ورجال الأزهر، ورأوا في مؤلفه مستهتراً مُلحداً، ودافع عنه إسماعيل مظهر، وكان يعمل في المقتطف، فقد خصه بافتتاحية فيه، وكان عند إسماعيل مظهر لوثة من الإلحاد أيضاً، يُخفيها باسم الفكر الحر.

ويقول القصيمي في أحاديثه: «قررت الجمعيات الدينية آن يبعثوا بوفد إلى الملك عبدالعزيز ليبين له ما في هذا الكتاب، وقرروا أن يطلبوا من حكومة مصر إخراجي منها وطردي، ولكن مصر، رغم أنها كانت في عهد رجعي، كانت لا تسلّم المفكرين الأحرار لمن كان يطلبهم من الرجعيين الآخرين، وكانت مصر في ذلك العهد تطلق لهؤلاء المفكرين الأحرار العنان لإبداء آرائهم».

ولم تتوقف الهيئات الدينية عن سعيها لإنزال الضرر بالقصيمي جزاء له ما كتب، وتطاول، ومن ذلك أنها ذهبت إلى الشيخ فوزان السابق ليحرّضوه عليه، ولكن خير الدين الزركلي كما يقال تدخل في الأمر.

وبلغت أخبار الكتاب وما فيه إلى الملك عبدالعزيز، كما بلغه أن فوزان السابق هو الذي يحميه، ويروي القصيمي أن الملك أرسل برقية إلى الشيخ فوزان يطلب فيها منه أن يُعلن براءته منه في الصحف.

ولم يكن الأزهريون أخف عداوة وتهجماً على القصيمي من غيرهم، فكالوا له الصاع أصوعاً.

ومهما يكن من أمر فإن القصيمي قد خرج بعد كتابه هذا وقد كشف بعض القناع عن وجهه، كان ينادي بالإصلاح في كتابه، ويصف الأغلال، ويحتمي وراء الفكر الحرّ، ينفِّس بذلك كله عن خيبة أمله وحرمانه وسوء حظه وفقره، وينتقم من الأزهر والأزهريين.

ثم كانت فترة استجمام عند القصيمي بين سنة ١٩٤٦م حتى ١٩٦٣م عندما أصدر كتابه «العالم ليس عقلاً»، ثم أتبعه بعد سنتين بكتابين آخرين هما: «كبرياء التاريخ في مأزق»، و«هذا الكون ما ضميره».

وفي هذه الكتب الثلاثة انطلق القصيمي في اتجاهه الجديد إلى أبعد الحدود، فكانت، في رأيي، ثمرة عقد نفسية متراكمة منذ صغره، وحرمان مما كان يؤمله ويريده، فلننتقل الآن إلى ذكر اتجاهه الرئيسي في كتبه وآرائه التي ألح عليها وأراد نشرها.

الفصل الثالث: آراء القصيمي ومنابعها

لا يجد الباحث الذي يقرأ كتب القصيمي عناءً كبيراً في التعرف على «هُوية» آرائه التي بثها في كتبه، فلقد أعدت قراءة كتابه هذا الكون ما ضميره

مرتين، وأصبح عندي كاليقين أن ما ملأ به صفحات الكتاب ما هو إلا ترداد لآراء «ماركس» والشيوعيون، وإن كان قد هاجم الشيوعيين من قبل.

ولا أعتقد أن القصيمي كان شيوعياً نظامياً في الحزب الشيوعي، لكن عقده النفسية هي التي دفعته إلى تبني آراء الشيوعيين، فما زالت آراء الشيوعيين والماركسيين هي الملجأ الوحيد للناقمين على الحياة، المصابين بشعور النقص، الخائبين فيما حلموا به وتمنوه، والآراء الأساسية التي دعا إليها ماركس واضحة، وتتلخّص فيما يلي:

١- يقول ماركس: «ليس المهم أن نفسّر الأشياء التي نراها في الكون بل المهم أن نغيرها»، فالدعوة إلى تغيير الأشياء تغيراً جذرياً هي أول أهداف الثورة الماركسية، ومن أول «الأشياء» التي يجب تغييرها عند ماركس والشيوعيين: المعتقدات والمذاهب والتقاليد والنظم.

٢- وذهب ماركس إلى أنه «لا إله في الكون»، ودعا إلى الإلحاد دعوة صريحة علنية، فهو لا يؤمن بالله ولا بالأنبياء، ولا بالكتب المنزلة.

٣- وكان ماركس لا يؤمن بالأخلاق والمثل الروحية، ويقول: إن الحقائق الأخلاقية أوهام وخرافات فردية وجماعية، ولم يكن لديه أي مثل أعلى أخلاقي أو إجماعي يدعو الجنس البشري إليه، وذهب ماركس أن الإنسان ليس بمخلوق، بل هو خالق، وأن الحياة مادة وأن المادة هي التي تلد ذاتياً وتتولد.

٤- وجعل ماركس من أعمال البروليتاريا القضاء على الدين والداعين إليه، وهدم العقائد الدينية وتغييرها، ونشر الإلحاد وتبنيه وعدم الاهتمام بالأخلاق والمثل الروحية.

فلنر الآن على التفصيل آراء القصيمي التي توافق آراء ماركس تماماً:

١ - الدعوة إلى تغيير الأشياء:

أ- يقول ماركس لما ذكرنا «إن المهم هو تغيير الأشياء في الكون»، ويقصد بالأشياء كل ما يوجد على الأرض من تراث مادي ومعنوي وروحي.

ويقول القصيمي: «لا أمل في إصلاح أو تغيير تفكير الإنسان أو سلوكه إلا بوسائل طبيعية، أي إلا بتغيير الطبيعة وإصلاحها» ص١٤٥.

ويقول: «إن الآلهة والعقائد والمذاهب تُصاب بالخمول والفساد والتعفن، وبتراكم التراب والحشرات إذا تقادمت دون تغيير أو تحريك أو تنظيف» ص٣٠١.

ثم يؤكد بأن: «العقائد والآلهة والمذاهب هي أحق الأشياء بالتغيير» ص٢٨٢.

ب- بعد هذه الدعوة العامة إلى تغيير المذاهب والعقائد والآلهة، ينتقل إلى الدعوة إلى تغيير أوامر الله، فيقول:

«أما الإله فلا محالة أن تتغيّر أوامره وشرائعه ونصوصه وتقديراته للأمور، لأن الذي يأمرهم، ويشرّع لهم ويفكر فيهم ويصوغ أوامره ونواهيه طبق احتياطاتهم يتغيَّرون» ص١٨٢.

ج- ثم ينتقل خطوة أخرى فيدعو إلى تغيير الإله!

«إنه لمحال أن يتغيّر العبيد المأمورون دون أن يتغير الإله الآمر، هل يمكن أن يتغير البشر دون أن يتغير الإله؟».

«إن المفروض أن يكون الإله هو أكثر الأشياء تغيراً، لأنه أحوج الأشياء إلى التغير».

٢- الدعوة إلى إنكار الإله:

ورأى ماركس أنه لا إله، وأن الحياة مادة.

وهذا ما أعاده وكرره القصيمي في كتابه مئات المرات.

أ- يقول: «إن كل شيء يبدأ من الطبيعة، وتمنحه الطبيعة كل شيء، إذن الطبيعة هي كل شيء» ص١٤٤.

ويقول: «إن المادة الأولى والفريدة والوحيدة التي صيغت منها جميع البراهين على وجود الخالق هي فكرة إيجاد الكون والتصرف فيه، ولكن هذه الفكرة تناقضها فكرة أخرى؛ تلك هي أن إيجاد الأشياء والتصرف فيها عمل

من أعمال المادة وحدها، فالمادة لا يفعلها ولا يؤثر فيها إلا المادة، والأعمال التي ترى هادمة بانية والتي تقع دائماً في الوجود ليست إلا نشاطاً مادياً» ص٤١.

ب- ثم يتفنن القصيمي بعرض مذهب ماركس بأساليب مختلفة لا تخرج عنه. فيقول مثلاً: «إن الأشياء هي التي تصنع نفسها وتغيرها» ص٤٥.

«إن الكون هو أقوى لغات الرفض للإله» ص٥٨.

«إنه لا وجود لأي شيء بدون صفاته وشروطه، وصفات الإله وشروطه ليست موجودة، بل إن كل وجود ينافي وجود هذه الصفات والشروط» ص٩٠.

«من الهزل الزعم أن الكون أو الإنسان محكوم بمشيئة إله أو بعدله أو برحمته أو بقدرته أو بذكائه» ص٩٠.

«جميع تقديراتنا وأعمالنا الذهنية والمادية ونشاطاتنا كلها قائمة على افتراض أن الكون آلي، لا تتدخل فيه أية مشيئة ولا أية قدرة مطلقة ولا أي إله طيب يرضى ويغضب ويحاسب ويعاقب ويقول للشيء كن فيكون» ص٩٦.

«... فتصورنا للألوهية بكل أبعادها الضاربة في أقصى متاهات الأوهام ليس إلا تعبيراً غير ذكي عن أمنية غير ذكية» ص١٠٦.

ج- وبعد أن ينكر القصيمي وجود الإله، ويؤكد أن كل شيء راجع للمادة، يدعو إلى الثورة على الله، وإلى رفض فكرة وجود الإله وتحديه، ويحاول أن يثير القارئ ضد وجود الإله، وأن الأفضل للإنسان: أن لا يكون فوقه إله فيقول:

«فكيف يكون وجود الإله أفضل لنا؟ إن وجوده يعني محاسبتنا ومراقبتنا، ويعني الثواب والعقاب، ويعني الجنة والنار» ص٩٣.

«إن الأفضل لنا ألا تكون فوقنا قوة هائلة مطلقة مثل قوة الإله تسلبنا الحرية وتحاسبنا أقصى محاسبة، وتضعنا تحت أقوى رقابة وتخلفنا بمشيئها ثم تحكم علينا بالخلود في الجنة.. أو في الجحيم..».

«إن أضعف احتمال من احتمالات الجحيم ليبصق على كل احتمالات الجنة ويسخر منها» ص٩٣.

«إن وضع الإنسان دائماً عارياً تحت نظرات الإله القاسية لهو نوع فظيع من التعذيب والفضح والافتضاح» ص٩٤.

«فهل من الأفضل حقاً للإنسان أن يكون فوقه إله؟» ص٩٤.

«كيف يكون الأفضل للبشر أن يكون فوقهم طاغية لا حد لقدرته ولغيرته ولغضبه ولحبه لذاته ولبحثه عن المجد الذاتي؟» ص٩٩.

«إننا في حالة آلية الكون نكون فيه سادة نحكمه ونوجهه كما نشاء بقدر

ما نستطيع، أما في حالة روحانية وعبودية فإننا نكون فيه عبيداً مقهورين بقوة غيبية مثله، لا نستطيع أن ننتصر عليها ولا أن نتفاهم معها أو نعرف متى تفعل أو تكف عن الفعل، متى توقف النهر وإلى من تتركه جارياً» ص٩٩.

«فأية الحالتين أفضل لنا، وأيهما نختار، لو وضع أمامنا الخيار» ص٩٩.

«إني أدعو إلى الرثاء والصلاة من أجل من لا يستطيعون أن يكونوا رافضين متحدين..» ص١٤٢.

د- لكن القصيمي يناقض نفسه بسرعة، فبعد أن يحاول أن يقنعك أنه لا إله في الكون، يعود فيعترف بوجود الإله، ولكنه ينسب إلى الله صانع كل شيء كل نقص، وكأنه يعبر بذلك عن نقمته عن نقصه هو.

«إن الضعف والانحراف أو الشذوذ أو الخطأ في الصنعة لا يمكن أن يكون له من أسباب سوى الصانع» ص٢٠٣.

أو يقول:

«إن الإنسان الضال أو البليد هو شهيد مغبون، ضحت به رغبة الخالق الذي وجد سروره ورضاه عن نفسه في أن يجعل إنساناً ما ضالاً منحرفاً بليداً ليُعذب ويعاني» ص٢٠٤.

وفي هذا يعبّر القصيمي أيضاً عن عقده النفسية.

هـ- ثم يندفع في منطق كالمجنون فيقول:

«الحوار ضد سلوك الإله ومنطقه مشروع» ص٢٤٥.

ثم جعل الإيمان بالله نفاقاً له:

«إن الذين يفرضون على الناس أن ينافقوا الله أي أن يؤمنوا به...» ص٢١٣.

بل زعم أن الأديان والله غير موجودة في حياة الناس فعلاً فقال:

«إذن لقد استطاعت الآلهة والأديان أن تعيش طويلاً، ويُرفض تغييرها أو موتها أو إنكارها ونقدها، وظل التعصّب لها قوياً وغير عاقل أو متوقر، لأنها كانت غير موجودة في حياة الناس المؤمنين بها أو غير ملزمة، لقد كانت الأديان والآلهة دعاوى وخطباً وسباباً بذيئاً فقط، ولم تكن موجودة كحياة أو سلوك أو فضائل نفسية..» ص٣٣.

وهذا غير صحيح، فلقد كانت الأديان دائماً متغلغلة في أعماق الناس، ولولا دفع الأديان وحرارتها لما كانت الحضارات وازدهارها.

ومهما ابتعد الناس عن الدين فلا بد أن يعودوا إليه.

و- ولم ينسَ أن يهزأ ممن يعبد الله، ويهزأ من الله لأنه بزعم المؤمنين خلق الإنسان، ويهزأ من الله «لأنه يريد من عبيده غير ما هم، وأن عبيده يريدون

منه غير ما هو، فلم يحدث ما أردنا، ولم يحدث ما أراد» ص٦٥.

٣- الهزء من النبوات:

وهزئ ماركس من النبوات والأنبياء والكتب المقدسة، وهذا ما فعله القصيمي، وخص هزأه بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

يهزأ القصيمي من البرهان الذي يصوغه مفكرو المسلمين لإثبات النبوة، فيقول بأنهم يقولون: محمد ادعى النبوة وجاء بأمر معجز هو القرآن، وكل من ادعى النبوة وجاء بأمر معجز فهو رسول من السماء، إذن فمحمد رسول من عند الله.

ثم يقول: «والدليل على إعجاز القرآن هو أنه جاء إلى العرب متحدياً لبلاغتهم ونخوتهم وكبريائهم طالباً إليهم بتقريع أن ينافسوه ويعارضوه ويجيئوا بشيء مثله أو أحسن منه فعجزوا واستسلموا واعترفوا بالهزيمة».

ويحاول القصيمي أن يرد على ذلك ويقول: أما قضية النبوة وبرهان التحدي فماذا يعني ذلك؟ لو جاء أي مؤلف، مهما كان مستواه، وتحدى كل عصره بكتاب من الكتب، وأعلن أن جميع أهل عصره لا يستطيعون أن يأتوا بمثله مهما فعلوا أو مهما جاءوا بما هو أفضل منه، وحكم مقدماً في القضية وقال: إن كل من يحاولون أن يجيئوا مثله سأقتلهم لأنهم كفرة، ولأن كل ما

سوف يجيئون به لا بد أن يكون باطلاً وهراء، وأقل من كلامي، ومهزوم أمام التحدي، وكان قوياً وقادراً على أن يعاقب من يحاولون الرد على تحديه.

نعم لو جاء أي مؤلف ليتحدى بهذا الأسلوب، وتحت هذه الظروف لاستسلم أهل عصره أمام تحديه إما احتقاراً، وإما تعجباً، وإما خوفاً، فهل يعني هذا أن مثل ذلك المؤلف نبي من الأنبياء؟» ص٣٦.

وواضح من كلام القصيمي أنه يريد بها ذكره محمداً، ويريد القرآن.

يريد أن يقول إن القرآن غير معجز، وأن محمداً تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن ووعدهم بالقتل إن فعلوا، وكان قادراً على عقابهم، فاستسلم أهل عصره إما احتقاراً له أو تعجباً منه، أو خوفاً.

والقصيمي يرسل الكلام على عواهنه، ويخبط خبط عشواء، بل يكذب على التاريخ، إن كتبنا التاريخية لم تذكر قط أن محمداً وعد من يأتي بمثل القرآن بالعقاب؟ ليته ذكر حديثاً عن النبي، أو آية قرآنية واحدة تقول ذلك، وكذلك لم تذكر كتبنا التاريخية أن العرب استسلموا لمحمد احتقاراً له، أو تعجباً منه أو خوفاً، رغم أنها ذكرت كل ما لاقاه محمد من أذى قريش.

إذن فالقصيمي يكذب، تدفعه عقده النفسية، ومرضه النفسي إلى الكذب، ويجعل الكذب حقيقة مسلماً بها، ثم يستنتج منها نتيجة، شأنه في ذلك شأن ماركس الذي قال عنه باكونين الزعيم الشيوعي: «ليس هناك

ضرب من الكذب لا يقدم على استعماله، ولا يمنعه شيء عن أحقر المكائد إذا اعتقد أنها سترفع مركزه أو تزيد من نفوذه وقوته» كتاب كارل ماركس ص٨٩.

ولا يكتفي القصيمي بالكذب، بل يمعن في قلة الأدب والبذاءة والوقاحة ضد محمد عليه الصلاة والسلام بشكل ينافي كل أدب، وعُرف، وخلق، فيسمي التحدي ـ أي تحدي الرسول للعرب ـ سلوك الأطفال والمجانين والمصابين بالوقاحة.

ولم يكتف القصيمي بالهزء بالقرآن، ودعوته الناس إلى تهزيئه ص٢٠٦-٢٠٧، بل زعم أن معارضة القرآن ومحاولة التفوق عليه شيء واجب على المؤمنين أن يوجدوه، ليحققوا للقرآن رغبة الضجيج والإعلان والتوتر والمخاصمة. ص٢٠٧.

ومثل هذه الوقاحة هي ما يأمر به ماركس ضد الأنبياء والأديان، إن القصيمي يطبق تعاليم ماركس في الطعن على الأنبياء والكتب السماوية، والإله، إنه شيوعي في روحه، وقح.

وكأن مرضه النفسي دفعه إلى النقمة لأنه لم يكن هو نبياً، وفي الحديث الذي اخترعه القصيمي على لسان أبي لهب ومحاورته الله يزعم أن أبا لهب قال:

«يا إلهي لماذا اخترت محمداً نبياً ولم تخترني أنا نبياً» ص٢٤١، ثم ينهي المحاورة بتفضيل أبي لهب على محمد صلى الله عليه وسلم.

٤- الدعوة إلى الشك:

ولا يكتفي القصيمي بكل ما ذكرنا، بل يدعو إلى الشك إتماماً لرسالة الهدم والتغيير، ويتمنى أن يكون ذلك دعوة من الهيئات ا لدولية، يقول: «أتمنى عل الهيئات الدولية أن تقوم بعمليات تشكيك شاملة على مستوى عالمي، تعلم الناس، بكل الوسائل، أن يشكوا في يقينهم، في يقين كل فريق بأن ما عنده من الآلهة والمذاهب والعقائد والنظم والتفاهات هو الأفضل والأصدق».

«إن هذا التشكيك على المستوى الدولي أو المحلي، أسلوب من أساليب الدعوة إلى السلام والحب العالمي، وخلق ظروفها، وأسلوب من أساليب مقاومة البغضاء والتعصب والحروب» ص٢٤٩.

ولقد نسي القصيمي أن يقول: إن هذا التشكيك أسلوب من أساليب الدعاية الشيوعية تلجأ إليها للهدم، متسترة باسم السلام والحب العالمي.

فالماركسيون دائماً يهدمون باسم السلام، ويبغضون باسم الحب، ويسحقون كرامة الإنسان باسم الحرية، ويجيعون الناس باسم الرخاء.

ويقول القصيمي أيضاً:

«الشك هو أن تصرخ بكل صوتك، بكل حزنك وغضبك، احتجاجاً على ما تراه، وتعمله، وتمارسه، لأن فيه دمامة أو تفاهة أو ألماً أو ظلماً أو موتاً...» ص٢٤٩.

«وإن الشك لا بد أن يحول طلعة الشمس وبسمة الزهر وجمال الطفولة إلى احتجاج وهجاء للإله...» ص٢٥٤.

ولعل القارئ يلمس في كلمات القصيمي الحقد الدفين، المرير الصارخ، بل الجنون أيضاً.

٥- آراء ضد الأخلاق:

وكما أن الماركسيين لا يرون في الأخلاق إلا واجهات برجوازية، أو أوهام وخرافات، فإن القصيمي لا يخرج عن تعاليمهم، فمن أقواله:
«فكرتنا عن الحق والواجب والأصلح والعدل، لا تعني إلا عجزنا واحتياجنا» ص١٠٤.

«ولماذا يكون العدل والحق عجزاً؟ إنهما بالعكس تماماً قوة ومقدرة».

وجعل القصيمي الإيمان من أسباب الضعف البشري:

«قد يكون السبب أن المؤمنين يكونون غالباً ضعفاء بظروفهم ومواهبهم لهذا آمنوا، لقد آمنوا لأنهم ضعفاء» ص١٠٦.

ودعا إلى قلب الأمور عاليها سافلها:

«لعلّ أسوأ الأشياء هي أفضل الأشياء، لعل الأمر كذلك» ص١٤٦.

بل دفع إلى الجريمة وحبَّذها فقال:

«لا توجد إنسانية فيها كل معاني الوحشية مثل المحافظة على حياة من لا يستطيعون التكافؤ مع الحياة أو من لا يستطيعون أن يسعدوا بها» ص١٤٧.

وقد سألت نفسي بعد قراءة هذه الجملة: لماذا يحافظ القصيمي على حياته ما دام لا يستطيع التكافؤ مع الحياة ولا يستطيع أن يسعد بهذا، لماذا لا يمضي، فيستريح؟

إن جميع آراء القصيمي مجرمة، وهو نفسه يعترف بأن: «أفضل الآراء هي الآراء المفترسة».

٦- **اليأس والتشاؤم:**

وإلى جانب الإلحاد، والهزء بالنبوات، والكتب المقدسة، والدعوة إلى التغيير، وتحطيم الأخلاق، ينشر القصيمي في كتابه بذور اليأس والتشاؤم.

ففي كل سطر أو كل كلمة في كتاب القصيمي يبدو اليأس والتشاؤم والمرارة والألم، إنه يتمنى لو أن الإنسان لم يوجد على الأرض.

«هل الأفضل أن يكون الإنسان موجوداً؟ عن هذا السؤال لا أوافق أن يكون الجواب: نعم» ص١٥٣.

«إن الإنسان موجود، فهل هو شيء سيء أن يتكاثر؟ إن الشيء السيئ حتماً هو أن يكون موجوداً» هذه هي القضية ص١٥٤.

«إن التناسل عملية حيوانية حشرية (نسبة إلى الحشرات) يؤديها الإنسان بالفكرة والهدف والأسلوب الذي تؤديها به الحشرة والحيوان، ولا يمكن أن يعرف لماذا يؤديها ولا لماذا يرحب أو يصبر عليها أو يستمر في تأديتها بكل ما في ذلك من تفاهة وهوان وتعذيب» ص١٦٢.

ويذهب به تشاؤمه ويأسه إلى اعتبار «الحق» وعداً كاذباً، «إن الحق هو دائماً نوع من الرقص والغناء الذي لا بد أن يظل دائماً مجرد رقص وغناء، هو دائماً أسلوب من أساليب الوعود الكاذبة التي لا يُنتظر ولا ينبغي أن تكون صادقة».

«ولو وجد الحق، كما توجد الأشياء المادية، وتحدد لفقدت الحياة أحلامها، وإغراءاتها وأكاذيبها الجميلة القوية».

«إن الحق الواقف المتحدد المتفق عليه، المأخوذ باليد هو العذاب والجنون والغثيان» ص٢٠٢.

ثم تطغى عليه السوداوية، فيرى أن الكون كله بلا نظام.

«لقد تقيأت الطبيعة أفعالها ووحدتها، أي شموسها وكواكبها، وأنهارها وبحارها، وإنسانها وحشراتها بلا نظام أو منطق» ص٦٦.

ثم يندفع فيقول كلام المجانين، الكلام الذي لا يفهمه أحد:

«إن الكون بكل ما فيه ليس إلا حروفاً وأرقاماً ومواد بناء، تلقى إلقاء بلا تدبير، ثم نقرأها مغلوطة كما هي، ونحول قراءتنا لها إلى أفكار وقوانين، بل إلى آلهة وأنبياء وصلوات، بل ليس الكون حروفاً وأرقاماً، وإنما هو كتل فقط تلقى إلقاء» ص٦٧.

وهذا هو الهذيان بعينه: الكون حروف وأرقام... بل ليس الكون حروفاً وأرقاماً!

ويعترف القصيمي بتشاؤمه هذا ويقول: «إني أتشاءم بحرارة ومعاناة وإيمان» ص٥٢٨-٥٣١.

«تشاؤمي نوع من الاحتجاج ضد الكون، وضد الآلهة، وضد نفسي» ص٥٤٤.

ويفضح أخيراً عقده النفسية فيقول:

«إني أتشاءم لأني لا أستطيع أن أكون إلهاً!» ص٥٤٥.

وهكذا يسرق القصيمي من شوبنهاور[(١)] تشاؤمه، شوبنهاور الذي كان يقول: إن الحياة نقمة لا تحمد، ومحنة لا تُطاق.

وهكذا يريد أن يكون ـ بنقائصه وعيوبه وتفاهاته ودفعه، إلى الإجرام والهدم والتخريب والشك والقلق والعذاب ـ إلهاً!

٧- أقوال المجانين:

وتدفعه أمراضه النفسية أن يقول أشياء غير مفهومة، أو لا يقولها إلا من فقد العقل والمنطق، وهاك بعضها:

١- «إن الشمس والقمر والبحر والسحاب والبرغوث، وكل شيء يكذب ويضعف، ويتناقض، لأنه لا بد أن يكون على نحو ما في حالة تعارض واصطدام مع نفسه وظروفه، ومع الأشياء الأخرى...» ص١٤٣.

فما معنى هذا الكلام؟ وهل انقلب القصيمي شمساً أو قمراً أو سحاباً أو برغوثاً، وعرف أن هذه الأشياء تكذب؟

---

(١) فيلسوف ألماني تشاؤمي ملحد، توفي عام ١٨٦٠م. ينظر لمعرفة حقيقة أفكاره في ضوء العقيدة الإسلامية كتاب: «مذاهب فكرية معاصرة: عرض ونقد» للدكتور محمود مزروعة (ص ١٧٥-١٩٣).

الصحيح أنه يفترض أن كل ما في الكون يُعاني مثله من العقد النفسية المسمومة المكبوتة.

أو يقول:

«الطبيعة ـ أي: الشمس والبحر والنهر والنباتات تصاب بالانحراف والخروج عن المنطق والأخلاق، وتوصف بذلك مثل البشر» ص١٤٣.

إني لم أفهم كيف تخرج الشمس من الأخلاق والمنطق، وكيف تخرج النباتات أو البحر أو النهر! أليس هذا الكلام نفسه هو الخروج عن المنطق؟

أو يقول:

«هل سقوط الأرض تحت أقدامنا، وسقوط الأشياء إليها، وسقوطنا نحن إليها، وعليها شيء رديء»؟

«هل سقوط الإنسان شيء رديء؟ لماذا هو رديء؟ وهل يسعد أو تسعد الحياة أكثر لو رفض السقوط، وهل يدعو إلى ذلك عاقل ذو منطق؟».

فبورك له بالهوان، وبورك له بالسقوط، وليعشْ مُهاناً ذليلاً ساقطاً، ما دام لا يرى في ذلك شيئاً رديئاً.

وهو يرى أن العبقرية إذا أوتيها رجل ما، فهي ظلم، لأنها سرقة، سرقة من مواهب الناس جميعاً.

يقول:

«كأن مجيء عبقري واحد ليس إلا اعتصاراً أو سرقة لموهبة الملايين، لإعطائها فرداً واحداً، لا يُعرف من الذي دبَّر ونفّذ له هذه السرقة وهذا المجيء» ص١٦١.

وهكذا لا يريد القصيمي أن يرى عبقرياً واحداً، يريد أن يكون الناس كلهم بلهاء.

ثم يوغل في الكلام المُغْرِب الذي لا يُفهم فيقول:

«لماذا لا يرفض الكون نفسه؟ لماذا لم يمت انتحاراً أو حزناً أو اشمئزازاً مما يمارس ويواجه ويكون ويرى» ص٤٨٩.

أو يقول:

«إن الشمس، هذا الكائن الأبله الذي هو أكبر وأضخم وأجمل كائن دميم نراه ـ لو أنها كانت تستطيع الاحتجاج على نفسها، ومن كينونتها، وعلى سلوكها المثير في بلادته لكان من المحتوم أن تبحث عن بحر كوني يتسع لبدانتها الجوفاء؛ لكي تموت فيه منتحرة غرقاً..» ص٤٩٠.

وماذا يصبح بالكون والحياة إذا انتحرت الشمس غرقاً؟ أيبقى القصيمي، والبشر جميعاً على هذه الأرض؟ لكن القصيمي لا يهمه أن تبقى الحياة، ولا

الكون، فيأسه وتشاؤمه يدفعانه إلى تمنّي الهلاك لنفسه ولكل شيء.

ولا مجال لسرد أقوال أخرى من هذا النوع، فكتابه مملوء بها.

إن الشذوذ كله قد تجمع في عقل القصيمي ونفسه، إنه ليس بإنسان.

وإني ليحق لي أن أنادي القصيمي بعد كل ما ذكرت، وأقول له: أيها الصعيديّ إنك عبد، إنك سلبيٌّ، لقد فقدت إنسانيتك، وإنك عدو للإنسان.

الفصل الرابع: حقيقة القصيمي

يقول الدكتور أحمد عزة راجح في كتابه «الأمراض النفسية»: ليس كل الشقاء في الدنيا وقفاً على الفقر أو اعتلال البدن، أو على ما يشيع في المجتمع من ظلم أو سوء تدبير، وليس كل ما يُقاسيه المرء من هموم وآلام رهناً بما يصادفه في حياته من صدمات وأزمات، فهناك ألوان أخرى من الشقاء والألم لا ريب أنها أشد من تلك وأقسى: تلك هي آلام الإنسان عندما يشقى من نفسه، عندما يحول اعتلالُ النفس بينه وبين الطمأنينة والرضا، ويحرمه السكينة والأمن والسلام ـ يوم تكون نفسه حرباً عليه، يوم يرى نفسه ضيق الصدر، حائر اللب، بَرِماً بكل شيء: أسير أوهام وهواجس، ورهين شكوك ووساوس، لا يطرب لشيء، لا يجد للحياة طعماً، بل يجدها حملاً وعبئاً، ذلك

هو الشقاء الرجيم والألم الذي لا ينفع فيه مال ولا شفاعة؛ لأن صاحبه مريض النفس. «الأمراض النفسية ص٩».

هذا الشقاء الرجيم هو ما أصاب القصيمي، فإن آراءه الكثيرة التي عرضها واقتبسها من ماركس وغيره من فلاسفة التشاؤم والهدم تدل دلالة واضحة على أنه مريض نفسانياً، وأن الشقاء الرجيم قد نزل عليه، وقد أصابه هذا المرض النفساني، على أغلب الظن، لإخفاقه فيما كانت نفسه تؤمله، فأصبح رجلاً شاذاً، بَرِماً بالحياة، بَرِماً بالكون، ساخطاً، شاكياً، متشائماً، متأففاً، متناقضاً قلقاً، تنتابه نوبات من الكمد النفسي فتجعله لا يرى في الحياة معنى، ولا حكمة، فلا يبصر نوراً، ولا جمالاً، ولا يشعر براحة، فيثور وتدفعه أنانيته الصارخة إلى التحطيم والهدم.

ولقد رأيت أن آراء القصيمي التي تبناها من مذاهب الهدامين ما هي إلا ثمرة عقد نفسية متراكمة منذ صغره، حسب بادئ الأمر أن طريق الدين يوصله إلى القمة، ويضمن له العز والجاه، فاندفع يكتب في الدين ويدافع عنه بحماسة وحرارة، لكن الأزهريين سخروا منه، وطردوه، فشتمهم.

ثم حسب أن طريق الفكر الحر ـ والتفكير الحرّ عنده معناه الهدم والنقد والبذاء ـ يوصله إلى ما يريد، فوجد في آراء ماركس وأتباعه ملجأً له،

فتركزت في نفسه الدعوة إلى تبديل الكون وتغيير الأشياء، وتحطيم الآلهة، والهزء من التقاليد، والعبث بكل مقدّس، والتشكيك بالأفكار الإنسانية الحضارية، والسخرية من الأخلاق، وزادت آلامه النفسية فصار لا ينظر إلى الكون إلا باللون الأسود القاتم، لا يرى جمالاً، ولا نوراً، ولا هناءة، ولا سعادة، ولا ضحكة، ولا نادرة، ولا حباً ولا حناناً.

لقد تكاثفت الظلمات في نفسه وعقله وروحه وعينيه وبصيرته، أصبحت جليداً لا يذوب، صار يرى الظلام والدمامة، والقبح والشرّ، والبكاء والألم، والمرض والمآسي، والفجائع والبغض، والحقد واللؤم.

إنه مريض في عقله وروحه ونفسه، يدعو إلى الاحتجاج والثورة والإلحاد، وليس عنده ملجأ يلجأ إليه بعد أن كفر بربه، ليشعر ببرد السكينة والراحة والطمأنينة، فوساوسه تزيد، وآلامه النفسية تفور، إنه عدو كل شيء في هذا الكون، تقدح في قلبه الضغينة الحادة عليه.

لقد اتجه، بعد أن نفض يده من عمل أي عمل ينفع به نفسه والإنسانية إلى زرع الشكوك، ورمي التُّهم، ليمزّق النفوس، وينسب إليها الفساد.

إن آراء القصيمي كلها سلبية، لا إيجابية فيها، كلها شرّ، لا خير عندها، يعيدها في كتابه مرات ومرات، بشكل ممل حاد متوتر، كأنه صراخ المعذبين، أو أنين المنكوبين.

وهل في الإلحاد وإنكار الله والأنبياء، والهزء بالكتب المقدسة، وتحطيم المُثل الحضارية، وتغيير كل شيء في الكون، والشك في كل شيء، خيرٌ؟

ولماذا يدعو القصيمي إلى هذه الشرور؟

ليس من سبب، سوى أنه لم ينل في حياته ما يريد، ولأن في قلبه بركاناً من الغضب يضطرب، ولأن في أعصابه سيولاً من الحمم تتدفق.

يريد ذلك كله لأن أنانيته الطاغية وسوست له أن يكون إلهاً، أو نبياً، أو شيئاً مذكوراً، فالقصيمي يعيد دائماً في أحاديثه وكتبه: لو كنت إلهاً لفعلت هذا، ولم أفعل هذا.

إن مثل هذه الآراء التي تبنّاها القصيمي، لا تستند إلى منطق ولا عقل، ولا مصلحة.

أمن المنطق والعقل والمصلحة أن تضرّ نفسك، وتسلط عليها الشكوك والأوهام والقلق، وتحمل حِراب الهدم والتخريب، وتبتعد عن كل ما يحمل الطمأنينة إلى روحك ونفسك، ولو كان وهماً.

أمن المنطق والعقل والمصلحة أن تفقد كل حب وأمل، وتعمى عن كل نور وجمال، وتجفو كل أمن وراحة، وتهجر كل هدوء واستقرار، وتعطِّل كل شعور بالسعادة والرضا، الرضا عن نفسك وعمن يُحيط بك، وتستبدل كل

هذا بالكرب المقيم، والضيق الدائم، والنقمة المتأججة، والشك الذي يصطرع في الصدر، والتوتر النفسي الحادّ الذي يرهق الأعصاب؟

أليس في الدنيا وفي الكون خير وجمال ونور وطيبات، وساعات لهو وسرور؟

وكيف يُعرف الخير إذا لم يكن يجانبه شر، أم كيف يُدرك الجمال إذا لم يعبس القبح، وكيف نُحسّ بالظلام إذا لم يسطع النور؟

ولو كانت الحياة كلها لوناً واحداً لملّها الإنسان وجفاها، ولو أكلت كل يوم أشهى طعام وألذه، لتقزّزت نفسك منه بعد أيام.

ثم ما فائدة الدعوة إلى تغيير كل شيء: المذاهب والعقائد، الآلهة[١] والأشياء؟

وإلى أي شيء نحولها، وبأي شيء نستبدلها، إن القصيمي سلبي يدعو إلى الهدم، والتغيير والتحطيم، لكنه لا يقدم لنا نظاماً إيجابياً يكفل سعادة الإنسان والإنسانية.

يريد أن نهدم، ونبقى فوق الخرائب.

---

(١) تنزلاً مع القصيمي، وإلا فالإله واحد سبحانه وتعالى عما يشركون.

إن الإنسانية خلال تجاربها الطويلة منذ ملايين السنين، قد وجدت هناءتها في عقائدها ومذاهبها، ولو وجدت خيراً منها لما تمسكت به، أفيكون هؤلاء الملايين من البشر الذي مضوا كلهم بلهاء جميعاً مغفلين، ويكون كارل ماركس والقصيمي وحدهما الفهماء الفطناء؟

ولو فرضنا أن أناساً قبلوا آراء القصيمي، فألحدوا، وهدموا الأخلاق، والمذاهب والعقائد، فهل ينالهم السعادة والهناءة والراحة والسلامة، وينجون من كل آفة وشر وألم ودموع وبلاء وموت؟

هل يُرفع عنهم المرض، أو يذهب الموت، أو يُمحى من بينهم القبح، أو تتطهر نفوسهم من الحقد واللؤم، أو يرجع العقل إلى المجانين؟

هل يتساوون في الرغبات والأحلام، والخلق والرزق، والفهم والعلم؟

إن الشيوعية نفسها التي يستمد القصيمي آراءه منها لم تستطع تحقيق ذلك، رغم مضي نصف قرن على وجودها في روسيا (١).

نعم إن دعوة القصيمي سلبية، ضد الحياة، وضد الإنسان، وضد الكرامة، إنها الطريق إلى المعيشة الضنك، فمن شاء أن يعيش معيشة ضنكاً في

(١) ثم سقطت بعد ذلك،وأصبحت أثراً بعد عين.

عذاب وقلق وشقاء فليتبعها[١].

وإن دعوة القصيمي مهما كانت منابعها نذير شؤم وتدهور واضمحلال، دعوة هدم وشر، وليست دعوة خير وبناء.

وستتلاشى وتموت شأن كل دعوة حاقدة مجرمة لا تستند إلى تعاليم السماء النبيلة[٢] الخيّرة التي ما أرادت إلا خير الإنسان وكرامته وسعادته وهناءته.

وإذا كان الإنسان، أحياناً، لم يجد السعادة أو الهناء، فليس هذا بسبب تعاليم السماء[٢]، ولكن لأن الإنسان لم يفهم ويتبع تلك التعاليم، ولم يؤمن بها الإيمان المنير الذي يبدّل سخطه رضا، وعذابه راحة، وقلقه أمْناً.

ولقد آن للمجتمع العربي أن يُدرك خطر هذه الآراء السلبية الهدامة.

لقد فرضت الاشتراكيات الثورية، التي تستقي هي والقصيمي من ينبوع واحد، تعاليمها بالقوة، فكان من نتائجها النكسة الحربية الأخيرة التي أذلت العرب.

---

(١) كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

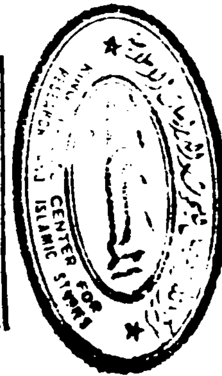
(٢) الصواب أن يقول: تعاليم الله عز وجل.

وإن آراء القصيمي السلبية إلى أقصى الحدود، سيكون من نتائجها نكبة أعظم خطراً من تلك النكبة الحربية؛ لأنها ستقتل الإنسان العربيّ وتقضي على كل إيمان وقوة فيه. وعندئذ لن يقوم للعرب قائمة».

فهرس كتاب «دراسة عن القصيمي»

الدكتور صلاح الدين المنجّد

دراسة عن القصيمي



دار الكتاب الجديد

صورة غلاف «دراسة عن القصيمي»

الرد الثاني عشر:

ليلة في جاردن سيتي

حوار بين

أبي عبدالرحمن الظاهري والقصيمي

يتلوها مقال للظاهري

في الرد على القصيمي ومن دافع عنه

ترجمة الشيخ أبي عبدالرحمن الظاهري[1]

هو محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل المعروف بأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، وُلد في مدينة شقراء قاعدة إقليم الوشم بمنطقة نجد من المملكة العربية السعودية سنة ١٣٦١هـ، وتلقى تعليمه الابتدائي ببلدته شقراء، ثم التحق بمعهد شقراء العلمي؛ حيث حصل على شهادة الثانوية العامة، ودرس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وتخرج في كلية الشريعة، ثم واصل تعليمه العالي في المعهد العالي للقضاء بالرياض، ونال درجة الماجستير في علوم التفسير.

عمل موظفاً بإمارة المنطقة الشرقية بالدمام، ثم موظفاً بديوان الموظفين العام (ديوان الخدمة المدنية حالياً) ثم مديراً للخدمات برئاسة تعليم البنات، ثم مستشاراً شرعياً بوزارة الشئون البلدية والقروية، ثم مديراً للإدارة القانونية بالوزارة ذاتها، كما عمل رئيساً للنادي الأدبي بالرياض، ورئيساً لتحرير مجلة التوباد، ورئيساً لتحرير مجلة الدرعية التي يملك امتيازها، وهو عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

---

(١) عن «مجلة الملك فهد الوطنية» (ذي الحجة ١٤١٨هـ): «ترجمة وببليوجرافيا بآثاره المطبوعة»، من عمل الأستاذ: أمين سيدو. وللمزيد عن ترجمته يُنظر كتابه «تباريح التباريح».

له مؤلفات عديدة؛ من أهمها:

الالتزام والشرط الجمالي، أنابيش تراثية، البرهان على تحسين حديث سلمان، تحرير بعض المسائل على مذهب الأصحاب، تصورات أولية، جدلية العقل.. وغيرها».

قال أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري:

«أول زندقة وخطيئة للقصيمي: كتابه «هذي هي الأغلال»، وذلك أول اعتداءاته على العقل، لأنه بدأ يتعامل مع الأشياء بسفسطة.

وبعد كتاب هذي هي الأغلال استقر فكر عبدالله بن علي القصيمي في المجموعة التالية من كتبه:

- ❖ الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات.
- ❖ فرعون يكتب سفر الخروج.
- ❖ كبرياء التاريخ في مأزق.
- ❖ هذا الكون ما ضميره؟.
- ❖ أيها العار إن المجد لك.
- ❖ العرب ظاهرة صوتية.
- ❖ العالم ليس عقلاً.
- ❖ أو: صحراء بلا أبعاد.. عاشق لعار التاريخ.. أيها العقل من رآك.

ومدار هذا الغثيان على العناصر التالية:

١. إنكار الحقيقة الأزلية، وما غيَّبه الله عن خلقه.

٢. مهاجمة الأديان والأنبياء.

٣. الاستخفاف بالموهبة العربية.

٤. التحدي للقضايا العربية والإسلامية.

٥. التغني بآلام الإنسان وتعاسته، والاحتجاج بذلك في فلسفة العناصر الأربعة المذكورة آنفاً.

ولي مع هذه الكتب قصة.. كنت أتصيدها وأتابعها للتظرف والاستطابة، وفي ليلة ١٣/ ١٠/ ١٩٧٤م أهدى المؤلف إليَّ جملة من كتبه بمنزلي في جاردن سيتي بالقاهرة المحروسة، ووقَّع على بعضها بخط يده جملاً تدل على اعتزازه بما كتبه من حماقات.

كتب على أول صفحة من كتابه «الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات»، هذه الجملة: «تحية ومحبة لباسم القلب والضمير والوجه والحياة.. عابس التعاليم والعظات والقراءات والصلوات.. للنابض الخافق الطلعة والرؤية والحركة والأحاسيس، والأشواق الحضارية والفنية والإنسانية.. إنه الأستاذ أبو عبدالرحمن ابن عقيل الذي تشتهي أن تراه وتلقاه وتحاوره أكثر من أن تشتهي القراءة له.

متمنياً أن يقرأ فصل:

«شعبي شجاع جداً»، وفصل: «كيف رأته كل العقول».

عبدالله القصيمي

١٣/ ١٠/ ١٩٧٢م

وكتب على أول صفحة من كتابه «أيها العار إن المجد لك» هذه الجملة:

«راغب في إثارة الفنان بلا إيمان، والمؤمن بلا فن.

المؤمن تلقيناً وتعليماً وإرهاباً.

والفنان موهبة وحياة.

الصديق الأستاذ أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري.

مؤملاً أن يقرأ فصل: النفط يكتب عن مزايا الأديان.

وفصل: إسرائيل توقع الكشف عن الموهبة العربية.

وفصل: أريدك شاعراً يغني لأوهامي».

عبدالله القصيمي

١٣/ ١٠/ ١٩٧٤م

وفي أول صفحة من كتابه «فرعون يكتب سفر الخروج» أهاب بي أن يتغلب إنساني على إيماني، لأن ذلك الإيمان جاءني من أقوال أبي هريرة التي اختزنها لي الأزهر!

وكأنه أعجب مني بفضل موهبة فوصفني بالفنان المتمزق.

قال أبو عبدالرحمن: ولهذه العواطف أرجو له في شخصه أن يهديه الله للإيمان قبل الغرغرة، فتكون خاتمته حسنة إن شاء الله، فإن هذا الرجل الذي ألّف «الصراع بين الإسلام والوثنية» ممن يؤسف له على الكفر.

ولقد قرأت كتب القصيمي بعد ذلك بتمعن فلم أجد له فكراً جديداً متحرراً من بصمات أساطين الكفر والإلحاد.

وإنما وجدت طراوة الأسلوب مع ضعف اللغة، والقدرة على المغالطة والإثارة.

وما كتبه القصيمي عاجز عن زحزحة الحقيقة، ولكنه بارع في التخذيل عنها والتعمية دونها.

التفكير شاهد ضرورة:

من تقليعات القصيمي أسرع الله بفيئته أن التفكير شاهد زور!!

فتقول: لماذا؟

فيقول: كل من يتكلم ويقتنع ويحاول حمل الآخرين على الإيمان باقتناعه: إنما يعني ذاته، ويحاول الإقناع بها؟

قال أبو عبدالرحمن: العَنْوَنةُ للتفكير بأنه شاهد زور محاربة للفكر باسم الأخلاق، لأن شهادة الزور خلق رديء!

بيد أن المدخل مغازلة صارخة تدعو إلى التفكير؟!

فهل هذا تناقض؟!...

قال أبو عبدالرحمن: ليس التهالك على الشك والتكذيب شجاعة فكرية، وليس ذلك أعلى مراحل الإنسان، وإنما الشجاعة والعلو في التعامل مع الأشياء لا بالشك، ولا باليقين، ولا بالتكذيب، ولا بالتصديق.. إنما يتعامل بفكر وعلم ونزاهة.

فيكون مستيقناً لوجود علم لا يشوبه شك، أو لا ينفيه رجحان.

ويكون شاكاً متوقفاً لأنه لا علم عنده، أو لأن العلوم عنده متكافئة متضادة.

ويكذِّب وينفي لعلم يقيني أو رجحاني بالنفي؛ فيكون عالماً بالعدم.. لا مجرد غير عالم.

والتعامل بغير فكر إمعية وتحكم.. وبغير علم كذب.

وغمط العلم والفكر ظلم.

واصطناع الشك كما فعل ديكارت يعني أن الشك وسيلة للبحث والتحليل، ولا يعني أن يُتخذ الشك عقيدة.

إن للفكر في الاحتمالين المتساويين شكاً يقتضي التوقف فيهما، والذي جلب الشك تخلف العلم أو تكافؤ المعلومات.

وإن للفكر في الاحتمالين الراجح أحدهما شكاً في صدق الراجح، ولكنه شك غير معتبر، لأن البديل التوقف وذلك ظلم سببه الغمط للرجحان.

أو الأخذ بالمرجوح وذلك أعظم ظلماً وسفهاً، لأنه غمط للرجحان واعتداد بالمرجوح.

إذن: الشك ليس مطلباً ولا قيمة، وإنما هو توقف عند التكافؤ مع الاستمرار في البحث.

والفكر الشجاع لا يدفع يقين الفكر أو رجحانه بحرية إرادية سلوكية، لأن العقل خصيصة الإنسان وتعطيله بهذه الحرية إلغاء للميزة، كما أن مطمح الإنسان الترقي في درج العلم.. ويرتد إلى الجهل بمقدار بعده عن الحقائق.

وإهدار اليقين والرجحان غياب عن الحقائق.

وإذا أريد بالشك مجرد الاحتمال، فليس كل شك يقتضي توقفاً، بل يكون الشك غير معتبر، وذلك حينما يُدفع الاحتمال باحتمال أرجح منه.

والشك لا يعني التكذيب البتة إلا حينما يقتضي التوقف في الراجح، فيكون الشك حينئذ تكذيباً بالرجحان.

والتكذيب ليس شجاعة ولا ميزة، بل التكذيب بالحقائق التي تقتضي سلوكاً رجولياً جُبن.

إنما المزية في التصديق بالحق، والتكذيب بالباطل.

والتصديق بإطلاق سفه وغباء لأنه يقتضي التصديق بالباطل...

ليلة في جاردن سيتي:

قال أبو عبدالرحمن: بقيتُ في القاهرة عدة أشهر منتدباً في مهمة رسمية، وزارني القصيمي مراراً في منزلي بجاردن سيتي، وتحاورنا كثيراً لا سيما في ليالي رمضان، ما بين صلاة التراويح إلى السحور سنة ١٣٩٤هـ وحمي الوطيس في ليلة حضرها عدد كبير من زملاء الحرف، ورغبوا مني تدوينها، فدونتها برسالة موجهة إلى القصيمي طبعت بالقاهرة في نفس العام، وهذا نصها:

لقد كتبتَ وأسهبتَ في نقد الحقيقة الأزلية.

ومنذ كتبت كانت الحقيقة الأزلية من مسلمات أمتنا شباباً وشيوخاً، بيد أن العامة «دون ذوي الحيوية الفكرية» يعجبون ويطربون لكلمة تمرد أو رفض أو محاكمة ترد على لسان حائر مثلك.

ويعتبرون الحذق الجيد لصياغة الحيرة ملامح العبقرية والموهبة، وإن كانت تلك الصياغة دعوى تردف الدعوى ولا تلد البرهان.

المطرب والمعجب أن نغمة الحائرين غير مألوفة، ولكل جديد لذة!.

أما ذوو الحيوية الفكرية من أمتنا، فعندهم أكثر من لحن للتمرد والرفض والتخطي والمحاكمة ومعاتبة القدر، وربما كانت ألحانهم أعذب.

ولكنهم لم يستوحشوا فيأنسوا بهذه الألحان، بل إنها تزعجهم لأنهم عاينوا الحقيقة فعزفوا على ألحان الرضا والراحة والفأل والحب والعبودية المطلقة لخالق الحقيقة، ووجدوا في ذلك البديل الحتمي.

وإذا تُحدوا «بالبناء للمجهول» بهذه الألحان المبكية ازدادوا طمأنينة، لأنها لابت ببالهم، ولم تقبلها عقولهم، وعقولهم ليست بالهينة اللينة.

وإنما يزعجهم أن العازفين عودوا مشاعرهم الخنوع لهذا الشجى في غفلة من المنطق والذهنية الحادة، وكانوا كمن يترنح على نهيق الحمير ويغص بسمفونية هادئة باسمة!

هكذا كنت أيها القصيمي لا ترى من مجالي الكون الخلابة ما يبهج أو يفرح.

فكأن ما في الكون من شجى لا ينم عن حكمة الله وعدله.

هكذا ترى التخطي.. تبصر الحقيقة فتغمض عينيك، وتلوح لك الشبهة فتضرب بيديك، ولك ما أخرجته إن تمرة أو جمرة.

وما من هدفي، وليس من حاجتي أن أزري بك، بيد أن نقدي لمنهجك في النقاش ليلة ٢١/ ٩/ ١٣٩٤هـ بجاردن سيتي سيزري بك، وذلك ضرورة استهدفتني ولم أستهدفها.

إن نقدي لمنهجك تقويم لما صدعتنا به من كتابات مكررة، وأقيسة فاسدة، ودعاوى عريضة، واستقراءات قاصرة.

رأيتك وسمعتك ليلة ٢١/ ٩ لا تصدر في نقاشك عن منهج منطقي، ولو كان لمنطقك أصول لكان نقاشها أيسر وأهون.

وقد تقول: ليس من شرط المفكر أن يتقيد بأصل!

وقد يكون هذا صحيحاً لو ضمنت لنا أنك لن تتناقض، فأعظم أصول المفكر ألا يتناقض.

وإنما يتحاشى المفكرون التناقض بأصولهم الثابتة التي تفضح تناقضهم فيرجعون لتعديل الأصل أو الفرع.

وأكبر دليل على ذلك أنك تحاجني وتستدل لنفسك بحجج ترى أنها

عقلية، وكأنك من تلاميذ ديكارت أو زعيم العقلانيين، وإن أخجلت تواضعك.

فإذا رددتُ عليك بحجة العقل صَغَّرت شأن العقل بلغة الحسبانيين تارة، وبلغة الوضعيين تارة، وبلغة النقديين تارة.

وهذا خلل وتناقض: فإما أن تؤمن بالعقل فتُحاجَّ به وتحتكم إليه.

وإما أن لا تؤمن بالعقل، فكن كما تريد.. حسبانياً، أو وضعياً.

وإما أن تؤمن ببعض حجج وقوى العقل فحدد ذلك والتزمه.

أما أن تعطيني ما لا تقبله مني، فذلك خلل في منطقك من جانب، واستهتار بالحقيقة من جانب آخر، وظلم لضمير إنسان يعذبه قلبه وعقله في طلب الحق من جانب ثالث.

ورأيتك وسمعتك ليلة ٢١/٩ تروغ عن موضوع النقاش، وتضيِّع الحقيقة بالنكتة والسخرية.

ولما تباجحت بإنكار وجود الله؛ رددت عليك بأدلة عقلية، وذكرت لك برهان العناية والغائية والكمال، وذكرت لك حتميات الذهن؛ كالسببية وقسمة العقل التي لا تتم إلا بتصور الكمال اللامتناهي.

وتحديتك على مشهد من بعض المثقفين أن تنقد العلية وتمام القسمة، وهما من حتميات الفكر البشري، فتساقطت وتحامقت ورددت رد من لا أصل له ولا قاعدة.

فمرة عزفت على نغمتك المألوفة في استجلاب أنصاف المثقفين وهي الشك في عدل الله ورحمته: بأن جعل هذه الحسناء مجدورة الوجه، وجعل فلاناً بائساً.

فقلتُ: إن نقاشنا في وجود الله وليس في أفعال الله، والبحث في عدل الله فرع للبحث عن وجود الله.. فعليك أن تدفع أدلتي هذه، ثم عليك أن تورد البرهان على أن الله ـ تعالى عما تقول ـ غير موجود، ثم ننتقل إن أحببت إلى أفعال الله.

فأثجمت حائراً؛ لأنك لم تأخذ في الحسبان أن في شباب السعودية أو شباب العروبة من يدرك الفروق الدقيقة، ولا يخدعه التمويه إذ لا تؤمن بغير نفسك.

ولم تخجل إذ بينتُ للحاضرين أنك تستدل في غير محل النزاع.

وفي المرة الأخرى أخذتَ تهذي في إنكار حتميات الفكر، فقلتَ: لا عناية ولا غاية في الكون وضربت مثلاً فقلتَ: إن قائد السيارة الذي يسير بسرعة شديدة على وتيرة واحدة ويصدم الناس لا تسمى سرعته نظاماً؟

ولقد بينتُ لك أن الدقة والنظام والعناية دلالة على أمور كثيرة؛ منها القوة والإحاطة والترتيب، وأن يكون كل شيء بمقدار، وأن يكون كل ذلك وفق مراد صاحبه.

فإذا كانت السرعة الشديدة على وتيرة واحدة هدفاً من أهداف السائق، فحذقه لذلك دقة ومهارة ونظام.

وبينتُ لك أن عناية الله في الكون ليس فيها اصطدام كاصطدام السائق بالمارة، وقلتُ لك: لولا عناية الله لمدت البحار فغرق العالم، أو زادت حرارة الشمس فانصهرت الأرض.

وقلتَ أنت في سذاجة: أين العناية في الكون ونحن نرى في الناس بؤساء وسعداء، فلماذا لا يكون الناس كلهم سعداء؟

وهذه هي نغمتك المجوجة إذا زحمك البرهان لذت بعقد القدر.

فقلتُ لك: لو سلمنا جدلاً بلغتك الكافرة، ونفينا العناية الإلهية من الموضوعات التي تحمل شراً أو حزناً ـ تعالى الله عن ذلك ـ لما كان هذا النفي قادحاً في دليل العناية، لأننا نستدل على قدرة الله، ولسنا نستدل على عدله.

ووجود نماذج من العناية التي هي فوق قدرة العلم البشري يكفي في الدلالة على قدرة الله وأنه الخالق.

ولو كنتَ يا عبدالله الجحود ذا عقل حر مبتكر، أو لو كنتَ واعياً لفلسفة الغرب لقلتَ: إن العناية تدل على أن الله المسيطر على الكون، ولكنها لا تدل على أنه خالقه، لأنه ليس كل مسيطر على شيء خالقاً له.

وحينئذ لا نطالبك بغير العبودية لمدبر الكون، ونأتي لك بالدليل الآخر على أنه موجد الكون.

ونأتي بدليل التمانع المعروف بصياغة أخرى، فنقول: إن خالق الكون أولى بتدبيره من ناحية العظمة والأحقية.

ولو كان للكون مدبر بغير إذن خالقه لفسدت السموات والأرض، بنفس الصيغة التي يصاغ بها دليل التمانع تماماً تماماً.

ولم ترض الإذعان للحق، وخانتك الحجة إذ قلتَ: إن تدبير هذا الكون آلية عمياء!

فقلتُ لك: أما أنه آلي فلا يخرجه من العناية والدقة والنظام.

وكلمة آلي مرادفة لغوية وليست تحفة فكرية.

والحركة الآلية لا تكون كذلك إلا بعناية، وهي نظامية؛ لأنها موجودة على هذه الهيئة، وبينتُ لك: أن نظام الكون ليس أعمى، لأن نتيجة العمى العثار بغير قصد.

أما كون الله، فلا يقع فيه إلا مراد الله، فليس المطر يغمر ناساً من البشر إلا بإذن الله، وليست الريح تدفن مدينة ما إلا بإذن الله.

فالعناية أن يكون ربنا مع كل تدبير في هذا الكون إن خيراً أو شراً.

وليست العناية أن يكون كل شيء وفق مرادنا.

والله دلنا على عنايته بسنن كونية نصبها لنا؛ كطلوع الشمس من مشرقها، وغروبها من مغربها، وفق حركات معدودة مضبوطة.

فمن أراد أن ينكر العناية الإلهية فليُخرج الشمس من مغربها.

وبإيجاز: فاستقرئ ما شئت من أحداث الكون وانف عنها عناية الله، ولكنك لا تستطيع أن تنكر كل العناية في الكون، وستجد هذه العناية ولا بد، ولن تستطيع مهما عندت ردها إلى غير الله الذي نؤمن به وتكفر به، لأنك تعرف أن العلم وحضارة البشر التي تقدسها لم تسيطر على كون الله حتى لا تجعل الإنسان إلهاً.

ونحن نقول: إن لله غيباً لن يطلع عليه أحداً.

وإن علم البشر وإن عمر الملايين وقفز بالثواني لن يحيط بملكوت الله، ويكفينا من البراهين التحدي.. نتحدى العلم أن يجعل كل الكون في متناول الحس البشري.

أما برهان العلية فقد تحايلت في الهروب منه، فلما كررته عليك قلتَ: لا وجود لعلة واحدة كافية مطلقة.

فحاولتُ تذكيرك، وكنتُ أظن ما سأقوله لك معلومات نسيتها:

إن العلة الكافية حتمية ذهنية، والعلية إحدى قوانين الفكر الثلاثة التي تعصمه من التناقض.

ولو كنتَ ذا ثقافة فلسفية واعية مستوعبة لنصرت مذهب ديفيد هيوم في مبدأ العلية نصر من يعرف مذهبه، لأنه أشهر وأعظم من بلح بهذا المبدأ وضعَّف من دلالته.

ولكنك لم تكن المفكر المبتكر، ولا المثقف الذي إذا ذُكر ذَكر.

لقد رثيتُ لك إذ رأيتك تنكر وجود الله وأعظم أدلته دليل العلية، وأنت لا تحيط بمذهب الفلاسفة في ذلك.

ولو فوجئت بأنك تحيط بما قيل في العلية وتلح على إنكار العلة الكافية لقلتُ لك: إن عليك ألا تثق بأي احتجاج عقلي بعد ذلك، لأن العقل لا يعصمه من الضياع إلا قوانين ثلاثة، العلية أحدها.

عرفنا ذلك بالفطرة والاستقراء وتخلف الحالة الشاذة عن القاعدة.

وأنت تتباهى بُشبه لم تكن من ابتكارك، ولكنها تلوب بعقول الصبيان،

فتقول: إذا كان الله خالق الخلق فمن خالق الخالق؟

قال أبو عبدالرحمن: أقول قولاً قديماً: كيف نعتبر الخالق مخلوقاً في حين أن الخالق اللا مخلوق هو مطلب دليل العلية، والعلية حتمية فكرية؟

وأقول قولاً جديداً: أيهما أسهل على القصيمي: الإيمان بتسلسل في الخلق لا ينتهي، وذلك غير متصور؟

أم الإيمان بخالق لا مخلوق تنتهي به سلسلة التصور الخاطئ، وذلك وفق حتمية فكرية هي العلية وتمام القسمة العقلية؟

أيهما أسهل على القصيمي: الإيمان بشيء غير متصور، أم الإيمان بشيء حتمي التصور؟

إن عقولنا لا تتصور تسلسل الخالقين إلى غير نهاية، ولكنها تضطر إلى الإيمان بخالق لا أول له، والله هو الأول والآخر.

إن عقولنا المضطرة إلى إثبات رب الكائنات بدليل العلية تأبى القول: بأن للخالق خالقاً، لأن الخالق غير المخلوق، فلا يقاس به، ولا يندرج تحت قاعدته، بل لله المثل الأعلى من كل شيء.

وأشد الملحدين إخلاصاً للحقيقة إنما يغص بمعضلتين:

إحداهما: تصور خالق لا خالق له.

وأخراهما: إثبات عدل الله، وأنه لا ينافي ما في الكون من الشر والامتحان.

قال أبو عبدالرحمن: من عاند عقله في الإيمان بخالق لا خالق له، فإنه مضطر إلى الإيمان بأن الكون في سلطة وتدبير خالق واحد، لأن برهان العلية يدل على أن للخلق خالقاً، ولأن برهان العلية يثبت أن الكون في عناية خالق واحد.

فلا بد من الإيمان بهذا الخالق الواحد، سواء تصور المعاند أن له بداية، أم تصور أنه لا بداية له.

المهم: الإيمان بمن بيده الأمر، وهذا من باب ألتنزل في الاستدلال.

أما الإيمان أو الشك في عدل الله فلا ينافي الإيمان بقدرة الله، وأنه الخالق، فالعقل المضطر إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وهيمنته سيضطر إلى تعليل خلق الشر بالحكمة والعدل دون الظلم والجور.

والله الخالق المهيمن جعل خلاصنا من النار «بالأدلة العقلية التي تثبت بها النبوات» مرهوناً بكمال الله، ومن كماله العدل، فلا بد إذن من الإيمان بذلك.

ثم إننا لم نجد في الكون شراً مقصوداً لذاته.

ورأينا مظاهر ومجالي الحبور والرحمة في هذا الكون أكثر من الأحزان، وأعظم هذه المجالي بعث الأنبياء، ودفع الله الناس بعضهم ببعض.

فأيقنا بعدل الله، فوجب أن نلتمس حكمة الله في شرور الكون وأحزانه.

وبإيجاز: فنحن نثبت وجود الله وقدرته وهيمنته، وهذا وحده يكفي في إرغام العقل على الإيمان، سواء آمن بعدل الله أم كفر بذلك؟

وسواء أرضي عن الله أم سخط؛ لأن المعاند لن يعجز الله، وليس الله في حاجته، والكلمة لله وحده.

هكذا كان نقاشنا في الساعتين الأوليين، ولكن القصيمي اعتاد إفحام أنصاف المثقفين بالروغان تارة، وبالتهكم والسخرية تارة، بحيث يخجل المناظر فيعميه الغضب لنفسه عن النظر في الحجة.

وتارة يغني غناء رومانسياً حزيناً يخلب الناس فيغفلون عن عريه من البراهين.

ولقد تحملت سخرية القصيمي وتهكمه، وضحكت على تنكيته مع من ضحك، حتى إذا ظن أنه انتصر قلت له: لا تُضيِّع الحقيقة في الفكاهة، فهذا داء عضال يتذرع به المغالطون والمشاغبون.

وطالما نبهته إلى أن ما يقوله دعوى وليس برهاناً، وطالما نبهته إلى أن استدلاله في غير محل النزاع، ولكنه بلح بذلك كله، فانتقل إلى سرد أخباره وأحواله، وأن الدولة الفلانية طردته، لأن الملك الفلاني أو الرئيس الفلاني وراء ذلك.

ولما تحدث القصيمي في السياسة استربت منه وأكاد أزعم بأنه صهيوني مجند.

فهو لا يكف عن إطراء الموهبة الإسرائيلية، لا من ناحية الدهاء والخبث، بل من ناحية الفضيلة والأخلاق.

وإنه ليرى المخنث اليهودي أنموذجاً لكمال الإنسان.

ويعتبر إسرائيل الناخرة في جسم الأمة العربية نملة وديعة.

ولقد طالبه أحد الحضور بأن يعتبرها عقرباً لا نملة.

وفوق هذا يقول: إن وجود إسرائيل ضرورة حتمية لتثقيف أمة العرب الهمجية وتعليمها الفضيلة والكرامة!

أي والله.. هكذا يقول القصيمي.

وإن القصيمي ليبدي عداء كثيراً لأمة العرب ومصالح العرب، فهو لا يعذرهم إذا انتقموا لأنفسهم، ولا يسوغ انهزامهم بالظروف المتآمرة في المنطقة، وإنما يرد ذلك إلى العرب خلقة وتكويناً.

وإنه ليبدي الوقاحة بمنطق معكوس ومكشوف، فيظهر الاستياء على

عمل الفداء في أرض عربية، وهو استياء لم يُبده أصحاب تلك الأرض، وكأن القصيمي ناطق إسرائيلي.

وإنه لينكر كل ما ينطوي عليه العبور من استكناه للتجربة، ويتناسى الظروف المعاكسة في المنطقة التي أحدثت رد الفعل في حادثة الدفرسوار، ولا يعلل بغير شجاعة الإسرائيلي وعقله الحضاري، وجبن المقاتل العربي وتخلف عقليته؟

وأسمج ما سمعت له تسخيفه لاستعمال النفط سلاحاً ضد أعداء العرب المناصرين لإسرائيل، ويتباكى بمبادئ أخلاقية في غير محلها.

وهو يعرف أن العرب أحرار في ممتلكاتهم، وأهون مكافأة للعدو أن تمنع عنه حقاً من حقوقك أنت.

إن الفتى العربي موهبة وطاقة، ولكن قوى الاستعمار منعته ولا تزال من المجال الذي تبرع فيه موهبته.

وإن الفتى العربي شجاع باسل مناضل كلفه ربه أن يعدل في الحرب عشرة كما في سورة الأنفال، وحرم عليه ربه الفرار من الزحف، ولكن لا مجال للفتوة في هذا العصر، لأن مخنثاً يهودياً أو امرأة يهودية يحرق المئات وهو على مقعد مكيف ينفث سجائره؟

إن القصيمي إذا قال شيئاً صحيحاً من الواقع فإنها يعزف على ظروف العرب السيئة، ولكنه يتناسى كل المسوغات للحظ السيئ، وأهما الظروف المتآمرة، واللا أخلاقية الاستعمارية.

وإن القصيمي لا يرتاح لأي رد فعل عربي سواء أكان عسكرياً أم كان سياسياً أم كان اقتصادياً، وإنما يطالب العرب بالاستسلام للأمر الواقع إلى أن يلحدوا فيستطيعوا التغلب على إسرائيل.

هذه أفكار القصيمي، وهي أفكار ماسونية يهودية ملعونة.

وهو يُقَنعها بالتختل والنصح للعرب، وأنه لم يحن الوقت لأن يبدي العرب أية رد فعل.

ويُقَنعها بستار صفيق آخر، فيزعم أن العرب بحاجة إلى مفكر يتحدى ويتخطى ويكشف عن أغلاط المجتمع، وإن لم يضع البديل الصحيح.

ونحن نقول: إن التاريخ لم يشهد أن العرب استسلموا حتى في أحلك الظروف، ولولا ذلك لما بقيت لغتهم وعقيدتهم وممتلكاتهم.

وإن كان مبدأ طارئ، أو عقيدة ملحدة، أو فكرة ماسونية لن تعمر طويلاً في أرض العرب.. وإن عاشت لحظات، فإنما تعيش اغتصاباً لمشاعر الجماهير من أمتنا، والبقاء في النهاية للمشاعر الجماهيرية المؤمنة.

والفكر المتحدي ضرورة للأمة، ولم تصلح الحكومات الإسلامية في مختلف العصور إلا في لهيب ضحايا الأفكار الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

بيد أن الفكر المتحدي الحتمي هو الفكر المؤمن الصالح المخلص للأمة، وهو الفكر الذي يواجه الجبابرة وجهاً لوجه، ويهابونه لنصحه وشعبيته، يلاين ويرفق ولا يصخب، ولكنه يقول الكلمة المخلصة، ويكرر ويلح عليها ويصبر لعقابيلها ولو كانت المقصلة.

أما الجبان في مواجهة الزعماء، المشبوه في نواياه؛ فلا يعتبر فكراً متحدياً وإن استقطب العامة برومانسيته، وتهالك على السمعة الشعبية الزائفة.

والفكر المتحدي هو الفكر الناضج في ملكته وثقافته.. وأشهد أن القصيمي يتفنن في عرض دعاوى الفلاسفة والعلماء الماديين من أمثال بخنر وسارتر، ولكنه لم يفهم حججهم، ولم يحذق مناهجهم، كما أنه يجهل الكثير من حجج المؤمنين.

إنك لم تكتب عن نرجسية أبي نواس، وموسقة البحتري، وانطوائية العباس بن الأحنف، ورومانسية إبراهيم ناجي.. ولم تكتب عن شمم برج إيفل، وضفاف برجويه، وخطوط قوس قزح.. ولو كتبت عن هذه المسليات

لكان أسلوبك أليق بذلك، لأنك تغني وتنوح وتسرف في الخيال، وتتقن رسم الصورة.. إنك فنان متمزق، إنك أديب ساخر ساحر.

أما المادة والوجود وحقيقة الأزل وقوانين الفكر وعضل الزمان والتسلسل، فأمور تهيض جناحك، لأنك أديب عواطف، ولست صيرف فكر.

إنها عضلٌ فكرية تكلفك الرصد جمعاً وطرحاً، وتكلفك الاستيعاب والإحاطة والإيجاز مع الشمول والإيضاح، واحترام وجهة نظر غيرك وتفهمها، وإحصاء حججها ومناقشتها بفهم وعمق وإنصاف وجبروت في الحكم والتقييم.

هذه شروط الفيلسوف، وهي دعائم الفكر الحر المتحدي.

وأنت أديب تفهم الفكر بإجمال، ولست فيلسوفاً مستوعباً، ولست موهوباً فطري التفكير.

ولا أنكر أن القصيمي كان مخلصاً في إلحاده أول الأمر لشبه عرضت له، وقد لاقى من ذلك مضايقة ومطاردة، ولكن تلك المطاردة والتنقل في بلاد تعرض كل وجهات النظر عامل فعال في جعل القصيمي عميلاً للصهيونية، لأن العرب المسلمين طردوه فحقد عليهم، ولأنه في حاجة إلى مدد إسرائيل، ولأنه لا يحس بعاطفة دينية تنفره من اليهود، ولأنه خيب الله ظنه يتوقع أن العقبى لليهود، ولأنه يراهم مثال الكمال البشري، وربما أصيب

بعملية غسل المخ، وهي إحدى وسائل البروتوكلات الماسونية.

فهذه الظروف مع أفكار القصيمي الماسونية ترجح أن القصيمي عميل للصهيونية، ويجب أن تُرقب حركاته بريبة.

وقد جمع القصيمي إلى سيئة احتقار مواهب العرب أجمعين سيئة الغرور بنفسه، فهو يعتبر فكره إنجيلاً لم تعرفه المجامع، وإذا ناقشه عربي جاد في طلب الحقيقة قال: إن العربي سريع في الإجابة من مخزون فكره من تعليمات أبي هريرة والأزهر والعرف والعادة!

ولقد ضقت بهذا الادعاء وقلت له: اعتبر ما أقوله لك حجة عقلية ناقشها وانقدها، فالحقيقة مقياسها بذاتها وليس بمن يقول بها، وإن كثيراً من الأعراف والعادات تكونت وفق قيم عقلية وخلقية وجمالية.

ولما تباهى في الاحتجاج وزعم أن الناس يضطرون إلى الإله لتستقيم أخلاقهم، قلت له: هذا مذهب «كانت» في العقل العلمي.

ولما تباهى في الاحتجاج بأن الناس قاعدون للأخلاق حسب منفعتهم، قلت له: هذا مذهب «بنتام» و«مل».

ولقد أحس بمقصدي من هذه الاعتراضات، فقال: دعنا من المذاهب وناقش الفكرة، وإنما أردتُ أمرين:

أولهما: إشعار القصيمي بأنه لم يأت بجديد، وأنه سريع الإجابة من مخزون فكره، لا من المشايخ وأبي هريرة، ولكن من كانت وبنتام وأعراف الغرب.

وثانيهما: استجراره إلى الاستدلال على فكرة بنتام ومل، ولكنه يعرف الفكرة ويشرحها ويغني بها غناء رومانسياً ولا يعرف البرهان.

إنك يا أبا محمد تستغل عامل شيخوختك والظروف التي شهرتك في تجريح مناظرك والتهكم به فيعف حياء.

وإنك تعطي مناظرك ولا تأخذ منه، وإذا ألح عليك بحجته تخلصت إلى موضوع آخر.

وإنك تستغل الأسلوب الأدبي في تمويه رأيك على طريقة الرمزية، فيا أيها العار إن المجد لك تعبير طري يدغدغ وجدان الأديب، أما الفيلسوف والمفكر فأكبر من أن يخدعه برهان تخييلي أو مغلطائي.

وإنك تسرف في الأقيسة والتشبيهات الطريفة البديعة في تصورها، ولكنها ليست في محل النزاع.

وإنك تسرف في الأقيسة والتشبيهات الطريفة البديعة في تصورها، ولكنها ليست في محل النزاع.

وإنك تسرف في عرض الدعوى شرحاً وغطرسة، ولكنك تشح بالبرهان،

أو تعجز عنه.

وإنك تنظر إلى الحقيقة الأزلية بجَنف، لأنك لا تحترم إلا وجهة نظرك، فتعمم الحكم والصور متباينة، ودليل ذلك أنك لا تتذرع بغير قضية القدر والقضاء المحتوم في إنكار وجود الله، مع أن تجوير أفعال الله إنكار لعدله، وليس دليلاً على جحد وجوده.

إن في الكون من مظاهر الحزن والبؤس والقلق وما يخالف رغائب البشر ما يهيض جناح أي أديب رومانسي حزين.. ولو عُمِّر عمر إبليس لما استطاع أن يرسم بريشته كل لوحات الشر.

ولكن في الكون من مظاهر الفرح والسعادة والطمأنينة ما هو أكثر وأكثر، فإن كنت جاداً في طلب الحقيقة فانظر إلى مجالي الكون خيرها وشرها، وحينئذ تحفظ توازن الفكر عن الذبذبة.

وإن لدى المؤمنين من البراهين، وفي المؤمنين من العقلاء الأحرار العتيدين ما لو ضممته إلى شبهك وشبه أقرانك لأنصع لك الحقيقة.

وإنك اليوم لأحوج الناس إلى الديالكتيك الهيجلي.

هذه عيوبك يا أبا محمد في منهجك خبرتها عن قراءة ومشافهة.

وإني لأرجو أن تنهج طرق البحث والجدل الصحيحة لتهتدي، ويهدي الله بك، إن كنت كما قلت لي جاداً في طلب الحقيقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده المرسلين.

كتب فيما بين فجر الثلاثاء الموافق ٢٢ رمضان وفجر الخميس الموافق ٢٤ رمضان بجاردن سيتي بالقاهرة المحروسة سنة ١٣٩٤هـ.

قال أبو عبدالرحمن: وتم نشر أكثر هذه الفصول بكتابي «لن تلحد» سنة ١٤٠١هـ. ثم أعدت تأليفه بهذه الصورة، وتم الفراغ منه منتصف الليلة التي صبيحتها يوم الجمعة الموافق ٨/ ١/ ١٤١٥هـ».

القصيمي:

إنه مؤمن وهذا إيمانه! [1]

الذي يقرره كل دين سماوي صحيح الثبوت عن الله سبحانه وتعالى، وتحضنه العقول: أن باب التوبة مفتوح إلا في ثلاث حالات: أولاها: عند نزول الموت والغرغرة ومعاينة الإنسان منازله في جنة أو نار؛ لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.. وعلى هذه الحالة يحكون قصة ابن الفارض لما هام في أباطيل الحلول والاتحاد، ودعوى سقوط التكليف عند الوصول وانكشاف الحُجب؛ مما هو من تلاعب الشيطان بالمجاذيب؛ فإنه لما رأى منازله عند الغرغرة قال:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد رأيت فقد ضيَّعت أيامي
أمنية ظفرت روحي بها زمناً ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

وثانيتها: عند طلوع الشمس من مغربها، وثالثتها: عند إنذار الرسول - أي رسول - لقومه بالعذاب في أجل محدد؛ فإذا لم يحصل الإيمان عند رؤية العذاب لم ينفع ذلك.. والسر في ذلك أن الله غني عن خلقه لا تنفعه طاعتهم

---

(١) مقال للشيخ أبي عبدالرحمن الظاهري - وفقه الله - نُشر في مجلة اليمامة (العدد ١٧٤٩).

ولا تضره معصيتهم؛ وإنما خلقهم للابتلاء، وابتلاهم بالإيمان بالغيب بعد أن نصب لهم البراهين في الأنفس والآفاق، وحذرهم من مصادر التضليل؛ كالشيطان والنفس الأمارة بالسوء والحمية والشهوة واتباع الهوى وحب الدنيا، وبُعد الصيت والتكاسل في البحث عن الحقائق؛ ولهذا لا يُقبل من الكفار معذرتهم ولا طلبهم الرجعة كما في آخر سورة الزمر، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [النحل:٨٥]. وكما في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم:٥٧]. وما أشبه ذلك من نصوص كثيرة.. وأما محض الابتلاء ففيه نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٧].

ومعرفتي بعبدالله القصيمي معاينة ومعاشرة منذ شهر شعبان سنة ١٣٩٤هـ، وقد عشقته متحدثاً ومتودداً ومثالياً في كثير من الخلقيات، وذا حمية لبلادنا دولةً ورفعةً وأمةً، وكرهته مستهزئاً بحق الله تعالى كفراً محضاً وسخرية بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وحكماً على القرآن بالتناقض.

ولقد كان الإمام أبو محمد ابن حزم ـ رحمه الله ـ ذا صداقة مع بعض علماء الملل، ولا سيما من اليهود في الأندلس، وفي الوقت نفسه كان ذا مناظرة لهم؛ ولهذا عابه ابن عمه وابن أخته أبو المغيرة عبدالوهاب بن حزم بكثرة

جلوسه معهم.. ولا عيب في ذلك؛ لأن ذوي الأديان من أهل الكتاب إذا كانوا أهل ذمة لهم حق الصداقة والمجْوَرة والمعاملة في حدود ما رسمته الشريعة من جانب البراء والولاء، وإنما المحظور معاشرة من لا دين له، ولهذا أحملُ صداقة ابن حزم لأبي الفتوح ثابت ـ وهو شيخه ـ الجرجاني على: أن إلحاد ثابت أمر استجد فترك صحبته، أو أن علمه بإلحاده أمر استجد له، وأنه لو علم ذلك ما تتلمذ له؛ ولهذا نرى أبا محمد يردُ عليه رد من لا يحمد له أستاذيته؛ فيقول في الفِصَل ١/ ٦١: «وقد ألزمتُ بعض الملحدين وهو ثابت بن محمد الجرجاني.. الخ» فأبو محمد تلقى عنه علم المنطق قبل أن تظهر له حال إلحاده، ثم انبرى له ناقداً ومبكتاً ومتبرئاً، ولولا كفر القصيمي الصارخ لكان ألصق الناس بقلبي، ولا سيما ما أسلفته من مقومات تأخذ بقلب الإنسان، إضافة إلى بعض إهداءاته في النماذج المبثوثة في هذه اللذعات، ولا ذنب مع الكفر.

قال أبو عبدالرحمن: منذ كتاب الأغلال إلى أن هلك: لا أعلم له كلمة منشورة تعلن توبته، ولا أعلم له كتاباً فيه خير، بل كل كتبه المطبوعة كفر وتجديف.. ولا نحكم على غيبه عند الله، وهل لقي ربه مؤمناً أو كافراً، فليس للخلق إلا ما ظهر من القول والعمل، وعلم خاتمته عند الله.

ونرجو أن يكون آمن قبل قفل باب التوبة، ولا ينبغي فتح مجال للجدل البيزنطي حول إيمان القصيمي عند موته أو عدمه ـ إن كان حصل

له إيمان عند النزع ـ ونحن نتلو في كتاب الله قصة فرعون لما أدركه الغرق وعاين الحق وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فكان الرد: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١]..

إذن: خاتمة القصيمي أمرها عند الله، وإنما يجب على المسلم المفكر الذي يملك مقومات الإيمان العلمي أن يدحض كتب القصيمي المنتنة التي يُطبع أكثرها في بلاد غير إسلامية ولا عربية، ثم تنتشر انتشار النار في الهشيم، لأن أحب شيء للإنسان ما مُنع؛ فكلها هش أمام العالم المفكر؛ لقيامها على الأسلوب الإنشائي الذي يخلط ويملط، مع المكابرة والانطلاقة من وجهة نظر واحدة وهي عتمة الإلحاد، ولا يجوز البتة الترويج لها، أو تقريب القصيمي من القلوب بمثل هذا الاستجداء العاطفي الذي نشهده في صحافتنا المحلية.

قال أبو عبدالرحمن: والقصيمي مؤمن بلا شك، ولكن بطريقته الخاصة، وهي أنه مؤمن إيمان حرية لا إيمان تقليد فيما يزعم بما أملاه عليه عقله من كفر!!.. وما هو إلا تلميذ صغير جداً جداً لأقصر ملاحدة روسيا قامة، وقد أقوم بجولة تلخيصية للبناء الإلحادي عند القصيمي، وأذكر في هذه العجالة قوله في مقدمته لكتابه «هذا الكون ما ضميره»:

«إن قوانين الكون قوانين مادية، وهي لا تدين إلا لمثلها» ص٢٩.

ويُحيل براهين الإيمان بشبهة التسلسل في قوله: «فإن هذا البرهان هو نفسه يحتاج إلى برهان».. مع أن التسلسل له أحوال وأحكام، وهناك تسلسل حتمي الوجود لا يتصور العقل غيره، وهو امتناع الأولية للزمان السرمدي، وإنما وجد المؤمنون راحتهم عندما علمهم ربهم أنه لا شيء إلا وهو مسبوق بوجوده وتدبيره، وأنه الأول فلا شيء قبله، فارتدت السرمدية التي لا أول لها إلى خالق لا أول له.

ويقول في الصفحة نفسها بتعبير في حق الرب يليق بوجه هذا الملحد القبيح: «المخلوق هو ابتسام الخالق لنفسه، وبكاؤه إليها؛ وإذن فما عده المؤمنون برهان إثبات هو في الحقيقة برهان نفي»!!

قال أبو عبدالرحمن: هذا هو إيمان القصيمي.. ثم يستمر في مقدمته الإنشائية بدون توثيق في كل الكتاب بغناء رومانسي ونواح جبري ولجاجة خنفساء ودلال طفل؛ ليقتحم أموراً هي فوق علمه، وفوق مستوى تفكيره، وفوق حصيلته الثقافية، ليهدم ما لا يقوى عليه من براهين الإيمان العلمي.. والرد عليه ـ لولا احتساب الأجر ـ مضيعة للوقت والعمر؛ لأنه سيحتاج إلى حجم تمطيطه الأسلوبي مع الفراغ المروع المخجل من حصيلة علمية أو فكرية.

قال أبو عبدالرحمن: ومع ولاء القصيمي لبلادنا السعودية وطناً ودولةً؛ بسبب الأيادي الكريمة التي تحنو عليه؛ رجاء أن يفيء إلى الله، فإنه شعوبي بمعنى الكلمة، وقد أظهر شعوبيته بدعوى النقد الذاتي بمراوغة عجيبة لست أدري كيف انطوت على الخيّرين.. تجد هذه الشعوبية في كتابه «العرب ظاهرة صوتية»، وتجدها في كتابه «كبرياء التاريخ في مأزق»، بل إنه داعية صهيوني صريح يرى في إسرائيل نملة وديعة ومشعلاً حضارياً جاء ليربي هذه الأمة الهمجية يعني العرب.. وللاسترزاق يستل فصولاً من كتبه فيجعلها كتباً صغيرة مستقلة ذات غثيان تثير مشاعر المسلمين؛ مثل كتابه: «يكذّبون كي يروا الإله جميلاً»، ولبادرته الشعوبية طرده جمال عبدالناصر، وليس ذلك من جراء ما يزعمه بعض الناس: أن ذلك بسبب شكوى الإمام أحمد منه.. إلا أن مضايقة عبدالناصر له من منطلق قومي وليس من منطلق ديني يغار لله؛ فاحتضنه كمال جنبلاط بلبنان.

وقد أراد أن يقلد الكاتب المهذار «كامو» بجعله مسألة الإيمان والكفر ـ وهي مسألة علمية فكرية ـ بلغة أسلوب إنشائي تهويشي يعتمد على البريق الأسلوبي،وإطالة الكلام بالمترادفات، وتكرير معاني صفحتين بصفحتين أخريين بألفاظ أخرى، واطراح مقومات العلم والفكر من الرصد والإحصاء والتعريف ومقومات ما هو برهان أو مغالطة، وإذا

أفرغ ما في جعبته من نقد لوجود وكمال رب الكائنات لاذ إلى المغالطة بالتعميم إلى الخلط والملط؛ كقوله في الكتاب الأخير القبيح ـ الذي هو مستل من كتابه الكبير «العالم ليس عقلاً» ـ: «أيتها الآلهة والنبوات والزعامات الخ.. الخ».

وكلامه عن طبيعة التفكير العربي في كتابه «العالم ليس عقلاً» ظاهره أنه نقد ذاتي؛ لتحرير الإنسان من النواح القدري الجبري؛ فإذا أتممت قراءة الفصل وجدته جزءاً من شعوبيته وإلحاده؛ ليصيب عقل المسلم بالإحباط؛ فيرى أن جانب التوكل والعبودية لله هو سبب تأخره.. حتى لو قرن المسلم مع جانب التوكل والقضاء جانب العمل الجاد المثمر.

والقصيمي يعلم أن تحقيق العلم المادي اكتشافاً وصنعاً يحصل بالتعلم إذا أتيحت الظروف لعابد العجل وللكافر بالأديان كلها وللمتدين.. وقد قرأت عن شيخنا أحمد بن يوسف القادري تعليقة نصها: «دولة اليابان تقدس الإمبراطور، وهو ابن الميكادو، وهي دولة وثنية غزت صناعتها أمريكا؛ لأنها سلكت سبيل العلم، ويقول الإمام الغزالي: إذا لم يكن عند المسلمين مصنع للإبرة فهم آثمون».

ويعلم ثانية: أن كل بشر محكوم بالجبرية في وضعية حياته؛ فليس

بحريته أن يولد، وليس بحريته أن يعيش قوي البنية منشرح الصدر، عظيم السعادة والغبطة، وليس بيده ألا يموت؛ فكل هذه جبريات يعلمها كل فرد على الرغم منه، وهي لا تُعطل مسيرته في الحياة إذا أراد أن يعمل ويكدح لدنياه أو آخرته.

ويعلم ثالثةً: أن المريض يتعاطى أسباب الشفاء، والفقير يتعاطى أسباب الكدح، ومن يريد الولد يتعاطى أسباب النسل، ويعلم أن كل شيء بقدر، ولا يقعد عن تعاطي الأسباب؛ وهكذا يفعل في تعاطي أسباب النجاح آخرة وهو يعلم أن كل شيء بقدر، ويعلم أن الانطراح بين يدي الله والإشفاق من أن يقذفه في النار من أسباب النجاة، وأن الله سبحانه يمحو ويثبت؛ كما قال في كتابه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[الرعد:٣٩]، فمحوه وإثباته عن علم مسبق.

ويعلم رابعة ـ وهو ذو إشراف على العلم الشرعي لما كان صاحب كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية» ـ: أن الله سبحانه لا يحاسب أحداً فيما طلبه منه في دنياه من أجل آخرته إلا إذا ملك حرية الاختيار والقدرة على الفعل، ويُسقط الله عنه من التكليف والمؤاخذة بمقدار ما يفقد من القدرة وحرية الاختيار.

ويعلم خامسة: أن الله سبحانه وتعالى لما طالب البشر بالإيمان بالدين

نصاً لم يطلب منهم ذلك مباشرة، بل خاطب عقولهم بالبيّنات الحسية من براهين النبوة في الأنفس والآفاق؛ فكل البراهين العلمية في حياة كل نبي ورسول كريم هي التمهيد العلمي لتلقي ما سيأتي به بعد ذلك من نص واجب الطاعة، وفي ديننا استحثاث السمع والبصر والفؤاد والعقل، وكان التركيز على اللب والفؤاد والقلب وهنّ بمعنى واحد؛ لأن القلب محل الإيمان العلمي الصادق الذي يتحول إليه من معارف العقل وتجاربه الحسية.

والقصيمي في كتبه يعتمد مسألة الخير والشر ليضلل ذوي العقول الصغيرة، وما هو إلا أسوة كسيحة للأديب الروسي «دوستويفسكي» في روايته «الأخوة كرامازوف».. ومسألة الخير والشر هذه التي طرحها دوستويفسكي طرحاً روائياً لا تعتمد في أصولها على الجدل العلمي بين أهل الملل والنحل، وإنما تعتمد على سفر أيوب الذي اخترعه مبدلو الأديان من اليهود، وتبرأ من شناعة كفره بقية أهل الكتاب.

قال أبو عبدالرحمن: هذا شيء يجيش في الخاطر بمناسبة ما أراه اليوم في بعض صحفنا المحلية من طرح عن القصيمي غير موفق، ولعل الله أن يجعل في العمر فسحة، وأن يكون منه العون في تتبع هرطقات القصيمي، والله المستعان».

ليلة في جاردن سيتي

وسويعات بعدها أو قبلها

[حوار مع عبدالله القصيمي]

تأليف

أبوعبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
[محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل]
- عفا الله عنه -

الطبعة الأولى / سنة ١٤١٥هـ
دار ابن حزم للنشر والتوزيع
(ص - ب ٢٢٥٦٦ / الرياض ١١٤١٦)
هاتف وفاكس : ٤٦٢١٥٤٢

﴿ ٣ ﴾

صورة غلاف كتاب «ليلة في جاردن سيتي»

الرد الثالث عشر:

ماذا يريد القصيمي؟

أحمد بن محمد الشامي

ترجمة الأستاذ أحمد بن محمد الشامي [1]

من مواليد عام ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م بالضالع، نشأ بصنعاء، وتخرج في مدارسها الابتدائية ومعاهدها العلمية.

قرض الشعر وهو في الخامسة من عمره، كان رابع أربعة من دعاة الثورة على حكم الإمام يحيى، وأمضى عدة سنوات في المعتقل السياسي إثر فشل ثورة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

أهم المناصب التي تولاها:

- سكرتير مجلس الوزراء اليمني عام ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.
- قائم بأعمال المفوضية اليمنية بالقاهرة عام ١٩٥٥م ـ ١٣٧٥هـ.
- وزير في مجلس اتحاد الدول العربية (مصر وسوريا واليمن) عام ١٩٥٨م ـ ١٣٧٩هـ.

---

(١) إثنينية عبدالمقصود خوجة (رقم ٣٩)، و«أدباء وشعراء العرب» للدكتور محمد حمود، ص٢٥. وللفائدة: فالأستاذ: أحمد الشامي ـ هداه الله ـ من زيود اليمن، متعصبٌ لزيديته. وقد نبه على هذا العلامة إسماعيل الأكوع في كتابه «هجر العلم ومعاقله» في ترجمة الشاعر الزيدي الحسن الهبل، الذي لم يتورع عن سب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ؛ وقد قام الشامي ـ للأسف ـ بالعناية بديوانه!

- وزير خارجية الملكيين أثناء الحرب منذ سنة ١٩٦٢م ـ ١٣٨٢هـ إلى أن قامت المصالحة الوطنية سنة ١٩٦٩م.
- عضو المجلس الجمهوري أثناء عام ١٩٦٩م ـ ١٩٧٠م.
- سفير للجمهورية العربية اليمنية في لندن عام ١٩٧١م.
- سفير للجمهورية العربية اليمنية في باريس عام ١٩٧٢م.
- سفير متجول للجمهورية العربية اليمنية، وقد تقاعد للكتابة والتأليف منذ سنة ١٩٧٤م.

تزوج مرتين، وله ولدان وبنت.

أشهر دواوينه الشعرية: من اليمن، علالة المغترب، ألحان الشوق، حصاد العمر، مع العصافير في بروملي، ألف باء اللزوميات، أطياف، إلياذة من صنعاء، المؤودات، مسرحية: مصارع الأحرار.

أشهر مؤلفاته: قصة الأدب في اليمن، من الأدب اليمني، مع الشعر المعاصر في اليمن، المتنبي: شاعر مكارم الأخلاق، جناية الأكوع على ذخائر الهمداني، السوانح والبوارح (مجلدان)، شعراء اليمن في الجاهلية والإسلام، ذكريات الشافعي (في ثلاثة اسفار)، محاكمة في جنة الشعراء (مسرحية)».

قال الأستاذ أحمد بن محمد الشامي:

«صدر في «باريس» كتاب ضخم للأستاذ عبدالله القصيمي سماه «العرب ظاهرة صوتية»،! ولو أنه قد صب جام غضبه على وضع الأمة العربية «الحالي»، ولام ما هي فيه من تمزق وتخاذل، وشتات؛ لاعتبرنا كلامه من باب الغيرة والتوجيه! ولكنه قد سخر من «العرب» كجنس منذ خلقوا، وإلى أن يفنى الوجود؛ حقرهم كفاراً، ومشركين؛ ونصارى، ومسلمين، وقوميين، وبعثيين، وشيوعيين؛ وجهالاً؛ وعلماء، وفقراء، وأغنياء، وشعراء، وأنبياء؛ وغزاةً فاتحين، ومستضعفين ومستعمرين، وفلاسفة وأطباء، وكتاباً وخطباء! وقال إنهم: لم، ولما، ولن يصلحوا لشيء في الحياة، لا قبل الإسلام ولا بعد الإسلام!

ولا، ولن يكون ذلك في يوم من الأيام، وجرَّدهم ـ طبعاً وغريزة ـ عن كل فضيلة، وألصق بهم ـ فطرةً، وخلقاً ـ كل رذيلة، وبلغةٍ بذيئة فاحشة، وخنى لغوي لم أقرأ مثله لكاتب قط.

وقد سخر بالنبي صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم.. بل وبالثابت الوجود، تعالى الله علواً كبيراً، وهجا الأبرار، والزهاد، وزعماء الإصلاح، وهزأ بالإسلام، والقضية الفلسطينية، وشتم اللغة العربية؛ وكل آثارها العلمية، والفقهية، والأدبية قديماً وحديثاً، وفي أسلوب مملّ مكرر يمكن

تلخيص إقذاعه، وشتائمه، وسفاهته، وافتراءاته، في خمسين صفحة بدلاً عن تلك الثرثرة التي سوّدت بياض ثمانمائة صفحة.

وقد طُبع في «باريس»! ولا شك أن القوى المعادية للإسلام، والعرب قد نشرته كيداً، ونصباً، وعداوة وإفساداً؛ وقد تكلّف «القصيمي» كل ما يطيقه من بلاغة وثرثرة، وإسهاب، واستعمل كل ما حوته قواميس اللغة من ألفاظ وعبارات البذاءة، والفُحش والخنى، التي يستحي كل ذي ذوق سليم من استعمالها؛ ولا سيما ضد لغته ومقدساتها!

إنني لأخجل أن أقتبس من عبارات «القصيمي» ما يبرر شدتي وقسوتي عليه.. عند أولئك القراء الذين لم يتسنَ لهم قراءة كتابه «العرب ظاهرة صوتية».. وحسبي ـ وأستغفر الله ـ أن أنقل ما يمكن اعتباره أرقّ، وألطف ما تفوّه به ذلك العتل الجحود.

قال في ص٧٩٨-٧٩٩ ما نصه:

«إن الحقد، والقبح، والغباء، والفحش، والسفاهة التي.. لا بد أن تكون بكل السخاء في أصوات أنبياء وزعماء، وقادة، وشعراء وعباقرة أمتي العربية .. في نبواتهم وشاعرياتهم وعبقرياتهم لن يكون منهما شيء في أصوات التصادم بين أجساد الأشياء؛ أليست إذن أصوات التصادم

بين أجساد الأشياء متفوقة جداً ـ بكل تفاسير التفوق على أصوات» عباقرة، وأنبياء أمتي العربية؟ التي لا تستطيع أصوات نبواتها، وعبقريات آياتها، وسورها في كتبها المنزلة، وصلواتها المتضرعة لآلهتها المتوحشة أن ترتفع إلى أصوات الطبول والكائنات الصاهلة أو الهادرة، أو الناعبة، أو الناعقة ..» إلى آخر ذلك البذاء الذي تقشعر عند سماعه جلود المؤمنين.

لقد أثارني الكتاب؛ فقلت أرد عليه مستعملاً بعض الألفاظ التي استعملها؛ جزاءاً وفاقاً».

ثم قال الأستاذ قصيدة في ذم القصيمي وكتبه ؛ منها :

هـــل أطلــــب الـــسماح؟ قـــد هـــدرت شقـــشقتي
بلغــــة القـــــصيمي ولم تكـــن مـــن نحلـــتي
وملـــــتي تأنفهـــــا وأدبـــــي، وفطرتـــــي
لكنـــــه صـــــديقي لم يبـــقِ لفظـــاً جارحـــاً
للعهـــــر، والفحـــــشاء والجهـــــل، والغبـــــاء
إلا وصـــــبَّه.. ســـــوط جحـــــودٍ، وافــــتراء
علـــــى بـــــديع الأرض والـــــسماء
والرســـــل، والأديـــــان والعـــــرب، والإيمـــــان
فردّهـــــا في نحـــــره بذيئـــــةً كنثـــــره

مـــــدافعٌ عـــــن دينـــــه معتقــــــــدٌ؛ بــــــــشعره
يرجـــــو ثـــــواب ربـــــه إذا ثـــــوى في قـــــبره
قـــد صـــبها مـــن قلبـــه في رجــــــز غــــــضبان
علـــــى فقيـــــد العقـــــل والحـــــب، والوجـــــدان
هديـــــة مـــــن شـــــاعرٍ يعرفــــــه يمــــــاني

فهرس رسالة «ماذا يريد القصيمي؟»

أرجوزة

ماذا يريد القصيمي؟

بقلم

احمد بن محمد الشامي

دار النفائس

صورة غلاف رسالة «ماذا يريد القصيمي؟»

الرد الرابع عشر:

من أخبار المنتكسين

للدكتور

صالح العصيمي التميمي

ـ وفقه الله ـ

ترجمة الدكتور صالح العصيمي التميمي [(١)]

هو الدكتور صالح بن مقبل بن عبدالله العصيمي التميمي، ولد في مدينة الخرج عام ١٣٨٦هـ، وتلقى العلم على يد والده الشيخ مقبل العصيمي - القاضي في بلدة نعجان وثادق، وأحد طلبة الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله -.

درس في المعهد العالمي بالرياض، ثم التحق بجامعة الملك سعود، قسم الفقه وأصوله، ثم نال درجة الماجستير من نفس الجامعة، في تخصص العقيدة، بتقدير ممتاز، على أطروحته «بدع القبور».

ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى، تخصص العقيدة، وكانت أطروحته «تحقيق كتاب الإبانة» لأبي الحسن الأشعري.

- له مؤلفات عديدة؛ من أهمها: «بدع القبور»، «أحكام عرفة ـ دراسة فقهية ـ»، «الأسهم المختلطة في ميزان الشريعة»، «من أخبار المنتكسين»، «الوجازة في استثمار الوقت والإجازة».

- له العديد من النشاطات العلمية والدعوية، داخل وخارج المملكة العربية السعودية.

---

(١) استفدتها منه شخصياً ـ وفقه الله ـ.

قال الدكتور صالح ذاكراً بعض النماذج للمنتكسين عن الحق:

«عبدالله بن علي النجدي القصيمي، ولد في عام ١٩٠٧م، وتوفي ١٩٩٦م/ ١٤١٦هـ قدم أجداده إلى نجد مع جيش إبراهيم باشا عندما هاجمها.

عاش حياة فقر وبؤس بعد فراق والده لوالدته، وانقطاع أخبار والده عنه، فعمل أجيراً، ثم بدأ رحلة البحث عن والده الذي انتقل إلى بعض مناطق الخليج، حتى حصل على مراده، والتقى بوالده بعد رحلة بحث شاقة تكبد خلالها المصاعب والمتاعب.

ثم تلقى تعليمه هناك تحت إشراف والده حتى فارق والده الحياة وهو لم يبلغ الحلم، ثم سافر لتلقي العلم في عدة بلدان حتى انتهى به المطاف إلى جامعة الأزهر، ودرس فيها أربع سنوات، كان الأزهر خلالها يعيش حركات شديدة أثرت هي كذلك على شخصية القصيمي في تكوينه.

وقد حدثت هذه الحركات في تلك الفترة التي تبنى فيها الأزهر محاربة السلفيين ودعوة مجدد العصر شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ.

وتوج هذا ما خطّه قلم الشيخ يوسف الدجوي أحد علماء الأزهر الذي تبنى بوضوح، ودافع بقوة عن زيارة الأولياء، والتوسل بالمقبورين الصالحين، وندب إلى طلب الشفاعة منهم نافياً أن يكون هذا شركاً أكبر أو أصغر.

فانبرى له القصيمي ورد عليه في كتابه الرائع الماتع «البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية»، وعرّى من خلاله حجج الدجوي، مما أحدث ردة فعل عنيفة لدى القائمين على الأزهر.

واتخذ الأزهر قراراً قاسياً بحقه؛ ألا وهو فصله من الجامعة، وأصدر البيان التالي:

«صدر كتاب يُنسب إلى طالب من نجد في جامعة الأزهر، ويوجد في الكتاب شتائم وإهانات موجهة إلى أستاذ من هيئة كبار العلماء، وعلى أثر ذلك كلفت هيئة المدرسين أحد الأساتذة بإجراء تحقيق ضد الطالب فيما تضمنه الكتاب من افتراءات وشتائم، وقام الأستاذ بتقديم نتائج تحقيقه إلى مجلس إدارة الأزهر والتي قررت في جلستها المنعقدة في ١٣/ ٩/ ١٩٣٢م قراراً بفصل الطالب من انتسابه إلى الأزهر»[1].

ولكن هذا القرار لم يثن عزمه، بل واصل انتقاداته، وألّف كتابين هما: «شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام»، و«الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم».

وقد حاول الشيخ رشيد رضا الدفاع عنه ومؤازرته، وقام بطبع كتبه،

---

(١) انظر: دراسة عن القصيمي، ص٢٣، وانظر: من أصولي إلى ملحد، ص٢٤، وص٤٢.

بل قال: إن القصيمي اكتسح في الحقيقة هؤلاء العلماء بمعرفته الواسعة وأخجلهم[١].

ثم استمر القصيمي في دفاعه عن الإسلام، وتصدى للرد على محمد حسنين هيكل الذي ألّف كتاباً عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يثبت للرسول صلى الله عليه وسلم إلا معجزة القرآن، وناقشه القصيمي بالحجج النقلية والعقلية، وعندما تعرض لحادثة شق الصدر التي أنكرها هيكل، أخذه العجب، وقال: إن أي جراح يملك القدرة على فتح الصدر، فلمَ يتعذر ذلك على الله وملائكته؟ وهذا نموذج يدل على قوة حججه العقلية عند المحاورة[٢].

واستمر في دفاعه القوي عن السلفية، وبين أنها ثورة روحية لتحرير العقل البشري، ودعا الأمة الإسلامية إلى العودة إلى التوحيد وإلى الوقوف مع المملكة العربية السعودية، وإلى اعتبار مكة وطن حي للمسلمين، بل دعا إلى دعم المملكة بكل وسائل الدعم المادية والمعنوية، وتوظيف الأموال في مشاريع في بلاد الحرمين حتى تنال من الهيبة والقوة الاقتصادية ما يعينها على

(١) المرجع السابق ص٢٣-٢٤، ومن أصولي إلى ملحد ص٤٦.
(٢) من أصولي إلى ملحد، ص٥٣.

القيام بواجباتها نحو المسلمين[١].

ثم بلغ قمته عندما رد على الكاتب الشيعي السوري محسن العاملي، الذي ألّف كتاباً بعنوان «كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب»، تعرض فيه للدعوة السلفية التي أحياها المجدد شيخ شيوخ الإسلام في عصره محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ فانبرى له القصيمي انبراء الأسود، ورد عليه رد الفحول في كتابه الكبير «الصراع بين الإسلام والوثنية»[٢].

وقد لقي هذا الكتاب قبولاً عظيماً عند أهل العلم حتى قال فيه إمام الحرم المكي في ذلك الوقت قصيدة فيها ثناء عطر على الكتاب:

صراعٌ بين إسلامٍ وكفرٍ ... يقوم به القصيميُّ الشجاعُ
ألا لله ما خط اليراعُ ... لنصر الدين واحتدم النزاع[٣]

بل ذكر صلاح المنجد أن بعض أهل العلم قالوا للملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «لقد دفع القصيمي مهر الجنة بكتابه هذا»[٤]

وشعر القصيمي ـ بعد كتابه هذا وما لقيه من قبول عند أهل العلم وما

---

(١) المرجع السابق، ص٥٦-٥٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٥٨.
(٣) دراسة عن القصيمي، ص٢٥.
(٤) المصدر السابق.

أحدثه من أثر وجرح عميق عند أهل البدع ـ بكثير من الزهو والفخر؛ فألفان وخمسمائة صفحة في الدفاع عن الدين والإيمان وتحطيم الوثنية تكفي لنجعل منه الشيخ الذي يُنظر إليه بعين الرضا، ويُقدم في المحافل، ويُبرز في المجامع، ويُصَدر في المجالس[1].

ولكن هذه الهالة سرعان ما اندثرت وخفتت وعاد القصيمي إلى وضعه، فلا هو قُدم ولا هو بُجِّل، فأصيب بردة فعل عنيفة ؛ادته إلى أن يقوم بشرح أسباب انحطاط المسلمين! وتأخرهم! بكتابه «كيف ذل المسلمون»، وقد ظهر من خلال هذا الكتاب مناقضته الصريحة لمواقفه السابقة.

ثم فاجأ العالم بقنبلة مدوية مخزية، وهي كتابه «هذي هي الأغلال» الذي ثار فيه على كل شيء عُرف عن المسلمين، لا فرق عنده بين عادات وتقاليد وخرافات وعقائد، وأثار الكتاب ضجة عنيفة في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

وما إن وصل خبر الكتاب إلى الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ حتى بادر بإرسال برقية إلى الشيخ فوزان السابق ـ رحمه الله ـ يطلب فيها منه أن يعلن براءته في الصحف من القصيمي[2].

---

(1) من أصولي إلى ملحد، ص٥٥.

(2) دراسة عن القصيمي، ص٢٨.

وقال علامة زمانه الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ: «لقد وقفت على كتاب صنفه القصيمي سماه «هذي هي الأغلال»، فإذا هو محتوٍ على نبذ الدين والدعاية إلى نبذه والانحلال منه من كل وجه، وكان هذا الرجل معروفاً بالعلم والانحياز إلى مذهب السلف الصالح، وكانت تصانيفه السابقة مشحونة بنصر الحق والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقام وسمعة حسنة، فلم يرع الناس في هذا العام حتى فاجأهم بما في هذا الكتاب الذي نسخ به وأبطل جميع ما كتبه عن الدين سابقاً.

وبعدما كان في كتبه السابقة معدوداً من أنصار الحق، انقلب في كتابه هذا من أعظم المنابذين له، فاستغرب الناس منه هذه المفاجأة الغريبة لسوابقه»[١].

وقال: «إن من نظر فيه وتأمله حق تأمله عرف أنه ما كتب أشد وطأة وأعظم عداوة ومحاربة للدين الإسلامي منفراً منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب وغيرهم بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل، ولا افترى مفترٍ على الدين كافترائه، ولا خرف أحد نظير تخريفاته، وما صرح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين وأصوله وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وحملته

---

(١) تنزيه الدين وحملته ورجاله للسعدي، ص٤٢٥.

كاستهزائه وسخريته، فإنه اشتمل على نبذ الدين ومنابذته ومنافقته ثلاثة لا تبقي من الشر شيئاً إلا تضمنته:

١- صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج تام عن عقائده وأصوله فضلاً عن فروعه.

٢- هو أكبر دعاية للإلحاد، ومقاومة للدين وأهله.

٣- فيه من البهرجة والتزويرات التي جعلها في صورة نصر الدين ما يعد من أعظم النفاق والكيد والمكر للإسلام وأهله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وجملة ذلك: أنه تلقى عن جميع أعداء الدين ما وجهوه إلى الدين وإلى أهله من جميع ألوان الشبه التي تدعو إلى الكفر والتكذيب بالدين، وزاد عليهم زيادات، واستدرك أموراً لم يصلوا إليها، فإن النافين للباري عز وجل، الجاحدين له؛ كزنادقة الدهرية وفرعون وأتباعه الذين حرصوا على جحد رب العالمين بالكلية، وتكذيب رسله جهراً وعلناً، ثم أظهره زنادقة الاتحاديين بأسلوب آخر: وهو أن الوجود كله ـ واجبه وممكنه ـ واحد بالعين، فلا ثم رب ولا مربوب ولا خالق ولا مخلوق، الجميع شيء واحد، ثم جاء القصيمي بأسلوب أشنع من ذلك كله حينما زعم أنه لا فرق بين

الخالق والمخلوق، وأن من فرق بينهما من الأنبياء والرسل وأهل الأديان فهو غالط ضال»[١].

كما ألّف الشيخ إبراهيم السويح كتاباً فيه رد على القصيمي سماه «بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال»؛ حيث قال في المقدمة: «لسنا بحاجة هنا إلى الاستدلال على فساد تصور هذا الرجل، وكثرة تقلب آرائه»[٢].

كما رد عليه الشيخ عبدالله بن يابس بكتاب كبير بعنوان «الرد القويم على ملحد القصيم» بيَّن فيه كفر الرجل وإلحاده.

وكتب إبراهيم آل عبدالمحسن في حوادث سنة ١٣٦٦هـ من تاريخه «تذكرة أولي النهى والفرقان» بعنوان: ذكر ردع عبدالله بن علي القصيمي.

كما ثار الأزهر وعلماؤه والجمعيات الدينية على هذا المرتد المارق[٣].

وقد تفاوتت ردود الأفعال عن ردة هذا الزنديق، وعن تحليل أسباب الردة، ولعل لردته أسباباً عدة:

١ - الشك والحيرة وكثرة الجدل:

---

(١) انظر: تنزيه الدين وحملته، ص٤٢٥-٤٣٠.

(٢) طُبع بالمطبعة السلفية.

(٣) انظر: دراسة عن القصيمي، ص٢٧.

يقول عبدالله بن يابس: «كان القصيمي منذ أكثر من خمسة عشر عاماً تقريباً يجادل في البديهيات الدينية، حتى اشتهر بكثرة جدله في الأمور الضرورية، وحتى كان يجادل بعض جلسائه في وجود نفسه، وحدثني صديق حميم من العلماء الأفاضل، قال: كان ذلك المخلوق ـ القصيمي ـ يأتي إليّ منذ خمسة عشرة سنة تقريباً، ويصرح لي بأنه تعتريه شكوك إذا جن الليل، فيسخن جسمه، ويطير النوم من أجفانه، قال: وكان يجادلني في الله، وفي النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قلبي يمتلئ بغضاً له واحتقاراً.

قال: وكنت أجيء لزيارتكم فأجده يقرأ في صحيح مسلم مع بعض الإخوان، فترجع نفسي قائلة لعلها وساوس وليست عقائد»[1].

٢- الغرور والغطرسة:

عندما ألّف كتابه «البروق النجدية» امتلأت نفسه زهواً وعجباً وكبراً.

يقول الشيخ ابن يابس: «لقد صدّر كتابه هذا بقصيدة ركيكة يمدح بها نفسه ويطريها، ولما اطلع على هذا الكتاب شيخنا عبدالعزيز بن بشر ـ رحمه الله ـ أدرك بنور بصيرته وعلمه أن صاحبه منحرف عن الإسلام، وكان من إعجابه

(١) انظر: الرد القويم، ص١١.

بنفسه أنه لما قرأ ديوان المتنبي كتب على طريقته:

كفى أحمداً أني نظرت كتابه لأن يدعي أن الإله مخاطبه
ولو شامني أني قرأت كتابه لقال إله الكون إني خالقه

كما قال أيضاً:

ولو أن ما عندي من العلم والفضل يُقَسم في الآفاق أغنى عن الرسل[1]

قال آل عبدالمحسن:

«كان هذا الرجل من أهالي خب[2] من خُبوب القصيم، ثم إنه نشأ في مصر واكتسب من العلوم حتى كان ينافح عن دين الله، وله ردود على أهل الضلال الذي نابذوا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وضادوها حتى هتك أستارهم، غير أنه كان معجباً بنفسه؛ فعنَّ له بعد ذلك أن يتوسع في العقيدة ويأتي بأمور يظهر منها علامات النفاق والخبث.

ولو ثبت على ما كان عليه في أول أمره في كتبه التي ألّفها في نصرة الدين ـ كالفصل الحاسم والبروق النجدية، والصراع بين الإسلام والوثنية ـ لكان خيراً له، وقد يُستنشق من مؤلفاته الأخيرة رائحة النفاق، فلما كان في هذه

---

(١) انظر: الرد القويم، ص١١-١٢.

(٢) الخب: هجرة زراعية صغيرة.

السنة أظهر كتابه الأغلال الذي تعرى به من دين الإسلام وخلع ربقته من عنقه، وسمى شرائع الإسلام أغلالاً، غلّت المسلمين عن التقدم، وحسَّن طريقة الكفر، وزاغ عن الهدى، ورمى الإسلام بالقصور والتأخر، وشن عليهم الغارة، وفضّل طريقة الكفر والشرك على طريقة المسلمين»[١].

والغرور والغطرسة والإعجاب بالنفس عند القصيمي ظاهرة ولا تحتاج إلى جدال، وما خطه يراعه في مقدمات كتبه خير شاهد وبرهان، وقد شهدت لهذه الآفات أشعاره التي يبدأ بها في كتبه، ومن ذلك قوله:

لو أنصفوا كنتُ المقدم في الأمر ... ولم يطلبوا غيري لدى الحادث النكرِ
ولم يرغبوا إلا إليّ إذا ابتغوا ... رشاداً وحزماً يعزبان[٢] عن الفكرِ
ولم يذكروا غيري متى ذكر الذُّكاء[٣] ... ولم يبصروا غيري لدى غيبة البدرِ
فما أنا إلا الشمس في غير برجها ... وما أنا إلا الدرُّ في لجج البحرِ
بلغتُ بقولي ما يُرام من العُلا ... فما ضرَّني نقد الصوارم والسمرِ
أسِفتُ على علمي المضاع ومنطقي ... وقد أدركا لو أدركا غاية الفخرِ
أرى كلَّ قوم يحفظون أديبهم ... ويجزونه بالعزِّ والمال والشكرِ
خلا معشري ما عندهم لأديبهم ... سوى الحسد الممقوت والبغض والشرِ

(١) انظر: تذكرة أولي النهى والعرفان، ٤/ ٢٤٢-٢٤٣.
(٢) يعزب: يغيب.
(٣) الذُّكاء: بضم الذال المعجمة: الشمس.

إذا قـام فـيهم ناشـئٌ ذو مخايـل | تـدل على العليـاء والحسب الحـرِّ
أطاحوه غضاً قبـل أن يبلـغ المدى | وقاموا على أعواده الخضر بالكسرِ
وممـا شـجاني أن أراهـم إذا رأوا | غبيّاً دَعـيَّ العلـم والـدين والـشعرِ
تولَّوه بالألطاف والعطـف والرضـا | وذلـوا لـه ذل الحـوادثِ للـدهرِ
فكـم عـزَّ فـيهم مـن جهـولٍ مبلـد | وكم ذل منهم من عليم ومـن حـبرِ
لقـد ضـقتُ ذرعـاً بالبيـان فـإنني | رأيتُ بياني ناقـصاً عنـدهم قـدري
ورغـبني في الجهـل أنـي رأيتنـا | يسود لدينا كل مـن لم يكـن يـدري
نوائـب دهـرٍ تـترك الحـرَّ حـائراً | وليس بمظلوم لديـه سـوى الحـرِّ(١)

وقال أيضاً:

حاشـا لهـم أن يعـدلوا بـي واحـداً | مـن بعـد مـا وضـحت لهـم أنبـائي
وأُعيـذهم مـن أن يعيـل أديـبهم | وأديـب كـل النـاس في النعمـاء
عـابوا علـيَّ تحـدُّثي وتمـدُّحي | بأصـالتي وشـجاعتي وذكـائي
إن لم يُـبح مـدح الفتـى أخلاقـه | بيـضاً فـأي تمـدح وثنـاءِ(٢)

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى هذا البائس كيف ارتد بعد إسلامه، وكيف أصبح من جلسائه أصحاب الكفر والغانية والكأس، بل وألّف كتاباً يستهزئ فيه بالتوحيد وأهله، فتصدى له بعض أهل العلم والفضل وكشف

(١) انظر: مقدمة كتابه «الفصل الحاسم».

(٢) انظر: المصدر السابق.

زيغه ورد ضلالته، فلله الحمد والمنة.

فالحذر الحذر من الوقوع في هذه المهلكة التي وقع فيها، وهذه داء الغرور والإصرار عليه.

ملاحظة: وقد يقول قائل: إن المعتاد من الشعراء هو الثناء على أنفسهم من خلال أشعارهم، فالرد عليه من وجوه:

أ- العبرة بالشرع لا بفعل العرب، والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

ب- قد تقبل التزكية في أمور دنيوية، مثلما حدث في خبر كعب بن مالك، ولكن التزكية في أمور شرعية غير مقبولة شرعاً.

ج- اشتهر عند العرب أن يثني الشاعر على قصيدته لتحظى بالقبول، لا على نفسه، ولو أثنى على نفسه فهو بحدود المعقول، وإن كان ممقوتاً.

د- عدم الاستهزاء بالآخرين وتحقيرهم كما فعل هذا البائس.

٣- الاتهام بالعمالة:

حيث أشار إلى هذا السبب عدد من الباحثين، قال علامة القصيم الإمام السعدي ـ رحمه الله ـ: «وكثير من الناس يظنون به الظنون التي تدل عليها

القرائن، وليست بعيدة من الصواب، لظن بعضهم أنه ارتشى من بعض جهات الدعاية الأجنبية اللادينية»[1].

ويقول الشيخ عبدالله بن يابس: «هذا المخلوق أغراه المستعمر واشتراه ثم أثراه، فذهب يطعن في هذا الدين وحملته وأحكامه في كتابه «هذي هي الأغلال»، فإن قال قائل: كيف قلتم إنهم أغروه واشتروه، ولم تسمعوا الإغراء، ولم تحضروا الشراء؟ قلنا: نعم وبالله التوفيق.

إننا ممن يعرفون الله بآياته، ويعرفون صفاته من أفعاله في مخلوقاته، ويؤمنون بأنه تعالى وهب هذا البشر مرآة صافية هي العقل، يعرفون بها الحق من الباطل والحالي من العاطل، وقد أدركنا بهذا العقل كما أدرك غيرنا أن أحداً لن يجترئ على أن يطعن في دينه ووطنه وجنسه، ويمدح أعداء الدين من غير عوض ولا مقابل، فأدركنا أن هناك بيعاً وشراءً، وإلا فماذا؟!»[2].

---

(1) انظر: تنزيه الدين وحملته، ص٤٢٥.

(2) الرد القويم، ص٩-١٠، وانظر: دراسة عن القصيمي، ص٢٠.

٤- العقد النفسية:

لقد عاش القصيمي معقداً، وأثرت العقد النفسية عليه، حتى إنه كان لا ينام الليالي بسبب شكوكه وأوهامه، كما كان لحياة التشتت أثرها في حياة القصيمي، وطرده من جامعة الأزهر أحدث عنده كراهية للتدين، وكان معاملة والده القاسية سبباً من أسباب انحرافه، حيث قال عن والده الذي التقى به بعد طول فراق:

«ومنذ بداية تلاقينا راح يقسو علي قسوة يصعب وصفها، بل يهاب ويرهب وصفها، يزعم أنه يريد أن يجمع كل العلوم التي يعرفها أو يتصورها أو يسمع بها، وكل أخلاق السلوك المهذب الذي يراه هو كل الكمال، يجمع كل ذلك في لقمة واحدة لابتلاعها مرة واحدة بلا تذوق أو مضغ، ولقد كان يرى قسوته على هذا التفسير ثناء عليه في المجتمع.

لقد بدا وكأنه يرى العذاب والألم اللذين قاسيتُهما قبل لقائه أقل وأرحم مما يجب أن أقاسي، لهذا فهو يريد أن يوقع بي كل ما يجب لي من العذاب والألم؛ لأنه يؤمن جداً بالواجب ويحترمه، ويلتزم به بكل فئات القسوة وأساليبها»[1]. اهـ.

---

(1) من أصولي إلى ملحد، ص٢٧، وانظر: دراسة عن القصيمي، ص٢٠.

كما كان لتعامل بعض مشايخه معه دور فيما أصابه من عُقد نفسية؛ حيث كان يُحطم عندما يوجه أسئلة ولا يجاب عليها، ويُطلب منه الصمت، وهذه قالها لي أحد العلماء الكبار، والله أعلم.

مواقف في حياة القصيمي:

لقد مرت بالقصيمي مواقف عديدة، إليك بعضها:

الأول: قال الشيخ ابن يابس عن أحد الثقات أنه لقي القصيمي فقال له: من أين أقبلت؟ فقال: من عند هدى شعراوي، فقال له الراوي مستغرباً: هدى شعراوي؟ قال: نعم، قال: وما تصنع عندها؟ قال: تعلمت منها علماً لا يعرفه علماء الأزهر، قال: ماذا تعلمت منها؟ قال: تعلمت منها كيف أحطم هذه الأغلال، فقال له الثقة: أي أغلال تعني؟ قال: أعني الحجاب.

فالقصيمي يخبر أنه استقى معلوماته من شمطاء كريهة[1].

الثاني: ذكر الشيخ ابن يابس: أن عسكرياً جاءه وكان يجالس القصيمي فقال بعدما أوغر القصيمي صدره: أليس كل رجل يود لأبيه الخير، فقلنا: بلى، فقال: إذاً فكيف يكون لأهل الجنة ما يشاءون والصحابة يعرفون أن

(١) الرد القويم، ص١٩.

آباءهم في النار؟! فما هذا التناقض؟ فقلنا له: أأنت مؤمن؟ قال: نعم، قلنا: أتحب الله أكثر من أبيك؟ قال: نعم، قلنا له: فإذا كان الله يبغض أباك لجحوده وكفره أتحب ما أحب ربك أم تحب أباك؟ وهنا أدرك أنه مخدوع، فقلنا له: ألم تقرأ القرآن: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ ..الآية [التوبة: ٢٤]، وما حكى الله عن إبراهيم، فبهت وسكت، ثم أورد لنا شبهاً كثيرة كشفنا له حجابها في ذلك المجلس، وقد ذكر لنا أن الذي ألقاها عليه هو شيخه القصيمي.

ثم ذهب هذا المسكين وتزوج بنت رجل من الإخوان وأراد أن يخرج بها عارية إلى الشارع، فثار والدها عليه، فقال له العسكري: إن الشيخ القصيمي يقول: إن الإسلام يأمر بذلك ولا يكرهه، فلعنه والدها ولعن القصيمي وفرق بينها وبينه[1].

الثالث: ذهب القصيمي مع صديق له لمجلس فيه مجموعة من صغار طلبة العلم، فبدأ القصيمي يثير شبهه فقال: ما يصح أن نقول إن القرآن حق لأنه متواتر، فالتوراة والإنجيل متواتران، ومع ذلك فإننا نقول إنهما باطلتان: فراجت الشبهة على هؤلاء المتعالمين، فما كان من صديقه إلا أن انبرى له وقال: إن الواقع يشهد أن التوراة أحرقت وأعدمت مرتين، والأناجيل ألّفت بعد

---

(1) الرد القويم، ص٢٠-٢١.

المسيح بزمن، فليستا متواترتين، وعقلاء اليهود والنصارى يشهدون بذلك.

والقرآن يعرف الإنس والجن تواتره، فصفق الحضور لهذا الرد المفحم، ولكن ملحد القصيم أبى عليه خبثه وحقده إلا معاودة الاعتراض وزرع الشكوك التي ليس لها مكان إلا في عقله إن كان له عقل؛ فقال:

إن القرآن مطعون بتواتره وكتب الشيعة ناطقة بذلك، فقال له صديقه: إن مقولة الشيعة هذه، ما قيلت إلا بعد اندثار الصحابة، وقد خرقوا الإجماع ولا اعتداد بمن خالف الإجماع[1]، فأسكت الملحد ولم ينطق ببنت شفه.

الرابع: حصلت بينه وبين الشيخ محمد متولي الشعراوي مناقشة بحضور رئيس الوزراء المصري، وعدد من المثقفين، وتبجح القصيمي وطرح عدداً من الأسئلة الاستفزازية عن وجود الله جلا وعلا، ثم تساءل عما يحصل في الجنة مع زوجات المسلمين طالما أن للرجال الحق في أن يمارسوا الجنس مع عدد غير محدد من النساء، فما كان من الشعراوي إلا أن غادر المجلس بعدما رأى أن آيات الله يستهزأ بها، وأن خصمه ملحد لا يؤمن بالله ولا بالجنة ولا بالنار فلا طائل من نقاشه ولا فائدة من حواره.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥-٢٦.

الخامس: موقف له مع سيد قطب ـ رحمه الله ـ حيث قال:

أهدى إليّ الرجل كتابه «هذي هي الأغلال»، ولم أتمكن من قراءته، حتى قام بزيارتي مع صديق عزيز، وقال لي صديقي: إن حرية الفكر في خطر، وإن مؤلف الأغلال الذي أمامك عندما ألّف كتابه بكل جراءة لقي خصومة ومعارضة شديدة من الرجعيين!! وإنه على وشك المحاكمة التي نهايتها شنقه!

فتحمست عندما قال لي صديقي ما قاله، وتهيأت للذود عنه، ولكن عندما أخذنا بأطراف الحديث بدأت أشم رائحة في حديث القصيمي غير نظيفة، رائحة توحي أن هناك شيئاً ما؛ لأنه يسعى لإقناعي بأن الإنجليز قوم مصلحون، لا مستعمرون، وأن وسائلهم في الشرق أرقى وأكرم من وسائل المسلمين عندما استعمروا الشعوب! وكان يقصد بأنهم أرقى من المسلمين، يقصد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بل تمادى في غيّه وأطنب في ضلاله عندما ألمح أن القرآن أباح التخريب والتمثيل، وبعد انصرافه هرعت إلى كتابه وهالني ما قرأته؛ لقد تحول شعوري إلى اشمئزاز عميق، لقد بان لي أن الرجل ينافق، يطعن الدين طعنة في صميمه، ثم يتوارى ويتحصن في الدين، لقد بان لي أن هذا الرجل يحمل دعوة خبيثة ملتوية ضد التدين،

وأظهر عداءه للإسلام، ثم قال كلاماً طويلاً[١].

واكتفيت بجزء مما قاله مع الاختصار والتصرف[٢].

مقتطفات من أقواله:

كان بودي أن أُنزّه قارئي الكريم من أن يؤذى سمعه وبصره بمقالات هذا الملحد، ولكن لا بد أن يطلع القارئ على بعضها حتى لا يُظن أن القوم ساقتهم عاطفة لتكفيره، أو أنهم يرددون ويتأثرون بدون ما يقرأون، لذا اخترت لك بعضاً من أقواله من بطون كتبه مع العزو للكتاب.

حيث قال:

«من المعلوم أن أوروبا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة، كانت في ذلك الهوان والضعف والعجز الذي نعرفه ونقرأه، فلما أن فرت من إيمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الأخروي! وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هي آلهتها التي وحدتها، وأبت الإشراك بها، صعدت بالحياة»[٣].

(١) انظر: الرد القويم، ص١٥-١٨، وما بعدها باختصار.
(٢) قد سبق ذكر مقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ كاملاً.
(٣) الأغلال، ص٣١٩.

«إن الآلهة والعقائد والمذاهب تصاب بالخمول والفساد والتعفن، ويتراكم التراب والحشرات إذا تقادمت دون تغيير أو تحريك أو تنظيف»[(١)].

«إن المتدينين عجزوا أن يتصوروا إلههم تصوراً يسمو كثيراً على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين، فالله في تقديرهم وتصويرهم - وإن اختلفوا في هذا وتخالفوا كثيراً - لا يعدو أن يكون في أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الأشياء والآخرين، وعلى سائر عبيده ورعاياه بشراً مقتدراً؟!، كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم، ولهذا فإنه - أي الإله - يغضب عندهم ويرضى، وينتقم، ويثيب، ويجازي، ويعامل على مقتضى انفعالاته وعواطفه، ويلجأ إلى المحسوبية وإلى الإعطاء والمنع بناء على الشفاعة، ويتحكم في هذا العالم كله، على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات عنده.

ثم قال: فإذا بلغوا مكانة من الإيمان هبوا يلتمسون رضا هذا الإله على ما تصوروا، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه، وأرصدوا جل قواهم وأوقاتهم وأعمالهم لهذا السبيل، ليدركوا لديه ما يشتهون ويبتغون، فشغلوا بذلك عن سلوك السبيل، وعن محاولة القيام

(١) المرجع السابق، ص٣٠١.

بالأعمال النافعة المجدية؛ لأن تصورهم للأشياء قد أصيب بالفساد، وإذا فسد التصور فسدت الأعمال لا محالة.

وأصبح فشل هؤلاء - يعني المتدينين - كمثل أولئك الزعانف المتملقين المنافقين الكذابين، الذين يحدثنا التاريخ كيف كانوا ينالون رضا ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم، وكيف كانوا ينالون ذهبهم وفضتهم وضِياعهم وجواريهم وكل ما يحبون؛ بالتملق والكذب والنفاق والعبودية والامتداح، وكل تلك المخازي الخلقية التي أثبتتها لنا كتب الأدب والتاريخ»[1].

فانظر - يا رعاك الله - كيف سمى الصلاة والطاعة وكافة أنواع العبادة نفاقاً وتصنعاً، بل شبّه الله بالملوك - تعالى الله عما يقول علوّاً كبيراً -، وشبه الأدعية والأذكار بالمدائح والأشعار التي تقال عند الملوك.

وقال: «العقائد والآلهة والمذاهب هي أحق الأشياء بالتغيير»[2].

وقال: «من الهزل أن الكون أو الإنسان مخلوق بمشيئة إله أو بعدله أو برحمته أو بقدرته أو بذكائه»[3].

---

(١) الأغلال، ص٣٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٢.
(٣) الأغلال، ص٩٠.

تعالى الله عما يقول الزنديق علوّاً كبيراً.

وقال: «فكيف يكون وجود الإله أفضل لنا؟ إن وجوده يعني محاسبتنا، ومراقبتنا، ويعني الثواب والعقاب، ويعني الجنة والنار»[1].

وقال: «إن الأفضل لنا ألا تكون فوقنا قوة هائلة مطلقة مثل قوة الإله تسلبنا الحرية، وتحاسبنا أقصى محاسبة، وتضعنا تحت أقوى رقابة، وتخيفنا بمشيئتها، ثم تحكم علينا بالخلود في الجنة... أو في الجحيم... إن وجود الإله يجعلنا محكوماً علينا أن نعيش عراة ونشعر بأننا عراة...»[2].

وقال: «فهل من الأفضل حقاً للإنسان أن يكون فوقه إله... كيف يكون الأفضل للبشر أن يكون فوقهم طاغية ـ تعالى الله عما يقول علوّاً كبيراً ـ لا حد لقدراته ولغيرته ولغضبه ولحبه لذاته ولبحثه عن المجد الذاتي...»[3].

وقال: «إني أتشاءم بحرارة ومعاناة وإيمان... تشاؤمي نوع من الاحتجاج ضد الكون، وضد الآلهة وضد نفسي... إني أتشاءم لأني لا

---

(١) هذا العالم ما ضميره، ص٩٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٩٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٩٩.

أستطيع أن أكون إلهاً...»[١].

وقال أيضاً: «إن الدعاء والصلاة اتهام لله بليد! إنك إذا دعوت الله، فقد طلبت منه أن يكون أو لا يكون... إنك تطلب منه حينئذ أن يغير سلوكه، ومنطقه وانفعالاته... إنك إذا صليت لله فقد رشوته لتؤثر في أخلاقه، ليفعل لك طبق هواك، فالمؤمنون العابدون قوم يريدون أن يؤثروا في ذات الله، أو يصوغوا سلوكه، لأن الصلاة والدعاء ليستا إهانة لله فقط؛ إنهما أيضاً إفساد للداعي والمصلي، وإنهما تقوية له على الرشوة وعلى نفي القانون والعدالة، والذي يتعلم رشوة الله، وينكر قوانين الأشياء، هل يمكن أن يكون في سلوكه أو تفكيره فاضلاً أو ذكياً؟... إن الذي يصلي لله لا يريد أن يتصدق على الله بصلاته... إذن هو يرشوه، إنه يريد منه أن يغير سلوكه، وإرادته، وأن يفعل ما ليس فاعلاً... أن يفعل إرادة المصلي ثمناً لصلاته»[٢].

وللقصيمي أقوال وآراء أفظع وأقبح مع ما في هذه من فظاعة وقباحة وجرأة، وإلحاد وزندقة وجميع صور الكفر والإلحاد، وقانا الله شره، وثبتنا على دينه»[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص٥٢٨، ٥٤٤، ٥٤٥.

(٢) أيها العقل، ص٣٣.

(٣) من أخبار المتنكسين، (ص ٣٢٤-٣٤٥).

من أخبار المنتكسين
مع
الأسباب والعلاج

تأليف
أبي عبد الإله
صالح بن مقبل العصيمي التميمي

الطبعة الثالثة
١٤٢٧هـ

دار التدمرية
للنشر والتوزيع

صورة غلاف كتاب «من أخبار المنتكسين»

ختاماً: قال الأستاذ أنور الجندي ـ رحمه الله ـ في كتابه «معالم الفكر العربي المعاصر»[(١)]:

الحملة على الأخلاق: في عام ١٩٤٦ أصدر عبدالله القصيمي في القاهرة كتابه «هذه هي الأغلال»، قال فيه: إن السبيل إلى المجد القومي ينحصر في الأخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية، فهي التي تمثل الشعوب وتحلها الذروة، أما الأخلاق الدينية فإن المستعمرين والغاصبين لا يرهبونها، ولا يخشون أصحابها، بل لعلهم يعملون على أن تكون الشعوب التي يريدون افتراسها متدينة مسرفة في دينها.

وقد أثار كتاب القصيمي كثيراً من المساجلات، وكشف عن اتجاه راسخ في الشعوبية والتغريب، وفتح الطريق أمام عديد من الأبحاث تحمل هذا الطابع وتستمد منه روحه ومفاهيمه، هذه المفاهيم التي تهدف أساساً إلى تصوير الإسلام على أنه دين فحسب، وإن الغرب حين تحرر ونهض إنما خالف دينه، فعلينا أن نفعل المثل باعتبار الدين معوق، والروح الدينية سلبية، وإن أمريكا لم تتفوق بسبب إيمانها بالله وبسبب أخلاقها الدينية والروحية، وإنما نالت هذا التفوق بأخلاقها الصناعية والاقتصادية والمادية.

---

(١) ص٢٢٢-٢٢٤.

ولا شك أن هذه الصيحة إنما جاءت في ظل يقظة الفكرة الإسلامية وانبعاثها، فكان لا بد لحركة التغريب من أن تبرز كاتباً له طابع إسلامي لتقاوم به وبفكره النهضة، فلا تحمل عليها بلسان دعاتها، بل بلسان المسلمين أنفسهم، وعندي أن الإسلام ليس دنيا، وأن ما عرفته أوربا عن الدين لا ينطبق على الإسلام الذي هو دين وحضارة وفكر، والذي لم يتفق أنه وقف مرة ضد الفكر أو حركة الحضارة، أو عارض النهضة العلمية، بل على العكس من ذلك؛ كان دائماً قادراً على فتح الطريق أمامها، ولم تكن أخلاق الإسلام معوقة لأهله عن أن ينهضوا ويُسهموا في بناء الحضارة الإنسانية والفكر الإنساني، ويكفي أنهم قدموا للثقافة العالمية النظرة المادية الروحية المزدوجة، المتفاعلة المتكاملة.

وقد كتب «سيد قطب» في الرد على القصيمي: ـ ثم نقل مقال سيد قطب، وقال بعده ـ،:

وجملة القول: إن كتاب «هذي هي الأغلال» حمل على الإسلام وفضائله، وسخر بآدابه وتقاليده في عشرات المواضع:

١ - أنكر أن الأخلاق والدين سبيل المجد والعزة، ودعا إلى استبدالها بالأخلاق التجارية والمادية.

٢- جرّح السلف الصالح، واعتبر الاقتداء بهم جهلاً فاضحاً.

٣- شك في مصدر الحياة، وأكد ثقته في انتصار العلم الحديث في خلق الإنسان الصناعي.

٤- روّج للاستعمار، وقال إنه حافز إلى العزة والحياة والقوة.

٥- طعن في الأنبياء واتهمهم بالعجز، وطعن في صحة كثير من الأحاديث النبوية.

٦- دعا إلى الخروج من الأديان، وقال: إن أوربا لم تستطع أن تكون إلا بعد أن خرجت من إيمانها، وردد قول أحد الفلاسفة الإنجليز بأن أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد أن أعتقت نفسها من رق الإيمان بالله.

٧- ردد قول الفلاسفة الماديين من أن الإيمان وحده كان نكبة على البشر، وأن البشرية لم تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا في عهد الوثنية.

٨- دعا إلى الإباحة والتحلل، وقال: إن جميع الأفذاذ في الشعر والأدب كانوا موصومين بالانحلال.

٩- أكد أن الأديان هي سبب انحطاط كل من دان بها، وأن الإسلام هو الذي أخر أهله عن ملاحقة ركب الحضارة.

١٠- قال: إنه ينبغي لمواجهة الحالة الحاضرة في العالم العربي: السير مع المدنية الجديدة، والتحرر من الالتزامات التي تفرضها الأديان على البشر، وأن الإسلام كان مصدر تأخر المسلمين عن مسايرة الأمم المتمدينة.

ولا شك كان ذكر هذه الخطوط العامة كلها يُمثل تمثيلاً صحيحاً ما رسمه المبشرون ودعاة التغريب من مخطط؛ لهدم أسس الفكر العربي الإسلامي».

أسأل الله أن يُثبت قلوبنا على دينه، وأن يتوفانا مسلمين، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**